نبيل راغب



أنور السادات

رائدًا للتأصيل الفكرى

دار المعارف بمصر

أنور السادات

رائداً للتأصيل الفكري

أنور السادات

رائد التأصيل الفكري

نبيل راغب

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

الإهداء

إلى أبطال وأجيال السادس من أكتوبر العظيم
أتشرف بإهداء هذه الدراسة

نبيل راغب

شكر وتقدير

من المعروف أنه لم ولن يوجد الكتاب الذى يستطيع أن يقوم باحث بتأليفه بمفرده . وإنما يعتمد الباحث فى بنائه الجديد على الأسس التى وضعها من سبقه فى نفس المضمار ، وعلى التوجيهات والإرشادات التى يتفضل بها أساتذته ، وعلى المساعدات والخدمات التى يقدمها الزملاء والأصدقاء .

ولهذا تعتبر هذه الدراسة ثمرة مجهودات كثيرة تضاف إلى المجهود الذى قام به الباحث الذى يود أن يقدم أعمق الشكر والتقدير لكل من ساهم فى إقامة هذا البناء الجديد ، وبصفة خاصة الأستاذ حسن إمام عمر الذى قدم كل مساعدة ممكنة فيما يختص بالإنجازات الأدبية والفنية للرئيس السادات ، وأيضاً الدكتور محمد سليمان الذى حرص على توفير كل خطب الرئيس وأحاديثه بين يدى الباحث ، والمهندس داود أنطون داود الذى ساهم فى تزويد الباحث بالنظريات والتطبيقات العلمية والتكنولوجية الحديثة . كذلك لا ينسى الباحث أن يعترف بجميل الأستاذ فوميل لبيب ، والدكتور رشاد رشدى ، والأستاذ فوزى عبد الحافظ ، وذلك للمساعدات القيمة التى قدموها بكل حب وحماس .

كذلك يشكر الباحث موظفى قسم الوثائق والمعلومات بدار التحرير لتوفيرهم كل أعداد جريدة « الجمهورية » ومجلة « التحرير » التى نشرت فيها كل مقالات ودراسات الرئيس السادات ، وأيضاً يذكر بالتقدير موظفى دار الكتب والوثائق وموظفى مكتبة جامعة القاهرة لتمكينه من استعارة كتب الرئيس السادات ومؤلفاته . وبالإضافة إلى ذلك فقد قام أمناء مكتبة المتحف البريطانى بلندن بجهد مشكور فى تقديم كل المراجع التى تعالج النظريات السياسية والمفاهيم الفكرية والاتجاهات الاجتماعية التى تتصل بمضمون الدراسة ، وذلك أثناء وجود الباحث فى إنجلترا .

وأخيراً لا ينسى الباحث الدور المخلص والقيم الذى قامت به زوجته ، فقد ساندته وساعدته فى كل سطر خطه فى هذا الكتاب ، وفى كل ليلة سهرها من أجل إنجازه على مدى السنوات الثلاث الماضية .

إلى كل هؤلاء أقدم كل الحب والتقدير والوفاء ، لأنه لولا مساعداتهم القيمة لما كان فى الإمكان أن يخرج هذا الكتاب إلى حيز الوجود بهذه الصورة .

الجيزة — أغسطس ١٩٧٤ نبيل راغب

مضمون الدراسة

منهج الدراسة

قد يتعجب القارئ ، الذى قرأ لى من قبل كتباً فى الأدب والفن والنقد ، كيف لناقد مثلى يعمل فى تدريس الأدب الإنجليزى بالجامعة أن يدس أنفه فى مجال الدراسات السياسية الذى لا يرتبط بصميم تخصصه ولكنى أبادر فأطمئنه إلى أننى لا أدعى القيام بدور الكاتب السياسى ، وهذا الكتاب ليس كتابا سياسيا ، ولكنه كتاب ينهض على الفكر الإنسانى الرحب الذى قد تشكل السياسة جزءاً صغيراً منه ، ولكنها بالطبع ليست كل شىء ، بل ليست بالمحور الذى تدور حوله الدراسة . فالمحور هو فكر الرئيس أنور السادات ونظرته إلى المجتمع والحياة والكون . وهذه النظرة بل هذه الفلسفة التى تتميز أول ما تتميز بالتأصيل الفكرى ، تبلور العلاقة العضوية بين الأصالة والمعاصرة . فالتأصيل الفكرى لا يعنى هنا مجرد إحياء التراث القديم ، بل يعنى فى الوقت ذاته ربطه بعجلة الحضارة المعاصرة بحيث يتخلص من السلبيات التى تعوق تقدمه وتطوره ، ويكتسب الإيجابيات التى تدفعه إلى الأمام حتى يواكب المسيرة الحضارية للعصر .

فالتأصيل الفكرى يهدف أساساً إلى الحفاظ على الملامح المميزة والمقومات الرئيسية للشخصية القومية بكل جوانبها المصرية والعربية على حد سواء ، وفى نفس الوقت يتخذ من هذه الشخصية المميزة قاعدة صلبة لينطلق منها إلى آفاق المستقبل ، ويتخذ منها أسلوباً أيضاً للتعامل الدولى بحيث لا نفقد هويتنا فى خضم الأحداث السياسية والاتجاهات الفكرية والتيارات الاجتماعية والمفاهيم الاقتصادية ، فهذه كلها ظواهر لجوهر واحد يتجسد فى شخصية الأمة . والأمة التى تفقد شخصيتها ، تفقد بالتالى احترام العالم لها ، وقدرتها على توجيه دفة الأحداث لصالحها ، والأسلوب الذى يمكن الأمم الأخرى من التعامل معها على أساس من منهج علمى محدد . ومن هنا كان إصرار الرئيس السادات على ما أسماه بالصمود الفكرى ، أى الاحتفاظ برؤوسنا هادئة رغم موجات الاستفزاز ، والثقة فى حساباتنا رغم حملات التشويش ، والتمسك بمبادئنا عالية مهما هبت علينا العواصف وهى كثيرة ومتتابعة .

ولعل ريادة الرئيس السادات للتأصيل الفكرى قد تمثلت عمليا فى كل الأساليب الاستراتيجية التى اتبعها ، والقرارات المصيرية التى اتخذها ، وعلى الأخص قرار الحرب الذى يبلغ ذروة الخطورة فى حياة أية أمة وفى حساب أية قيادة . وكان منهج التأصيل الفكرى هو الإطار أو السياج المتين المرن الذى استطاع أن يتصدى لكل معارك الحرب النفسية واستعدادات العدو الضخمة ومخاطر التأثر والتأثير الدوليين ، وكان أيضاً المنطلق الذى صدر منه قرار الحرب التاريخى على حد قول الزعيم فى خطابه فى ٢٤ يوليو ١٩٧٤ :

« لقد صدر القرار عن إرادة وطنية وقومية خالصة وهو معنى أحرص دائما على تأكيده وتكراره أهم ما يجب أن نحرص عليه دائما فى الحاضر والمستقبل ، ولأن تأكيد الإرادة الوطنية كان المنطلق الأساسى لحركتنا منذ بدأنا الإعداد لثورة ٢٣ يوليو ولأن معظم ما تعرضنا له طوال ٢٢ سنة من تحديات كان مرجعه حرصنا على حرية هذه الإرادة الوطنية لأنها إذا رسخت فى ضمير قيادتنا وقواعدنا اليوم وغداً فهى الضمان الوحيد للمستقبل » .

وأى باحث يتصدى لدراسة معنى القرارات الأساسية الكبرى التى اتخذها القائد ، سوف يجد أن المنطلق الذى يربط بينها جميعاً هو : تحرير الإرادة الوطنية المصرية وجعل القرارات المصيرية كلها مصرية ١٠٠ ٪ ، والحرص على مقومات الشخصية المصرية من خلال تجربة اجتماعية مصرية لم تقصر فى الاستفادة من شتى التجارب التى تصلح

لتربة هذا الوطن بصفة خاصة ، وأيضاً الرفض المطلق لتجميد هذه التجربة الحية فى أى قوالب صماء سواء كانت من صنعنا أو من صنع غيرنا ، ذلك لأن التأصيل الفكرى يعتمد أساساً على التعمق والاجتهاد والاطلاع أيضاً على تجارب الغير دون عقد .

والتأصيل الفكرى منهج علمى شامل يربط الماضى بالحاضر ثم يعمل بكل إمكانياته على استشراف آفاق المستقبل ، أى أنه يجمع بين التفكير والتجديد وتصحيح السلبيات وإدراك المتغيرات وحشد الإيجابيات وتنقية التراث من كل المعوقات والرواسب والشوائب . ويؤكد الرئيس السادات أنه إذا كانت المظاهر المادية للحضارة المصرية العريقة قد اندثرت فإن جذورها مازالت متأصلة فى ضمير أبسط الناس ، ومن هنا يتحتم تعريضها لهواء العصر وشمس بيئتنا . فشجرة الحضارة المصرية الأصيلة لن تنمو بثمار تضاهى متطلبات العصر إلا إذا كانت جذورها راسخة فى تربة الوطن . وهذه المتطلبات لا يمكن أن تعتمد فى تحقيقها على الإغراءات السهلة التى سرعان ما تتبدد آثارها ولا يبقى منها لشعبنا وخصوصاً لأجيالنا المقبلة أى شىء . ولذلك فالتأصيل الفكرى هو الضمان الذى يمكننا من اجتياز مرحلة البناء الصعب ، ذلك لأنه ليس مجرد بناء اقتصادى مادى فحسب ، إنه بناء فكرى ونفسى وروحى وحضارى أيضاً . وكما يوضح الزعيم فإن حرصنا على توفير الموارد المادية التى تمكننا من البناء يجب ألا يطغى على اهتمامنا بتوفير المصادر الفكرية والعلمية التى تمكننا من الارتقاء بالبناء وإتقانه . وهذه المصادر ليست التيارات الوافدة أو المفاهيم المستوردة أو الأفكار الجاهزة ولكنها المناهج العلمية الحديثة التى تساعدنا على استغلال طاقتنا الوطنية وإمكانياتنا القومية على خير وجه . ولذلك يؤكد الزعيم فى خطابه فى ٢٧ يوليو ١٩٧٤ :

« إن هذا الصمود الفكرى فى تقديرى هو سلاح من أهم الأسلحة التى علينا أن نتسلح بها فى هذه المرحلة بالذات فالسلاح الذى يزرع اليقين ويقوى الثقة بالنفس لا يقل أهمية عن السلاح الذى يطلق النار وحين أقول بالصمود الفكرى لا ينصرف ذهنى إلى الجمود فالعكس تماماً هو الصحيح إن الجمود الفكرى نوع من الرجعية والتخلف والتحجر وهو يؤدى بصاحبه إلى الخروج عن منطق العصر ومن يختار لنفسه أن يبقى قاعداً جامداً والعالم يهرول إلى الأمام هو فى الواقع يحكم على نفسه بانعدام القدرة على التأثير على مجرى الحوادث والمساهمة فيها ، وخدمة شعبه وأمته من خلالها ولكننى أقول مع ذلك إننا ونحن فى عصر حافل بالمتغيرات : المتغيرات على كل المستويات السياسية والدولية والاقتصادية والإجتماعية والثقافية والأخلاقية فإننا رغم ضرورة الدراية المستمرة بكل هذا إلا أنه من المهم أن يكون لنا الأساس الواضح الذى يستند إليه العمود الفقرى القومى الذى ينهض بالجسد كله مهما تحركت فى هذا الجسد أطرافه وأينما سارت به قدماه » .

ذلك هو العمود الفقرى الذى يربط هذه الدراسة من أول فقرة إلى آخر فقرة فيها ، وذلك هو المحور الذى يدور حوله فكر أنور السادات وفلسفته منذ بدأ التفكير والقراءة فى صباه وشبابه المبكر ومنذ بدأ الكتابة والتأليف ، وذلك عندما كتب مذكراته فى السجن عام ١٩٤٦ حتى أصدر « ورقة أكتوبر » عام ١٩٧٤ . فالخط الفكرى عند السادات يمتاز بالاتساق والترابط والتناغم ولم يتغير منذ البداية ، ومن المستحيل العثور على نبرة تتناقض مع نبرة أخرى . وبالطبع فالاتساق الفكرى لا يعنى الجمود ، ولكنه يعنى النظرة الموضوعية التحليلية التى تضع دائماً الأمور فى نصابها بصرف النظر عن الظروف الطارئة أو الضغوط المؤقتة . أى أن الاتساق الفكرى هو البوصلة التى ساعدت الزعيم على قيادة السفينة وسط بحار الأهوال ومحيطات العواصف ودوامات الأمواج ، صحيح أن مؤشر البوصلة لا يغير اتجاهه أبدا ، ومع ذلك فهو يقود السفينة إلى بر الأمان . ولأن السفينة لا يمكن أن تسير بدون القبطان ، ولأن القبطان لا يمكن أن يهجر السفينة ، فهذه الدراسة ليست دراسة عن السادات فقط ولكنها دراسة عن مصر أيضاً ، ولذلك سيرى القارئ فكر السادات

من خلال مصر ، والشخصية المصرية من خلال السادات .

ولم تحرص هذه الدراسة على بلورة العلاقة العضوية بين فكر السادات وتراث مصر فحسب ، بل أدركت أن فكره يمتد ليلتحم بتراث الحضارة العربية العريقة ثم ينطلق من هذه الأصالة القومية إلى مجال المعايشة المعاصرة للحضارة العالمية بكل ما تحمله من إيجابيات فكرية وإنجازات علمية وابتكارات تكنولوجية . ففلسفة التأصيل الفكرى عند السادات فلسفة إنسانية حضارية شاملة تنظر إلى الإنسان فى جوهره الأصيل وليس إلى مظهره المؤقت ، ولذلك فهى فلسفة أشمل من أن تحصر تحت بنود التصنيفات المتعسفة والتقسيمات الضيقة التى تقسم الفكر الإنسانى إلى يمين أو يسار ، إلى تقدمية أو رجعية . . إلخ من هذه التصنيفات المستوردة التى تحيل الإنسان إلى مجرد لافتة لا تحتوى على أى مفهوم نابع من الإنسان نفسه . لأنه فى عصرنا هذا لا يختلف اثنان حول مفاهيم الحضارة الإنسانية وما تشمله من تطور وتقدم ، فالمهم هو العمل الجاد والمثمر والملموس من أجلها وليس مجرد الكلام المقنع بقناع الحذلقة الفلسفية والسفسطة العقائدية . ومن هنا كان إصرار السادات على أن زمن الأقوال قد انتهى ولم يعد هناك أى معيار سوى الأعمال المثمرة الملموسة . ولم تعد المسألة مسألة الانتماء إلى اليمين أو اليسار ولكنها أصبحت مسألة من يعمل أو لا يعمل من أجل التعمير الحضارى لهذه الأمة .

وقد أكثرت هذه الدراسة من المقتطفات الواردة من كتابات وأقوال السادات ، سواء كانت من باب المذكرات أو الخواطر أو الكتب أو المقالات أو الدراسات أو الأبحاث أو الخطب أو البيانات أو الأحاديث أو الكلمات . . إلخ . وذلك حتى لا تمثل هذه الدراسة حاجزاً بين القارئ وبين الاستيعاب المباشر لفكر السادات وخاصة الجزء الذى يتمثل فى المذكرات والمقالات والكتب والدراسات والأبحاث التى كتبت منذ حوالى ربع قرن والتى لم يتسن للجيل المعاصر أن يطلع عليها بعد . وأيضاً بالنسبة للأجيال المقبلة التى تميل إلى التعرف بالتاريخ من خلال الكتب التى كتبت أثناء هذه الحقبة الحاسمة والمصيرية من تاريخنا الحديث ، أكثر من ميلها إلى دراسة التاريخ ذاته بأحداثه ومواقفه وقراراته واتفاقياته ومعاهداته التى لا تتوفر إلا للباحث الأكاديمى المتخصص الذى يحاول بدوره استيعابها وبلورتها فى دراسات وكتب يقدمها لهذه الأجيال . ولذلك فهذه الدراسة موجهة إلى الأجيال المقبلة من أمتنا بقدر ما هى موجهة إلى جيلنا المعاصر .

وسيلاحظ القارئ أن التاريخ سيسجل للسادات دوره كرائد فكرى بنفس الدرجة التى سيسجل بها دوره كقائد سياسى . فإن ما قدمه من فلسفة للتأصيل الفكرى يضيف الكثير إلى البناء الذى بدأه رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأحمد لطفى السيد وغيرهم من رواد الفكر الحديث فى الأمة العربية . ورغم أن القرارات السياسية المصرية كانت تجسيدا لفكر السادات وفلسفته إلا أن خطورتها تكاد تشغل الناس عن الخط الفكرى المتسق الذى يربطها ببعضها البعض برباط عضوى . ولهذا فقد هدفت هذه الدراسة إلى تزويد القارئ بالضوء الهادئ التحليلى الموضوعى المتأنى لكى يتتبع الخط الفكرى الذى يربط بين الجوهر الفكرى والمظهر السياسى . فليست السياسة كل شىء فى فكر القائد ولكنها مجرد الجانب التطبيقى لفلسفته الشاملة ببعديها النظرى والعملى ، والتى تتمثل عناصرها فى المنهج العلمى ، ومفهوم الإيمان ، والضرورة الأخلاقية ، والممارسة الديمقراطية . والتعمير الحضارى ، والوعى بالتاريخ ، والشخصية المصرية ، وروح القرية ، والكيان الأسرى ، وقضية الشباب ، والمرأة الجديدة ، ومعنى الفن .

وهذه العناصر تمثل بدورها فصول هذه الدراسة التى ينهض عليها بناؤها العضوى ، وهو عضوى لأن كل فصل يؤدى بالضرورة إلى الذى يليه فهذه الفصول عبارة عن تنويعات جانبية على الخط الرئيسى المتمثل فى فلسفة التأصيل الفكرى عند أنور السادات ، وهى الفلسفة التى تبلور العلاقة العضوية بين الأصالة القومية والمعاصرة العالمية . فعلى سبيل

المثال سيجد القارئ أن المنهج العلمي هو الامتداد الحى لمفهوم الإيمان وليس نقيضه كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة . وقس على ذلك العلاقة العضوية بين الضرورة الأخلاقية والممارسة الديمقراطية ، فالحرية الشخصية معناها المسئولية الأخلاقية وهذا بدوره مرتبط بالتعمير الحضارى من خلال الوعى بالتاريخ . ثم تأتى الشخصية المصرية لتحتوى كل هذا بأبعادها المتمثلة فى روح القرية والكيان الأسرى وقضية الشباب والمرأة الجديدة . بعد ذلك يبرز معنى الفن ليضيف اللمسة الأخيرة لكل العناصر السابقة . هكذا يؤثر كل فصل فى الفصول الأخرى ويتأثر بها ، إذ أن تأثره وتأثيره لا يقتصران على الفصل السابق له أو الفصل الذى يليه .

وفى نهاية الدراسة سيكتشف القارئ النظرية المتكاملة التى تحتوى فكر الرائد فى وحدة عضوية متفاعلة وحية ، وهى النظرية الفكرية التى نهض عليها بناء الدراسة واتخذ منها هيكله الأساسى . ولكنها نظرية ذات أبعاد خصبة وأعماق متعددة وأغوار عميقة بحيث يتعذر على دراسة واحدة أن تشمل كل هذه الجوانب ، ولذلك إذا شعر القارئ بأن هذه الدراسة قد قصرت فى بعض الجوانب ، فعذرها فى ذلك خصوبة وغزارة وشمولية الموضوع الذى تناولته بالبحث والتحليل . وأملنا أن تتبع هذه الدراسة دراسات أخرى بأقلام مفكرينا المعاصرين حتى تسد النقص الذى قد تكون هذه الدراسة قد عجزت عن تلافيه .

والآن تبدأ سياحة القارئ الممتعة فى أرجاء العالم الفكرى عند أنور السادات ، وستكون هذه الدراسة بمثابة الدليل فقط فى هذه السياحة ، الدليل الذى يرشد ويوضح أما الهضم والتذوق فمن مهمة القارئ فى هذه الرحلة الفكرية الممتدة عبر الماضى والحاضر والمستقبل .

الفصل الأول

المنهج العلمى

إن من يتوافر على دراسة وتحليل فكر أنور السادات ومؤلفاته يتضح له أن المنهج العلمى هو الخط المميز لكل أفكاره ودراساته التى تبلورت حتى قبل التحاقه بالمدرسة الحربية فى ٦ أكتوبر عام ١٩٣٦ . فالعوامل والخصائص التى ميزت فكره وفلسفته تعد بمثابة نسيج عضوى يمدجذوره فى صميم التربة المصرية التى تمثلت فى قرية ميت أبو الكوم حيث ولد فى ٢٥ ديسمبر عام ١٩١٨ ثم يمتد هذا النسيج العضوى ليغطى آفاق المستقبل حتى بعد ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ . وهو نسيج عضوى لأنه يمتاز بالتآلف والتناسق بعيدا عن التطورات الطارئة والتغيرات المفاجئة . وتلك أولى خصائص المنهج العلمى الذى يبعد كل البعد عن التناقضات التى تعوق تطوره المنطقى وتفقده ملامحه المميزة . وهذا المنهج هو الذى يكثف فكر السادات وفلسفته ليس فقط فى نظرية سياسية بل فى نظرية فكرية شاملة تحتوى على كل جوانب الحياة من سياسة واقتصاد واجتماع وثقافة وتعليم وحضارة .

والمنهج العلمى عند السادات يحتم عدم الفصل بين الأقوال والأعمال ، وهذا الاتجاه قد تأكد فى كتابه « معنى الاتحاد القومى » الذى صدر مع البدايات الأولى للثورة عندما يقول ص ٤ :

« فنحن نعمل بوحى فطرى تمليه علينا غريزتنا فى طلب الحرية والاستقلال والعيش فى سلام ، وكثيراً ما نعمل أولاً ثم نفلسف بعد ذلك ونفكر . .

نحن الآن فى مرحلة العمل ، فى مرحلة الكفاح الغريزى من أجل الحرية والبقاء ، ولهذا فأعمالنا تعتبر فى الوقت نفسه فكراً وفلسفة ، أو تعبر فى الوقت نفسه عن فكر وعن فلسفة » .

وكأن السادات أراد أن يوجه هذا التنبيه المبكر إلى الأمة العربية لكى تدرك أن صوت الأعمال مهما كان خافتاً فإنه لابد وأن يعلو على الأقوال الرنانة والألفاظ الطنانة . وأن أفظع مأساة يمكن أن تتردى فيها أمة هى أن تقول شيئاً بينما تفعل شيئاً آخر . وهذا الخط العلمى فى التفكير يمتد حتى عام ١٩٧٤ لكى يبرز فى « ورقة أكتوبر » عندما يقول السادات :

« إن أهم ما طرأ على منطق التعليم والبحث فى العالم هو زوال المسافة بين الفكر والعمل . وبالتالى لم يعد التعليم مسألة مقررات دراسية جامدة تقف مهمة التعليم عند استيعاب الطالب لها . ولكن أصبح التعليم مرتبطاً ارتباطاً عضوياً بحركة المجتمع ، ومتطلباته .

ومعنى ذلك أن التعليم والتثقيف العام صار لهما هدفان متلازمان :

الأول : هو إيجاد الفرد المتعلم المستنير ، بحيث يكون أكثر فهماً واتساقاً مع مجتمعه وعصره ، وأكثر قدره على استيعاب ثمار المعرفة الإنسانية والاستمتاع بها ، وأكثر فهماً للقضايا العامة فى بلاده وفى محيطه وبيئته التى يعيش فيها .

والثانى : هو تزويده بخبرة متقدمة محددة ، تمكنه من القيام بالدور الذى يتناسب مع هذه الخبرة فى شتى مواقع العمل والإنتاج فى بلاده » .

وعلى هذا فإن المنهج العلمى لا يعنى سوى تطبيق العلم على العمل ، ولا شك فإن استمرار العلاقة العضوية بين العلم والعمل هو أكبر ضمان لاطراد التقدم فى شتى المجالات . فالعلم الحديث لا يعنى التعقيد الأكاديمى الذى أغرم

به العلماء التقليديون ، وهو تعقيد وضع الكثير من الحواجز بين المعاهد العلمية والحياة اليومية وأوهم الكثيرين أن طبيعة الدراسة العلمية هى طبيعة معقدة لا يسهل عليهم هضمها أو استيعابها . وأدى هذا بدوره إلى نسيان حقيقة بسيطة ولكنها جوهرية وهى أن العلم الإنسانى كله قد بدأ بملاحظة الحياة المعاشة فى كل ظواهرها المتغيرة ، ثم تقننت هذه الملاحظة فى نظريات ومفاهيم محددة . ولكن بسبب انفصال العلم عن العمل فإننا نردد فى بعض الأحيان من المفاهيم ما لاندرك كل أبعاده إدراكاً علمياً وموضوعياً . وفى كتابه « معنى الاتحاد القومى » يوضح السادات هذا القصور الفكرى الذى يجب أن نتخلص منه فيقول :

« تحيا معنا الآن فى لحظتنا التاريخية المجيدة الراهنة كلمات نتداولها ببساطة ، ونعبر بها عن أشياء كثيرة تدور فى خواطرنا ولكننا قد لا نستطيع تحديد كنهها أو الإحاطة بها إحاطة تفصيلية .

فكلمة القومّية العربية مثلا ، إن معناها الظاهرى واضح وبسيط ولا يحتاج إلى إعمال فكر أو بحث تاريخ ، ولكننا نقولها ونحن لا نعنى ذلك المعنى البسيط فقط ، إنما نحن نحاول أن نعبر بكلمة القومية العربية عن أشياء ومعانٍ ومدلولات كثيرة ندركها بوجداننا ، ولكننا لم نستطع بعد أن نحددها التحديد العلمى الواضح ، ولهذا فمجال البحث فى مدلول كلمة القومية العربية وأبعادها فى حاجة إلى دراسات ومؤتمرات وكتب كثيرة قبل أن نجرؤ على القول أننا قد أحطنا بها إحاطة كاملة » .

ومن الواضح أنه لو اتبعنا المنهج العلمى الذى نادى به السادات فى الخمسينيات لكان من الممكن تفادى النكسات التى تعرضت لها الأمة العربية فى الستينيات وبلغت ذروتها فى هزيمة ١٩٦٧ . فالمنهج العلمى هو الأداة الحاسمة التى تجنبنا الدخول فى متاهات وطرق جانبية تشتت الانتباه وتضيع الهدف وتعتم الرؤية . والسياسة بالذات من العلوم الحديثة الحافلة بهذه المتاهات التى يتعرض لها العاملون بها ، فتعقيدات العلم التقليدى قد تغرى الدارس بالجرى وراء التفاصيل الثانوية وترك جوهر القضية دون أن يتناوله بالمعالجة . ولذلك يجب على المشتغل بالسياسة أن يمتاز بوضوح الفكر قبل أن يتبحر فى تفاصيلها وتفريعاتها . وخاصة أن السياسة من العلوم التى تحتاج إلى تطبيق مستمر على الواقع ، وهو واقع قد يتغير من يوم إلى آخر ، بل من ساعة إلى أخرى . والسياسى الذى يعتمد فى حكمه وتقييمه للأمور على مقاييس ثابتة لابد سيجد نفسه عاجزاً عن استيعاب المتغيرات المتلاحقة والمتشابكة للمشكلات الراهنة . وهذا يؤكد أن العلم الذى يعجز عن ملاحقة تيار الحياة لابد أن يوضع فى المتحف ، لأن الحياة تفرض نفسها دائماً على العلم وليس العكس . وما العلم إلا محاولة منهجية لفهم الحياة وإدراك أبعادها . وقد أوضح السادات هذا المفهوم فى كتابه « قصة الثورة كاملة » عندما قدم تعريفاً منهجياً لمفهوم السياسة ص ١٠ :

« ما هى السياسة ؟ هل هى علم يدرس ، مثل الميكانيكيا ، أو مثل الطب والكهرباء ، فينبغ فيها الأذكياء ، ويتبحر فيها ذوو المواهب ويمارسها أصحاب الكفاءات ويعرف أسرارها خريجو المعاهد التى تدرس فيها السياسة كما يدرس الطب والكهرباء ؟

ولكى نناقش المسألة ببساطة أكثر أقول : هل السياسة مهنة أو حرفة يمارسها المرء ، مثلما يمارس أى عمل آخر ، تخصص فيه وفهم قواعده ؟

إذا قال لك أحدهم إن فلاناً هذا سياسى داهية ، وألمعى لا يشق له غبار ، فلا تستمع على الإطلاق لهذا الكلام ، لأن السياسة ليست حرفة يجيدها إنسان ويصبح عالماً بخباياها ، بينما يفشل فيها آخر !

صحيح أنه توجد فى كل بلاد الدنيا معاهد تدرس فيها السياسة وعلوم السياسة ، لكن تلك المعاهد لا يتخرج منها ساسة على الإطلاق . . بل يتخرج منها موظفون يحدد لهم العمل الذى يقومون به ويظل عملهم ثابتا لا يتغير ،

بينما العالم من حولهم يدبر شئونه ويغير من نظمه .

فمن هم الساسة الحقيقيون ؟

إنهم الشعب . . !

فالسياسة هى الحاجة . . والشعور بالحاجة هو الذى يدفع المرء إلى الكفاح من أجل تحقيق حاجاته . . هنا تصبح المسألة سياسة ! » .

بهذا الوضوح الفكرى يعرف السادات السياسة بعيداً عن التعقيدات الأكاديمية والسفسطة النظرية . فالمنهج العلمى يحتم الموضوعية ، أى تثبيت البحث على الجوانب المتعددة للموضوع المطروح . ويذكر لنا العالم الفرنسى جوزيف لالاند أننا نطلق إصطلاح « المنهج العلمى » على مجموعة من المعارف والأبحاث التى وصلت إلى درجة كافية من الوحدة ، والضبط والشمول ، بحيث تفضى إلى نتائج متناسقة ومتمشية مع البدايات الأولى . فلا تتدخل فى ذلك أذواق الدارسين ومصالحهم الشخصية . إنما هنالك ثمة موضوعية خالصة تؤيدها مناهج محددة للتحقق من صحتها . والسياسة الناجحة تعتمد على هذه الموضوعية العلمية . صحيح أنها قد تعتمد فى بعض الأحيان على مناهج محددة ، ولكن هذه المناهج قابلة للتغيير إذا حتمت المشكلات الراهنة مثل هذا التغيير . أى أن السياسة علم وفن فى نفس الوقت ، أونشاط فكرى ينهض على جانبين : أحدهما علمى والآخر تطبيقى .

والعلاقة العضوية بين الجانبين لا توجد فقط فى علم السياسة بل يسهل تتبعها فى العلوم التجريبية الأخرى ، فبين العلم والتكنولوجيا ارتباط وثيق ، فالتكنولوجيا تعتمد على العلم ولا تعدو أن تكون تطبيقاً له . بل إن العلم نشأ أول ما نشأ من النشاط التكنولوجى ، وانبثقت أصوله من القواعد العملية . وليس من شك فى أن الصعوبات التى تواجه فى التطبيقات هى فرص لتحقيق التقدم العلمى . وقد قيل إن معظم مكتشفات لويس باستير الهامة يرجع الفضل فيها إلى المشكلات التطبيقية التى واجهته . وعلى هذا يقول السادات فى نهاية الباب الثانى من « ورقة أكتوبر » :

« إننا نرفض دعاوى الجمود باسم التمسك بالمبادئ . .فنحن الذين صنعنا مبادئنا ونحن القادرون على تطبيقها التطبيق المناسب للظروف الجديدة ، ولكننا نرفض بنفس القوة الدعوة إلى التخلى عن المبادئ التى ارتضاها شعبنا بحجة تغير الظروف . فالمبادئ الأساسية لا تتغير بتغير الظروف وإلا لما كانت ترقى لمستوى المبادئ ، وإنما الذى يجب أن يتغير هو التطبيق » .

والعلم الحديث لا ينى عن تركيز الانتباه وحصر العناية فى تطبيقات العلم ، فهو لا يعترف أن غايته ينبغى دائماً أن تكون المعرفة لذاتها . فالغاية النظرية والغاية العملية للعلم غايتان متلازمتان متكاملتان . ولذلك لا يجمل بنا أن نناقض بين المعرفة التطبيقية والمعرفة العلمية ، بحيث نقول – كما قال القدماء – إن المعرفة التطبيقية تنصب على المحسوس وهدفها العمل ، بينما المعرفة العلمية تبعد عن كل اهتمام عملى تطبيقى ، وتبغى إدراك الحقيقة على مستوى الأفكار الخالصة المجردة . فى العلم الحديث لا تنفصل النظرية عن التطبيق . ومن ثم فليس بينهما اختلاف فى الطبيعة ، ففى إحداهما كما فى الأخرى ، يبدأ الإنسان من الإحساسات ، ويكتشف بين الكيفيات التى يدركها علاقات ثابتة أوقوانين ، وتتيح له هذه القوانين بالتالى أن يمارس نشاطه العملى .

ومن الواضح أن الملاحظة والفروض والبراهين ، التى يعتمد عليها المنهج العلمى ليست بالخطوات الجديدة على الفكر الإنسانى . ولكن بينما تستخدم هذه الخطوات فى معظم الأحيان بطريقة تلقائية ، فإن المنهج العلمى يقوم بتنظيمها وتنسيقها ولا يعتمد عليها عفواً ، بل يقصد إليها قصداً ، وتطبق بغاية الدقة والانتباه والحيطة . ولقد نوه رينيه ديكارت بأهمية المنهج العلمى وضرورته ، فليس يكفى أن يكون لدينا عقل سليم ، بل ينبغى أن نستخدمه استخداماً

سلبياً . وإذا كان ثمة اختلاف بين الناس فى مستوى الذكاء ، فلا يرجع هذا إلى تفاوت فى ملكاتهم الطبيعية ، وإنما إلى اختلاف المناهج التى يتبعونها .

ولكل علم منهجه الخاص به ، أى لكل علم القواعد والعمليات المرتبطة بطبيعته ، والتى تتيح له أن يحصل على المعرفة الصحيحة فى طريق بحثه عن الحقيقة . ومن الملاحظ أنه أياً كان المنهج المتبع ، فإن العقل يستبدل بالمعارف المختلطة التى تزوده بها التجربة ، مبادئ دقيقة مؤلفة من عناصر محددة وواضحة . إن العقل يحلل الواقع إلى عناصر يمكنه بفضلها أن يعيد تأليفه . فالعمليتان الجوهريتان لكل علم هما التحليل والتأليف . وقد قيل إن كل معرفة هى تحليل بين تأليفين : التأليف الأول هو بمثابة ضوء يسطع على الكل فيوضحه ، والتأليف النهائى هو الدقة والتحدد والتميز .

ولكن العقل الموضوعى لا يمكن أن يتحول إلى أداة باردة لا تحس ولا تشعر ، فالنفس البشرية قد جبلت من عقل وعاطفة . وعلى العقل البشرى أن يتحكم فى العاطفة ويحيلها إلى طاقة دافعة وبناءة ، وكلما ازداد تحكم العقل كان هذا إيذاناً ببلوغ الإنسان أرقى مراتب الموضوعية . ورغم أن الشعب المصرى معروف بعواطفه الجياشة وانفعالاته الصاخبة إلا أنه قادر على تحويل هذه العواطف والانفعالات إلى طاقة عاقلة ومنطقية فى أوقات المحن والأزمات ، وهذا ما عناه السادات فى خطابه أمام مجلس الأمة فى ٧ أكتوبر ١٩٧٠ بعد وفاة عبد الناصر عندما قال :

« إن الأيام الماضية ، فى حياتنا كانت أيام حزن عظيم ، ولكن هذه الأمة الخالدة استطاعت بصمودها الفذ أن تحول مشاعر حزنها العظيم إلى طاقة قوة عظيمة ، فخرجت من كل ما عانت بأسرع مما قدر أحد ، وقررت وصممت وحسمت » .

هذا هو المنهج العلمى الكامن فى الشخصية المصرية التى استمدت مقوماتها الأساسية من حضارة إنسانية تعد الحضارة الأم لكل حضارات هذا العالم . وإذا كان هذا المنهج يسمح بوجود العاطفة فلا يعنى أنه يسلس لها القياد ، بل إن هدف السادات الفكرى هو التأكيد على خاصية التعقيل أو العقلانية فى الشخصية العربية بصفة عامة ، وخاصة أن المنهج العلمى هو لغة العصر بالنسبة لكل دول العالم المتقدمة ، أما العاطفة فأصبح مجالها الفنون بصفة عامة . والسياسة – كعلم حديث – لا تحتمل شطحات العاطفة التى غالباً ما تتبخر تحت شمس الحقائق العلميه الراسخة . ومهما بدت العاطفة قوية ومشحونة ومتدفقة فى أول الأمر فإنها سرعان ما تتبدد إذا لم يضع لها العقل العلمى المنهج الذى ينظمها ويستفيد من طاقاتها المشتتة . وفى هذا المعنى يتحدث أنور السادات إلى مجلة « تايم » الأمريكية فى ١٣ مايو ١٩٧٤ فيقول :

« أشعر أننى لا أستطيع أن أكون مفهوماً بالنسبة للآخرين فى عالم اليوم ، مالم أستخدم نفس الأساليب التى يفهمها الناس فى بقية أجزاء العالم . إننا نحن العرب سريعو الانفعال . نفور بسرعة ثم نهدأ . ولكننا هنا فى مصر الآن ، نستخدم لغة يمكن فهمها فى جميع أنحاء العالم . والإنسان اليوم يجب أن يكون إنسان عالمه المحيط به . إننى أقول ما أعنى ، وأعنى ما أقول ، لا استناداً إلى عاطفية فوارة ، بل على أساس من التقدير العاقل للأمور . وليس صواباً ما يقال من أننا ننتهج أساليب تختلف عن تلك التى ينتهجها العالم العربى . ولكننا نحاول أن نقنع إخواننا العرب بانتهاج الأساليب التى يمكن للعالم أجمع أن يفهمها » .

ولذلك نجد السادات ينادى فى مناسبات عديدة أنه ضد التشنج ، بمعنى أن صراع الحياة لا يكون ناجحاً إلا إذا رجحت كفة العقل ، لأن العاطفة غالباً ما تدخل فى طرق مسدودة ومتاهات جانبية مما يضيع الوقت ويشتت المجهود ، وضياع الوقت والمجهود يعنى أن الآخرين يسبقوننا فى مضمار الصراع بمسافات مضاعفة . فالوقت الذى لا نكسبه لابد أن نخسره بمعنى أنه لا توجد منطقة محايدة بين الكسب والخسارة فى صراع الحياة . وأى مفكر لابد

أن ينظر إلى هذه الاعتبارات بعين الفحص والدرس . وهى الاعتبارات التى ركز عليها أنور السادات عند توليه رئاسة الجمهورية . فنجده يقول فى ذكرى الأربعين لجمال عبد الناصر فى ٦ نوفمبر ١٩٧٠ :

« بدأت الحركة الإيجابية بما فيها من إمكانية الصواب والخطأ . . بما تحمله من قدرة العقل أو حدة العاطفة . . بما يدفعها من رؤى المستقبل أو بما يشدها من رواسب الماضى .

ذلك هو صراع الحياة الذى لا نستطيع – مهما تمنينا – أن ننسى اعتباراته وأحكامه وضروراته مهما كان بعضها ثقيلا علينا ونحن نعيش فيه ونعانى تفاصيله بينما هى تجرى أمامنا » .

فالمنهج الموضوعى هو الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى التقدم الحضارى ، وهنا يلتقى السادات مع الفيلسوف الإنجليزى برتراند راسل الذى ينظر إلى التقدم الحضارى من ناحيتين : الأولى فردية والثانية اجتماعية ، فالتقدم الحضارى يتمثل فى الفرد فى صفاته العقلية والعاطفية . فلابد للفرد من الناحية العقلية من قدر معين من المعارف العامة ، والمهارة الفنية فى مهنته ، وعادة تكوين الرأى بالشواهد والدلائل ، ولابد له من الناحية العاطفية من قدر معين من الحياد الموضوعى ، والرحمة بالآخرين ، وشىء من ضبط النفس والبعد عن التشنج . أضف إلى ذلك صفة لا هى بالعقلية ولا بالعاطفية ، بل ربما كانت فسيولوجية ، وهى صفة الإقبال على الحياة والاستمتاع بها . ومن مطالب التقدم الحضارى فى المجتمع سيادة القانون ، والعدالة بين الناس ، وأهداف لا تنطوى على إلحاق الأذى بأى قطاع من قطاعات الجنس البشرى ، والتوفيق بذكاء بين الوسائل والغايات .

ويرى برتراند راسل تطبيقاً لمنهجه العلمى فى دراسة السياسة والسلوك الإنسانى ضرورة الإحاطة بكل الارتباطات بين إحساسات الإنسان وانفعالاته وعواطفه ورغباته ، وبين ما ينبغى أن يكون عليه سلوكه الإنسانى من نضج واتساق وضبط . فليس من المستطاع تخيل الإنسان وقد خلا من الرغبة والانفعال والعاطفة ، فلو فعلنا لفات علينا دقة تقدير السلوك الإنسانى تقديراً علمياً سليماً . إن فى الإنسان صراعاً لا محيص عنه بين العقل الموضوعى والعاطفة الذاتية . ومع كون حياة الانفعال حياة خطرة على الإنسان فرداً وجماعة ، فليس فى وسعنا مع ذلك أن ننكر ما للشحنة الانفعالية فى الإنسان من قيمة عظيمة ، إذ لو وجهت التوجيه الصحيح لأفضت به إلى أن يقف مواقف حضارية وإنسانية منقطعة النظير . إن الإنسان يقف بين طرفين : طرف العاطفة والانفعال والاندفاع وطرف العقل والحكمة والانضباط ، وليس من شك فى أن سعادته مرهونة بتحقيق التوازن داخله بين الطرفين . وفى رأى برتراند راسل أن الحل الوحيد للكثير من متاعب الإنسانية يكمن فى سيادة المنهج العلمى والروح الموضوعى ، وليس يعنى به نمو البراعة وتقدم المهارات فى الأجهزة والتكنيك ، وإنما عادة الحكمة بالاستناد إلى الدليل والبينة . إن العلم للخير والشر على حد سواء وعلى الإنسان أن يختاره للخير بالتشرب بالروح العلمى . فالمنهج العلمى له أخلاقياته الخاصة به ، وهذه الأخلاقيات تتمثل فى الموضوعية المجردة الخالصة . ومن هنا كان إعجاب أنور السادات بشخصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد سألته قارئة على صفحات مجلة « التحرير » فى ١ مارس ١٩٥٤ عن الشخص الذى كان مثلا وقدوة له ، وماذا أعجبه فيه حتى اتخذه مثلا ، فأجاب :

« إنه بلا شك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عرفته وأنا أقرأ له فى ظروف كانت نفسى فيها منهوكة خائرة ، نعم خائرة ، فما راعنى إلا قوة هذا الرجل الرائعة فى مختلف الاتجاهات . كانت نفسه قوة ، وكانت روحه قوة ، وكان خلقه قوة ، ولكن ، لم تكن كل هذه القوى من ذلك النوع الذى يتضارب فينتج الخير مرة والشر مرة أخرى ، وإنما كانت قوى منسجمة متوافقة ، جعلت من حياة هذا الرجل وتصرفاته أسطورة خالدة فيها العدل وفيها الصراحة وفيها الصبر وفيها الايمان القوى المطلق نحو قبيلته فى الجاهلية ، ثم تحول هذا الإيمان بعد الجاهلية إلى الله وإلى الدين ،

وإلى كل ما هو كريم وشريف على ظهر هذه الأرض .

لقد كان هذا الرجل يسيطر على نفسه دائماً ويبدأ بها . . فى المجاعة جاع وهو أمير الناس بأشق مما جاعوا ، وفى أهله أقام الحد على ابنه بنفسه حينما أخطأ كأقسى ما تقام الحدود ، ثم بكاه بعد أن مات من قسوة هذا الحد بكاء أب كريم حبيب يعرف حلاوة الأبوة ، ويعرف أيضاً واجبه أمام الله ، وأمام الناس الذين ولاه الله أمرهم ليسلك بهم أسلم الطرق فما حاد أبداً عن الطريق المستقيم » .

والسادات من المفكرين الذين ينتهجون مسلكاً معيناً متى اقتنعوا بالفكرة ، الكامنة وراء هذا المسلك ، فالمنهج العلمى عنده يحتم عدم الفصل بين الفكر والسلوك ، بل إنه لا يوجد فكر بدون سلوك يترجمه ويجسده أمام الناس ، فإعجاب السادات بعمر بن الخطاب ليس لمجرد الاستمتاع الفكرى المجرد ببطولته ومثاليته ولكن لاقتناعه أن هذا السلوك الموضوعى الصارم لابد وأن يتبع حتى ولو كان على حساب السعادة الشخصية للإنسان . وهذا يذكرنا بموقف السادات من استشهاد أخيه الأصغر عاطف السادات فى حرب أكتوبر ، فعاطف عنده لم يكن سوى أحد الطيارين الأبطال الذين استشهدوا من أجل تحرير مصر ، وكلهم أبناء الزعيم السادات كما قال عندما سمع نبأ استشهاد أخيه . وهذا قمة الموضوعية المجردة والضبط الصارم لعواطف الإنسان الفطرية . هكذا ترجم السادات فكره الموضوعى إلى سلوك مادى ملموس ، وهذا يدل على أن المنهج العلمى الصارم كان الرائد له فكراً وسلوكاً .

والتنفيس عن العواطف المكبوتة صحى طالما أنه لن يأخذ زمام المبادرة من العقل . فإذا سيطرت العاطفة فلا مكان للعلم فى حياتنا لأننا لن نجد لغة مشتركة نتخاطب بها . وقد استفاد الاستعمار البريطانى من هذا بحيث وقف بالمرصاد لكل محاولة علمية للتخلص منه ، أما الطفرات العاطفية فكان يترك لها العنان كنوع من التنفيس عن مرجل العواطف المكبوتة ، وكانت هذه الطفرات تنتهى من نفسها فى أغلب الأحيان عندما يتم التخلص من الشحنة المكبوتة . أما إذا بدت فى الأفق أية بوادر منهجية لتنظيم الشحنة العاطفية وتحويلها إلى ثورة بالمفهوم العلمى فإن الاستعمار البريطانى يبادر على الفور إلى وضع حد لكل شىء . ولذلك يوجه السادات نصحه دائماً إلى أجيال الشباب بأن تهتم بالمنهج العلمى أولاً وقبل كل شىء ، وخاصة أنه كثيراً ما يقع الشباب أسيراً لعاطفته الجامحة فينسى الهدف الرئيسى من حياته العلمية وقد ينتهى به الأمر إلى تدمير نفسه إذا لم يجد ما يدمره . فالعاطفة نار تأكل نفسها فى نهاية الأمر إذا لم تجد ما تأكله فى طريقها . ولذلك فهى ضرورة حتمية أن تنظم هذه العاطفة الفطرية داخل أطر علمية ومقاييس موضوعية ومناهج مدروسة وذلك بالتوفيق بين الوسائل والغايات ، فلا يعقل مثلا أن يقوم الشباب بمظاهرة مخربة منادين خلالها بالبناء والتعمير . فالسلوك لا يجوز أن ينفصل عن الفكر . وفى ٤ أكتوبر ١٩٥٤ كتب السادات على صفحات جريدة « الجمهورية » يعبر عن رأيه فى حيرة الشباب بين العاطفة والعقل ، بين الاندفاع والتفكير ، بين الذات والموضوع ، فيقول :

« منذ وقت طويل وأنا أريد أن أتوجه إلى إخوتى وأبنائى من الطلبة بالحديث . .

فأريد أن أحدثهم أننا اليوم غيرنا بالأمس . .فإن الثورة قد غيرت ضمن ما غيرت واجب كل واحد منكم نحو بلاده . . .

كنا فيما مضى ونحن طلبة نستقبل العام الدراسى وكلنا أمل أننا بتجمعنا فى المدرسة نستطيع أن نعلن سخطنا بالأحزاب على الأوضاع القائمة ، وكان يلذ لنا أن نخرب فى هذه المظاهرات كل ما يقع بين يدينا . . .

وأذكر ذلك اليوم من سنة ١٩٣١ حينما خرجنا فى مظاهرة ضد صدقى وأخذنا نحطم الفوانيس وعربات الترام لا لشىء إلا لأن حكم صدقى كان ضد إرادة الشعب . ولقد كان الهدف صحيحاً ولكننى أعترف اليوم أننا كنا

تخطئ في تطبيق الوسيلة بالتخريب . . .

أما اليوم وقد أصبح حكم مصر فى يد أبناء من صعيد مصر وريفها ، وقضى إلى الأبد على أولئك الذين احترفوا السياسة قرابة نصف قرن فأثروا وأثرت محاسيبهم والأصهار . . .

قضى على كل هذا إلى الأبد . . .

وأكثر من ذلك فإن العقدة الكبرى فى حياتنا ، قد حلت بحمد الله وتوفيقه باتفاق الجلاء . .

فما هو واجبكم اليوم ؟

إن كفاحكم يجب أن يستمر . . . ولكن على صورة أخرى . . يجب أن يكون كفاح عقول ، وكفاح نبوغ وتحصيل ، وأنتم تقرءون كل يوم عما يحدث فى البلاد الأجنبية من كشف واختراع وابتكار أساسه كل المجهود الشخصى ولا أظنكم تجهلون أن مصر فى هذه الحقبة من تاريخها فى حاجة قصوى إلى عقولكم ومبتكراتها وإلى جهودكم ومخترعاتها . . .

لقد تخلفنا طويلا عن ركب الحضارة . . . لا لعيب فى تكويننا أو لنقص فى عقولنا ، وإنما لأننا انصرفنا بمشاكلنا الخاصة عما يجب أن نؤديه نحو وطننا . إن معركة الحرية التى بدأت منذ قيام هذه الثورة لن تثمر ، ولن تصل بهذا الشعب إلى مكانه اللائق إلا بالجهود المتضافرة من كل فرد يعيش على أرض هذا الوطن .

وإن مسئوليتكم فى إتقان الدرس والتحصيل تساوى تماماً مسئولية الحاكم فى رعاية العدل والمساواة . »

يقول السادات هذا الكلام لأن الاستعمار كان قد آل على نفسه أن يدمر كل محاولة جادة للعلم والتعليم ، فقد استطاع المستعمرون استخدام بعض العقول الضيقة فى محاربة العلم والقضاء على الثقافة الحقيقية ، ووقف انتشار التفكير العلمى . وقد تقدمت هذه العقول الضيقة إلى المواطنين بالقشور دون اللباب ، وساهمت مع المستعمرين فى إخفات صوت العلم والفكر والمنطق وترويج الجهل والسطحية . فقد أدرك الاستعمار أن العبودية الفكرية بماتحمله من عقد ومركبات نقص أخطر بكثير من العبودية السياسية ، وعبودية الفكر أخطر سلاح موجه ضد التأصيل القومى والعقل الخلاق والنظرة الابتكارية . ولذلك تحول التعليم إلى مجرد تلقين للنظريات والقواعد العلمية دون محاولة فهم المنهج الذى أدى إليها أو الذى يمكن أن يطورها فيما بعد . وكان نتيجة ذلك أن اقتصر دورنا على دور المتلقى السلبى وانتفى من حياتنا دور المفكر الإيجابى الذى تنهض تجربته الحضارية على الأخذ والعطاء . فكان من المؤسف أن نعيش عالة على الحضارة العلمية فى الغرب بينما تنهض أسس هذه الحضارة الحديثة على ما قدمته الحضارة المصرية والعربية من قبل . فقد تمكن الاستعمار من كبت الروح العلمى وهو الشرط الأساسى لكل تقدم حضارى حقيقى .

والروح العلمى هو الحافز الذى يدفع العالم إلى البحث ويهديه إلى النظر السليم ويساعده على الريادة العلمية والإنجازات التى يمكن أن يضيفها إلى ما سبقه فى الميدان العلمى . ويقتضى الروح العلمى فى العالم أن يجمع إلى دقة الإحساس وعمق الملاحظة وطول الدأب والمثابرة ، صفاء الذاكرة ونفاذ التأمل والقدرة على التجريد وصرامة الحكم . هذا بالإضافة إلى الصبر والنزاهة والشجاعة والإخلاص والإنصاف . وغاية العلم هى تحديد طابع الأشياء لا فى علاقاتها بنا بل فى علاقاتها بعضها مع البعض الآخر . فالروح العلمى يقتضى تنحية كل اعتبار ليس له علاقة بالجهد المبذول نحو الموضوعية المتجردة ، وبخاصة الاعتبارات الانفعالية أو العقائدية ، ولذلك يخطو الباحث العلمى بتؤدة وتبصر وعن يقين وتثبيت فالروح العلمى هو فى صميمه روح نقدى لا يعتمد على التلقى السلبى ، والعالم لا يروم المعرفة فحسب بل يبغى الفهم والاستيعاب والاقتناع أيضاً . وليس فى وسعه أن يتقبل الوقائع كمعطيات تجريبية قائمة ، وإنما يتطلع إلى سبر غورها وإدراك كنهها ، وبتفسيرها يخضعها للفكر . فهو يجمع بين الموضوعية أى تسجيل خصائص الظواهر

كما هى عليه ، وبين المعقولية ، أى صياغة هذه الخصائص صياغة عقلية محكمة . وهذان الهدفان هما اللذان يبعثان الحياة فى الروح العلمى .

وقد يبدو أن ثمة تعارضاً بين معرفة العالم ورده إلى الفكر الخالص إذ قد يعنى رده إلى الفكر رده إلى ذاتيتنا ، وفى هذا مجافاة للموضوعية ولكن هناك مسلمة عامة تسقط هذا الاعتراض ، وهى أن هناك اتساقاً بين نظام الأشياء ونظام العقل . وفى هذه المسلمة تعبير عام عن مبدأ الحتمية الذى ينهض عليه العلم . ونظراً لإيمان السادات العميق بالمنهج العلمى فإنه يؤكد أن التشرب بالروح العلمى هو الشرط الأساسى للتقدم الحضارى ، فالمنهج العلمى لا يفرض من الخارج بقدر ما يتولد من الداخل . صحيح أنه من الضرورى الاستفادة من آخر المنجزات العلمية فى العالم حتى نعيش على مستوى العصر ، ولكن هذا لا يكفى . فلا بد من استيعاب هذه المنجزات وسبر غورها وإدراك كنهها واستخراج المنهج الذى أدى إليها . بعدها يمكن تأصيل هذا المنهج ومد جذوره فى الفكر القومى . وهذا ما نادى به أنور السادات فى بيانه إلى مجلس الشعب فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ فى البندين السابع والتاسع من البيان . يقول فى البند السابع :

« إن علينا أن ننفتح على آفاق التقدم ، ذلك أن الحواجز فى عالمنا الجديد لن تكون حواجز بين الألوان أو الأجناس ، وإنما سوف تكون الحواجز بين التقدم والتخلف ، والعلم يجرى بسرعة خارقة .

ونحن لا نستطيع الاكتفاء بالحديث عن العلم دون أن نخوض عوالمه وإلا كنا نكتفى بتشخيص المشكلة ونستغنى فى ذلك عن علاجها .

نحن أكثر من غيرنا لا أمل لنا إلا فى العلم . ونحن أكثر من غيرنا مدعوون إلا الأخذ بأسبابه . وتلك ضرورة لا يصنعها اتفاق ذلك فى حاضرنا مع ماضى حضارتنا فقط ، وإنما هى ضرورة تصنعها حتمية أن تتفق آمالنا العريضة مع منجزاتنا الحقيقية .

وأول خطوة على هذا الطريق هى التعليم ، الذى يجب أن ننتقل به بأسرع ما يمكن ، من بقايا القرن التاسع عشر إلى آفاق عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء . »

وفى البند التاسع من نفس البيان يقول الزعيم :

« عن طريق استيعاب كل ما قدمت ، وعن طريق تفهمه فإننا نستطيع أن نقول أنه سوف يكون بإمكاننا أن نقيم على هذه الأرض دولة عصرية لا يكون الحديث فيها عن العلم والتكنولوجيا مجرد شعارات ، ولكن يتحول فيها العلم والتكنولوجيا إلى أسلوب عمل . وإلى تحقيق عملى لأهداف مجتمع أمامه مسئوليات عظمى وتملأه آمال أعمق . »

وليس أسلوب العمل الذى يتحدث عنه القائد هنا سوى المنهج العلمى الذى يربط ما بين العلم والإنتاج بطريقة عضوية ، فالتقدم الصناعى والحضارى فى أى دولة أصبح رهناً بتقدم البحث العلمى النظرى والتطبيقى فيها . وإن المشكلات التى يجب أن يتصدى لها البحث العلمى نفسه هى تلك التى تطرحها أساساً احتياجات الإنتاج وتطويره . وقد أصبح التسابق بين الدول فى مجال الإنتاج يستند إلى قدرتها فى السبق إلى الوصول إلى حلول للمشكلات العلمية التى تثيرها ضرورات تطور الإنتاج وسرعة وضع نتائج الدراسات العلمية موضع التطبيق الفعلى فى مجال الإنتاج . وقد ترتب على ذلك أن قدراً متزايد من البحوث العلمية تنهض به الوحدات الإنتاجية ذاتها أو المعاهد والمنظمات التى ترتبط بالوحدات الإنتاجية وتتبعها عضوياً . وأصبحت قضية الإسراع بوضع نتائج الأبحاث العلمية موضع التطبيق العملى هى إحدى القضايا الهامة التى يتوقف على حلها مدى قدرة الدولة على إحراز قصب السبق فى ميدان تطوير الإنتاج ومضاعفته وتحسينه كماً وكيفاً .

وقد تعدت العلاقة بين العلم والإنتاج مرحلة مجرد استخدام المواد الخام الموجودة فعلا فى الطبيعة أو التى ينتجها العمل الإنسانى مستخدماً الطبيعة فى ذلك إلى مرحلة جديدة أصبح فيها الإنسان المعاصر قادراً على إنتاج مواد جديدة لها نفس صفات المواد الموجودة فى الطبيعة أو ربما فاقتها فى بعض الخصائص . كما استخدم الإنسان المنهج العلمى فى التحكم فى مواصفات الكثير من المنتجات الطبيعية ذاتها مما أدى إلى توفير المواد الأولية ذات الخصائص الملائمة للاستخدامات الجديدة والمتطورة بدلا من خضوع الأبحاث العلمية والعمليات الإنتاجية ذاتها لطبيعة المواد الخام التى تهبها الطبيعة والتى كانت تفرض على الإنسان فرضاً . وقد كان هذا نتيجة لتطور البحث العلمى فى مجالات الكيمياء والفيزياء والأحياء والكون مما أدى إلى حلول هذه المواد المتطورة بصورة متزايدة محل المواد الأولية الطبيعية فى كثير من المجالات العلمية والإنتاجية على حد سواء .

وعندما يقول الرائد السادات إن العلم يجرى بسرعة خارقة فإنه يقصد أن العلم ، فى مجال الإنتاج ، قد تعدى مرحلة استبدال العمل اليدوى بالعمل الآلى إلى مرحلة جديدة تحل فيها الآلة لا محل العمل اليدوى للإنسان فحسب ، بل ومحل عمله الذهنى أيضاً . فقد أصبحت الآلة قادرة على القيام بعمليات ذهنية بسرعات مذهلة وبكفاءة أعلى مما يستطيع الذهن البشرى . وقد فتحت هذه الحاسبات الإلكترونية المجال واسعاً لاختيار أفضل المناهج العلمية ولحل مشكلات التحكم الآلى فى الإنتاج ولوضع أحسن البرامج لعمليات الإنتاج المختلفة والتوزيع والنقل وغيرها . وبذلك أصبحت مشكلات البحث العلمى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتطور قدرات هذه الآلات الإلكترونية ، وأصبح الاتصال بين وحدات الإنتاج وفروعها قائماً على التنظيم التكنيكى المتكامل المترابط والذى لا يسمح بأى تشتيت للمجهود أو إضاعة للوقت أو تكرار لعمليات سبق القيام بها . فقد أصبح التخطيط المنظم حتمية ضرورية لا مفر منها ولذلك يقول الزعيم فى لقائه مع أساتذة الجامعات فى ٨ يناير ١٩٧١ :

« إن الوقت الآن هو للتفكير والتخطيط المنظم . إن مشاعرنا وعواطفنا لا تحتاج إلى من يستثيرها أو يحركها . إن المعارك الكبرى واللحظات الفاصلة تحتاج بعد الإيمان العميق بالهدف والاستعداد الكامل للبذل فى سبيله ، تحتاج إلى التفكير المنظم ، وتحتاج إلى التخطيط الدقيق والقوى .

والقوة ، أى قوة مهما بلغ حجمها ، تصبح قوة عمياء إذا لم يكن المنظم لها تخطيطاً دقيقاً . والعمل ، أى عمل ، مهما بلغت قوة اندفاعه ، لا يصل أبداً إلى هدفه ، إذا لم يكن موجهه والمدبر له موجهاً منظماً ودقيقاً . الفكر هو الأساس ، والتخطيط الدقيق هو الإطار » .

ويقصد الزعيم بهذا أن دولة مثل جمهورية مصر العربية تملك الإمكانية الفعلية لتنمية جيل علمى وفنى قادر على الاستفادة من الإنجازات التكنولوجية للعصر وقادر أيضاً على المشاركة فيها ، مهما كانت هذه المشاركة محدودة . والتخطيط العلمى الدقيق يؤكد لنا أن تحقيق مثل هذه الاستفادة والمشاركة يقتضى إعادة تحديد الأولويات فى عملية الإنتاج والتنمية وذلك بإعطاء العلم والبحث العلمى أهمية كبرى . فالمشاركة فى الجهود المبذولة من أجل تحقيق التقدم العلمى هو شرط أساسى لتحقيق درجة من الاستقلال تقف فيها الدولة على قدم المساواة مع غيرها من الدول وتتبادل مع الغير ما يمكن أن تصل إليه من نتائج جديدة ومن معرفة فنية متقدمة . والشرط الأساسى لتحقيق هذا بالنسبة للدول النامية هو التخصص فى عدد محدود من مجالات الإنتاج . فالنفقات الباهظة للبحث العلمى تجعل من المستحيل على كل من الدول الصغيرة أو حتى المتوسطة أن تتحمل العبء الذى يمكن أن ينتج من عدم التخصص والمنهج العلمى يوضح لنا أن خير تخصص للدول الصغيرة هو ذلك التخصص فى المجال الذى تتبين فيه قدرات خاصة على المساهمة فى تطويره وتقدمه . ولذلك فالمسألة – كما يقول السادات – ليست فى حجم القوة ولكن فى كيفية

استخدامها علمياً ومنهجياً .

والتركيز على بعض مجالات البحث العلمى والإنتاج القومى لا يعنى إغفالاً كاملاً لإنتاج العديد من السلع الأخرى والقيام بالأبحاث العلمية فى المجالات المتعددة ، ولكنه يعنى أن الدولة تعتمد فى هذه المجالات الأخرى على الاستفادة من الخبرة العالمية بينما تعمل على الوصول فى مجال تخصصها وتركيزها على مستوى من المعرفة والخبرة التى يمكن أن تصدرها للخارج . وهذا بدوره يمنح الدول النامية السياسة الدائمة ذات المدى البعيد التى تدعم الإنتاج حتى تشارك فى الإنجازات العلمية الصناعية ولا تكتفى بمجرد استبدال الواردات وتصدير المنتجات الخام كما هى أو نصف مصنعة . فما زالت مشاركة الدول النامية فى الأسواق العالمية للمنتجات الصناعية مشاركة قليلة وغير محسوسة وذلك راجع إلى أن نفقات التقدم التكنولوجى وتطويع البحث العلمى وتطويره والاستمرار فى تطبيقه يحتاج إلى نفقات واستعدادات باهظة ، وتكلفتها غالية ، ولكنها بكل المقاييس والمعايير الاقتصادية عملية مربحة ولا بدأن تؤتى ثمارها ، ويمكن بحسن الاختيار والإصرار على المنهج العلمى المناسب الوصول إلى نتائج عملية وإيجابية . ومثال على هذا ما يحدث فى سويسرا وبلجيكا وهولندا وهى دول لا تمتلك إمكانيات صناعية كبيرة ولكنها تعرف إمكانياتها القومية وتعرف أيضاً كيف تستغلها بالأسلوب العلمى الفعال .

ولكى يتحول العلم والتكنولوجيا إلى أسلوب عمل لتحقيق أهداف المجتمع – كما يقول السادات – يجب وضع الاستراتيجية التى تحدد مجالات البحث العلمى والإنتاج القومى على أسس اقتصادية ، وعلمية ، كما يجب الاقتناع بأنه لا يمكن دخول كل مجالات التكنولوجيا فى وقت واحد . واختيار هذه المجالات يعتمد على الإمكانيات المتاحة التى تختلف من بلد إلى آخر طبقاً لظروفها واقتصادها وحضارتها وخصائصها القومية بصفة عامة . وإذا كنا نريد الانتقال بالتعليم من بقايا القرن التاسع عشر إلى آفاق عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء فيجب وضع حد لعملية الانفصال بين الاندفاع إلى التعليم والعلم وبين الخبرة والتجربة العملية ، فالتحامهما معاً أمر حتمى تنهض عليه الثورة العلمية الخلاقة الأصيلة . وأما استمرار استيراد الآلات والخبرة ، والتدريب فى الخارج واستقدام الخبراء بغير تأصيل للتدريب المحلى فى البيئة والظروف الطبيعية التى تقوم فيها الصناعة نفسها ، فهذا اتجاه غير علمى لأن المنهج العلمى فى الإنتاج يحتم تطوير هذا إلى قدرة ذاتية نابعة من صميم الكيان الحضارى للأمة نفسها . . ومن هنا تظهر ضرورة توثيق الصلة بين مراكز الإنتاج الصناعى ومراكز التعليم والتدريب بكل أنواعها ومستوياتها المختلفة . ولذلك فإنه من الضرورى العناية بعناصر تطوير الإنتاج وترشيده علمياً عند إنشاء الوحدات الإنتاجية . فالعملية ليست مجرد المحافظة على استمرار الإنتاج ومراقبة جودته وإنما تتعدى إلى تطويره كماً وكيفاً حتى يتمكن من مواكبة العصر.

والتأصيل الفكرى الذى ينادى به السادات يؤكد لنا أنه لا يكفى لرفع مستوى الخبرة العلمية والتكنولوجية مجرد تدريب الأفراد سواء فى الخارج حيث مراكز الصناعة المستوردة ، أو فى الداخل حيث أقيمت الصناعة وبدأ إنتاجها ، ولكن المهم هو توصيل ما تحصل نتيجة التدريب إلى التطبيق الصناعى وإلا أصبح العلم ومعه التكنولوجية حبيسة عقول العاملين يتكلمون عنها ولا يمارسونها ، ولهذا يوضح السادات أنه « بإمكاننا أن نقيم على هذه الأرض دولة عصرية لا يكون الحديث فيها عن العلم والتكنولوجيا مجرد شعارات » . ومع التسليم بأن نقل التكنولوجيا عن الدول المتقدمة لا يكفى وحده ، إلا أنه من الثابت أنه لا بد من عملية النقل أولا ثم التأصيل ثانياً . ومن أهم شروط التأصيل القضاء على الانفصال القائم بين المجتمع الصناعى والزراعى فى مصر وبين المجتمع العلمى ، فقد تبين أن دفعات التقدم المتزايدة فى الدول الكبرى كانت نتيجة للعلاقة العضوية بين المجتمعات الثلاثة على أرض الواقع والتجربة العلمية المعاشة .

إن الترابط بين العلم والإنتاج الصناعى والزراعى قد أدى إلى زيادة كبيرة فى سرعة ظهور منتجات جديدة فى الأسواق العالمية وإلى سرعة ظهور وسائل وطرق جديدة للإنتاج ، إن بعض هذه المنتجات أو الوسائل ليست مجرد تحسينات طفيفة على أنواع من السلع قائمة بالفعل ، ولكنها تتضمن تغييرات أساسية فى طبيعة المنتجات وفى وسائل الإنتاج . وتشير بعض التقديرات إلى أن أكثر من ٨٠ فى المائة من المنتجات التى تباع فى الأسواق فى الدول المتقدمة صناعياً وزراعياً لم تكن ظهرت قبل نحو عشر سنوات ويتزايد باستمرار المعدل الذى تظهر به المنتجات الجديدة فى الأسواق ووسائل الإنتاج الجديدة فى الصناعة والزراعة على حد سواء . وعلى هذا فسرعة التطور التكنولوجى تفرض على الوحدات الإنتاجية ضرورة متابعة التطور العلمى والتنبؤ بالتطورات المحتملة فى مجالات العلوم المختلفة باعتبار ذلك شرطاً أساسياً من شروط التخطيط الطويل الأجل الذى لا بد وأن تمارسه كافة المشروعات الضخمة إذا أرادت الاستمرار والنمو . وبدون هذا التنبؤ بالتطور العلمى المحتمل فإن كثيراً من المشروعات الحالية التى قد تحتاج إلى مقادير هائلة من الأموال ، قد لا تستطيع تعويض الاستثمارات التى حدثت أو يحتمل أن تحدث فيها بالفعل . وهذا معناه أن التخطيط الحالى للمشروعات لا يجب أن يأخذ فى الاعتبار التطور التكنولوجى الحالى فقط ، بل يجب أن يدرس احتمالات التطور العلمى المقبل فى عديد من المجالات العلمية وما قد يكون لهذه الاحتمالات من آثار على الإنجاز المتاح للمشروع فى المستقبل .

ولا شك فإن جزءاً هاماً من الإنفاق على البحث العلمى يتم عن طريق المشروعات فى خلال الفترة السابقة للإنتاج . فالإنتاج الحديث يحتاج إلى أبحاث علمية فى مجالات متعددة وهى أبحاث تستغرق عادة وقتاً وجهداً طويلاً نسبياً . وتتطلب الاستمرار فى الإنفاق عليها حتى ولو لم تصل إلى نتائج سريعة لأن أى توقف فى الجهود اللازمة لتطوير المنتجات أو للوصول إلى نتائج علمية جديدة تعنى ضياع الجهد السابق دون الاستفادة منه . فالاستمرار فى مثل هذا النوع من الإنفاق حتى ينجح المشروع فى تحقيق النتائج المرجوة هو وحده الطريق المؤدى إلى الاستفادة مما سبق إنفاقه من وقت وجهد . وقد ثبت عملياً أن المشروعات الأكثر قدرة على الأنتظار هى فى نفس الوقت الأكثر قدرة على تمويل البحوث العلمية والاستفادة بنتائجها العملية . ولذلك فإن أفضل الوسائل لتمويل الإنفاق على البحوث العلمية هو التمويل الذاتى عن طريق المشروع ذاته . وهذا يعنى أن أقدر المشروعات على تمويل الإنفاق اللازم فى فترات البحث والإعداد هى تلك التى تعتمد على مصادرها الداخلية ومن هنا فإن المشروعات الضخمة التى تحقق ربحاً تجارياً مجزياً والتى تسيطر على أسواق عديدة هى أقدر من غيرها على توفير الأموال اللازمة للإنفاق على البحث العلمى . فمن المعروف أن وضع نتائج البحوث العلمية موضع التطبيق العملى وبدء الإنتاج الكبير لسلع جديدة على أساس الاستفادة من النتائج الإيجابية التى وصل إليها البحث العلمى ، تتطلب فترة طويلة ، من التخطيط والإعداد تشمل كثيراً من أعمال التصميم وحل العديد من المشكلات الجانبية التى لا بد وأن تبرز أثناء العمل ، وإجراء الاختبارات على المنتجات الأولية لتحسينها ودراسة اقتصادياتها وإمكان خفض تكاليف إنتاجها وغير ذلك من الدراسات اللازمة . وقد يقتضى تطبيق نتائج البحوث العلمية تطويراً فى أدوات الإنتاج المستخدمة فى المشروع نفسه وابتكار آلات وأدوات خاصة ، كما قد يتطلب تدريب أعداد جديدة من العاملين والفنيين . ولهذا يقول السادات فى خطابه إلى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى يوليو ١٩٧٢ :

« إن الدولة لاتملك فى مجال الثقافة أكثر من أن توفر سبيل التعليم ، وتهيئ ظروف البحث العلمى ووسائل نشر المعرفة ، ويبقى بعد ذلك أن تطوير الثقافة هو من عمل المثقفين أنفسهم ، والمثقفون المصريون مطالبون بمزيد من الجهد من أجل بحث علمى أصيل يجعلنا نسهم فى تراث البشرية ببعض ما نأخذ منه ، وتكنولوجيا مصرية تغنى عن

اعتمادنا على الخارج ، وتستجيب لظروف بلادنا الخاصة » .

وهذا يعنى أن دولة المؤسسات التى نحرص عليها يجب أن تستفيد من هذه المؤسسات كل على حدة ، فإذا كانت الحكومة المركزية قد وفرت سبل التعليم والبحث العلمى فعلى عاتق المؤسسات يقع عبء تطوير التعليم والبحث العلمى لأن حاجة كل مؤسسة من البحث العلمى تختلف عن حاجة المؤسسات الأخرى بحكم اختلاف الهدف والوسيلة والطبيعة . ولا يعقل أن نتوقع من الحكومة أن تبحث لكل مؤسسة عن المنهج العلمى الذى يضمن تطويرها . فالحرية التى منحت لهذه المؤسسات حتى تتصرف طبقاً لأهدافها وخصائصها لا تعنى الحرية فى الحصول على الامتيازات ولكنها الحرية فى تطوير وسائل البحث العلمى حتى تساهم المؤسسة فى تقدم المجتمع ككل . وتنوع المؤسسات إلى درجة كبيرة يرجع إلى طبيعة العصر نفسه ، فهو عصر العمليات المعقدة والمتناقضة والمتغيرة التى ترجع إلى الثورة العلمية التكنولوجية بما تحويه من محطات للطاقة الذرية ، ومصانع تعمل آلياً بشكل كامل ، وطائرات فاقت ضعف سرعة الصوت ، وحاسبات الكترونية قادرة على حل أعقد المسائل الرياضية خلال ثوان . هذه كلها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياة الناس فى عالمنا المعاصر .

والدولة التى ترغب فى مواكبة العصر لا يجب أن تحمل الحكومة ما لا تطيق نظراً لطبيعة العصر المعقدة . هنا يبرز الدور الحيوى للمؤسسات المتخصصة التى نجحت فى دول كثيرة أخرى فى أن تجعل فداناً من الأرض يغل أكثر مما كانت تغله عشرة أفدنة فى بداية القرن الحالى على سبيل المثال . وما ينطبق على الزراعة يكاد ينطبق تماماً على بقية فروع التخصص العلمى . فالعلوم عديدة وموضوعاتها متمايزة ومناهجها مختلفة . فبينما تستند العلوم الرياضية إلى البرهان ، تنهض العلوم الطبيعية والإنسانية على التحقق من الوقائع والاعتماد على التجربة . وتبلغ المعارف من التنوع حدا لا يزعم أحد معه أنه يستطيع أن يحيط بها كلها . ومن هنا نشأ التخصص فغدا لكل تخصص مجاله المحدد . ولئن كان للتخصص العلمى منافعه ، من حيث إن المتخصص وحده يمكنه أن يخطو قدماً بمجال تخصصه ، فإن للتخصص من ناحية أخرى عيوبه . إذ قد يتحول البحث فى إطار التخصص إلى روتين آلى ، وقد يغالى الباحث فيضخمه فى أهمية المجال الذى تخصص فيه ، وقد يؤدى به هذا إلى إهمال سائر المجالات التى لم يتخصص فيها . وبذلك قد يقف التخصص حجرة عثرة فى طريق التقدم العلمى . هنا تبرز أهمية التنسيق الاستراتيجى الذى يجب أن تقوم به الحكومة بين المجالس القومية المتخصصة بحيث يكمل عمل كل مجلس عمل المجالس الأخرى . أى أن دور الحكومة فى الدولة العصرية يتركز فى التخطيط العلمى الدقيق والدراسة الموضوعية الشاملة أما التنفيذ العملى فمتروك أمره إلى المؤسسات على اختلاف أنواعها . والمنهج العلمى الحديث يحتم تنظيم الطاقة القومية – سواء كانت مادية أو فكرية – فيما بين الوحدات التى تخرجها إلى حيز التنفيذ حتى لا يحدث تكرار أو تشتيت أو تشويه أو تضييع .

ومما لا شك فيه أن دراسة الكثير من الموضوعات فى مختلف المجالات الرياضية والمادية والإنسانية ، تتطلب الاستعانة بعلوم عديدة ، والتقدم العلمى ذاته ليس سوى ثمرة تضافر وتعاون بين العلوم . ولذلك على الرغم من ضرورة التخصص وأهميته يجب أن تكون هناك نظرة شمولية هى بمثابة واسطة عقد بين مختلف العلوم ، ويؤدى هذا بنا إلى فلسفة عامة تتجلى فيها وحدة المعرفة . وهى الفلسفة التى تخلق ما نسميه بالمنهج العلمى ، فالمنهج العلمى فى صميمه قدرة عقلية على التخطيط السليم والتنظيم الهادف وفلسفة نقدية وتصحيحية لكل ما يطرأ على التخطيط من عيوب وثغرات . ذلك هو الروح العلمى الذى يجب أن نتحلى به وذلك هو العصر الذى يجب أن نعيشه بكل أبعاده سواء استمتعنا بحياة السلام أو كتب علينا صراع الحرب . ولذلك يقول السادات فى كلمته فى مؤتمر اتحاد الجامعات العربية فى ٧ فبراير ١٩٧٣ :

« الأمة العربية – أيها الإخوة – تمتحن هذه الأيام امتحاناً رهيباً فى معركتين ضاريتين .

معركة مع التخلف ، فى عصر تغيرت فيه من حولنا الدنيا ، وقفزت أكثر الشعوب بالعلم وبالخبرة وبالتنظيم ، قفزات نقلتها من عصر إلى عصر آخر جديد تماماً . . ورغم الجهود المضنية والصادقة التى تبذل فى كل بلد عربى . فلا تزال أكثر شعوبنا واقفة على أعتاب العصر ، ولا تزال – رغم ضخامة الإنجازات فى بعضها – قاصرة عن ملاقاة مستوى الطموح العربى .

أما المعركة الثانية فهى معركة عدوان ماكر تلتقى فيه أكثر من مصلحة ، ويتعاون فيه علينا أكثر من حليف يعرفون جميعاً ما تنطوى عليه الأرض العربية من كنوز ومصادر للخير والنماء ، وما يزخر به العمل العربى من قدرة وخبرة ، وما تمتلىء به النفوس العربية من إصرار على اللحاق والسبق ، ويعرفون أن التقاء هذه العناصر كلها من شأنه أن يفجر فى هذه المنطقة من العالم طاقة لا حدود لها ، وأن هذا التفجير حين يتم فسوف يكون لنا ولهم شأن غير الشأن الذى يحبون . لذلك كان التآمر ، وكان العدوان ، وكانت محاولات التجزئة ، ومحاولات احتلال الأرض ، ومؤامرات احتلال النفوس . ولعبت الصهيونية العالمية دورها المعروف لخدمة هذا التحالف العدوانى ، جزءاً منه ، وطليعة له ، وشريكاً فيه . وكان ما كان من عدوان عسكرى متكرر باركه وشارك فيه الاستعمار العالمى . ووقف العالم العربى كله يواجه الامتحان الرهيب لإرادته ولصلابته ولقدرته على خوض معاركه بسلاح العصر » .

بهذا المنهج العلمى الدقيق يحلل السادات موقف الأمة العربية من متطلبات العصر ، وبنفس المنهج تم التخطيط لحرب أكتوبر المجيدة مما أدى إلى الانتصار الباهر الذى أذهل العالم المعاصر كله . فالمنهج العلمى يعمل فى وقت الحرب بنفس الكفاءة التى يعمل بها فى وقت السلم . فإذا كان العدو مدججاً حتى أسنانه بأحدث أسلحة العصر الاليكترونية فمن الطبيعى جداً أن نحاربه على مستوى العصر ، ولهذا يقول السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« من الخطأ الجسيم أن نقول عن العبور الظافر إنه معجزة ، لأن المعجزة بطبيعتها أمر خارق يفوق الطاقات العادية للبشر ولا يمكن تكراره ، وإنما يجب أن ننظر إليه على أنه ذروة للعمل الوطنى ، علينا أن نتمثل دروسه لكى نتخذه نمطاً ترتفع إلى مستواه كل جوانب العمل الوطنى .

إن أعظم تقدير لأيام القتال المجيدة ليس التغنى بها ، وإنما استلهام معانيها لكى نحرز فى مختلف مجالات العمل الوطنى ما أحرزناه من نجاح فى العمل العسكرى .

ليكن شعارنا دائماً أنه ما دمنا قد استطعنا فى ساحة القتال ، فإنه يجب أن نستطيع بنفس المستوى فى كل مجال .

إن المقاتلين هم صفوة من أبناء هذا الشعب . وما صنعوه فى مواجهة العدو الشرس الغادر المدجج بالسلاح يستطيع أبناء هذا الشعب أن يصنعوه فى مواقع الإنتاج والخدمات ، لنقهر التخلف ونتخلص من السلبيات الموروثة ونؤكد بالإنجاز أن مصر أكتوبر هى مصر المستقبل .

إن النصر فى أكتوبر لم يكن مصادفة ، ولم يحدث فى غفلة من الزمان كما يريد العدو أن يوحى ، وإنما هو ثمرة عوامل كثيرة وأصيلة تجعله أمراً وارداً وطبيعياً وليس حدثاً فريداً » .

والمنهج العلمى لا يستوعب هذه العوامل الكثيرة والأصيلة إلا فى ضوء العمل الوظيفى لها ككل . وهذه العوامل كما يحللها السادات هى : الوطنية المصرية والقومية العربية ومنجزات ثورة يوليو وحركة التصحيح ووضوح الرؤية والاستقرار المعيشى والحرية السياسية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والتخطيط العلمى والإيمان الأصيل والممارسة الديمقراطية . وهذا التضامن بين هذه العوامل واعتماد بعضها على البعض الآخر فى كل متسق هو الذى خلق إمكانية الانتصار العظيم . والمنهج العلمى لا يعزل عاملاً عن العوامل الأخرى بحجة تحليله فى ضوء مستقل وموضوعى خاص

به ، لأن لكل عامل مغزى ، ولا يفسر هذا المغزى إلا فى ضوء الصورة الشاملة ، فالحدث السياسى لا يفسر إلا من خلال النسيج التاريخى الممتد من الماضى إلى الحاضر. والسلوك الفردى لا يحلل إلا فى ضوء حركة المجتمع المعاصر. والتنبؤ بالمستقبل لا ينهض إلا على استيعاب دروس الماضى مع تجنب سلبياته وتأكيد إيجابياته . فلا ينبغى الاعتقاد بأن المنهج العلمى يصل – حتى فى مجال المادة – إلى إعادة بناء دقيقة للعالم من عناصر بسيطة وعوامل منفصلة . فالطبيعة الحديثة لم تعد ترى الذرة متجزئة ، بل هى مركبة من علاقات ، وأى عامل فى الوجود هو نسيج من علاقات متشابكة ومتلاحمة ، والطبيعة نسيج سداه علاقات ولحمته صفات . ولذلك فإن انتصار أكتوبر المجيد كان الامتداد العضوى للمنهج الذى درس القضية تحت ضوء تحليلى شامل واستطاع أن ينطلق إلى المستقبل اعتماداً على إيجابيات الشخصية المصرية وتجميع طاقاتها المشتتة . فالأمر ببساطة أن كل العوامل والعناصر والظواهر فى الطبيعة لها خصائص ميكانيكية أو فيزيقية أو كيمائية أو بيولوجية أو فكرية . . إلخ وهذه الخصائص لها علاقاتها وقوانينها المستقلة عن الإرادة والضمير الإنسانى . ولكن فى استطاعة الإنسان أن يسيطر عليها عن طريق استيعابها وتحديد الخط الذى تسير فيه . وليس إهماله فى دراسة هذه القوانين والعلاقات سوى الإهمال فى حق حياته ومستقبله وسعادته ، فتجاهل قوانين الصراع لن يلغيها بل ستبقى كما هى وسيكون تأثيرها ضاراً على مستقبل الإنسان إذا لم يحاول دراسة حركتها واتجاهاتها حتى يستطيع تكييفها أو تكييف حياته لكى لا يقع بين شقى الرحى ولكى يستطيع تحقيق أهدافه بسرعة . فأهم وظيفة للمنهج العلمى هو دراسة القوانين وتحليل العلاقات بين العوامل المختلفة حتى نستطيع التحكم فيها ووضعها فى خدمة المجتمع الجديد . ولذلك فإن الأفكار والآراء والنظريات العلمية لا تبقى كمنهج علمى إلا إذا اتفقت مع قوانين الطبيعة عن طريق استيعابها . وفى هذا يقول هنرى بونكاريه فى كتابه « قيمة العلم » :

« أيحق لنا أن نتكلم فى سبب ظاهرة من ظواهر الكون ، ما دام كل جزء من أجزائه مرتبطاً بكل جزء ارتباطاً عضوياً ؟ ! إن أية ظاهرة من الظواهر لن تكون نتيجة سبب واحد ، بل نتيجة أسباب غير متناهية فى العدد . إن أية ظاهرة مهما يكن شأنها ليست فى الغالب إلا نتيجة للكون كله فى لحظة مضت » .

وقبل بونكاريه بقرون عديدة جاء الفيلسوف العربى ابن باجة الذى حلل العلاقات بين العوامل السابقة والمعاصرة واللاحقة فى كتابه « تدبير المتوحد » فقال : « إن لفظة « التدبير » هنا إنما تعنى ترتيب الأفعال وفقاً لما يمليه العقل من غايات مقصودة » وبهذا يحدد ابن باجة المنهج العلمى الذى يجب أن نلتزم به فى تفسيرنا للسلوك الفردى والاجتماعى حتى نستطيع تحقيق أهدافنا بعيداً عن التشتت والتكرار والضياع . فيجب أن تصدر أفكارنا وأفعالنا عن صميم العقل الواعى الذى يتخذ من المنهج العلمى نبراساً له . وهو المنهج الذى يعمل على تنمية مداركنا ، وتوسيع أفقنا ، وتعميق رؤيتنا .

ويتفق بونكاريه أيضاً مع الفيلسوف العربى الكندى الذى ينظر إلى العالم على أنه وحدة واحدة ذات علاقات داخلية تمنحها الشكل المميز لها . ولذلك فأحداثه مرتبطة بعضها ببعض إرتباط العلة بالمعلول ، والسبب بالمسبب . ويتفق ابن حزم مع الكندى فى أن قانون العلية هو الذى يحكم الوجود ، وإذا استطاع الإنسان إدراك كنهه فإنه يمكن أن يكون سيد موقفه إلى حد كبير ، فخلف كل الكائنات والأشياء ، تكمن الأسباب والعلل وهو هنا يلتزم بقوله تعالى : « وجعلنا لكل شىء سبباً » . فالشىء الذى لا سبب له أو علة ، إنما هو عدم لا وجود له . وعنده أن العلة العليا لكل شىء هى مشيئة الله . ومن ثم ، فالعلم هو معرفة الأسباب ، والعلل . ومن الواضح أن ابن حزم كان يمثل المفكر العربى الناضج الذى يؤكد لنا أن المنهج العلمى كان من خصائص الحضارة العربية والتراث الشرقى قبل أن يحصل عليه الغرب ويوظفه فى خدمة حضارته . كان ابن حزم يمتاز بعين فاحصة ، ناقدة ، كاشفة عن عيوب

مجتمعه ، ما ظهر منها وما بطن ، فنجده يأخذ على الناس تقيدهم بالعادات الذميمة ، والتقاليد البالية ، وإيمانهم بالخرافة والسحر ، والتنجيم ، وبأن أقدارهم مكتوبة على جباههم ، فلا نجاة لهم من المكتوب . كانت هذه المعتقدات سبباً فى تثبيط همم الناس وتقاعسهم عن النظر إلى الحياة نظرة علمية ، لذلك نجده يقدم تفسيراً علمياً لمفهوم القدر فى كتابه : « الرد على بن النغريله اليهودى ورسائل أخرى » فيقول ص ٢٣٣ :

« تزعم يا أخى أن القدر ينهضك إلى الخطأ ، وأن القدر يثبطك عن الصواب ، ولعلك تزعم أن القدر معك إذا أردت الشر ، وليس معك إذا فعلت الخير . كلا ، فلئن قلت ذلك فقد ضللت وكفرت . عليك أن تعمل ولا تطالب ربك بما تعمل ، فلا ينبغى أن تتخذ من القدر سبباً للكسل والوهن فى العمل . واَعلم أنك لن تجازى إلا بعملك ، ولن تحاسب إلا بسعيك وإلا بما قدمت يداك » .

وهذا المنهج العقلانى الواضح يذكرنا برد السادات على قارئة على صفحات مجلة « التحرير » فى ١ مارس ١٩٥٤ عندما سألته عن مدى اعتقاده فى الفأل وقراءة الكف وتحضير الأرواح وتفسير الأحلام فكان رده حاسماً قاطعاً :

« أنا لا أعتقد لا فى الفأل ولا قراءة الكف ، ولا فى تحضير الأرواح . أما عن تفسير الأحلام فإنى وبحكم قراءتى فى الكتاب عن سورة يوسف وما ورد فيها عن الأحلام وتفسيرها ، فأنا أؤمن بها . وخاصة عندما كنت فى مثل سنك وفى أثناء تعليمى الثانوى ، وأيام الامتحان » .

وهذا الرد تأصيل للفكر العلمى العربى والذى نجد منه مثلا فى كتاب « الآثار الباقية » للبيرونى عندما يقول فى مقدمته :

« يجب علينا إذا طلبنا الحقيقة أن نصفى عقولنا من جميع المعتقدات الفاسدة ، والعادات البالية المستهجنة ، والخرافات التى تعمى الناس عن الحقائق ، وأن نتحرر من النزعات المسفة ؛ والرغبة فى الاستعلاء والتشامخ » .

ونفس الاتجاه العربى الأصيل يردده ذو النون المصرى الذى يؤكد أن الله عز وجل قد منح الإنسان العقل لكى يدرك به الكون المحيط به ، والإنسان الذى يهمل العقل يعبر بطريقة غير مباشرة عن عدم اهتمامه بصنيعة الله وفضله على الإنسان ، وهذا جحود ما بعده جحود . يقول ذو النون المصرى :

« فما خلع الله على عباده خلعة أحسن من العقل ، ولا قلده قلادة أجمل من العلم ، ولا زينة بزينة أفضل من الحلم وكمال الخلق ، فمن أدرك طريق الآخرة ، فليكثر مساءلة الحكماء ، ومشاورتهم ، وليكن أول شىء يسأل عنه العقل ، لأن جميع الأشياء لا تدرك إلا بالعقل » .

ونفس الاتجاه العلمى العقلانى يمثله ابن سينا ، مما يدل دلالة واضحة على أن المنهج العلمى كان ملازماً للعقل العربى فى كل مراحل ازدهاره الفكرى . فقد قام منهج ابن سينا على التجربة والاستقراء ، فهو يلاحظ الظواهر ، ويجمع المعلومات التى تحيط بالموضوع ، ويرتبها ترتيباً منطقياً ، ثم يستخرج منها النتائج التى هى بمثابة القوانين الكلية . وعلى هذا الأساس فإن ابن سينا استطاع أن يرسى تقاليد المنهج الاستقرائى التجريبى قبل أن يجىء به الفيلسوف الإنجليزى فرانسيس بيكون بعدة قرون ، كذلك أمكن لابن سينا أن يضع قواعد للتجريب وذلك فى مستهل كتابه « القانون فى الطب » . ومعنى هذا أن المنهج العلمى الذى يريد السادات إرساء تقاليده فى الفكر العربى ليس بدخيل عليه وإنما هو تأصيل فكرى لخاصية أهملناها طويلاً . وكان نتيجة الإهمال أن سبقتنا الأمم الأخرى فى مضمار الحضارة رغم أننا كنا أول من منحها الدفعة الأولى التى استمدت منها كل طاقتها الحضارية الحالية . وقد آن الأوان لكى نخلص هذه الخاصية الجوهرية من الشوائب التى علقت بها لكى نسير على هداها ونستعيد مجدنا الحضارى . ولذلك يقول السادات فى لقائه مع أساتذة الجامعات فى ٨ يناير ١٩٧١ :

« لا أظن أن هناك لحظة فى تاريخ مصر الحديثة تحتاج إلى فكر وعقل جميع مثقفيها وكل القادرين على البحث والدراسة فيها كهذه اللحظة التى نعيشها الآن من نضالنا .

إن هذه اللحظة – أيها الإخوة والأخوات – تحتاج إلى كل شعاع مضيء وإلى كل رأى سديد وإلى كل اجتهاد . . تحتاج إلى كل هذا ولكل ما يبغى وجه الوطن وحده ويستلهم مصلحة الشعب دون غيرها ، ويضع نصب عينيه مصير أمة عربية تنتظر الآن كل واحد من أبنائها لكى يؤدى واجبه ويتحمل مسئوليته ، ويشارك فى تقرير المصير » .

واحترام السادات للعقل البشرى والمنهج العلمى خط واضح فى فكره منذ بدأ التخطيط من أجل تحرير مصر. فقد كان العقل المفكر وراء قضية أمين عثمان العميل البريطانى الشهير ، يقول إحسان عبد القدوس موضحاً الخصائص الأساسية فى فكر السادات فى مجلة « الجديد » فى ١ يوليو ١٩٧٣ :

« كنت متفقاً فى الرأى تماماً مع البوليس السياسى – رغم اختلاف أهداف كل منا – على أن هذه المجموعة من الشباب الثائر ، قد تحركت نحو هدفها بتوجيه دقيق من عقل ثائر كبير – ما زال شخصه مجهولاً ، رغم أن التفاصيل الدقيقة للخطة التى نفذت ، تؤكد وجوده – ولم أتردد يومها فى كتابة مقال بمجلة « روز اليوسف » اعتبره الكثيرون حتى من أخلص الأصدقاء وأكثرهم حماساً ، نوعاً من التهور سيجلب لى المزيد من المتاعب ، ويرفع رصيدى المتضخم من غضب السلطة ، وهى ترانى أؤيد علناً ، وعلى صفحات المجلة ، مقتل أمين عثمان . الباشا الذى يعبر عن رأى لندن أكثر مما يفهم لغة القاهرة . . وإذا كان البوليس السياسى قد اعتبر مقالى – يومها – دليلاً جديداً على انحرافى عن الولاء للسلطة الممثلة فى الملك وحكومته ومن خلفهما الوجود الاستعمارى لإنجلترا . . فقد كتبت هذا المقال تحية من صحفى ثائر . . إلى الجندى المجهول الذى يختفى وراء العملية كلها ، والذى استطاع أن يبعث الرعب فى قلب كل المتعاونين مع الإنجليز وعملائهم فى مصر . . وكأنه يقول لهم فى مكمنه . . هذا هو المصير الذى ينتظر كل من تسول له نفسه خيانة الشعب » .

ولعل التنكيل والتشريد والاضطهاد والمطاردة وكل ألوان العذاب التى عاناها السادات على أيدى السلطة الحاكمة لها ، كانت نتيجة لعقله المفكر ومنهجه العلمى فى وضع الخطط وتنفيذها بدقة فى الوقت المناسب . فلم يكن الاستعمار يخاف من الشباب المتحمس الطيب الذى لا يحاربه إلا بالعاطفة المتقدة وحدها لأنها سرعان ما تنطفئ بتغير الظروف . أما الشباب الواعى الذى يفكر فى إطار تخطيطى منظم وعلى أساس منهج علمى يضع فى اعتباره كل الاحتمالات والمفاجآت والإمكانيات ، فإن الاستعمار يجد أنه لا مناص من التخلص من هذا النوع من الشباب لأنه سيسبب له الكثير من المتاعب والقلاقل لطول باعه فى الكفاح ولأن أنفاسه لن تنقطع بسرعة . ولذلك كان لا بد من أن يقع السادات فى براثن البوليس السياسى . والسبب الرئيسى فى هذا يوضحه إحسان عبد القدوس عندما يقول :

« أول ما أثار انتباهى فى شخصية – الرئيس – السادات . . هو قوة الإرادة ، والقدرة الواضحة على التخطيط والتنظيم . . شيء آخر آثار انتباهى منذ بداية معرفتى بالرئيس السادات . . هو ذكاؤه الحاد . . وقدرته على الكتمان والاحتفاظ بالسر . . سره أو سر غيره » .

وكانت هـــذه الخاصية واضحة لكل من عرفوا السادات ، فقـــد كتب إميل زيدان فى تقديمــه لمذكراته « ثلاثون شهراً فى السجن » التى نشرت بمجلة « المصور » عام ١٩٤٨ أن : « السادات هو أكبر المتهمين سناً ، وأقواهم شخصية ، وأوسعهم ثقافة ، وأنضجهم عقلاً ، وأكثرهم تجربة » . ولذلك كانت نظرته العلمية تؤكد أن محاربة الاستعمار تقتضى التخلص الفعلى من أعوانه ، فلا يكفى أن نتهمهم بالخيانة ونهتف بسقوطهم ، لأن الحناجر المدوية لن تصل فى فاعليتها إلى مستوى الفعل الحاسم الواعى المنظم والمنهج العلمى يحتم التقييم الموضوعى والمشاركة

الإيجابية ولا يقتصر على الرفض السلبي للدور الذى يقوم به أعوان الاستعمار أو الزعامات التقليدية التى تستند إليها . فمثلا نجد السادات يحدد مفهوم الزعامة السياسية التقليدية تحديداً علمياً فى مقال له بجريدة « الجمهورية » فى ١٢ سبتمبر ١٩٥٤ فيقول :

« موضوع اليوم هو الزعامات السياسية . . ما هى . . وما مسئولياتها ، وعلى أى أساس تقوم ، وكيف تقوم أصلا ! ؟ . . . عدلى وصدقى . وعبد الهادى والنقراشى والهلالى ، وعباس حليم أيضاً الذى كان ذات يوم يتزعم العمال ! وقد يعترض أحدهم فيقول إن هؤلاء ليسوا زعماء . . بل كانوا رجالاً من الطارئين على السياسة المصرية ما لبثوا أن جرفهم طوفان الشعب . . أى ثورته . وأنا لا أوافق على هذا الرأى فهم – هؤلاء الساسة – قد لعبوا أدواراً خطيرة فى تاريخ ثورة الشعب المصرى . ولا يعنينا هنا قيمة تلك الأدوار وأثرها على مستقبل الشعب . . فنيرون مثلا لعب دوراً فى تاريخ الشعب الرومانى ، وكانت همجيته سبباً فى يقظة رائعة عصفت بالإمبراطورية الرومانية التى قامت على البطش . والقياس هنا مع الفارق طبعاً .

وأعود إلى موضوعنا فأقول إن الزعامة السياسية هى باختصار مصالح طبقة معينة تبلورت وتجمعت فألقت – تلك الطبقة – مسئولية حماية تلك المصالح أو تحقيقها إن لم تكن موجودة على كاهل شخص ينتمى إلى هذه الطبقة ، ويشترط فى هذا الشخص أن يكون كفاحه فى سبيل معتقدات طبقته وأهدافها ضخماً مستمراً إلى حد أن جميع أفراد الطبقة المذكورة ينادون به زعيماً . . ليقودهم فى الطريق .

هذا هو التعريف العلمى للزعامة السياسية فى هذا العصر الحديث » .

بهذا الأسلوب العلمى المحدد كان السادات يكتب مقالاته الصحفية فى جريدة « الجمهورية » منذ إنشائها فى ٧ ديسمبر عام ١٩٥٣ حتى عام ١٩٥٨ عندما ترك الصحافة وتفرغ لمهام سياسية أخرى . ورغم أنه كان يكتب مقالاته فى جريدة يومية يتابعها القارىء العادى غير المتخصص ورغم أن الصحافة فى ذلك الوقت كانت ما زالت تعتمد على الخبر التجارى المثير بصرف النظر عن موضوعية الرأى والفكر ، رغم كل هذا كان الأسلوب العلمى المحدد هو المميز لكل مقالات السادات دون استثناء . فقد أراد تحويل جريدة « الجمهورية » تحت رئاسة تحريره إلى منبر للرأى الحر الصادق والفكرة العلمية الموضوعية . ولذلك فهو يختم نفس المقالة بنفس التقييم الموضوعى للدور الذى قامت به الزعامات السياسية فى مصر ما قبل الثورة بصرف النظر عن نوعية هذا الدور ، لأن الذى يهمه كباحث علمى الأثر الذى تركه هذا الدور فى تاريخ مصر الحديث حتى يمكنه تحديد الطريق بالنسبة لمسيرة المستقبل . ولذلك يختم المقالة بتحديد العلاقة العضوية بين الاستعمار والإقطاع فيقول :

« إن المسألة بصراحة هى قصة الاستعمار فى مصر . . وإذا ذكرنا الاستعمار فى مصر فنحن لا نستطيع أن نتجاهل الطبقات التى ارتبطت به وبأهدافه . . فأصبحت مصالحها رهناً ببقائه !

فالاستعمار فى مصر خلق طبقة الإقطاعيين لكى يتحكم عن طريقهم فى محصول الأراضى الزراعية الرئيسى – القطن – ويتحكم عن طريقهم أيضاً فى ملايين العبيد العاملين فى مزارعهم » .

وإذا كنا نعلم كم من مقالات حماسية ومتشنجة تغطى صفحات الصحف اليومية فى ذلك الحين وتنعت الإقطاعيين بالخيانة والعمالة والرجعية ، عندئذ سندرك الدور الريادى الذى قام به السادات فى تعقيل الصحافة المصرية وترشيدها من خلال جريدة « الجمهورية » . فقد كانت الصحافة فى نظر الكثيرين فى ذلك الوقت مجرد تجارة لا تنتمى إلى قداسة الرسالة بصلة ، ذلك راجع إلى أنه أتى على الصحافة فترة طويلة كان محترفوها من الفاشلين الحاقدين على المجتمع ، أو من أولئك الذين أتموا دراستهم المتوسطة أو العالية ولكنهم فشلوا فى معترك الحياة العملية فى مجال

مهنتهم المتخصصة كالمحاماة مثلا أو خاب سعيهم فى الحصول على وظيفة حكومية أو غير حكومية . فما كان أيسر لهذا الصنف من الكتاب الذين يفتقدون إلى كل المناهج العلمية والمعايير الموضوعية أن يصبحوا كتاباً صحفيين من نجوم المجتمع المثقف . فقد اختاروا الطريق السهل المغرض الزاخر بالكلام الفارغ والأخبار الملفقة من نسج خيالهم ، وكذلك السباب والشتائم طمعاً فى ابتزاز المال أو إشباعاً لما يعتمل فى صدورهم من حقد وضغينة على الناجحين فى أعمالهم ، أو المدح والثناء من أجل الحصول على المال السهل الحرام وبذلك تحولت الصحافة إلى سوق للتجارة والمال وبورصة للعقود والصفقات .

وفى رأى السادات – كرائد للتأصيل الفكرى – أن دور النشر التى تصدر صحفاً ومجلات ولا تهدف فقط إلا إلى ما يعود عليها من ربح من الإعلان والدعاية والتوزيع هى مؤسسات تجارية وليست دوراً صحفية . كما أن الذين يعملون فى هذه المؤسسات من محررين ومخبرين ومراسلين ومندوبين ليسوا صحفيين وإنما هم كتبة أجراء ، لا حول لهم ولا قوة ، ولا رأى موضوعى ولا تفكير علمى ولا شخصية ناضجة تميز كتاباتهم .ولذلك يكتب فى جريدة « الجمهورية » فى ٧ ديسمبر ١٩٥٤ ، أى فى الذكرى الأولى لإنشاء الجريدة ، فيقول :

« كان وضعنا يحتم علينا أن نعد إلى جانب الإمكانيات المطلوبة لكل جريدة يومية رأياً قوياً يتفق مع أهداف ثورتنا . . فقد ينجح صحفى لأنه بارع فى « الفبركة » والإثارة ومخاطبة غرائز الجماهير ، وقد ينجح صحفى آخر لأنه يسبق دائماً فى نشر الأخبار . وقد ينجح صحفى ثالث لأنه يجيد التلاعب بالألفاظ . . أما نحن فكان علينا أن نكون « ثواراً » لا صحفيين فقط ! .

كان علينا أن ننشر الحقائق لا الأوهام . .كان علينا أن نقول فى كل صباح للشعب حقيقة جديدة ،كانت خافية عليه بحكم وضع « الصحافة » فى العهود التى مضت .

كان علينا أن نقف إلى جوار الأحرار فى مصر وفى خارج مصر . كان علينا أن ندعو إلى ما نؤمن به . . إلى حرية كل الشعوب ، وحقوق كل الشعوب ، وأمن كل الشعوب . . كان علينا أن نثور على صفحات « الجمهورية » مثلما ثرنا فى الميادين الأخرى » .

أى أنه عندما أعاد السادات إلى الصحافة حريتها بعد حرب أكتوبر المجيدة ، كان ينفذ نفس الخط الفكرى الذى نادى به منذ عشرين عاماً . وهذا يدل على المنهج العلمى الذى يميز تفكيره والذى لم يخالطه أى تناقض بمرور الأعوام . فقد كان يؤمن أن على الصحفى أن يتسلح بالمنهج العلمى الواضح ، وهذا المنهج لن يتأتى إلا عن طريق الثقافة الشاملة والإطلاع الواسع فى كل ميادين المعرفة الإنسانية من علم وفن وفلسفة . وكان هو أول من طبق هذا على منهجه كصحفى وهذه عادته دائماً ، لا يدعو إلى القيام بعمل ما إلا ويكون أول من يقوم به هو نفسه حتى يثبت عملياً أن المنهج العلمى السليم لا يحتمل أى إنفصال بين الأقوال والأعمال. ولذلك نجده – على سبيل المثال – يطبق منهج علم النفس على الخط الذى يجب أن تسلكه الدول الصغيرة بحيث تتخلص من عقد النقص التى غالباً ما تقف عقبة فى سبيل تحررها وتقدمها ، فيقول فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٦ على صفحات « الجمهورية » :

« إن أخطر ما يفتك بالدول الصغيرة ويوقعها فريسة للدول الاستعمارية ، هو ذلك الشعور بالنقص الذى تغرسه تلك الدول الاستعمارية فى نفوس الشعوب الصغيرة . إن هذه العقدة هى أفتك أسلحة الاستعمار اليوم ، والإنسان يتلفت حواليه الآن ويأسف لأن دولا صديقة من الدول الصغيرة تترك شعوبها فريسة لهذه العقدة . . وأخطر من كل هذا أن تكون هذه العقدة لدى حكام هذه الشعوب . . وسبيل الاستعمار دائماً هو غرس هذه العقدة فى نفوس الحكام أولا . ثم توصيلها للشعوب عن طريق هؤلاء الحكام وعن طريق العملاء الآخرين الذين يبيعون أنفسهم للاستعمار » .

على هذه الدعوة إلى الأصالة القومية والاعتزاز بالنفس والوطن يقيم السادات مقالته ، مستخدماً فى ذلك منهج علم النفس الذى يوضح أن عقد النقص يمكن أن تصيب الشعوب كما تصيب الأفراد ، ولكن أثرها على الشعوب أكثر تدميراً لأنها تعوق تقدمها عندما تقارن نفسها – بعين الألم والحسرة والسخرية – بالشعوب الأكثر تقدماً . وهذا بدوره يثبط عزيمتها مما يضاعف الفجوة الحضارية بينها وبين الشعوب التى سبقتها فى مضمار الحضارة . ومن المعروف فى علم النفس أن عقد النقص يمكن أن تفقد الشعوب الرغبة فى العمل والتقدم بسبب روح اليأس المدمرة وجو السخرية المريرة الذى يسيطر على مزاجها فيجعله سوداوياً . ولذلك يختم السادات مقالته بدعوة صريحة إلى التأصيل الفكرى والقومى فيقول :

« يجب أن تتحرر الشعوب الصغيرة من خرافات الاستعمار وأساطيره ، لأنها كالسوس تنخر فى مقاومة هذه الشعوب . . وأفتك هذه الأساطير سيظل هو الشعور بالنقص . . فإلى متى سيظل بعض الحكام يحطمون مقاومة شعوبهم ، لأنهم مرضى بهذه العقد ؟ ! »

وهذا ما حاولت إسرائيل أن تستغله بعد هزيمة ٥ يونيو عام ١٩٦٧ فقد دأبت على أن تبث كل عقد النقص الممكنة فى نفس الشعب العربى عن طريق تركيز الأضواء على أسطورة جيش إسرائيل الذى لا يقهر ، وقد أدرك السادات مغزى هذه الحملة النفسية واضعاً فى اعتباره أننا نعيش فى عصر العلوم الحديثة وليس فى عصر الأساطير الخرافية . وبذلك تكون إسرائيل سائرة فى اتجاه مضاد لتيار العصر . وباتباعنا المنهج العلمى فى التخطيط لحرب التحرير نكون قد أخذنا العصر والعالم كله إلى جانبنا . ومن هنا كانت حتمية انتصار أكتوبر المجيد . وهذا يذكرنا بحديث السادات مع الصحفية اليوغوسلافية دارا يانكوفيتش فى ٢٧ مايو ١٩٧٣ والذى يلقى فيه الضوء العلمى التحليلى على نفسية الشعب العربى وماذا سوف يحدث فى حالة المواجهة العسكرية مع إسرائيل فيقول :

« مفيش شك هناك فى الموقف العربى سلبيات ولكن أيضاً هناك فى الموقف إيجابيات أكثر من السلبيات ، للأسف ناس كثير ما بتعرفش سيكلوجية أو نفسية الشعب العربى ، لما ييجى يوم المواجهة مع إسرائيل كل هذه الخلافات وكل المحاولات اللى بتعملها أمريكا عاشان تصدع من الجبهة العربية كل ده بيذوب وينتهى يوم ما بتحصل المواجهة فعلا مع إسرائيل . »

وهذا ما حدث بالفعل أثناء وبعد حرب أكتوبر المجيدة مما يوضح لنا المدى الذى يمكن أن يبلغه المنهج العلمى والتحليل الموضوعى فى التنبؤ بالمستقبل والثقة به ، لأنه كان من الحتمى أن ينتصر المنهج العلمى الذى اتبعه العرب فى التخطيط للحرب على الأسطورة الخرافية التى داعبت أحلام قادة إسرائيل وأثرت بالتالى على أفكارهم وسلوكهم . ولم يكن المنهج العلمى العربى خافياً على أحد بل كان الرئيس السادات يبشر به فى معظم خطبه وأحاديثه حتى يترسب فى العقل الباطن ويتحول إلى قطعة من الوجدان العربى ، فيقول مثلا فى افتتاح دورة المجلس الوطنى الفلسطينى فى ٢٨ فبراير ١٩٧١ :

« إن هدفنا فى هذه المرحلة ، وبعملنا السياسى ، هدف ثلاثى :

أولا – تعميق التزام الصديق .

ثانياً – تحييد الخصم .

ثالثاً – عزل العدو . »

ثم يضيف الرئيس :

« إن التحرير لا يتحقق بمجرد الفوران العاطفى أو بمجرد الرغبة فيه وإنما يتحقق التحرير باحتواء منطق العدو

وتطويق سياسته وفى هذا الجو فإن التحرير ينجز مهمته .

ولسنا من الذين يقبلون أن يحاسبوا الناس بأقوالهم ولكننا من الذين يريدون أن تكون الأفعال أساس الحساب .

لا نقبل بغير ذلك من رفاق نضالنا ، ونقبل به من هؤلاء الرفاق فى النضال إذا وجهوه إلينا . »

ثم يختم السادات خطابه موضحاً كل الاحتمالات التى يمكن أن تطرأ على الموقف العربى ، ومؤكداً الخط الاستراتيجى الذى يتحتم اتباعه فيقول :

« إن من المحتمل أن تكون هناك استراتيجيات متعددة فى مواجهتنا للعدو ، ولكننا نرى أن من الضرورى والحتمى أن تكون هذه الاستراتيجيات المتعددة كلها صادرة ونابعة من استراتيجية واحدة عظمى تكفل تحقيق الإرادة العربية .

ويتحتم على العقل العربى الثورى أن يحدد المراحل اللازمة للتحقيق المستمر والمترابط بين الاستراتيجيات المتعددة وبين الاستراتيجية العربية الواحدة العظمى وهذا هو التحدى الذى تواجهه الآن . »

وامتداداً لنفس المنهج العلمى ، نجد السادات - بعد عام بالضبط من خطابه هذا الذى أعلن فيه استراتيجيته - يؤكد فى حديثه مع مجلة « نيوزويك » فى ٢٨ فبراير ١٩٧٢ :

« إنكم تريدون أن تضعونا فى حالة يأس ، ولكنكم لن تنجحوا فى ذلك ، إن فيتنام الشمالية ليست فى حالة يأس رغم الانتقام الرهيب والخسائر التى توقعها بها أمريكا . إن إسرائيل ستدفع الثمن غالياً ، وتذكر كلماتى هذه . فإن هناك مفاجأة كبرى تنتظرهم . »

وليس هذا رجماً بالغيب لاتفاقه تماماً مع ما حدث فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ولكنه استقراء للمنهج العلمى الذى يدرس القضية من كل جوانبها الثابتة والمتغيرة ثم يبنى النتائج على الأسباب الموضوعية التى سبقتها . فقد كان السادس من أكتوبر نتيجة حتمية للخط المنهجى الذى اتبعه السادات منذ توليه رئاسة الجمهورية والقيادة العليا للقوات المسلحة ولذلك كان متأكداً من المفاجأة الكبرى التى تنتظر إسرائيل ليس على سبيل التفاؤل أو التبشير أو الدعاية ولكن على سبيل الدراسة والبحث والإعداد العملى لذلك اليوم التاريخى . وعندما جاء اليوم كان سلوك السادات سلوك الرائد العظيم الذى يعرف موقع خطواته جيداً . لقد ضرب لنا المثل الأعلى فى ضبط النفس وتجنب التشنج وبعد النظر مهما كانت الأحداث التى يمر بها الوطن جسيمة ومهما كانت الأيام التى يعيشها مصيرية . . ولا شك فإن تماسك القائد شرط أساسى لتماسك الأمة وخاصة فى اللحظات التى يحدد فيها مستقبلها لأجيال عديدة قادمة . وإن كان السادس من أكتوبر فى نظر الشعب العربى هو يوم الملحمة الأسطورية فإنه فى نظر السادات ذروة الخط المنهجى الذى بدأه عندما تولى رئاسة الجمهورية فى أكتوبر ١٩٧٠ . ولذلك كانت أيام المعركة المجيدة بالنسبة له أيام عمل لاحقة لسنين الكفاح الصابر والإيمان الواثق والعمل الصامت والمنهج العلمى .

وقد يندهش القارىء عندما يعلم أن هذه الاستراتيجية العربية الشاملة التى ينادى بها السادات وينفذها الآن بالفعل كانت الخط المميز لفكره منذ قيام الثورة . ولكن الظروف الموضوعية حددت له دور المفكر أكثر من القيام بدور المنفذ . نجده ينادى بنفس المنهج فى كتابه السياسى الخطير « قصة الوحدة العربية » الذى صدر عام ١٩٥٧ فيقول ص ١٥ :

« أريد أن أقول إن مصر قد درست فى اهتمام زائد - أخيراً - السياسة العربية فى هذه المنطقة من الشرق الأوسط . . وكانت دراسة شاملة عميقة اعتمدت على الواقع والتاريخ ، فاستمدت اتجاهاتها من مآسى الماضى ودروس الماضى ومحن الماضى .

درست مصر – إذن – السياسة العربية وعلاقاتها بالعالم العربى ، بواقعه وبظروفه ، وبأهدافه ومصالحه . ثم درست أيضاً علاقات هذا العالم العربى بالكتل المختلفة ، وذلك بعد أن درست ميثاق الضمان الجماعى ، واستعرضت مصر خلال دراستها هذه كل المآسى التى حلت بالعرب كأمة نتيجة للسياسات المتناقضة ، التى لا تستمد أصولها من الواقع والتاريخ والتجارب العديدة على مر السنين !

ثم أقول إن مصر بعد أن تمت دراستها تلك قررت أن تبلور سياستها هى ، وتحددها تحديداً واقعياً واضحاً ، وانتهت – أى مصر – إلى جعل تلك السياسة داخل إطارين لا تخرج عنهما :

الوطنية المصرية ، والقومية العربية ، بحيث لا يظهر تناقض بينهما ، وبحيث لا تكون مصلحة مصر وسلامتها ومصالحها عاملاً من عوامل إلحاق الضرر بمصالح وسلامة دولة عربية أخرى » .

وهذا هو نفس الخط الذى برز فى خطاب السادات فى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى ٢٣ يوليو ١٩٧٢ عندما علق على قراره بإنهاء مهمة الخبراء السوفييت بأن المعركة أصبحت وطنية قومية بحتة ولن نخوضها سوى الوطنية المصرية والقومية العربية ، وأثبتت هذه الاستراتيجية الواقعية العلمية نجاحها الباهر فى حرب أكتوبر المجيدة ، مما يدل على أننا لو كنا طبقناها علمياً وعملياً منذ نادى بها السادات فى كتابه « قصة الوحدة العربية » لكان فى إمكاننا تجنب النكسات التى تعرضت لها الأمة العربية . بل إننا نجده يحدد هذه الاستراتيجية فى ٩ فبراير ١٩٥٤ على صفحات مجلة « التحرير » بوضوح لا يحتمل أى لبس وذلك فى مقاله بعنوان « إنى أخشى على الشعوب العربية من نفسها » فيقول :

« ليس لمصر أن تبيح لنفسها التدخل فى أى شأن من شئون شقيقاتها العربية . . سواء كانت هذه الشئون داخلية أو خارجية ، فلكل بلد عربى أن ينتهج السياسة التى يرتضيها شعبه ، ولكل بلد عربى ساسته المسئولون عن خيره ورفاهيته . »

والتفكير الموضوعى يؤكد أنه لا توجد أية دولة على وجه الأرض تقبل أن تتدخل فى شئونها دولة أخرى مهما كانت العلاقة وثيقة بين الدولتين ، وإذا كان للوحدة أن تنشأ بين دولتين فلا بد أن يكون هذا على أساس التداخل بين المصالح الحيوية والأهداف المشتركة للدولتين المعنيتين . وبون شاسع بين التداخل بين المصالح وبين التدخل فى الشئون الداخلية أو الخارجية . والضمان الوحيد لقيام الوحدة على أساس علمى مدروس هو الإيمان الواثق بأن الإنجازات التى يمكن أن تتم من خلال الوحدة لا يمكن للدول المعنية أن تقوم بها بدونها . أى أنها حتمية ضرورية للقوة والحضارة والتقدم والحياة على مستوى العصر الذى لا يلتفت كثيراً إلى الكيانات الصغيرة . وعلى هذا يختم السادات مقالته تلك بقوله :

« ومصر تؤمن إيماناً صادقاً ، بأن أى ضعف أو تفكك يعترى أية دولة عربية ، إنما هو مصيب بقية الدول العربية كلها . فضعف لبنان يوهن عزم سوريا ، وضعف سوريا هدم لكيان العراق ، وضعف العراق انهيار لكل هذه الدول ، وكل حدث فى أية دولة من هذه الدول لا بد أن يترك أثره وصداه فى مصر . »

وقد بلغ المنهج العلمى حداً كبيراً فى تفكير السادات لدرجة أنه مكنه من التنبؤ عام ١٩٥٤ بما حدث فى هزيمة عام ١٩٦٧ . فقد كتب مقالة بعنوان : « أيها العرب . . هل آن لنا أن نتحد ؟ » فى مجلة « التحرير » فى ١٣ أبريل ١٩٥٤ وفيها حذر من أن طريق العبارات الإنشائية والخطب الرنانة الذى سلكه العرب لن يجدى فتيلا أمام المنهج العلمى الإسرائيلى الذى أدرك جيداً أن المستقبل ترسمه الأعمال المدروسة أما الأقوال المعسولة فمصيرها أدراج الرياح . وإذا استمرت الحال على هذا الوضع فسيأتى اليوم الذى تدق فيه إسرائيل أبواب العريش أو القنطرة أو الإسماعيلية . ولنترك المقالة تتحدث عن نفسها كنوع من الشهادة التاريخية :

« لقد ظلت الدول العربية منذ عام ١٩٤٨ تقول إنها ستفعل بإسرائيل كذا وستصنع بإسرائيل كيت . . وظل زعماء العرب يلقون الخطب الرنانة ، ويكتبون المقالات المنمقة ، فى اتحاد العرب وتآزر العرب ، وفيما بينهم من حب ووفاء ، وظلوا يترنمون ببطولة الأجداد وشجاعة الآباء . . وما زالوا حتى الآن ينظمون القصائد والأشعار فى هذه المعانى . . وما زالوا حتى الآن يجتمعون وينفضون ، وينفضون ويجتمعون ، ثم تطلع علينا الصحف بأن الجامعة العربية قررت تنفيذ مشروع الضمان الجماعى وأنه لم يبق غير وضع الطرق التى ينفذ بها هذا المشروع . . كل هذا واليهود الصهيونيون لا يقولون شيئاً . . بل يمسكون ببنادقهم ومدافعهم الرشاشة ، تارة يصوبونها نحو الأردن ليبيدوا أهل قرية عربية ، وتارة يصوبونها نحو سوريا ليقتلوا بضعة عشر نفساً من الأهالى العزل ، أو من حراس الحدود ، وفى كل مرة يجلس زعماء العرب ليكتبوا احتجاجات رائعة الأسلوب ، أخاذة الألفاظ ، منمقة المعانى ثم يتلقى مجلسا الأمن أو هيئة الأمم هذه الاحتجاجات لتأخذ طريقها إلى مصيرها المحتوم . . وهو الضياع والإهمال والتلاشى بين جسام المسائل التى تهم الدول الكبرى وتهم شعوبها . .

هذه حقيقة نعترف بها كارهين .

ولكن هناك حقيقة أخرى . . هذه الحقيقة هى أن مصر لا تملك أن تفرض على الدول العربية سياسة معينة . . ولست أذيع سراً إذا قلت إن حكومة مصر تعلم حق العلم أن إسرائيل تسلح نفسها ، وتحصن حدودها ، وتزيد من أسلحتها ، وأن كل نقطة من الدم تنفق فى شرايين إسرائيل لتزيدها قوة . . تعلمها مصر حق العلم ، وتعمل فى الوقت نفسه على أن تزيد فى شرايينها أضعاف ما تزيده إسرائيل . ولو غفلنا عن هذه الحقيقة فلا بد أن نفتح أعيننا يوماً لنجد إسرائيل تدق أبواب العريش أو القنطرة أو الإسماعيلية . »

هذا هو المنهج العلمى الذى يلقى الضوء الموضوعى على الحقائق الراهنة ولو كان كارهاً . فأول شرط لأى منهج علمى هو مواجهة الحقائق مهما كانت مريرة ثم دراستها وتحليلها حتى يمكن توجيه دفتها للصالح العام بعد ذلك . اما دفن الرأس فى الرمال كما تفعل النعامة فهو خداع صريح للنفس وليس للعدو على الإطلاق . ولذلك يكتب السادات مقالة فى مجلة « التحرير » فى ١٢ يناير ١٩٥٤ بعنوان : « أخرجوا رؤوسكم من تحت الرمال » وفيها يقول بصراحة موضوعية :

« نحب أن نصارح السادة الزعماء ، فى جميع الدول العربية ، بأن الشعوب العربية قد سئمت تلاعب الاستعمار بعقول زعماء العرب ، وأن هذه الشعوب باتت تنتظر من هؤلاء السادة ، أن يكونوا أكثر التزاماً للجد وابتعاداً عن التواكل والهزل ، لأن كل اجتماع لهم ، لا يتقدم بالشعوب العربية خطوة ، يتأخر بها عدة خطوات .

نريد أن يدرك هؤلاء الزعماء ، أن الشعوب العربية لم تعد تغفر لهم ترفقهم بالمستعمرين ، أو إحجامهم عن البت فى خطير المسائل بالحزم والإخلاص والصراحة . .

نريد أن يدرك هؤلاء السادة أن الشعوب العربية لا يمكن أن تغفو أو تتغافل عن التسويف و « المطوحة » ، فإن كل دقيقة تضيع من رصيد استعداداتنا تضاف إلى رصيد خصومنا من الاستعداد . .

ونستطيع أن نصيح بملء أفواهنا ، باسم الشعوب العربية كلها ، قائلين للسادة المجتمعين من زعماء الدول العربية : « أيها السادة . . انقضوا . أو انفضوا . »

ونحن لا نطالبكم بأن تنقضوا على شعب معين ، ولا على أمة بعينها ، ولكنا نطالبكم بأن تنقضوا على العمل المثمر ، العمل الذى يشعرنا بأنكم قد أخرجتم رؤوسكم من تحت الرمال . »

ولم يقتصر الأسلوب العلمى فى مقالات السادات على مواجهة الحقائق ووضع النقاط على الحروف والاستشهاد

بالتاريخ والاتفاقات والمعاهدات والمستندات التى لا تقبل أى جدل ، بل إنه يتكلم بلغة الأرقام التى لم يتعود العقل العربى على تقبل جفافها ، وذلك فى جريدة يومية مثل « الجمهورية » لا يطلع عليها سوى القارىء العادى . ولكن السادات يرى أنه آن الأوان للتفكير بأسلوب موضوعى ومنهج علمى حتى لا نضيع الوقت والمجهود فى الجـــدل واختراع البراهين المنطقية التى تساند رأينا ، لأنه لا شىء من كل هذا يستطيع أن يقف فى وجه لغة العلم . ولا شك فإن الأرقام لا تحتمل أى تأويل أوتهويل أو تهوين لأنها تضع الحقائق عارية من كل تزييف أو تلوين . ولذلك يكتب السادات مقالة بعنوان « أرقام » بتاريخ ٩ أغسطس ١٩٥٦ فى جريدة « الجمهورية » يرد فيها على أنتونى إيدن – رئيس الوزراء البريطانى فى ذلك الوقت – الذى أمعن فى قلب الحقائق واستخف بعقول العالمين بأن وصف قرار تأميم شركة قناة السويس بأنه اغتصاب وسرقة من جانب مصر ورتب على ذلك أن مصر لا يوثق بكلمتها ونسى أو تناسى أن شركة قناة السويس شركة مساهمة مصرية بنص عقد الامتياز ، وأن جميع الاتفاقات والمعاهدات منذ إنشاء القناة إلى يومنا هذا بما فيها معاهدة الآستانة عام ١٨٨٨ وتنازل تركيا فى معاهدة لوزان ومعاهدة ١٩٣٦ واتفاق ١٩٥٤ ، كل هذه الاتفاقات تنص صراحة على أن القناة جزء لا يتجزأ من مصر . ولنترك المقالة توضح بالأرقام كم تكبدته مصر فى سبيل إنشاء القناة . يقول السادات :

« تحدثت فى مقالاتى السابقة بالمنطق والمعاهدات ومن التاريخ الرسمى . . واليوم أتحدث بالأرقام . . وها هى تفاصيل التكاليف التى تكبدتها مصر . إن كل رقم من هذه الأرقام يحكى مأساة وتاريخاً :

٣,٤٢٦,٠٠٠	جنيه	قيمة أسهم مصر فى القناة
٣,٣٦٠,٠٠٠	»	قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة .
٤٠٠,٠٠٠,–	»	ثمن أراضى تفتيش الوادى
١,٢٠٠,٠٠٠	»	تعويض للشركة طبقاً لاتفاق ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩
١,٢٠٠,٠٠٠	»	نفقات إنشاء الترعة الحلوة
١,٤٠٠,٠٠٠	»	نفقات حفلات افتتاح القناة
٥,٨١٤,٠٠٠	»	فوائد وسمسرة ونفقات تحكيم

فيكون المجموع هو ١٦,٨٠٠,٠٠٠ ستة عشر مليوناً وثمانمائة ألف جنيه . .

وتكلفت القناة كلها ثمانية عشر مليوناً من الجنيهات . . ثم توالت بعد ذلك الكوارث . »

إن من يلقى نظرة سريعة على هذه الإحصائية الخطيرة لن يطرأ على باله أنها مقالة صغيرة فى جريدة يومية ، ولكنه سيظن أنها صفحة من رسالة جامعية للحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراه . وهذا يدل على مدى اتساع الخلفية العلمية والثقافية التى يكتب السادات من واقعها . فهو يضع الأرقام والحقائق والوثائق والمستندات تحت تصرف القارىء العادى حتى يوسع من أفقه ويعمق من بصيرته لكى يتمكن من تكوين رأى موضوعى خاص به وبذلك يساهم فى تكوين الرأى العام الذى يعبر عن فكر الأمة كلها وسلوكها . ومن هنا كان إعجاب أنور السادات بآراء الفريق عزيز المصرى التى كثيراً ما أدلى بها إلى صغار الضباط الذين عملوا تحت قيادته ومنهم أنور السادات نفسه . لقد اعتاد عزيز المصرى أن يقول لهم :

« اقرأوا . . اقرأوا كل كتاب . . اقرأوا فى السياسة ومذاهبها . . والاقتصاد وفنونه ، والاجتماع وأبوابه . . اقرأوا وأضيئوا فى رؤوسكم هذا المصباح الذى وضعه الله فيها لكى يضاء لا لكى يهمل ويهال عليه التراب . .

اقرأوا . . ثم اضربوا فى الأرض . . واعرفوا الناس ، وجربوا بأنفسكم كل شىء . . ولا تتقيدوا بدعوة ،

ولا بزعيم . . ولا تربطوا أنفسكم برأى ، قد ترون غيره غداًإذا ما استنارت بالعلم رؤوسكم . »

وقد سجل السادات بنفسه رأى عزيز المصرى فى « الجمهورية » بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٥٤ عندما كان ينشر كتابه « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » مسلسلا لأول مرة على صفحاتها . ويقصد عزيز المصرى بهذا الكلام أن التقيد الحقيقى بالدعوة أوبالرأى أو بالزعيم لا بد أن ينهض على أساس علمى ، لأن الارتباط القائم على الانفعال السريع والحماس الطارىء لا بد أن يضعف فى نهاية الأمر بخمود الانفعال وانطفاء الحماس . هذا هو القانون الذى يحكم حركة الانفعال الحماسى ، أما القانون الذى يحكم الاقتناع الموضوعى والنظرة العلمية فيؤكد لنا أن مرور الأيام وتغير الظروف لن يؤثر بالسلب على هذا الاتجاه ، هذا إذا لم يؤثر بالإيجاب . فالأمانة العلمية تقتضى وضع الحق فى نصابه بصرف النظر عن كل الاعتبارات الذاتية التى تتغير من وقت لآخر طبقاً للظروف النفسية والضغوط اليومية .

وهذه الأمانة العلمية هى التى جعلت السادات يمسك عن تناول حرب فلسطين بالدراسة فيما يختص بأثرها على التمهيد لثورة يوليو ١٩٥٢ عندما بدأ فى تأليف كتابه « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » . إذ أنه لم يمارس هذه الحرب على الطبيعة وما كتب عنها لم يكن كافياً للباحث العلمى لكى يدلى برأى موضوعى فيها . وعلى صفحات « الجمهورية » بتاريخ ٣٠ مارس ١٩٥٤ يعمد السادات إلى تأصيل مفهوم الأمانة العلمية فى وجدان القارئ العادى فيقول :

« إن قصة حرب فلسطين على حقيقتها قصة مثيرة مفجعة . . هى مأساة حقًّا ومأساة من النوع الذى لا ينسى . .

ولقد حاولت أن أكتب الصفحات الخاصة بالتمهيد لهذه الثورة فى أثناء حرب فلسطين . . ولكننى أمسكت . . فما أعرفه أنا عن هذه الحقبة من حياة شعب مصر وجيشها أعرفه بالسمع ، لا بالممارسة والتأثر والانفعال . . وعندما أتذكر ما كنت أسمعه خلال تلك الأيام من مآسى الحرب ، وخيانة القيادات ، ترتبط هذه الذكريات بأيامى الخاصة ، ومتاعبى الشخصية إذ كنت إذ ذاك سجيناً . . فلم يكفنى حبس حريتى ، ولكن كان مقدراً على أيضاً أن أحرم من خوض هذه الحرب المقدسة ، التى طالما تاقت نفسى لخوضها . .

وأيام السجن يمكن أن تكون لها صفحات . .وأيام الحرب ، لها بدورها صفحات . . وإن ارتاحت نفسى إلى ذكر صفحات من أيام سجنى فى يوم من الأيام ، فلن ترتاح لكتابة شىء عن أيام الحرب التى لم أخضها ، والتى خاضها زملاء لى ، كاتبون . . »

وإذا كانت الأمانة العلمية تحتم على الدارس ألا يتناول موضوعاً ما بالبحث والكتابة والمعالجة إلا إذا اختبره شخصياًّ وجمع بين يديه المادة العلمية الخصبة التىتمكنه من دراسته ، فإن هذه الأمانة تحتم أيضاً أن يعالج الواقع المادى الملموس الذى يعيشه بموضوعية علمية قائمة على تحليل الجوانب المتعددة لهذا الواقع دون محاولة منه لفرض مبادئ مسبقة أو مقاييس جاهزة أو قوانين معدة أو معايير مستوردة . وهناك قانون فى علم الحياة يقول إننا لو استوردنا نباتاً معيناً من بقعة أخرى وقمنا بزراعته فى التربة الجديدة دون مراعاة للظروف البيئية والجغرافية والبيولوجية الجديدة ، فسوف يحدث أمر من اثنين : إما أن يموت هذا النبات الجديد لعدمتمكنه من التأقلم مع الظروف الجديدة أو أن يفسد التربة بتشعبه فيها وإدخاله عناصر غريبة فيها . وما ينطبق على التربة الزراعية ينطبق على الشخصية القومية لأن القوانين العلمية يمكن أن تطبق على مستويات متعددة وجوانب مختلفة من الحياة الإنسانية . فلا بد أن يوضع فى الاعتبار قانون النسبية وقانون الاحتمالات والثوابت والمتغيرات ولا بد من الاستعانة بعلم التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع وكذلك علم النفس وعلم الحياة وكل العلوم التى يمكن أن تساهم فى تطوير الأمة وتقدمها دون مساس

بخصائصها الجوهرية وأصالتها الفكرية وشخصيتها القومية . فهذه هى الثوابت التى يجب رعايتها والمحافظة عليها عن طريق التأصيل والبلورة والتجسيد ، لأنه لا يوجد شعب على وجه هذه الأرض يستطيع أن يحيا بأصالة دون هذه الثوابت التى يفخر المواطن الحق بالانتماء إليها . بل إن هذا لا ينطبق فقط على شخصية الأمة بل ينطبق أيضاً على شخصية الفرد. وحكم الناس على شخصية فرد معين ينهض على الخصائص الثابتة المميزة لشخصيته . أما إذا فقد هذه الخصائص فإن حكم الآخرين يصدر فوراً بأنه عديم الشخصية . ونحن نعلم جيداً كم يحمل هذا الحكم فى طياته من إهانة بالغة . ولنا أن ندرك الآن أنه لو فقدت أمة ما خصائصها القومية بحكم التبعية أو التقليد أو فقدان الثقة فى الذات فماذا سيكون حكم الأمم الأخرى عليها ؟ واضح جداً أنه سيكون نفس الحكم الذى صدر على الفرد عديم الشخصية .

وإنعدام الشخصية القومية لا يعنى إلا فقدان كل الضوابط والمقاييس والمعايير والأطر التى يمكن لأية أمة أن تعبر عن نفسها من خلالها ، وبالتالى تصبح إمعة بين الأمم التى تفخر بأصولها وجذورها وتقاليدها . ومن الواضح أيضاً أن هناك بوناً شاسعاً بين التقاليد والتقليد . فالتقاليد القومية تعنى المحافظة على تراث الأمة وحضارتها وثقافتها مع نظرة أصيلة على منجزات العصر والاستفادة من كل ما يمكن أن يضيف جديداً نافعاً إلى هذا التراث ، أى أن التقاليد الحقيقية تعنى الأصالة مع المعاصرة ، أما التقليد فيعنى المعاصرة فقط ، أى التقليد الأعمى الذى يجعل الأمة لا فى العير ولا فى النفير وبالتالى تفقد وزنها بين مختلف شعوب العالم المعاصر. ولذلك يطبق السادات نفس المنهج العلمى فى كتابة « معنى الاتحاد القومى » فيقول ص ٥ :

« والخطأ دائماً يأتى من محاولة تطبيق ما يحدث فى بلد ما على ما يحدث فى بلاد أخرى ، وكذلك من محاولة تطبيق ما حدث فى بلاد أخرى خلال فترات تاريخية مماثلة على ما يحدث فى بلد ما . إن هذا التطبيق الأعمى يؤدى دائماً إلى نتائج وخيمة ، بل أحياناً إلى مآس دامية . .

وإذا أخذنا البلاد التى استعمرت فترة من فترات تاريخها ثم تحررت واستقلت ، نجد أن كل بلد منها قد ثار على الاستعمار وتحرر بطريقة اختلفت من بلد إلى آخر .

قضية التحرر واحدة دائماً ، ولكن الكيفية التى يتم بها هذا التحرر لا بد أن تختلف تبعاً لاختلاف الظروف والأوضاع والملابسات .

فهى تختلف مثلاً تبعاً لـ :

* اختلاف نوع الاستعمار
* اختلاف الكيفية التى تم بها الاستعمار والسيطرة
* اختلاف طبيعة الشعب المستعمر وجغرافيته
* المرحلة التاريخية السابقة على الاستعمار
* المحاولات التى قامت للتخلص منه وخبرة الشعب الذاتية فى الكفاح ضده .
* وضع البلد المستعمر من العالم وكذلك وضع البلد المستعمر
* المرحلة التاريخية التى تم فيها الاستعمار
* المرحلة التاريخية التى يتم فيها التحرر
* الوضع العالمى .

وليست هذه بالتأكيد هى كل العوامل ، فقد أوردناها على سبيل التمثيل لا الحصر. .

ولكننا لو أخذنا بلداً كمصر مثلاً فنحن حينئذ لا نستطيع أن نطبق عليها ما حدث فى الصين ، ولا ما حدث

فى أندونيسيا ، ولا ما يحدث الآن فى الجزائر . . كل بلد من هذه البلاد سلك ويسلك إلى الحرية طريقاً مختلفاً عن الطريق الذى سلكه غيره لأختلاف العوامل السابقة فى هذا البلد عنها فى البلاد الأخرى . .

ولهذا ، ومن حيث إن الطريق الذى يسلكه كل شعب إلى التحرر مختلف ، فلا بد أن يكون الوضع بعد التحرر مختلفاً أيضاً .

صحيح أن الدول المختلفة تكون قد استقلت وتحررت وانتقلت من بند المستعمرات إلى بند الدول ذات السيادة ولكن الأوضاع فى هذه البلاد المستقلة لا بد أن تكون مختلفة ، وإن تمتعت جميعها بالحرية والاستقلال .

والاختلاف هنا ليس عامل ضعف ، إنه عامل قوة ، فالشعب حين يثور على القوة الاستعمارية التى تستعبده يختار دائماً أنسب الطرق لإنجاح ثورته ، واختياره هذا لا يكون وليد الصدفة ، ولا تتفتق عنه عبقرية واحد من الناس ، ولكنه اختيار مستمد من خبرة الشعب الطويلة التى تكونت لديه خلال العشرات أو المئات أو ربما الألوف من السنين التى كان عليه فيها أن يكافح أعداءه ويخلص بلاده من ربقتهم .

ولهذا فإن وسائل المقاومة التى يستنبطها كل شعب تختلف أيضاً — تبعاً لاختلاف الظروف المشار إليها — من بلد إلى آخر ، ولكن الأمر المؤكد هو أن الوسيلة التى يختارها الشعب هى أنسب وسيلة مقاومة بالنسبة له ولتاريخه ولظروفه . . »

وهذا ما قصده السادات عندما كرر أكثر من مرة فى خطبه وأحاديثه قبل السادس من أكتوبر المجيد أن قرار الحرب سيكون مصريًّا مائة فى المائة فنجده مثلا يقول فى حديثه مع الصحيفة اليوغوسلافية دارا يانكوفيتش فى ٢٧ مايو ١٩٧٣ ، أى قبل أكتوبر المجيد بحوالى أربعة شهور .

« أنا باقول إحنا طول عمرنا قرارنا من إرادتنا إحنا ، وإحنا اللى نملك قرارنا . . يوم ما تكتمل التعبئة الشاملة علشان المواجهة الشاملة إحنا ما بنعملش حساب لقاءات الكبار أو مناقشات الكبار . وادى إحنا شفنا لقاء قبل كده تم فى عشرين مايو فى السنة الماضية بين نيكسون وبريجنيف فى موسكو وشفنا أنه ما طلعناش بنتيجة أبداً بل للأسف تأخرت القضية . . لذلك المواجهة الشاملة ببساطة معناها إنه لما تكمل إعدادنا كاملاً ، وقضيتنا فى أيدينا وبناخد إحنا قرارنا فى الوقت اللى نراه إحنا مناسب لنا . . »

وفى نفس الحديث يقول السادات فيما يختص بأصالتنا القومية فى اختيارنا للاشتراكية كمنهج فكرى وحياتى أننا :

« بلد اختار الاشتراكية بمحض حريته ليس إرضاء للاتحاد السوفييتى أو إرضاء لأى أحد . . ليه ؟ لأنه حل حتمى لمشاكلنا ، اخترنا الاشتراكية وبالتالى فنحن ضد الإمبريالية والاستعمار من ناحية المبدأ . »

وبرغم اختيارنا للاشتراكية ووقوفنا ضد الإمبريالية والاستعمار فقد انهينا مهمة الخبراء السوفييت لأن هذا لا يتعارض ببساطة مع ذاك . ولعزمنا على أن يكون قرارنا للحرب مصريًّا مائة فى المائة ونفس الوضع بالنسبة لانتصارنا ونحن لم ننه مهمة الخبراء السوفييت إلا بدافع من التأصيل القومى والفكرى لأنه لم يحدث فى التاريخ أن حارب شعب من أجل شعب آخر وعلى أرضه ، فهذا بطبيعته يناقى التفكير العلمى الموضوعى . ولذلك كان قرارنا قوميًّا وليس مجرد مناورة سياسية :

« وأول من يعترف بهذا الاتحاد السوفييتى ، إن احنا فى هذه القرارات ما اتفقناش مع أمريكا من خلف ظهر الاتحاد السوفييتى أو لعبنا لعبة الشرق والغرب أو اشتغلنا بوجهين أو بسياستين ، إنما كان لنا وجه واحد وسياسة واحدة وأول من يعترف بهذا هو الاتحاد السوفييتى لأنه ثبت له إن القرارات وطنية وليس بيننا وبين الغرب أى اتفاق أو اتصال . »

وليس هذا خطًّا جديداً على فكر السادات وفلسفته وإنما ترجع أصوله إلى البدايات الأولى لاشتغاله بالسياسة .

فمثلا نجده يعلن – أيام عمله سكرتيراً عامًّا للاتحاد القومى – أن الاشتراكية مأخوذة أصلاً من تقاليد ريفنا . فيقول فى خطاب قومى فى مؤتمر عقد فى بلدة التلين بمركز منيا القمح فى ٤ يونيو ١٩٥٩ :

« أنه كان لابد من أن نجد النظام الذى يكفل للشعب أن يحكم نفسه بنفسه ، ولذلك كان لازماً أن نبتدئ من القرية الصغيرة التى هى أصل البلاد . . إن الحياة فيها تقوم على التعاون والمجاملة فى السراء والضراء وهو ما يسمونه فى الخارج بالاشتراكية ونحن نريد أن يعم هذا النظام وهذه الروح التى هى أساس الحكم الديمقراطى السليم الذى يقوم على أن نعتبر أنفسنا عائلة واحدة يؤمن بعضنا بالبعض الآخر » .

وفى ١ مايو ١٩٥٩ يؤكد السادات نفس التأصيل الفكرى النابع من دراسة واقعنا الحى وخلفيتنا الثقافية وتاريخنا القومى وجذورنا العقائدية . وأى منهج آخر ينادى بغير هذا لابد أن يكون مغرضاً وحاملا فى طياته المبادئ المستوردة والغريبة والتى لن تؤدى إلا إلى التبعية والتقليد وفقدان الثقة بالنفس وبالمستقبل وبالوطن ، لأن أبناء الوطن الواحد سيشعرون أن لهم أولياء أمور يعيشون فى وطن آخر لا يمت إليهم إلا بصلة المعاصرة . ومع ذلك فأولياء الأمور هؤلاء يفكرون ويخططون لهم كما لو كان الوطن قد فقد كل الكفاءات القومية والعقول الوطنية والإمكانيات الأصيلة . وأى تفكير علمى بسيط لابد وأن يرفض هذه التبعية التى لا تهدف إلا إلى تدمير الشخصية القومية التى نمت وترعرعت على مر آلاف السنين منذ عصر بناة الأهرام وما قبلهم . وعلى هذا ينادى السادات فى المؤتمر الشعبى الذى عقد فى سوهاج فى ١ مايو ١٩٥٩ بأن :

« الأصل عندنا هى الوطنية . لقد كافحنا منذ مئات السنين فى سبيل استقلالنا وحريتنا . فإذا كان هناك – فى هذا الوطن – من يريد أن يجعل من نفسه عميلا لدولة أجنبية ، فليعلم أن وطننا هذا وطن الأشراف الأطهار ، ولا مكان له بيننا .

إننا نمد يد الصداقة إلى كل من يريد صداقتنا . إننا نريد الصداقة الشريفة . صداقة الند للند . نحن لسنا دولة كبرى ، ولا نملك القنابل الصاروخية وإنما نحن نقف هذا الموقف لأننا نملك ما نؤمن بأنه أقوى من هذا . نحن نملك الإيمان بالله سبحانه وتعالى . ونملك القلوب المؤمنة بهذا الشعب . وهذه القوة لا يمكن أن تقهر ، لأن قوتها من قوة الله » .

وقبل هذا التصريح بعامين تقريباً يبرز السادات منهج التأصيل القومى والفكرى على صفحات جريدة « الجمهورية » فى ٢٥ فبراير ١٩٥٧ فيقول :

« قوميتنا ووحدتنا لا شرقية ولا غربية ، وإنما هى تراث الأجيال مما علمته لنا أدياننا ، وما تركه لنا أجدادنا العرب من نخوة وإباء ، لا تقبل الضيم ولا تنام على استخذاء . »

هذا هو المنهج العلمى الذى يمثل العمود الفقرى لفكر السادات وفلسفته . فهو لا ينادى بهذا على سبيل إشعال النخوة الوطنية أو إثارة الشعور القومى على طريقة شعراء العرب فى العصر الجاهلى الذين أرسلوا القصائد حمماً نارية لإلهاب الحماس القبلى حتى يهب أبناء القبيلة للذود عن حياضها ، ولكن السادات ينادى بهذا لأنه المنهج العلمى الوحيد الذى يمكن لأية أمة أن تعتمد عليه فى اللحاق بركب العصر الحضارى ، هذا الركب الذى لا يفسح مكاناً للتابعين والمقلدين واللاهثين وراء مجد الآخرين . وإذا أردنا أن نلحق بالركب وأن نتبوأ مكانتنا العالية القديمة فلابد من دراسة واقعنا وتاريخنا وشخصيتنا دراسة علمية موضوعية بعيدة عن أية مؤثرات غريبة أو دعايات أجنبية أو إيحاءات مدسوسة .

وبما أن ثورة الثالث والعشرين من يوليو كانت من العلامات البارزة على طريق تاريخنا القومى فإن السادات كان

أول من طلب من فئات الشعب المختلفة دراستها واستيعاب جوانبها التاريخية والقومية . فأعظم خدمة يمكن أن يؤديها الشعب تجاه ثورته هو دراستها وليس مجرد الانفعال السريع بها ، لأن عمر الانفعال قصير بحكم طبيعته العاطفية البعيدة عن كل فكر عقلانى أو منهج علمى . أما الدراسة الموضوعية فكفيلة بتحويل هذه الثورة إلى جزء نابض حى من وجدان الأمة يتفاعل معه عن طريق الأخذ والعطاء ، التقييم والتصحيح ، الفهم والاقتناع ، الاستيعاب والإقناع . ولذلك نادى السادات على صفحات « الجمهورية » فى أغسطس ١٩٥٤ بضرورة تفهم الشعب لحقيقة الثورة وليس مجرد الانفعال الحماسى الذى يمنع كل التحام حقيقى بين الثورة والشعب . يقول السادات :

« يجب أن يتفهم الشعب حقيقتها ، ومن ثم يبدأ فى دراستها ، ومعرفة اتجاهاتها لكى يمضى معها وهو مؤمن بأن ثورته كان لا يمكن أن تتم إلا بهذا الأسلوب . .

الطريق – إذن – الذى يجب أن نسلكه لكى نصل منفعلين مع الثورة ، مؤمنين بها ، حريصين عليها ، مبهورين من كل عمل جليل تقوم به . هو أن ندرسها . ندرس ظروفها . وواقعها التاريخى ثم بعد ذلك ترسخ مبادؤها فى أذهاننا ، وتلتصق بعقولنا ، وتمتزج بنفوسنا . »

ولعل رغبة السادات فى أن يدرس الشعب الثورة ، هى أن يتعلم الشعب مفهوم المنهج العلمى . فلا شك أن التخطيط العلمى البارع هو السبب الرئيسى الذى أدى إلى نجاح الثورة وجنبها ما حدث لثورات عام ١٩١٩ ، ١٩٣٦ ، ١٩٤٦ ، ١٩٥١ . رغم أن السادات يطبق نفس المنهج العلمى على هذه الثورات فيقول فى كتابه « معنى الاتحاد القومى » ص ١٢ :

« الواقع أننا نقول إن ثورات ٣٦ و ٤٦ و ٥١ فشلت ، ولكننا نقول إنها فشلت مجازاً ، فالثورة إذا قامت لابد أن تنجح ، إن فشلها فى ذاته يعد نجاحاً ، لأن الدروس التى يستخلصها الشعب منها هى نفسها العوامل التى تكتب النجاح لما يتلوها من ثورات . .

وعناصر الفشل فى أية ثورة ماضية هى نفسها عناصر النجاح فى أية ثورة قادمة . .وتلك الثورات التى فشلت رسبت فى ضمير الشعب المصرى حقيقة كان قد بدأ يحسها ويدرك كنهها من تلك الضربات الخلفية » . .

أى أن المنهج العلمى يحتم على الإنسان إذا بدأ مشروعاً ما أن يدرس المشروعات المماثلة التى سبقته حتى لا يكرر نفس الأخطاء التى وقعت فيها من قبل ، وحتى لايضيع الوقت والمجهود والإمكانيات التى يمكن الاستفادة بها فى الإنجاز الجديد من حيث الإضافة والحذف والتعديل والتقييم والتصحيح . أى أن ثورة يوليو المجيدة هى امتداد للثورات المصرية التى سبقتها عبر تاريخنا القومى . وإذا اختلفت عنها فهذا يرجع إلى ارتباطها أكثر بالمنهج العلمى الذى حافظ على طاقتها من التبديد وعلى نجاحها من الاحتمالات غير المتوقعة . وهذا المنهج إذا درس بعناية ونفذ بدقة فإنه يأتى بما يشبه المعجزات فى كمالها وروعتها . ونقول بما يشبه المعجزات لأن السادات يؤمن بأن المعجزة بطبيعتها أمر خارق يفوق الطاقات العادية للبشر ولا يمكن تكراره كما يقول فى « ورقة أكتوبر » . ولكن فى استطاعة الشعوب الإتيان بالمعجزات التى تقع فى حيز القدرة البشرية ، وهذا ما يطلق عليه أحياناً اصطلاح « عبقرية الشعب » . وفى هذا المعنى يتحدث السادات عن كيفية نجاح ثورة يوليو المجيدة فى كتابه « معنى الاتحاد القومى » ص ١٧ :

« لم نكن طبعاً فى عصر المعجزات التى تهبط من السماء فذلك العصر كان قد انقضى . .ولكن يبدو أننا فى عصر معجزات . . معجزات تنبع من الأرض ، وتقوم بها الشعوب . .الشعوب التى إذا قررت شيئا فلابد أن تحققه لأن مشيئتها من مشيئة الله ، وإذا قررت أن تحققه حققته ولو اقتضاها الأمر القيام بمعجزة . .وشعبنا أيضاً كانت مشيئته

من مشيئة الله . . فقد حقق المعجزة . والثورة التي كانت مستحيلة الوقوع حدثت ، والشعب تحرر » .

والمقصود بالمعجزة هنا هو الكمال الذى يتم به تنفيذ المخطط العلمى بحيث لا يترك أية ثغرة يستطيع الخصم أن يتسلل منها ويفسد المخطط بأكمله . ولنأخذ أول بلاغ للثورة كنموذج للتخطيط العلمى والتطبيق العملى كما صاغه السادات بنفسه وكيف وضع فى اعتباره كل العوامل المتناقضة والمتشعبة التى كانت يمكن أن تقضى على الثورة وهى مازالت فى المهد . يقول السادات فى نفس الكتاب ص ٢١ :

« كان لابد من استعمال دهاء لا قبل لهم به ، دهاء لم يعهدوه . . دهاء الشعب الذى ظل يقاوم أعداءه آلاف السنين ولم تهن مقاومته . . دهاء الصعايدة والبحاروة . .دهاء دنشواى ودهاء صيادى السمك فى بحيرة المنزلة . .

لفصل الرأس إذن كان لابد من استعمال طريقة لا تثير القوى الاستعمارية ولا تمكنها من الدفاع عنها ، ولا تحرك شكوكها ومخاوفها . .

كان لا بد من استعمال الحذق الشديد ، الحذق فى التدبير ، والحذق فى التنفيذ ، والحذق حتى فى صياغة البلاغ الذى يذاع على الشعب صبيحة الانقلاب . .

كان لابد من تخدير القوى الاستعمارية سياسية وعسكرية ، وكان لابد من عصب عينيها لكى تتفتت الجبهة ويسقط الواحد منهم فلا يشعر به الآخر . .

وعلى هذا فليس غريباً أن يعلن بلاغ الثورة رقم (١) أن كل ما يريده الجيش هو تطهير نفسه من المرتشين والانتهازيين . . ! !

ولو لم يحظ هذا البلاغ بذلك التأييد الشعبى الساحق الذى قوبل به ، والذى لم يجرؤ الاستعمار على معارضته معارضة سافرة أو باطنة لتعقدت مهمة خلع الملك بعد ذلك . ولربما وقفت القوات البريطانية تدافع عن قصر القبة وسراى عابدين . . ! !

وعلى هذا اضطر الاستعمار أن يوافق مرغماً على طرد فاروق . تسليماً بالأمر الواقع ، وخوفاً من مواجهة الشعب الثائر . وليكون أيضاً قد أسدى للقائمين بالانقلاب معروفاً لا ينسى ، ربما مكن له بعد ذلك أن يضعهم فى جيبه ويكون هو الكاسب ، إذ يكون قد استبدل ملكاً مكروهاً فاسداً يحكم مصر من خلاله ، بحكومة قوية لها هذا التأييد الشعبى الساحق ، يحكم مصر من خلالها أيضاً . »

وفى التخطيط للثورة لم ينس السادات دراسة القوانين التى تحكم حركة الشعب ، وهى الحركة التى تتفاوت بين الإيقاع الهادئ العادى وبين التدفق الصاخب الكاسح ، وتحكمها قوانين النسبية التى توضح أن كل مرحلة من مراحل هــذه الحركة تحتاج إلى منهج علمى وتنفيذ عملى يختلفان عن أية مرحلة أخرى . وإذا طبق المنهج الذى لا يناسب خصائص المرحلة الراهنة فربما أدى هذا إلى انهيار المخطط كله . وهذا كله يستدعى اليقظة الشديدة والذهن الحاضر والرؤية الواضحة والنظرة الشاملة التى تلم بكل الاحتمالات والتوقعات والسلبيات والإيجابيات والثوابت والمتغيرات . ويعالج السادات هذا المنهج العلمى الصارم فى نفس الكتاب ص ٣٠ فيقول :

« إن الشعب فى تطوره يظل سادراً فى حركته العادية يتحمل الظلم والعسف عاماً وراء عام وهو يكظم ويصبر ، وفجأة وحين تبلغ طاقته على التحمل حدها الأقصى ، يتحرك بعنف وسرعة ويضرب ويثور . .

وحركته الأولى العادية لها قوانين ونظم ودستور . وحركته المفاجئة السريعة لابد أن يكون لها هى الأخرى قوانينها ونظمها ودستورها ، ولكن الذى لا شك فيه أنها تختلف تمام الاختلاف عن القوانين والنظم والدساتير التى كانت تتحكم

فى حركة الشعب العادية . . إن ما يصلح فى زمن السلم لا يصلح فى زمن الحرب ، وما يصلح فى وقت الكبت لا يصلح أبداً ساعة الثورة . .

الإنسان حين يكبت يصبر ، ولكنه حين يثور ينفعل ويضرب ، وقانون الصبر غير قانون الضرب . . وفى زمن السلم قد تقول لرئيسك لا فيلفت نظرك فقط ولكن فى زمن الحرب قد تقول لا فيطلق عليك الرصاص فى الحال . . »

تلك هى المتغيرات النسبية التى لابد أن توضع فى الاعتبار ، وأن تدرس دراسة علمية منهجية حتى تقل نسبة السهو والخطأ إلى أقل درجة ممكنة . ولذلك كان التمهيد للثورة من أصعب المهام الدقيقة التى بدأها السادات مع زملاء كفاحه عام ١٩٤٤ . فعندما استعرضوا حالة الجيش ، وجدوها حالة أليمة غير مشجعة ، فلم يكن لضباط الجيش إذ ذاك أى رأى عام . ويفترض السادات أنه لو كان كل ضابط صغير إذ ذاك ساخطاً فى نفسه ، فإن هذا السخط لا يمكن أن يؤدى إلى نتيجة عملية ، ما لم يصبح سخطاً عامًّا ، محدد الأسباب ، دافعاً إلى التكتل والعمل من خلال خطة منهجية مدروسة ترتب النتائج المتوقعة قياساً على الأسباب الموضوعية . فلذلك كانت حتمية لا مهرب منها أن تخلق المجموعة الثائرة رأياً عاماً بين ضباط الجيش ، حتى يستطيع هذا الرأى العام أن يحرك الجيش كله نحو هدف واحد ، بصورة منظمة منسقة تؤتى ثمارها على حد قول السادات نفسه .

ويحلل السادات العوامل التى عاصرت التمهيد للثورة فيوضح أن جماعة الضباط الأحرار لم يكن يغيب عن ذهنها ما سبق من أحداث خلال الفترة الأولى من أيام الحرب ، فكان لابد من الاستفادة من دروس الماضى وتجاربه . ولكن كان مجهود الضباط الأحرار محدوداً لأنهم كانوا يعملون اعتماداً على أنفسهم وليس بناء على رأى عام موحد وموجه بين الضباط ، ولذلك كانت أعمالهم فردية ، أو شبه فردية . وقد تأكد للسادات ألا جدوى هناك من أى عمل فردى لا يحكمه منهج علمى شامل يجمع الطاقة كلها ثم يكثفها فى شحنة فعالة ، فالعمل كان يجب أن يكون عملا جماعياً كبيراً يأتى نتيجة لرأى عام يجمع الضباط . أو كما يقول القانون الكيميائى المعروف باسم قانون فعل الكتلة أو الثقل أن اتجاه التفاعل الكيميائى يتأثر بحسب الكتل المشتركة فيه ، بمعنى أنه إذا كانت كتلة المادة المشتركة فى التفاعل كبيرة بالنسبة لكتل المواد الأخرى فإن اتجاه التفاعل يأخذ شكلاً مختلفاً عما لو كانت تلك الكتلة أقل من الكتل الأخرى المشتركة معها فى التفاعل . وإذا طبقنا هذا على الرأى العام الثورى فسنجد أنه إذا كانت كتلة الرأى المشتركة فى التفاعل الواحد كبيرة فمعنى هذا أنه يمكن تحديد الاتجاه الذى سيسير فيه التخطيط الثورى على أساس علمى .

أما المشكلة الثانية التى كان يفكر فيها السادات مع جماعة الضباط الأحرار فهى انعزال الجيش عن الشعب ، وتسخيره دائماً ضد كل حركة شعبية تقوم فى البلاد . فقد كان الشعب فى تلك الفترة يتحمل عبء الثورة والتضحية الجسيمة والاستشهاد برصاص السلطات المصرية والإنجليزية على حد سواء . ولذلك كان أهم بند فى التخطيط العلمى للثورة أن يطمئن الشعب إلى جانب الجيش ، وأن يدرك أن هذا الجيش معه ، لا عليه ، وعلى الأقل ، أن يدرك أن هذا الجيش ، إن لم يستطع أن يكون معه بحكم ظروفه وواقعه ، فلن يكون عليه بحكم مصريته . .

واستقرت جماعة الضباط الأحرار على منهج علمى طويل المدى ، والسير خطوة خطوة حسب برنامج مرسوم على الوجه التالى :

١ – خلق رأى عام قوى بين ضباط الجيش .

٢ – إشعار الضباط أن عليهم مسئولية كمواطنين ، لا تقل عن مسئولية أفراد الشعب العاديين . .

٣ – وضع تخطيط تدريجى لبث الوعى السياسى بين الضباط حتى يصبح من الممكن توجيههم إلى أن يكون

للجيش نفسه دور فى عملية انقاذ البلاد ، أو أن يكون على الأقل محايداً بين الشعب والسلطات الحاكمة العميلة ، بحيث لا يشترك فى تسديد الضربات إلى الشعب إذا تقدم أحد لحمل تبعة الإنقاذ .

أما الهدف البعيد الرئيسى والذى لا يجب أن يغيب عن أعين منفذى التخطيط حتى لا يدخلوا فى متاهات جانبية هو الوصول بأية خطة من الخطط المحكمة إلى تغيير النظام الملكى القائم فى البلاد . وكانت أولى خصائص تلك الخطة هى نبذ السرية نبذاً تامًّا فى المراحل المبكرة من مراحل الدعوة ، لأن السرية توحى بالتآمر ، وتنذر بالخطورة ولا تستطيع أن تجمع الأنصار بسهولة ، إذ أن عامل الخوف والحذر قد يتغلب فى آخر الأمر . أما فى جو العلنية الصريحة فيمكن تكوين الصداقات وتعزيزها ، واختيار الأشخاص الذين يبدو إخلاصهم وقدرتهم على العمل دون إثارة لغط أو شكوك فى صفوف الضباط أو فى الأوساط الحاكمة . وعلى هذا الأساس قامت جماعة الضباط الأحرار بين جماعات الأصدقاء فى الجيش بإثارة المناقشات العلنية فى جميع مشكلات الدولة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، الداخلية والخارجية . وبالفعل انتشرت المناقشات العلنية بين الضباط بصورة مبشرة ناجحة ، وبدأت تسمع نفس المناقشات فى أماكن متفرقة ، وبدأت ترى الضباط يلتقون فإذا هم متفقون فى السخط ، متفقون فى التفكير فيما يجب عمله من أجل إنقاذ الوطن والوفاء بحاجاته . ومعنى هذا أن الرأى العام قد بدأ يتكون ، وأن عقبة كبيرة من عقبات الطريق قد بدأت فى الزوال .

ويشرح السادات الخطوة التالية من المخطط العلمى الثورى فيقول إنه كان لابد بعد ذلك من التوجيه ، فقد رأى ببصيرته النافذة ونظرته العلمية أن هذا السخط عندما ينمو ، يمكن أن يكون خطراً كبيراً ، إذا لم يصحبه توجيه سديد قائم على منهج علمى محدد يعرف جيداً الخطوة التى تؤدى إلى الخطوة التالية وهكذا . فقد وضع السادات فى اعتباره أنه كان من المحتمل بل من المتوقع أن تقع أحداث كالتى كانت تقع بين شهر وآخر ، وبين يوم وآخر من تلك الأيام العصيبة السوداء ، وإذا بالساخطين ينفجرون فرادى ، أو ينفجرون دون وعى ، فيؤخرون الحركة بدلا من أن يساعدوا على تقدمها ، ولذلك كان من الضرورى الالتزام بالتفكير العلمى المنظم حتى لا يحدث أى تشتيت أو تضييع أو تشويه ، وخاصة أن من الممكن لبعض الهيئات أو الجماعات إذ تشعر بهذه الروح الجديدة تدب بين ضباط الجيش أن تحاول ضمهم إليها بصورة أو بأخرى ، وعندئذ تفلت من الجيش قيادته ، إلى أيد قد لا تحسن التوجيه ولذلك قررت جماعة الضباط الأحرار تطوير المخطط الثورى حتى يتلاءم مع الظروف الجديدة ، وهو تطوير يحتمه المنهج العلمى الذى يؤمن أنه لا توجد قاعدة ذهبية غير قابلة للتغيير . ومن هنا كان إيمان السادات العميق بالقانون الرياضى المعروف بقانون المتغيرات والذى يقول إن الحدث المتغير هو الذى يتوقف حدوثه على عدد من الجزئيات المتغيرة وهو يأخذ شكلاً أو قيمة هى حصيلة أو مجموع المتغيرات الأخرى . وهذا القانون الأساسى فى الرياضة البحتة يعنى أن قيمة الحدث المتغير لا تثبت قيمته على حال واحدة وأن تقدير فعل هذا الحدث يتوقف على الزمن الذى يقدر فيه بعد قياس كل عامل داخل فيه على حدة وتقدير هذه العوامل مجتمعة معاً .

ولذلك كان من المنطقى أن يتطور المخطط الثورى بحيث تتفق جماعة الضباط الأحرار على أساسين آخرين تعتبر المحافظة عليهما عاملاً جوهرياً من عوامل النجاح – أولا : العمل على ألا يتأثر الضباط بالأحداث الجارية أى تأثر يدفعهم فرادى أو جماعات على القيام بأى عمل دون وعى أساسى ، ودون خطة حكيمة مرسومة ، ودون منهج علمى . ثانياً : العمل على أن يحتفظ ضباط الجيش باستقلال تفكيرهم ، فلا يرتبطون كأفراد ، أو كجماعات بأية هيئة أو حزب خارج نطاق الجيش ، لأن الجيش عنصر خطير يجب أن يظل توجيهه فى الأيدى القادرة على تقدير خطره ، فلا يكون أداة فى يد أحد أو جماعة من الناس . وكان لابد لضمان هذين العنصرين من نشاط علمى منظم تسيطر

على توجيه جماعة الضباط الأحرار نفسها .

وبدأ التنفيذ العملى للخطة ، فبالتدريج وجدت حلقتان كبيرتان تجتمعان علنا ، وفى نطاق واسع ، وعلى أساس الصداقة أيضاً لكى تبث الأفكار ، وتحذر الضباط من التأثر بالحوادث تأثراً فردياً ومن الارتباط بأية جماعة أو فرد خارج نطاق الجيش . وبالفعل بدأت الفكرتان ترسخان فى نفوس الضباط ، وأصبحتا جزءاً لا يتجزأ من الرأى العام المنتشر الموحد بين ضباط مختلف الأسلحة . وبذلك اطمأن السادات إلى أن الجيش لن يقوم بأى عمل أخرق ، أو أحمق ، وأن الضباط سيظلون بمنأى عن التأثر الفردى ، وأنهم لن يعملوا إلا جبهة واحدة منظمة . وبطبيعة الحال لم تكن سيطرة التنظيم قد شملت جميع الجيش ، ولا نسبة كبيرة منهم ، بل كانت فى الجيش العناصر السلبية التى لا تضر ولا تفيد ، والتى لا يمكن الاعتماد عليها فى أى شىء . وكانت فى الجيش عناصر أخرى مستقلة عن هذا التكوين ، رفض تنظيم الضباط الأحرار التعاون معها . وكانت فى الجيش عناصر انتهازية ، لم يكن من الصعب تحديدها ، واتقاء خطرها .

ومثلما كان من المستحيل الوصول إلى السيطرة الكاملة على جميع ضباط الجيش وعناصره ، فقد كان من المستحيل منع الضباط من التأثر بالأحداث الجارية فى البلاد ، ولكن المبدأ الذى اتفقت عليه جماعة الضباط الأحرار ، منذ البدء ، وهو ألا يؤدى هذا التأثر إلى أى عمل فردى . قد ظل سائداً طول الوقت ، وكان تأثر الضباط بالمتغيرات الجارية ، عاملا مساعداً لاكتمال صفوفهم حول الفكرة والهدف البعيد ، ولتحديد دورهم تحديداً واضحاً لا يحتمل أى لبس . . وكان من أهم المتغيرات التى حدثت هى حرب فلسطين التى خسر فيها تنظيم الضباط الأحرار كثيراً من الأعضاء . ولذلك حان الوقت للقيام بعمل حاسم حتى لا يتحول الزمن إلى عامل مضاد لحركة الضباط الأحرار . وخرجت المنشورات السرية لتقض مضاجع قادة الجيش ورجال القصر وحكامهم . ولم تكن المنشورات ذات لهجة حماسية جوفاء بل تحددت فيها أهداف الشعب بوضوح وبأسلوب علمى .

وكان من رأى السادات ألا يحدد فى المنشورات مطلباً للجيش أو لضباطه وجنوده ، كل كلمة فى تلك المنشورات كانت مستمدة من اتجاهات الرأى العام فى البلاد ، فالشعب يريد العدالة الاجتماعية والقضاء على المستعمر وأذنابه ورفض الأحلاف العسكرية والدفاع المشترك . وقد طبع تنظيم الضباط الأحرار مئات المنشورات لتأييد وجهة نظر الشعب ، ومضى كل أعضاء التنظيم يكتل ضباط الجيش فى جميع الوحدات استعداداً لاندلاع الثورة الشعبية . وأقبلت الأحداث والمتغيرات لتدفع عجلة التاريخ بسرعة ، فقام الضباط الأحرار بواجبهم الوطنى فى عمليات الفدائيين فى منطقة القناة خلال عامى ١٩٥١ و ١٩٥٢ رغم إرادة القصر ، والحكومة ، وكان نجاح فكرة تكوين تشكيلات ثورية داخل الجيش أكثر مما قدرت الهيئة التأسيسية للحركة ، وقد أصبح فى كل وحدة من الوحدات العسكرية ، أفراد منضمون لتنظيم الضباط الأحرار ، ونجحت الفكرة إلى حد كبير ، بينما الأمور فى البلاد تتطور بشكل سريع ومثير ، فقد وقع حريق القاهرة فى يناير عام ١٩٥٢ ، واجتمع تنظيم الضباط الأحرار لتغيير الخطة كلها حتى تتلاءم مع الظروف الجديدة الطارئة ، وكانوا قد قدروا مدة خمس سنوات للقيام بالعملية الكبرى ، لكن السادات اعتبر ذلك الحدث الضخم نذيراً لكل التنظيم بالإسراع فى تنفيذ الخطة الجديدة . وبالفعل اجتمع التنظيم وقرر الضباط الأحرار أن يكونوا على استعداد خلال شهر واحد .

وأثناء حريق القاهرة ، صدرت الأوامر لجميع الضباط الأحرار فى القاهرة بمقاومة أعمال التخريب لأن القصر والاستعمار وأعوانهما سيمضون فى ضرب الحركة الوطنية بكل وسيلة ، ولا سبيل إلى مقاومة هؤلاء الأعداء إلا بثورة ، وليس بالتخريب أو الخطب الرنانة . والثورة عمل علمى فى الدرجة الأولى وليست مجرد فورة طارئة ولذلك يجب ألا تدخل

فى متاهات جانبية تبدد من طاقتها وتشتت من شحنتها . وقد حرص السادات دائماً من خلال عمله فى تنظيم الضباط الأحرار على ألا يخرج أحداً عن إطار الموضوعية العلمية ، ولذلك كانت النتيجة أن نجحت هذه الثورة التاريخية التى غيرت خويطة الشرق الأوسط كله إن لم تكن قد غيرت خريطة العالم المعاصر كله . ونجاح الثورة أكبر دليل على مقدرة المنهج العلمى على تحقيق أصعب الأهداف وأخطرها دون المجازفة والمقامرة بأرواح المشتركين فى هذا العمل التاريخى .

والمنهج العلمى الحقيقى الشامل لا يقبل أية تجزئة ، بمعنى أنه من المستحيل أن يطبق هذا المنهج على جانب واحد من الحياة ثم تترك الجوانب الأخرى تتحرك بعفوية وعشوائية . ولذلك يجب أن يكون المنهج شاملاً ، ومن هنا كان اهتمام السادات بالجبهة العسكرية مساوياً لاهتمامه بالجبهة الداخلية ، ومن هنا أيضاً كان إصراره على أن يسير التحرير موازياً للتعمير عندما تولى رئاسة الجمهورية ، لأن الخطين لا ينفصلان عن بعضهما البعض ، فهذا يساند ذاك وهكذا . وجسم الأمة عبارة عن وحدة عضوية لا تقبل الانفصال أو التقسيم . ولذلك يقول أنور السادات فى الجلسة الافتتاحية لمجلس الشعب فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ :

« إن علينا وراء جبهة القتال عملا اقتصادياً واجتماعياً لا يجب أن يتوقف لحظة . ذلك أنه فضلا عن المعركة فإنه يجب ألا يغيب عنا أن هدف ثورتنا الأصيل هو بناء حياة حرة لشعبنا . ونحن على سبيل المثال لم نبن السد العالى لكى نحارب ، وإنما حاربنا لكى نبنى السد العالى .

إن معركة البناء الاقتصادى والاجتماعى تتصل من هنا اتصالا وثيقاً بمعركة ميدان القتال ، معركة القتال شرف الوطن . ومعركة البناء الاقتصادى والاجتماعى فى وطننا معركة واحدة » .

فالهدف من قتالنا هدف حضارى ، نحن لا نحارب من أجل الحرب ولكن من أجل التقدم والرفاهية والحياة الحرة لشعبنا . ولذلك يجب الاهتمام بعلوم الإدارة حتى لا يحدث تكرار أو تشتيت أو ضياع . فخير أسلوب للتوفيق بين متطلبات وواجبات كل من الشعب والجيش يكمن فى التنظيم والإدارة . فى نفس الخطاب يقول أنور السادات :

« إذا استطعنا أن نصنع مفهوما متطوراً لإدارة الدولة ، وإذا استطعنا أن ننقذ من الضياع ما هو ضائع منها الآن . إذا استطعنا ذلك . فليس يخالجنا شك فى أننا سنكون قادرين على مواجهة تحدى العصر . خصوصاً وأن هناك مسئولية ذات طابع خاص وصارم سوف تواجهنا فور انتهاء الحرب ، وهى مسئولية تعمير ما تركته الحرب من آثار خصوصاً فى منطقة القناة » .

إلى هذا الحد البعيد تصل رؤية القائد فى استشراف آفاق المستقبل ، فقد قال هذا الكلام قبل أكتوبر ١٩٧٣ بثلاث سنوات وكأنه كان يرى ببصيرته العبور الملحمى وتحطيم خط بارليف ثم مسئوليات النصر وتعمير ما دمره العدو فى الحرب . واستشراف آفاق المستقبل بهذه الدقة العلمية ليس من باب التخمين أو إشباع الانفعال ولكنه قائم على حسابات علمية . وقد لا يعلم البعض فى العالم العربى أن هناك علماً حديثاً قائما بذاته اسمه « علم المستقبل » يدرس إمكانيات الحاضر وكيف تؤدى إلى تحقيق احتمالات المستقبل ، فلم يعد المستقبل مهنة قارئى الكف وضاربى الودع وغيرهم من المنجمين بل أصبح الميدان الذى يتسابق فيه العلماء والمفكرون بكل إنجازاتهم وإمكانياتهم العلمية والفكرية من أجل رفاهية بلادهم ومواجهة تحدى العصر . ومن هنا كان التخطيط العلمى الشامل لعام ٢٠٠٠ الذى ورد ذكره فى « ورقة أكتوبر » حيث يقول المعلم :

« إن تجربة حرب أكتوبر قد أثبتت أن التخطيط العلمى السليم هو أساس كل عمل ناجح . وأن التخطيط الاقتصادى الذى أخذنا به منذ أربعة عشر عاماً قد ساعدنا على إحراز مكاسب محققة ، ولعب دوراً أساسياً فى ضمان

الصمود الاقتصادى . وتجربة الشعوب النامية كلها تؤكد أن التنمية لا يمكن أن تتم بشكل تلقائى ، بل لابد لها من تخطيط . بل إن التخطيط كأسلوب علمى لتوجيه الاقتصـاد القومى قد تأكدت فاعليته فتبنته الدول الرأسمالية .

ولا شك أننا ، إذا أردنا حقًّا أن تكون استراتيجيتنا الحضارية الشاملة للمستقبل قائمة على أسس مدروسة ، تربط بين تلك الأهداف التى أشرت إلى بعضها ، وتجعل خطونا نحو التقدم متوازنا . .فإن حاجتنا سوف تكون أشد إلى الالتزام بمبدأ التخطيط .

فالتنمية ليست عملاً عفويًّا ، يتم كيفما اتفق ، فى تلقائية كاملة . إنما التنمية عمل علمى يقوم على التنبؤ بالمتغيرات المحلية والإقليمية والعالمية ، وبعد التصور الوطنى لمواجهتها فى آجال زمنية معينة .

إن العالم كله بشتى نظمه السياسية والاجتماعية ، يهتم بعالم جديد ، هو عالم المستقبل ، ويحاول أن يستشف إتجاهات التطور فى حدود ربع القرن المقبل ، أى إلى سنة ٢٠٠٠ ، وترسم كل دولة منها تطورها فى خطط طويلة الأمد وها نحن نرى دول العالم كلها تسرع إلى إعادة دراسة مستقبلها على ضوء المتغيرات التى تتدافع كل يوم.. من ندرة خطيرة فى الخامات الأساسية للصناعات ، إلى خطر متزايد من انخفاض المواد الغذائية المتاحة ، إلى مظاهر التضخم التى تجتاح العالم ، إلى الحركة الجديدة لرؤوس الأموال من أماكنها التقليدية إلى أماكن أخرى . وكلها أمور تدفع العالم إلى إعادة النظر فى كثير من الأفكار والتوقعات السابقة .

ولا يمكن أن نعيش فى هذا العالم ونحن نفكر من سنة إلى أخرى . بل لابد كما قلت من تصور جرىء لاستراتيجية حضارية شاملة ، ولابد لهذا كله من التخطيط العلمى السليم .

ولأن تحركنا المقبل سيكون أكثر اتساعا فى شتى مجالات التقدم والبناء ، ولأننا نريد كما قلت سابقاً أن نستخدم كل المحركات والروافد المالية والاقتصادية الممكنة ، فإن هذا يجعلنا أكثر حاجة إلى الأخذ بمبدأ التخطيط فى حياتنا .

والانفتاح الاقتصادى يزيد من أهمية التخطيط ، لأن خير وسيلة لاجتذاب المستثمر هى أن نعرض عليه مشروعات مدروسة مرتبطة بعضها بالبعض . لأن نجاح أى مشروع على حدة يتوقف إلى حد كبير على تقدم الاقتصاد فى مجموعه واطراد التنمية . وكذلك لأن وفود رأس المال إلى البلاد دون تخطيط لاستقباله ، يمكن أن يخل بتوازن الاقتصاد القومى ، ويحدث آثاراً جانبية لا يستهان بها مثل التضخم . أوظهور الاختناقات هنا وهناك .

على أن هذا كله يحتاج إلى تغيير وتطوير فى فلسفة التخطيط وفى أجهزته ومسئولياته ، يجعلها أكثر دقة ، وأكثر مرونة ، وأوسع مخيلة .

فهناك التخطيط للقطاع العام ، الذى هو رأس الحربة فى معركة التقدم والبناء لتحديد أهدافه وإعادة رسم أولوياته . وهناك التخطيط الذى يخدم القطاع الخاص ، وهذا يكون عادة بوسائل أخرى تقوم على إيجاد الحوافز وتوفير الظروف التى تكفل اتجاهه بإرادته إلى المجالات التى تكون التنمية العامة أكثر حاجة إليها . وهناك كما قلت التخطيط الذى يخدم الاستثمارات الوافدة ، بإعداد الدراسات المسبقة ، وبتوفير حاجاته فى إطار الاقتصاد القومى فى مجمله .

إن التخطيط ضرورة لخدمة كل قطاعات الاقتصاد . إنه يخدمها بإعداد الدراسات وبتحليل البيانات وتوفير المعلومات . وبوضع خطط توفير المهارات الفنية المطلوبة ، وبالتنبؤ بظروف الاستثمارات المختلفة وآثارها بوجه عام .

والمجالس القومية المتخصصة ، التى تم تكوينها ، سوف يكون عليها دور كبير فى هذا المجال . ولذلك يجب أن تكون هناك علاقة وثيقة بين سلطات التخطيط العليا فى البلاد .

ولست فى حاجة إلى أن أؤكد بأن التخطيط لا يعنى القيود والتعقيدات الإدارية . فمبدؤنا هو مركزية التخطيط

ولا مركزية التنفيذ ، ومتى تحددت الخطة العامة ، انطلق الجميع يتحركون فى إطارها فى حرية ومرونة » .

تلك هى النظرية العلمية المتكاملة التى قدمها السادات من أجل بناء مصر المستقبل ، نظرية تؤمن بأن المستقبل للأمة التى تبتكر المنهج العلمى النابع من احتياجاتها والقادر على الوفاء بها . وكان المعلم دائم التركيز على هذا الخط لدرجة أننا نجده يبرز فى معظم أحاديثه وبياناته وخطبه كالنغمة الرئيسية فى القطعة الموسيقية . فقد أراد أن يجعل من الأسلوب العلمى فى حياتنا جزءاً لا يتجزأ من خصائص الشخصية المصرية . فى لقائه مع أساتذة الجامعات فى ٨ يناير ١٩٧١ يؤكد لهم أن ما نواجهه هو قضية نحن قضاتها وليس غيرنا ، وهى قضية تفكير وتخطيط وليست قضية احتكام وحكم نطلبه من أحد أو تحكم نقبل به من طرف أو أطراف أخرى . وبالتالى هى قرار حر تملكه إرادتنا إذا ما استطعنا أن نفكر فيه وأن نخطط له بالأسلوب العلمى الصحيح المناسب . ولذلك يوضح لهم الزعيم أنه :

« من أجل ذلك أريد فكركم معى هذه الليلة ، وأريد عقلكم كله لأن الوطن فى حاجة إلى ذلك كله ولأن أمة بأسرها تنتظرها .

ولست أريد أن يعلو صوتى خلال هذا الحوار ، ولا أريد أن أنفعل ، لأن الحناجر القوية لا تكسب المعارك ، كما أن الأصوات العالية ليست بالضرورة تعبيراً عن القوة القادرة .

لعلنا نبدأ بالأسلوب العلمى الذى تعودتم عليه ، والذى أرانا فى مسيس الحاجة إليه » .

ثم يقوم بشرح مفهوم الأسلوب العلمى عنده ، وهو المفهوم الذى يشكل الخط الرئيسى فى فكر السادات وفلسفته . وهو الذى يميز طريقة تناوله للمشكلات الحيوية والقضايا المصيرية للأمة ، وهو أيضاً الذى وضع به المخطط العبقرى لحرب أكتوبر المجيدة وأدى إلى الانتصار الباهر الذى أعاد إلى الأمة العربية ثقتها فى نفسها ومقدراتها بعد سنوات طويلة من الاعتماد على الحناجر القوية والأصوات العالية . يقول السادات فى تطبيقه للأسلوب العلمى على قضية الشرق الأوسط فى نفس اللقاء مع أساتذة الجامعات :

« نبدأ بتشخيص المشكلة التى نواجهها الآن . ثم ندرس القوى المؤثرة فيها ، واحدة واحدة ، ثم نبحث فى الموقف الراهن الذى نقف أمامه وجهاً لوجه ثم نتطرق إلى الاحتمالات المطروحة أمامنا ، والنتائج المترتبة على كل منها ولعلكم تتفقون معى على أن هذا هو الأسلوب السليم ، ولعلكم ترونه معى المنهاج السليم » .

وهذا المنهاج يتطلب صفات معينة فى القائمين على تطبيقه . وأهم هذه الصفات : وضوح الرؤية ، دراسة الواقع بكل إيجابياته وسلبياته ، قوة الأعصاب ، استيعاب منطق الطبيعة والتاريخ والتطور ، معرفة السطحى العابر المتغير من الطبيعى الحقيقى الثابت . وهذا الخط يبرز فى بيان السادات أمام مجلس الشعب فى ٤ فبراير ١٩٧١ حين يقول :

« إن الأمر الواقع فى لحظة من اللحظات لا يستطيع أن يغير وجه الحقيقة الكبرى ذلك إذا استطعنا إدراك هذه الحقيقة وإذا ملكنا فى لحظة الخطر قوة الأعصاب التى تتحمل الصدمة وتقدر أن تميز وتفرق بين ما هو سطحى عابر وما هو طبيعى وحقيقى له قوة البقاء والدوام . لقد خسرنا معركة فى الحرب بيننا وبين إسرائيل وهذا محتمل ولكننا لم نخسر الحرب كلها لأن ذلك معاد للطبيعة وللتاريخ وللتطور » .

هكذا كان سلوك القائد فى حرب أكتوبر المجيدة ، قوة الأعصاب التى تبدأ الحرب وتعرف تماما كيف توجهها من أجل تحرير الأرض واستعادة الشرف . فقرار الحرب كان مصرياً مائة فى المائة وبناء على دراسة كافية بعيداً عن أى استفزاز طارئ . وقد قال السادات هذا الكلام قبل حرب أكتوبر بما يزيد عن سنتين ونصف وذلك فى ٧ مارس ١٩٧١ فى بيانه للأمة حين أوضح :

« إننا ندرس مواقع خطانا دراسة كافية ، ولن يدفعنا أى استفزاز ، مهما كان ، إلى الخروج عن تخطيطنا السياسى والعسكرى ، ولسوف نمسك فى أيدينا بزمام المبادرة ، ونراقب التطورات ، ونتصرف وفق ما تمليه علينا مبادئنا وأهدافنا وأولها : مبدأ التحرير وسلامة التراب العربى وحقوق شعب فلسطين » .

وهذه الدراسة العلمية الكافية لابد أن تكون شاملة ، بمعنى أن تكون من المرونة بحيث تنوع من أسلحتها ولا تحصر عملها على جبهة واحدة ، وأن تبدأ التحرير فى أكثر الأوضاع ملاءمة من الناحية السياسية ، فالإطار السياسى المحيط بفاعلية السلاح لا يقل أهمية عن السلاح نفسه . وهذا المعنى يبرز فى خطاب السادات فى افتتاح دورة المجلس الوطنى الفلسطينى فى ٢٨ فبراير ١٩٧١ عندما يحدد :

« إن حربنا مع العدو متعددة الجبهات كما أنها متنوعة الأسلحة وكنا ومازلنا نرفض أية محاولة لحصر عملنا على جبهة واحدة ولقصر سلاحنا على نوع واحد ونحن نريد إذا أصبح القتال المسلح هو الباب الوحيد المفتوح أمامنا أن نكون فى أكثر الأوضاع ملاءمة من الناحية السياسية للدخول فى هذا الباب بأكبر قسط من الكفاءة وأكبر قدر من الأمانة وكنا نعتقد ومازلنا بأن الإطار السياسى الذى نحمل فيه السلاح لا يقل أهمية عن السلاح الذى نحمله نفسه وعن ذكائنا فى استعماله . وهكذا فإن تحرير الأرض كان هو النقطة التى اخترناها للوقفة الحاسمة ولهذا فقد كان ضرورياً أن يصل العدو إلى درجة الكشف عن مطامعه فى أرضنا وأن يصل العالم إلى درجة اليقين الكامل بأننا فيما نواجهه لا خيار لنا غير القتال ، لأنه ليس بيننا من يستطيع أن يتنازل عن أرضه » .

هكذا يستفيد المنهج العلمى من أخطاء الماضى ودروس التاريخ ، فقد ملأت إسرائيل الدنيا صراخاً وعويلاً قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ بأن العرب قد قرروا الإلقاء بها فى البحر بينما كانت تدجج نفسها بالسلاح حتى أسنانها . وهذه الدعاية المغرضة والخبيثة وضعت العرب فى وضع حرج من جهة المناخ السياسى العالمى على أساس أنهم وحوش نوت الفتك بالحمل الوديع إسرائيل . أما فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فقد نجح العرب فى استمالة الرأى العام العالمى لأنهم أثبتوا له عملياً أنه لا خيار لهم فيما يواجهونه سوى القتال . ولذلك عندما اندلعت حرب أكتوبر كانت تصريحات الساسة العالميين كلها فى صف العرب ، حتى إن ميشيل جوبير — وزير خارجية فرنسا أثناء الحرب — صرح بأنهم « لا يستطيعون أن يلوموا أناساً قرروا العودة إلى ديارهم . » بهذا الأسلوب يمزج المنهج العلمى الحياة السياسية بالحياة العسكرية وكذلك بالحياة المدنية أيضاً ، لأن من خصائصه ألا يعتمد على خط واحد ويهمل الخطوط الأخرى . فبناء الدولة الحديثة لا يعتمد فقط على الانتصار فى الحرب ولكن على دراسة وتحليل تبعات ومسئوليات ما بعد الانتصار . وهذا ما أوضحه السادات فى خطابه فى القوات البحرية فى ٢٢ يونيو ١٩٧١ حين قال :

« لابد من مواصلة الكفاح لبناء الدولة الحديثة . نستمر فى تدعيم البناء العسكرى بأحدث وآخر ما يتوصل إليه العصر من الفن العسكرى ، ونستمر فى البناء الصناعى إلى آخر ما فى العصر الحديث من مستحدثات ، ونحن نمضى من ناحية فى تدعيم البناء العسكرى ، ونمضى فى نفس الوقت فى استمرار الخط السياسى النشط ، وكذلك لابد لنا أن نسير فى خط ثالث متـواز ، هو بناء الدولة العصرية » .

والمنهج العلمى ليس مجرد عملية رياضية بحتة أو سلسلة ميكانيكية من الأسباب والنتائج ، ولكنه يضع العامل الإنسانى فى الاعتبار ، وذلك بما يحمله من شحنات الانفعال ومحاذير اليأس ومتاهات الفكر . وعلى هذا فإن من الحتمى أن تدرس هذه الاحتمالات والتوقعات حتى لا تكون سبباً فى إبطال فاعلية المنهج الشامل ككل ، لأنها كفيلة بخلق أجواء بالغة الصعوبة والتعقيد . فبالإضافة إلى المشكلات الداخلية مثل مشكلة التوفيق بين آمال التنمية وبين ضرائب التعبئة ، والمشكلات القومية مثل مشكلة التوفيق بين مطلب وحدة الصف العربى وهو هام لتأييدنا العالمى ،

وبين مطلب وحدة العمل ، وهو حيوى بالنسبة لحشد القوى القادرة على التأثير فى ميدان المعركة ، وكذلك المشكلات الدولية مثل مشكلة التوفيق بين إيماننا الذى لا يتزعزع بحقنا وإصرارنا للحصول عليه بكل وسيلة ، وبين توازنات دولية دقيقة ، بالإضافة إلى كل هذا تأتى مشكلة الوقت الذى يمر . ولذلك يقول السادات فى خطابه أمام المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى فى ١٦ فبراير ١٩٧٢ :

« إن الصبر الإنسانى له حدود ، وإن شحنات الانفعال عوارض مشروعة ، فإن البشر مهما بلغ بهم الوعى الموضوعى لا يستطيعون إلا أن يكونوا بشراً ولا يمكن أن يتحولوا إلى مجرد آلات . وفوق ذلك كله فإن دواعى المسئولية تفترض بل وتفرض فى كثير من الأحيان قيوداً لا مفر من قبولها ، بكل ما يمكن أن ينشأ عنها من محاذير أو مضاعفات . ولكن يبقى دائماً أن النضال علم ، وأن الحركة السياسية تخطيط . والعلم والتخطيط كلاهما مرهون بالقدرة على الفعل وليس بالاستسلام للانفعال » .

وهذا المنهج يحتم الملاءمة السريعة بين ما نريد وبين الظروف المتغيرة . ولكن السادات يفرق علمياً بين المساومة والملاءمة ، فالمساومة تعنى أن نخضع للمتغيرات ، أما الملاءمة فهى أن نمسك بالمتغيرات وأن نعيد توجيهها لصالحنا . أى نخضعها لإرادتنا نحن ، بدلا من أن نخضع نحن لإرادتها . ومن وسائل إخضاع المتغيرات لإرادتنا ، الاستفادة من الإمكانيات العربية الضخمة المتمثلة فى الطاقة والنقد والتجارة . يقول السادات فى حديثه مع الصحفية اليوغوسلافية دراد يانكوفيتش فى ٢٧ مايو ١٩٧٣ متنبئاً بما حدث أثناء حرب أكتوبر المجيدة :

« الحقيقة فى إيدين العرب مش بس مشكلة الطاقة ، فى إيدين العرب مشكلة الطاقة ومشكلة النقد ، ومشكلة التجارة أيضاً . الثلاث فى أيد العرب إذا تصورنا كمية الأرصدة العربية فى العالم وتأثيرها على سير النقد حنجد أنها أخطر من مشكلة الطاقة . وأنا متأكد تماماً أنه مش بعيد اليوم اللى كل الجهود حتتنسق فى هذا علشان تكون قوة ضغط . لأن أمريكا تنبهت لهذا من فترة وبتعد له . ولكن أمريكا ستبقى مخطئة إذا تصورت أن العرب حيسيبوا هذه الأسلحة من أيديهم ، وزى ما قلت لك لما تبدأ المعركة حنشوف إيه اللى حيجرى . .المواجهة لما تبتدى حنشوف إيه اللى حيجرى . »

هكذا يشكل المنهج العلمى عنصراً رئيسياً فى فكر السادات وفلسفته ، وهو لا يعتبر هذا المنهج شيئاً مستحدثاً على العقل العربى عامة والعقل المصرى خاصة . وإنما ما ينادى به هو تأصيل فكرى لشىء حيوى وخطير أهملناه عدة قرون ، فكانت النتيجة أن تخلفنا عن الركب الحضارى للعصر برغم أننا كنا أول من أعطى الدفعة الأولى لهذا الركب فى مطالع عصر النهضة والإحياء ، ومازال هذا الركب يسير بفعل هذه الدفعة التى تطورت ونمت على أيدى علماء الغرب الذين استفادوا منها ولم يرفضوها بحجة أنها عنصر غريب قادم من بلاد لا ترتبط بحضارتهم بصلة . إذن فالمنهج العلمى خاصية حيوية وخطيرة من خصائص العقل العربى ، وما حدث له كان مجرد إغفاءة طالت أكثر من اللازم ، وقد حان الوقت لليقظة التامة التى تدرك قيمة العامل الزمنى والتفكير العلمى والأسلوب المنهجى فى تطور الشعوب وتقدمها .

وكان السادات بفكره وسلوكه رائداً عظيماً فى هذا المجال ، فقد علم شعبه – ليس عن طريق الكلام – ولكن عن طريق ضرب المثل العملى أن المنهج العلمى هو الطريق الذى يجب أن نسلكه من الآن فصاعدا . ولذلك يقول فى مناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تعليم الفتاة المصرية فى ٣ أبريل ١٩٧٣ :

« إن أمم العصر التى شقت الفضاء ووصلت إلى أعماقه ، ودقت أبواب الكون وسيطرت على آفاقه لم يتهيأ لها ذلك إلا حين أنزلت العلم من حياتها منزلة الروح من الجسد .

وبلادنا التى غلبت الأحداث ، وسار تاريخها بين نار ونور ، بلادنا التى حطمت القيود بعد القيود ، وشقت فى

صخور التاريخ طريقها للخلود . . تضع أمام أعينها دائماً تكريم العلم لأنها كعبته من قديم » .

ومع كل هذا فلا يشكل المنهج العلمى كل شىء فى فكر السادات ، لأن السادات لا ينظر إلى الكون والأحياء نظرة ميكانيكية صارمة أو رياضية بحتة ، بل تمتاز نظرته بأنها أكثر شمولا من ذلك . فالإنسان فى نظره ليس مجرد معادلة رياضية أو آلة صماء وإلا قضينا على الإبداع الفكرى والانطلاق الروحى عنده . وعلى هذا فإن السادات يتفادى ما يشكو منه ألبرت شفايتزر فى كتابه « فلسفة الحضارة » الذى نشره عام ١٩٢٣ والذى يقول فيه :

« فى عصرنا هذا لا يلقى الفكر عوناً من العلم . فقد أصبح العلم يقف مستقلا قائماً برأسه فى مواجهة الفكر لا يحفل به ، بل إن المعرفة العلمية الحديثة جداً أصبحت تقترن بنظرة إلى العالم تخلو من كل تأمل فكرى وروحى . فهى تنادى بأنها لا تعنى إلا بتقرير الوقائع الفردية ، لأن بهذه وحدها يمكن للمعرفة العلمية أن تحتفظ بطابعها العلمى . أما التنسيق بين مختلف فروع العلم ، واستخدام النتائج لإيجاد نظرية فى الكون ، فهذا ليس من شأنها فيما تقول ، وقديماً كان كل رجال العلم مفكرين لهم شأنهم فى الحياة الروحية العامة لعصرهم ، أما عصرنا فقد اكتشف كيف يمكن فصل المعرفة عن الفكر ، وعلى هذا أصبح لدينا علم حر ، ولم يكد يبقى لدينا علم يتأمل » .

ومن هنا كانت مناداة السادات بالعلم والإيمان كشعار لمصر الحديثة ، وكمنهج للتكامل الفكرى الذى يلبى احتياجات الإنسان المادية والروحية فى آن واحد . فهو يقول فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف فى ٦ مايو ١٩٧١ :

« كل ما بنيناه معرض للدمار إن لم نقف ونبنى دولتنا الجديدة البناء الصحيح . والبناء الصحيح كما قلت لكم ، لا يكون إلا على العلم والإيمان ، بالعلم لن نتخلف أبداً عن كل ما فى العصر من مستحدثات ، ولن نعيش أبداً متخلفين ، بل علينا أن نعود إلى حضارتنا ، وإلى ما بنيناه عبر تاريخنا وأخذ منه غيرنا وبنى عليه ، أما بالإيمان فسنكون دائماً قوة صلبة منيعة لا يستطيع أن يتعرض لها أى عاد أو غاز أو مستعمر أو معتد ، الإيمان بالله سبحانه وتعالى والإيمان بأرضنا وترابنا بكل شىء فى بلدنا ، الإيمان بتاريخنا ، الإيمان بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ، الإيمان الذى لا يتزعزع فى أننا بعون الله وبإرادة الله سنجعل من هذا الوطن عائلة واحدة » .

والربط بين العلم والإيمان ليس على سبيل الجمع بين الأضداد كما قد يتبادر للذهن التقليدى لأول وهلة ، لأن الإيمان قد يكون الامتداد العضوى للعلم ، وقد يكون العكس ـ أى العلم الامتداد العضوى للإيمان . وخير دليل على هذا الاتجاه تحليل ماكس فيبر فى كتابه « صنعة العلم » الذى نشر عام ١٩١٩ وفيه يثبت — بما لا يدع مجالا للشك — العلاقة العضوية بين العلم والإيمان ويوضح أن العالم الذى لا يؤمن إيماناً فعلياً بالهدف من أبحاثه العلمية لن يستطيع الوصول إلى هدفه مهما كانت عبقريته العلمية التى اشتهر بها من قبل . وبدون الإيمان لن ينجح أى عالم فى أن يكون مبدعاً خلاقاً بالمعنى الصحيح فى ميدان تخصصه ، لأن مجرد الاعتماد على المنهج العلمى البارد سيحيل عقله الخلاق إلى آلة صماء لا تقيم اعتباراً للكيان الإنسانى داخله . ولهذا فإن الإيمان هو المصدر الرئيسى للأخلاقيات فى العلم وإجباره على الانحياز إلى سعادة الإنسان ورفاهيته . فليس من العبقرية العلمية فى شىء أن يعكف عالم فى معمله سنوات طويلة لكى يخرج على العالم بعد ذلك باكتشاف قد يدمر الحضارة الإنسانية فى ساعات معدودات . بل إن ماكس فيبر يثبت ضرورة الإيمان الذى يمنح الإلهام ليس فقط للعالم بل للمشتغل بالتجارة والصناعة والزراعة وغيرها من مختلف النشاط الإنتاجى . ونحن عادة ما نعبر عن مفهوم الإيمان فى هذا المجال أحياناً بالإلهام ، وأحياناً أخرى بالموهبة ، وأحياناً ثالثة بالعبقرية ، ورابعة بالنظرة الثاقبة . . إلخ . يقول ماكس فيبر فى هذا الشأن :

« تخطر لنا الأفكار متى طاب لها هى ذلك ، وليس حين يطيب لنا نحن . وتطرأ أفضل الأفكار والنظريات فى ذهن العالم بذلك الأسلوب الذى يصفه ايهرينج بقوله « عند القيام بتدخين سيجار فوق الأريكة » ، أو كما يصرح

هلمهولتز عن نفسه بدقة علمية : « حين نقوم بنزهة فى شارع ينحدر ببطء » أو بطريقة مماثلة من تلك الطرق التى تتيح للعالم لحظات من التجلى دون أن يعمل لها حساباً. وهذه اللحظات تؤكد أن المنهج العلمى ليس السلاح الوحيد فى يد العالم بدليل أن الأفكار تأتينا عندما لا نتوقعها ، وليس بالضرورة أثناء جلوسنا فى هدوء إلى مكاتبنا لإعمال الفكر وصولا إلى نظرية معينة ، أو خلال قيامنا بالبحث العلمى الدقيق ، فمن المؤكد أن الأفكار والنظريات ما كانت لتخطر على الذهن ، لو لم يتميز نشاطنا العلمى بإيمان قوى وتفان انفعالى وهدى متحمس .

وبصرف النظر عن كل هذه الاعتبارات ، فإن المشتغل بالحقل العلمى يجب عليه أن يعمل حساباً لعنصر المفاجأة الذى يدخل فى كل عمل علمى بصرف النظر عن منطقية المنهج العلمى التى تعتمد على الارتباط الميكانيكى بين الأسباب والنتائج . فالمنهج العلمى لا يقدم الدليل السابق على احتمال هبوط الوحى والإلهام على العالم من عدمه . فقد يكون العالم عبقريًّا ، ومع ذلك نجد أن تطبيقه الحرفى للمنهج العلمى المسبق لا يساعده على التجلى بمعنى الحصول على فكرة جديدة وقيمة من بنات أفكاره . هنا تبرز ضرورة الإيمان المتحمس للعالم ، وهو الإيمان الذى يبتكر ويضيف ولا يكرر فى آلية بحتة ما سبق الوصول إليه وتحقيقه . والحق فإنه لا توجد ريادة فى أى مجال بدون إيمان . ومن الخطأ الفادح أن نعتقد أن هذه الحال وقف على العلم وحده ، أو بأن الأمور فى مكتب للأعمال التجارية ، مثلا ، تختلف عنها فى معمل للتجارب العلمية ، فرجل التجارة أو الصناعة الكبير لا يمكن أن يكون كبيراً بدون إيمان يجلب الأفكار المبتكرة والخواطر الجديدة إلى ذهنه . وهذا هو الفرق بين الشخص الذى يبنى حياته بثقة وتفاؤل حتى يصل إلى أعلى درجات السلم الإنسانى وبين الشخص الذى يقضى حياته كاتباً فى مصلحة حكومية أو موظفاً تقليديًّا يحسب المدى الذى سيحصل فيه على درجة أو علاوة . فمثل هذا الشخص لن يكون خلاقاً ومبدعاً بالمعنى الصحيح فى مجال التنظيم والابتكار لأنه قضى على إيمانه بنفسه وبإنسانيته .

ولا شك فإن الإلهام من أكبر الدلائل على وجود الإيمان فى حياتنا ، ووجوده فى حقل العلم لا يلعب بأية حال من الأحوال دوراً يفوق – كما يخيل للغرور الأكاديمى – دوره فى مجال التغلب على مشكلات الحياة العملية بواسطة مقاول أو مهندس ناشئ مثلا . ومن ناحية أخرى ، وهذا مما يساء فهمه وتفسيره فى أغلب الأحيان أيضاً ، فإن الدور الذى يلعبه الإلهام الروحى فى العلم لا يقل عن دوره فى مجال الفن . إنها لحماقة صبيانية حين نعتقد بأن عالم الرياضيات يتوصل إلى أية نتائج ذات قيمة من الناحية العلمية بمجرد جلوسه إلى مكتبه مستخدماً المسطرة أو الآلات الحاسبة أو غير ذلك من الوسائل الآلية . وخيال العالم الرياضى يختلف تماماً من حيث هدفه والنتائج التى يصل إليها عن خيال الفنان الخلاق ، كما يختلف الاثنان فى نوعية الخيال وكيفيته بصورة أساسية ، ولكن العمليات والمسارات السيكلوجية فإنها لا تختلف عند الاثنين ، فكلاهما نشوة روحية تصل إلى هوس الدراويش ، وحالة من التجلى الذى يعشق المتصوفة » .

ويؤكد ماكس فيبر أن حصولنا على الإلهام العلمى أو عدمه يعتمد على مصائر تخفى علينا ، تماماً مثل اختيار الله عز وجل لإنسان من البشر لكى يبعثه نبيًّا . ولذلك يتعذر الفصل بين العلم والإيمان . وهذا يذكرنا بما جاء فى كتاب رينيه ويج « الفن والروح » حيث يتحدث عن النظرة العلمية التى نظر بها الدارسون الأكاديميون إلى النشاط الروحى للإنسان منذ عصر النهضة والتى انتهت فى عصرنا إلى نوع من التخصص العلمى ، هذه النظرة الجافة هى الأزمة الحقيقية لإنسان القرن العشرين لأنها فصلت بين عقله وروحه وجعلته يعانى من انفصام مزمن فى الشخصية .
ويضيف جاك بيرك وروجى جارودى إلى رينيه ويج قولهما إنه لن يتيسر أى حل لهذه المشكلة القديمة والتقليدية والخطيرة إلا إذا التقى الغرب العلمى بالشرق المؤمن ، الشرق الذى حرص دائماً على قيمه الروحية ، والتى أدى ضياعها إلى

الأزمة التى يعانى منها الغرب حاليًا ، وإلى الأمراض النفسية والعصبية التى أصبحت من خصائص هذا العصر المضطرب المرهق .

ويتفق توفيق الحكيم مع رينيه ويج وجاك بيرك وروجى جارودى فى ضرورة مساندة الإيمان الروحى للعلم المادى ، برغم أنه يرجع الانفصال بين العلم والإيمان إلى مطلع القرن التاسع عشر وليس إلى عصر النهضة كما يؤكد رينيه ويج . يقول توفيق الحكيم فى كتابه « التعادلية » ص ١٧ :

« إن التعادل الذى كان قائماً حتى مطلع القرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب ، أى بين نشاط التفكير ونشاط الإيمان ، قد اختل منذ ذلك الوقت بتوالى انتصارات العلم العقلى ، واستمرار جمود الجانب الدينى ، فالعلم وليد العقل قد ضاعف قوته وجدد وسائله ووسع آفاقه ، فى حين أن الدين وليد القلب بقّى محصوراً فى أفقه ، لم يكتشف منابع جديدة فى أعماق القلب الإنسانى ، تتعادل مع تلك العوالم الجديدة التى اكتشفها العقل البشرى .

وباختلال هذا التعادل وقع العصر الحديث فى الجانب الأرجح ، ونجم عن ذلك خضوعه للنتائج المترتبة على سيطرة العقل وحده . ومنها حرية الإنسان فى هذا الكون تبعاً لحرية فكره ، وإنكار كل ما لا يثبت بالبحث والاختيار. ومن ثم إنكار إرادة أخرى غير إرادة الإنسان أووجود آخر غير وجوده . فهو كائن وحده فى هذا الكون . .

وكان لهذا الاختلال فى التعادل نتيجته الطبيعية التى لابد أن تلازم كل اختلال فى التوازن . .وهو القلق . فالقلق السائد فى النفوس اليوم مبعثه هذا الاضطراب فى ميزان التعادل بين العقل والقلب ، بين الفكر والإيمان » .

والعجيب أن كبار علماء الرياضة والطبيعة والكيمياء والأحياء وغيرها من العلوم يعترفون بخطورة هذا الجانب الروحى فى نشاطهم العقلى ، بينما يتشدق مدعو العلم الحديث بأنهم لا يعترفون بشىء اسمه الروح . ذلك فى الوقت الذى نجد فيه عالماً رياضيًا كبيراً مثل هنرى بونكاريه يربط بين عملية الإبداع العلمى ونشوة الإلهام الروحى فى كتابه « العلم والمنهج » ، وهو بصدد اكتشاف رياضى هام (الدالة الفوكسيانية) . لقد قضى أسابيع يبحث عن وسيلة للتعبير عن ذلك الاكتشاف . كان هناك ثمة إحساس لا يعرف كنهه ولكنه يشعر به برغم امتلاكه للمنهج الرياضى الذى يخضع كل الأفكار لمنطق صارم . كان كالتائه أو المتصوف الذى بلغ مرحلة عالية من التجلى لا يجد لها تفسيراً علميًا مقنعاً . وإذا به ذات يوم ، وهو يضع قدمه على سلم الأتوبيس المسافر فى رحلة جيولوجية وقد طرأت على ذهنه فكرة دون إعداد لها من أفكار سابقة ، وهى أن التحولات التى تميز الدالة الفوكسيانية ، تماثل ما يحدث فى الهندسة اللا إقليدية . ولم يستطع بونكاريه تحقيق تلك الفكرة الفجائية لإنشغاله فى الأتوبيس بأحاديث الصحاب والزملاء ولكنه كان واثقاً مما توصل إليه ثقة المتصوف فى الأحاسيس التى تجتاحه من حيث لا يدرى ولا يعلم .

ويقول ليشنروفتش ، عضو أكاديمية العلوم الفرنسية ، الآراء نفسها بما يكاد يتفق وكلام بونكاريه . فيؤكد أنه أيًا كان الوحى الروحى لعالم الرياضيات فهو يبدع ويزن الأمور بإحساس رياضى متجانس لحساسية الموسيقى والمصور. والرياضى فى هذا فنان يستلهم أكثر منه عالم يفكر ، يناجى نفسه مناجاة تختلف أختلافاً كبيراً عن التخاطب التقليدى أو التفكير العقلى ، إنها مناجاة حبلى بالإلهام الروحى المبدع ، بالإدراك الداخلى الخلاق ، كأنها الإرهاص الذى يجتاح الشعراء قبل إخراج القصائد إلى حيز الوجود .

ويعترف آينشتاين بأن أى عالم لا يستطيع أن يبدع دون أن يعتنق ما يسميه « بالديانة الكونية » ، تلك الديانة تملأ قلب كل عالم انقطع للتأمل فى ذلك التناسق البديع بين قوانين الطبيعة وما يخفى من عقل جبار لا حدود له ، هذا العقل اللانهائى الذى لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه ، لما كونت غير شعاع ضئيل خافت قد يتلاشى إلى لا شىء إذا زاد من اقترابه منه . فالمكابرون وحدهم هم الذين يرفضون الاعتراف بمحدودية العقل البشرى ولكنهم

لا يعلمون أن العوامل التى أدت بعلماء الطبيعة مثلا إلى الشك فى نظام الكون الميكانيكى كانت نتيجة طبيعية لاكتشافهم التركيب الداخلى للذرة ولإدراكهم أبعاد الكون الشاسعة ، التى لا يمكن سبر غورها بالعقل البشرى المحدود . فمن الصعب للمحدود أن يدرك أبعاد اللا محدود ، هذا إذا كان له من الأبعاد ما يمكن إدراكه فعلاً كأبعاد .

وقد حاول العلماء إدراك الآفاق الداخلية والخارجية للمعرفة ، ولشرح هذه الظواهر نشأت نظريتان هامتان فى مطالع القرن الحالى . إحداهما النظرية الكمية التى تهتم بالوحدات الأساسية للمادة والطاقة . والنظرية النسبية التى تهتم بالفضاء والزمن وتركيب الكون كوحدة . وكلتا النظريتين مقبولتان كأساسين هامين فى علم الطبيعة المعاصر . وكل نظرية منهما تصف ظواهر طبيعية فى مجالها الخاص بمعادلات رياضية متماسكة . ولكنهما لا يجيبان على السؤال التقليدى « كيف » وهو السؤال الذى ارتآه نيوتن كما أن نيوتن لم يستطع الإجابة على سؤال « لماذا » الذى ابتدعه أرسطو . ولكن النظريتين تعطيان معادلات تعرف بدقة القوانين الخاصة بالإشعاع وانتشار الضوء . ولكنهما لم يستطيعا الوصول إلى حقيقة العملية الميكانيكية التى تتبعها الذرة فى إشعاع الضوء ، أو فى انتشار الضوء فى الفضاء . بل بقيت هذه العملية من أعمق أسرار الكون . وبالمثل فإن القوانين المتصلة بظاهرة النشاط الإشعاعى ، مكنت العلماء أن يتنبأوا بمقدار ما تفقده كتلة معينة من اليورانيوم فى فترة محدودة من الزمن . ولكن الإنسان لم يستطع مع هذه القوانين أن يعرف أى الذرات تتحلل أو كيف يقع الاختيار على هذه الذرات المتحللة . وبقيت هذه الأسئلة غامضة على الإنسان حتى الآن .

وفى كتاب لينكولن بارنيت « الكون ودكتور آينشتاين » الذى نشر عام ١٩٤٨ يوضح المؤلف مدى التخبط الذى وقع فيه العلماء عندما ظنوا أن العقل العلمى هو السلاح الوحيد الذى يستطيعون به تحقيق أى شىء وكل شىء . يقول بارنيت ص ١٢ :

« عندما قبل العلماء وصف الكون بطريقة المعادلات الرياضية وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الابتعاد عن الطريقة التجريبية وطريقة العلم بالحواس . ولإدراك أهمية هذا التراجع لابد أن نحدد الخط الفاصل بين الطبيعة وبين ما وراء الطبيعة ، والأسئلة التى تدور حول العلاقة بين الإنسان والحقيقة ، وبين الموضوعية والذاتية . فهذه هى الأسئلة التى جذبت العلماء والفلاسفة والمفكرين منذ فجر التفكير الإنسانى . فمنذ ثلاثة وعشرين قرنا كتب العالم الإغريقى العظيم ديموقريطس يقول « الحلاوة والمرارة ، البرد والدفء وكل الألوان ، كل هذه الأشياء توجد فى الخيال الإنسانى وليست فى الحقيقة المطلقة ، ولا يوجد فى الحقيقة إلا الجسيمات والذرات الثابتة وأثر حركاتها فى الفضاء » . وقد كان جاليليو يدرك ذاتية المميزات لصفات الحواس مثل اللون والطعم والرائحة والصوت وأوضح « أنها لا يمكن أن ترجع إلى الأشياء الخارجية بل إنها مثل الألم الناشئ من لمس هذه الأشياء » وقد حاول الفيلسوف الإنجليزى جون لوك أن يتغلغل إلى أعماق الحقيقة ولبها ، وذلك بتعيين الحد الفاصل بين ما أسماه الصفات الإبتدائية والصفات الثانوية للمادة . ولذلك فإنه اعتبر الشكل والحركة والصلابة والخواص الهندسية صفات حقيقية أو إبتدائية كامنة فى الجسم نفسه . بينما اعتبر الصفات الثانوية مثل الألوان والأصوات والذوق مجرد إسقاط على أجهزة الحواس . وقد بدا واضحاً لكل من جاء بعده من المفكرين مدى التصنع فى هذا التحديد .

وقد قال الرياضى الألمانى العظيم لا يبنتز : « إننى أستطيع أن أبرهن على أن الضوء والألوان والحرارة وما شابهها ليس إلا صفات خارجية . ليس هذا فقط ، بل تنضم إليها الحركة والشكل والسعة . وكما أن حاسة البصر تفيدنا أن كرة الجولف بيضاء . فكذلك الرؤية عن طريق حاسة اللمس تفيدنا على أنها مستديرة ناعمة وصغيرة وهذه كلها صفات لا ظل لها من الحقيقة المستقلة تماماً عن حواسنا . شأنها فى ذلك شأن تلك الصفة التى اتفقنا على تسميتها باللون الأبيض » .

ومن هنا وصل العلماء والفلاسفة تدريجياً إلى الاستنباط المدهش ، وهو أنه لما كان كل جسم عبارة عن مجموعة صفات ، وحيث أن الصفات يدركها العقل ، فإن كل الكون الموضوعى المكون من مادة وطاقة وذرات ونجوم لا يوجد إلا نتيجة لشعورنا وإدراكنا . أى أنه عبارة عن بنيان ضخم من الرموز الاصطلاحية تقيمه حواس الإنسان . وكما قال بيركلى عدو المادية اللدود :

« إن أصوات الكون وكل ما يملأ هذه الأرض من أجسام وأشكال تكون الإطار العظم للدنيا ، كل هذا ليس له مادة إلا فى عقلنا ، وطالما أنه لا يمكننى إدراكها بنفسى ولا توجد فى عقلى فإنها إما أنها لا توجد على الإطلاق أو أنها توجد فى عقل روحى أبدى لا يخضع لحدود العقل البشرى وقيوده المادية القاتلة » .

وقد توسع آينشتاين فى هذا الاتجاه من المنطق ووصل به إلى أبعد حدوده حين بين أن الفضاء والزمن ما هما إلا أشكال وصور من الإلهام الذى لا ينفصل عن الإدراك مثلهما فى ذلك مثل الألوان والأشكال والأحجام . فالفضاء ليس له حقيقة موضوعية إلا أنه نظام أو تنظيم للأشياء التى نراها فى هذا الفضاء وكذلك الزمن ليس له وجود مستقل إلا فى حدوث الحوادث التى نقيسه بها » .

ويلجأ علماء الكون إلى الصمت أو التخبط عند بحث منشأ الكون وبدايته ، ويتركون ذلك للفلاسفة ورجال الدين على أساس أن ميدان العلم يتمثل فى المادة المعاصرة الملموسة . ولكن آينشتاين الذى انتقدت فلسفته العلمية ودمغت بأنها فلسفة مادية محدودة ، يقول كما ورد فى كتاب لينكولن بارنيت ص ٩٨ :

« إن أجمل الأحاسيس وأعمق العواطف هى تلك التى نتعرض لها عند بحث الخفايا ، لأنها تؤدى إلى العلم الحقيقى . وكل من ينكر هذه الأحاسيس ، ولا يتعرض للدهشة أو للرهبة ، فإنه يعتبر فى عداد الأموات ، والمؤمنون هم الذين يعلمون أن هناك أشياء تخفى على علمهم ، وهذا هو غاية الحكمة وأقصى درجات الجمال المشع التى تستطيع حواسنا القاصرة إدراكها » .

وقال آينشتاين فى مناسبة أخرى مؤكداً ضرورة الإيمان لفكر العالم :

« إن الإيمان هو أقوى وأنبل نتائج البحوث العلمية ، ودينى يشتمل على الإعجاب المتواضع بتلك الروح العليا غير المحدودة والتى تكشف فى لمحات خاطفة عن بعض التفاصيل القليلة التى تستطيع عقولنا المتواضعة إدراكها ، وهذا الإيمان القلبى العميق ، والاعتقاد بوجود قوة حكيمة عليا نستطيع إدراكها خلال ذلك الكون الغامض يلهمنى فكرتى عن الله » .

هذا ما يقوله عالم وفيلسوف دمغه معظم الدارسين بالمادية والإلحاد ، وهذا يؤكد بدوره أنه لا غنى لعلم مهما ارتقى وتطور عن الإيمان ، فالإيمان ضرورة حتمية سواء للعالم أو للرجل العادى ، حتى الإنسان المغرور الذى يتشدق باعتزازه بإلحاده ظناً منه أنه بلغ أرقى درجات المعرفة والعلم ، هذا المغرور لا يدرك أنه أكثر الناس إيماناً بالإلحاد . أنه لابد أن يؤمن الإنسان بدين أو بعقيدة أو بمبدأ أو بنظرية . . إلخ وأسمى أنواع الإيمان هو الذى يرتفع بفكر الإنسان وسلوكه من عالم المادة المضطرب والمرهق إلى عالم المثال والروح ، ذلك العالم الذى ينبع منه الحق والخير والجمال . وفى هذا المعنى كتب السادات فى ١ أكتوبر ١٩٥٤ على صفحات « الجمهورية » يقول :

« تذكرت حكمة قرأتها وأنا فى السجن فحفظتها عن ظهر قلب ، ثم دونتها فى تلك الكراسة التى احتفظ بها حتى اليوم . كانت تقول :

« خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة ، وخلق الشياطين شهوة بلا عقل ، وخلق ابن آدم من كليهما . فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلب شهوته على عقله فهو شر من الشياطين . . »

وعدت أقول لنفسى كم نحن فى حاجة لأن نفهم بعقولنا وأرواحنا وأجسادنا هذه الحكمة الخالدة وسط تيار الصراع البشرى المخيف الذى جرفنا ، وغمر كياننا ، وحياتنا بزخرف المادة البراق فغلبت شهوتنا عقولنا وأصبحنا شراً من الشياطين . . إننا لا نحس السعادة . . وسوف لا نذوق لها طعما إلا إذا عدنا إلى عالم الروح ، وعالم الروح ، منبع الحق والخير والجمال . .

فى هذا العالم . . عالم الروح ترتفع الغشاوة عن العين ليرى البشر نعيماً رائعاً ، وجمالا ساميا حين تتكشف لهم أسطورة الخلد ، وآية النجاة . .

فى هذا العالم تصفو النفوس ، فلا يعود يستبد بها غضب ، أو حقد ، أو كراهية فهذه بضاعة المادة ، ووحى شياطين الدنيا الفانية . .

وفى هذا العالم يملأ القلب إيمان راسخ ، والإيمان أبداً هو القوة فى أسمى مظاهرها . .

وهنا فقط يبدأ أقدس وأعظم درس فى الوجود وهو الحب . . فيحب الإنسان الله لأنه الحق وهو الحبيب الذى بيده ملكوت كل شىء . .ويحب الإنسان كل الأشياء ، وهذه الأشياء من صنع يد واحدة هى يد الفنان الأعظم ، الذى خلق فسوى وأمات وأحيا .

اللهم ألهم قومى الرشاد ، وخلصهم من المادية التى سيطرت على عالمهم . . وأمنحهم الأخلاق . . »

وهذه النظرة المثالية – والتى تقترب من الصوفية – من الأصالة بمكان لدرجة أن فيلسوفاً ملحداً مثل برتراند راسل يتناولها بالدراسة والتأييد فى بحث له بعنوان « الصوفية والمنطق » نشر عام ١٩١٤ . وقد عالج فيه موضوع الصوفية كمنهج علمى آثره عديد من الفلاسفة منذ الإغريق حتى عصرنا الحاضر . وكمجموعة من الاعتقادات الروحية والمثالية ، كما ناقش فى هذا البحث إمكانية وجود علاقة بين الصوفية كتجربة ذاتية ، والعلم بما يدعو إليه فى منهجه من موضوعية خالصة . وقد أوضح راسل أن بعض كبار العلماء والفلاسفة قد أمكنه أن يجمع بين النزعة الصوفية والمنهج العلمى ، ورأى فى ذلك الجمع ، والتوفيق بين الاتجاهين ، سمواً فكرياً جعل من أصحابه فلاسفة بالمعنى الدقيق للكلمة ونظراً لإيمان راسل العميق بالمنهج العلمى فقد استخدم التحليل الدقيق فى بحثه هذا لحالات الصوفية ومعتقداتها المثالية ، واستطاع أن يستخلص للصوفية ، على مر العصور واختلاف الأمكنة خصائص عامة ، بحيث إذا وجدت هذه الخصائص فى فلسفة ما ، فإنه يمكن أن نصفها بأنها صوفية . وهذه الخصائص نجدها بارزة فى المقتطف الذى استشهدنا به من مقالة السادات ، ومنها وحدة الوجود ، وصراع العقل والشهوة ، وعلاقة الروح بالمادة ، والضرورة الأخلاقية التى تجنب العالم التحول إلى غابة ، والوصول إلى المعرفة اليقينية عن طريق العقل والروح معا ، لأنه إذا كان العقل هو الطريق المؤدى إلى المعرفة فالروح هى الضياء الذى ينير هذا الطريق ويجعل من البحث العلمى متعة روحية خالصة ، مهما قابل الباحث فى طريقه من صعاب وعقبات .

وقد أراد راسل بهذا البحث عن « الصوفية والمنطق » أن يوضح إمكان استفادة العالم من التجربة الصوفية التى تضم الروح إلى العقل . ولذلك يؤكد بشدة على أن الصوفية زاخرة بالحكمة التى يمكن أن يستفاد منها ، والصوفية لا تهرب من مواجهة الحياة بل هى موقف تجاه الحياة يحاول استيعابها بكل تناقضاتها وصراعاتها وأبعادها المتعددة . ولذلك يجب على الاتجاه الصوفى أن يغنى المنهج العلمى بما فيه من روح التأمل الجادة والرغبة فى النفاذ إلى الحقيقة العليا . ويجد راسل أن هذه الحقيقة الجوهرية قد وجدت لنفسها تجسيداً حياً فى كل من هرقليطس وأفلاطون .

كان هرقليطس من أكثر الفلاسفة الإغريق إيمانا بالمنهج العلمى الذى يقول بأن العالم كله قائم على مبدأ التغيير الشامل والمتصل ، وقد أوحى ذلك إلى هرقليطس بالقول المأثور عنه الذى ينسبه إليه أفلاطون وهو : « إنك

لا تنزل النهر الواحد مرتين لأن مياها جديدة تجرى من حولك باستمرار » . ومع ذلك ينزع هرقليطس نزعة صوفية عندما يقول : « نحن ننزل ولا ننزل فى النهر الواحد (من حيث إن مياهه تتغير باستمرار) ، نحن نوجد ولا نوجد (من حيث إن الفناء يدب فينا فى كل لحظة » فالمقارنة بين هذه العبارة الأخيرة – والتى اعتبرها راسل صوفية – وبين تلك التى ذكرها أفلاطون وهى علمية ، يتضح أن النزعة الصوفية والمنهج العلمى قد امتزجا فى مذهبه . فمثلا نجد أن الحتمية العلمية هى التى أوحت إليه بهذه العبارة « خلق الإنسان مقدر عليه » ، ولكن الصوفى وحده هو الذى يمكنه القول : « كل حيوان يساق إلى المرعى قسرا » ، « الحكمة واحدة ، أن نعرف العقل الذى يحرك كل شىء فى كل شىء » ويعتقد راسل أن هذه الأمثلة كافية للتدليل على طبيعة فكر هرقلطيس الذى جمع بين العلم والإيمان فى وحدة عضوية ، فإن حقائق العلم كما تبدت له غذت شعلة روحه ، وعلى ضوئها استطاع أن يرى أعماق العالم . وهذا قمة السمو الإنسانى الذى يمكن أن يتحقق فى مجال الفكر . ولذلك يشيد راسل بما دعت إليه الأديان السماوية فى مجال المعرفة من إفساح دائرة التأمل ، والدعوة إلى التحرر من الشواغل العملية ، والاعتماد على الروح الموضوعية .

ووحدة الوجود التى يدعو إليها الإيمان هى نفس هدف العلوم الحديثة بكل فروعها . وقديماً قال أفلاطون منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرناً من الزمان : « إن كل محب للمعرفة لابد أن يجرى وراء سرها . فلن يرتاح إلى تعدد ظواهرها التى هى فى الحقيقة ظاهرية فقط » . وفى صراع الإنسان لكشف الحقائق وفى فهم تعدد مظاهر الطبيعة التى يعيش فيها يحاول الوصول إلى حدود نهائية معينة ، ولكن العقبات التى تعوقه دون الوصول للحقيقة تنذره بعدم الوصول إلى قلب الأشياء . وقد قال أفلاطون : « إن دنيا الرؤية مثل بيت السجن » ، وكل طريق سلكته العلوم للهروب من هذا السجن يؤدى دائماً إلى مسالك غامضة من الرموز والألغاز والتأملات اللا نهائية . وهذا يرجع إلى قصور العقل البشرى . هنا تبرز ضرورة الروح فى مساندة العقل للوصول فى النهاية إلى منهج يؤكد علميًّا وحدة الوجود . فإن جميع الصور التى تخيلها الإنسان عن العالم ، وكل تأملاته المجردة عن الحقيقة كلها تتجه فى النهاية إلى الوحدة ، إن نظرية المجال الموحد تعد بمثابة الهدف الأسمى لكل العلوم ، وهى النظرية التى عرفها آينشتاين بأنها « لاستخدام أكبر عدد من الحقائق العلمية واستنباط القواعد المنطقية من أقل عدد من الافتراضات والأوليات » . ويؤكد لينكولن بارنيت فى كتابه « الكون ودكتور آينشتاين » ص ١١٢ :

« إن أهمية التوفيق بين الطرفين ، وضرورة توحيد الآراء ، والرغبة الملحة فى اختراق مظاهر الحياة ليست هى أساس العلوم الحديثة فحسب ، بل إنها أرفع ما يسمو إليه العقل البشرى ، فإن الفيلسوف والصوفى ورجل العلوم كلهم كانوا دائبى العمل والبحث والفحص لكى يصلوا إلى كشف أسرار الحياة الغامضة » .

ولكن أقصى ما يستطيع أن يصل إليه العقل البشرى من معرفة هو التصور الناتج عن تعريف العلاقات بين الأشياء ووصف حوادثها . ولكنه لن يستطيع بمفرده أن يعرف حقيقة « طبيعة » الأشياء وكنهها . وكل ما وصل إليه العلم الحديث هو حقيقة واضحة ، وهى أنه كلما توصل إلى حل لغز من ألغاز الحياة الطبيعية وجد نفسه أمام لغز آخر من ألغازها العديدة ، وكل وسائل الفكر والذكاء ، وكل سبل النظريات والتخمينات والتأملات تؤدى بالإنسان فى النهاية إلى هاوية لا يستطيع مع كل ذكائه أن يتخطاها ، لأن الإنسان مقيد بظروف وجوده وبأحكام بيئته ومعيشته ، وكلما تقدم فى أفق علمه أدرك الحقيقة التى رآها العالم الطبيعى نيلز بور فى قوله :

« إن الناس إما ممثلون أو متفرجون فى تمثيلية وجودهم ، فالإنسان هو نفسه أكبر أعجوبة غامضة فى الحياة ، فهو لا يدرك كنه نفسه ، فهو لا يعلم إلا القليل من أمر العمليات العضوية فى جسمه ، ويعلم الأقل من ذلك فى شئون عقله وقدرته على فهم الدنيا التى تحيط به ، بل إن قدرته محدودة فى التعليل وفى التخيل ، بل إنه يكاد يكون عاجزاً

عن فهم أنبل وأعجب خصائصه ، ألا وهى قدرته على السموبنفسه وإدراك كنهها فى عملية التصوروالتخيل » .

ومما يؤكد ضرورة الإيمان وعلاقته العضوية بالعلم أن أكبر عقبة كأداء تعترض الإنسان فى بحثه عن المعرفة اليقينية ، هو أنه نفسه عبارة عن مجرد جزء لا يتجزأ من الحياة التى يسعى لمعرفة حقيقتها والإلمام بكل جوانبها ، فإن جسمه الذى يعجب له وعقله الذى يفاخر به ، هما من عناصر الغموض الذى يحيره بالفعل وهو يجد نفسه وسطاً بين رحابة الكون وبين دقة الذرة ، ويجد العقبات المختلفة فى كل اتجاه من هذين الاتجاهين ، فلا يسعه إلا أن يعجب بقدرة الخالق – عز وجل – الذى خلق كل شىء . وجعلنا نعلم حقائق الأشياء المرئية من الأشياء الخفية . من هنا يأتى التكامل بين العلم والإيمان الذى نادى به السادات ، وهو تكامل – كما رأينا – له من الجذور الفكرية فى التراث الإنسانى العالمى ما يمتد من عصر هرقلطيس وأفلاطون إلى عصر آينشتاين وراسل . وهذا يوضح مدى استيعاب السادات لأبعاد الفكر العالمى سواء كانت علمية أو فلسفية . وعندما قدم نظريته عن العلم والإيمان لم يعلن عن شعار براق للاستهلاك المحلى ، ولكنه درس وبحث واستوعب طويلا حتى وصل إلى هذه النظرية الشاملة ، وهى نظرية إن كانت توجد بوضوح فى الفكر العالمى فهى تبرز بوضوح أكثر فى الفكر المصرى منذ عهد الفراعنة حين امتزج الدين بالعلم ، ونفس الوضع بالنسبة لمصر عندما أصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية الكبيرة .

وهذا بدوره يمثل اتجاهاً قوياً نحو التأصيل الفكرى الذى يستفيد بمنجزات الفكر الإنسانى بصفة عامة . وذلك عن طريق ربطها عضوياً بالجذور المشابهة لها فى الفكر المصرى الأصيل مما يحقق عنصرى الأصالة والمعاصرة فى آن واحد . ولهذا يقول السادات فى لقائه بوفد المؤتمر الإسلامى المنعقد فى القاهرة فى ١٤ سبتمبر ١٩٧٢ :

« علينا لمواجهة هذه الغزوة الشرسة أن نتسلح بسلاح العصر الذى نعيش فيه ، لا يمكن أن نتخلف ونحن نواجه صهيونية دنيئة غادرة ، واستعماراً شرساً لئيما ، من أجل ذلك ناديت بدولة العلم والإيمان ، فالعلم وحده ، من غير الإيمان ، قد يقينا شر هذه الغزوة ماديًّا ، ولكنه لن يستطيع على المدى الطويل أن يبنى النفوس التى يجب أن يبنيها مجتمعنا كما نشأنا وكما تنص عليه رسالتنا ، وما اختمر فى هذه الأرض من مبادئ وتقاليد وقيم .

والإيمان وحده فى مواجهة الغزوة لا يكفى لأن لدى عدونا من مستحدثات العصر ما يستطيع به أن يكسب جولة وجولة ، إذا لم نتسلح بالسلاح الذى يتسلحون به . .من أجل ذلك فإن العلم والإيمان شرطان أساسيان لنجتاز هذه المحنة التى نعيشها اليوم .

الأمة الإسلامية لم تفرق العلم عن الإيمان . كان العالم عالم فلك ورياضة ، إلى جانب تفهمه فى علوم الدين . هذا ما نقله الغرب عنا منذ البدء ، والعلم والإيمان متلازمان فى رسالتنا وعقيدتنا وما أحرانا اليوم أن نعود إلى ما كنا عليه » .

وفى نفس الكلمة يبلور السادات نظريته فى العلم والإيمان فيقول :

« لابد لنا من أن نستحضر كل مقومات عقيدتنا وتاريخنا ونضالنا وكفاحنا فى أسلوب نبنى به دولة العلم والإيمان ، بالعلم نواجه السلاح والسلام ، وبالإيمان نقول بيقين لعدونا : نحن لا نخاف شيئاً أبداً الآن ، كل شىء بيد الله سبحانه ونحن نؤمن أننا فى دفاعنا عن عقيدتنا وأرضنا ومستقبل أجيالنا أن ننتصر أو نستشهد ، وفى كلا الحالتين منتصرون بعون الله .

يقتضينا هذا أن تكون نظرتنا إلى العالم من خلال عقيدتنا نظرة جديدة . لابد أن نربى الطفل والشاب والراشد على مبادئ وقيم أخشى أن تكون قد أهملت فى الفترة الماضية . لابد أن نعمل جميعاً كل منا فى مكانه لنبنى المجتمع الإسلامى الجديد القائم على العلم والإيمان . . لا نهمل العلم أبداً وعلينا فى نفس الوقت أن نرسخ من الإيمان » .

ولا شك فإن محك أصالة أية نظرية هو التطبيق الفعلى لها لاكتشاف مدى ثباتها فى مواجهة عجلة الزمن وحركة

المجتمع ، وكانت حرب أكتوبر المجيدة الامتحان الذى اجتازته النظرية بنجاح باهر ، كان السلاح الحديث فى يد الجندى المصرى كما كان الإيمان فى قلبه ، واختلط هدير المدافع بأزيز الطائرات بقعقعة الدبابات بهتاف « الله أكبر » ، وتحول الجيش المصرى إلى طوفان هادر أغرق فى طريقه كل تحصينات العدو وأسلحته الحديثة فولى مذعوراً كالأرانب الجبلية . وذلك تأكيد لأجيال ما بعد السادس من أكتوبر أن طريق العلم والإيمان هو الطريق الوحيد المؤدى إلى التحرير والتعمير فى آن واحد .

ولما كان هذا الفصل قد عالج الجزء الأول فى نظرية العلم والإيمان : ألا وهو المنهج العلمى ، فقد آثرنا أن يكون الفصل الثانى دراسة لمفهوم الإيمان عند رائدنا فى التأصيل الفكرى : أنور السادات .

الفصل الثانى

مفهوم الإيمان

يمثل مفهوم الإيمان – عند أنور السادات – نظرة شاملة إلى الدين والدنيا والكون بصفة عامة ، وهى نظرة تبدأ بالواقع الفيزيقى للإنسان وتمتد لتشمل الكيان الميتافيزيقى له والمتمثل فى حياته الروحية بكل جوانبها المتعددة . ومن هنا كان ارتباط العلم بالإيمان ارتباطاً عضوياً ، فإذا كان العلم المادى يهتم بحياة الإنسان كجسد فإن الإيمان الدينى يعتنى بحياته كروح . وكما أننا لا نستطيع أن نفصل بين الروح والجسد ، كذلك لا يمكننا الفصل بين الإيمان والعلم . ولكن الإيمان يستغل الأدوات الفكرية التى تتفق مع طبيعته ، وهى أدوات لا يهم أن تختلف أو تتفق مع الوسائل العلمية لأن المهم هو الهدف وليس الوسيلة ، والهدف هنا يكمن فى محاولة تكامل المعرفة الإنسانية سواء من الناحية المادية أو الروحية ، وهو هدف يسعى إليه كل من العلم والإيمان على حد سواء . ولذلك فإن من القصور الفكرى أن ينظر بعض العلماء باستعلاء إلى القوى الميتافيزيقية التى يبلورها الإيمان بمفهومه الشامل . فالتحليل العلمى البحت مازال عاجزاً عن تفسير وتحليل هذه القوى الميتافيزيقية لأنها لا تخضع لمنهجه البشرى المحدود وبالتالى فلا يمكن أن ينطبق بمعاييره الجافة على انطلاقات الإيمان التى لا تحدها أية حدود بشرية .

والإيمان هو الوسيلة الوحيدة المتاحة للبشر لتفسير هذه الظواهر الميتافيزيقية ، فهو يملك المقدرة على الاقتراب منها فى اطمئنان بل وفى حب أكثر من العلوم التجريبية المعاصرة والتى لا تعترف إلا بالمشاهدة والتجربة والخطأ فى حدود الحواس المادية والعقل المحدود ، ورغم تقدم العلوم إلى درجة الوصول إلى الكواكب الأخرى إلا أن الإنسان مازال وسيظل محكوماً بهذه القوى الجبارة التى يلمسها فى التأثير الذى تمارسه على حياته ، ولن يدرك ماهيتها عن طريق العقل ، فمن المستحيل بالنسبة للمحدود أن يدرك اللا محدود ، لأنه إذا حاول هذا ، فإن محاولته تلك ستشبه المحاولة العلمية التى تهدف إلى البحث عن روح الإنسان بتشريح جسده ، ولعل الروح هى أوضح ظاهرة ميتافيزيقية فى حياتنا ، فنحن نحيا بها ولكننا لا ندرك كنهها مهما أجهدنا عقلنا ، ولكن الإيمان هو الطريق الوحيد لتفسيرها عن طريق السمو والارتفاع بالنفس البشرية فوق تفاهات الحياة اليومية واهتمامات العالم الدنيوى الذى لا يرى من حياته سوى يومه المحدود ولا يستطيع أن يبصر أبعد من موطىء قدميه .

وعن طريق الإيمان ندرك أن وحدة الكون – التى تهدف العلوم الإنسانية ، إلى إثبات وجودها – قد وجدت من قديم الأزل فى علاقة الحب الصافى والنقى بين الخالق والمخلوق ، وهى العلاقة التى تحرص دائماً على تخليص الإنسان من الحدود المادية القاتلة التى تجبره على البقاء فى دنيا الحيوان بكل ما تحويه من غرائز بدائية وانفعالات بربرية وشطحات وحشية . وكل البشر – على اختلاف مشاربهم – لديهم هذا الجانب الروحى فى حياتهم ، سواء اعترفوا به أو أنكروه ، سواء ترسب عندهم فى اللاوعى أو كان مسيطراً على تفكيرهم الواعى . ولاشك فإن فاعلية هذا الجانب تختلف من شخص إلى آخر ومن ظرف إلى آخر ، فإذا كان للجسد الكثير من المتطلبات فالروح أيضاً لها من المتطلبات ما هو أكثر حيوية بالنسبة لنمو الإنسان المتكامل . ولكن الجسد ينتصر فى كثير من الأحيان لأن ضغوط الحياة المادية وإلحاح الغرائز الحيوانية وصراع الغابة الذى يحكم حياة الأفراد كما يحكم حياة الشعوب ، كل هذه العوامل تجعل للجسد السيطرة المؤقتة على الروح ، ومع ذلك يظل الصراع بين الروح والجسد سارياً ، وهو صورة أخرى للصراع الذى نعرفه بين

الذات والموضوع أو بين الفرد والمجموع . فالحيوان فى الغابة لا يقيم وزناً لوجود الحيوانات الأخرى لأن غرائزه التى تحكم كيانه تجبره على اتباع مبدأ : « أنا ومن بعدى الطوفان » لأن كل وجوده يتركز فى الوفاء بمتطلبات جسده ، أما الإنسان فعليه أن يكبح جماح غرائزه من أجل صالح المجموع ، فإذا نجح فى هذا فإنه يكون قد أوجد تعادلا بين الروح والجسد ، وهذا ما يسميه توفيق الحكم بالتعادلية ، فهو يقول فى كتابه «التعادلية» ص ٢١ :

« أنا أحس بشعورى الداخلى أن الإنسان ليس وحده فى هذا الكون . وهذا هو الإيمان . وليس من حق أحد أن يطلب إلى الإيمان تعليلا أو دليلاً . فإما أن نشعر أو لا نشعر . وليس للعقل هنا أن يتدخل ليثبت شيئاً . وأن أولئك الذين يلجأون إلى العقل ومنطقه ليثبت لهم الإيمان ، إنما يسيئون إلى الإيمان نفسه . فالإيمان لا برهان عليه من خارجه . إنى أومن بأنى لست وحدى . لأنى أشعر بذلك ولم أفقد إيمانى ، لأنى رجل متعادل . »

ولكن مفهوم السادات للإيمان لا يقف عند حدود تعادلية توفيق الحكيم فى توازنها الدقيق بين المادة والروح ، بل يتخطاها اعتماداً على أن الروح خير من يسيطر على الجسد وليس مجرد أن يتعادل معه ، فالتعادل معناه استمرار الصراع بينهما وبالتالى فإن سيطرة الجسد احتمال قائم وقوى . أما وضع زمام الجسد فى يدى الروح ، فإنه يمكن الإنسان الفانى من التحليق فى آفاق سرمدية يحقق فيها وجوده الروحى ويستشعر من المتعة الروحية والنشوة الوجدانية مالم يجربه من قبل . عندئذ سيدرك أن المتعة الروحية أبقى أثراً وأطول عمراً وربما لازمته طوال حياته لأنها بمثابة تجربة سيكلوجية ترسبت فى عقله الباطن وأصبحت جزءاً من كيانه النفسى والفكرى . وفى هذا يقول السادات على صفحات « الجمهورية » فى ١ يناير ١٩٥٤ :

« إن مرور عام من عمر البشرية حدث جدير بأن يقف كل إنسان منه موقف التأمل والتفكير . فنحن نرهق أعصابنا وغرائزنا طوال العام فى انفعالات هذه الحياة التى نحياها ، نشقى ونسعد ونألم ونفرح . . كل هذا وموكب البشرية يسير غير عابئ بهذه أو بذاك ، فهو عمر لابد أن نقضيه فى شقاء وسعادة ، وفى ألم وفرح . .

ونحن ننسى دائماً ونحن فى هذا الموكب أنه يجب أن نعود إلى نفوسنا ولو لبعض لحظات نستلهم فيها سر وجودنا وماهية رسالتنا على هذه الأرض ، وأصبح مرور الأيام وتعاقب الليالى شيئاً رتيباً مملا ، نحسه ولا ندركه ، ونعيش فيه ولكن لا نغوص فى سره . .

وهكذا غابت عنا الحقيقة . وهى فى الواقع بين أيدينا . . فنحن لم نخلق عبثاً . وكل إنسان منا يولد وفى عنقه رسالة عليه أن يؤديها حمداً منه وشكراً للخالق الأعظم الذى كرم الإنسان فجعله أشرف المخلوقات .

فهل يجوز لأشرف المخلوقات أن يسخر من الفضائل فى سبيل متع الدنيا الفانية وزخرفها الباهت ؟ وهل يجوز لأشرف المخلوقات أن ينزل عما شرفه به الله فى خليقته ، فلا يرعى الحق والعدل وهما شريعة خالقه ؟

إننا فى حاجة لأن نرتفع بآفاق تفكيرنا فوق ما فرضناه على أنفسنا من قيود هى من صنعنا وهى مصدر بلائنا وشقوتنا . وسنظل نجهل هذا الموكب ونخشاه إلى اليوم الذى نرفع فيه بإدراكنا الغطاء عن أبصارنا .

لنرى الله فى الحق

ولنرى الله فى القوة

ولنرى الله فى الصبر

ولنرى الله فى كل ما نعمل ، وما نقول ، وما نسر وما نعلن » .

تلك هى اللمسة الصوفية المثالية فى مفهوم السادات للإيمان ، فإنه من خلال الإيمان كتجربة سيكلوجية وروحية شاملة تتجسد القوى الميتافيزيقية التى لا يستطيع الإنسان إدراكها بعقله القاصر أو بحواسه الخمس المحدودة ، عندئذ

يدرك أن هذا الكون لم يخلق عبثاً ولكنه موجود طبقاً لنظام صارم دقيق ، وأن هذه الدقة الباهرة لابد أن تكون من صنع خالق تسمو إرادته فوق إرادة البشر ، وبالتالى يرى الإنسان نفسه على حقيقتها ، مجرد قطرة فى محيط متلاطم الأمواج ، وحياة القطرة تتمثل فى الاندماج الكامل فى مياه هذا المحيط اللا نهائى ، وإلا أحرقتها أشعة الشمس وأحالتها إلى بخار. وهذا ما يعبر عنه المتصوفة بالاندماج الكلى فى الذات العليا . وهذه المقدرة الروحية هى التى جعلت من الإنسان أشرف المخلوقات ، فهو المخلوق الوحيد الذى يدرك وجود الخالق عز وجل بأسلوب لا يمكن أن يطرأ على ذهن المخلوقات الأخرى ، هذا إذا كان لها ذهن على الإطلاق . ولهذا تختلف نظرة الإنسان عن نظرة الحيوان إلى هذا العالم اختلافاً جذرياً ، فالحيوان يستعمل العالم كما هو بينما يسعى الإنسان إلى الارتقاء به إلى الآفاق التى يحس فيها أنه اقترب من أقرب مسافة من خالقه ، ويجب أن يؤخذ الاقتراب هنا بمفهومه الفكرى والروحى والنفسى وليس الاقتراب بمفهومه المكانى ، فالخواص الظاهرة للواقع إنما مرجعها إلى عقل المدرك أو العارف ، بمعنى أن الأشياء المادية ذاتها ليست مكانية ولا زمانية ، بل ظهورها لنا على هذا النحو يرجع إلى الطبيعة القاصرة لعقولنا التى لا تستطيع أن تدرك الأشياء إلا وهى حالة فى مكان وسارية فى زمان .

ولذلك فالإيمان يتفادى هذا القصور العقلى عن طريق استغلال الملكات الروحية فى الإنسان مثل الحدس والإلهام والشفافية والتركيز الشديد على أسمى الأحاسيس بحيث يصل هذا التركيز إلى أبعد الآفاق الممكنة ، ومن خلال هذا التركيز يستطيع الإنسان أن يدرك – بوعى كامل – العلاقة العضوية بين النظام الإلهى الرائع الذى يحكم هذا الكون وبين الكون ذاته الذى هو من صنع الذات الإلهية نفسها ، وبذلك يزداد الإنسان تعرفاً عليها واطمئناناً إليها وحباً لها ، وبالتالى فإن هذا ينضج علاقته بالوجود ويوثقها لأنه يدرك موقفه تماماً منه . والإيمان هنا لا يعمل فقط من أجل الحياة الآخرة ولكنه يسهم بقسط وافر فى سعادة الإنسان فى هذه الحياة الدنيا ، فهو يسعى بكل إمكانياته غير المحدودة إلى حياة أفضل وغد أجمل وإنسان أوسع أفقاً وأشمل تفكيراً . وفى هذا المعنى كتب السادات فى جريدة « الجمهورية » فى ١٣ يناير ١٩٥٤ يقول :

« هو الدين الذى شرعه الخالق الأعظم لكى تمتلىء الأرض عدلاً وسماحة ، ولكى تنتظم علاقات البشر فيما بينهم على أسس نظيفة نورها الفضيلة وهلاكها فى الرذيلة . . فالدين إذن للعمران . . أو كما قال آباؤنا الدين المعاملة . »

ثم يوضح أهمية الدين فى دفع ركب الوطن فى طريق التقدم الحضارى والمثل الإنسانية والوحدة الخلاقة فيقول :

« والدين يدعونا لكى نعرف حق أوطاننا التى وهبنا الله إياها ، فمن يفرط فى حق وطنه بالدعوة إلى التفرقة أو بالدعوة إلى الخصومة أو بإثارة الأحقاد أو بالتخلف عن ركب الوطن لشهوة الدنيا والمناصب كافر بالوطن وكافر بالدين . »

والدين ليس مجرد مثل عليا نستمتع بالحديث عنها ونعجز عن تطبيقها ، ولكنه منهج دقيق لتهذيب النفس البشرية والارتفاع بها بعيداً عن عالم الحيوان بكل غرائزه وشهواته وصراعاته وآفاقه المادية الضيقة . وكلما ابتعد الإنسان عن الدين فقد سيطرته على نفسه وتحول إلى ريشة فى مهب الرياح . وليس هذا من باب البلاغة الإنشائية أو الفصاحة اللغوية ، ولكنها حقيقة علمية أثبتتها العلوم الإنسانية المعاصرة وعلى رأسها علم النفس . وأثبتتها كذلك الحياة القاسية الرهيبة التى عاشها السادات فى شبابه والتى كان يمكن أن تقضى على روحه المعنوية العالية وإصراره على الكفاح المستمر من أجل مصر لو أنه لم يتسلح بسلاح الايمان ، فلم ينقذه من ضياع التشريد وتيه الهروب وكابوس السجن وقسوة الاعتقال سوى إيمانه بالرسالة التى ولد من أجلها ، فكلما كانت تضيق به ظروف الحياة وصروف الدهر كان قادراً على انتزاع نفسه من هذا التشتيت والضياع بالتركيز الذهنى والروحى على رسالة حياته من أجل مصر ، فلم يكن يقيس مركزه بالمقاييس التقليدية التى اصطلح عليها الناس فى حياتهم المادية ، فأنور السادات هو هو سواء كان ضابطاً قديراً فى الجيش أو كان

سجيناً مضطهداً وراء القضبان أو وطنياً جريئاً بين جدران الاعتقال أو ثائراً مطارداً من سلطات الاحتلال أو مشتغلاً بالسوق والتجارة أو ضابطاً من الضباط الأحرار أو رئيساً للجمهورية . فعلى مر كل هذه التحولات المصيرية كان الإيمان الراسخ هو السند الأكيد للتوازن الفكرى الذى يعد الشرط الرئيسى لوضوح الرؤية والسير فى الطريق الصحيح . ولذلك يقول السادات فى « الجمهورية » فى ٢٠ فبراير ١٩٥٤ :

« أنا أومن أن كل فرد منا يولد وفى عنقه رسالة . . وتعودت وأنا أؤدى هذه الرسالة فى مختلف أشكالها المتباينة أن لا أقيس مركزى بمقاييس هذه الحياة التى صنعناها نحن لأنفسنا بقولنا إن هذا مرموق ، وذلك غير مرموق . .

وعلى طريقتى أيضاً ، أؤمن بأن هذه الحياة تستحق أن نكافح فيها من أجل رسالتى الوجود والعمران . . فنظرتى إلى ما نسميه المركز المرموق والحالة هذه لا تتعدى أننى أجتاز فترة أو تطوراً من تطورات حياتى على هذه الأرض . .

ولقد اجتزت من قبل فترة فى الاعتقال ، وتطوراً فى السجن ، وآمالا فى الهروب والتشريد بالضبط كما أجتاز الآن تطوراً فى مكانى من هذه الثورة لا يعدو أن يكون مرحلة أجتازها كما سبق واجتزت ما ذكرته لك من مراحل وتطورات . .

والعبرة عندى دائماً هو أن أؤدى واجبى ، وقد أديته فى المعتقل وفى السجن ، وها أنا أؤديه الآن فى الثورة . والله وحده هو الذى يعلم ما فى الغد . .

وأحمد الله على أننى أؤمن به ، لذلك تجدنى راضياً عن يومى و واثقاً من غدى . .

وعلى هذا القياس ، تصبح الأمنية التى أطمع فى أن أحققها لنفسى شيئاً وهمياً ، وأننى إنما أطمع دائماً فى أن أستطيع أن أحتفظ بالتوازن الداخلى بين عقلى وروحى وجسمى كى تسير أيامى على هذه الأرض هادئة مشرقة . . فيسعد سلوكى أهلى والعيال . .وأحقق فى علاقاتى مع الناس المودة والسلام . . وقبل كل ذلك وفوق كل ذلك ، احتفظ بالصفاء مع ربى الرحيم القهار . . »

وإذا كان السادات يهتم بالتوازن بين العقل والروح والجسد ، فلأنه يعتقد أن العقل هبة من عند الله عز وجل وليس مجرد طاقة ميكانيكية تربط ما بين الأسباب والنتائج . ولذلك فشرط الإيمان الناضج هو الارتباط العضوى بين العقل والروح والجسد ، فنحن لا نستطيع تخيل العقل غير مرتبط بالروح والجسد وإلا تحول إلى مجرد فرض لا يمكن إدراكه ، وأيضاً لا يمكننا الإحساس بفاعلية الروح بدون الجسد إذ أنه التجسيد الحى لها والظاهرة المادية التى تؤكد وجودها المجرد ، ونفس الوضع بالنسبة للجسد إذ أنه يتحول إلى جثة هامدة بدون الروح أو إلى طاقة عمياء بدون العقل . وإذا كان توفيق الحكيم ينادى بالتعادل بين الروح والجسد فإن أنور السادات يضيف البعد الثالث عن طريق التأكيد على الدور التنظيمى الذى يمكن أن يقوم به العقل من أجل التوازن الداخلى المنشود . والمفهوم الشامل للإيمان هو الذى يحول العلاقة بين الروح والجسد والعقل إلى وحدة عضوية لا تقبل الانفصام ، وهو الذى يحكم فكرة الإنسان عن الخير والشر ويحدد الفارق بين الإنسان الذى يهمل روحه وعقله لدرجة الانحدار إلى مستوى الحيوان و بين الإنسان الذى يتناول نفسه بالتهذيب لكى يسمو فوق مستوى البشر .

والإيمان هو السلاح الذى وهبه الله للإنسان لكى يميز بين الحق والباطل ، وبين الفضيلة والرذيلة ، وبين الخير والشر وهكذا فى مختلف تناقضات الحياة . بل إن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد ، لأن الإيمان هو الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى معرفة حقيقية لا تقوم على الخوف من العقاب أو الطمع فى الثواب ، ولكن تقوم على الاستيعاب الشامل ، والحب الناضج بين الخالق والمخلوق . وهذا كله يتأتى عن طريق التجاوب الفعال بين التنظيم العقلى والانطلاق الروحى . ولعل المثل الشعبى المصرى خير من يعبر عن هذه الحقيقة عندما يقول عامة الناس إن الله عرف بالعقل .

وبناء على ذلك فنحن نعيش فى كون معقول لأنه يتبع فى كلياته وجزئياته قوانين ثابتة وواضحة ، تسير على نهج محدد من الأزل إلى الأبد ، فهى لا تحير العقل بالمفاجآت أو بالتحولات ، ولا تلتبس على فهم ولا تعصى على منطق لأن الله منح الإنسان روحا وعقلا لكى يدرك بهما القوانين الإلهية التى تحكم كل شىء ، من أكبر كل إلى أصغر جزء فى الوجود وتربط كل الموجودات برباط محكم ، وهذه القوانين إلى جانب أنها ثابتة وواضحة فهى صارمة وقاطعة ، فالعالم تحكمه المطلقات ولا مجال فيه للعبث بهذه المطلقات . وعلى سبيل المثال فإن الخير خير فى كل زمان ومكان . كان خيراً منذ آدم بل كان خيراً فى ذهن الله قبل أن يأتى آدم إلى الوجود ، وهو اليوم خير وسوف يكون خيراً حتى نهاية العالم . وهو خير فى الصين وهو خير فى مصر وهو خير على الأرض وهو خير فى المريخ . كذلك الشر شر فى كل زمان ومكان . كذلك الفضيلة فضيلة ، والرذيلة رذيلة ولن يلتقى الاثنان .

فإذا عجز عقل فرد عن فهم هذه المطلقات الصادرة عن العقل الأكبر المعقول فلا غبار على هذه المطلقات وإنما الغبار على عقل الفرد الذى فقد علاقته العضوية بروحه وجسده ، أما عقل الجماعة فلا غبار عليه ومهما ضل الفرد فالمجتمع عاقل ومعقول . وهذا ما كان يعنيه السادات فى أحاديثه عندما يؤكد أن إرادة الشعب من إرادة الله ، وأن الدين للعمران الدنيوى وليس فقط للحياة الآخرة . لهذا أمكن أن يحكم المجتمع بالقوانين المطلقة التى كان يمكن لعقل الإنسان أن يعقلها مع مرور الزمن لولا لطف الله به فهو الذى بادر فبلورها فى كتبه السماوية ، وفى هذه الكتب ارتسم للإنسان طريقان واضحان لا ثالث لهما : طريق الغى وطريق الرشاد ، وكل منهما يفضى إلى نتيجته الحتمية وهى الجحيم للخطاة والنعيم للمتقين .

وبما أن القوانين الدينية – والقوانين الدنيوية مبنية عليها – معقولة ، وبما أن الإنسان مخلوق عاقل ، إذن فقد تحددت مسئوليته عن أعماله وأفكاره ونواياه جميعاً ، فالمسئولية كاملة لأن الإنسان مخير وهو مخير لأنه مميز ، وهو مميز لأن الله لطف به . ومن هنا كانت حتمية الإيمان بالله والعمل بما أنزله فى كتبه السماوية . ولما كان الإيمان هبة من عند الله كان الإنسان هو المخلوق الوحيد المسلح بأسلحة تمكنه من منازلة الشيطان ومحقه ، وكان الشيطان قوة خارجية تنازل الإنسان من الخارج ، فتتجسم أمامه آنا فى زى المال وآنا فى زى المرأة وآنا فى زى رفيق السوء ، وهكذا إلى آخره من مغريات الحياة الدنيا ، ولكن الإنسان الحقيقى بماله من إيمان راسخ وعقل مميز وروح مفطورة على الخير ينازل هذه الأخطار الخارجية ويمنعها من أن تتغلغل فيه وتفسد نفسه وعمله وفكره ، ولقد يخسر الفارس المحارب جولة أو جولات ، ولكنه فى النهاية فائز ومنصور إن هو اتخذ من العقل درعه ومن الدين سيفه البتار .

والفرد المؤمن فرد مطمئن ، وكذلك المجتمع المؤمن فإن الطمأنينة لابد أن تسوده لأن العلاقات الإنسانية الثابتة والمطلقة هى التى تربط بين أفراده . كل من فيه مطمئن إلى عدالة السماء وإلى أن هناك قوة إلهية أزلية وأبدية تنظر إلى المؤمنين بعين الحب والرعاية ، فإن حدث خطأ بشرى ونضبت عدالة الأرض ، فعدالة السماء لا ينضب لها معين ، وهى تملك من قوى التصحيح على الأرض ما يثبت فاعليته الحاسمة فى الوقت المناسب والذى قد لا يخطر على بال بشر . ولذلك يعتقد السادات أن الإيمان هو السلاح الوحيد القادر على هزيمة تلك القوة الغاشمة التى نسميها بالقدر. يقول فى جريدة « الجمهورية » فى ٢١ ديسمبر ١٩٥٣ فى حلقة من سلسلة « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » :

« وقد لا نستطيع أن نحكم على فعال القدر عندما تحدث ولكن بعد مرور وقت طويل ، تستطيع دائماً أن تنظر إلى الماضى ، فتجد أن الإيمان الذى تتذرع به عندما تعمل فى سبيل حق . . هو دائماً . . أقوى من القدر » .

وإذا كانت إسرائيل قد حاولت أن تقوم بدور القدر الذى لا يمكن قهره ، فقد كان إيمان السادات الراسخ أن سلاح الإيمان لم ولن يهزم أمام أية قوة مهما كانت غاشمة وبربرية ، ولذلك يقول فى المؤتمر الشعبى بطنطا فى ٤ يناير ١٩٧١ :

« نحارب ونواجه المعركة بالسلاح الذى لا يهزم أبداً وهو الإيمان . إيماننا بالله والأرض وشعبنا وقد سية كل تراب فى بلادنا . . إيمان بأننا لا نسلم ، وأشرف لنا أن نموت واحنا بنحارب ورقبتنا عالية أشرف من الاستسلام . »

واعتماد السادات على الإيمان ليس شيئاً مستحدثاً فى حياته ولكنه يرجع إلى الأصول الأولى لفكره وفلسفته بصفة عامة ، وكان دائم الربط بين الإيمان وبين السلوك العملى الذى يترجمه إلى أفعال محددة . ولذلك كان حريصاً على تسجيل وترديد قصص البطولة والفداء التى كتبها الجندى المصرى فى مختلف المعارك التى خاضها ، وذلك كنوع من الإيمان عندما يتجسد ويتحول إلى طاقة جبارة لا يقنع صاحبها إلا بالنصر أو بالشهادة . وفى هذا يقول اللواء عبد الله لطفى فى حديثه إلى حمدى لطفى فى كتابه « أنور السادات : قصة إيمان بالعسكرية المصرية » ص ٧٣ :

« كان السادات يبحث عن هذه القصص بين الوحدات العسكرية ويرددها بين ضباطه وجنوده ، وفى كل وحدة التحق بها كانت معنويات مقاتليها ترتفع إلى السماء نتيجة وجوده بينهم ، وسلوكه النابع من أخلاقياته المتينة ودعامتها الإيمان والتربية الأسرية ، الغنية بتقاليد ومفاهيم القرية المصرية .

لقد سمعنا بعد تخرجه أنه أقام بمعاونة بعض زملائه مسجداً صغيراً فى سلاح الإشارة ، بإمكانيات ضئيلة جداً . . وكان عمره ٢١ عاماً ، وقد دفع كثيراً من ضباط السلاح إلى تأدية الصلاة ، وحين صار « بعضنا » برتبة لواء ، اعترفنا بأن أنور السادات هو الذى قادنا إلى حظيرة الإيمان . »

ويتفق السادات مع ت . س . اليوت فى حتمية العلاقة العضوية بين الإيمان والعمل ، فمن الصعب تصور وجود إيمان بدون عمل وخاصة أن العقل البشرى المحدود لا يدرك شيئاً إلا إذا أخذ صورة الفعل أو المادة ، وفى هذا المعنى كتب ت . س . اليوت فى دراسته « ملاحظات حول تعريف الثقافة » ص ٢٩ :

« هناك فكرة تقلق بال كل مفكر أصيل كلما سمح لذهنه أن يسرح فيها ، وهى الفكرة التى تؤكد أن ما نؤمن به ليس فقط هو ما نفصح عنه سواء بالقول أو بالفعل ، بل إن الفعل هو فى حد ذاته إيمان ، وأن أكثرنا وعياً وتقدماً يعيشون هم أيضاً على المستوى الذى لا يمكن فيه تمييز الإيمان عن السلوك » .

وفى نفس الدراسة يقول اليوت ص ٥١ :

« والتمييز القاطع بين الفكر والفعل ، أو بين الإيمان والسلوك لا يستقيم فى الحياة السياسية أكثر مما يستقيم فى الحياة الدينية ، حيث يلزم أن يكون لرجل التأمل منشطه الخاص ، وألا يكون القس العلمانى عديم الخبرة بالتأمل . ليس ثمة مستوى من الحياة العملية يمكن إغفال الفكر فيه ، إلا مستوى التنفيذ الآلى للأوامر ، وليس ثمة نوع من التفكير أو الإيمان يمكن أن يكون عديم التأثير فى العمل أو السلوك . »

ولقد نسى الناس هذه الحقيقة بسبب تعقيدات الحياة الحديثة ، وكان أثر ذلك خطيراً للغاية إذ أصابهم بما يشبه انفصام الشخصية . فإذا كانت هناك فجوة بين الإيمان والسلوك أو بين الفكر والفعل فلابد أن تكون شخصية الإنسان بكل مقوماتها هى الضحية ، فسوف يدخل فى متاهات زاخرة باليأس والهواجس والأوهام والظلام ، ولن يعرف طعم السعادة الدائمة التى تنبع من عالم الروح ، لأن السعادة المادية مرهونة بفترة وجيزة شأنها فى ذلك شأن أى شىء مادى فى هذا العالم ، وفى هذا يقول السادات فى « الجمهورية » فى ٣٠ يناير ١٩٥٤ :

« هذا الشرق . . أرض الثورة ، ومهبط الرسالات ، وأصل الحكمة ، يأبى إلا أن يعيش فى الظلام . .

من منا لم يعرف الحزن ، أو تطرق إلى نفسه اليأس ، أو لعبت به الهواجس والأوهام ؟ . .إننا نعيش فى كل هذا ، وحين نتلمس الدواء تتفرع بنا السبل ، لأننا قلما نتعمق لنعرف أصل الداء . .

وهكذا . . فنحن حتى فى لحظات السعادة لا نعرف كيف نسعد ، أو ننعم بما أحله الله لنا من متعة فى نصيبنا

أسس نجاحه على رأيهم . .

أما انتصارات الإنسان فى نجاحه الداخلى ، فلن يعرفها أو يحس بها إلا صاحبها ، لأنها انتصار لمبدأ قويم أو لمعنى سام أو لفضيلة معينة . . سيسعد بها صاحبها أيضاً ، ولكن إلى الأبد . . سيسعد لأن هذه الانتصارات ستشعره فى كل لحظة من لحظات حياته أنه يستطيع أن يكون مركزاً لإشعاع المثل الطيب والمبدأ القويم والإيمان بكل ما هوكريم وشريف فى هذه الحياة . . وسيسعد لأن بريق هذه الانتصارات لن يذهب أبداً ، بل سيظل يضىء كلما تقدمت السنون والأيام . . وسيظل صداها يحفز لانتصارات أخرى ، لن تكون إلا كريمة وشريفة . . .

سأظل أومن بالنجاح الداخلى . . . حتى ولو لم ينعكس على الناس ، لأنه لن يوزن فى يوم بموازين النجاح الخارجى » .

وفى نفس الخط الفكرى يؤكد شوبنهاور أنه لا مخرج من شر الرغبة الذى لا ينتهى إلا بالتأملات الروحية للحياة ، والبحث فى انتصارات المفكرين والفلاسفة والعلماء والقادة الروحيين فى جميع العصور وجميع البلاد ، فلمثل هذه القيم الموضوعية والمثل الإنسانية والانتصارات الفكرية عاش أولئك العظماء . ولذلك لن يسمو ولن يخلد سوى ذلك الفكر الذى يتجلى فى البعد عن الأنانية الضيقة من جراء المقارنة الدائمة بين الذات والآخرين ، وعلى حد قول شوبنهاور فإن هذا الفكر الموضوعى يطغى كالعطر الساحر فوق أخطاء عالم الرغبة وحماقاته . والمأساة أن أغلب الناس يسمحون لانسياب أفكار الآخرين أن يحبس ويكبت أفكارهم الأصيلة ، بل يشل مع الزمن قدرتهم على التفكير وتتحول عقولهم – بالتبعية – إلى مجرد نوع من آلات الامتصاص نتيجة لفقر عقولهم التى تجتذب إليها أفكار الآخرين عنوة ، وبالتالى فهم يفقدون كل عناصر النجاح الداخلى التى حللها السادات ، وأهمها الأصالة وحرية الاختيار ووضوح الرؤية والثقة فى النفس . ولذلك نجد أن أغلب الناس لا يستطيعون الارتفاع بأنفسهم عن مجرد رؤية الأشياء على أنها أهداف للرغبة التى تسيطر على مقدراتهم وتلهب ظهورهم بسياط من نار . ومن هنا كانت تعاستهم لأنهم لا يدركون القوى الكامنة فى الإيمان الذى يمنحهم القدرة على الاستيعاب الشامل والخبرة الموضوعية والفكر الموسوعى بحيث لا يقتصر دورهم على مجرد الاطلاع أو التلقى السلبى ، فإن رؤية الأشياء كمجرد هدف للفهم والاستيعاب ، إنما يعد الخطوات الأولى للوصول إلى الحرية والسعادة . وفى هذا المعنى يقول شوبنهاور فى كتابه « العالم إرادة وتخيل » ، المجلد الأول ، ص ٢٥٤ :

« عندما يجتذبنا دافع داخلى أو سبب خارجى من طغيان الرغبة الذى لا نهاية له ، فإنه يخلص المعرفة اليقينية من عبودية الرغبة ، وبذلك لا يصبح الانتباه موجهاً بعد ذلك إلى دوافع الإرادة ، بل إلى فهم الأشياء وقد تخلصت من علاقتها بالإرادة أو الرغبة ، ومن ثم يرقب هذه الأشياء دون أدنى مصلحة شخصية تعتمد على رأى الآخرين ، فالموضوعية الخالصة تساعد الإنسان على أن ينظر إلى ذاته على أنها موضوع فى حد ذاته بصرف النظر عن علاقاتها النسبية المتغيرة مع ذوات الآخرين . ولذلك فالإنسان الموضوعى يعطى نفسه كلها لها طالما هى أفكار وليست دوافع . وعلى أثر ذلك يحل السلام والطمأنينة والهدوء وكل العناصر التى ينشدها الإنسان دائماً ، وهى العناصر التى كانت تهرب دائماً من الإنسان بمجرد السير فى طريق الرغبة ، أما طريق الروح فهو السبيل الوحيد المؤدى إلى هذه العناصر التى ستأتى طواعية إلى الإنسان إذا سلكه بمحض اختياره . عندئذ ستخلو حياته من الألم ، وهى الحياة التى امتدحها أبيقور واعتبرها الخير الأسمى ، لأن الإنسان فى تلك اللحظة يكون قد تخلص من كفاح الرغبة التعس ، ويكون قد تحرر من عبودية الإرادة » .

ولذلك يجب على الإنسان ألا يبحث عن سعادته عند الآخرين ، لأن السعادة – بمنتهى البساطة – بين يديه .

بمعنى أن الآخرين أو الأشياء المحيطة بالإنسان بصفة عامة لا تمنح الإنسان السعادة بقدر ما يستخرج هو السعادة منها وذلك عن طريق الأسلوب الذى ينظر به إليها . ومن هنا يمكن لأى شىء ولكل شىء أن يمنح السعادة للإنسان طالما أن الأمر فى يديه . يقول السادات فى مقالة بعنوان « السعادة بين يديك » فى « الجمهورية » بتاريخ ١١ أكتوبر ١٩٥٤ :

« إن حياتنا على هذه الأرض محدودة بأجل معين . . والعجيب أننا نمضى دهراً طويلاً من هذا الأجل فى التحسر على ما فات ، أو الخوف مما هو آت . . . إننا نستطيع أن نجعل من كل أيامنا على هذه الأرض سعادة لا تنقضى . .

إن فى نعمة الصحة سعادة . .

وفى عاطفة الأبوة والبنوة سعادة . .

وفى حب الأهل والأصدقاء سعادة . .

وفى الحياة الزوجية سعادة . .

وفى العمل سعادة . .

وفى التأمل فى خلق السماوات والأرض سعادة . .

وفى الأمل الذى يقهر اليأس سعادة . .

فى جمال الزهور ، وفى خضرة الشجر . .

فى انسياب المياه . وفى وقفة الجبل . .

فى طلوع الشمس ، وفى سحر القمر . .

فى صفاء الروح ، وفى استقامة الخلق . .

سنعرف الله . . .

فنسعد إلى الأبد . . » .

وهذه المباهج الروحية لا يمكن الحصول عليها إلا إذا اعتنى الإنسان بروحه وعقله وقلبه ، أما إذا ترك قياده للنفس – وهى أمارة بالسوء – فلن يصل إلى صفاء الروح واستقامة الخلق وحب الإنسانية ومتعة التأمل وروعة الأمل ، وبلغة العلم ، لن يصل إلى الصحة النفسية المنشودة . ولذلك ينادى الفيلسوف والطبيب العربى أبو بكر الرازى بأنه من الضرورى على طبيب الجسم أن يكون أيضاً طبيباً للنفس ، ومن هنا قام بتأليف كتابه « الطب الروحانى » الذى يهدف من ورائه إلى إصلاح النفس . أى أنه سبق فرويد بعدة قرون فى عرضه للنواحى التى ينبغى أن تكون عليها النفس من كبح ، وإعلاء ، وسمو ، وارتقاء ، وسيطرة على الانفعالات الجامحة ، والغرائز الطائشة ، والشهوات العمياء . وهو يؤكد فى كتابه قيمة العقل كقيمة روحية فى حياة الإنسان ، ويعتبره من أعظم نعم الله على البشر ، فعن طريقه يمكن للإنسان أن يدرك الأشياء ، وأن يسخر الطبيعة فى خدمته ، وهذا أكبر دليل على حب الله للإنسان إذ شرفه بأعظم وسيلة تجعل حيـــاته ذات قيمة ومعنى ، وتحدد من شطحاته الحيوانية التى يمكن أن تدمر حياته نفسها . وعلى هذا يقول الرازى فى أحد فصول كتابه بعنوان « قمع الهوى » : إن أشرف شىء وأروعه هو قدرتنا على قمع الهوى وترويض النفس الأمارة بالسوء » . ولذلك نجد السادات يتوجه إلى الله عز وجل بالحمد والشكر عند ما تمكنت الثورة من إجلاء الإنجليز عن مصر بعد احتلال دام أكثر من سبعين عاماً ، لم يحاول السادات أن يمجد الجلاء على أساس أنه انتصار بشرى ضد قوى البغى والاحتلال ، بل أكد أن الله قد أراد أخيراً بهذا النصر عند ما صحت عزيمة

الشعب وقادته على انتزاعه بالقوة أو بالمفاوضة . فى عدد الجلاء الخاص الذى أصدرته جريدة « الجمهورية » فى ٢٨ يوليو ١٩٥٤ يتوجه السادات بالحمد والشكر إلى الله راجياً أن يرعى هذا الشعب الذى ذاق الكثير من العسف ويأمل أن يعوض ما فاته من تقدم حضارى ورفاهية إنسانية . يقول السادات :

« رب أوزعنا أن نشكر نعمتك التى أنعمت على أهلنا بعد طول البأس ومرارة الحرمان . .

أيها الشعب . .

إن الحياة مقبلة عليك اليوم كما لم تقبل من قبل ، إن بلادك أصبحت ملكاً لك وحدك لا ينازعك فيها غاصب أو طاغية . .

إن العلم سينير عقلك كما لم ينره من قبل . .

إن رزقك سيكون اليوم كما لم يكن من قبل . .

رب إن الشعب يسجد لك اليوم فى عيد حريته ، ثم ينظر إلى المستقبل المضىء فى فرحة . . ونورك يا إلٰهى هو الذى يضىء لنا الطريق . .

سبحانك ربى أسبغت على مصر نور جمالك وجلالك . . فلك أنت العظمة والسلطان .

وسبحانك أنت . . لك الملك والقدرة والدوام . .

سبحانك ربى يا غالباً غير مغلوب . . وضعت ورفعت ، ووصلت وقطعت ، وأعززت وأذللت ، بيدك الخير . . إنك على كل شىء قدير . .

إلٰهى لك الحمد . . حمداً ترضاه . . فبك قمنا ، وعليك توكلنا ، وإليك أنبنا . . فهيأت لنا الوسيلة وكتبت لهذا الشعب النصر والعزة والكرامة . .

إلٰهى . . وسيدى . . ومولاى :

أسألك بحق السائلين عليك أن تجعل لنا ظهيراً من عقولنا ، ومهيمناً من أرواحنا ، ومسخراً من أنفسنا . .

كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيراً » .

هذه التسابيح الصوفية لا تصدر إلا عن قلب عامر بالإيمان العميق الراسخ ، قلب ذاق المباهج الروحية للإيمان وأحس أن الحياة كلها لا تساوى شيئاً بدونها ، قلب أدرك أن الإيمان بالله هو أسمى درجات المعرفة اليقينية ، إيمان قائم على الحب المتبادل وليس على خوف الإنسان من الرهبة الإلهية . وفى هذا يعد السادات رائداً للتأصيل الفكرى لأن فكره يمتد حتى يصل إلى نظرية ذى النون المصرى فى كل من المعرفة الإلهية وكذلك المحبة الإلهية . فعنده أن المعرفة الإلهية هى أرقى أنواع المعرفة لأنها معرفة يقينية ومباشرة للذات الإلهية ، وهى لا يمكن تحصيلها عن طريق التعلم ، أو الاستدلال ، وإنما هى إلهام ، أو نفث فى الروح ، لا يدانيه أى ضرب من ضروب المعرفة الأخرى ، وبدون هذه المعرفة لا يستطيع المؤمن المتصوف أن يدرك الذات الإلهية بكل بهائها وروعتها وعظمتها . .

وكما كانت لدى ذى النون نظرية فى المعرفة ، فقد كانت لديه أيضاً نظرية فى المحبة ، فهو يرى أن ثمة حبًّا متبادلاً بين العبد المحب ، وبين الرب المحبوب ، وأن هذا الحب من شأنه أن يقود الإنسان إلى الاتحاد بربه اتحاداً يشعر فيه باستغراق ذاته فى ذات الله ، وهذا هو الحب الإلهى ، الذى كان يرى ذو النون أنه يجب على من تحقق له ذلك ألا يبوح بشىء من أسراره لمن لا يعرفون من الحب إلا معناه المادى الحسى ، فأمثال هؤلاء لا يعرفون سوى المادة الفانية المرتهن وجودها بمكان وزمان معينين ، أما الفكرة المجردة فلا يمكن أن تخطر على بالهم ، برغم « أن الفكرة إنما هى مفتاح العبادة » على حد قول ذى النون نفسه ، فهى الكفيلة بجعل الإنسان ذلك المفكر العاقل الموضوعى الذى

ينظر إلى نفسه كما لوكانت شيئاً منفصلاً عن كيانه . فالإيمان هو أسمى درجات الموضوعية ، يقول ذو النون : « ليس بعاقل من طلب الإنصاف من غيره لنفسه ولم ينصف من نفسه غيره ، وليس بعاقل من نسى الله فى طاعته ، وذكر الله فى مواضع الحاجة إليه » . ولذلك يؤمن ذو النون أن الإخلاص فى العمل والعبادة إنما هو المنقذ من العذاب والضلال ، فطريق الخلاص هو الإخلاص . فإذا أخلص الإنسان تخلص من وخز الضمير ومن كل ما يعانيه فى حياته من محن وآلام وشرور . فليس من المعقول أن يقابل حب الله لنا بالعقوق من ناحيتنا .

فالإيمان الحقيقى هو الخروج من دائرة الذات الضيقة والاتحاد بالذات الإلهية التى تحتوى الكون كله كموضوع شامل ، أى أنه أسمى درجات الموضوعية – كما قلنا – وبالتالى فهو أسمى درجات العبقرية إذا حاولنا تطبيق مفهوم شوبنهاور للعبقرية حيث يقول فى المجلد الأول من « العالم إرادة وتخيل » ص ٢٤٠ :

« إن العبقرية هى أكمل صور الموضوعية ، أى نظر العقل إلى الأمور من الناحية الموضوعية الخالصة ، والعبقرية هى القدرة على أن يبعد الإنسان عن نظره مصالحه ورغباته وأهدافه ، ويتخلى الشخص تماماً عن شخصيته بأكملها لفترة من الوقت حتى يصبح مجرد ذات عارفة خالصة . ومن ثم يرى العالم رؤية واضحة . ولذا جاء مدلول العبقرية مشيراً إلى سيطرة المعرفة اليقينية على الرغبة الذاتية سيطرة ثابتة محددة الملامح » .

وهذه الرؤية الواضحة ليست سوى الشفافية التى يتحدث عنها المتصوفة حين يبلغون أسمى درجات الكشف ، ويقول شوبنهاور إن العبقرية تمسك لنا المرآة السحرية التى يظهر عليها كل ما هو ضرورى وهام وقد جمع ووضع فى أسطع ضوء ، أما كل ما هو عرضى غريب فلا يرى لأنه أبعد عنها ، وبذلك ينفذ الفكر من أغلال العاطفة كما يخترق شعاع الشمس السحب ، فيكشف قلب الأشياء ، ويذهب إلى ما وراء دائرة الذات حيث الصفة العامة والحقيقة المطلقة والكينونة الدائمة ، لا يكون الإنسان فى كشفها إلا مجرد رمز أو وسيلة . وفى هذا يتفق شوبنهاور مع الفيلسوف العربى ابن باجة عندما يوضح فى كتابه « تدبير المتوحد » أن السعادة الإنسانية لن تتحقق إلا إذا استحالت الأشياء المادية إلى أفكار مجردة ترتفع فوق العالم المادى الشائه ، الملىء بالغبش ، والذى يحول دون رؤية الحقيقة .

ويذهب ابن باجة إلى القول بأن السواد الأعظم من الناس ينعم بحاسة البصر التى يبصر بها الأشياء ، يبصرون صورها وأشكالها وألوانها ، لكنهم مع هذا ، لا يفطنون إلى عجز أبصارهم . إنهم لا يرون من الأشياء إلا ظلالها ، وهم لا يدركون أن أجسادهم نفسها – مثل هذه الظلال – تزول كما يزول الظلام . إن قلة قليلة هى التى تمتاز بقوة البصيرة والقدرة على الاستبصار . إنهم وحدهم القادرون على إدراك حقائق الأشياء ، فهم لا يتعثرون فى ظلام المادة الذى يطمس البصيرة ويحول دون الكشف والحدس والإبداع . ومن ثم ، كانت الموضوعية عند ابن باجة ، هى وسيلة للوصول إلى الكشف الإلهى حين يتجرد المؤمن من كل عناصر الفناء ويتحول إلى قبس من النور . وفى مقدور كل إنسان أن يرقى بنفسه حتى يبلغ هذه الدرجة العالية من المعرفة اليقينية ، وذلك حين يتخلص من حدود ذاته الضيقة ، ويعمل على تنمية قواه العقلية ، ويحرص على توسيع نظرته الموضوعية بحيث لا يجب أن تكون أفعاله مرهونة بكل ما يعود عليه بالنفع الشخصى ، وإنما عليه أن تصدر أفعاله عن نظرة إنسانية خالصة ، فمثلاً إذا اصطدم بحجر فى الطريق وأراد أن يحطمه حتى لا يكون حجر عثرة فى طريق الآخرين ، فإن هذا الفعل ينطوى على قصد إنسانى ، وبالتالى فهو عمل موضوعى لأنه يحمل الرغبة فى عدم إيذاء الناس جميعاً ، فهو أشبه بالمفهوم الكلى الذى لا يقتصر على فرد بعينه .

ومن أجل بلوغ هذه الدرجة من الموضوعية يطالبنا ابن باجة – مثل شوبنهاور – بتنمية قوانا العقلية والذهنية والفكرية والروحية حتى تتحكم فى قوانا النفسية من غضبية ، وشهوية ، وانفعالية ، ولذلك فالأفعال الحيوانية صادرة

عن الغريزة – أو الرغبة كما يسميها شوبنهاور – بينما الأفعال الإنسانية صادرة عن الإيمان بشفافية الروح ومقدرة العقل . ويجب ألا نهمل فى السمو بنفوسنا حتى تنكشف لنا الرؤية ، رؤية الطريق إلى الحق والخير والجمال ، حينئذ يصبح الإنسان إنساناً فائقاً ، أو على حد تعبير ابن باجة : إنساناً إلهيًّا ، بمعنى أنه يعيش على الأرض ويخضع لقيود المادة ولكن روحه تهيم فى الملكوت الأعلى حيث تجد خلودها فى الفناء المتصل فى الذات الإلهية . وهذه الفكرة الصوفية من أحب الأفكار إلى قلب السادات ، فقد كتب على صفحات « الجمهورية » فى ١٠ مايو ١٩٥٤ يقول :

«كنت أقرأ منذ خمس سنوات . . وفى شهر رمضان بالذات قصيدة لشاعر ألمانى صوفى يردد دعاء حارًّا صادقاً لله سبحانه وتعالى ، وهو فى هذا الدعاء لا ينسى أن يعيش على الأرض ، وهو يسبح بروحه فى ملكوت الله الأعلى ، لذلك صدر دعاؤه رائعاً جديداً يترجم عبادته لله وحبه المتقد فى نفسه ، وفناءه المتصل فيه . . . كل هذا تترجمه ألوان من هذه الطبيعة التى رسمتها لنا يد الخالق الحبيب فأبدعت وأذهلت . . استمع معى إلى ذلك الصوفى وهو يقول :

« هو ربى الذى أعبد . . وهو ربى الذى أعشق . . وهو ربى الذى من أجله أريد أن أتألم وأريد أن أتعذب ، وأريد أن أنفطر وأتمزق وأموت . .

إنه ليتغلغل فى عقلى ، تغلغل الحرارة المباركة فى عظام شيخ محطم . . ويندمج فى كيانى كما يندمج العطر فى الزهرة . . والثمرة فى الشجرة . . والنور فى الظلام . .

فامنحنى يا إلهى قوة الفكر كى أعيش فيك وأصبح كالأسد . .

وهبنى يا إلهى بروح التواضع كى أتقرب منك فى وداعة البنفسج . .

واسكب على يا إلهى ضوء القناعة كى أنفذ إليك فى حكمة العباقرة . .

واغدق على يا إلهى فيض الصفاء كى يغتسل قلبى فى مياهك الزاخرة . .

وجللنى يا إلهى بروائع جمالك كى أندمج فيك . . وأسبح بحمدك . . دنيا وآخرة . .

سنظل نشقى على هذه الأرض . . وسنظل نضل الطريق ، ولن نستمتع بهذه الحياة إلا إذا ارتفعنا فوق نفوسنا لنفكر فى خلق السموات والأرض . .

ربنا ما خلقت هذا باطلاً . . . سبحانك . . . »

بهذا الأسلوب يستطيع الإنسان أن ينتصر على المادة التى تكبله كلما حاول الانطلاق إلى الآفاق الرحبة لعالم الروح ، وهى خبرة ضرورية للوصول إلى المعرفة اليقينية التى قد يقصر العقل البشرى المحدود عن بلوغها . ولم يقتصر الترحيب بهذه الخبرة الروحية على فلاسفة الصوفية فحسب ، بل نجد فلاسفة وعلماء عقلانيين – من أمثال ابن خلدون – يقولون أن الحدس والإشراق من أهم الوسائل التى تساعد على بلوغ المعرفة الخالصة . فمعرفة الأشياء عند ابن خلدون لا تتحقق إلا عن طريق الخبرة ، والمشاهدة . ومن ثم ، فهو يدعو أهل الفكر والمعرفة إلى الأخذ بالتجربة ، وأن يجعلوا من الحواس أداة لتعرفهم على هذا العالم ، وهو هنا لا يكتفى بالتجارب الفردية ، وإنما ينادى بأنه ينبغى التركيز على حصيلة التجارب الإنسانية عبر العصور المختلفة . لكن ابن خلدون برغم ارتباطه بالواقع ، وإصراره على خبرة الحواس ، نراه يؤمن – إلى جانب ذلك – بالحدس ، والإشراق ، والكشف ، فعنده أنها وسائل صالحة لإدراك ما استغلق على الأذهان والحواس ، وهذا دليل على أن ابن خلدون كان ينزع فى رؤيته نزعة صوفية حين يستعصى عليه الواقع ، وهذا دليل أيضاً على الأصالة الفكرية لهذه النزعة التى تكمل النقص الموجود فى الإمكانيات المحدودة للعقل البشرى .

ونفس النزعة نجدها عند ابن سينا الذى ينهض منهجه على التجربة والاستقراء ، وملاحظة الظواهر ، وجمع المعلومات التى تحيط بالموضوع ، ثم ترتيبها ترتيباً منطقياً حتى يستخرج منها النتائج الكلية . ومع هذا يؤمن ابن سينا بأن هناك تدبيراً غير تدبير الإنسان ، وسلطاناً غير سلطانه وأن العقل البشرى ليس فى مقدوره أن يحكم كل شىء وأن الإرادة الإنسانية ليست هى الإرادة الكبرى فى الكون ، ونفس الاتجاه نجده عند الفارابى الذى يرى أن نظريات الدين تكمل القصور العقلى ، بل إن الدين نفسه مدد رئيسى للعلم والفلسفة والفكر بصفة عامة . فلئن كان العقل خليفة الله فى الأرض ، فإن ذلك مدعاة إلى استحالة وجود تناقض بين العقل والوحى ، أى بين العلم والإيمان ، ويرى الفارابى أن الغاية من العلم والفلسفة هى معرفة الخالق ، فالله هو العلة الفاعلة وهو السبب الأول لوجود الأشياء . إنه ليس بمادة وليس لوجوده غرض أو غاية ، وهو علم وعالم ومعلوم ، وعلمه أفضل العلم ، لأنه علم دائم لا يزول . ولذلك يؤكد الفارابى أن السعادة الحقيقية لا تتحقق إلا بالإيمان بما يحويه من دين وفلسفة .إنها سعادة روحية لا يمكن الوصول إليها إلا فى ضوء الحياة فى المدينة الفاضلة ، إنها الاسم الذى أطلقه الفارابى على الوجود المثالى للإنسان ، فهى المدينة التى ينال مواطنوها السعادة القصوى فى الدنيا والآخرة .

ويعتقد السادات أنه فى الإمكان تحويل الوطن العربى إلى هذه المدينة الفاضلة التى ذكرها الفارابى إذا استغل العرب إمكانياتهم الروحية والمادية فى آن واحد . فالوطن العربى هو مهد الأديان ، ومهبط الرسالات التى أنارت طريق البشرية عبر عصور الظلام ، ووطن مثل هذا لا يمكن أن يتخلف عن ركب العصر إذا صح عزم أبنائه على النهوض به ، فلا يصح لمنبع النور أن يبحث عن النور بعيداً عن منبعه . ولذلك يقول السادات فى « الجمهورية » بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٥٤ :

« أنا أومن بالعروبة . . وأفخر أننى عربى . . فمنذ فجر الحياة ووطننا يطفح بالنور ، ويستقبل من السماء كلام الله ورسالاته لكى يرسل بها إلى أطراف الأرض عدلاً وطهراً ونقاء وسلاماً . .

من تراب وطنى خلق أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام . . وعلى بقعة مباركة من أرض وطنى انبثق نور قدسى هادئ سعى إليه موسى ليعود منه بشهاب قبس علهم به يصطلون . . وهناك . . وفى روعة هذا النور ، كلم الله موسى تكليماً : ولما أن سأل موسى ربه طمعاً فى أن يراه ، أمره جل وعلا أن ينظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فإنك يا موسى ترى الله ، وتجلى مالك الملك للجبل فجعله دكًّا . . وخر موسى صعقاً . . ثم تاب .

هذه البقعة المباركة بكلام الله فى أرض وطنى ، وهذا الجبل الذى تجلى له ذو الجلال والإكرام قطعة من تضاريس وطنى . .

ومن دون نساء الأرض ، اصطفى الله مريم وطهرها على نساء العالمين بشرتها الملائكة بعيسى عليه السلام ، فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ، وهناك . تحت جذع النخلة نوديت ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً . . وعادت بوليدها إلى قومها يتكلم فى المهد ، إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . .

إن مريم ابنة وطنى . . والنخلة من زروع وطنى ، ورسالة عيسى بزغت أول ما بزغت فوق أرض وطنى . .

ذلك النبى العربى ، خاتم الأنبياء ، وأكرم خلق الله على الله ، محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ، شهدت أرض وطنى مولده الكريم ، وأظلت سماء وطنى شبابه الأمين ، وسعدت رمال وطنى بسعيه فوقها ، مهاجراً ومكافحاً من أجل دين الله ، وتلقت البشرية على يديه أكرم الرسالات ، وأكمل دعوة أنزلت للناس .

هذه هى ذكريات وطنى العربى . . فمن يفاخرنى على خلود الأوطان . . ؟ »

. وإذا أدركنا أن السادات قد كتب هذه المقالة فى الأيام التى تأزمت فيها مفاوضات الجلاء بين مصر وبريطانيا لعرفنا الهدف الذى يرمى إليه . لقد أراد أن يشحن أبناء وطنه بكل الطاقات الروحية الممكنة لأنه سيتحتم عليهم الجهاد المقدس لطرد العدو فى حالة فشل المفاوضات ، فقد أراد أن يشيع روح التفاؤل بينهم حتى يقدموا على المرحلة التالية بكل عزم وحماس وخاصة أن الثورة لم يكن مضى عليها أكثر من عام ونصف ومازال المصريون يعانون من الرواسب النفسية التى تراكمت بفعل الطغيان والاستعمار والإقطاع . وبشحن طاقاتهم الروحية فإنه يهدف إلى تأصيلهم فكرياً وعقلياً حتى يدركوا أبعاد التراث المجيد الذى يتحتم عليهم حمايته والذود عنه . وهذا الموقف يذكرنا بموقف جلال الدين الرومى أيام غزوات المغول للعالم الإسلامى كان هذا الفيلسوف الأخلاقى ينظر إلى الحياة نظرة متفائلة مستبشرة برغم أنه عاش فى فترة مشحونة بالغزوات والقلاقل والاضطرابات ، ففى القرن الثالث عشر الميلادى تعرض العالم لأبشع غارات المغول ، حيث انطلقت جحافلهم تدك الحضارة ، وتبيد صروح المدنية بصورة لم يشهدها التاريخ من قبل .

لم يسع جلال الدين الرومى ، إزاء مأساة عصره ، إلا أن يلوذ بالحياة الروحية ، وأن يدعو أبناء وطنه إلى شحن قلوبهم بكل الطاقات الروحية اللازمة للجهاد ا لمقدس ، فهذه الطاقات هى وحدها التى تخلصهم من ذلك الخلط والارتباك والتشتيت وانعدام الرؤية . ولذلك يقول الرومى مبيناً قيمة الإدراك الروحى فى تحديد خط سير الأمة كلها :

« لقد اختلطت القيم أمام الناس ، وظهر الصحيح منها والفاسد على حد سواء ، لهذا فالإنسان فى حاجة إلى مقياس صادق للتمييز بين الصالح والطالح . . تماماً كما يميز الذهب الخالص من الزائف وعندى أن المقياس الصحيح إنما هو الذى ينبثق من الإدراك الروحى . »

لقد اختار الرومى التصوف الإيجابى طريقاً ، وفلسفة ، وإلهاماً لأفكاره ، وتصوراته . وهو فى هذا يقترب من فكر السادات ، فليس تصوفه من ذلك النوع السلبى الذى يدعو إلى العزلة والوحدة والنفى ، وإنما هو تصوف يستمد عناصره من إيمانه بالإنسان . وما يدور حوله من مشكلات روحية ومادية ، محاولا أن يحدد له ما ينبغى أن يلتزم به من قيم ، ومثل ، وأخلاق فى دنيا الفكر والعمل . وقد أكد الرومى لأبناء وطنه أن المغول – إذا استطاعوا التغلب على المادة ، أى بقتل أجسادهم – فلن يتمكنوا من القضاء على الروح لخلودها . ولذلك لا خوف هناك عليهم وليتقدموا إلى ساحة الجهاد المقدس دون تردد . فالعالم – فى نظر الرومى – يتألف من مادة وروح ، والمادة عنده عرضة للتغير والتقلص والتلاشى ، أما الروح فلا يجوز عليها التغير أو التحول أو الفناء . ومن يؤمن بهذا إيماناً حقيقياً فلن يخاف شيئاً وسيسود البشر والتفاؤل حياته . وفى هذا المعنى كتب السادات ، فى « الجمهورية » بتاريخ ١٣ يوليو ١٩٥٤ ، يقول :

« إننا نؤمن بالله . . ونؤمن بكل ما على أرض هذا الوطن ومائه وسمائه وأهله والتراب . . وفى هذا لدينا تفاؤل ، بل أشهى التفاؤل . . . » .

وهذا التفاؤل لا ينبع إلا من الإيمان الراسخ العميق بأن كل عقبة فى حياة المؤمنين ليست سوى الاختبار الإلهى لمدى إيمانهم وثقتهم فى الله . وقد اعتبر السادات الغزوة الإسرائيلية الطارئة فى يونيه ١٩٦٧ مجرد اختبار لإيمان هذا الشعب العريق الذى سرعان ما استعاد طاقاته الروحية واجتاح قناة السويس وتحصينات الإسرائيليين فى ما لا يزيد عن خمس ساعات . وبذلك أثبت الشعب المصرى نجاحه الباهر برغم قسوة الاختبار . وكان السادت – بكل ما يملكه من أفق واسع ونظرة ثاقبة ورؤية واضحة – يؤمن بأن ما حدث فى السادس من أكتوبر المجيد هو من قبيل الحتمية التاريخية . نجده يقول فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف فى ٢٥ إبريل ١٩٧٢ :

« وإذا ظنوا أنهم فى غفلة من الزمن قد حصلوا على بعض القوة . . سنعيدهم ، لأن القوة ليست كما قلت فى

السـلاح ، وإنما القـوة من الداخـل . . قـوة الايمان . . قـوة الفـرد . . قـوة الإيمان بالرسالة ، والإيمان بالعقيدة ، والإيمان بالمبدأ . ونحن نحمد الله سبحانه وتعالى أننا أصحاب رسالة أقوى ما تكون من مبادئها إلى جانب سماحتها فهي رسالة القوة . . قوة الفرد . . قوة المجتمع . . قوة الايمان بأن الله سبحانه وتعالى هو مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير إنه على كل شيء قدير . »

وقد أثبت الايمان فائدته العملية البحتة فى نهاية أسبوع النكسة المريرة . فلم يكن هناك أى جندى فى الطريق ما بين السويس والقاهرة ، ولم يكن هناك من السلاح سوى خمسة آلاف بندقية ، ومع ذلك برز فى الأفق وسط الظلمات إيمان الشعب المصرى العريق ورفض الهزيمة وأكد عزمه الوطيد على دفع أى ثمن مقابل استعادة الشرف العربى .

يقول السادات فى المؤتمر الشعبى بأسيوط فى ١١ يناير ١٩٧١ :

« أمانة أن نكون أوفياء للأجيال المقبلة لأبنائنا من بعدنا حتى نترك لهم البلد طاهرة ونظيفة لا فيها محتل ولا يملكها إلا أبناؤنا ولا يستغل خيراتها ولا يعود كل شيء فيها إلا لأبنائها ولا يقرر مصيرها إلا أبناؤها . شيء واحد أوصيكم به أوصانا الله سبحانه وتعالى به فى كل الأديان السماوية ، الإيمان الايمان . أوصيكم بالإيمان . نحن فى أشد أوقاتنا حاجة إلى أن نملأ ونشحن نفوسنا جميعاً بالإيمان إلى جانب السلاح الذى نحمله وندخل به المعركة . بالإيمان سنواجه القوى العاتية مهما كانت . بالإيمان اللى فى أحلك الأوقات فى ٩ و١٠ يونيو واحنا شعب كنا مهزومين ، طلع الشعب كله يرفض الهزيمة واحنا ما عندناش غير ٥٠٠٠ بندقية وكان الشعب يرفض الهزيمة ويعتمد على سلاح الإيمان . واحنا نعد كل شيء وكل دقيقة وكل ثانية لازم نجهز نفسنا فى الجبهة الداخلية وإن وراءنا جيشاً لا يقل تماسكاً عنهم بسلاح سرى رهيب هو الإيمان بهدفنا وأرضنا وحتمية النصر بعون الله . سننتصر بعون الله بعد أن ندفع كل تكاليف الموقف ، ولكن بعون الله سننتصر . . »

وهذا الإيمان بانتصار إرادة الشعب عند السادات يرجع إلى عدم فصله بين هذه الإرادة الشعبية والإرادة الإلهية ، يقول فى مجلة « التحرير » فى ٢٥ ديسمبر ١٩٥٦ : « إنها إرادة الشعوب التى طالما قلنا إنها من إرادة الله . . ونحن فى هذا البلد قد رأينا آية الله . » وفى نفس المجلة فى ٢٦ فبراير ١٩٥٧ يؤكد السادات أن إيمان الأمة العربية قد هداها إلى طريق الخلق والمبادئ والعدالة والحرية والسلام والطمأنينة والحب والخير والتعاون والكرم والسماحة ، ولكن كل هذا لا يعنى الضعف والسذاجة والمهادنة فى حقوقنا . يقول السادات :

« والأمة العربية لا تريد أرضاً من أحد ، ولا حقوقاً تغتصبها من أحد ، ولا تريد أن تنحاز فى هذا الصراع العالمى لشرق أولغرب ، وإنما هى مع الخلق والمبادئ ، ومع العدالة والحرية ، ومع كل من يريد لهذه البشرية سلاماً وطمأنينة . .

إن تراث الأمة العربية تراث روحى مجيد ، فعلى أرض هذه الأمة نزلت رسالات السماء تدعو الناس للحب والخير والتعاون والأمة العربية لا تبغى فى كفاحها إلا عالماً يسوده الحب والخير والتعاون ، لذلك كان حتماً أن تقاوم ذلك الشيطان المسعور الذى يحرم العالم من الحب والخير والتعاون وهو الاستعمار . .

ولقد ورثنا نحن العرب مع شرائعنا السماوية أمجاد الآباء والأجداد ، تلك الأمجاد التى علمتنا أن الموت ونحن وقوف أشرف لنا من الحياة ونحن ركع مستذلين ، بل إن الله سبحانه وتعالى نهانا أن نكون من المستضعفين لقد ورثنا الكرم ولكننا لن نسمح لمغتصب أن يستغل هذا الكرم . . وورثنا السماحة ولكننا لن نهادن فى حقوقنا . . »

ونحن إذا درسنا كل انتصارات الأمة العربية دون استثناء ، فسنجد أن الإيمان كان الحافز الرئيسى وراء مثل هذه الانتصارات ، نحن لا ننكر كفاءة السلاح وقوته ، ولكن هل يمكن لجندى فقد إيمانه بوطنه وبنفسه أن ينتصر

بالسلاح وحده ، حتى ولو كان هذا السلاح من أقوى مبتكرات العصر ، وليس الإيمان سوى ما يسمى بلغة العصر الحديث : الروح المعنوية للجيش العامل . ولنا أن نتخيل جيشاً دخل ميدان المعركة وليس لديه أى حافز للقتال . من هنا كانت ضرورة الإيمان وحتميته سواء وقت الحرب أو السلم . وفى هذا المعنى تحدث أنور السادات فى ٢٦ يناير ١٩٥٧ فى المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين ، وذلك بعد اندحار العدوان الثلاثى على بور سعيد فى ديسمبر ١٩٥٦ فقال :

« لقد هزمنا الأعداء بقوة إيماننا ، وجابهنا القوى المدمرة بطاقتنا الروحية فانتصرنا عليها ، لأننا نحس إحساساً عميقاً بأننا أصحاب حق .

والآن وبعد أن تحقق لنا النصر فى المعركة فإن تبعاتنا الروحية تحتم علينا أن نبنى مجتمعاً جديداً ، متساندا يتعاون كل أفراده لصد التيار الجارف الذى يأتى من الخارج يحاول القضاء علينا والسيطرة على مقدراتنا وأرزاقنا . ونحن حين نبنى هذا المجتمع الجديد المتماسك لابد لنا من الرجوع إلى الروح نستمد منها القيم والروابط الأخوية .

إن علينا كذلك تبعات روحية نحو أمتنا العربية حتى نخلق من القومية العربية قوة هائلة تستطيع أن تجابه العدوان أيًّا كان مصدره . وتبعاتنا الروحية نحو العالم تحتم علينا أن ننمى صداقتنا بمن يرغب التعاون معنا ، وأن نعلم الأعداء أنهم لن يستطيعوا بعد اليوم أن يسيطروا علينا أو يذلوا رقابنا كما تصوروا أو تخيلوا فى يوم من الأيام . »

وإذا تأملنا هذا الكلام سنجد أن هذا المنهج قد طبقه السادات بحذافيره فى الإعداد لحرب السادس من أكتوبر المجيد مما يدل على أن المنهج الفكرى كان متأصلاً عنده لدرجة أنه تحول إلى نظرية شاملة تؤمِّن كل انتصارات الأمة العربية . وهذا يدل أيضاً على أننا لو كنا قد اتبعنا هذا المنهج لكان من الممكن تجنب النكسات التى تعرض لها الكفاح العربى من أجل التقدم والرفاهية والخير . ولكن الإيمان ينهينا عن التحسر على ما فات ويحثنا على النظر إلى المستقبل بشرط الاعتماد على كل طاقاتنا الروحية والمحافظة عليها من التبديد ، فهى الدفعة الرئيسية فى طريق انطلاقنا إلى آفاق المستقبل الجديد . ولقد تحول هذا الخط الفكرى إلى منهاج عملى عندما تولى رئاسة الجمهورية ، بل لقد بلغ إيمانه به درجة تحدث فيها عن جسور العبور فى ختام الدورة الخامسة للمؤتمر القومى فى ١٣ نوفمبر ١٩٧٠ ، أى قبل معارك أكتوبر المجيدة بثلاث سنوات ، وكما يقول المثل المصرى : قلب المؤمن دليله . ولنستمع إليه وهو يحدثنا حديثاً عذباً عن الإيمان والعبور دون أن ندرى فى ذلك الوقت ماذا كان يدور فى عقله الكبير من تخطيط مبكر للحرب المقدسة . ولكن هناك حقيقة علمية واضحة وهى أنه لم يكن يفصل بين الإيمان والعبور ، فقد كان الإيمان المقدمة الطبيعية لهذا العبور المجيد . يقول السادات :

« والأمة ترتفع بالإيمان وتهبط بدونه . ولقد كانت أمتنا فى ذروة الإيمان وبالتالى فى ذروة الارتفاع إلى مستوى أقدارها وما شاءت إرادة الله أن تمتحن بها عزمها فما وهنت ولا ترددت .

لقد سارت خطانا على جسر الانتقال خطوة بعد خطوة حتى جاء مؤتمركم تتمة لعملية عبور لا أظن أن أمة سوانا واجهتها فى مثل ظروفنا ولا أظن أن أمة غيرنا كان فى استطاعتها أن تتصرف بخير مما تصرفنا فى مواجهة هذه الظروف . »

وفى بيانه فى الجلسة الافتتاحية لمجلس الشعب فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ يعود إلى التركيز على عملية عبور جسر الانتقال ، مما يؤكد أن الإعداد للسادس من أكتوبر المجيد لم يستغرق عدة شهور بل بدأ منذ أن تولى السادات رئاسة الجمهورية ، يقول :

« الآن فلنمسح الدموع ، ولنتطلع إلى المستقبل ، ولنسرع خطانا على الطريق ، ولتكن آلامنا طاقة إبداع واندفاع ، ولتتحول أحزاننا إلى قوة إيجابية ، تعوض بل تضيف إلى تصميمنا وعزمنا على أن نؤكد من جديد مسئولياتنا الجسام ،

والتزاماتنا المقدسة وطنيًّا وقوميًّا ودوليًّا وإنسانيًّا . إن العالم بأسره انتظر علينا ، والآن انتهت ساعة الانتظار وأمتنا العربية وقفت بجوارنا حتى تتم عبور جسر الانتقال ، والآن جاءت ساعة مواصلة السير . وشعبنا ظل رابط الجأش ثابتاً فى انتظار أن نتأهب ، والآن أزفت ساعة البدء فى الزحف . »

وإيمان السادات بأن الله لابد وأن يشد من أزر عباده المؤمنين إيماناً لا يتزعزع ، ولذلك كانت ثقته فى النصر لا تتزعزع برغم الظلمات الكثيفة المحيطة بالموقف السياسى الخارجى وتآمر مراكز القوى من الداخل فى ذلك الوقت من عام ١٩٧١ ، برغم كل هذا نجده يقول فى خطابه فى عيد العمال فى أول مايو ١٩٧١ :

« إن شعبنا بعون الله وبتوفيقه سوف يخرج من هذه الأزمة ، سوف يخرج منتصراً وعزيزاً ، سوف يخرج بعون الله قويا مرفوع الرأس واثقاً من نفسه واثقاً بمبادئه ، وراسخ الإيمان أكثر وأكثر بقيم نضاله وبأسلوبه فى الكفاح العربى من أجل هذه القيم . »

والإيمان معناه المسئولية الجسيمة التى لابد أن تؤدى مهما كانت التضحيات باهظة التكاليف ، فهى ليست مسئولية أمام أحد من البشر بقدر ما هى مسئولية أمام الله سبحانه وتعالى . ومن هنا كانت قداسة هذه المسئولية التى يحكمها الضمير أولاً وأخيراً ، يقول السادات فى بيانه إلى الأمة فى ١٤ مايو ١٩٧١ : « أنا باعتبر نفسى مسئولا أولاً وأخيراً أمام الله سبحانه وتعالى وأمام الشعب ، مش أمام حد تانى أبداً ، أمام الله أولاً ، ثم أمام الشعب » . وهذه المسئولية الجسيمة تفرض الدخول فى أشرس المعارك بصرف النظر عن أية اعتبارات وقتية أو جانبية . يقول السادات لعلماء الأزهر فى ١٦ مايو ١٩٧١ :

« نريد أن ننمى عن طريق الإيمان الخوف فى كل طبقات شعبنا الطيب الأصيل . ولا نخاف أحداً إلا الله سبحانه وتعالى . . إننى لن أفرط فى الأمانة ولو اقتضى أن أدخل أشرس المعارك . سأدخلها ولن أفرط فى الأمانة أبداً . لابد أن تتطهر أرضنا من الاحتلال . ولابد أن نبنى الدولة القائمة على العلم والإيمان . »

والإيمان بطبيعته يتنافى مع الخوف ، لأن المؤمن يدرك أن أسوأ ما يمكن أن يتعرض له هو الموت ، وهو يؤمن من صميم قلبه أن الموت عليه حق . ولذلك لا يعرف الخوف طريقاً إلى قلبه العامر بالإيمان ، والشعب الخائف لا يمكن أن يدافع عن قضاياه لأنه لا يعرف من أية جهة ستأتى الطعنات . هل من الأمام حيث العدو قابع ؟ أو من الخلف حيث مراكز القوى ؟ وإذا لم يكن هذا الإيمان نابعاً من صميم الشعب فلن يمكن أن يفرض عليه فرضاً . ومن هنا كانت استحالة استيراد الإيمان من الخارج . قد يكون من الممكن استيراد الأسلحة والآلات والمواد الخام والمواد الغذائية وكل ما يقع تحت بند المادة التى يستخرجها أو ينتجها الإنسان ، أما الإيمان – وهو أكبر قيمة روحية فى حياتنا – فلابد أن يكون نابعاً من الرسالات السماوية المقدسة ، ومن التراث القومى للأمة ، ومن الخصائص الفكرية والحضارية والثقافية للشعب نفسه . وعلى هذا فإن السلاح المستورد متى أمسكه الجندى المصرى فقد تحول إلى جزء من إيمانه بربه ومصريته وعروبته وإنسانيته ، بمعنى أن إيمان الجندى لا يمكن أن يكون تابعاً لهذا السلاح .

ولكى تستقيم الأمور وتوضع فى نصابها لابد أن تكون المادة تابعة للروح ، لأنه إذا انعكست الآية ضاعت الخصائص المميزة للأمة وبالتالى تعذر النصر على العدو . وحتى لو حدث انتصار ، فى هذه الحالة سيكون انتصار الذيول الأتباع وليس انتصار سادة الموقف الأصلاء . وانتصار الأتباع محدود بطبيعته ولابد من دفع المقابل له بعد ذلك وغالباً لا يكون المقابل ماديًّا وإلا هان الأمر ، بل يكون على حساب الأصالة الفكرية والخصائص القومية للشعب بأسره . هنا تبرز ضرورة الإيمان وحتميته وفائدته العملية فى الحفاظ على جسم الأمة وعقلها من أى إفساد أو إعوجاج أو تشويه أو خوف . ولذلك يقول السادات فى خطابه أمام مجلس الشعب فى ٢٠ مايو ١٩٧١ :

٠٠لا عندنا تقاليد مبنية عبر آلاف السنين عندنا قبل كل شيء وفوق كل شيء رسالة الإيمان . . اتعلمنا إن لو أراد البشر كلهم أن يصيبوا أى واحد بشيء لا يريده له الله ما أصابوه أبداً . .اتعلمنا ، بتعلمنا رسالة الإيمان أن أرضنا طيبة وطاهرة وتستحق منا أن احنا نحبها ونقدسها وندافع عنها ونتفانى فيها . . اتعلمنا أيضاً إن بتجتاح العالم النهاردة موجات تحت اسم العلم جرفت شعوب إلى مادية رهيبة ضاعت فيها القيم وضاعت فيها الأخلاق ، احنا ما نقدرش نعيش من غير قيم ولا أخلاق ، لأن دا الإيمان فى ديننا . »

والإيمان الراسخ العميق يمنح من وضوح الرؤية ما يمكن أن يستكشف آفاق المستقبل . وهذا ما أكده السادات فى كلمته فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف فى ٢٥ إبريل ١٩٧٢ ، وهو ما حدث بالحرف الواحد فى السادس من أكتوبر العظيم . يقول السادات :

« نصبر ونصمت ونعد إلى أن نثبت لهم أننا لن نقبل الضيم وسنحرر أرضنا بعون الله ، مهما كانت التكاليف ، مهما كانت المشاق ، مهما كان الأذى . ولكن على إسرائيل أن تعلم تمام العلم أنها ستدفع الثمن مضاعفاً هذه المرة . »

وفى نفس الخطاب يؤكد السادات أن الساعة لن تكون بعيدة بالنسبة لصبر المؤمن وصمت الواثق :

« لا مناص من المعركة لكى نحرر أرضنا ولكى نثبت للعالم كله شرقه وغربه أننا أمة نستطيع أن ندافع عن حقنا . . نستطيع أن نسترد أرضنا ، أننا أمة قد تلحق بنا هزيمة يوم من الأيام نخسر معركة ، ولكننا لا يمكن أبداً أن نخسر مصيرنا ولا نخسر نفوسنا ولا أن نخسر إيماننا . . أبداً لن تستطيع قوى الأرض مجتمعة أن تجعلنا نخسر نفوسنا أو نخسر إيماننا . »

والأساس الروحى لقومية أى وطن يلعب دوراً خطيراً فى حمايته ، حتى الحضارة الغربية المشهورة بالمادية ، يرجع مؤرخوها أساسها إلى القيم الروحية التى نبعت منها . مثلا نجد الباحث الهولندى ج . دى بويس فى كتابه « مستقبل الغرب » الذى نشر عام ١٩٥٣ يؤكد أن الدين هو الإطار العام الذى يمنح لأية قومية وحدتها وصفاتها التى تميزها عن أية قومية أخرى . يقول دى بويس ص ٢٠٨ :

« سوف يشد أزرنا ، فى حالة نشوب حرب عالمية جديدة ، حليف آخر ، هو الدين . فالدولة الجماعية التى لا تسمح بوجود أى ولاء إلا لها ، عدو لدود للدين ، يقف له بالمرصاد بغية القضاء النهائى عليه ، فمثل هذه الدولة لا تستطيع الاعتراف بأن الروح تدين بالولاء النهائى لخالق هذا العالم ، لأن هذا معناه القضاء على الولاء لها . ومن ثم فإن جميع المذاهب الدينية فى الصراع بين الإيمان الرحب والمادية الضيقة ، لا يمكنها إلا أن تعادى فى النهاية العقيدة المادية الهشة التى تحاول أن تحتل مكانها ، وهذا المقياس ينطبق على المسيحية والإسلام وحتى البوذية ، أما بالنسبة لنا ، نحن أبناء الحضارة الغربية فإن الوصايا الدينية التى نشرت منذ ألفى عام مضى والتى تدعونا إلى حب الجار ما زالت بالنسبة لنا خير من المبادئ المادية الهدامة التى نشرت منذ مائة عام ، والتى تحض على الكراهية والبغض تجاه طبقات معينة من نفس المجتمع .

ومن المؤسف بل ومن المزعج أن نعترف أن الأساس الدينى لحضارتنا لا يذكر فى بعض البلاد بالقدر الذى تذكر به الديمقراطية باعتباره أحد الأسس الرئيسية لمذهبنا الحياتى ، ومع ذلك فإنه أساس أكثر منها بل وأكثر عمقاً وأصالة . إن العقيدة الدينية متأصلة فى جذور حضارتنا وديمقراطيتنا، فإذا أهملنا هذا الأساس ، فإن الحضارة الغربية بأسرها ستصبح كالأسنان التى ماتت أعصابها ، فتبدو فى الظاهر أسناناً صحيحة ، ولكن تحللها سيصل قمته بعد فترة من الوقت ، ويبدو عندئذ واضحاً جلياً إلى الدرجة التى قد يصعب فيها القضاء عليه سريعاً . بدون هذا الأساس الروحى ، لن تستطيع الحضارة الغربية أن تقف على قدميها داخل مملكتها وخارجها أمام الجماهير ، تلك الجماهير

التى تعتبر الروح عندها أكثر قيمة من الديمقراطية أو الرخاء المادى . »

ويبدو أن نبوءة دى بويس كانت صادقة تماماً عندما كتب كتابه هذا منذ حوالى ربع قرن ، فقد لمس بوادر الانحلال الذى أصاب العالم الغربى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وذلك بفعل اهتزاز القيم فى أذهان الناس التى شوشتها أهوال الحرب . وقد أراد دى بويس أن ينبه إلى طغيان المادية ، وسيطرة الآلة ، وإهمال القيم الروحية قبل أن يشتد التيار ويجرف فى طريقه كل المثل العليا ، وربما جرف فى نهاية الأمر الحضارة الغربية بأسرها . ولكن يبدو أن التنبيه المبكر لم يلق آذانا صاغية فى وقته بدليل الأمراض الحضارية التى يعانى منها العالم الغربى اليوم مثل الحركات الانحلالية والفوضوية من أمثال الهيبيز وغيرهم من فئات الشباب الذى يعانى الضياع ، والتفسخ ، والشذوذ ، وفقدان الهدف وانعدام المعنى ، وضبابية الرؤية . كل هذا بسبب إهمال العقيدة الدينية والتعالى الأحمق عليها باعتبارها إحدى مخلفات القرون السابقة . ولا يدركون أن كل ما يعانون منه من أمراض العصر مرجعه إهمال الأساس الروحى للحضارة التى تحولت إلى مجرد علاقات آلية بحتة فقدت الروح التى تمنح الحياة طعماً ومذاقاً . ولذلك يقول السادات فى حديثه مع الصحفية اليوغوسلافية دارا يانكوفيتش فى ٢٧ مايو ١٩٧٣ :

« الإيمان أقصد به إن أولادنا ما بيصبحوش يوم من الأيام يعملوا هيبيز زى المجتمع الأمريكى أو المجتمعات اللى بنشوفها فيقعدوا مثلهم ويفقدوا الهدف بتاعهم لأن احنا قدامنا بناء كثير وقدامنا تعب كثير علشان نبنى دولتنا ونبنى مجتمعنا الاشتراكى الجديد فى كل اتجاه سواء فى الناحية العسكرية أو فى الناحية المدنية . . »

هذا هو الدور الريادى الذى يقوم به السادات من جهة التأصيل الفكرى وهذا الفكر ليس قاصراً على الشرق فقط بل إنه جزء لا يتجزأ من التراث الإنسانى على مر العصور ، وإذا كان الدارسون والمفكرون فى الغرب ينادون بالعناية بالأساس الروحى لحضارتهم ، فما بالك بالشرق الذى هبطت عليه الرسالات السماوية والوحى الإلهى ، ونبعت منه كل الديانات التى أضاءت طريق البشرية بالعلم والإيمان والمعرفة والسلام والحب والخير . من هنا كانت أصالة دعوة السادات إلى التمسك بأهداب الإيمان لأنه الأساس المتين للحضارة الإنسانية بصفة عامة . وليس هناك فى هذا الصدد رأى يدعم كلامنا هذا مثل رأى ت . س . اليوت فى كتابه « ملاحظات حول تعريف الثقافة . » ص ٣٧ :

« إننا مدينون بأشياء كثيرة لتراثنا الدينى بالإضافة إلى الإيمان بالله ، فعن طريقه نحصل على مفهومنا عن القانون الرومانى الذى قام بدور كبير فى تأسيس الحضارة الغربية وتشكيلها ، ومكننا من تحديد أفكارنا عن الأخلاق الخاصة والعامة ، ومكننا أيضاً من الحصول على مقاييسنا العامة عن الأدب الذى بدأ بآداب اليونان والرومان ، وبالتالى منحنا الوحدة التى جمعت العالم الغربى كله .

وفى ظل عقيدتنا الدينية تطورت فنوننا ، وتأصلت قوانين أوروبا إلى عهد قريب . ومن خلال المعارف الدينية تكتسب أفكارنا معانيها ، فقد يرفض الفرد الأوروبى الإيمان بصحة العقيدة الدينية ، ومع ذلك فإن ما يقوله وما يفعله ينبع كله من تراث الثقافة الدينية ، ويعتمد على معنى هذه الثقافة . إن الثقافة الدينية هى وحدها التى استطاعت أن تنجب فولتير ونيتشه ، وأنا لا أعتقد أن ثقافة أوروبا تستطيع أن تستمر بدون العقيدة الدينية ، وإننى لمقتنع تمام الاقتناع بذلك لا لمجرد أننى أومن بهذه العقيدة ولكن لأننى درست البيولوجيا الاجتماعية ، فيوم تندثر عقيدتنا الدينية ، ستندثر أيضاً حضارتنا بأسرها ، وعليك حينئذ أن تبدأ من جديد والألم يأخذ منك كل مـأخذ ، ولكنك لن تستطيع أن تنشئ ثقافة جديدة جاهزة للممارسة ، إذ يتحتم عليك أن تنتظر حتى ينمو العشب ليطعم الأغنام التى تقدم الصوف الذى سيصنع منه رداؤك الجديد ، بل يتحتم عليك أن تجتاز قروناً طويلة من البربرية والهمجية ، ولكننا لن نعيش حتى نرى الثقافة الجديدة ، بل لن يراها أحفاد أحفادنا ، وإذا رأيناها فلن يشعر أحد منا بالسعادة عند رؤيتها » .

وترجع أهمية الإيمان بالنسبة للإنسان على مر العصور وفى مختلف الأمم إلى أنه خاصية فطرية أعادت إليها الرسالات السماوية الثقة فى قدرتها على الإتيان بالمعجزات الإنسانية العملية ، وبالتالى فإن تطور الحضارة يعتمد عليها بصفة مباشرة أوغير مباشرة . يقول كريس موريسون فى كتابه « العلم يدعو للإيمان » ص ١٣٧ :

« إن وجود الإنسان فى مختلف البقاع ومنذ بدء الخليقة حتى الآن ، قد أمده بحافز قوى يدفعه إلى الاستنجاد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم ، وهذا أكبر دليل على أن الدين فطرى فى الإنسان ، ويجب أن يعترف العلم بذلك سواء شاء أولم يشأ . وسواء ترسب فى شعور الإنسان الباطنى إحساس بأن هناك قوة خارجية للخير أو الشر أم لم يترسب ، فإن ذلك ليس بالأمر الهام الحيوى ، ولكن المهم أن هناك حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها وهى اعترافه الفعلى والعملى بوجود الله . »

ثم يتساءل موريسون عن المشكلة التى حيرت الإنسان منذ بدء الخليقة فيقول إنها نبعت من أن الإنسان بعقله المحدود وإمكانياته الضعيفة بالإضافة إلى غروره الزائد عن الحد واعتزازه بقدرته الفائقة ، قد حاول أن يخضع الوجود الإلهى اللانهائى لحدود تفكيره الضيق ، وفى حالة فشله وعجزه ، كان يدارى عجزه بالتعالى الأجوف والتباهى بأنه ملحد . ولكن الحقيقة تقول إن الإلحاد ليس سوى قمة العجز البشرى عن استيعاب الوجود اللانهائى للذات الإلهية ومحاولة تغطية العجز بخلق قضايا جانبية ليست لها علاقة حقيقية بالموضوع الرئيسى . ولذلك يقول موريسون عن علاقة الإنسان بالذات الإلهية ص ١٣٨ :

« إن الذات الإلهية شىء غير ملموس وأسمى كثيراً من المادة لدرجة أنها تسيطر على كل شىء ، ومختلفة تماماً عن كل ما هومادى مما خلق منه هذا العالم ، لدرجة أنه لا يمكن رؤيتها ولا وزنها ولا قياسها . وهى — على حد علمنا — ليست لها قوانين تحكمها . إن روح الإنسان هى سيدة مصيره ، ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها . وقد أوجدت للإنسان قانوناً للأخلاق لا يملكه أى حيوان آخر ولا يحتاج إليه . ولذلك فالذات الإلهية تحب الإنسان وتساعده باستمرار على الارتفاع بكيانه المادى من ضعف البشر وخطئهم إلى الانسجام مع إرادة الله . هذا هو المغزى الرئيسى من الهدف الإلهى . إنه كون قائم كله على الحب بين الخالق والمخلوق ، وبدون هذا الحب فلا يمكن للحياة أن تستمر ، سواء على المستوى الروحى أو المادى . وهذا بدوره يفسر الاشتياق الكامن فى نفس الإنسان للاتصال بأشياء أعلى من نفسه ، وأيضاً يفسر الكشف الذى يحصل عليه الإنسان من طريق غير طريق العقل المحدود . باختصار هذا هو ما نطلق عليه العقيدة الدينية . »

وأيضاً فإننا نجد فى كتاب « دراسة التاريخ » للمؤرخ الإنجليزى أرنولد توينبى تأكيداً لوجهة نظر السادات فى أنه لا يمكن تخيل وجود حضارة حقيقية بدون مضمون روحى يدفعها ويوجهها ويهذبها ويثريها ويجنبها الدخول فى طرق مسدودة قد تؤدى إلى اختناقها . يقول توينبى أنه إذا حدث انشقاق فى الحياة الروحية لمجتمع من المجتمعات ، فلابد أن يكون هذا الانشقاق المقدمة الطبيعية للتحلل التدريجى لهذا المجتمع ، وهو تحلل يحس به الفرد على حدة كما يحس به المجتمع ككل . ومن عوارضه التخلى عن الأصالة والابتكار والثقة فى النفس ووضوح الرؤية ، وبداية عهد جديد من التقليد والنمطية واستلهام التطور الإنسانى من مصادر خارجية لا ترتبط بداخل الإنسان بصلة ، ويحل الإحساس بالبلبلة والملل والوحدة واليأس محل الإحساس بالريادة والنشاط والحركة والطمأنينة والأمل .

وكعلاج لهذا ، يعتقد توينبى أن المجتمع الذى فقد طاقاته الروحية ولم يعرف الطريق بعد لاستردادها ، يحاول العيش على اجترار أمجاد الماضى كنوع من التعويض النفسى عن الخواء الروحى الذى يعانى منه فى الوقت الحاضر ، أو الانطلاق إلى المستقبل كنوع من ملء الفراغ بالأحلام الوردية الجميلة عن مدينة المستقبل الفاضلة . ولكن سواء

لجأ المجتمع إلى اجترار الماضى أو إلى الاقتناع بأحلام المستقبل ، فلن يحل هذا قضية الخواء الروحى الجاثم على المجتمع . هنا يبرز دور الزعيم الذى يتحسس نبض الأمة ، ويشخص أمراضها ، ويبدأ فى العلاج السريع والحاسم ، مهما كان هذا العلاج قاسياً . بمعنى آخر ، فإن الطاقة الروحية المبددة للأمة تعود إلى التجسد فى شخص الزعيم ، ومن خلال قيادته وتوجيهه وسلطته تبدأ الروح فى السريان فى جسم الأمة . وفجأة يجد الشعب أنه اكتشف نفسه وتتحول فرحته بهذا الاكتشاف إلى طوفان جارف من الإرادة والأمل والعزيمة والتصميم والرؤية الواضحة .

ويقسم توينبى الزعماء التاريخيين – الذين يقودون شعوبهم إلى اكتشاف النفس بالخروج من ضبابية الرؤية والتخبط فى مراحل التحول الخطيرة – إلى أربعة أقسام : « العبقرى الخلاق » و« المنقذ بحد السيف » و« المنقذ بالعلاج الزمنى » و« الفيلسوف المقنع بقناع الحاكم أو الزعيم » . وإذا حللنا الزعامة التاريخية للرئيس السادات فسنجد أنها مزيج من العبقرية الخلاقة ، والإنقاذ بالعلاج الزمنى ، والفلسفة المقنعة بقناع الزعامة . أما الإنقاذ بحد السيف فلا يتمشى سواء مع أسلوب الزعامة عند السادات أو مع مفهوم الحضارة عند الشخصية المصرية . ولكنه واضح تاريخيا فى زعيم مثل مصطفى كمال مؤسس تركيا الحديثة . المهم أن الزعامة التاريخية للرئيس السادات تمثلت فى العبقرية الخلاقة من حيث التركيز على الخصائص الأصيلة فى الشعب المصرى ، وأهم هذه الخصائص الإيمان بكل شموليته . وهذه العبقرية فى زعامة السادات تنهض على دعامتين : المنهج العلمى من حيث دراسة الشعب نفسياً وتاريخياً وحضارياً ومادياً وروحيًّا . . إلخ ، ثم محاولة وضع التخطيط التطبيقى القائم على هذه الدراسة . والدعامة الثانية هى المصرية الصميمة والإيمان المطلق بالانتماء إلى هذا الشعب . فعلى الرغم من أنه يراه من مركز الزعامة إلا أنه يعيش كل مشكلاته وقضاياه ، ويقوم بحلها ليس فقط بحكم زعامته ولكن لأنه يعانى منها شخصياً ، بمعنى آخر أنه زعيم وسط الشعب وليس فوقه . ولذلك فالعبقرية الخلاقة هنا تعتمد على التخطيط العقلى والطاقة الروحية فى مزيج لا يعرف الانفصال .

والإنقاذ بالعلاج الزمنى يلعب دوراً أساسياً فى زعامة السادات ، فهو يعلم جيداً أن شحن الأمة بكل الطاقات الروحية الممكنة يستغرق زمناً غير قصير ، فلا يعقل أن ينتقل بالأمة من هاوية اليأس إلى قمة الإيمان بين يوم وليلة . ولذلك فقد بذل كل جهده فى تحويل عامل الزمن المحايد إلى أن يسير مع شحن الأمة بكل طاقاتها يوماً بعد يوم حتى وصل قمته فى السادس من أكتوبر المجيد . وعندما يتحول الزمن إلى جانبنا فإنه يسير فى اتجاه مضاد لإسرائيل ، لأنه لا يمكن أن يكون مع طرفى الصراع فى آن واحد . ولا شك فإن الطاقة الروحية هى الدافع الرئيسى وراء كسب الزمن إلى جانبنا لأنها تمد الناس بالصبر والصمت والثقة والإيمان ، والزمن بطبيعته يقف إلى جانب الشعب الذى يكتشف طريقه وإمكانياته بأسلوب علمى وإيمان راسخ .

أما الفلسفة المقنعة بقناع الزعامة . فتمثل الجزء الأكبر من فكر السادات ، وليس كتابنا هذا إلا محاولة لإلقاء الضوء على الجوانب المتعددة والإمكانيات الخصبة لفكر السادات وفلسفته . فمقياس السياسى التقليدى لا ينطبق عليه ، فهو ليس من هؤلاء الساسة الذين حكموا بلادهم فى فترة معينة من الزمن ولم يتركوا بصماتهم الفكرية والحضارية على ملامح أممهم . ولذلك نجد أن الزعامة التاريخية ، والقيادة الروحية ، والريادة الفكرية ، والأصالة الحضارية والمعاصرة العلمية ، كل هذا يتجسد فى فلسفة السادات التى لبثت ثوب الزعامة بحكم المرحلة التاريخية . ولكن التاريخ سيتوقف طويلاً أمام فلسفة السادات فى الزعامة الفكرية قبل القيادة السياسية وإن كان من المتعذر الفصل بين الاثنتين . فمن الواضح أن السادات قد غير تفكير شعبه وأعاد الثقة إلى نفسه وكيانه وحضارته ، وذلك برغم الفترة العصيبة السوداء التى تولى فيها القيادة السياسية والعسكرية ، لدرجة أن مهمته فى تلك الفترة كانت تبدو وكأنها إصلاح ما أفسده

الدهر ، ولكن إيمانه الراسخ بربه وبوطنه وبنفسه ، وفلسفته الشاملة التى تحتوى اللحظة الحاضرة من خلال التاريخ الحضارى كله للأمة ، وفكره الأصيل الواضح الذى ينبع من كيانه الثقافى ومنهجه العلمى ، كل هذا ساعده على بعد الرؤية وسط بحار الظلمات . وبالطبع لا يمكن لزعامة تخلو من المنهج العلمى والتأصيل الفكرى والإيمان الروحى والفلسفة الواقعية أن تحمل هذه التبعات التاريخية والمسئوليات الجسيمة . وهذا يتجلى فى الخطاب التاريخى الذى ألقاه السادات فى افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب فى ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، وكانت معارك أكتوبر المجيدة تنتقل من نصر إلى نصر ، وذلك فى اليوم العاشر من الحرب المقدسة :

« لقد كان كل شىء منوطا بإرادة هذه الأمة ، حجم هذه الإرادة وعمق هذه الإرادة وما كنا لنستطيع شيئاً ومـــا كان أحد ليستطيع شيئاً لو لم يكن هذا الشعب ، ولو لم تكن هذه الأمة . لقد كان الليل طويلاً وثقيلاً ، ولكن الأمة لم تفقد إيمانها أبداً بطلوع الفجر ، وإنى لأقول بغير ادعاء أن التاريخ سوف يسجل لهذه الأمة أن نكستها لم تكن سقوطاً وإنما كانت كبوة عارضة وإن حركتها لم تكن فورانا وإنما كانت ارتفاعاً شاهقاً . لقد أعطى شعبنا جهداً غير محدود وقدم شعبنا تضحيات غير محدودة ، وأظهر شعبنا وعياً غير محدود ، وأهم من هذا كله . أهم من الجهد والتضحيات والوعى ، فإن الشعب احتفظ بإيمانه غير محدود ، وكان ذلك هو الخط الفاصل بين النكسة وبين الهزيمة . ولقد كنت أحس بذلك من أول يوم تحملت فيه مسئوليتى وقبلت راضيا بما شاء الله أن يضعه على كاهلى ، كنت أعرف أن إيمان الشعب هو القاعدة ، وإذا كانت القاعدة سليمة فإن كل ما ضاع يمكن تعويضه ، وكل ما تراجعنا عنه نستطيع الانطلاق إليه مرة أخرى . »

وقد أدرك السادات جيداً فاعلية الإيمان فى حياة الشعب المصرى . والدارس للتاريخ يرى أن معظم المؤرخين قد أجمع على أن للإيمان مفعول السحر فى نفسية الشعب المصرى ، ولا غرو فإن هذا الشعب كان أول من بحث عن مفهوم الإيمان فى التاريخ العام للإنسانية منذ ما يزيد عن ستين قرنا من الزمان . وفى هذا المعنى يقول ليونارد كوتريل فى كتابه « الحياة فى عهد الفراعنة » أن ديانة قدماء المصريين لعبت فى حياتهم اليومية دوراً أكثر حيوية وأكثر أهمية من الدور الذى قامت به فى حياة الشعوب الغربية . فقد كانت تدخل فى كل كبيرة وصغيرة فى حياتهم لدرجة أنها تحولت إلى الإطار الحضارى العام لتاريخهم وفكرهم وثقافتهم وفلسفتهم . وإذا لم نفهم الأبعاد الحقيقية والمتعددة لمفهوم الإيمان عند قدماء المصريين ، فإننا لن نستطيع أن ندرك مغزى حضارتهم على حقيقته .

ولأن الرسالات السماوية لم تكن هبطت بعد ، فقد حاول قدماء المصريين — قدر طاقتهم — أن يحيلوا مفهومهم للإيمان إلى فلسفة شاملة تمنح حضارتهم صفاتها المميزة . وقد أدى هذا إلى تغلغل الآلهة المتعددة فى حياتهم . والدليل على ذلك أننا نجد فى جميع المتاحف ومتاجر العاديات فى العالم مئات التماثيل الصغيرة المصنوعة من البرونز لآمون — رع وإيزيس وأوزوريس وهاتور إلهة الحب والجمال وبس الصغير البدين إله الموسيقى والرقص ومئات غيرهم . فقد كانت هذه الآلهة ترافق الناس كل يوم وتحتل مكانة رفيعة فى بيوت قدماء المصريين . بل إن الأمر لم يقتصر على ذلك ، فنجدهم قد عبدوا القط والثعبان والثور ، والثور بالذات كان من آلهتهم الرئيسية ، فإذا مات حنطوه وزينوه بالذهب واحتفلوا بدفنه احتفالاً مهيباً . ولم يكن قدماء المصريين منفردين فى ذلك ، وإنما شاركهم فيه الأشوريون والبابليون وهما شعبان عريقان أيضاً .

وهذا الانكباب على العبادة حير عقول مؤرخى الغرب ومفكريه ، فهؤلاء قوم تثير مبانيهم وتماثيلهم ورسوماتهم دهشة العالم كله ، قوم بنوا الأهرامات ومعبد الكرنك ، وفهموا الفلك ، وأجادوا فنون الهندسة الدقيقة ، ومارسوا الطب والجراحة . وأنشأوا نظاماً مدنياً إدارياً ممتازاً ، وغزوا وأداروا إمبراطورية امتدت فى أحد الأوقات من السودان إلى

الفرات ، وابتكروا طريقة رائعة للكتابة ، واشتهروا بالحكمة التى اعترف بقيمتها اليونانيون أنفسهم . ومع كل هذا التقدم الحضارى والتطور العلمى نجدهم يبحثون عن الاصنام والحيوانات لعبادتها . وهذه الحيرة التى وقع فيها مؤرخو الغرب ومفكروه كان مبعثها سوء الفهم لإحساس المصرى القديم بحتمية الإيمان وضرورته . ولم يكن هناك من الأنبياء والرسل من يقود خطواته إلى الإيمان الصحيح ، ولهذا اعتمد على تفكيره العقلى المحدود فى إيجاد الآلهة الخاصة به لإشباع احتياجاته الروحية إلى عالم أسمى وأفضل من العالم المادى المحيط به . ومن هنا كان إيمانه المطلق بالبعث فى العالم الآخر ، لأن إيمانه هداه إلى أن هذا العالم المادى لا يصلح أن يكون هدفاً فى حد ذاته بحكم محدوديته وارتباطه ببداية ونهاية محددتين .

وإذا أردنا البحث عن تفسير علمى لعبادة قدماء المصريين للحيوانات والطيور والزواحف ، يقنع مؤرخى الغرب ومفكريه ، لوجدنا أن خير تفسير مقنع هو ذلك الذى يقول بأن العلم فى ذلك الوقت المبكر من الحضارة الإنسانية لم يكن قد تمكن بعد من تفسير دورة حياة النباتات والحيوانات ، ولم يكن الإنسان قد عرف أن الحيوانات والطيور أجناس ، وإن كانت أدنى منه مرتبة إلا أنها شبيهة به . لم يكن فى استطاعة المصرى القديم أن يحكم عليها إلا من حيث علاقتها بإنسانيته ، ومن ثم فإن ما أثار اهتمامه هو أن هذه الحيوانات كانت مختلفة عنه من حيث أنها تملك قـوى وتؤدى وظائف لا تتهيأ له . فالطائر بقدرته على الطيران ، والأسد بقوته الخارقة ، والتمساح الذى يستطيع أن ينتزع ساق رجل بقضمة من فكيه ، والثعبان بصمته الرهيب وحياته الغامضة ، وأبو قردان بحكمته الفطرية ، والقط الذى تتغير حدقتا عينيه مع دورتى الليل والنهار لتذكرا الإنسان بدورة الزمن الحتمية ، والجعران الذى يقاوم الموت فى استبسال رائع لا يتناسب مع حجمه ، وحياته بجوار السباخ رمز الخصب والنماء . كل هـــذه المخلوقات انتزعت احترام المصرى القـديم وتبجيله لأنها تملك قـوى خارقة للعـادة لا يتمتع هو بها . وأدى هــــذا إلى عبادتها فى النهاية . ولكن لم يكن المصرى القديم من السذاجة بحيث يعبدها فى حد ذاتها ، ولكنه عبد الجانب الرمزى لوجودها ، والذى يعوض عنده جوانب عجزه البشرى الذى لم يستطع التخلص منه ، فقد أراد أن يكون إيمانه شاملاً للحكمة والقوة والقدرة والبعث والخلود والخصب والنماء والعظمة . . . إلخ .

فإذا كانت الحال هذه ولم تنزل الرسالات السماوية بعد ، فكم يكون إيمان المصرى قوياً وعميقاً وراسخاً وشاملاً عند دخوله فى الأديان التى أنزلها الله سبحانه وتعالى . من هنا كان من الطبيعى ومن المنطقى أن يركز السادات على الإيمان كقيمة وطاقة ذات فاعلية قادرة على الإتيان بالمعجزات ، .فى عصر انعدمت فيه المعجزات للطوفان المادى الذى اجتاحه . فالمادة تنعدم فيها الحتمية الأخلاقية ولذلك كان من الضرورى أن توضع تحت رقابة الإيمان ، ولهذا يقول البرت شفايتزر فى كتابه « فلسفة الحضارة » ص ٢٣٩ :

« لقد آن الأوان لكى ندرك ضرورة العودة إلى الزمان الذى كان فيه العنصر الروحى فعالاً ، وهذا الزمان يتمثل فى القرن الثامن عشر حين تناول مفكروه – ذوو النزعة العقلية – كل شىء بمنطق العقل ، وعلى الرغم من أنهم أدركوا أن الأداة الوحيدة لتنظيم الأشياء فى الحياة هو العقل ، فقد أكدوا ضرورة العنصر الجوهرى فى الحضارة ، أى العنصر الروحى ، فتركز اهتمامهم فى الدرجة الأولى على التقدم الروحى للناس والإنسانية ، لأن إيمانهم بالإنسانية كان راسخاً متفائلاً . »

ويصل شفايتزر إلى النتيجة التى تؤكد أن الإنجازات المادية فى حد ذاتها ليست حضارة ولا يمكن أن تصبح حضارة إلا بمقدار ما تستطيع عقلية الشعوب المتحضرة أن توجهها تجاه كمال الفرد وسمو الجماعة . والحضارة فى مفهوم شفايتزر هى جماع كل تقدم حققه الناس ، كل فرد فى كل مجال من مجالات العمل ومن كل وجهة نظر ، والشرط

الأساسى لهذا التقدم – حتى يكون تقدماً بالمفهوم الحضارى الشامل – أن يساعد الكمال الروحى للأفراد ، فالتقدم الحقيقى هو هذا الكمال الروحى المنشود . لأن التقدم العلمى المجرد ، رغم أنه زاد من سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة بطريقة لم تكن فى الحسبان ، وزاد أيضاً من راحة الإنسان ورخائه وصحته ، إلا أنه أوجد فى الوقت نفسه قوى تدميرية رهيبة إلى درجة أن مخزون الأسلحة النووية فى العالم يكفى لتدمير الكرة الأرضية عدة مرات .

ولذلك ليس من المدهش أن يجد الناس أنفسهم فى النصف الثانى من القرن العشرين غير راضين عن سير الأمور التى أوجدتها السيطرة المطلقة للعقل ، فقد أصبح من المؤكد أن العقل لا يستطيع أن يقدم الحلول السعيدة لكل متاعب عصرنا . ويؤكد ج . دى بويس فى كتابه « مستقبل الغرب » أن خيبة أمل الأجيال الجديدة فى معجزات العقل البشرى جعلتها تبحث عن ملاذ فى قيم أخرى تتصف باللاعقلانية ، ويمكن تتبع هذا التحول عن العقل فى الدين والفن والعلوم السياسية . فقد ضاق الناس بالعقل وألوهيته ورغبوا فى البحث عن حل فى اتجاه أعلى يتمثل فى البحث عن قيم أعلى من العقل . وغالباً ما تتمثل هذه القيم فى الحلول الدينية أو الفلسفية أو الصوفية أو الميتافيزيقية . ويؤكد دى بويس بوادر هذه الظاهرة فى الأمثلة التالية على ص ١٣٧ من كتابه :

« هناك انتعاش ملحوظ فى الاهتمام بالدين والاهتمامات الدينية فى عدد من الدول ، فنسبة المشتركين فى الكنيسة بالولايات المتحدة فى تزايد مستمر ، وفى الوقت نفسه فإن نجاح الحركات التى لا تنتمى إلى طوائف بعينها فى كثير من الدول الغربية مثل « فريق أوكسفورد » أو . حركة « إعادة التسلح الخلقى » يمثل خيبة أمل للاتجاهات المادية والجوع الروحى الذى أصبح بمثابة أخطر أمراض العصر .

وفى مجال اللاهوت – فى عصرنا هذا – نجحت الأرثوذكسية الجديدة التى تنادى بأن المشكلات الأساسية للإنسان يمكن أن تحل بالإيمان وليس بالعقل ، وقد أسس هذه الحركة فى أوروبا كارل بارث واميل برونر ، وكان لها فى النصف الثانى من القرن الحالى تأثيراً قوياً فى بريطانيا والولايات المتحدة على يد الدكتور رينهولد نايبور ، ويبدو أنها مازالت بنفس الدفعة القوية التى بدأت بها . »

وكلام دى بويس هذا يجعلنا لا نندهش من نبوءة أرنولد توينبى فى إحدى محاضراته فى جامعة ادنبرة ، عندما قال إن حركة القرن التاسع عشر فى العالم الغربى ، التى استبدلت الدين بالتكنولوجيا ، بل تحولت التكنولوجيا إلى دين العصر ، سوف تنقلب فى القرن الواحد والعشرين إلى حركة مضادة يعود فيها الجنس البشرى من التكنولوجيا إلى الدين . وليس القرن الحالى سوى فترة انتقال لكى تعود الأمور إلى نصابها . وتعد الحركات الفنية والأدبية من بوادر فترة الانتقال إلى الجانب الروحى . ومن هذه الحركات التى ثارت ضد العقلانية والواقعية والطبيعية ، الحركة الرمزية والتكعيبية والتأثيرية والمستقبلية والسيريالية وأخيراً العبثية التى تطرفت إلى الحد الذى رأت فيه أن كل ما يحاول العقل البشرى إثباته من نظريات لا يعدو أن يكون عبثاً فى عبث .

ولم يقتصر الأمر على الفن بل امتد إلى العلم نفسه الذى تربع العقل على عرشه منذ عصر النهضة . يقول ادوين جانهام فى كتابه « العالم عند منتصف القرن » ص ١٧٨ :

« من الملاحظ أن العلوم الفيزيقية التى تحدت الدين فى أحد الأيام ، تميل الآن إلى الوقوف بجانب الميتافيزيقا بدلا من مساندة التفسير المادى للكون والإنسان . وبالمثل فى الطب ، فإن مدرسة « الطب النفسى » ذات التأثير القوى تعلن أن حوالى ثلثى جميع أمراض البشر نتيجة للصراع النفسى بفعل المادية الطاغية ، ومن ثم فهى ليست أمراضاً جسمانية وإنما هى أمراض عقلية وروحية ، ويجب أن تعالج على هذا الأساس . »

وعلى سبيل التأصيل الفكرى يجب أن نذكر أن أبا بكر الرازى قد قام بتأليف كتابه الشهير « الطب الروحانى »

منذ عدة قرون مضت ، وفيه أوضح ضرورة أن يكون طبيب الجسم ، طبيباً للنفس أيضاً ، لأن الاثنين لا يمكن أن ينفصلا عن بعضهما البعض ، ولا فائدة من إصرار الطبيب على معالجة مريض الجسم ، بينما نفس المريض – الأمارة بالسوء – توحي إليه دائماً بأن روح الشر لن تساعده على الشفاء : ونظراً للسيطرة الرهيبة التي تمارسها القوى الميتافيزيقية الكامنة فى الإنسان على الإنسان ذاته ، فقد وصف شوبنهاور الإنسان بأنه « الحيوان الميتافيزيقى » ، فالحيوانات الأخرى تعيش دون ميتافيزيقيات . أما فى الإنسان فلا يمكن الفصل بين الجانب الميتافيزيقى والفيزيقى ، فما هما بشيئين مختلفين ، معروفين كل على حدة ، فعلاقة السببية توحد بينهما ، وجوهرهما واحد بل هما نفس الشىء ، ولكنهما يحدثان بطريقتين مختلفتين تماماً ، وليس عمل الجسم سوى عمل الروح وقد تجسد . ويصدق هذا على كل حركة للجسد ، وليس الجسم كله سوى النفس مجسدة . والعلاقة السببية بين الاثنين ليست سوى ما نطلق عليه اصطلاح الشخصية ورغم أن الاثنين هما شىء واحد ، إلا أن هناك فرقاً شاسعاً بين الإنسان الذى يترك قياد جسده لروحه ، والإنسان الذى يترك قياد روحه لجسده . فالأول يحاول أن يسمو فوق عالم المادة المحدود وذلك بتسليح روحه بكل أسلحة الإيمان الممكنة ، أما الثانى فيهبط إلى عالم الحيوان بكل مظاهره الفيزيقية البحتة وبذلك يتخلى عن إنسانيته التى تعد الميتافيزيقا من أهم وأول شروطها . ومن هنا كان إيمان السادات بالحكمة التى تقول :

« خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة ، وخلق الشياطين شهوة بلا عقل ، وخلق ابن آدم من كليهما . . فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلب شهوته على عقله فهو شر من الشياطين . »

والجسد يتعب ، ولكن الروح لا تتعب أبداً . ويحتاج الجسد إلى النوم ، ولكن الروح تعمل حتى فى أثناء النوم . والجسد فى حاجة دائماً إلى غذاء مادى ، أما الروح فغذاؤها الإيمان . والجسد يموت ويفنى فى النهاية شأنه فى ذلك شأن كل شىء مادى ، أما الروح فخالدة ولا تخضع لقوانين المادة لأنها لا تنتمى إلى هذا العالم الذى لا يعرف سوى الهموم والآلام . يقول شوبنهاور إنه لو انزاحت عن صدورنا هموم مرهقة عاجلة ، فى الحال تحل محلها هموم أخرى كانت مادتها كلها موجودة من قبل ، ولكنها لم تخرج هموماً إلى دائرة الوعى إذ لم يكن هناك أى منفذ لها ، أما الآن وقد وجد المنفذ فهى تنطلق لتسيطر على كيان الإنسان . ولذلك فحياة الجسد البحتة أساسها الألم ، وليست اللذة إلا مجرد وقف سلبى للألم . ولقد كان أرسطو محقا عندما قال : « إن الحكيم لا يبحث عن اللذة ، بل التخلص من الهم والألم . » وفى هذا المعنى كتب شوبنهاور فى كتابه « العالم إرادة وتخيل » – المجلد الأول – ص ٣٩٧ ، يقول :

« كل إشباع حسى ، أو ما يسمى عادة بالسعادة ، هو فى جوهره سلبى ، بمعنى أننا لا ندرك إدراكاً حقيقياً النعم والخيرات التى تكون فى حوزتنا فعلا ، ولا نقيم لها وزناً ، فهى بالنسبة لنا مجرد أمر واقع ، وذلك لأنها لا تشبعنا إلا سلبياً ، فهى تمنع عنا التعاسة والألم ، ولا نشعر بقيمتها إلا عندما نفقدها ، لأن الحزن والحرمان والحاجة الملحة ليست سوى العنصر الإيجابى الذى يرتبط بنا مباشرة ودون عوائق ، ولعل هذا هو السبب الذى أدى بالكلبيين إلى إنكار اللذة فى كل أشكالها على حد سواء ، فالألم مرتبط دائماً بها سواء بدرجة كبيرة أو صغيرة » .

ويستمر شوبنهاور فى تحليله فيوضح لنا أن حياة الجسد لن تعرف الكمال فى يوم من الأيام لأنه حالما تسمح الحاجة والحرمان للإنسان بالراحة ، اقترب منه الضجر على الفور بحيث تتحول الحاجة القديمة إلى الراحة ، إلى حاجة جديدة إلى التسلية وهكذا دواليك ، أى المزيد من الحاجة التى لا يؤدى إشباعها إلا إلى حاجة أخرى ، ويستمر الدوران فى هذه الدائرة المفرغة حتى يحل الموت أخيراً . وهذا ما يتفق مع المثل الشعبى المصرى – وهو مثل زاخر بالحكمة والفلسفة مثل معظم الأمثال المصرية – يقول المثل : « لا يملأ عين الإنسان سوى التراب . » وحتى لو تحققت

المدينة الفاضلة ، لبقيت شرور عديدة طالما أن الإنسان لم يتخلص بعد من سيطرة جسده على روحه . فحياة المادة لا تعرف سوى الصراع والتنافس والنزاع ، فكل إنسان يكافح من أجل الحصول على المادة والمكان والزمان الذى يملكه الآخرون . أما حياة الروح فلا تعرف سوى السلام والانسجام والتوافق ، حتى الخوف من الموت يتلاشى لإدراك الروح لخلودها ، أما الجسد فنى خوف دائم لأنه – على حد قول شوبنهاور – ليس سوى منع مستمر للموت ، موت مؤجل لحين انتهاء حياة الجسد .

وفى القصة القصيرة الوحيدة التى نشرت لأنور السادات فى مجلة « أهل الفن » فى إبريل ١٩٥٤ تحت عنوان « ليلة خسرها الشيطان » نجد كل فلسفة شوبنهاور وقد تجسدت فى هذه القصة التى تدل على أن حياة السياسة والكفاح الوطنى بكل مشاغله وارتباطاته ، قد حرمت الأدب المصرى خاصة ، والعربى عامة ، من قصاص وفنان بارع ، كان يمكن أن يكون رائداً كبيراً أيضاً فى مجال الفن الأدبى . والقصة كعمل فنى سنتناولها بالتحليل والنقد فى فصل آخر يدور حول معنى الفن عند السادات ، ولكن ما يهمنا الآن فيها هو موضوعها أو مضمونها الذى يدور حول الصراع بين الشهوة الجسدية العارمة والإيمان الروحى الذى يذكر الإنسان دائماً بأن لروحه عليه حقاً وإلا جرفه طوفان الشهوة وأحاله إلى مجرد حيوان فى ثوب إنسان . وفى القصة أصداء من قصة سيدنا يوسف وامرأة العزيز ، وهذا يدل على الخصوبة الفكرية والفنية عند السادات ، فهو يستفيد فكرياً من القصص الدينى والفلسفات الإنسانية ، ويستغل أيضاً كل إمكانيات الأسلوب الأدبى والشكل الفنى لتوصيل فكرته إلى جمهور القراء .

والفكرة الرئيسية التى تمثل العمود الفقرى للأحداث تنهض على السلام النفسى الذى كان يتمتع به الشاب الفلاح الأجير « خضر » فى عزبة الإقطاعية الأرستقراطية الفاتنة « نورا » قبل أن يعصف به إغراؤها المدمر . فعندما التهب جسده بالشهوة تبخر السلام النفسى فى لمح البصر ، وكاد يسقط ضحية جسدها الفاجر المتفجر ، لولا أن ربه تذكره برحمته فى آخر لحظة . ولنترك خاتمة القصة تحكى لنا مغزى الصراع بين شهوة الجسد وإيمان الروح :

« وفى خطوات وئيدة توجه خضر إلى طرف الحديقة حيث يوجد مسكنه وما إن فتح غرفته حتى وقف كالمصعوق . . لقد وجد نورا فى غلالة شفافة تلف جسمها وهى تفضحه . .

وراعته المفاجأة فتسمر فى مكانه ونورا تناديه : نادته بصوتها الذى سحره ونادته بضحكها الذى أذهله ونادته بذلك البريق الذى رآه فى عينيها وهى تضمد جراحه . .ولكن خضر ظل فى مكانه . .

وعصفت الرغبة بنورا فأرسلت ضحكة عالية لم تكن كضحكاتها السابقة وإنما كان فيها صراخ الشيطان وألقت بجسدها بين أحضانه . .

وصرخ الوحش فى دماء خضر فلم يشعر إلا وهو يلتقف ذلك العود الفائر الدافئ بين ساعديه . وأطبقها فى عنف وكأنما يريد أن يعتصر كل ما فى العود . . وصرخت نورا من الألم ، فارتد خضر فى ذهول ليرى على الأرض حلية سقطت من صدر نورا بعد أن أدمته . .

° ° °

وسط ذلك الليل البهيم انشق الهدوء والسلام فى طرقات القرية على صيحات خضر المذعورة وفى يده شىء يطبق عليه . .

كان كتاب الله فى حلية من ذهب »

والرائع فى هذه القصة أن السادات لم يلجأ إلى الوعظ المباشر والإرشاد الصريح والخطابة الرنانة رغم وجود المغزى

الأخلاقى بصفة رئيسية ، وهو المغزى الذى قد يغرى أى أديب بتحطيم الشكل الفنى عنده خوفاً من عدم وصوله بوضوح إلى جمهرة القراء .

المهم أن البعض قد يظن أن إيمان خضر لم يكن كافياً بدرجة تجعله قادراً على مقاومة الإغراء منذ البدء ، ولكن هذا التفكير يقصر عن استيعاب صراعات النفس البشرية وأبعادها . فخضر إنسان على أية حال ويخضع لكل الحدود البشرية ، ولكن المهم أنه تذكر إيمانه بمجرد رؤيته لكتاب الله وكان من الممكن أن يتغاضى عن هذه الحقيقة الناصعة ويستمر فى إرواء شهوته الحيوانية ، ولكنه توقف فى الحال ، وبذلك انتصرت روحه على جسده .

والمغزى الأخلاقى للإيمان لا يرتبط – عند السادات – بالجنس فقط ولكنه يمتد ليشمل كل مناحى الحياة . فالأخلاقيات إذا لم ترتبط بكل الأنشطة الاجتماعية كان هذا إيذاناً بتصدع المجتمع جزئياً أو كلياً . ومن علامات التصدع الاجتماعى : التعصب ، والتواكل ، والجهل ، والتعلق بالخرافات وغيرها من الشوائب التى علقت بجوهر الإيمان فى عصور الاضمحلال ، ولذلك يقول السادات فى ورقة أكتوبر :

« كان من أبرز صفات هذا الشعب دائماً تمسكه بالإيمان واعتزازه بالأصالة . أما الإيمان ، كما نفهمه اليوم ، فهو ذلك الإيمان النقى الخالص ، البرىء من التعصب ، والمتطهر من تلك الشوائب التى علقت بجوهره فى عصور الاضمحلال : البعيد عما ينسب إليه زوراً من روح التواكل التى لا تعرف المسئولية ، والتعلق بالخرافات ، ونفى دور إرادة الإنسان وإرادة المجتمع فى أن يواجه أمور حياته المتجددة ، مستعيناً بما أودعه الله فيه من عقل ميزه به عن سائر المخلوقات . وقد علمنا محمد رسول الله هذه المعانى فى قوله :

« مثل المجاهد فى سبيل العلم كمثل الصائم القائم ، لا يفتر عن صلاة ولا صيام حتى يرجع » .

وليس الجهاد فى سبيل الله هو القتال وحده : فقد قال لنا رسول الله أيضاً :

« من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » .

بل وعلمنا الجهاد بمعناه الاجتماعى العميق بقوله صلوات الله عليه :

« الساعى على الأرملة والمسكين ، كالمجاهد فى سبيل الله » .

وليس أخطر على هذا الإيمان فى معدنه الحقيقى من الذين يجعلون منه نقيضاً للعمل والبحث والعلم . فالله عز وجل قد وضع العلم فى مستوى الجهاد فى سبيل الله ، وجعله قريناً للإيمان ، حين قال سبحانه وتعالى :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أتوا العلم درجات ! »

هذه هى الأخلاقيات الأساسية التى يحتمها مفهوم الإيمان عند السادات ، وهى أخلاقيات ضرورية لتقدم أى مجتمع فى أى عصر ، وما يشكو منه العالم المعاصر من أمراض واضطرابات ، يرجع إلى فقدان الدين لسيادته على الحياة الروحية ، وبالتالى اهتزت المقاييس الأخلاقية التى نبعت من الدين ، والتى واكبت الحضارة الإنسانية منذ فجرها ، ومنحتها من الدفعات ما أوصلها إلى عصرنا هذا . ولعل أشمل تحليل لهذه الظاهرة يوجد فى كتاب « مستقبل الغرب » حيث يقول ج . دى بويس ص ١٣٣ :

« لقد كان التطور الروحى الذى مرت به الحضارة الغربية الأساس الراسخ الذى نهضت عليه المعايير الأخلاقية للمجتمع ، وكانت المعايير الأخلاقية . طوال سيادة الدين على الحياة الروحية والاجتماعية جزءاً منها لا يتجزأ ، وبذلك حلت محل الاجتهادات البدائية للإنسان التى لم تكن قابلة للنزاع والجدل من قبل ، ولكن عندما عاد العمل المادى للإنسان إلى التحرر من السيطرة الروحية ، واصطبغت الحياة الروحية والاجتماعية بصبغة مادية دنيوية ، فقدت المعايير الأخلاقية بالتالى شخصيتها المستقلة السامية وتساوت مع الاجتهادات التى بذلها الناس من أجل صالح المجتمع .

وكانت نتيجة ذلك أن حلت المنفعة والحكم العقلى محل الإرادة الإلهية كأصل لهذه المعايير ، وأصبحت الأوامر الإلهية ذات الصفة المطلقة ، موضعاً للتحليل والدراسة البشرية ، وبالتالى محل جدل ، فخضعت للحكم الشخصى حتى أصبحت مثار تساؤل فى خاتمة الأمر .

وقد ساعد على ذلك عاملان مؤثران إلى حد كبير منذ منتصف القرن الأخير ، هما : المادية التاريخية بإعلانها أن العوامل الاقتصادية هى الأصل فى جميع التطورات الاجتماعية ، وبذلك قل شأن المعايير الأخلاقية التى تحتم عليها أن تتحول إلى مجرد عامل مساعد للعوامل الاقتصادية الرئيسية . والعامل المؤثر الثانى يتمثل فى علم النفس عند فرويد الذى يرى أن للدوافع الجنسية أسبقية على جميع الدوافع الأخرى ، وبذلك ضاعت قيمة المعايير الأخلاقية التى تحولت أيضاً إلى مجرد عامل مساعد للعوامل الجنسية الرئيسية .

وكانت الحرب العالمية الأولى من ضمن العوامل الرئيسية التى أدت إلى انتعاش هذه الحركات فى مجال الفكر واستمرارها لأجيال متتابعة . وتمثل الاضطراب الفيزيقى الذى سببته الحرب فى ضياع المعايير الاجتماعية للسلوك الفردى ، والروابط العائلية التى بدأ انهيارها منذ ذلك الحين .

كانت هذه التطورات الاجتماعية نتيجة لاندثار قيم وتقاليد العصور المبكرة التى استبدلت بها علاقات واهية من المنفعة الذاتية والحكم الشخصى . وتحول موقف الفرد تجاه المجتمع – ذلك الموقف الذى عبر عن نفسه فى الأزمنة الماضية بمجموعة دقيقة من الواجبات الملزمة – إلى مجرد مجموعة من الحقوق والمزاعم والمطالب ، وانتقل من الوصايا العشر إلى إعلان حقوق الإنسان . وهذا الانتقال من التأكيد على الواجبات إلى التأكيد على الحقوق ليس أمراً عرضيا ، ولكنه نتيجة حتمية للعقلية المادية التى تنظر إلى هذا العالم على أساس أنه هدف فى حد ذاته ، ولا هدف آخر وراءه . وهى العقلية الطاغية فى عصرنا هذا » .

وبذلك يكون من الصعب إيجاد ضوابط وقيم أخلاقية فى مجتمع ينهض على الأنانية الفردية بصرف النظر عن اعتبارات الصالح العام لكل الناس . ولذلك كانت الضرورة الأخلاقية – التى تحتم توافق المنفعة الشخصية مع الصالح العام – جزءاً هاماً فى مفهوم السادات للإيمان . فالمجتمع الذى يترك العنان للحرية الفردية المطلقة دون أية ضوابط أو قيم لابد أن يتحول إلى غابة يلتهم فيها الكبير الصغير ، والقوى الضعيف . وكذلك المجتمع الذى لا يسمح بأية انطلاقة حرة للفرد ، بل يحيطه بكل القيود الصارمة ، لابد أن يتحول إلى سجن . والمفهوم الناضج للإنسان المعاصر يؤكد أنه لا يستطيع العيش سواء فى الغابة أو فى السجن ، لأنه فى الغابة سيعرض حياته للخطر ، وفى السجن سيفقد حريته . ومن الواضح أن الحياة مساوية تماماً للحرية ، والضرورة الأخلاقية قد وجدت خصيصاً للتوفيق بين الحياة الاجتماعية وبين الحرية الفردية حتى لا تطغى إحداهما على الأخرى ، وخاصة أنه ليس هناك أى تناقض بين الاثنتين ، فالحياة الاجتماعية السليمة تتكون بطبيعتها من جزئيات تتمثل فى الحريات الفردية لأعضاء المجتمع . ولا يمكن أن يقع تناقض بين الجزء والكل وإلا انفصل أحدهما عن الآخر .

ونظراً لارتباط مفهوم الإيمان عند السادات بالضرورة الأخلاقية فقد آثرنا أن يدور الفصل التالى حول ملامح وخصائص الضرورة الأخلاقية عند رائدنا فى التأصيل الفكرى : أنور السادات .

الفصل الثالث

الضرورة الأخلاقية

تمثل الضرورة الأخلاقية عنصراً هاماً فى نظرية السادات فى التأصيل الفكرى . وهذه الضرورة تنهض على وجود عنصرين متميزين فى الكائن البشرى ، عنصر الفردية وعنصر الجماعية . فالأخلاق التى لا تعبأ بالعنصرين فى آن واحد لا يمكن أن تصل إلى نظرة شاملة للمشكلات الأخلاقية التى واكبت الحضارة الإنسانية منذ فجر التاريخ . فحاجة الإنسان إلى الأخلاق لا تنشأ فقط من افتقاره إلى نزعة تامة إلى التجمع أو من فشله فى أن يعيش وحيداً بصفة مطلقة ، بل تنشأ أيضاً من اختلاف جذرى بين الإنسان من ناحية وبين سائر أنواع الحيوان من ناحية أخرى ، فنشاط الإنسان لا ينجم كله عن دوافع مباشرة ، وإنما يستلزم هذا النشاط الضبط والتوجيه بتحديد الوسائل وبلورة الغايات . فالإنسان يعمل طبقاً لوسائل محددة تؤدى إلى غايات قد ينجح فى تحقيقها أو قد يفشل ، ولكن لأن الإنسان يسلك على هذا النحو ، فهذا يعنى ارتباط سلوكه المادى بضرورة أخلاقية من حيث إنه يميز بين ما هو صواب وما هو خطأ ، بين ما هو حق وما هو باطل ، بين ما هو خير وما هو شر ، بين ما هو نافع وما هو ضار . فالإنسان فى علاقاته مع الغير يلتزم بمجموعة من المثل والقيم والمعايير والمقاييس تكون ما يسمى بالضرورة الأخلاقية .

وكلما ارتقى الإنسان فى السلم الحضارى ، تضاعفت أهدافه وزادت حياته تعقيداً ، ومن هنا كان البحث عن مبادئ الأخلاق فى المجتمع المتحضر أشد صعوبة منه فى المجتمع البدائى ذى العلاقات الاجتماعية البسيطة والمباشرة ولكى نحدد مفهوم الضرورة الأخلاقية فى المجتمع يجب أن نركز الضوء على ما نسميه بالنشاط الواعى عند كل فرد من أفراد الجماعة بما يتحتم أن يكون عليهم سلوكهم من مستوى يحقق الخير والسعادة للمجموع ، حتى ولو أدى هذا إلى إهدار بعض رغبات الفرد أو متعه الشخصية . هذه هى الضرورة الأخلاقية التى تدفع عالماً يجرى أبحاثه من أجل اكتشاف سر مرض خطير مثل السرطان . فينفق من الوقت والجهد ما يعد فوق احتمال البشر ، ومهملا فى نفس الوقت حقه الطبيعى فى الراحة والمتعة ، بل ومعرضاً حياته للخطر فى بعض الأحيان . هنا تبرز الضرورة الأخلاقية التى تؤدى إلى إنكار الذات من أجل صالح الجماعة ، ولا شك أن مثل هذا العالم يجد متعة كبيرة فى مجال أبحاثه المضنية حتى ولم يعد على شخصه بفائدة ذاتية . وهذا يؤكد الارتباط العضوى بين الكيان الذاتى للفرد والبنيان الموضوعى للمجتمع .

ويتفق السادات مع برتراند راسل فى أن الأخلاق فى جوهرها تبدأ فردية ثم تتطور فتصبح اجتماعية . ومن هنا كان الدور الحيوى الذى يلعبه الأفراد الذين يقومون بضرب المثل الأعلى فى أداء الواجب ، واحترام القيم أمام مواطنيهم . فعنصر الفرد فى الأخلاق عنصر أساسى لا يمكن الاستهانة به على الإطلاق . فالفرد عندما يؤدى واجبه نحو الجماعة مضحياً فى سبيل أدائه براحته ومتعته ومصالحه المباشرة لا بد أن يكون مقتنعاً تمام الاقتناع بصواب سلوكه ، وأخلاقية الوسائل التى يتبعها ، وسلامة الغايات التى يهدف إليها . وكلما تأكد هذا الاقتناع الداخلى عند الفرد تكاملت الحياة الأخلاقية على مستوى المجتمع بصفة عامة .

ولا تعنى الضرورة الأخلاقية عند السادات محاولة وضع الطبيعة البشرية فى قالب صارم لا يعرف المرونة أو الهضم ، ففى رأيه أن كل باحث فى الأخلاق لا يفهم أو يدرك الحاجات الأساسية للطبيعة البشرية لا يمكن أن

يصل إلى تقنين الضرورة الأخلاقية التى تعد الشرط الأساسى لتحقيق التطور والتكامل والتقدم والرفاهية فى حياة المجتمع ، ولذلك يتحتم على دراسات علم الأخلاق أن تتبع المنهج العلمى ، حتى تكون موضوعية وشاملة ومنصفة وعملية من حيث إمكانية تطبيقها فى الحدود البشرية للمجتمع ، والبواعث الهامة التى تحكم سلوك الأفراد كالغذاء والكساء والمأوى وغيرها من الاحتياجات البيولوجية للإنسان . فهذه كلها ضرورات أساسية لاستمرار الحياة البشرية ، ولذلك فقد وضعها السادات نصب عينيه وخاصة بعد معارك أكتوبر المجيدة .

والصالح العام يعنى أن الأفعال التى تحفز إليه هى التى ترضى الجماعة وتثنى عليها ، أى أنه يتحقق فقط فى حالة رضا الجماعة عنه . ويعنى الصالح العام بأن من مصلحة كل شخص أن يفعل كل شخص ما يرضى كل شخص بنفس الطريقة ، والصالح العام يعنى أيضاً أن ثمة خيراً أكبر وإشباعاً أعظم للرغبة فى حياة الجماعية إذا كان الضغط الاجتماعى ، سواء من خلال القانون أو عن طريق التقاليد ، مطبقاً بحيث يصل إلى الفعل الصواب الذى ترضى عنه جميع الأطراف المعنية . ولذلك يمكن تحقيق الإشباع الكلى للرغبة حين تكون الرغبات ممكنة معاً ، أما إذا كانت متنافرة ومتصارعة فإنه يصعب إيجاد ما نسميه بالصالح العام . والقائد السياسى البارع هو من يدمج هذه الرغبات المتنافرة فى هيكل اجتماعى واقتصادى بحيث يصل التصادم والاحتكاك إلى أقل الدرجات الممكنة . بمعنى آخر أنه يبذل ما فى وسعه لتحويل الرغبات المتصارعة إلى رغبات ممكنة تسهل عملية الوصول إلى الصالح العام . فالرغبات الممكنة هى أفضل الوسائل لتحقيق أفضل الغايات ولذلك فالحب مأثور على الكره ، والتعاون مفضل على التصارع ، والسلم مرغوب عن الحرب . . . إلخ ، وهذا بدوره يؤدى إلى تحديد نوعية الرغبات من حيث هى خير أو شر ، صواب أو خطأ ، فالرغبات الصائبة هى القادرة على أن تتحقق معاً مع أكبر قدر ممكن من الرغبات الأخرى ، أما الرغبات الباطلة فهى التى تحقق إشباعها وحدها على حساب الرغبات الأخرى . ولذلك يقول السادات فى لقائه بوفد المؤتمر الإسلامى فى القاهرة فى ١٤ سبتمبر ١٩٧٢ :

« لماذا الحقد والفرقة والتشتت ؟ لن نستطيع أن نبنى بالحقد أبداً . . دعونا نضرب كل هذا ونعود لجوهر عقيدتنا : الحب والصفاء والأخوة والقوة التى تتولد بالإيمان وبالثبات وباليقين . . دعونا نعود إلى جوهر رسالتنا : الإيمان هو ما وقر فى القلب ، الإيمان أخوة ، محبة ، يقين ، غيرة على قيمنا وعلى حياتنا وأرضنا أيضاً » .

وعندما رفع السادات شعار « دولة المؤسسات » كان يدرك جيداً ما لهذه المؤسسات والهيئات الاجتماعية والسياسية من سلطان كبير على الأفراد سواء فى نوعية إنتاجهم أو فى حياتهم الأخلاقية . فهذا التأثير الذى تمارسه على حياتهم الأخلاقية أمر ضرورى وحيوى لترابطهم واستمرار حياتهم . ويظهر هذا السلطان فى القواعد العامة ، والتقاليد الاجتماعية ، والتشريعات الأخلاقية ، والمعايير الإنسانية التى يأخذ بها المجتمع . وقد تنطوى هذه التشريعات على القسوة والعنف مما جعلها دائماً عرضة لثورة وهجوم المصلحين الأخلاقيين فى جميع العصور . ومع هذا لا يجوز الخروج على القواعد العامة والتشريعات الأخلاقية بغير تفكير علمى وتحليل موضوعى ، لأن ذلك لا يعنى سوى إثارة روح الفرقة والتشتت والضياع والفوضى . ففى كل نظام أخلاقى ثنائية أساسية تتلخص فى مصدرين مختلفين للأخلاق : الأول منهما يرجع إلى سلطان الجماعة ، وهذا ما يسميه برتراند راسل المصدر السياسى للأخلاق ، أما المصدر الآخر فأساسه العقائد الشخصية التى ترتبط بالدين والأخلاق من حيث اقتناع الفرد بهما دون أى ضغط خارجى .

والمصدر السياسى للأخلاق يحافظ على بقاء الجماعة واستمرارها ، بينما المصدر الشخصى هو الذى يمنح المعنى لمثل هذا البقاء ، والحياة الاجتماعية السليمة هى حصيلة هذين النوعين من الأخلاق . فالقيام بالواجبات تجاه الجار

مثلا هو أمر تفرضه الأخلاق المدنية ،لكن السمو الأخلاقى للإنسان لا يقتصر على مجرد أداء الواجبات ، فإنه لا ينبغى أن تستمد الأخلاق السامية مصدرها دائماً من مجرد أداء الواجب كفرض بل من ذاتية الفرد تلقائياً . وهذه هى أخلاقيات القرية المصرية التى يدعو السادات إلى تأكيدها وتثبيتها . فنى القرية المصرية يستمتع المواطن بأداء الواجب فى حد ذاته دون انتظار مدح أو ثناء أو ثواب ، ودون خوف من لوم أو تقريع أو عقاب . وأصالة القرية المصرية هنا تكمن فى أن أعظم الأعمال ذات القيمة الأخلاقية الشاملة لم تصدر عن مجرد أداء الواجب كمهمة ثقيلة على النفس ، ولكن كمتعة تنشد فى حد ذاتها . ولذلك يقول السادات فى خطابه أمام مجلس الشعب فى ٢٠ مايو ١٩٧١ :

« عاوز واحنا بنحط الدستور – وأصلكو انتو اللى حتكلفوا بوضع الدستور زى ما حقول لكم دلوقتى – عايز واحنا بنحط الدستور نرجع للقرية أصلنا ونعرف إن فيه « عيب » لأن فى القرية هناك علمونا لما نشأنا إن فيه حاجة اسمها العيب.

نعرف إن فيه حدود ، نعرف إن فيه حدود لكل شىء مهيش سايبة ، موش كل شىء سايب ، أبداً ، نعرف إننا كلنا لما بتبقى العيلة فى القرية ، رب العيلة فيها راجل حازم بتبقى العيلة محترمة فى القرية ، بنعرف كمان إن القرية بتبقى كلها روح واحدة لما بيحصل ميتم يأجلوا الفرح علشان ما يسمعوش الزغاريد التانيين وبنعرف إن يوم ما بيحتاج واحد علشان يحرت أرضه بيقوم زميله يودى بهايمه ومحراثه ويروح يشتغل وياه ويساعده .

عايز الدستور يتفصل على كده مش للقرية ، لا ، أنا عايزه يتفصل علشان مصر كلها تبقى قرية واحدة ، فى هذا الشأن مفيش مكان لا للعيب ولا للتسيد . فى القيم ، الوفاء ، لازم الوفاء ، كل من يؤدى لهذا البلد خدمة ، لازم البلد ترد له بوفاء » .

ينادى السادات بهذه القيم الأصيلة لأن مشاعر الإنسان فى العصر الحديث أصبحت مسدودة النوافذ على قيم المحبة والتعاون والوفاء ، وما زال الحقد الذى يقسم الناس إلى أهل وأعداء سيد المشاعر البربرية ، وهذا التطاحن البدائى المقنع بأقنعة الحضارة الحديثة لن يساعد المجتمع البشرى على أن ينعم بمستقبل مستقر مطمئن ، بل ربما يكون مصير هذا المجتمع كمصير الديناصور الذى سيطر على الأرض فى عصور ما قبل التاريخ ، ولما كان مجرد قوة جبارة ، ولكنها عمياء وطائشة ، فقد قضى على نفسه بنفسه . وهذا ينطبق بدوره على الإنجازات العلمية الجبارة من قنابل وصواريخ ذرية ، فإن تضخم القدرة العلمية للإنسان دون أن تتناسب مع ارتقاء إرادته لصنع الخير ، وسمو عاطفته تجاه الإنسانية جمعاء ، قد يقضى على البشرية جمعاء كما فعل الديناصور بنفسه منذ ملايين السنين الماضية .

ويتفق السادات مع برتراند راسل فى أن الزعيم الحكيم هو من يقوم بدور رب العائلة الحازم من أجل مصلحة جميع أفراد عائلته دون إستثناء فلم يعد دور القائد السياسى أو العسكرى العمل على استئصال شعوب بأسرها كما حاول جينكيزخان وهانيبال ونابليون وهتلر أن يفعلوا من قبل . ويؤكد راسل فى كتابه « المجتمع الإنسانى فى الأخلاق والسياسة » أنه آن الأوان لكى تعهد الشعوب بمقاليد أمورها إلى رجال يحملون لها كل تعاطف ، وكل وفاء ، وكل معرفة ، وكل فكر . فقد أدركت الشعوب فظاعة أولئك الساسة الذين ليس لديهم ما يوحون به إلى شعوبهم إلا الكراهية ، والحقد ، والفرقة ، والتشتت ، والقسوة الزائدة ، ولا هم لهم سوى العمل على استئصال شعوب بأسرها دون أن يفطنوا بوعى موضوعى خال من النرجسية إلى طبيعة الأعمال التى يقومون بها . فمن الواضح أن هؤلاء الساسة لم يفكروا لحظة واحدة فى أن الإنسان يمثل جنساً واحداً ذا إمكانيات مشتركة ، وأنه لا بد لهم من المساهمة فى تحقيق تلك الإمكانيات ، بدلا من العمل على قمعها . وفى هذا المعنى تكلم السادات فى بيانه للأمة فى ٧ مارس ١٩٧١ فقال :

« إن هذا التحدى الإسرائيلى ليس موجهاً لنا وحدنا ، وإنما هو موجه إلى المجتمع الدولى كله ، وإلى كل القيم

الإنسانية التى يجب أن تسود عالمنا ، لكن هناك فارقاً أساسياً بين موقفنا من هذا التحدى وبين موقف العالم كله منه ، إن التحدى الموجه للعالم تحد معنوى وأخلاق وسياسى ، وأما التحدى الموجه إلينا فإنه تحد مادى وطنى قومى ومصيرى ، والعالم قد يرى فى مواجهة التحدى الذى يواجهه أن يستنكر وأن يدين ، وقد يصل به الحرص على مستقبل العلاقات الدولية أن يتجاوز ما هو قاصر على الاستنكار والإدانة ، ولكننا نحن لا نستطيع أن نكتنى بالاستنكار والإدانة ، إننا مطالبون بأن نقاوم ، وبأن نقاتل ، نحن مطالبون بأن نعطى الحياة لكى تكون لنا حياة ، ونحن مطالبون بأن نضحى بالروح لكى تبقى وحدة ترابنا الوطنى مصونة على طول الزمان » .

ومن الصعوبات التى اعترضت السادات فى استعانته بعلم الحساب الاستراتيجى أن الكثيرين من قادة العالم اليوم لم يتخلصوا بعد من الأطماع العابرة ، والمظاهر الكاذبة ، وشتى أمارات القوة الزائفة . ولكنه لم يفقد إيمانه بأن فى مختلف بقاع العالم عقولاً مفكرة تستطيع أن ترقى بنفسها فوق هذه الوجهة الضيقة من وجهات النظر . ولا بد لأصدقاء الإنسان من أن يوحدوا هذه العقول على اختلاف أوطانها حتى تتحول إلى قوة فعالة من أجل إرساء التقاليد الأخلاقية التى وجدت من أجل صالح الإنسان وسعادته . وقد أثبتت حرب السادس من أكتوبر المجيد أن مستقبل الإنسان ومصيره قد أصبحا اليوم فى أيدينا ، فلم يعد أمامنا الآن سوى أن نعمق إحساس الإنسان المعاصر بضرورة العمل على تهيئة هذا المستقبل ، والارتفاع بهذا المصير إلى المستوى اللائق بالإنسانية الحقة . ويوضح برتراند راسل أن مثل هذه الغاية الإنسانية السامية لن تتحقق إلا إذا تضاعف فى العالم يوماً بعد يوم عدد المؤمنين بالقيم الأخلاقية الموضوعية من شجاعة وأمل وحب ووفاء . وهى القيم التى نادى بها السادات فى كل كتاباته ومؤلفاته ومقالاته وخطبه وبياناته وأحاديثه .

ويرى راسل أن دراسة التاريخ الإنسانى بمختلف عصوره تؤكد دائماً أن الخير فى حاجة مستمرة إلى من يحميه ويدافع من أجله ، فعلى الرغم من وجود بشر على مر العصور أدركوا قيمة الخير إلا أنهم لم ينجحوا تماماً فى تغيير نمط السلوك الإنسانى والارتقاء به إلى المستويات المنشودة . ومن هنا كان تطبيق الأخلاق على السياسة أمراً شاقاً محفوفاً بصعوبات شتى ، سواء كانت متوقعة أو غير متوقعة . ومع هذا فقد وصلنا فى التاريخ الإنسانى عند عصر قلق أصبح فيه استمرار الوجود الإنسانى نفسه مرهوناً بالمدى الذى يلتزم فيه الإنسان المعاصر بالمعايير الإخلاقية . فإذا استمر على الانقياد وراء الانفعالات المدمرة فإن مهاراته التى تتزايد بتقدم العلم ستنقلب وبالا عليه تقضى به إلى نفس خاتمة الديناصور فى عصور ما قبل التاريخ .

ولذلك يعتقد الفيلسوف الألمانى إيمانويل كانط أن العلم والمعرفة لا يكفيان . فهناك الحياة العملية والسلوك الأخلاقى ، والفيلسوف النقدى لا يريد أن يستخلص مذهب الأخلاق من التجربة ، لأن التجربة تسجل ما هو كائن ولا تبحث فيا ينبغى أن يكون . والمبدأ الأول فى الأخلاق يراه كانط خيراً بلا قيد ولا شرط ، وهو « الإرادة الخيرة » والإرادة الخيرة هى إرادة العمل بمقتضى « الواجب » أى للواجب وحده دون اعتبار لأى شىء آخر . ومعنى هذا أن الواجب يأمرنا أمراً جازماً أن نعمل دون اعتبار لمصلحتنا أو إشباع لأنانيتنا ، الواجب تكليف بالفعل وإجبار عليه ، إنه أمر جازم مطلق حاسم . وإنما العقل — الذى هو واحد لدى كل إنسان — هو الذى يصدر إلينا أمراً كهذا ، إنه العقل منصرفاً إلى الفعل ، هو « العقل العملى » بتعبير كانط . وهو يعتقد أن القانون الأخلاقى مفطور فينا ومتقدم على كل تجربة . والإرادة الإنسانية حين تعمل على وجه أخلاقى لا تخضع لقوة خارجة عنها كاللذة أو المصلحة أو الأنانية . ولذلك فالإرادة مستقلة فى تصرفاتها ، وناموسها ينبع من ذاتها . والإرادة التى تمنح ذاتها « ناموسها » هى والعقل العملى سواء . وأهم صيغة يصاغ فيها الأمر الجازم هى : « اعمل بحيث تستطيع أن

تجعل باعث عملك قانوناً كلياً » . أى قانوناً للإنسانية كلها . وعلى هذا النحو مضى كانط مشيداً بفكرة الواجب ، فكتب فى خاتمة كتابه « نقد العقل العملى » : « أمران لا ينفكان يثيران إعجابى : السماء ذات النجوم فوق رأسى ، والقانون الأخلاقى فى قلبى » . ولعلنا نجد أصداء عديدة لهذه الجملة فى فكر السادات وفلسفته . فعلى سبيل المثال يسأله عبد التواب عبد الحى على صفحات مجلة « الإذاعة » فى ٢٥ يوليو ١٩٥٩ عن سر الصراع فى هذه الدنيا ، سواء كان صراعاً بين الأشخاص أو بين الدول ، فيرد عليه بقوله :

« الجشع والطمع والانفعالات الدنيا . . إن الدول كالأفراد ، كل دولة تبحث عن أكثر مما تحتاج . . والصراع من أجل البقاء موجود منذ خلق الإنسان ، ولكنه انحرف عن طريقه الطبيعى . . صارع الإنسان الطبيعة من أجل القوت ، وصارع الوحوش من أجل البقاء ، وأخيراً صارع نفسه » .

ثم يسأله عبد التواب عبد الحى :

« القيم الإنسانية فى خيال الشعراء وأصحاب المبادئ كالجوهر المشع . . والحياة فى واقعها دنس وأهواء وطين . هل يستطيع الإنسان أن يحافظ على قيمه الإنسانية . . هل يستطيع الإنسان أن يحيا نظيفاً مائة فى المائة ؟ »

فيجيبه السادات بنفس النظرة الفلسفية العميقة إلى الطبيعة البشرية :

« ربما كان واقع دنيانا رهيباً وعنيفاً . . ولكن الإنسان يستطيع مع ذلك أن يقف فى وجه الشرور والانحرافات ويقاوم الإغراءات بقوة إيمانه . إن أروع لحظات يعيشها الإنسان عندما يستطيع أن يتفوق على واقعه وأن يلتصق بقيمه . . إنه يسعد لحظتها بسلام روحى يسرى فى بدنه كالخدر اللذيذ » .

وهذا الحديث يذكرنا بالرسالة التى كتبها كانط بعنوان « نحو السلام الدائم » عام ١٧٩٥ أثناء الأحداث الكبرى التى نتجت عن الثورة الفرنسية . وهذه الرسالة تنهض على قضية أولية هى أن حالة السلام بين الناس الذين يعيشون إلى جوار بعضهم البعض ليست حالة طبيعية ، بل الحالة الطبيعية هى حالة الحرب والصراع التى إن لم تكن قائمة فعلاً فهى تهدد بالنشوب باستمرار . ولهذا فلا بد من صنع السلام صنعاً والعمل على حمايته لأنه الاستثناء بينما الصراع هو القاعدة ، فالحرب ليست فى حاجة إلى العمل من أجل إشعالها بقدر ما يحتاج السلام إلى كل الجهود الجبارة والشاملة والفعالة من أجل استتبابه ، وإذا كانت الحرب قادرة على أن تشتعل فى أية لحظة لأن طبيعتها تتمشى مع طبيعة الصراع الكامنة داخل الإنسان ، فإن السلام لا يمكن أن يستتب من تلقاء نفسه إلا فى حالة القضاء التام على الأطراف الداخلة فى الصراع . وليس مجرد توقف القتال فى ذاته ضماناً لقيام حالة السلام . كما أن الحرب لا يمكن بنفسها أن تحقق السلام . ويقصد كانط هنا بالحرب ذلك النوع العدوانى الاستعمارى الذى يهدف إلى فرض السلام على الشعوب الصغيرة ، أما حرب التحرير فهى حق مكتسب لا يختلف حوله إثنان .

ويجدر بنا هنا أن نتعرض لبعض عناصر رسالة كانط « نحو السلام الدائم » وخاصة أنها تتمشى فى روحها مع ما ينادى به السادات من سلام قائم على العدل ، وحامل فى طياته كل عوامل الاستقرار . ومن أهم العناصر التى يؤكدها كانط أن معاهدة السلام لا تعد معاهدة بمعنى الكلمة إذا تضمنت ما يمكن أن يؤدى فى المستقبل إلى حرب . لأن مثل هذه المعاهدة هى مجرد هدنة ، أى مجرد توقف القتال ، ولكن السلام معناه إنتهاء كل حرب وكل ما يؤدى إلى الحرب . ولذلك فإن من أهم أخلاقيات معاهدة السلام القضاء على جميع الأسباب المؤدية إلى حرب جديدة ، فلا يجب أن يكون فى نية أحد الأطراف تلمس معاذير خفية فى بنود المعاهدة من أجل إشعال حرب جديدة ، وهذه الطريقة الخبيثة فى استنطاق البنود ما لا تدل روحها عليه طريقة مألوفة ، والشواهد التاريخية عليها لا تعد ولا تحصى . حتى فى التاريخ الحديث والمعاصر ، وسياسة إسرائيل ناطقة بهذا التلاعب الخبيث من أجل تكييف الظروف

العالمية الراهنة لصالحها ، وتفسيرها لقرار مجلس الأمن ٢٤٢ الصادر فى نوفبر ١٩٦٧ أكبر دليل على تلوين الكلمات وتغليف الألفاظ بما يتفق مع أطماعها فى المنطقة .

والعنصر الآخر فى رسالة كانط « نحو السلام الدائم » إنه لا يجوز لدولة أن تتدخل بالقوة فى نظام الحكم القائم فى دولة أخرى ، وهذا ما ينادى به السادات دائماً ، فهو – متفقاً مع كانط – لا يرى أى حق فى مثل هذا التدخل ، حتى ولو كان بسبب الفضائح التى ترتكبها الدولة المتهمة بين أبنائها . فهذه الفضائح نفسها من شأنها أن تكون درساً لها يبين لها ما يجره عملها من ويلات على المواطنين . وفضلا عن ذلك فإن هذه المخازى لن تضير الدول الأخرى ، ما دام أبناء الدولة ذات المخازى يقبلون هذه الأوضاع عن طيب خاطر . ولذلك لا يحق لدولة أنتتدخل فى شئون أخرى بحجة إنقاذ الأخيرة من الانهيار ، فإذا كان الهدف أخلاقياً فالوسيلة ليست كذلك لأنها تشكل تدخلاً بالإكراه . وأخلاقيات السياسة تحتم عدم انفصال الغاية عن الوسيلة ، لقد انتهى عصر ماكيافيللى الذى كانت الغاية فيه تبرر الوسيلة . وفى هذا يقول السادات فى افتتاح الدورة الأولى لمجلس الشعب فى ١١ نوفبر ١٩٧١ :

« إن النضال الوطنى لأى شعب يريد أن يواكب حركة التاريخ ، وتقوم مسيرته هو طريق بلا نهاية ، عليه أهداف ولكن هذه الأهداف متجددة متطورة باقية ما بقيت الحياة ، ويشجعنى على التفاؤل بخط مسيرتنا إيمانى المطلق ، بأن الوسائل جزء من الغايات ، وإننا لا نستطيع أن نتوسل إلى أشرف الأهداف إلا بأشرف الوسائل» .

والعنصر الثالث فى رسالة كانط أن القانون الدولى يجب أن ينبع من العلاقات الإنسانية بين الدول الحرة ، فالدول مثل الأفراد ، مجرد تجاورها يضرها بسبب احتمالات الاحتكاك والصراع ، ولا بد لكل فرد ، ضماناً لسلامته ، أن يقتضى من الغير أن يدخل وإياه فى نظام أخلاقى يكفل لكل منهما حقه . كذلك الدول ، يجب – ضماناً لسلامتها – أن تخلق النظام الإنسانى الذى يكفل لكل منها سلامتها . ولعل الأمم المتحدة هى الشكل الخارجى لهذه الفكرة ، والتى تحاول شعوب العالم تحويلها إلى مضمون واقعى فعال . ولكن هذا النظام الإنسانى الشامل لا يعنى أن تضحى الدول الصغيرة من حريتها واستقلالها ورفاهيتها من أجل استتبابه واستقراره . فالسلام الذى لا يقوم على العدل معناه الاستسلام ، والاستسلام بدوره لا بد أن يؤدى إلى المقاومة فالصراع فالحرب . يقول السادات فى بيانه أمام مجلس الشعب فى ٤ فبراير ١٩٧١ :

« إن الالتزام الأول لكل أمة هو التزامها تجاه حريتها فى إطار مبادئ القانون الدولى ولا يستطيع أحد أن يطلب إليها أو يفرض عليها إلتزاماً يتعارض مع هذا الالتزام المقدس ، وعلى أساسه ، فإن عليها أن تحتفظ لنفسها بحرية وحق التصرف فيما تواجهه » .

وفى بيانه فى مجلس الشعب فى ١٩ نوفبر ١٩٧٠ يؤكد السادات أن : « بالنسبة لأى وطن فإن أرضه هى عرضه ، وإذا تساهل فيها سهل الهوان . لماذا ؟ لأن المعركة هى أولى الأولويات فى مهام المرحلة وفى سبيلها كل شىء . من أجلها العمل فى الداخل ، من أجلها العمل فى الخارج ، على أساسها صداقتنا مع الأصدقاء ، وعلى أساسها عداوتنا مع الأعداء . مطالبها هى الأسبق وضروراتها قبل أى ضرورات ، وليعرف الكل على أرضنا وعلى أرض أمتنا وفى العالم كله أننا فى هذا لا نساوم ولا نتاجر ولا نزايد . نحن طلاب سلام قائم على العدل ، وفى نفس الوقت نحن أيضاً حماة سلام قائم على العدل . نحن نعطى الحياة كلها لبناء السلام القائم على العدل . ونحن على استعداد لأن نأخذ الموت دفاعاً عن السلام القائم على العدل » .

والحق كقيمة أخلاقية لا بد أن يجد من القوة ما يسانده وإلا أصبح فكرة مجردة لا وجود لها فىصراعات عالمنا المعاصر . ولذلك يقول السادات إنه من أجل استعادة الحق فلا بد من العمل على كل المستويات ، والبذل دون

حدود ، فالقوة هي اللغة الوحيدة التي يمكن لكل البشر أن يفهموها دون لبس أو سوء فهم أو سوء نية . وقد يتفق الجميع على أن الحق حق ، وأنه لا يصح إلا الصحيح ، ومع ذلك تظل اللغة العالمية المسموعة والوحيدة متمثلة فى القوة المادية ، بينما صوت الحق المجرد يخفت تدريجياً إلى درجة التلاشي وما القعقعة التى سمعها العالم فى السادس من أكتوبر المجيد سوى إعلان تاريخى بأن الحق إذا ما لبس أردية القوة المادية فلن تقف فى سبيله أية عوائق أو عقبات . والحسابات العملية والعلمية التى تهدف إلى استعادة الحق لا بد أن يكون شرطها الأول كيفية استخدام القوة المادية فى الزمان والمكان المناسبين . وكيفية الوصول بهذا الاستخدام إلى أعلى درجات الكفاءة والقدرة الفعالة . أما المطالبة بالحق عن طريق الخطب الرنانة ، والكلمات الطنانة ، والحناجر المدوية ، والهتافات المتشنجة ، والمناورات السياسية ، فكل هذا مضاد بطبيعته لمنطق الاستعادة العملية للحق المسلوب ، وأقل ما يمكن أن يقال إنه تنفيس عن الشحنات العاطفية المكبوتة حتى تضيع الدفعة النفسية للأمة إذا ما حانت ساعة العمل المصيرى . وبالتالى فإن هذا الأسلوب الصورى التقليدى أسلوب لا يلتزم بالضرورة الأخلاقية ، بل إنه مناف لها تماماً . من هنا كان تأكيد السادات فى خطابه فى افتتاح دورة المجلس الوطنى الفلسطينى فى ٢٨ فبراير ١٩٧١ على التفريق بين إطلاق الشعار وبين تحقيق الشعار . يقول :

« إن النضال بالكلمات سهل وهو مهما إدعى فى شكله عداء للثورة فى جوهره . وهذا الشعب المصرى لم يعرف فى تاريخه هذا النضال بالكلمات ولا مارسه فى يوم من الأيام والدليل على ذلك ما قدمه هذا الشعب من عطاء حقيقى للمعركة وما سوف يقدمه من عطاء حقيقى للمعركة .

وأريد أن يكون واضحاً لكم وللكل فى أمتنا أننا لسنا على استعداد اليوم أو غداً لأن نلقى بالا لأى ممن يرغب فى أن يدلى علينا بنتيجة معركة خضناها وكانت نهايتها عكس ما توقعنا . إن المناضلين الشرفاء يحاسبون بتحملهم لمسئولياتهم وبما قدموا من تضحيات لهذه المسئوليات وأما غير ذلك فله حسابات أخرى .

كذلك فإننا نقول بوضوح لكم وللكل إن جبهتنا المصرية هى الجبهة الصامدة الواقفة بكل إمكانياتها للعدو لم تناور سياسياً بما تفعل ولم تتحلل من التزاماتها فى الساحة ولم تغط العمل القليل بالكلام الطويل أو ضحالة الالتزام بطوفان من النصائح نسديها للذين يقاتلون كى تعفى نفسها من عناء القتال » .

فالمقياس الأخلاقى فى الكفاح هو العمل الفعال لأنه الشيء الوحيد الملموس الذى يمكن الحكم عليه . ويعد الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز من أبرز المفكرين المنادين بهذا المبدأ ، إذ يقرر أن القوة – إن لم تكن جوهر الحق – هى على الأقل مقياسه ، وكذلك يقول المفكر الفرنسى شارل موراس إن الأخلاق هى أسمى ما فى الطبيعة ، وهذه الأخلاق الطبيعية تدعو إلى الفضيلة الوحيدة التى هى القوة . ويؤكد لويس دينيه فكرة موراس بقوله إنه لاحق إلا لمن يفوز ، لأنه لا يفوز إلا من يستحق الفوز وكذلك يقول العالم الألمانى ماكس استرنير فى كتابه « موقف الإنسان بمفرده تجاه الملكية » ص ٤٧ :

« إن لى الحق فى القيام بعمل أى شيء أجد نفسى قادراً على القيام به ، ونفس الوضع بالنسبة للنمر الذى ينقض على فريسته ، فإن له الحق كل الحق فى هذا الانقضاض ، وعندما أقوم أنا بقتل النمر فلأننى أملك نفس الحق النابع من القوة المجردة ، إذ أن من لديه القوة لديه الحق ، وإذا لم يملك الأولى ، فلا يمكن أن يملك الثانى .

وقد يفزع هذا الكلام الأخلاقيين المثاليين ، ولكنهم يعلمون جيداً أن الحياة ما زالت تخضع لقانون الغابة ، ومن ينكر هذا فإنه يدفن رأسه فى الرمال كالنعامة ويعيش فى جنة مثالية من صنع خياله فقط ، ولكنه لن يحصل على حقه أبداً ، فمن أراد أن ينتزع حقه ، فعليه التسلح بكل عناصر القوة الممكنة ، وإلا تحتم عليه أن يلزم عقر داره

مثل العجائز والمرضى ، ومن يدرى فربما انتزعت منه داره أيضاً وأصبح شريداً ، ساعتها لن تكون المعايير الخلقية سوى أضغاث أحلام لن تمكنه من العودة إلى داره ، لأن المغتصب لا يفهم سوى لغة القوة ، وعلى صاحب الدار الأصلى أن يتحدث معه بنفس اللغة إذا صمم على استرداد داره » .

فالقوة حتمية لا مفر منها لمساندة المعايير الأخلاقية ، ولكن لا يعنى هذا أن القوة المادية العمياء يمكن أن تتحول إلى حق فى حد ذاتها ، وإلا لما كان هناك فارق بين الحيوان والإنسان . فالقوة المادية لكى ترتفع إلى مستوى الأهداف الإنسانية السامية لا بد أن تتسلح بالحق ، وأن تستعمل داخل إطار أخلاقى لا تخرج عنه ، وخاصة أن القوة غير الأخلاقية من طبيعتها أن تدمر كل شىء فى طريقها ، فإذا لم تجد ما تدمره فإنها تدمر صاحبها فى نهاية الأمر . هذا هو القانون الذى يحكم كل الطاقات المدمرة عندما لا تجد ما تدمره . والتاريخ زاخر بأمثال عديدة من هذا القبيل ، ويكفى أن نذكر هتلر على سبيل المثال . وفى ذلك يقول جان جاك روسو إن أقوى الأقوياء ليس لديه من القوة المقدار الكافى لجعله السيد الدائم ما لم يحول قوته إلى حق ، وتتحول طاعة هؤلاء الذين تحت إمرته إلى واجب يرغبون فى القيام به تجاهه من تلقاء أنفسهم . ويؤكد روسو أن القوة يجب أن تلزم حدود الوسيلة ، أما الحق فهو غاية كل نشاط إنسانى فى كل زمان ومكان ، ولذلك يقول :

« إذا افترضنا أن القوة هى التى تخلق الحق ، فالنتيجة تتبع تغيراً أو تحولا بالضرورة ، لأن كل قوة تفوق سابقتها فى حقها ، وعلى ذلك فإذا كان الإنسان فى مقدرته أن يعصى دون أن يلقى عقابه ، فمعنى هذا أن عصيانه كان مشروعاً أساساً – وبالتالى هل من الممكن تحديد مفهوم ثابت لذلك الحق الذى يزول من الوجود تماماً بمجرد زوال القوة التى تسانده ؟ أليس ذلك هو الفوضى بكل ما تحمله من معان ؟ »

وبناء على كلام جان جاك روسو فإن تحديد مفهوم ثابت للحق يجب أن يحتفظ له بصفاته المطلقة ، وخصائصه المجردة ، وميزاته الذاتية ، وملامحه المثالية ، وإلا فإن المفهوم المغاير لذلك لا بد أن يقضى على الحق كحق فى حد ذاته ، وعلى جوهره كمجموعة من القيم المثالية والمعايير الأخلاقية قد اعترفت بها الحضارة الإنسانية على مر عصورها المختلفة ، بل وقدستها التقديس اللائق بالمثاليات التى يجب ألا تمس من قريب أو بعيد ، وأن كل حق خاص يمثل قيمة من تلك القيم التى تشكل النسيج الأخلاقى المغلف للضمير الإنسانى . وبمعنى آخر فإن الحق – على حد تعبير ليتير – يمثل سلطة خلقية تحمل صفة الجبر والإلزام إذا ما تسلحت بالقوة . ولذلك فالطبيعة المجردة للحق هى فكرة أسمى من الطبيعة المادية للقوة . فالحق قيمة موضوعية فى حد ذاتها بينما القوة طاقة ذاتية لتحقيق أهداف مغايرة . والميزة المثالية التى يتألف منها الحق تتربع على عرش الضمير العام للإنسانية . ويعنى هذا أن الحق هو النتيجة الطبيعية للحكم الصادر من الضمير العام على قيم الأشياء . وعلى هذا فإن قيمة الشخصية الإنسانية مثلا لا تنبع فقط من المقومات والقدرات الذاتية للفرد ، ولكنها أضيفت إليه عن طريق الضمير العام للجماعة . وفى هذا يقول رويسين إنه لكى يكون للإنسان مفهوم محدد لفكرة الحق ، يجب ألا يحلق بين جنبات القبة السماوية الصافية مدفوعاً بمثاليات الحب النقى وحده ، وألا يهبط إلى أعمق طبقات الجحيم تحت تأثير القوة البربرية التى لا تفرق بين إنسان وحيوان ووحش .

والدليل على العلاقة العضوية بين الحق والقوة ، أن القوة حينما تنبثق عن السلطة التشريعية فى الدولة تتحول إلى مصدر من مصادر الحق الإنسانى ، ولكن هذه الدولة لا تشرع القوانين من حيث إنها مصدر السلطة والقوة ، بل لأن قوتها قد حصلت على ما يكفيها من الرضى الاجتماعى عن ذلك التشريع . والسادات يؤمن أنه إذا لم يكن فى الإمكان فصل الوسائل عن الغايات ، فإنه بالتالى يتعذر فصل القوة عن الحق ، فهما الجناحان اللذان تطير بهما

أية أمة إلى آفاق التقدم والحضارة والحياة على مستوى العصر . ولذلك فقبل أن يلجأ إلى القوة أوضح للعالم كله مراراً حقنا الذى لا جدال فيه ، حتى يدرك العالم – حينما تحين الساعة المصيرية – أن استعمالنا للقوة هو مجرد إحقاق للحق ، ووضع الأمور كما يجب أن تكون فى نصابها الأخلاقى . يقول السادات فى خطابه إلى مجلس الشعب فى ١٥ أكتوبر ١٩٧٢ :

« حين نصل أيها الإخوة والأخوات إلى هذه النقطة فى نضالنا فإننا نصل إليها واثقين أن أمتنا كلها وهى فى نفس موقفنا تماماً من الخطر تدرك تماماً أننا على حق ، كما أن العالم كله وراء أمتنا العربية يدرك هو الآخر أننا على حق . ذلك أننا لم نترك محاولة إلا وجربناها ، ولا باباً إلا وطرقناه ، ولا اقتراحاً إلا وأصغينا إليه كأحسن ما يكون الإصغاء ، راغبين بصدق فى السلام ، غير مشترطين للسلام إلا ضمانة واحدة لا يمكن بغيرها أن يكون سلام : وهى ضمانة العدل . وفى ذلك كله فلقد كنا أكثر ما نكون استجابة ومرونة لكل المتغيرات فى عالمنا .

ويشهد الله أننا بذلنا ما هو فوق طاقة البشر وتحملنا عبئاً تنوء بحمله الجبال ، ولكن أحداً فى هذه الدنيا لا يستطيع مهما بلغت قوته ومهما وصل جبروته وطغيانه ، والذى أقصده هنا هو الولايات المتحدة الأمريكية وليست إسرائيل . . أقول إن أحداً مهما بلغت قوته وجبروته وطغيانه : إن الولايات المتحدة الأمريكية مهما بلغت قوتها وجبروتها وطغيانها ، لن تستطيع أن تفرض على شعبنا خرافة سلام الأمر الواقع . إن سلام الأمر الواقع فى حقيقته استسلام ، ولن تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً بكل جبروتها وسلاحها أن تحاصر شعبنا وأمتنا باليأس ، لأننا ندرك أن اليأس فى مثل هذا الصراع الذى نخوضه اليوم هو الفناء سواء بسواء . ذلك لن يحدث ولن ترغمنا عليه أية قوة على هذه الأرض ، حتى وإن ملكت آلاف الصواريخ المحملة بالرءوس النووية وحتى إذا استطاعت أن تمشى فوق تراب القمر .

إن القوة لا تستطيع أن تقهر المبادئ مهما طال الزمن ، ثم إن العلم لا يمكن أن يتحول فى يد المتقدمين إلى سلاح إرهابى ، لأن ذلك ضد القيمة الإنسانية للعلم . . وعلى سبيل المثال إن القوة الأمريكية أمامنا فى الدنيا كلها عاجزة ، تستطيع أن تفعل ما شاءت لها غرائزها وتستطيع أن تشعل الأرض حريقاً ودماراً لكنها لا تستطيع أن تصل من ذلك كله إلى نتيجة إيجابية واحدة . إن القتال سهل ، والحريق والدمار متاح ، ولكن ما هى النتيجة الإيجابية التى وصلت إليها أمريكا فى فيتنام ؟ هل استسلم شعب فيتنام ؟ أبداً . . ما هى النتيجة الإيجابية التى وصلت إليها فى الشرق الأوسط ؟ هل قبلت شعوب الأمة العربية بالأمر الواقع ؟ أبداً ولن تقبل به ، وسوف تظل ترفضه ، وسوف يجىء يوم ليس ببعيد تعرف الولايات المتحدة أنها دخلت فى تناقض عدائى مع أمة عظمى فى سبيل حماقة أسطورية أفرزتها الدعاوى العنصرية المريضة » .

ومشكلة القوة المادية – كما يؤكد السادات فى نفس الخطاب – أنها لا تدمر فقط من يقع عليه الاعتداء ، وإنما تدمر أيضاً من يقوم بالاعتداء وربما دمرت الأخير أكثر من الناحية المادية والروحية على حد سواء لأنه لا يرى ضرورة أخلاقية تدفعه إلى القيام بمثل هذا الاعتداء الوحشى ، أما من يقع عليه الاعتداء فإنه ينهض للدفاع عن إنسانيته ، ولا توجد ضرورة أخلاقية أسمى من القيام بمثل هذه المهمة ، ولذلك فهو يملك من الشحنات الروحية والمعايير الأخلاقية ما يجعله متفوقاً على خصمه الذى لا يملك سوى القوة المادية الخالية من كل محتوى روحى أو إنسانى أو أخلاقى . وبذلك تكون القوة المادية سلاحاً ذا حدين ، والضرورة الأخلاقية هى الضمان الوحيد لاستعماله فى إطاره الإنسانى الصحيح . وهذا ما ينادى به معظم مفكرى العالم اليوم وعلى رأسهم المفكرون الأمريكيون . ولذلك يتساءل السادات فى نفس الخطاب عن المدى الذى بلغته القوة المادية الجبارة فى أمريكا فى سبيل إسعاد المواطن الأمريكى :

« هل أصبح المجتمع الأمريكى أكثر سعادة ؟ وهل انتهت مخاوف الفرد وهواجسه ؟ وهل وصل المجتمع هناك إلى الجنة الموعودة ؟ ما زال المجتمع هناك مجتمع عنف تمزقه التناقضات الحادة وتضيع منه يوماً بعد يوم هذه القيم الحضارية التى كان الظن يوماً من الأيام أنها انتقلت إليه فى دورة طبيعية من دورات التطور التاريخى . إن الحلم الأمريكى يضيع لأن العلم بغير روح لا يصبح طاقة بناءة وإنما يصبح قوة تدمير للنفس قبل أن يكون قوة تدمير للغير . إن العلم الأمريكى فى فيتنام مثلا دمر بغير حساب ، ولكن ذلك التدمير فى فيتنام بغير حساب ، دمر أيضاً فى روح الشعب الأمريكى بغير حد ولا حساب » .

ولكن لأن منطق عالمنا المعاصر هو منطق القوة ، ولأنه يتحتم علينا أن نتعامل بلغة العصر ومنطقه حيث إننا بمفردنا فى فراغ ، فقد وجب أن تساند القوة بكل أنواعها كل المبادئ التى تؤمن بها ، وكل القرارات التى تصدر عنا بحيث لا تظل حبراً على ورق . ولذلك يؤكد السادات فى بيانه إلى الأمة فى ١٦ سبتمبر ١٩٧١ أن :

« القرارات دى لن تنفذ إلا إذا كلنا اشتركنا فى تنفيذها . . مش بس اشتركنا فى تنفيذها ، وحرسنا تنفيذها ، بقينا الحراس إنها ما تنحرفش ، زى الدستور بالضبط لازم نحميه ونحرسه واحنا بنطبقه ، ما حدش يفسره أو يقوله أبداً . . بأرجع أقول قوة كل فرد فينا بتشكل فى النهاية قوة الوطن ، واحنا فى معركة ، صراع بين الحق والباطل ، حتفضل المعركة ، وطالما فيه حياة دنيا حيبقى فيه صراع بين الحق والباطل . . الباطل اليومين دول واخد شراسة ، ولجأ للكذب والخداع والتضليل . . والله تعالوا بينا نخلى للحق شراسة ، بس مش حنكدب ولا نخدع ولا نضلل . حيكون حق شرس لكن لن نكذب ولن نخدع ولن نضلل زى الباطل اللى قدامنا » .

تلك هى الضرورة الأخلاقية التى يلتزم بها السادات فى منهجه الفكرى ، فهو وإن كان يدافع عن قضية حق ومصير ، فلن يستعمل غير القوة الشريفة النابعة من الضمير المصرى الضارب جذوره فى الحضارة الإنسانية ولأن الوسيلة لا تنفصل عن الغاية ، فلم ولن نلجأ فى سياستنا إلى الكذب والخداع والتضليل ، أو نعتمد على المساومة والمناورة والتحايل . فإذا كانت هذه هى أخلاقيات السوق التجارية بما تحمله من انتهازية ونفعية وكسب مؤقت ، فإنها لا يمكن أن تكون الإطار الأخلاقى الذى تتحرك داخله قضية مصيرية يتوقف عليها مستقبل شعب بأكمله ولعدة أجيال بل وقرون قادمة . ولقد رفض السادات هذه الأخلاقيات حتى أثناء اشتغاله فى السوق التجارية ، وكان رفضه باتاً قاطعاً كما نجد فى مقالته على صفحات « الجمهورية » فى ١١ يوليو ١٩٥٤ .

« كان من سوء طالعى أن اشتغلت فى فترة من فترات حياتى فى السوق ، وكنت وقتذاك أجرى وراء لقمة العيش لى وللعيال . .

وحين أعود بذاكرتى اليوم إلى تلك الأيام وإلى من تعاملت معهم أذهل وأعجب لهذا الموكب العجيب الذى عشت فيه سنوات تعلمت فيها أن أكره السوق ومعاملات السوق وتقاليد هذا السوق . .

إننى لا أنكر أننى صادفت أناساً أطهاراً شرفاء لا زالت تربطنى بهم صداقات ومودات . . ولكننى إلى جانب هؤلاء بلوت كثيراً من ذلك الطراز الذى لا يعرف فى معاملاته إلا المساومة وإلا اللف والدوران . .

يكون حقك ظاهراً ومثبوتاً ومكتوباً ولكنك تصدم حين يجابهك ذلك الطراز الممقوت من رجال السوق بالتجاهل والإنكار والأعجب من ذلك أن هذا الطراز يؤمن فى قرارة نفسه بحقك . ويعلم تماماً ما يجب أن يؤديه ، ولكن عوامل الشره والأنانية تصور له أنه يستطيع أن يكسب منك بطول المحاورة وبكثرة المداورة ما يرضى جشعه ، ويروى أنانيته .

وكنت أفكر وأنا أتعامل مع هذا الطراز . . لا لأقنعه بوجاهة حقى وسلامة موقفى وشرف مقصدى ، وإنما كنت

أفكر كيف أستطيع أن أنبه مثل هذا المخلوق إلى أن مسلكه فى الحياة يجرده من الإنسانية ، ويجرده من الشرف ، فقد يستطيع أن يكسب بالمحاورة والمداورة دريهمات ، ولكنه سيخسر فى النهاية شرفه وضميره ، وستكون أنانيته وجشعه خير دليل لكى ينبذه الناس فلن يقبل أحد أن يتعامل معه ولن يقبل أحد أن يصادقه لأنه انحط بغرائزه إلى أسفل سافلين . .

ولم أجد إلا حلاً واحداً للتعامل مع مثل هؤلاء المخادعين هو الصمود والصمود فى قوة وراء الحق مهما كان الثمن . .

وتركت السوق إلى السياسة . . وفى السياسة صادفت هذين النوعين ، لا فى الأشخاص ولكن فى الدول . .

ألا قاتل الله أنانية السوق وأنانية الدول التى لا تعرف من الشرف إلا مناورات السوق » .

ونفس الخط الفكرى نجده فى سلوك السادات بعد إنهاء مهمة الخبراء السوفييت فى مصر فى ٨ يوليو ١٩٧٢ . يقول الزعيم فى خطابه فى افتتاح الدورة الجديدة للمؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى ٢٣ يوليو ١٩٧٢ :

« لما بدأ تنفيذ القرارات ، حرصاً منا على مشاعر صديقنا ، لما صدرت القرارات لقيت دولة أوربية بعتالى رسالة « سرى جداً ومهم » ومختومة ، جايه لى أنا شخصياً ، بقرأ الرسالة بيقولوا لى : إحنا مستعدين نتوسط بينك وبين أمريكا وإسرائيل ، هما فاهمين أننى غيرت جلدى بعد القرارات ، ما بنغيرش جلدنا ، إحنا لنا مبادئ . . هذه المبادئ هى اللى بتحكمنا مع الولايات المتحدة . . مع الاتحاد السوفييتى . . مع العالم كله . وأنا سبق قلت قبل كده : والله ذهب الولايات المتحدة كله ما يشترى مبادئنا ولا مثلنا أبداً . . إطلاقاً . . »

والمبادئ التى تحكمنا هى التى تحتم علينا الإصرار على التأصيل الفكرى ، كل قرار يجب أن يكون نابعاً من إرادتنا ومصلحتنا وواقعنا ، وأية مساومة لا تعنى سوى التفريط فى هذه المبادىء ، وبالتالى فهو تفريط فى كل مقدسات الوطن من عزم ومستقبل وتقدم . ولكن لا تعنى المبادئ الجمود والتصلب والسلبية ، بل تهدف إلى المرونة والاستيعاب والتطوير وتحويل الظروف الراهنة من ظروف معادية إلى ملائمة . وهذا هو الفارق الشاسع بين المساومة والملاءمة . وفى هذا المعنى يتكلم القائد فى ختام الدورة الأولى للمؤتمر القومى الثانى للاتحاد الاشتراكى العربى فى ٢٦ يوليو١٩٧١ فيقول :

« لكن الأزمة يجب بأى سبيل أن نخرج من هذه الحالة حالة السكون التى يحاول الأعداء تجميدها . . إننى فى هذه الفترة سوف أتحمل مسئوليتى ، والأمانة التى عهد بها الشعب إلى ، وذلك فى حدود استراتيجيتنا المعروفة التى تحددها مبادئنا الشريفة والمقدسة ، وأساسها ، ألا تفريط فى شبر من الأرض العربية ، ولا مساومة على حقوق شعب فلسطين » .

وهذه المبادئ الشريفة المقدسة ليست مجرد نصوص جامدة ، ولكنها أضواء هادية على الطريق نحو التعمير والتحرير . فعلى الرغم من أن هذه المبادئ تتمشى تماماً مع نصوص القانون الدولى ، إلا أن مجتمع الدول ليس مستعداً بهذه البساطة لتطبيقها . هنا يأتى الدور الذى يجب أن تلعبه الملاءمة فى تكييف الجو العالمى لصالح قضيتنا ، فهذا يسهل مهمة تطبيق مبادئنا إلى حد كبير فيما بعد . وهذا المنهج واضح فى خطاب القائد فى افتتاح الدورة الأولى لمجلس الشعب فى ١١ نوفمبر ١٩٧١ حين قال :

« لقد كانت معنا نصوص القانون الدولى ، ولكن تهيئة الجو لإعمال نصوص القانون كانت وسوف تظل مسألة حاسمة ، لأننا فى مجتمع الدول لا نقتضى حقنا أمام محكمة تعمل النصوص وحسب ، ولكننا لا نستطيع اقتضاء حقنا حتى وفقاً للقانون ، إلا فى جو سياسى ملائم تستطيع فيه أوسع قطاعات الرأىالعام وأهم القوى المؤثرة فيه ، أن تتفهم حقائق الصراع ودخائله » .

وإذا كان الحق فى حاجة إلى القوة لكى يخرج إلى حيز الوجود ، فهو فى حاجة أيضاً إلى المنهج العلمى الذى يوظف هذه القوة ويمنحها أكبر قدر من الطاقة والقدرة والكفاءة ، فالضرورة الأخلاقية تتحول إلى طاقة جبارة إذا ما استخدمت القوة المادية طبقاً للمنهج العلمى الملائم ، ومن هنا كانت حتمية المرونة فى تطبيق هذه المبادئ كما يقول الزعيم فى نفس الخطاب .

« كان علينا أن نحاول لأننا ونحن نواجه صراع الحياة والموت ، لا نستطيع إغفال فرصة مهما بدت ضيقة ، ولا نستطيع الإحجام عن ميدان حتى وإن بدأ أمامنا مسدوداً بالعوائق والعقبات ، هكذا فإننا أتحنا الفرصة ، واعين ومدركين لدور تقوم به أمريكا ، دعوناها أمام العالم لتحمل مسئوليتها إزاء السلام العالمى » .

وهذا يعنى أن تطبيق مبادئنا الشريفة المقدسة لا يقل أهمية عن جوهر هذه المبادئ ، لأن تنفيذ الفكرة وإخراجها إلى حيز الوجود لا يمكن أن يتنافى مع روحها ، وإلا تحولت إلى فكرة أخرى مختلفة تماماً وقد تكون مناقضة للفكرة الأصلية فى صميمها . والضرورة الأخلاقية التى لا تفرق بين الغايات والوسائل تؤكد أن التصميم والتنفيذ هما وجهان لعملة واحدة ولذلك يوضح السادات فى كتابه « يا ولدى هذا عمك جمال » الذى نشر عام ١٩٥٨ أنه لا خير فى استقلال تحصل عليه مصر عن طريق المساومة ، لأن المساومة تحمل فى طياتها شتى أنواع التنازلات المباشرة وغير المباشرة . تلك هى طبيعة المساومة وإلا لما وجدت أصلاً . ولذلك فقد رفض السادات مساومات بريطانيا على الجلاء من مصر عام ١٩٥٤ وحللها فى كتابه هذا ص ١٢٤ فقال :

« بريطانيا تؤمن بالمساومة كخلق وكمبدأ ، ونحن نرفض المساومة ونعتبرها خلقاً رديئاً لا يستقيم مع الشرف ولا مع المبادئ .

وأمر آخر .

إن بريطانيا حين تساوم فى قضية كقضية الجلاء فإنها تساوم على شىء لا يخصها ولا تملكه ، وهى مصر ، ولكن مصر حين تقبل مبدأ المساومة فإنها تكون قد أسلمت فى كل شىء ، لأن أية مساومة . . مهما كانت ضئيلة تعنى أن تعطى مصر ، وإذا أعطت مصر تكون قد جزأت سيادتها ، ولما كانت السيادة لا تتجزأ . . فإن النتيجة هى أن مصر تكون قد سلمت فى أعز شىء وهو السيادة فى الوقت الذى لم يفقد فيه الطرف الآخر شيئاً على الإطلاق لأنه – فضلاً عن تمسكه بسيادته – يفرض على بلدنا أيضاً هذه السيادة » .

وكان داء المساومة قد استشرى فى مصر قبل الثورة بتشجيع من بريطانيا حتى تختل المعايير الأخلاقية ، ولا تعد هناك ضوابط توضح للناس الفوارق بين الخطأ والصواب . وكانت ظاهرة تعدد الأحزاب تجسيداً عملياً لسوق المساومات السياسية . كل حزب يسعى للحصول على الحكم حتى يحصل بالتالى على أكبر المغانم الاقتصادية والامتيازات الطبقية الممكنة ، وفى مقابل ذلك ، استعداده التام لتقديم أكبر عدد من التنازلات الممكنة لسلطات الاحتلال حتى يضمن استمراره فى الحكم ، وبالتالى حصوله على مكاسب ومصالح أعضائه ومؤيديه والسائرين فى فلكه . ويستمر الحال على هذا المنوال حتى يبرز فى الأفق حزب آخر على استعداد لتقديم المزيد من التنازلات . وقد أدت روح المساومة التجارية إلى اندثار المبادئ الوطنية ، والمعايير الأخلاقية ، والقيم الإنسانية ، والمثل العليا تحت ركام المصالح الضيقة ، والمكاسب الشخصية ، والتطلعات الطبقية . وبذلك اختلط الحابل بالنابل ودخل المصريون فى دوامة رهيبة مركزها الخوف والطمع والجشع والتحايل والأنانية واللف والدوران والرشوة والمحسوبية والفساد . كل هذا بسبب تقاليد المساومة التى بثتها بريطانيا فى جسد مصر فسرت كالسم الزعاف عن طريق صراعات الأحزاب التى اهتمت بكل شىء ما عدا الصالح العام للأمة . ومن هنا كانت ضرورة إلغاء الأحزاب للقضاء على سوق المساومات

السياسية التى لا تعرف طريقاً إلى الأخلاق ، إذ أنها تتنافى مع طبيعتها . وفى هذا المعنى يقول السادات على صفحات « الجمهورية » فى ١٠ أبريل ١٩٥٤ :

« لقد ضربت الأحزاب بوزرائها ، ونوابها وشيوخها أسوأ مثل لما يمكن أن يكون عليه طبقة من الحكام فى شعب أعزل خدعوه باسم الديمقراطية . . وخدعوه باسم البرلمان والحياة النيابية وخدعوه باسم الحريات الزائفة ليسلبوه قوته ومعاشه ورزقه وآماله وأخلاقه . .

وعند الأخلاق سأقف كثيراً لأسأل : من منا لم يكن يشكو من الفساد ؟ من منا استطاع أن ينجز عملا أو يقضى مصلحة مشروعة من غير أن يلجأ إلى الرشوة ؟ من منا حاول أن يصل إلى الحكام ليشكو لهم مظلمة أو ليرفع إليهم أمراً ووصل إلى بغيته ؟ ألم تكن فئة السكرتاريين ومديرى المكاتب والأصهار والأصدقاء هم الآلهة من دون الله . . !

لقد أفسدت الأحزاب أخلاق هذا الشعب . . وكان هذا فى حد ذاته . وهو ما لا يمكن أن يختلف عليه اثنان فى هذا البلد ، كان هذا فى حد ذاته كفيلاً بأن يجبرنا على سوء الظن بهذه الأحزاب . . ولكن الثورة رغم ذلك وكل ذلك أحسنت الظن . .

وكان هذا فى نظرى أكبر الخطأ . . راحت الثورة تطلب إليهم أن يطهروا أنفسهم فما استجابوا » .

وبعد هذه المقالة بعشرين عاماً بالضبط ، يقول السادات فى « ورقة أكتوبر » .

« لقد ارتضى الشعب نظام تحالف قوى الشعب العامل إطاراً لحياته السياسية وإننا فى معركة البناء والتقدم لأحوج ما نكون لهذا التجمع . . ومن ثم فإننى أرفض الدعوة إلى تفتيت الوحدة الوطنية بشكل مصطنع عن طريق تكوين الأحزاب . ولكننى أيضاً لا أقبل نظرية الحزب الواحد الذى يفرض وصايته على الجماهير ويصادر حرية الرأى ويحرم الشعب عملياً من ممارسة حريته السياسية ولهذا فإننى حريص على أن يكون التحالف إطاراً صحيحاً للوحدة الوطنية تعبر عن داخله كل قوى التحالف عن مصالحها المشروعة وعن آرائها بحيث تتضح الاتجاهات التى تحظى بتأييد الأغلبية والتى يجب أن تتبناها الدولة . إن التنظيم السياسى يجب أن يكون بؤرة للحوار تنصهر فيها الأفكار المتعارضة وتتبلور الاتجاهات التى تعبر بحق عما تريده القاعدة الشعبية العريضة . إن حرب أكتوبر وما ظهر فيها من بطولات وما تأكد خلالها من معان وما برز أثناءها من قيادات شابة يجب أن تعكس روحها على بنيان التنظيم السياسى وحركته .

وبعد . . فإن الحق لا يبنى شيئاً . . ولا يجد مكاناً فى صفوف شعبنا الطيب ونحن لا نريد أن نحارب معارك فات أوانها ، وما زالت أمامنا أخطر المعارك كلها : معركة المستقبل . معركة البناء والتقدم » .

هنا يبرز الاتساق الفكرى فى فلسفة السادات الأخلاقية ، فهى فلسفة لا تتغير بتغير الظروف وخاصة أن من صفات الضرورة الأخلاقية أنها مطلقة . ولذلك فإن ما نادى به فى صدر شبابه ، وبداية كفاحه هو ما ينادى به الآن ، وهو ما أثبتته معارك أكتوبر العظيم ، وهو أيضاً ما لخصه فى خطابه فى ٢٣ يوليو ١٩٧١ بقوله : « إحنا بنبنى بالحب ، المتآمرين بيخدوا جزاءهم أمام القضاء وسيادة القانون » . فلا طريق يؤدى إلى البناء والتعمير سوى الحب ، بينما الحقد نتيجته الهدم والتدمير . تلك هى الضرورة الأخلاقية الرئيسية التى يبثها السادات فى وجدان الشعب المصرى وضميره : الحب والوفاء والصداقة والتعاون والود والتراحم والإخلاص فلا يمكن للتقدم أن يكتب لأمة ينهض بنيانها على الصراع والحقد والكراهية . ولذلك تمثل الصداقة قيمة إنسانية كبيرة بالنسبة للضرورة الأخلاقية فى فكر السادات وفلسفته . يقول على صفحات مجلة « التحرير » فى ٦ سبتمبر ١٩٥٥ :

« إن الصداقة هى أشهى ثمرة من ثمار هذه الحياة . . لا أدرى فى أى كتاب قرأت هذه العبارة ، وإنما الذى

أذكره هو أننى قرأت هذه العبارة فى ظروف كانت تمتحن فيها نفسى امتحاناً عسيراً فى هــذه الحياة ، خرجت منه – فعلاً – براحة نفسية كاملة ، وإيمان عميق بعدم وجود شىء فى الحياة يعدل الصداقة . .

وحين أقول الصداقة ، فإننى أعنى تلك المعانى السامية التى تربط بين القلوب ، وينتفى فيها – أساساً – الغرض ، لذلك كنت أغضب من كل نفسى حينما أستمع كما يستمع الناس إلى قصص هذه الحياة التى تحدثنا عن العبث بالصداقة أو الاستهانة بها بين صديقين ، تماماً كما أغضب حينما يعبث بهذه الصداقة فى المحيط الدولى وبين دولتين » .

وهذه الضرورة الأخلاقية تلعب دور النغمة الرئيسية فى كثير من كتابات السادات ، مثل اللحن الأساسى فى السيمفونية ، وهذا ليس تشبيهاً ولكنه حقيقة واقعة لأن فكر السادات كله عبارة عن سيمفونية بما يحمله من اتساق وانسجام وتناغم وتوافق وتلاحم بين أدق جزئياته ، لدرجة أنه من المستحيل أن تجرح أذنك نغمة من باب النشاز ، حتى ولو كان هذا النشاز مختفياً بين التنويعات الفرعية . وهذا يدل على وحدة نظرة السادات إلى الكون . وهنا تنتفى الضغوط الزمانية والمكانية وتحل محلها النظرية المتكاملة التى لا تعرف إلى التناقض طريقاً . ولذلك نجده يعزف نفس اللحن – ولكن بتنويعة صوفية جديدة – على صفحات « الجمهورية » فى ٣ مارس ١٩٥٤ :

« تعودت دائماً أن أختزن الألم فى نفسى حين أعانيه . . ولقد مرت بى صنوف كثيرة من هذا الألم . تألمت فى السجن لأن من حبسونى اتهمونى بأننى أتآمر على عميل من عملاء بريطانيا عدو بلادى اللدود ، فعانيت وتحملت . . . واتهمتنى رئاسة الجيش أيام فاروق أننى خنت عهد ملك بريطانيا حليف فاروق – وقتذاك – فطردت من الجيش واعتقلت ، ومرة أخرى عانيت واحتملت . . .

ولكن شيئاً واحداً عانيته ولم أستطع أن أتحمله . . ولم أستطع أن أختزنه فى نفسى ، فقد كنت أشعر أنه إذا ما استقر فيها لا بد أن يطمس جمالها ، وأن يعكر صفاءها ، وأن يزلزل فيها الهدوء واليقين . ذلك الشىء يا أخى هو خيانة الصديق . . أو الزميل . . .

ولقد فتحت لى الآلام التى اختزنتها من داخل نفسى باباً مشرقاً رائعاً هو التأمل . . تأملت فى هذا الخلق . . يحبون ويكرهون . . يفرحون ويألمون . . ويؤمنون وينكرون . .

واليوم ، وأنا أتذكر كل هذا أحس فى نفسى نشوة رائعة حبيبة . . نشوة أجمل من الحب . . . وأعظم من الفرح . . نشوة لا تعرف الكراهية . . ولا تأبه للألم . . لعلها بدء المعرفة . . »

والصداقة – كضرورة أخلاقية – لا تعنى فقدان المعايير الموضوعية والحكم على كل ما يفعله الصديق بأنه صواب . بل إن الصداقة الحقة تحتم الصدق الموضوعى مع الصديق قبل أى اعتبار آخر ، ولو أثارت هذه الموضوعية غضب الصديق لما استحق هذه الصداقة أصلا ، فالصداقة لا تعنى الزيف والبهتان والخداع والتضليل والتحايل ، بل تعنى مواجهة الحقائق مهما كانت مرة ، ثم إصلاحها فى صدق وإخلاص . ولقد بذل السادات كل ما فى وسعه لإرساء تقاليد هذه الضرورة الأخلاقية عندما تصدى لإنشاء دار « الجمهورية » للصحافة فى أواخر عام ١٩٥٣ . فقد كتب فى جريدة « الجمهورية » فى ٧ ديسمبر ١٩٥٤ مقالة طويلة بمناسبة مرور عام على تأسيس « الجمهورية » ، وكان عنوان المقالة « الصداقة شىء . . والعمل شىء آخر » وفيها يحكى عن صراعه فى الدوامة الرهيبة لمعركة صحافة الثـورة مع القيم البالية والرواسب المتعفنة التى رسخت منذ صحافة العهود السابقة التى كانت تؤجر للحزب الذى يدفع أكثر . يقص علينا السادات تفاصيل الصراع فيقول :

« جاءت عملية ترشيح المحررين . . وكانت مأساة ! ! فكلما رشح لى البعض أسماء معينة ، أبدأ فى السؤال عن أصحابها ، فأسمع بعد السؤال طعناً شديداً فى أصحاب هذه الأسماء . . كان يرشح مثلا خمسة . . فأسمع طعنا فى

أربعة ، وفى اليوم الثالى أسمع طعناً فى ثلاثة . . ثم فى اثنين . .

وعرفت حقيقة مخزية ، عرفت أن كل إنسان منهم يكره الآخر ، وإن لم يكن يعرفه ! ! المسألة كانت محنة أخلاقية تمر بها صاحبة الجلالة . ! ولم أكن أدرى فى تلك الأيام . . هل المسألة هى أننا نكره الخير لبعضنا أم المسألة أعمق من هذا ؟ ! على أى حال لقد استمعت إلى آراء كثيرة فى أناس كثيرين ولم تكن كلها صحيحة أولوجه الله ! !

وكانت أسرة التحرير فى أثناء تلك العمليات المتشابكة المعقدة العديدة تكبر ويزداد عدد أفرادها . . وعندما بدأت نعد التجارب أى « البروفات » اكتشفت مسألة خطيرة تتصل بعلاقات الزملاء بعضهم ببعض . . فهذا لا يحب ذاك . . والثانى لا يستلطف دم الثالث ، وجعلت من مسألة تسوية الخلافات بين أفراد أسرة التحرير جزءاً من عملية إعداد الجهاز الكبير .

لكن تبين لى أن بعض المحررين – وكانوا من أصدقائى – قد فهموا أن أنور السادات – صديقهم – يجب أن يضعهم فوق رأس الجميع . . وكانوا مخطئين . ! ولكى لا تحدث « مأساة » تؤثر فى سير العمل اضطررت إلى الضرب بشدة ، وبقسوة لكى أثبت للزملاء جميعاً أن الصداقة شىء . . والعمل شىء آخر . . فأنت صديقى وهذا شىء لا خلاف عليه ولا أنكره . . أما أنك تملك كفاءات لا وجود لها عند الآخرين ، فذلك يحتاج منك إلى دليل والصداقة ليست دليلا على الكفاءة !

وهكذا كان موقفى مع أصدقائى ، كان حتماً على أن أعطيهم درساً ما كان أغناهم عنه ، لو كانوا قد آمنوا بالعمل ، لا بالعواطف ! ! وتخلصنا من مأساة العواطف » . .

فالتوازن بين العقل والعاطفة ضرورة يحتمها النضج الفكرى للإنسان . فالصداقة وإن كانت فى أساسها عاطفة من أسمى العواطف الإنسانية ، إلا أنها فى حاجة إلى سياج عقلى يحميها من شطحات العاطفة ، ولعل المقاييس الموضوعية خير حماية للصداقة الحقة القادرة على اجتياز اختبار الزمن ، وفى نفس الوقت فإن الصداقة تستطيع أن تمنح هذه المقاييس الموضوعية الكثير من العلاقات الإنسانية واللمحات الخصبة التى تحيل جفاف العمل وصرامته إلى متعة يشارك فيها كل الأصدقاء أو الزملاء ، وبذلك يزداد الإنتاج بازدياد روابط الصداقة ومتانتها . وفى كتابه « قصة الثورة كاملة » يطبق السادات هذا المعيار الموضوعى للصداقة على الضباط الأحرار فى تخطيطهم للثورة وفى القيام بها ، وذلك ص١٩٠ حيث يقول :

« وقد اضطلع بقيادة هذه الثورة لفيف من أبناء مصر ، عاشوا سنوات عديدة قبل الثورة وبعدها ، مجتمعين تحت راية المبادئ السامية التى أعلنوا عنها منذ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وما زالوا يلتفون حولها ، ويضعونها موضع التنفيذ فى عزم وتصميم وإيمان ، وقد تبينت متانة الرابطة التى جمعت بين هؤلاء الثوار حينما دقت الساعة وحانت اللحظة الحاسمة التى تعرضوا فيها للمحنة الفاصلة بين النجاح والفشل ، أو بعبارة أخرى بين انتصار المبادئ وأعواد المشانق ، فكانت وقفتهم المجيدة صفاً واحداً ، وكتلة متراصة هى حجر الزاوية فما حققوا لبلادهم من عزة ومجد .

لقد اجتمعوا إذن على مبادئ لا علاقة لها بالأشخاص ، ولا صلة لها بالرابطة التى كانت تجمع الأحزاب المنحلة البائدة ، رابطة الغنائم والأسلاب . ومثل هذه الرابطة ، رابطة المبادئ المجردة من المطامع والأسلاب ، لا يسهل فكها ولا يمكن أن تنفصم . وليس من الميسور ولا من الممكن أن تنقطع أواصر العلاقات الشخصية التى تقوم على هذه الرابطة النبيلة ، مهما يحدث من خلاف أو تعارض بين وجهات النظر ، وذلك لأن جوهر الخلاف لا يتعلق بنزاع على مغنم ، أو تهافت على منصب .

قد يحدث ، بل لا بد أن يحدث بين أفراد أية جماعة من الناس ، تباين فى زوايا النظر إلى مسألة معينة أو أكثر

ولكن هذا التباين بين أفراد وحدت بينهم المبادئ السامية لا يمكن أن يفض ما بينهم من رباط مقدس ، فهذا الرباط هو الجوهر النقي الطاهر الذى لا تنفصم عروته ، وأما الخلاف ، وتباين وجهات النظر فهو عرض لا يمكن أن ينال من روعة الجوهر .

على ضوء هذا التحليل الواقعي الواضح ، يجب أن يطبق الناس مقاييس جديدة فى الحكم على تطور الحوادث فى عهد الثورة ، وقد انتهى الزمن الذى كانت فيه الاعتبارات الشخصية ، والمنافسات الحزبية هى المقياس أو المفتاح الذى يفسر مظاهر الوحدة والخلاف بين المسئولين عن مصائر البلاد .

إن كل فرد فى هذا العهد الثائر لا يشغل نفسه ولا يشغل الرأى العام بالمكان الذى يحتله ، والمغنم الذى يكسبه والصف الذى يوضع فيه ، وإنما يقف وقفة الجندى الذى يؤدى واجبه أيا كان مكانه بين الجنود العاملين .

وهذا مقياس آخر لم يكن له وجود فيما مضى من عهود الحكم ، ولكنه أحد المقاييس التى لا يصلح سواها للحكم على الأشياء والأحداث فى هذه الأيام » .

وإذا كانت المبادئ الموضوعية تعتمد فى أساسها على العقل ، فإن الصداقة الأصيلة تنهض على العاطفة والعقل فى آن واحد ، ومن هنا كانت الصداقة الضمان الرئيسى للحفاظ على أواصر العلاقة بين الزملاء إذا حدث اختلاف فى الرأى حول المبادئ . ولذلك يقول السادات فى « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » بجريدة « الجمهورية » فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٣ :

« قد يجتمع الناس حول مبادئ . . حول نظريات يقرءونها ، ويعتنقونها أو أفكار يبشر بها دعاتها . . وقد يبلغ بهم الاقتناع المبادئ والنظريات والأفكار غايته ، ويبلغ بهم التعصب لها ذروته ، وما بعد الذروة إن صح هذا القول . . ولكن هذه المبادئ والنظريات قد تتعرض للجدل فتتعرض الجماعة للانقسام ، وقد يتفاقم الجدل ، فينحرف عن الآراء إلى أصحابها وتبرز الأشخاص وتختفى الآراء ، وتتلاعب أهواء النفوس . . ثم تنهار الجماعة وما اجتمعت عليه » .

هنا يبرز رباط القلوب وقيمته فى الحفاظ على رباط العقول من أن ينفصم ، لأن الصداقة تمنح بعداً آخر للتفاهم وتعمقه ، فالأصدقاء خير من يفهم بعضهم البعض بحكم التوافق فى المشاعر والأهداف والحرص على أواصر هذه الصداقة من أن تنفصم ، لأن من السهل على الإنسان أن يتخلص من الرابطة العقلية ولكنه من الصعب عليه أن يتخلص من العلاقة العاطفية المترسبة فى الوجدان والشعور ، وعلى هذا يستأنف السادات حديثه فيقول :

ولست أكتب هذا غضاً من قيمة المبادئ والنظريات ، فما استحق الحياة من لا مبدأ له يعيش من أجله . . ولكننى فقط أرى أن المبادئ وحدها لا تكفى لأن الرباط الذى يربط العقول ، لا يستطيع دائماً أن يربط القلوب ، وأن يذيب الهوى ويقتل الأطماع » .

والصداقة – فى رأى السادات – ضرورة أخلاقية يجب التأكيد عليها دائماً ليس فقط بين الأصدقاء ولكن على جميع المستويات فى المجتمع فإن وجودها سيشغل فراغاً من المحتمل أن يزخر بالسلبيات والمؤامرات والدسائس فى حالة غيابها . فإذا كانت علاقة العقول ترتبط بالمصلحة وما ينتج عنها من ذاتية قد تبلغ حد الأنانية ، فإن صداقة القلوب يمكن أن تحد من أثرة الأنا وأنانية الذات بحيث يستطيع الإنسان أن يخرج من ذاته ويرى الأشياء بموضوعية أكثر وأعمق . وهذه الموضوعية هى الشرط الأول والرئيسى لتقدم الأمة بصفة عامة ، واليوم الذى ينظر فيه كل مواطن إلى زميله فى نفس الوطن على أنه صديق وأخ حتى بدون أن يعرفه شخصياً ، هذا اليوم سيكون بمثابة فجر التقدم الحضارى الحقيقى . وفى هذا المعنى كتب السادات فى جريدة « الجمهورية » بتاريخ ٣١ يناير ١٩٥٤ فقال :

« الأمر الذى يجب أن نؤمن به جميعاً هو أنه لا بد وأن يحدث التقدم فعلاً فى كل شأن من شئون حياتنا ، سواء كان داخل الأسرة ، أو داخل النطاق الأكبر فى أسرة الوطن .

والتقدم لا يمكن أن يتم – بل هو مستحيل – بلا تغيير شامل فى كل ناحية ، وأساسه أولا وقبل كل شىء تغيير طريقة تفكيرنا ، فإذا لم نستطع أن نغير فى أفكارنا ، فإننا لن نستطيع أن نغير أى شىء آخر . .

ولقد عشنا دهراً طويلاً لا نفكر إلا فى أشخاصنا ، وأصبح كل مواطن لا يحدد مكانه من هذا الوطن إلا بمقدار ما يستفيده هو لنفسه أو لأهله أو لمحسوبيه ، وبذلك انعدمت الرابطة الوطنية وتفرقنا شيعاً وأحزاباً . .

أما اليوم فإن التطور يحتم علينا أن نعود إلى الحظيرة من جديد . . وواهم ذلك الذى يتصور أن القوة هى سبيل العودة إلى هذه الحظيرة وواهم أيضاً الذى يتصور أن سبيل هذه الثورة فى إعادة بناء الوطن هى القوة ، فإن الوسيلة الصحيحة التى نادينا وننادى بها منذ قيام هذه الثورة هى التغيير فى سبيل التقدم ، مهما كلفنا هذا التغيير من جهد أو مغالبة لما اعتدنا عليه فى الماضى . .

نحن فى حاجة لأن نؤمن أن بناء وطن على أسس جديدة لا بد أن يتطلب من كل فرد منا تضحية لم نكن نقدمها أو نقبل عليها فى الماضى ، وتهون علينا هذه التضحية إذا علم كل فرد أن حرباً شعواء يقوم بها المستعمرون فى سبيل تعويق بناء الوطن » .

والدليل على أصالة هذا المنهج الفكرى ، أن هذا الكلام الذى كتبه السادات منذ أكثر من عشرين عاماً يبدو وكأنه كتب بالأمس فقط ، فهو يتناول فيه مشكلات الشعب المصرى وضروراته الأخلاقية ، التى لم تقنن بعد تقنينا علمياً نظراً للظروف الصعبة التى مرت بها مصر ، والضغوط الخارجية الرهيبة التى عملت كل ما فى إمكانها لتعويق بناء الوطن . وإذا كنا نريد أن نرسخ قيمنا الأخلاقية ومثلنا العليا فيجب أن ندرك جيداً أن القوة لا يمكن أن تكون الطريق السوى للقيام بهذه المهمة . ولكن الطريق الوحيد هو التأصيل الفكرى الذى يشترط التخلص من الرواسب القديمة ، والأوحال التى طغت على الجوهر الأصيل لهذا الشعب . ولعل روعة السادس من أكتوبر العظيم تكمن فى أنه كان البشير الذى أعلن بداية التخلص من هذه الرواسب والأوحال ، وبروز المعدن الحقيقى للإنسان المصرى ، ولم يكن صبره ، ذلك التواكل الذى اجتهد الأعداء على إلصاقه به ، سوى التصميم والإيمان المطلق بالتغيير الذى يجب أن يحدث فى وقته المناسب بصرف النظر عن كل الضغوط والحملات التى تحاول التأثير بهدف التشويش والتشتيت حتى يضيع الجهد والتوقيت وتطيش الخطط والاستعدادات . ومن هنا كان تعبير السادات المشهور والذى ينادى بضرورة التحلى « بصبر المؤمن وصمت الواثق » ، فالصبر والإيمان والصمت والثقة ، كلها ضرورات أخلاقية لا يمكن أن يستمر بدونها البناء الحضارى للأمة ، ولذلك يقول السادات فى نفس المقالة السابقة :

« إن معارك الحرية لا بد لها من وقت ، ولا بد من صبر مدعم بالتصميم . . ولكن لن يجدى هذا الوقت ، وذلك الصبر والتصميم إذا لم نؤمن بالتغيير فى سبيل التقدم . . تغيير جوهرى فى أفكارنا أولا . . »

والصداقة خير وسيلة لإمدادنا بالزاد المعنوى والمادى لإحداث التغيير الجوهرى سواء فى منهجنا الفكرى أو فى واقعنا المادى ، والصداقة إذا كانت ضرورة أخلاقية تحتمها شروط المواطنة فى الداخل ، فهى ضرورة أخلاقية بنفس الدرجة على المستوى الخارجى فى العلاقات بين الدول . وكانت صداقتنا مع أكبر عدد من الدول سنداً كبيراً فى معارك أكتوبر المجيدة . والوفاء – كضرورة أخلاقية أيضاً – يحتم علينا أن نرد هذه الصداقة بأحسن منها ، ولذلك فالصداقة ليست مجرد علاقة مصلحة مرحلية ولكنها مبدأ أخلاقى ثابت لا يتأثر بمرور الأيام وتغير الظروف . ومن هنا كان خطاب السادات فى مجلس الشعب فى ٢ يونيو ١٩٧١ حين أكد على :

« إن الصداقة مع الذين يساعدوننا – ولا يساعدنا غيرهم على القتال وعلى النصر ليست صداقة مرحلة وليست تكتيكاً . إن الصداقة مع الذين يساعدوننا على النصر والبناء ، على بناء اقتصادنا وبناء دولتنا العصرية الحديثة ليست صداقة مرحلة وليست تكتيكاً . . . وإنما هى صداقة كل المراحل . . . هى استراتيجية ثابتة .

إننا نفعل ذلك من موقع الاستقلال الوطنى . ونفعله من موقع الإرادة الوطنية . لأنه لا يمكن أن يكون هناك استقلال مع احتلال أراضينا ولا يمكن أن تكون هناك إرادة مع التخلف » .

والوفاء من الضرورات الأخلاقية التى يركز عليها السادات فى منهجه للتأصيل الفكرى ، سواء على المستوى الشخصى البحت أو على المستوى الدولى العام . وكان تركيزه هذا نتيجة لإيمانه الشديد بأن الوفاء من أبرز خصائص الشخصية المصرية ، وإن كان يختفى تحت السطح فى بعض الأحيان فبفعل الضغوط العابرة والظروف المؤقتة ، ولكنه سرعان ما يبرز ويعود إلى سيطرته على الأخلاقيات المصرية . والسادات عندما ينادى بالوفاء ، لا يفعل هذا من باب الحض على الأخلاق الحميدة ، ولكنه يفعله بضرب المثل العملى فى أخطر اللحظات المصيرية التى يمر بها الوطن ، ولم يكن قراره التاريخى الذى بدأ تنفيذه ظهر السادس من أكتوبر العظيم سوى من باب الوفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه أمام الله والشعب . يقول فى خطابه فى افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب فى ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ :

« فيما يتعلق بنفسى فقد حاولت أن أفى بما عاهدت الله وعاهدتكم عليه حاولت أن أفى بما عاهدت الله وعاهدتكم عليه قبل ثلاث سنوات بالضبط من هذا اليوم ، عاهدت الله وعاهدتكم على أن قضية تحرير التراب الوطنى والقومى ، هى التكليف الأول الذى حملته ولاء لشعبنا وللأمة ، عاهدت الله وعاهدتكم على أنى لن أدخر جهداً ، ولن أتردد دون تضحية مهما كلفتنى فى سبيل أن تصل الأمة إلى وضع تكون فيه قادرة على دفع إرادتها إلى مستوى أمانيها ، ذلك أن اعتقادنا دائماً كان ولا يزال أن التمنى بلا إرادة نوع من أحلام اليقظة ، يرفض حبى وولائى لهذا الوطن أن نقع فى سرابه أو فى ضبابه » .

أما عن الوفاء للأصدقاء فيقول السادات فى ختام خطابه التاريخى :

« هـذه ساعات نعرف فيها أنفسنا ونعرف فيها الأصدقاء ونعرف فيها الأعداء ، ولقد عرفنا أنفسنا ولقد عرفنا أصدقاءنا وكانوا بأصدق وأخلص ما نطلب من الأصدقاء ، ولقد كنا نعرف عدونا دائماً ، ولسنا نريد أن نزيد من أعدائنا بل إننا لنوجه الكلمة بعد الكلمة ، والتنبيه بعد التنبيه ، والتحذير بعد التحذير ، لكى نعطى للجميع فرصة يراجعون ولعلهم يتراجعون . لكننا بعون الله قادرون بعد الكلمة ، وبعد التنبيه ، وبعد التحذير ، أن نوجه الضربة ، ولسوف نعرف متى وأين وكيف إذا أرادوا التصاعد فيما يفعلون ، الأمة العربية كلها . وأسمح لنفسى ان أعبر عنها ، لن تنسى مواقف هـذه الساعات . إن الأمة العربية لم تنس أصـدقاء هذه الساعات الذين يقفون معها . ولن تنسى أعداء هذه الساعات الذين يقفون مع عدونا » .

لم ينس السادات معنى الوفاء ، ودلالة الصداقة فى أخطر الساعات المصيرية التى مرت بها الأمة العربية ، بل إنه رأى فى الوفاء والصداقة امتداداً لنفس القيم المثالية والضرورات الأخلاقية التى كان جنودنا وشهداؤنا الأطهار يسجلونها فى نفس اللحظة بحروف من نار ونور ودم على رمال سيناء ، وذلك بتلقين العدو الدرس الأخلاقى تلو الآخر ، فقد أثبتوا للعالم أنهم لم ولن يسمحوا لهذه المنطقة الخطيرة والحيوية من العالم أن تتحول إلى أدغال يحكمها قانون الغابة اللاأخلاقى . ولأن الجانب الأخلاقى لحرب أكتوبر المجيدة كان واضحا وضوح الشمس ، فلم نجد من يجرؤ على اتهامنا بانتهاك المعايير الإنسانية .

والوفاء – من القيم الأخلاقية – أيضا – التى يقدرها السادات على المستوى الفردى كما يقدرها على المستوى

العالمى ، ذلك لأنه يعتقد أن الضرورات الأخلاقية لا يمكن أن تتجزأ بل تسرى فى نسيج النفس الإنسانية ، أو على الأقل يجب أن تسرى بنفس الدرجة من أصغر جزء إلى أكبر جزء فيها ، فلا يمكن أن تتصور ضرورة أخلاقية مطبقة فى ناحية معينة من الحياة وغير مطبقة على ناحية أخرى ، إذ أن أهم خصائص الضرورات الأخلاقية تكمن فى صفاتها المطلقة . فمن الدرس الأخلاقى الكبير الذى تمثل فى حرب أكتوبر إلى هذه اللمحة الأخلاقية السامية التى يسجلها السادات على صفحات « الجمهورية » فى ٩ يوليو ١٩٥٤ :

« يطوف بكل إنسان منا فى هذه الحياة طائف رقيق يحمل لنا ولو لبضع لحظات أشهى وأجمل ما يمكن أن يتمتع به الإنسان على ظهر هذه الدنيا الصاخبة . . .

ولقد مر بى اليوم هذا الطائف ، وأنا أقرأ خطاباً لفتاة لا أحسب إلا أنها ملاك كريم ، تحمل روحها أصفى وأنبل الإحساسات فى هذا العالم الشرير . استمع معى لها وهى تروى فى بساطة وقوة قصة الإخلاص والوفاء والدموع :

« إنه قريب لى وقد أحببته وكنا نمنى أنفسنا بحياة رغدة هانئة فى ظلال وارفة من السعادة صنعناها لأنفسنا . . كان مجداً يا سيدى ومحافظاً على الأولوية طوال سنى دراسته وفوق كل هذا يمتاز بالإيمان العميق والخلق المتين . إلى أن كان ذلك الحادث الذى أرفقت البيان عنه والذى انتهى ببتر عضو من جسده ، فحطمته هذه الكارثة وفكرت أن أساعده . . والحقيقة أننى فكرت طويلا . . . استشرت كل مخلوق ولكن المساعدة التى قدموها لى كانت أن يصبر . . ويصبر . .

سيدى . . . إننى لن أتخلى عنه برغم هؤلاء الذئاب من العرسان الذين اندفعوا كالسيل بعد حادثته وسأقف إلى جانبه لأدفع عنه ما ينغصه من شقاء هذه الحياة مهما كلفنى الثمن . .

لقد دافعت عنك يوماً يا سيدى . . فهل لك فى أن تساعدنى بأن تشجعه وتنفخ فى روح إنسان يحمل قلباً ذكياً كبيراً . . . إنى أخاطب منك أعماق نفسك ، وإيمانك فهل تستجيب ؟ » . .

ولقد استجبت يا فتاتى ، ليس لأنك دافعت عنى ، وإنما لهذا الينبوع الصافى من الوفاء الذى تفيض به نفسك . . وثقى أن أحداً لن يستطيع أن يتجاهل هذا الوفاء إلا إذا كان قد تجرد من الحس والشرف والوفاء » .

ويرى السادات أن النفس التى فقدت كل معانى الوفاء ، قد جنت على نفسها قبل أن تجنى على الآخرين . ولذلك كان السادات يجد نفسه دائماً فى الوفاء لزملائه حتى فى أصعب الظروف وأقساها ، فمثلا كان كامل القاويش حريصاً على مهاجمة بيته أثناء نزوله المعتقل أكثر من مرة بسبب إصراره على الكفاح الوطنى مهما كان الثمن الذى يدفعه ، وكان هدف كامل القاويش العثور على الرسائل السرية التى كان السادات يرسلها مع ملابسه للتنظيف ، وبالطبع فإن أسرته تعرضت للكثير من الإرهاب . وقد نجح السادات فى الهروب من المعتقل أكثر من مرة بفضل مساعدة أصدقائه له وذلك بإمداده بما يحتاجه من الأدوات البسيطة التى تساعده على ذلك ، وذات مرة هرب من المعتقل ولكنه عاد إليه من تلقاء نفسه ، بعد أن أخبره أحد كبار رجال الشرطة بالتعذيب الذى يوقع عليه وعلى زملائه من المعتقلين . ويستشهد حمدى لطفى فى كتابه « أنور السادات . قصة إيمان بالعسكرية المصرية » بكلام العميد أحمد نور الدين عن وفاء السادات ، فيقول ص ٧٦ :

« قبل الثورة ، وأيام كان مطارداً ، كان هو الذى يبحث عنا ليطمئن علينا ، إن لم يكن بالاتصال الشخصى — فعن طريق البريد ، وكان هذا الاهتمام بنا وهو الذى يطارد من الاستعمار والسراى الملكية ، يترك فينا أكبر الأثر ، ولذلك كنا حين نجتمع كل عام كدفعة واحدة ، نتحدث عنه ونبحث عنه ونبحث فيما يستطيع كل منا أن نعاون به حتى عاد إلى الجيش ، فأخذنا نجتمع فى بيته ، وحتى قيام الثورة وطوال خمسة عشر عاماً ، بعد ذلك كان لقاؤنا

السنوى فى بيته ، وفى ظل رعايته ووفائه » .

والوفاء – فى نظر السادات – ليس قيمة مثالية مجردة ولكنه طاقة عملية جبارة لا تستطيع أية عقبة أن تقف فى طريقها ، إذا وجدت التنفيس الصحيح عنها . ولم يكن انتصارنا الباهر فى أكتوبر العظيم سوى النتيجة المباشرة لوفائنا لمصر ولكرامة مصر . ومن هنا تبرز حتمية الوفاء تجاه الذين دفعوا ثمن الوفاء لمصر ، وبالتالى يتضح المعنى الكبير الذى يكمن وراء مشروع الوفاء والأمل ، فهو ليس مجرد مدينة سكنية كرد لجميل الأبطال فى عنق مصر ، ولكنه ترسيخ لأبرز خصائص الشخصية المصرية الأصيلة بما تحمله من وفاء وحب ورعاية وتقدير وعرفان بالجميل . ولعل خلود الشخصية المصرية كظاهرة متميزة على مر الدهور والعصور يرجع إلا أنها لم تعرف الطريق إلى العقوق والنكران وبقية الخصائص التى تدمر الإنسان من الداخل قبل أن تقضى عليه من الخارج . ورأى السادات على صفحات « الجمهورية » فى ٥ أغسطس ١٩٥٤ خير تحليل لهذه الخصائص المدمرة :

« إن أية نفس بشرية عرضة دائماً لكى تنتابها الانفعالات أو الأزمات وخاصة فى مثل هذا العصر المادى الذى نعيش فيه . . . وكل هذه الانفعالات أو الأزمات يسهل علاجها ، بل كثيراً ما يداويها مرور الزمن من تلقاء نفسه إلا نفساً واحدة . . . تلك التى لن يفتح الله عليها بالخير أبداً أو يلهمها الله الصواب أبداً لأنها اسودت بظلال البغضاء ، وتشبعت بداء الحقد الكريه . . . هذه النفس عبث أن نقيم لها وزناً لأنك حتى وأنت تسدى إليها المعروف فلن تجيبك إلا بالعقـــوق والنكران ، فهى دائماً تأكل ذاتها داخل ذاتها من أجل الغرض الدنيوى الشخصى . . . »

ولذلك يقول السادات وهو يسلم الأوسمة لأبطال أكتوبر الجرحى فى ٩ مايو ١٩٧٤ :

« وأنتم بالاشتراك مع إخوة لكم فى القوات المسلحة السورية قد دفعتم ضريبة الدم نيابة عن الأمة العربية كلها ، فارتفع بكم رأسها وزادت بكم مكانتها ووجدت على وهج تضحياتكم مكانها العزيز تحت الشمس ، بل إن العالم كله يدرك أبعاد ما حققتم . قبل أن آتى إليكم كنت أقرأ بالصدفة التقرير السنوى لمعهد الدراسات الاستراتيجية الدولية فى لندن . هذا التقرير الذى يصدر غداً يقول :

إن حرب أكتوبر بسلاحيها العسكرى والبترولى قد جعلت من العرب قوة سادسة فى العالم بعد أمريكا وروسيا والصين واليابان وكتلة أوربـا الغربية . ويقول أيضاً هذا التقرير إن حرب أكتوبر جعلت بقاء إسرائيل فى أية أرض عربية ترفا باهظ الثمن لن تقدر عليه بعد اليوم أبداً .

أيها الأبناء والأبطال . . أريدكم أن تعرفوا جميعاً أنكم أبناء لكل أم وأب ، وإخوة لكل شاب وشابة ومثل أعلى لكل طفلة وطفل فى هذا البلد أريدكم أن تعرفوا أن شعبكم لن ينسى جميلكم عليه أبداً » .

هكذا نرى أن الضرورة الأخلاقية بكل جوانبها المختلفة تشكل عنصراً حيوياً فى منهج السادات للتأصيل الفكرى . ففى كل كتاباته من مؤلفات ومقالات وأبحاث وخطب وأحاديث تبرز هذه الضرورة كنغمة أساسية سواء كان يعالج موضوعاً سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو علمياً أو تاريخيا أو عسكريا . . . . إلخ ، ولم تقتصر الضرورة الأخلاقية على المنهج الفكرى بصفة عامة ، ولكنها تجسدت فى سلوكه وضربه المثل الأعلى لكل أبناء مصر حتى يكتشفوا الطريق القويم الذى يتحتم عليهم السير فيه . بل إن السادات كثيراً ما وضع مقالاته تحت العناوين التى تعبر عن الدرس الأخلاقى أو العبرة الإنسانية . . . . إلخ لكى يوضح للقارئ أن الأمر ليس مجرد معالجة عابرة لموضوع سياسى معين ، ولكنه اختراق للضرورة الأخلاقية التى تكمن وراء هذا الموضوع وتقييمها التقييم الموضوعى اللازم . ولذلك لم يشعر القارئ أن المقتطفات التى قمنا باقتطافها من مقالاته منذ حوالى ربع قرن ، لم يشعر بأنها مجرد آراء

قديمة تدرس لقيمتها التاريخية البحتة ، ولكنه أحس أنها تعالج النفس الإنسانية فى أخلد خصائصها ، ولذلك فهى تصلح لكل زمان ومكان .

ولعل الصدق مع النفس ، والإصرار على الحق مهما كانت النتائج ، ووضوح الرؤية ، وعدم التأثر بالظروف العابرة ، كل هذا منح فكر السادات موضوعيته المميزة وصلابته التى تخترق المظهر دائماً بحثا عن الجوهر ، ومن هنا كان الاتساق الفلسفى الذى يميز نظرته إلى الكون منذ بدأ يكون لنفسه النظرة الخاصة به ، ولذلك تحولت النظرة الخاصة إلى النظرية العامة التى تصلح منهجا للتقدم الحضارى بصرف النظر عن الظروف الطارئة ، والأحوال المتغيرة ، فالنظرية تملك من المرونة ما يمكنها من استيعاب المتغيرات وإدخالها مع الثوابت فى نسيج عضوى لا يعرف الانفصام ، والصدق مع النفس من أهم شروط النظرية الأخلاقية المتكاملة ، لأنه يعنى الاتساق الفكرى ، وعدم الفصل بين الأقوال والأعمال ، ومقاومة الظروف الطارئة التى ترغم الإنسان أحياناً على التحول عن الطريق الصحيح ، واحترام الإنسان وإدراك أبعاده بصفة عامة من خلال احترام الذات وفهمها موضوعياً بصفة خاصة . ولذلك يقول السادات مخاطبا ابنه جمال فى كتابه : « يا ولدى هذا عمك جمال » ص ٦٤ :

« إن ما يعنينى هو أن أحكى لك نفسى كما تعودت أن أحكيها لكل من يقرأ لى سطوراً أو كلمات . . والعبرة عندى أن ألتزم حدود ما أحسه ، وينفعل به ضميرى ، من غير أن ألجأ إلى التزويق أو الافتعال .

أن أروع متعة يا بنى فى هذه الحياة . . هى أن تكون صادقا مع نفسك دائماً . .

بهذا الصدق لن تعرف نفسك العقد أو الأزمات ، التى أعترف لك أننى تعرضت لها فى حقبة من حياتى بعد الثورة . . وانتصرت عليها وأنا أستقبلها فى هذه الدنيا أثناء العدوان .

إحرص يا بنى فى كل لحظة من حياتك ، على أن تكون صادقاً مع نفسك حتى تنعم دائماً بالسلام الروحى .

وتعلم يا بنى أن تغفر للناس ، فإن أتعس لحظات يعيشها إنسان على ظهر هذه الأرض هى تلك التى يتملك النفس فيها غضب أو حقد أو كراهية .

ولكن . . .

تعلم أيضاً يا بنى بألا تغفر أو تتهاون أبداً مع من يعتدى على وطنك . . فإنك لن تعرف السلام أبداً ووطنك معتدى عليه . . ولا كرامة ولا شرف لأى إنسان ، إذا كانت كرامة وطنه فى التراب ، أو كان شرف وطنه يداس بالأقدام . . »

وليس هذا الكلام من باب الوعظ والإرشاد ، فمن السهل أن نجد أمثلة حية له من حياة السادات وكفاحه وخاصة فيما يرتبط بقضية أمين عثمان ؛ فالمثل الأول الذى يدل على الصدق مع النفس والذى يؤدى إلى السلام الروحى ، هو الموضوعية الكاملة التى عامل بها السادات كامل القاويش بعد الثورة ، رغم أن كامل القاويش كان مصراً على مطاردة السادات بالاعتقال والسجن ، ومطاردة عائلته بالإرهاب والرعب بإيعاز قوى من السراى الملكية التى قررت التخلص من السادات لكفاحه الذى لم يفتر فى لحظة من اللحظات ضد الاستعمار والحكم العميل . وعندما أتيحت فرصة الانتقام للسادات من القاويش ارتفع فوق مستوى انفعالاتها المؤقتة ، والتزم بالموضوعية التى ميزت فكره وفلسفته بصفة عامة . وعلى صفحات مجلة « التحرير » فى ٢٣ فبراير ١٩٥٤ سأله قارئ السؤال التالى :

« وقف الأستاذ كامل القاويش يترافع ضدك حينما كنت متهما فى قضية أمين عثمان ، وطالب بإعدامك ، ثم دارت الأيام ، وأصبحت من قضاة الشعب ، ووقف أمامك كامل القاويش متهماً بأبشع ما يمكن أن يتهم به

إنسان ، وبخاصة من كان مثله فى خدمة العدالة . فماذا كان شعورك وأنت ترى خصمك وقد أصبح مصيره بين يديك ، وقد أمكنك الله منه ؟ »

فكان رد السادات على السؤال كالآتى :

« أحمد الله على أننى بينى وبين زملائى القضاة وبين رأيى طوال هذه المحاكمة لم يداخلنى أى إحساس من الماضى . إنها أمانة حملتها ويعلم ربى وحده أننى ما فرطت فيها بل أديتها بكل ذمة وإخلاص » .

والمثل الحى الآخر الذى يدل على انتفاء الفصل بين الأقوال والأعمال ، هو تطبيقه العملى لقوله لابنه بألا يغفر أو يتهاون أبداً مع من يعتدى على وطنه ، فهذا ما فعله بالضبط فى موقفه تجاه قضية أمين عثمان الوزير المصرى والعميل البريطانى الذى اغتيل مساء الثلاثاء ٦ يناير ١٩٤٦ وكان قد عاد لتوه من رحلة فى بريطانيا . وكان المبدأ الذى سارت عليه سياسته أن مصر قد تزوجت من بريطانيا زواجاً كاثوليكيًّا لا يقبل الطلاق بأية حال من الأحوال . ولنستمع إلى المعلم يحكى لنا عن صرامته فى عدم الغفران والتهاون مع من يعتدى على وطنه ، حتى ولو كانت حياته هى الثمن الذى سيدفعه مقابل إصراره على هذا الموقف الأخلاقى الذى لا يقبل أنصاف الحلول . يقول السادات على صفحات مجلة « التحرير » فى ٣ نوفمبر ١٩٥٤ :

« أذكر ذلك اليوم من مارس سنة ١٩٤٦ حينما زارنى الأستاذ حمادة الناحل المحامى فى سجن مصر ، وكنت قد نقلت إليه من سجن الأجانب ، بعد أن انتهى التحقيق ورفعت السرية التى كانت قد فرضتها النيابة على .

أذكر أن الأستاذ حمادة زارنى فى ذلك اليوم متطوعاً لما بيننا من صداقة ، وأذكر أنه همس فى أذنى وهو يتلفت من حواليه لكى يتفادى أن يسمعنا ضباط الحراسة . همس يقول :

« اصدقنى يا أنور . . هل أنت قتلت حقيقة أمين عثمان ؟ »

وأذكر جيداً أننى لم أتردد لحظة فى أن أقول له :

« ليتنى كان لى الشرف فى أن أقتله بيدى . . ولو حكم على بعشرات السنين ، فثق أننى سأمضيها سعيداً قرير العين ما دام هذا الخائن قد قتل » .

قلت هذا فى سنة ١٩٤٦ ، وسأقوله إلى أن أموت .

وحين وقف النائب العمومى الأستاذ محمود منصور سنة ١٩٤٨ لكى يعتذر عما ورد فى مرافعة الأستاذ أنور حبيب ، وكيل النيابة وقتذاك ، من تعريض بالإنجليز ، وكنت فى قفص الاتهام هاجمته بأقسى ما يمكن أن يسمعه ، ودون كلامى فى محضر الجلسة ، وطلبت من المحكمة رسمياً أن تحكم على بالإعدام لكى لا أسمع مثل هذا الدفاع الخائن عن إنجلترا ، من النائب العمومى فى مصر . . »

ونفس الخط الفكرى الذى يتمثل فى عدم التهاون إطلاقاً مع من يخون وطنه ، يعود إلى الظهور بمنتهى الوضوح فى بيان السادات إلى الأمة فى ١٤ مايو ١٩٧١ ، أى بعد ربع قرن من الزمان منذ أحداث قضية أمين عثمان ، وهذا دليل آخر على اتساق فكر السادات وبعده عن التناقض ، فإذا كان ينادى بالحب والتراحم والود والصداقة والوفاء والغفران والتسامح ، فهذا لا يعنى إطلاقاً التهاون فى إحقاق الحق ، وإلا ضاعت كل المعايير الأخلاقية . ومن هنا كانت القسوة ضرورة أخلاقية ، وخاصة مع من تسول له نفسه التلاعب بمصير الأمة . يوجه حديثه فى البيان إلى أبطالنا الرابضين على خط النار فى ذلك الوقت فيقول :

« كونوا مطمئنين يا أولادى ، بصوا قدامكم لليهود ما تبصوش وراكم أبداً للجبهة الداخلية ، لأنه إذا اقتضى الأمر علشان أحفظ سلامتها والله سأكون فى منتهى القسوة للى يحاول أن يشق جبهتكم الداخلية من وراكم فتفكروش

فيها ، سيبوا جبهتكم الداخلية وكونوا واثقين أن الـ ٣٤ مليون بقلبهم وإحساسهم وكل ما يملكوا وراءكم علشان دى معركتكم . . علشان تكسبوها . . وشرفهم حطينوا فى أيديكم » .

ولكن هذه القسوة لا تعنى الديكتاتورية على الإطلاق ، بل على العكس فإنها تهدف إلى حماية الممارسة الديمقراطية الحقيقية من التلاعب بها ، ولذلك يطالب السادات فى خطابه أمام مجلس الشعب فى ٢٠ مايو ١٩٧١ بأن ينص الدستور الجديد على ميثاق أخلاق يمنهج مفاهيم الحريات والأخلاق والممارسة الديمقراطية مما يسد الطريق أمام كل من يريد تلوين هذه المفاهيم لأغراضه الخفية وأهدافه الذاتية . ثم يؤكد السادات هذا المعنى الكبير فى خطابه فى ختام الدورة الأولى للمؤتمر القومى الثانى للاتحاد الاشتراكى العربى فى ٢٦ يوليو ١٩٧١ فيقول :

« إنكم تذكرون وليس لكم أن تنسوا أبداً ولو للحظة من اللحظات ، أنكم فى هذه القاعة تسلمتم الزمام من ثورة ٢٣ يوليو ، ولم يعد لها غيركم قيادة ، ولم يعد عليها دونكم وصاية ، فلا يجب أن تتركوا حجاباً أو حاجزاً يعوق صلتكم المباشرة واليومية بالجماهير ، وأن ذلك سبيلكم إلى شرف خدمتها ، وهو فى نفس الوقت مبرر تصديكم لشرف قيادتها ، بالديمقراطية الحقة ، وبالتفاعل الحر بين قوى الشعب العاملة ، وفى جو المبادئ والأخلاق الذى لا يعرف التآمر ولا يعرف التسلط ولا يضع فى اعتباره إلا المصلحة العليا للشعب وللأمة وآمالها الحقة والعادلة . . »

والضرورات الأخلاقية النابعة من صميم الشخصية المصرية هى الضمان الأكيد لحماية الممارسة الديمقراطية الحقة والعادلة من كل الانحرافات التى قد تنقاد إليها النفس البشرية سواء بفعل الإغراء أو الإرهاب ، أو بفعل الوعد أو الوعيد ، وفى هذا يقول السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« إننا لا بد أن نتمسك بقيمنا الروحية والأخلاقية فى مواجهة موجة الاستمتاع المادى التى تعرفها مجتمعات الاستهلاك الغنية ، لأن تلك القيم هى من السمات الأصيلة لحضارتنا . ولأن المجتمعات التى تجاهلتها تعرف الشقاء النفسى وسط الوفرة المادية ، إننا نتمسك بقيم التكافل الاجتماعى وتماسك الأسرة وسيادة مشاعر المحبة ونبذ الأحقاد . فقد كانت تلك القيم هى العاصم لهذا المجتمع فى أحلك الأوقات . وهى السياج ضد نزعات الفردية المطلقة ، وانعدام المسئولية الاجتماعية ، التى تفكك المجتمع وتسلب الإنسان مشاعر ما أحوجه إليها .

كذلك فإننا نرفض أن يكون التقدم لصالح قلة تنعزل عن الجماهير ، وترتبط بأساليب حياة غريبة عنها ، ونريد أن تشارك أوسع الجماهير فى صنع التقدم وفى الاستفادة العادلة من ثمراته .

وفى الختام ، لعلكم تلاحظون أن هذه المعانى التى أشرت إليها لم تكن بعيدة عن منطلق ممارستنا فى السنوات القليلة الماضية » .

هـذا لأن السادات — منـذ توليه أعباء الحكم والمسئولية — حرص أشـد الحرص على أن يضع نظريته فى الأخلاق موضع التنفيذ فى كل كبيرة وصغيرة ، فالأخلاق لا وجود فعلى لها إذا لم تجد الأفعال المادية التى تجسدها وتحيلها إلى واقع ملموس ومقنع لكل ذى عقل . والعجيب فى هذا أن توفيق الحكيم كان يبدو وكأنه يتنبأ بظهور السادات فى مساجلاته مع منصور فهمى عام ١٩٣٧ ، فقد سجل هذه المساجلة فى كتابه « تحت شمس الفكر » الذى صدر عام ١٩٣٨ وفيها يقول ص ١٤٩ :

« إن أقرب السبل إلى إعادة حسن الظن بالأخلاق والمثل العليا هو وجود المثل بالفعل ! . . هو ظهور رجل واحد ومثل واحد حتى نراه بأعيننا ، ونسمع صوته بآذاننا ، ونلمسه بأيدينا ، ونتبعه بأفئدتنا ! . . . ولكن هل كل مجتمع قدير على إخراج مثل هؤلاء الرجال ، أو أن أولئك لا يظهرون إلا فى مجتمع يهيئهم للظهور ؟ » .

وكان ظهور السادات الدليل الحى على أن المجتمع المصرى العريق قادر على تجسيد خصائصه الأصيلة

وأخلاقياته الصميمة فى شخص زعيم ورائد وقائد ومعلم استطاع أن يعبر بأمته – فى أحلك الظروف – من ليل الهزيمة بكل مضاعفاتها إلى فجر الانتصار بكل ارهاصاته ، وذلك بعد أن بذر فى تربتها بذور الحب والخير والوئام والوفاء ، ونظراً لأن هذه التربة صالحة لإنماء مثل هذه البذور ، إذ سبق لها رعايتها والمحافظة عليها على مر العصور والأزمان ، فقد أتت أكلها ناضجة ووافرة منذ ظهر السادس من أكتوبر العظيم . وعندما ينادى السادات بفلسفة الحب ، فهو يرتاد بهذا جانباً آخر من التأصيل الفكرى ، لأن فلسفته تذكرنا بفلسفة الفيلسوف العربى ابن مسكويه الذى تعد نظريته فى الأخلاق أصدق تعبير عما يحتاج إليه المجتمع الإنسانى من قيم ، ومبادئ ، وفضائل . وقد جمع تفاصيل نظريته فى كتابه الشهير « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق» الذى يقول فيه إن دور الزعيم الرائد يجب أن يبدأ بإصلاح النفوس وتوجيهها إلى حياة أفضل . وإذا كان الإنسان قد طبع على الخير فإن طبيعته البشرية الضعيفة ، وظروف حياته القاسية قد تدفعه إلى السير فى طريق الشر ، ولذلك فإن المناخ الاجتماعى الصحى يلعب دوراً كبيراً فى مساعدة الفرد على التطبع بالخير . أما الحب – فى نظر ابن مسكويه كما هو فى نظر السادات – فيمثل الركيزة الأساسية لكل الفضائل والمبادئ والأخلاق ، فأى مذهب أخلاقى فاضل لا بد أن ينهض على محبة الإنسان لأخيه الإنسان ، وهذه المحبة تحتاج إلى رياضة دائمة للنفس حتى تتحول الضرورات الأخلاقية من إخلاص ، وتضحية ، وإيثار ، وموضوعية ، وتسامح ، وغفران . . . . إلخ إلى ممارسة يومية على كل المستويات .

وفى الواقع فإن الممارسة الديمقراطية الحقة تعد المناخ الصحى الوحيد لهذه الضرورات الأخلاقية حتى تنمو وتزدهر ، فلا يمكن لمجتمع يعانى من الإرهاب ، والكبت ، والحرمان أن يهتم بالأخلاق لأن وجودها بطبيعته يتنافى مع وجود كل ما ينتهك حرمة الإنسان ، وهذا ما يشكو منه ألبرت شفايتزر فى كتابه « فلسفة الحضارة » عندما يقول ص ٢١٨ :

« لقد دخلنا فى عصر ضاع فيه الشعور بالقانون وقوته ، وخلا من الإحساس بالالتزام الخلقى ، فالمجالس النيابية تنتج لوائح تناقض فكرة القانون ، والدول تعامل رعاياها دون مراعاة أى شعور بالقانون . والذين يقعون تحت وطأة دولة أجنبية يعاملون معاملة الخارجين على القانون . فلا احترام لحقهم الطبيعى فى الوطن وفى الحرية أو المنزل أو العمل أو الغذاء أو أى شىء آخر . نعم لقد أصبح الإيمان بالقانون اليوم أثراً بعد عين » .

ومن هنا نادى السادات بالممارسة الديمقراطية ، وسيادة القانون ، وبناء دولة المؤسسات حتى لا تنتهك حرمة الإنسان المصرى ، بل يأخذ من سيادة القانون سياجا يحميه من كل عسف . ومن هنا كان الالتزام الخلقى المفروض على الإنسان فى هذه الحالة التى ينتفى فيها أى عذر له بالخروج عن الضرورات الأخلاقية التى التزم بها المجتمع وسار على طريقها . فممارسة الحرية تستتبع بالضرورة المسئولية الأخلاقية ، والحضارة لا تتقدم إلا بالاعتماد على هذين العنصرين : الحرية والمسئولية ، وأى التزام خلقى يرتبط بالمدى الذى يمارس فيه الإنسان حريته ثم مسئوليته عن حدود هذه الممارسة ولذلك يقول شفايتزر فى نفس الكتاب ص ١١٢ :

« الحضارة فى جوهرها أخلاقية ، ومشكلة الحضارة مشكلة أخلاقية ويخيل إلى أن بى من النزعات الفنية والتاريخية ما يمكننى من تقدير العناصر التاريخية والجمالية فى الحضارة ، وإنى بوصفى طبيباً وجراحا عندى من الروح العصرية ما يجعلنى قادراً على تقدير روعة ما بلغه هذا العصر من تقدم فى النواحى الصناعية والمادية .

ولكن على الرغم من كل هذا ، أكاد أجزم على أن العناصر الجمالية والتاريخية ، والاتساع الرائع فى معارفنا المادية وقدراتنا العلمية ، كل هذا لا يشكل جوهر الحضارة ، أى أنه لن تكون للإنسان قيمة حقيقية بصفته كائنا إنسانياً إلا من خلال كفاحه ليكون على خلق عظيم ، فإذا ضاعت المعايير الأخلاقية من حياة الإنسان انهارت الحضارة الإنسانية من أساسها . ولن نتمكن من إعادة بناء حضارتنا على أساس ثابت وطيد إلا إذا تخلصنا من

فكرتنا السطحية عن الحضارة المادية ، ثم أخذنا من جديد بالنظرة الأخلاقية التى سادت القرن الثامن عشر » .

ونستطيع أن نضيف إلى كلام شفايتزر أنه لا بد من توافر شروط معينة حتى يمكن الأخذ بالنظرة الأخلاقية الأصيلة ، وهذه الشروط تتمثل فى ممارسة الحرية والالتزام بالمسئولية فى نفس الوقت ، أى سيادة القانون التى تعد الجوهر الحقيقى للممارسة الديمقراطية . وليس القانون سوى التقنين المركز للضرورات الأخلاقية ، لأنه يحدد دائرة الحرية التى يتحرك داخلها الإنسان مع المسئوليات المحيطة بها . ولذلك فإن الإرادة التى تدين للقانون وتخضع له هى الإرادة الحرة ، فهى فى طاعتها للقانون إنما تطيع ذاتها وتحقق حريتها ، وبسيادة القانون تتوارى الفروق بين الحرية والضرورة ، وتتسق فى ظلها الإرادة العامة والإرادة الخاصة . فليس الإنسان حراً بطبيعته حرية مطلقة لا تحدها عوائق أو تقوم دونها سدود ، فالتاريخ لا يعرف تلك الحرية المطلقة حتى فى حياة البداوة ، فإن ما تتسم به تلك الحياة البدائية من العنف والضراوة ما يحد من حرية الإنسان وسيادة القانون هى تنظيم للحرية فى إطار أخلاقى واجتماعى يكبح نوازع الشر ، وطغيان الهوى ، وضراوة الغرائز . فالقانون والآداب العامة هى قوام المثل الأعلى للحرية ، ولا يناقض الحرية أن تكبح النوازع الشريرة فان فى كبحها وقمعها سياج ووقاء للحرية التى تتحقق فى ظل الممارسة الديمقراطية ، وهذه الممارسة الضرورية تفرض القانون على الفرد تماماً كما تفرضه على الدولة ، فالجميع سواسية أمام القانون ، من أصغر مواطن فى الدولة إلى أكبر مؤسسة فى الحكومة .

من هنا كانت العلاقة العضوية بين الممارسة الديمقراطية والضرورة الأخلاقية ، فالديمقراطية فى جوهرها نظام اجتماعى أخلاقى قوامه المساواة والعدل والخير والحرية ، أى أنها تستمد مقوماتها الأيديولوجية من الأخلاق والمثل والمبادئ الإنسانية ، ويقول جون ديوى إن الديمقراطية ليست مجرد نظام سياسى يحدد إطار العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، فمجالها فى الممارسة أوسع من هذا بكثير ، فهى على المستوى الاجتماعى العام أو المستوى الفردى الخاص أسلوب لممارسة الحياة اليومية ، وطريقة للنظر إلى الأشياء ، والإحساس سواء بالمجتمع المحلى أو بالإنسانية جمعاء . إنها أسلوب لسلوك الإنسان سواء حيال أسرته أو حيال بنى جنسه ، ولذلك فهى تتركز حول الاعتراف بالكرامة الإنسانية ، وفى هذا يقول هارولد لاسويل إن الديمقراطية هى المجتمع الذى ينهض بنيانه على الاحترام المتبادل . وخطورة الممارسة الديمقراطية أنها تؤثر بطريقة شعورية أو غير شعورية فى تشكيل شخصية الفرد وتحديد مسلكه بصفة عامة ، ابتداء من تصرفاته اليومية ، مثل معاملته لأطفاله أو لخدمه أو لمن هم أقل منه مرتبة فى المجتمع حتى الأهداف الكبرى التى يريد تحقيقها فى حياته . وفى هذا يقول السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« نحن نعلم أن الديمقراطية ليست مجرد نصوص ولكنها ممارسة عملية ويومية . والديمقراطية لا تمارس فى فراغ ، بل لا بد من إطارات تتحدد من خلالها الاتجاهات التى تخص أمور الوطن السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولقد ارتضى الشعب نظام تحالف قوى الشعب العامل إطاراً لحياته السياسية وإننا فى معركة البناء والتقدم لأحوج ما نكون لهذا التجمع . »

وقيمة الممارسة الديمقراطية تكمن فى جانبيها الخلقى والعملى فى آن واحد فالممارسة الديمقراطية تستند إلى أسس أخلاقية ، بحيث تتحول الحكومة إلى مجرد أداة لتنظيمها وتنشيطها وتشجيعها ، فهى أول نظرية للحكم فى التاريخ الحضارى تجعل من كرامة الإنسان مبدأ ، وتضمن المساواة السياسية بين الناس . فهى تعترف بالفردية وتعمل فى نفس الوقت على خلق مجتمع مفتوح يتيح للجماهير شتى الفرص السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تبرز كل الإمكانيات المتاحة . ولا شك فإنه لا توجد أسس أخلاقية أروع من تلك التى تعمل للنهوض بالكائن البشرى ، وتمنحه الاحترام

والعدالة والأمان والحرية والمساواة ، وهى مثل عليا تملك من القوة ما يجعلها تلقى قبولا فى نفوس الناس على اختلاف بلادهم وعصورهم .

والجانب العملى للممارسة الديمقراطية يكمن فى توفيرها الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، ولذلك فالتقدم الحضارى المرتبط بهـا بالضرورة لا يحتمل النكسات أو التكرار أو التراجع أو التشتيت ، وبالتالى كلما انتعشت الممارسة الديمقراطية ، اضطرد التقدم الحضارى . ورغم الهجوم الشديد الذى واجهته الديمقراطية على أيدى دعاة الديكتاتورية والفاشستية بحجة أن الديمقراطية لا تعنى سوى الفوضى وحكم الدهماء ، فقد أثبت التاريخ أن النكسات وأعمال العنف المنافية للإنسانية والمبادئ الأخلاقية لا تقع إلا فى البلاد التى تخنق الممارسة الديمقراطية داخل حدودها ولذلك فالدول الديكتاتورية والفاشستية تتمتع بعنصرى الاستقرار والاستمرار رغم أهميتهما المطلقة فى التطور الحضارى ، فبزوال شخصية الديكتاتور ينهار النظام أو يتصدع ، ومن هنا تبدأ القلاقل والاضطرابات . إذن فالديكتاتورية نظام ظاهره النظام وجوهره الفوضى ، بينما الديمقراطية تبدو على العكس من ذلك تماماً .

وبالمفهوم البسيط المباشر فإن الديمقراطية هى تحويل الأخلاق من مجرد مبادئ إلى ممارسة عملية ويومية على حد قول السادات . وقد عبر وودرو ويلسون عن هذا فى مجلة « أتلانتيك الشهرية» فى مارس ١٩٠١ حين قال إن « حبنا للممارسة الديمقراطية ينهض على اهتمامها بالأخلاق ، وبميلها الطبيعى إلى احترام تطلعات الإنسان العادى إلى درجة عالية من السعى لتحقيق ذاته » . ولكننا نجد أن الممارسة الديمقراطية لم تثر اهتمام الزعماء السياسيين من أمثـــال ويلسون فحسب ، بل إن الشعراء قد مجدوها على أختلاف مشاربهم ، فنرى الشاعر الأمريكى ولت ويتمان يقول إن الهدف الأسمى للممارسة الديمقراطية يكمن فى الوصول بالكائن البشرى إلى درجة الكمال الأخلاقى ، وليس فى مجرد التركيز على العمل السياسى ، فالممارسة الديمقراطية هى مدرسة تدريب « لصنع بشر من الدرجة الأولى» على حد قول ويتمان الذى يتساءل :

« هل كنت تظن يا صاحبى أن الممارسة الديمقراطية مقصورة على الانتخابات والسياسة والانضمام لهذا الحزب أو ذاك ؟ أستطيع أن أؤكد لك أن الديمقراطية لا تستخدم فى هذا المجال إلا لكى تثمر أخلاقياً فى أرقى صور المعاملة بين الناس ، وفى تفاعلهم الحى مع معتقداتهم فيما يختص بالدين والسلوك والمعاهد والمدارس . . . هذا لكى تسود الديمقراطية كل جوانب الحياة الخاصة والعامة على حد سواء . »

وقد اعتبر فرانسيس ويلاند أن الممارسة الديمقراطية هى أهم عنصر من عناصر علم الأخلاق ، ولذلك يقول فى كتابه « عناصر علم الأخلاق » ص ٢٣٧ :

« يخلق الناس جميعاً فى ظروف تسودها المساواة التامة ، وكل إنسان يخلق متمتعاً بحق الاستفادة من الميزات التى أنعم بها الله عليه ، مثله فى ذلك مثل أى إنسان آخر . وأعتقد أن كلامى هذا من الوضوح بحيث لا يقبل أى جدل . »

ونظراً للارتباط العضوى بين الضرورة الأخلاقية والممارسة الديمقراطية فى منهج التأصيل الفكرى عند أنور السادات ، فقد آثرنا أن يكون الفصل التالى عن « الممارسة الديمقراطية » عند رائدنا الفكرى العظيم .

الفصل الرابع

الممارسة الديمقراطية

كان أرسطو أول من وضع التعريف الأولى لمفهوم الديمقراطية ، فقال إن الديمقراطية هى نظام للحكم تتركز سلطته العليا فى يد الشعب . ولكن هذا لا يعنى بطبيعة الحال الديمقراطية المطلقة التى يحكم فيها الشعب كله حكماً مباشراً فلا بد من وجود من ينوب عنه فى الحكم ، أما الديمقراطية المطلقة فقد عرفها جان جاك روسو بأنها من رابع المستحيلات ، ولذلك فهى لم ولن توجد . أما المفهوم العام للديمقراطية فيعنى الحكم بواسطة زعيم يمثل الشعب كله ولا يرتبط بمصالح طبقة أو فئة معينة . وبالرغم من أن الديمقراطية بدأت مع فجر التفكير الحضارى للإنسان فإنها ما زالت تجد من العقبات ما يسد الطريق أمامها ، وبخاصة أن الإنسان غير الناضج فكرياً يهتم دائماً بالاستمتاع بالجانب الأول منها وهو الحرية ، على حين يحاول باستمرار التهرب من الجانب الآخر لها وهو المسئولية . والممارسة الديمقراطية بدون مسئولية تتحول إلى فوضى شاملة ، وبدون حرية تتحول إلى سجن ديكتاتورى ، وفى كلتا الحالتين تنتفى الممارسة الديمقراطية تماماً . ومن هنا كان التحام الحرية بالمسئولية فى الممارسة الديمقراطية ، ومن هنا أيضاً كانت الصعوبات التى تعوق تطبيقها على الوجه المنشود . وفى هذا قال وودرو ويلسون أن الديمقراطية هى أصعب أشكال الحكم ، وما زالت هذه الصعوبة موجودة برغم أن الديمقراطية كانت قد أرست تقاليدها منذ ما يزيد عن ألفين وخمسمائة سنة فى اليونان القديمة أيام حكم بريكليز .

ومضت القرون منذ أيام بريكليز والبشر يحاولون الوصول إلى النظام المثالى للحكم ، النظام الذى يكفل لهم الحرية ويوفر لهم المساواة ، ويشيع الرفاهية والسعادة فى حياتهم ، ولكن الديمقراطية كانت تبدو مثل ومضات سريعة لا تلبث أن تتلاشى فى أفق الصراع الرهيب . ظلت الحال هكذا حتى مطالع القرن العشرين عندما تحول العالم إلى وحدة إنسانية بفعل ثورة المواصلات ، ومن هنا كان الصدى الذى يحدث عند بقية شعوب العالم ، إذا ثار شعب من أجل تحقيق الديمقراطية والحرية والمساواة . فلم تعد المسافات بعازل بين مختلف الشعوب. ولذلك اصطبغت الديمقراطية بالصبغة العالمية حتى بلغت حد البديهية الإنسانية التى لا يختلف حولها اثنان ، وإذا اختلفا ففى التفاصيل وأساليب التطبيق التى قد تختلف من مجتمع لآخر طبقاً لظروفه المحلية والموضوعية ، وأحياناً أخرى يكون الاختلاف نتيجة لأهداف خفية أو لأغراض ذاتية . أما جوهر الديمقراطية فى حد ذاته فلا يمكن أن يكون محل جدل أو مساجلة .

والممارسة الديمقراطية تهدف إلى احترام الإنسان وتقييمه موضوعياً مهما كان الاختلاف حول وجهات النظر ، ولذلك تتطلب الصبر مع الذين يصعب إقناعهم ، والاحترام لمن لم يتعودوا عليها وما زالوا يهابونها ، والاعتدال مع المتعصبين الذين لا يرون فى تناقضات الحياة سوى الأبيض والأسود . فهذه الممارسة بطبيعتها تعتمد على القانون والإقناع والمنطق الإنسانى الشامل ، أما القوة البربرية فلا حساب لها بالمرة فى مثل هذه الممارسة . وما من شك فى أن سيادة القانون ، وموضوعية الإقناع ، وقوة المنطق ، هذه كلها عناصر مضادة بطبيعتها للغرائز الحيوانية العشوائية التى تتحكم فى الكيان البيولوجى للإنسان . ولذلك تتزايد صعوبات الممارسة الديمقراطية بتزايد طغيان تلك الغرائز . ومع هذا فإن التفكير الإنسانى الناضج يدرك تماماً أن الممارسة الديمقراطية هى من أنبل الأفكار الاجتماعية ، والمفاهيم

السياسية ، والاتجاهات الاقتصادية التى اهتدى إليها العقل البشرى ، وأنه لا بديل لها ، إذا أراد الإنسان المتحضر تجنب الفوضى والعنف والقسوة والاضطراب ، والإرهاب ، والخوف ، وعدم الاستقرار ؛ بل إن الصعوبات التى تعتور طريقها تمثل تحدياً للتقدم الحضارى والتطور الفكرى لإنسان القرن العشرين .

ويتركز جوهر الممارسة الديمقراطية فى الحرية التى يختار بها المواطنون حكامهم ، والحرية أيضاً فى الرقابة الدائمة عليهم فى أثناء ممارستهم للسلطة . وهذا الكيان الإنسانى الراقى الذى يتحقق للمواطن فى ظل الممارسة الديمقراطية ، يتمثل فى تساويه مع باقى المواطنين – دون استثناء – أمام القانون ، وفى الاقتراع ، وفى انتخاب ممثليه النيابيين دورياً . ولا يطبق عليه تشريع إلا بعد موافقة الأغلبية ، وأيضاً فإن له من حرية العمل السياسى ما يكفل له استغلال مواهبه وقدراته فى حدود المسئولية تجاه الصالح العام للوطن . وهذا المفهوم الإنسانى للممارسة الديمقراطية يمثل الإطار العام لمفهوم السادات لها ، ولكنه يضيف إليه تنويعات وإضافات تنبع من منهجه للتأصيل الفكرى ولا شك فالمفكر الأصيل لا يأخذ أى شىء على علاته ، بل يبدأ باستيعابه بمرونة وبعد ذلك يستغل إيجابياته التى تتمشى مع التطبيق العملى على الواقع الراهن . وفى هذا يخصص السادات فصلا كاملا فى كتابه « قصة الثورة كاملة » بعنوان « ما هى الديمقراطية ؟ » يحدد فيه تحديداً أكاديمياً وعملياً الإجابة على هذا السؤال الحيوى والخطير ، ثم يوجه الإجابة إلى المواطنين ص ١٣ فيقول :

« الديمقراطية بالنسبة لكم هى تحقيق مصالحكم ، لا مصالح الأقلية . الديمقراطية هى انتزاع الحقوق المسلوبة ، واسترداد الأرض من غاصبيها ! الديمقراطية هى التخلص من القيود ، تلك التى كانت فى رقابنا ، وحول أذرعنا ، وعقولنا أيضاً .! الديمقراطية هى استقلال الوطن ، وسيادة الأمة ، والمساواة ، والعدل ، هى تقرير المصير . !

وفى اللحظة التى قامت فيها ثورة ٢٣ يوليو ، كانت الديمقراطية هى الطريق ، طريق هذه الثورة الذى اتجهت إليه بكل ما تملك من رجال وسلاح وإيمان . . لأنها لم تكن ثورة خاصة بفئة معينة ، بل هى نفس الثورة المصرية التى قامت من قديم ، وهدفها التخلص من أعداء الشعب ، وإقرار الحق والعدل والمساواة ، وسيادة الأمة .

من أجل هذا مضت الثورة المصرية بعد انتصارها فى ٢٣ يوليو بخروج الجيش إلى المعركة . . جنباً إلى جنب مع الشعب . أقول مضت نحو الديمقراطية دون تردد ، وكان عليها لكى تحقق هذه الديمقراطية ، ولكى تعلق الدستور المتضمن نصوصها وأسسها جميعاً ، أن تتخلص أولا من أعداء الديمقراطية أى أعداء الدستور ، وهم أعداء الشعب . .

وكان العدو الأول هو الملك . . بل هى الأسرة التى كانت تحكم . . وانتصرت الثورة على العدوّ الأول . . وبهذا أرست الثورة أولى قواعد الديمقراطية . .

ثم كان جلاء القوات المحتلة عن بلادنا هو الانتصار الثانى للثورة . بل للديمقراطية ، أما الانتصار الثالث للديمقراطية فكان قانون الإصلاح الزراعى . . وبعد ذلك مضت الثورة ترسى قواعد النظام الديمقراطى الذى سيسود البلاد ، بعد فترة الانتقال ، وتعد له الضمانات التى تكفل قيامه وحمايته وازدهاره . . ولم يكن رفض الثورة الارتباط بحلف عسكرى مع الدول الكبرى إلا إيماناً بالديمقراطية ، والتصميم على قيامها فى جمهورية مصر . .

ذلك لأن الحلف العسكرى كان سيجعل الشعب وأرض الشعب وموارد الشعب فى خدمة مصالح تلك الدول الكبرى وتحقيق المنافع لها .! وفى ظل الحلف العسكرى المذكور كانت مصر ستصبح دولة تابعة ، والديمقراطية من المحال إرساء قواعدها وتحقيق مضمونها ، إلا فى الدولة التى لا تخضع لسيطرة أجنبية ، أو لتوجيه من خارج حدودها .! إصرار الثورة إذن على موقفها من الحلف العسكرى ، كان الغرض منه حماية النظام الديمقراطى الذى ستحكم به مصر بعد فترة الانتقال ، وبالتالى حماية مصالح الشعب » .

وفلسفة السادات هذه نابعة من إيمانه بطاقات الخير التى جبل عليها الإنسان ، والتى لا يمكن التعبير السليم عنها إلا من خلال الممارسة الديمقراطية . ومن هنا كان التفاؤل الذى يسود فكر السادات فيما يختص بمستقبل الإنسان وهو فى هذا يتناقض تناقضاً حاداً مع المفكرين المتشائمين من أمثال نيكولو ماكيافيللى وصامويل بوفندورف اللذين قالا إن الإنسانية مجرد قناع زائف يخفى الإنسان وراءه وحشيته البدائية وغرائزه البربرية ، وبذلك ستظل الديمقراطية حلماً جميلا غير قابل للتحقيق . وفى هذا يقول ماكيافيللى فى كتابه « الأمير » :

« فى الإمكان القول إن الناس بصفة عامة ناكرون للجميل ، خبيثو اللسان ، متصنعون ، حريصون على تفادى المسئولية ، والحصول على الكسب بكل الوسائل المتاحة . وهم على أتم استعداد لخدمتك إذا كان فى هذا فائدتهم الشخصية . والأمير الذى يعتمد تماماً على أقوالهم دون فحص أو تمحيص لا بد أن تنتابه الكوارث . والناس لا يترددون فى إهانة شخص قد يكون موضع حبهم ، مثلما يترددون فى إهانة شخص آخر قد يكون مثار خوفهم فالحب مرتبط بسلسلة من الالتزامات التى يرحب الناس بخرقها بدافع من الأنانية إذا كان فى ذلك خدمة لأغراضهم . »

وبالطبع فإن الممارسة الديمقراطية يستحيل تطبيقها فى مجتمع مثل ذلك الذى يتحدث عنه ماكيافيللى ، والذى يفترض فيه قانون الغابة ، بمعنى آخر فهو يطالب بالحكم الديكتاتورى المطلق للأمير ، لأن الناس مجرد حيوانات شرسة لا تعرف الحرية أو المساواة . ولكن هذه النظرة المتشائمة نظرة قاصرة لأننا إذا افترضنا فساد الطبيعة البشرية ، فهذا يعنى بالتالى فساد تفكير الديكتاتور لأنه لا ينتمى إلا إلى هذه الطبيعة الفاسدة ولا يمكن أن يعلو عليها إلى مصاف الآلهة . وبالطبع فالسادات المفكر المؤمن المتفائل لا يتفق مع هذه النظرة التى تحط من قدر الإنسان ، وأيضاً لا يتفق مع صامويل بوفندورف الذى ينادى فى كتابه « سنة الطبيعة والشعوب » بأن :

« الحيوانات تتنازع أحياناً على طعامها فى حالة ندرته فقط ، بينما الناس يتصارعون فيما بينهم ، بدافع من شدة الجوع ، على نحو عنيف جداً زاخر بالآثام والشهوات التى لا يمكن أن تخطر على بال الحيوانات ، فالناس يلهثون دائماً وراء الأشياء التى تزيد عن حاجاتهم ، وهم مصابون بلعنة الطموح التى تعد مصدراً لكل الآثام ، ويبدو أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى أصيب بهذه اللعنة من دون كل المخلوقات الأخرى . »

وهكذا يتحول الطموح فى نظر بوفندورف إلى مجرد لعنة ، وهو بهذا يتجاهل أن الطموح هو المحرك الرئيسى وراء التطور الحضارى للإنسان ، وبدونه يظل الإنسان على المستوى البدائى للحيوان . ولعل أروع ما فى الممارسة الديمقراطية أنها تتيح الفرصة كاملة لهذا الطموح لكى يعبر عن نفسه ، ويثبت إمكانياته فى الاتجاه الصحيح ، وبالتالى فهذه الممارسة شرط أساسى للتعمير الحضارى لأية أمة قررت مواكبة المدينة المعاصرة . وفى هذا يقترب السادات من جون لوك الذى يهدف إلى إحلال نظرية الحقوق الطبيعية محل نظام الحكم الاستبدادى حيث تكون كل السلطة فى يد شخص واحد على حين يحرم سائر الناس من ممارسة أية سلطة . ولذلك ينادى جون لوك بأن الناس يولدون مزودين ببعض الحقوق الأساسية ، ومن بينها الحق فى الحياة والحرية والملكية ، وهم لا يتنازلون عن هذه الحقوق مقابل الحصول على عضوية المجتمع المدنى . هذا لسبب بسيط وهو أن هذه الحقوق الطبيعية وجدت قبل تشكيل الحكومات وإنشاء المجتمعات ، بل إن هذه الحكومات والمجتمعات يجب أن تكون تعبيراً عن هذه الحقوق .

ويؤكد جون لوك أن الكون الذى خلقه الله يقوم على قواعد منسقة وضعها الخالق العظيم لتنظيم شئون العالم . وهذه القواعد والقوانين تنطبق على الإنسان مثلما تنطبق على الطبيعة . ولا يعقل أبداً من ناحية المنطق والإدراك السليم أن يكون الخالق قد استثنى أموراً من قوانينه الكونية . ولزيادة الإيضاح والتحليل كتب لوك فى « الرسالة الثانية » يقول :

« للطبيعة قانون طبيعي يحكمها ويحكم كل الناس فى الوقت نفسه وهذا القانون هو العقل الذى يمنح الإدراك للإنسانية كلها ، إن توافر المساواة والحرية يتطلب ألا يؤذى الإنسان غيره سواء فى حياته أو صحته أو حريته أو ممتلكاته . وما دام الناس كلهم من خلق الله فهم ملكه وهو وحده الذى يحدد مصيرهم . وما دمنا جميعاً متساوين فى القوى العقلية ونعيش فى جو من المشاركة الطبيعية فلا يمكن أن نفترض وجود فوارق بيننا تسمح لنا بأن يحطم بعضنا بعضاً » .

وتمشياً مع نفس المنطق الإنسانى يقول السادات فى « قصة الثورة كاملة » ص ١٦ :

« لا ديكتاتورية إذن ولا حكم فرد ، ولا سيطرة لطبقة على طبقات ، ولا مصلحة إلا مصلحة الشعب . . ! إن الخطوات التى تمت خلال أعوام الانتقال ، لم تكن لتمهد على الإطلاق إلا لشىء واحد . . هو الدستور الذى يجعل الديمقراطية السليمة مصونة من كل سوء ! وإلا فما معنى أن تتم كل هذه الخطوات الجبارة نحو التقدم والتحرر ! ؟ »

ثم يوجه السادات سؤاله الحيوى إلى مختلف فئات الشعب فيقول :

« هل عرفت إذن ما هى الديمقراطية ! ؟ أنت أيها العامل ويا فلاح ، ويا صاحب الحاجة ، ويا طالب الرزق والعلم والصحة والأمن ! ؟

إفتح إذن الباب واخرج إلى الطريق ، فلن يقطع عليك الطريق عدو من هؤلاء الذين بطشوا بك فى الماضى . . لا سبيل أمام الأعداء للبطش بك أو بحقوقك فى كنف النظام الجمهورى الديمقراطى ! »

وفى هذا يتفق السادات مع كانط فى رسالته « نحو السلام الدائم» والتى ينادى فيها بأن الدستور المدنى للدولة يجب أن يكون جمهورياً ، لأن الدستور الجمهورى هو وحده الذى يحقق المبادئ التى تقوم عليها فكرة العقد الأصيل بين الحاكم والمحكوم ، ويقوم عليها أيضاً كل تشريع قانونى للشعب . وفى مقدمة هذه المبادئ يأتى مبدأ حرية أعضاء الجماعة بوصفهم بشراً ، أى مبدأ حرية المواطنين ، ثم مبدأ خضوع المواطنين جميعاً لتشريع واحد مشترك ، ثم مبدأ المساواة بين جميع المواطنين . ولذلك فإن الدستور الجمهورى هو الأساس فى كل أنواع الدساتير المدنية ، فهو التعبير عن الينبوع الصافى لفكرة الحق والواجب بما تحمله من تنظيم عملى وواقعى لحياة الفرد داخل المجتمع .

والممارسة الديمقراطية تسعى إلى ما أسماه الفارابى « بالمدينة الفاضلة » وهو الاسم الذى أطلقه الفارابى على المثل الأعلى للحكم . فهى المدينة التى ينال مواطنوها السعادة القصوى فى الدنيا والآخرة ، إن هذه المدينة أشبه بالجسم الواحد لا يستقيم أمره إلا بالتضامن والتعاون وتوزيع الأعمال على أساس القدرات والمواهب . ويرى الفارابى أن الإنسان لا يقدر على العيش معزولا عن غيره . فهو محتاج إلى أشياء كثيرة لا يستطيع القيام بها وحده ، وإنما لا بد أن تساعده الجماعة ، ولا بد أن يرتبط بأعضائها بعلاقات وروابط قوامها الحرية والمساواة والمحبة . وعلى سبيل التأصيل الفكرى يجدر بنا أن نسجل أن الفارابى قد سبق جان جاك روسو بعدة قرون ، وذلك عندما نادى ببلورة تلك الروابط الاجتماعية قبل أن يعلنها روسو فى نظرية « العقد الاجتماعى . »

فقد أعلن روسو فى الصفحة الأولى من « العقد الاجتماعى » أن الإنسان يولد حرًّا ، ومع ذلك فهو مكبل فى كل مكان . ويعتقد الكثير من الناس أنهم سادة للآخرين ، وهم فى الحقيقة أكثر عبودية منهم ، ولذلك ينادى روسو بإيجاد نظام اجتماعى يكفل الحق ، ويلزم بالواجب . وبما أنه ليس فى مقدور الناس خلق قوة جديدة ، وإنما تنظيم وتجميع وتوجيه القوة الموجودة بالفعل ، فليس أمامهم سوى الاتحاد والعمل فى تفاهم ووفاق وحب . ولكن هذا ليس بالأمر السهل . فالطبيعة البشرية بكل غرائزها وشطحاتها وطاقاتها البيولوجية تخلق المشكلة تلو الأخرى فى سبيل إيجاد شكل من أشكال الاتحاد يتكفل بالاشتراك مع باقى الأفراد فى حماية شخص وممتلكات كل فرد .

ومع هـذا يظل الإنسان فى حاجة ملحة إلى مثـل هذا الاتحاد إذا أراد أن يكون سيد نفسه وأن يبقى حراً كما كان يوم أن ولد .

ويؤمن السادات أن هذا الاتحاد القائم على الحرية والمساواة يجب أن يتلاءم مع طبيعة كل أمة وظروفها التاريخية والحضارية حتى لا تلفظه التربة المحلية ، ومن هنا كانت الدلالة الكامنة وراء الخطوات العملية التى تتخذ من أجل إرساء تقاليد وقواعد الممارسة الديمقراطية . يقول السادات فى « قصة الثورة كاملة » ص ٢٥ :

« إن الثورة تفسر الديمقراطية بأعمالها وبخطواتها التى تتم فى العلن ، الثورة تفسر الديمقراطية بالكفاح العملى من أجلها . فهى عندما تقضى على النظام الملكى العفن ، وترسى قواعد النظام الجمهورى ، فتلك خطوة نحو الديمقراطية كان الشعب حتماً سيخطوها لو لم تقم الثورة فى ٢٣ يوليو ، وكان سيخوض معركة دموية حتى يتهاوى ذلك النظام العفن .

والثورة تفسر الديمقراطية بالقضاء على الاستغلال والظلم الاجتماعى والإقطاع كان يمثل فى مصر هذا الاستغلال والظلم ، وقضت عليه – سلمياً – بلا دم ، كان سيسيل فى القرى إذا كان الشعب قد خاض معركة مباشرة ضد الإقطاع فى عقر داره ! والثورة تفسر الديمقرطية بالوقوف فى وجه الأرستقراطية المصرية التى كانت تحكم بأبنائها من الباشوات والبكوات والأساتذة والسماسرة . . وحالت الثورة – نهائياً – بين هؤلاء وبين الشعب ! والثورة تفسر الديمقراطية بالقضاء على التعصب وحكم السمع والطاعة . . أى على الجماعات التى تريد أن تحكم باسم الدين . . لا باسم أى شيء آخر . »

ويعتقد السادات أن إيمان الثورة بالديمقراطية قد جنب الشعب المصرى الوقوع فى براثن الثورات الدموية وما تتركه من رواسب بين أبناء الشعب الواحد ، وهى رواسب قد تستمر لعدة أجيال وقد يحدث بسببها مضاعفات قد تنفجر فيما بعد على شكل انقلابات دموية أخرى ، مما يدخل الأمة بأسرها فى دوامة دموية رهيبة قد يصعب الخروج من دائرتها المفرغة . أما الممارسة الديمقراطية فيمكن أن تجنب الأمة كل هذه المآسى لأنها تتكفل بالتقليل من السخط العشوائى إلى أدنى درجة . ففى المجتمعات ذات الحكومات الاستبدادية يلجأ الناس ، إن عاجلاً أوآجلاً ، إلى العنف ، وبخاصة عندما يعجزون عن التعبير عما يشكون منه أو يغضبهم بوسائل أخرى . أما عندما تمارس الديمقراطية فليس هناك أى سبب أو مسوغ للناس غير الراضين أو الساخطين لأن يستخدموا الرصاص وأن يسيلوا الدماء طالما أن فى وسعهم التعبير عن آرائهم بحرية . ولذلك يقول فرانسيس بيكون فى إحدى رسائله إن الحياة الديمقراطية تكون فى العادة أكثر هدوءاً ، وأقل تعرضاً للعصيان والتمرد ، من الحياة التى تخضع للنبلاء المستبدين . فحرية الرأى مكفولة للجميع فى ظل الممارسة الديمقراطية ، والحرية هنا هى الحرية المسئولية التى تتحرك فى الحدود التى ترسمها المصلحة العليا للوطن . وفى هذا المعنى يقول السادات فى مقالة له على صفحات مجلة « التحرير » فى ٣٠ مارس ١٩٥٤ .

« نحن لا نمنع أى مواطن من أن يقول كل ما يشاء ، فليقله فى خطبة ، أو فى مقال ، أو فى رسالة أو فى كتاب . . فليقله بالطريقة التى يختارها بمحض إرادته . . ولكن عليه أن يمنحنا الفرصة لسماع رأيه ، والتفكير فيه ، وفى إقناعه بخطئه إن كان خاطئاً ، أو لتنفيذه إن كان على صواب . . أما استغلال حبنا لمواطنينا ، وحرصنا على سلامتهم وعلى حياتهم ، وعلى تحقيق مطالبهم التى تتفق مع مصلحة البلاد . . هذا الاستغلال فيه لون من الأثرة ، أو من فرض الرأى ، وهو ما تحاربه الثورة ، التى تؤمن بأنه لا يحق لجماعة أن تفرض رأيها على جماعة ، بغير طريق المنطق والإقناع والايمان » .

فجوهر الممارسة الديمقراطية يتمثل فى كفالة الحرية للمواطن بما لا يتعارض وحرية الآخرين ، فالحرية المطلقة

لا تعنى سوى الفوضى التى تعمل على تقويض بناء المجتمع وتضليل أفراده . وأيضاً فإن سيادة القانون تجعل الفرد يحس بكرامته وإنسانيته واطمئنانه إلى التعبير عن نفسه بحرية دون خوف من بطش أو عقاب . ولا شك فالإحساس بالمساواة والعدالة يدفع المواطنين إلى التفانى فى خدمة الأمة والتضحية فى سبيلها . وكما أن للديمقراطية جانبها المثالى المجرد كذلك لها جانبها الواقعى المادى ، فهى تعنى توفير العمل والعيش الكريم لكل مواطن ، كما أنها تدربه على تحمل المسئولية ، والمشاركة فى الحكم ، وبذلك تذوب الحدود بين الحاكم والمحكوم ويتحول الوطن كله إلى أسرة متحابة تنهض على « قواعد العقل ، والوفاء ، والحب ، لا على أساس الحسد ، والقوة ، والخصام » على حد قول فيلسوفنا العظيم الفارابى .

وقد حدد عالم الاجتماع الفرنسى مونتسكيو مفهوم الحرية بأنها الحق فى عمل كل ما تسمح به القوانين . وبدون القوانين الفعلية لا يمكن أن تصان الحقوق الفردية أو الحقوق القومية على حد سواء ، وعلى المستوى نفسه فإنه من المستحيل أن تتحقق الحرية فى دولة خاضعة لدولة أخرى . فهى لا تنفذ سوى مشيئة الدولة المسيطرة بصرف النظر عن العدالة الموضوعية ولذلك فإنه يتحتم على الدولة الخاضعة أن تسترد حريتها أولا ، عندئذ يمكنها فقط تنظيم العلاقات الإنسانية بين الأفراد والفئات المختلفة فى الداخل ، فالواقع أن الحرية داخل الوطن ترتبط عضوياً بالحرية خارجه . ومن الصعب أن يكون للقانون سيادة داخل الدولة ، إذا كانت هذه الدولة غير قادرة على ممارسة سيادتها القومية فى المجتمع الدولى . ولذلك كان على ثورة ٢٣ يوليو أن تقضى على الملكية فى الداخل وعلى الاستعمار المتعاون معها من الخارج فى نفس الوقت ، ذلك لكى تأخذ الممارسة الديمقراطية كل أبعادها الممكنة التى بدونها لا يمكن أن تتحقق أية عدالة اجتماعية على الإطلاق . وفى كتابه « القاعدة الشعبية » يربط السادات العدالة الاجتماعية بالممارسة الديمقراطية فيقول ص ١٥ :

« العدالة الاجتماعية تعنى أن يأخذ كل مواطن فرصة متكافئة مع أخيه بصرف النظر عن الغنى أو الفقر ، وبصرف النظر عن أى اعتبارات . ونحن نعلم أنه كان لا يمكن أبداً أن تكون فى بلدنا حرية وبعضنا أسياد والبعض الآخر عبيد . فقد كان الملك تركى الأصل وكنا نحن جميعاً نشكل طبقة الفلاحين أى العبيد .

كان لا يمكن أبداً أن تقوم ديمقراطية أو حرية حقيقية إلا بالقضاء على كل هذه الفوارق المصطنعة ، وقد كان أن طرد الملك ، وبطرده عادت الأرض إلى الفلاحين وعادت السيادة إلى أصحابها الفلاحين .

من أجل ذلك كان لا بد من تطبيق العدالة الاجتماعية . .لكى يستطيع كل فرد أن يحس بالحرية المطلقة وأى يحس بأنه فى هذا الوطن له من الحقوق ما لكل مواطن يعيش على هذه الأرض . . لا فوارق ولا سادة ولا عبيد ، وإنما نحن جميعاً مواطنون شرفاء نعمل من أجل بلادنا وندافع عنها ضد العدوان وضد المؤامرات » .

وحرية الرأى ضرورية وحيوية بالنسبة للتقدم الحضارى لأية أمة ، فمن خلال ممارستها يستطيع القائمون على الأمر التعرف على مواطن الضعف فى التجربة القومية ، وبالتالى يمكن تلافيها قبل أن تتضخم وتفتحل . فحرية الرأى هى التعرف على الداء عن أقصر طريق والقضاء عليه بأسرع السبل . ولذلك فالممارسة الديمقراطية لا تؤمن بالمسكنات المؤقتة أو الوسائل الإعلامية التى من شأنها صرف الرأى العام عن المشكلات الحيوية . لأن سلوك النعامة هذا لن يحلها بل سينتج عنه مضاعفات ورواسب قد يصعب التخلص منها فيما بعد . ولذلك يجب أن تكون حرية الرأى على كل المستويات لأنها لا تتجزأ ، فإذا منحت حرية الرأى لفئة معينة وحرمت منها فئة أخرى ، فإن حرية الرأى ذاتها ستنتفى من أساسها ، لأنه يستحيل أن يكون الإنسان حراً فى رأيه لدرجة أن يحرم غيره من ممارسة الحرية نفسها . ولذلك يقول السادات فى الكتاب نفسه ص ١٧ :

« نحن نؤمن بأن الديمقراطية الحقيقية هى أن يكون لكل فرد منا فى هذا الوطن : للفلاح وللعامل وللموظف وللطالب .

لكل إنسان متعلم وغير متعلم الحق الكامل فى أن يبدى رأيه فى حرية وصراحة ، ولا يخشى من إبداء رأيه أية سلطة فى هذا البلد . نحن نؤمن بأن الديمقراطية الحقيقية هى أن يسمح لكل مواطن مهما كان وضعه الاجتماعى بأن يعبر عما يحس به من حرية » .

ويؤكد السادات أن الممارسة الديمقراطية لا تتيح فرصة إبداء الرأى للمواطن فحسب ، بل تمنحه حق مراقبة الحكام ومحاسبتهم كما يقول ص ١٨ من الكتاب السابق نفسه :

« الديمقراطية الحقيقية هى أن يكون لكل مواطن الحق فى إبداء رأيه فى حكامه وفى مراقبتهم ومحاسبتهم . الديمقراطية النظيفة هى أن نصل إلى مرتبة جديدة وإلى وضع جديد لا يستطيع فيه الحاكم أن يستغلنا من جديد أو أن يعود بنا إلى الوراء » .

وعلى سبيل التأصيل الفكرى ، فإن الممارسة الديمقراطية ليست شيئاً جديداً على الشعب المصرى العريق ، فله سجل حافل بالكفاح من أجلها قبل أن يدرك الغرب معناها ، فإذا كانت الممارسة الديمقراطية قد تبلورت فى الغرب فى أواخر القرن التاسع عشر ، فإن مصر قد سبقته بقرن كامل من الزمان ، ولم تقتصر على المنـاداة بها بل عرض أبناؤها حياتهم للخطر من أجلها . وفى كتاب « يا ولدى هذا عمك جمال » يشرح السادات لابنه الجذور البعيدة للممارسة الديمقراطية فى مصر من خلال مؤرخنا الكبير عبد الرحمن الجبرتى . فيقول له ص ١٥ :

« فى سنة ١٧٩٥ الميلادية أى منذ مائة وستين عاماً من يومنا هذا ، حين كانت دول كثيرة من التى تطلق على نفسها دولا كبرى أو عظمى اليوم ، لا تزال شعوبها تجهل القيم الحضارية والحقوق الأساسية للإنسان ، كان الشعب المصرى يفرض إرادته على حكامه ، فى وثيقة أجمع المؤرخون المصريون والأجانب على أنها بحق ، وثيقة إعلان حقوق الإنسان .

فى سنة ١٧٩٥ قرر الشعب المصرى ما يأتى :

١ – ألا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها مندوبو الشعب . .

٢ – أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم . .

٣ – ألا تمتد يد ذى سلطان إلى أى فرد من أفراد الأمة إلا بالحق والشرع . .

وذهب الشعب إلى أبعد من ذلك فأجبر حكامه فى ذلك الوقت على الاعتراف فى هذه الوثيقة بخطئهم وأنهم « تابوا ورجعوا » .

ويستمر السادات فى سرد قصة الصراع المبكر من أجل الممارسة الديمقراطية ، ويحكى كيف احتدم النقاش بين الشعب وحاكميه ، بين شعب أعزل إلا من الايمان ، والتصميم ، وبين حاكم مسلح تعود الطغيان ثم يعلق السادات على هذا الموقف التاريخى العظيم فيقول محللا إياه تحليلا علمياً موضوعياً هادئاً ص ١٨ :

« كان تسجيل هذه الحقوق فى حد ذاته معنى من أخطر المعانى . فحقوق الشعب حقوق مشروعة . . ومطالبه مؤيدة . . وقاضى قضاة البلد مختص بتسجيل هذه المطالب . . ودمغ هذا الصك بالدمغة الرسمية والشرعية ، وهى وثيقة لحقوق الإنسان كأقدم ما تكون الوثائق ، أعلنها شعب مصر منذ مائة وستين عاماً ، ليفهم الناس عن هذا الشعب غير الذى يحاول المستعمرون وأذنابهم أن يبقوه فى الأذهان ، وليدرك العالم أن مصر العظيمة فى القديم ، كانت هى هى مصر البارة بالإنسانية ، والحريصة على كرامة الفرد ، فى تاريخها الحديث . .

إن سطور هذه القصة الساذجة لتعكس يا بنى روح شعب مصر الوادع الصبور ، المكافح . . وتعكس فى نفس الوقت مدى فهمه منذ القدم للمعانى ، والقيم الإنسانية . . فمبدأ عدم فرض الضريبة إلا إذا أقرها مندوبو الشعب ، وهو

الذى نادى به شعب مصر عام ١٧٩٥ وأرغم حكامه على التسليم به ، هو أروع دليل على ما لشعب مصر من وعى ديمقراطى أصيل منذ القدم . . وعى ليس مفتعلا ولا مدسوساً ، وإنما هو وعى من صميم البيئة المصرية التى ورثت على مر الأجيال والسنين ، تقاليد حضارات مجيدة . . كانت كلها حضارات علم وبناء وعمران . .

وانظر يا بنى إلى الحوار الذى حوته هذه القصة ، والذى دار بين ممثلى الشعب وممثل شيخ البلد الحاكم . . إن الثورة الفرنسية كلها لتتضاءل أمام المغزى العميق لهذا الحوار . . »

هكذا يؤكد منهج التأصيل الفكرى عند السادات ، الدور الريادى الذى قامت به مصر من أجل الممارسة الديمقراطية والعدالة الاجتماعية . لم يحاول الشعب المصرى مجرد الحديث عن وجوب تطبيق الممارسة الديمقراطية بل انطلق من تلقاء نفسه لكى يطبقها ، حتى ولو عرض نفسه للخطر . وهذا يؤكد لنا الطبيعة العملية للشعب المصرى ، على عكس ما حاول الكتاب المغرضون إلصاق تهمة التراخى والتكاسل والتواكل والاكتفاء بالكلمات الرنانة ، بهذا الشعب الرائد سواء فى مجال الفكر الفلسفى الإنسانى أو فى مجال العمل المادى الواقعى .

ويعلق السادات على هذه الريادة الفكرية والعملية فيقول فى الكتاب نفسه ص ١٩ :

« إن العدالة الاجتماعية التى لم يعرفها العالم إلا حديثاً ، قررها شعب مصر فى حواره الساذج مع حكامه حين اشتكى ممثلو الشعب من فداحة الضرائب . . فرد الـدفتردار أن النفقات باهظة . . فكان رد الشعب : « وما الباعث على الإكثار من النفقات والأمير يكون أميراً بالعطاء لا بالأخذ » .

أتعرف يا بنى ماذا تحويه هذه العبارة الهادئة المرسلة فى غير تكلف أو غرور ؟ إنها تعنى أن الأمير أى الحاكم فرض عليه أن يرفع عن كاهل رعيته الأعباء . . فلا يكلفها من النفقات الباهظة ما لا تطيق . . وأن الحاكم لا يستحق تأييد شعبه ، إلا إذا كانت سياسته هى العطاء أى توفير الحياة الكريمة لجميع أفراد هذا الشعب بإعطائهم حقوقهم ، وإعطائهم فرصاً متكافئة فى الحياة . . وإعطاء الشعب نصيبه العادل فى أمواله وميزانيته . . فلا يستأثر لنفسه ، ولا لحاشيته ولا لفئة دون فئة بما يكون ملكاً لهذا الشعب .

وهل تكون العدالة الاجتماعية غير هذا المعنى ؟ أو هل تفسر العدالة الاجتماعية بغير هذا التفسير ؟ ؟ »

واستلهاماً لهذه الروح المصرية الأصيلة ، رفع السادات شعار الممارسة الديمقراطية – منذ توليه المسئولية والحكم – وطبقه بالفعل برغم الظروف الاستثنائية التى كانت مصر تمر بها بعد هزيمة ١٩٦٧ ، فلم يلجأ إلى أية إجراءات استثنائية برغم أن هذه الظروف تسمح لأى حاكم أن يتخذ من الإجراءات الاستثنائية ما يتراءى له حتى تجتاز الأمة المحنة الراهنة ، ولكن إيماناً منه بأصالة الشعب المصرى ، وعمق وعيه ، ونفاذ بصيرته ، فقد رأى أن الحياة الديمقراطية السليمة خير سند لاجتياز المرحلة الحرجة ، وأراد فى الوقت نفسه أن يؤصل هذا المعنى الإنسانى الكبير فى وقت حرج ومرحلة استثنائية حتى يرسخ فى الوجدان المصرى على أنه بديهية لا بد أن تخرج إلى حيز التنفيذ على مر الأجيال المختلفة . فأعظم وأخلد الدروس التى يتعلمها أى شعب هى الدروس التى تأتى فى أوقات المحن ، ولذلك فهى تتحول فيما بعد إلى قطعة حية من وجدانه وضميره . ولعل النجاح الذى حققه ونستون تشرشل فى قيادته للشعب البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية هو إيمانه بأن النقد الحر البناء للسلطة لا يتعارض إطلاقا مع ظروف الحرب التى تخوضها البلاد . ففى خطاب له فى مجلس العموم فى ١٢ نوفبر ١٩٤١ قال : « إنى أوافق السير بيرسى هاريس فى قوله إن النقد فى زمن الحرب هو شريان الحياة الديمقراطية الحقة » ، ولعل هذا هو السر فى الشهرة العالمية الراسخة التى حققتها الديمقراطية الإنجليزية فى حين أن بريطانيا لم تعرف طوال تاريخها العريض دستوراً مكتوباً ، فالعبرة ليست بالنصوص المكتوبة ، ولكن بإرساء التقاليد وتأصيلها إلى الحد الذى تتحول فيه إلى سلوك يومى للأفراد .

ولم يكتف السادات بالمناداة بالممارسة الديمقراطية بل كان أول من قام بتنفيذها حتى يضرب المثل الأعلى عن طريق الدرس العملى ، فألغى كافة الإجراءات الاستثنائية وأغلق المعتقلات . ويعود إلى تأصيل هذا الاتجاه الإنسانى فى « ورقة أكتوبر » فيقول :

« كان جهدى أن نقيم دولة المؤسسات ، وأن يمارس المواطنون نشاطهم فى سياج من سيادة القانون . ولم أتردد فى أن يتم التخلص من كافة الإجراءات الاستثنائية بالتدريج وأن تغلق كل المعتقلات أبوابها بعد ما يقرب من أربعين سنة من وجودها فى ظل مختلف الظروف وإننى لواثق من أن الشعب لن يسمح بفتحها من جديد فى يوم من الأيام . وما زال هدفى ألا تكتفى الدولة بتحرير طاقة أبنائها عن طريق إزالة السدود والقيود ، بل أن تتقدم أيضاً إلى رعايتهم وحمايتهم بتوفير مظلة من الضمانات الاجتماعية الشاملة . وتوسيع قاعدتها باستمرار ، حتى يأتى ذلك اليوم الذى يستظل فيه بظلها كل فرد .

إننا يجب أن نفهم الاشتراكية بالعقل والقلب معاً . ولذلك لا يجب أن ننقطع عن التفكير فى جماهيرنا الأكثر حرماناً فى وسائل توفير أكرم سبل العيش والأمان والتقدم لها . فالأمم تقاس بمستوى قاعدتها العريضة لا بمستوى قممها القليلة .

وقد كنت أعرف أن هذا كله لا بد أن يحمل معه حركة أكبر للآراء والأفكار والاجتهادات . ولكننى كنت أومن أيضاً أن هذا أمر مطلوب وصحى وأنه الطريق الوحيد لتربية جماهيرنا على الفكر والحوار والمشاركة من خلال ما ارتضيناه من مؤسسات . كما أننى كنت واثقاً أن فطرة شعبنا السليمة ، التى هى مصدر وعيه السياسى الحساس سوف تكفل لنا أن نمارس هذه التجربة من النضج الديمقراطى فى سلام .

نحن نعلم أن الديمقراطية ليست مجرد نصوص ولكنها ممارسة عملية ويومية » .

وحركة التصحيح التى بدأت فى مايو ١٩٧١ ، لم تكن سوى مبادرة السادات إلى تعليم الشعب ضرورة الممارسة الديمقراطية وحتميتها . فلم تكن هذه الحركة موجهة ضد أشخاص معينين بقدر ما كانت بهدف إرساء العلاقات الجديدة التى يطالب بها الشعب بين الحاكم والمحكوم . فقد فوجئ السادات فى آخر اجتماع عقدته اللجنة التنفيذية العليا قبل حركة التصحيح مباشرة ، فوجئ بأن مراكز القوى تريد أن تخنق الممارسة الديمقراطية فى مهدها . حتى يخلو لها الجو وتمارس نفوذها كما تشاء ، فلم يكن الأمر مجرد اختلاف فى وجهات النظر ، فالسادات — بصفة خاصة — من القادة والرواد الفكريين الذين يؤمنون أن الاختلاف ظاهرة قوة وصحة ، فأعضاء الأسرة الواحدة يختلفون ومع ذلك تظل الأسرة وحدة لا تنفصم عراها . ولكن الأمر هنا تحول إلى صراع رهيب تريد مراكز القوى أن تتسلل من خلاله حتى تصل إلى القبض على زمام الأمور وسحق كل قوة شعبية تقف فى طريقها .

وبرغم هذا الصراع الرهيب لم يفقد السادات إيمانه بالممارسة الديمقراطية . وكانت نتيجة عدم القدرة على حسم الخلاف أن طلب عرض الأمر على اللجنة المركزية كامتداد لنفس الأسلوب الديمقراطى الذى لا يريد أن يحيد عنه رغم معارضة مراكز القوى الشديدة له ، وأكد لهم بالحرف الواحد أن : « كل مشاكلى عايز أحلها بالشعب مش بالإجراءات الاستثنائية ، كل حاجة نختلف فيها تعالوا نحطها قدام الشعب ، ونقول له احكم يا شعب ونعود شعبنا بقى أنه يأخذ دوره الكامل والسيطرة على مصيره » . وقبل أن يقوم السادات بحركة التصحيح أعلنها صريحة أمام أعضاء اللجنة المركزية أنه لن يسمح بمراكز قوى على الإطلاق وأنه سيتقدم للشعب لإجراء انتخابات حرة من القاعدة إلى القمة للاتحاد الاشتراكى ، وسيشرف بنفسه مع لجنة قضائية فى مكتبه ومستشارين من وزارة العدل للإشراف على كل صغيرة وكبيرة . وكان قد أكد من قبل فى خطابه فى عيد العمال فى أول مايو ١٩٧١ أنه ليس

من حق أى فرد أو جماعة أن تزعم لنفسها قدرة منفصلة عن قدرة هذا الشعب أو أن تدعى لنفسها موقعاً تستطيع أن تفرض من خلاله رأيها على جموع الشعب أو أن تتستر وراء شعارات أو مناورات تحاول أن تشكل من خلالها مراكز قوة تفرض منها وصايتها على الشعب . بعد أن أسقط هذا الشعب كل مراكز القوى ليبقى وحده سيد مصيره .

والسادات فى هذا المنهج يتمشى مع طبيعة الحياة الإنسانية نفسها ، هذه الطبيعة تحمل الأفراد على التعايش فى دولة لها نظام إنسانى يخضع الجميع له ، وفى الوقت نفسه تعمل على أن يكون الظفر فى النهاية للقانون على الفوضى ، والديمقراطية على الاستبداد ، والتراحم على الاغتصاب . وإن كانت الطبيعة قد جعلت الناس مختلفين فى الأجناس والألوان واللغات والأديان والأفكار والطباع والبيئات ، إلا أنها تعمل فى الوقت نفسه على التقريب بين الناس بما تخلفه من حاجات ضرورية يعتمد بعضهم على بعض فى الحصول عليها ، ولذلك فالتعريف العملى للممارسة الديمقراطية هو تبادل ما يشبع الحاجات داخل إطار اجتماعى وإنسانى يتفق عليه من جميع الأطراف . وهذا بدوره لا بد أن يؤدى فى النهاية إلى سيادة القانون . وفى هذا المعنى يقول برتراند راسل إنه لا يمكن صرف النظر عن حتمية التوافق فى العلاقة العضوية بين الفرد والمجتمع ، ولكن راسل حريص على توجيه الأنظار إلى أهمية الدور الذى ينهض به الفرد فى هذا المضمار . فكثير من الأعمال التى جلبت أعظم الخير للإنسانية تعزى للجهد الفردى . فللفرد قيمته الإنسانية الخاصة به ، وأفضل الأفراد يسهمون بأعظم الجهود فى الخير العام . ولذلك فمن أجل تحقيق الخير العام يجب أن تتاح للأفراد من الحريات مالا يؤذى الآخرين .

ويؤكد راسل أن البقاء هو شرط ضرورى لكل شىء ولكنه ليس فى ذاته الغاية النهائية من الوجود الإنسانى ، فلا بد من الاهتمام بكل ما يمكن أن يضفى على هذا البقاء قيمة ومعنى . وإذا كانت الغريزة الاجتماعية والارتباط بين أفراد المجتمع هو أمر ضرورى للبقاء ولاستمرار البقاء فإن الحرية الشخصية للأفراد شرط لا يقل ضرورة للرقى بهذا البقاء ومن هنا ظهرت مشكلة التوفيق بين سلطان الدولة وحرية الفرد . وهى المشكلة التى خصص لها راسل كتاباً نشر عام ١٩٤٩ تحت عنوان « السلطة والفرد » وفيه أوضح أن مشكلة التناقض بين سلطة المجتمع والدولة وبين حرية الفرد هى مشكلة ظهرت منذ العصر الإغريقى وما زالت حتى اليوم . وهى تتمثل أيضاً فى الجدل القائم بين النظم الرأسمالية التى توفر الحرية المطلقة لقلة من الأفراد ، والنظم الاشتراكية التى تضمن مستوى أدنى من الضمان والفرص المتساوية للجميع . والحقيقة أن الصراع بين الأيدلوجيين لن تحسمه سوى الممارسة الديمقراطية التى تؤدى بطبيعتها الإنسانية الشاملة إلى التوفيق بين إتاحة الحرية وضمان البقاء والاستقرار للمجتمع .

وفى كتابه « برتراند راسل يعبر عن رأيه » الذى نشر عام ١٩٦٠ ، يتنبأ راسل بأن المجتمع الإنسانى فى المستقبل سيتألف من أفراد أحرار أقوياء لم يعرفوا الظلم ممارسة ولا خضوعاً ، مجتمع تسود فيه المصلحة العامة وتوجه فيه الجهود الفردية أو الجماعية نحو العمل الذى يعتمد على الذكاء البشرى ، ويصب فى نهر الحياة الإنسانية الذى لا يتوقف عن الجريان . ويرى راسل أنه قد انقضى الزمن الذى كان ممكناً فيه أن تتمتع الأقلية على حساب الأغلبية ، وأصبح لزاماً على الفرد أن يعترف بسعادة الآخرين إذا أراد أن يحقق سعادته هو . ولذلك فإن واجب التربية يتركز فى أفهام النشء أن الإنسانية هى وحدة متكاملة ، وأن التعاون والمحبة خير من التنافس والكراهية . وإذا برز فى الأفق من الأفراد أو الجماعات من يهدد قيم التعاون والمحبة والحرية ، وجب فى الحال التخلص منها بطريقة أو بأخرى ، ولذلك يوضح راسل فى ختام كتابه أنه : « إذا بحثت شعوب العالم كلها عن وطن واحد ، يضم جموعها بلا تفرقة ، ويتسع لها بلا حدود ، كان هذا الوطن هو : الحرية » .

من هنا كانت حتمية حركة التصحيح التى قام بها السادات فى مايو ١٩٧١ حفاظاً على حرية هذا الشعب الذى

حارب من أجلها طويلاً ، ولا يعقل أن يتنازل عنها أخيراً لمجموعة من الأفراد أو مراكز القوى . ويقوم السادات بتحليل هذه الظاهرة فى « ورقة أكتوبر » فيقول :

« إن حركة التصحيح التى بدأت فى مايو ١٩٧١ ، وإن كانت قد عجلت بها مؤامرات بعض مراكز القوى ، فإنها كانت فى جوهرها أمراً ضرورياً ، حتى نضع شعبنا فى الوضع الأكثر ملاءمة لتحمل أعباء المعركة والمساهمة فى إحراز النصر . . فقد كشفت هزيمة يونيو ١٩٦٧ عن سلبيات كثيرة فى حياتنا ، كانت تشوه وجه تجربتنا الناصع . . ومنذ أفاق الشعب من صدمة النكسة فلقد بدأ يطالب بالتغيير والتصحيح فى الكثير من مجالات حياته ، وكانت الرغبة الشعبية العارمة من أجل التصحيح تقاوم من بعض مراكز القوى ، التى من الصعب عليها أن تتخلى عن سلطاتها ، أو تغير أساليبها فى العمل ، أو أن تقبل العلاقات الجديدة التى يطالب بها الشعب بين الحاكم والمحكوم . .

وبرغم أننا كنا نعيش فى ظل ظروف النكسة ، بما تمليه علينا من اعتبارات وما تضعه على حركتنا من قيود . . وبرغم أن شاغلنا الأول كان الاستعداد لمواجهة عسكرية جديدة مع عدو يحتل أرضنا ويتربص بنا ولا يكف عن تهديدنا فى قلب بلادنا . . فإننى وجدت أنه لا بد من اتخاذ الموقف الحاسم الذى يلبى هذه الرغبة العميقة لدى الشعب ، واثقاً من فطرة جماهيرنا السليمة ، ومن التفاف الشعب حول قيادته خلال معركة المصير .

كان لا بد أن يشعر كل مواطن أنه مسئول عن أقدار بلاده بقدر مسئولية سواه ، وأن قضاياه الأساسية تناقش أمامه علانية ، وأنه لا توجد وصاية تمارس عليه فى الخفاء . كان لا بد أن يزول الخوف ، وأن تختفى بذور الشك ، وأن تتراجع الحزازات والأحقاد ، وأن يحس كل فرد أنه آمن على يومه وغده ، وعلى نفسه وأهله ورأيه وماله . . كان لا بد أن يعرف كل مواطن أن الحرب التى هو مقدم عليها ، لن تحرر له أرضه فقط ، ولكنها سوف تحمل له حياة أكرم وأرحب ، وقيما أعلى وأرفع ، كما سوف تحمل له أملا فى أن يتطلع بحق إلى مزيد من الديمقراطية ، لن تتحقق له كاملة إلا فى وطن قوى عزيز متحرر .

لهذا لم تقف حركة التصحيح عند حد تنحية مراكز القوى عن الطريق ، ولكنها انطلقت إلى تحقيق جوهرها الأهم ، بالعمل على إرساء سيادة القانون ، وإعزاز كلمة القضاء ، وإقامة دولة المؤسسات ، ووضع الضوابط التى يعرف المواطن من خلالها حقوقه وواجباته بوضوح ، ويمارسها فى طمأنينة .

وبرغم أن حركة التصحيح ، كان لا بد أن يقترن بها ما يحدث مع كل خطوة لإزالة السدود والقيود ، من مناقشات وتيارات وانفعالات ونحن لا نزال فى ظروف الحرب ، فإننى كنت واثقاً من إيجابيات هذا الوضع أكثر من محاذيره ، وإن الوحدة العميقة لهذا الشعب ، خصوصاً فى ساعات الخطر ، سوف تصمد للتجربة بل سوف تزيدها هذه التجربة مناعة وقوة » .

ولم يكن هذا الاتجاه الفكرى قد نشأ عند السادات كنتيجة لمؤامرات مراكز القوى ، فهو عنصر من عناصر التأصيل الفكرى ممتد بطول حياته ومنذ أن بدأ فى تكوين نظرة وفلسفة خاصة به تجاه الكون والأحياء . فنجده قبل عشرين عاماً يقول على صفحات مجلة « التحرير » فى ٩ مارس ١٩٥٤ :

« إن أسعد لحظة من لحظات حياتنا ، هى تلك الساعة التى نشعر فيها بأن البلاد قد وضعت لنفسها الدستور الذى تحب أن تعيش فى ظله كريمة عزيزة الجانب ، وأنها بدأت فعلا تستظل بظل هذا الدستور ، وتمارس حقوقها الكاملة ، وعندئذ لن يكون لنا من هدف غير أن ننتظر من هذه الأمة أن تأمرنا – كجنود – بأن نسير لاستخلاص حقوقها ، وتطهير أرضها من الغاصبين ، ويومئذ لن يتخلف واحد منا عن أن يبذل حياته ودمه ثمناً رخيصاً فى سبيل مجد مصر ، وعزتها ، واستقلالها » .

وبرغم أن هذا الكلام قد كتب منذ عشرين عاماً ، فإنه يبدو وكأنه كتب بالأمس القريب ، وهذا يدل على أن إيمان السادات بالممارسة الديمقراطية لم يكن أمراً طارئاً بل خطاً أساسياً فى ريـــادته للتأصيل الفكرى فى الضمير المصرى . وهو حريص دائماً على ضرب الأمثلة العملية حتى يعلم الشعب من خلال الدرس الملموس أن الديمقراطية لا تتحقق إلا بالممارسة الفعلية . وعلى صفحات مجلة « التحرير » نجد لمحات سريعة من هذا ولكنها ذات دلالات كبيرة ، فالأسلوب الذى كان يعامل به السادات جمهور القراء أسلوب ديمقراطى من الطراز الأول وبخاصة فى طريقة رده على رسائلهم . فى العدد الصادر يوم ٢٣ فبراير ١٩٥٤ نجد أحد القراء يسأله السؤال التالى : « هل تسمحون لأنقد الثورة فى السياسة الداخلية دون اعتداء على واضطهاد من البوليس السياسى ؟ » فيرد عليه السادات مطمئناً :

« بلا شك يا أخى وأنا على استعداد لأن أتلقى ما تريد كتابته أو نقده ، ويصلنى مثل هذا من الكثيرين ، ولن يصيبهم أذى لأن هذا حق لكل المواطنين » .

وفى نفس العدد يرد على سؤال قـارئ آخر ، قد يعتبره كاتب آخر تدخلاً فى شئونه الخاصة لا يستحق سوى الإهمال ، ولكن السادات يرد عليه موضحاً كل الأمور حتى يقنعه بالمنطق الهادئ الذى لا يقبل الجدل العقيم . وكان السؤال الموجه إلى السادات كالآتى : « كيف تباشر عملك الصحفى ، وأنت ضابط بالجيش ، أى فى حكم موظفى الحكومة . . أليس هذا كسباً غير مشروع ؟ » فيرد السادات بمنتهى البساطة :

« أباشر عملى الصحفى لأنه جزء من رسالة هذه الثورة التى نؤمن بها جميعاً . وبحكم الوضع الآن فأنا أؤدى ما يطلب منى من خدمة عامة ولكنى أطمئنك يا صديقى أننى لا أتناول إلا مرتب البكباشى فقط ، ولا أحصل على مرتب من دار التحرير ، وتستطيع أن تطلع على حسابات دار التحرير لدى المراجعين القانونيين ، نوار وراغب الجميل ، وشركائهم لتتأكد بنفسك ، ولتطمئن على « الكسب غير المشروع » .

هكذا مارس السادات الديمقراطية فى أثناء عمله بالصحافة ، فقد كان يؤمن أن الصحافة هى التى تنمى عقلية الشعب ، وتعبر عن رغباته ، وتوصل الرأى العام إلى المسئولين ، وترسم للجماهير طريق المستقبل . وتبين لها خطة العمل ، وباختصار فإن الصحافة الحرة بالنسبة للشعب هى بمثابة التربية الاجتماعية والسياسية والفكرية اليومية ولذلك كان من الطبيعى جداً أن يصدر السادات قانون حرية الصحافة ورفع الرقابة ، وأن تكون المسئولية مركزة فى شخص رئيس التحرير . فهو يرى أن تحديد حرية الصحافة عن طريق القانون لم يعد أمراً مقبولاً بعد السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ . لأننا إذا غالينا فى تدخل القانون فهذا يعنى سلب رجال الصحافة حرية ضبط النفس ، وهى من المقاييس الضرورية للممارسة الديمقراطية الحقيقية ، وتكون نتيجة ذلك أن يقوم هؤلاء بعملهم الصحفى بطريقة آلية ، على حين يتحتم أن يكون للصحفيين حرية الفكر والتصرف بقدر الإمكان إشعاراً لهم بالمسئولية حتى يعملوا بوحى من ضمائرهم ، وليس بضغط من القانون أو السلطة . فالقوى الخارجية التى تفرض على الصحافة سواء بواسطة القانون أو الرأى العام قد تجعل الصحفيين يتحايلون على القانون نفسه بشتى الطرق ، وبذلك تضيع كل المعايير اللازمة للممارسة الديمقراطية .

والقوانين الصحفية تستمد أصولها – بصفة عامة – فى التشريع من الدستور ، ولكن الملاحظ أن السلطات التى تسن القوانين هى التى تملك الفاعلية فى تكييف القوانين الصحفية أكثر من أى شىء آخر . فكلما كان المشرع مؤمناً بالديمقراطية كانت القوانين أقرب إلى العدالة ، وأتيح للصحافة أكبر قسط من الحرية . وعموماً فالعبرة ليست دائماً بالنصوص الدستورية أو القانونية وإنما بكيفية تنفيذها على حد قول عبد العزيز فهمى فى خطاب له فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٥ فى اجتماع حزب الأحرار الدستوريين ، وكان قد أكد فى هذا الخطاب « أن كل تضييق على الصحف

لا يكون من شأنه إلا إيغار الصدور وانقلاب الحال إلى عكس المراد » . وهذا يدل على أن الأسلوب الديمقراطى أسلوب أصيل فى التفكير المصرى ، فنجد ضمن نص حكم لمحكمة القضاء الإدارى بمجلس الدولة فى قضية إلغاء صحيفة « مصر الفتاة » أنه إذا كانت الدساتير فى البلاد الديمقراطية قد منحت الصحافة حريتها وعصمتها من تعسف السلطة فذلك لأنها افترضتها صحافة رشيدة لاتميل مع الهوى ، ولا تتجه إلا إلى المصلحة العامة ، والمسئوليات الخطيرة التى تلقيها هذه الحصانة على عاتق الصحافة تستلزم وجوب الاضطلاع بها لخير الوطن ، ولوجه المصلحة العامة وفى حدود القانون والنظام العام . فبقدر الحرية تكون المسئولية .

والصحافة الحرة تلعب دوراً خطيراً فى الحياة الديمقراطية ، فهى قادرة على قياس الرأى العام وتوجيهه فى نفس الوقت . وعلى هذا الرأى العام يعتمد رجال السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والثقافة فى التخطيط لمجتمع المستقبل الديمقراطى الذى يعتمد بطبيعته على حرية تكوين الرأى ، وحرية التعبير عنه . وبدون دراسة الرأى العام يمكن أن تفشل خطط المستقبل ، لأن البرامج والمناهج التى لا تنبع من أرض الواقع ، بل تفرض عليه فرضاً ، لا بد أن تتعثر بسبب المقاومة المباشرة أو غير المباشرة التى ستجابهها ، وغالباً ما تكون النتيجة هى الإخفاق ، والاستغناء عن مثل هذه البرامج فى نهاية الأمر بعد أن يكون قد ضاع من الوقت والمجهود والمال ما يمكن الاستفادة منه فى تطبيقات واقعية أخرى . وبدون شك فإن أصلح أنواع الرأى العام هو ذلك الذى ينشأ فى حماية الممارسة الديمقراطية التى تحيط المواطن بكل الحقائق الضرورية المشرقة منها والقاتمة على حد سواء ، دون مواربة أو تغطية . وعلى قدر إحاطة المواطن بالحقائق الضرورية وحريته فى تكوين آرائه الشخصية والتعبير عنها بحرية يستطيع الرأى العام الديمقراطى أن يقوم بوظيفته على خير وجه من خلال الممارسة الحرة للنقاش والفكر .

وهذه الممارسة ضرورة لوجود الديمقراطية نفسها ، فنى ظل النظام الديمقراطى ذاته يفقد الناس حريتهم إذا لم يمارسوها . أى أنه لا توجد ديمقراطية بدون ديمقراطيين . فإذا أهمل الناس الحوار الحر القائم على الحقائق الرئيسية حول أية قضية عامة فإن ديمقراطيتهم يمكن أن تتلاشى بالتدريج بفعل الدعاية وحذف الأخبار والقرارات التى قد يتخذها الجهاز البيروقراطى فى الحكومة . فإذا لم يمارس الناس بوجه عام حق المناقشة الحرة فإنهم بذلك يبددون حقهم فى التصويت وإبداء الرأى ، وبالتالى فهم يقضون على جوهر الديمقراطية . وفى هذا يقول الزعيم فى مقالة له بجريدة « الجمهورية » فى ٨ أكتوبر ١٩٥٤ :

« إن الطريق الوحيد إلى تحقيق رغبة من رغبات الشعب ، هو أن تمهد له سواعد الشعب . . إنه هو وحده الذى يجب أن يفعل ما يريد ليظل دائماً يريد ما يفعل . . لقد لعبوا دائماً بعواطفه ، واستغلوا مروءته ، وطعنوه فى فى ظهره بطيبته ، وعليه الآن أن يبدأ فى ممارسة سلطته . أما دور الثورة فلا يجب أن يتعدى حدود حمايته ، وتأمين حريته ليختار ويفعل ما يؤمن بضرورته . وأخيراً لا يتهمن أحد الثورة بالضعف ، فليس القوى بالصرعة ، ولكن القوى من ملك نفسه عند الغضب » .

وكشرط مسبق وأساسى لا بد أن تكون السلطة أمانة بين يدى الذين يؤمنون بأنها خدمة عامة للجماهير وليست أداة للتحكم والغطرسة فهناك فرق شاسع بين السلطة بمفهومها الإنسانى الشامل ، والتسلط بتعريفه المتغطرس الضيق . وخير تعريف لهذا الفرق نجده فى خطاب القائد فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ عندما يقول :

« كنت أقصد إلى وضع خط فاصل دقيق ، وحازم بين التراث والميراث بين السلطة بمضمون اجتماعى وبين السلطة تسمعاً على الناس وتصنتاً ودساً وتجسساً وسجناً واعتقالا » .

ويقول الرئيس أيضاً فى كلمته فى ضباط الشرطة فى ١٧ مايو ١٩٧١ :

« كل فرد منكم لازم يكون آمن على حياته ومستقبله علشان يؤمن الشعب على حياته ومستقبله ، أنا عايز الأمن والطمأنينة . . تقـرير أنا ماباخدش بيـه . لكل واحـد الحق أنه يدافع عن نفسه إذا جه فيه أى تقرير ويرد . . لن يكون مصير أى حد معلق بتقرير أو بكلام – لا – كل إنسان لازم يدافع عن نفسه ويعرف هو أيه علشان كده كلنا نحس بالأمن والطمأنينة » .

ومعنى هذا أن نرسخ فى ضمير الأمة ووجدانها الوعى والوضوح بأنه لا توجد سلطة شرعية بدون إرادتها ومشيئتها ، ومن هنا كانت حتمية خلق الرأى العام الشجاع الذى يستطيع أن يعارض السلطة إذا انحرفت أو انحازت ، بل إن الخصومة السياسية حق مشروع طالما أنها فى إطار الممارسة الديمقراطية التى تفرض سيادة القانون سواء على الأفراد أو على الدولة . ولذلك يؤكد القائد فى بيانه إلى الأمة فى ١٠ يونيو ١٩٧١ على أن تباشر مسئوليات الحكم بمؤسسات سياسية ودستورية وعلمية واجتماعية ، واضحة المعالم والاختصاص ، يربط بينها رباط من التعاون الوثيق ، دون تدخل من إحداها فى اختصاص الأخرى ، هذا التدخل الذى يخل بالمسئولية ، أو تضيع معه المسئولية على أن يتم كل ذلك فى إطار التحالف وتحت الرقابة الكاملة والشاملة للشعب .

وأيضاً فإن الممارسة الديمقراطية تحتم سيادة الشرعية الاشتراكية وخضوع الدولة للقانون ، كما يخضع له الأفراد ، وأن ترتبط السلطة بالمسئولية ، وألا يكون هناك قرار أو إجراء أيًّا كانت الجهة المصدرة له بمنأى عن رقابة القضاء ، وألا يحول أى حائل مادى أو غير مادى دون أن يلتجئ أى فرد إلى القضاء ، وأن يشترك الشعب فى إدارة العدالة عن طريق المحلفين وعن طريق الادعاء الشعبى . كما يؤكد الزعيم أيضاً على رقابة المجالس الشعبية المنتخبة على جميع المستويات ، واتساع هذه الدائرة لتشمل أعمال الحكومة والمؤسسات والهيئات العامة ، وضمان قيامها بدورها فى وضع خطط التنمية ومراقبة تنفيذها ، وتأكيد الضمانات التى تكفل للسلطات التنفيذية حرية الحركة ، وللسلطات الشعبية حرية الرقابة والمساءلة .

وينادى السادات أيضاً بتأكيد سلطة تحالف قوى الشعب العاملة ، حتى يلعب دوره فى قيادة العمل السياسى للجماهير ، والتعبير عن إرادتها وأمانيها الحقيقية . ولذلك يجب أن يقوم العمل داخل الاتحاد الاشتراكى ، وفى مختلف مستوياته، على أساس مبدأ القيادة الجماعية حتى تصدر القرارات معبرة بحق عن الخبرة الجماعية وليست عن الأهداف الخاصة بفئة أو مجموعة من الأفراد ، وعلى أساس حق النقد ، والنقد الذاتى ، وهو أمر لا يمكن أن يتم إلا بإطلاق حرية الرأى والتعبير ، دون قيود لجميع القوى المكونة للتحالف ، على أساس الالتزام بأهداف العمل الوطنى كما حددته وثائق ثورة ٢٣ يوليو التى سطرتها الجماهير بنضالها : الميثاق ، وبيان ٣٠ مارس والمبادئ التى أرستها جماهير ١٥ مايو . وأخيراً ورقة أكتوبر . وهذه الوثائق تمنح الجماهير حرية الحركة والتعبير عن الرأى ، وكذلك حق سحب ثقتها من ممثليها إذا ما انحرفوا أو خانوا الأمانة ، أو تعالوا ، أو كونوا مراكز قوى ، أو حجروا على حرية الرأى ، أو انحرفوا عن المبادئ العامة للمسيرة الثورية .

ويرى السادات أن الحرية السياسية لا يمكن أن تتحقق كأسلوب للحكم والحياة إلا إذا تحققت أولا الحرية الاجتماعية . إن حرية رغيف الخبز هى الطريق إلى حرية الفرد ، غير أن الحرية الاجتماعية لا يمكن أن تعيش بدون الحرية السياسية وضماناتها التى تنطلق معها كل ملكات الإنسان فى الخلق والإبداع . وهذه الحريات لا يمكن أن تكون كاملة إلا إذا أزيلت جميع الحواجز والعوائق من طريق الشباب والمرأة ، فالشباب هو الغد والمستقبل ، وإذا لم يلعب دوره كاملاً فى بناء الحاضر ضاع منا الحاضر والمستقبل ، والمرأة هى نصف المجتمع ، والحركة النسائية تختزن من الطاقات قدراً كبيراً وثميناً لا بد أن يؤدى رسالته كاملة فى العمل الوطنى .

وفى الواقع أن السادات كان ينادى بتطبيق هذه المبادئ منذ البدايات الأولى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ولكن ظروف الكفاح الوطنى ، ومؤامرات الاستعمار ، وأطماع مراكز القوى ، وانتكاسات التقدم الثورى التى بلغت قمتها فى هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، كل هذا عوق تطبيق هذه المبادئ وبالتالى فإنه أخر المسيرة الثورية ، وعطل التقدم الحضارى برغم مناداته بضرورة هذه المبادئ فى كتابه « القاعدة الشعبية » ص ٢٨ :

« نحن نريد اليوم أن نضع نظام الحكم الذى يشترك فيه الشعب اشتراكاً كاملاً فى المسئولية مع زعيمه ، ويراقب الشعب حكامه ، ويفرض فيه الشعب رقابته على حكامه ، لأنه من غير هذا لا يمكن أن يتم الإصلاح لا بد أن يشترك الشعب فى الرقابة الفعلية على حكامه . ولا بد أن يساعد الشعب زعيمه فى كل ما يعرض من أمور » .

ومن هنا كان إصرار السادات على إعداد الجماهير نفسياً وذهنياً ومبدئياً لتقبل مسئولياتها على أساس أن الناس يحملون مسئولياتهم إذا أمسكوا بأيديهم حقوقهم ، بما فى ذلك حقهم فى توجيه السلطة الوطنية ، التى لا تعبر ولا يمكن أن تعبر إلا عنهم ، وعنهم وحدهم ، وإلا فقدت أهليتها وشرعيتها . ولذلك فإن الافتتاحية التالية المقتطفة من بيان الرئيس إلى الأمة فى ١٣ يناير ١٩٧٢ تصلح لتكون الخلفية الفكرية التى تلازم إيمانه بضرورة الممارسة الفعلية للديمقراطية وليس مجرد الإيمان النظرى بها . يقول فى بداية البيان :

« لقد كان اتفاقنا دائماً وفى كل الظروف ، وعند كل قرار ، أن نتبادل الحديث وأن نتصارح ، وأن أضع أمامكم ما أفكر فيه . لم يكن ذلك عن مجرد اقتناع بحقكم ، حق الشعب حق الجماهير ، فى أن تعرف كل شىء ، وإنما كان ذلك أيضاً عن اقتناع بأن كل شىء فى الأصل مسئوليتكم . وكل قرار بالدرجة الأولى معكم وبكم ، ولقد التزمت هذا التقليد منذ أن تحملت الأمانة ، وتعلمت أيضاً من التجربة ، أكثر من هذا ، تعلمت أننا حين نحمل العبء نحمله معاً ، وحين نحمل العبء معاً فإن الصعب يهون ، ذلك لأن المشاركة الشعبية فى كل القضايا لا توفر الضمانات والمسئولية فحسب ، وإنما تضىء الطريق فيعرف كل منا إلى أين يسير » .

ويؤكد الرئيس دائماً على أنه إذا كانت المسئولية واجبة على الأمة كلها ، فإن الحقيقة كلها حق لها بغير منازع حتى تثق فى دقة حساباتها وما تبنيه على ذلك من قرارات . ولم يحدث أن أخطر الزعيم الشعب بقرار جاهز سبق أن اتخذه بمفرده ، ولكنه يستلهم دائماً هذا القرار من الشعب لإيمانه العميق بأن مقياس القدرة على تطبيق أى قرار على تصميم الشعب ، فلا يمكن الفصل بين طاقة السلطة وإرادة الشعب ، ولذلك فهو يهدف دائماً إلى ممارسة الديمقراطية بالشعب ، عن طريق الممارسة العملية للشعب وحقه الفعلى فى المشاركة فى القرار السياسى . وهذا لن يحدث إلا إذا أحس كل فرد أن صوته فى الانتخابات يعنى بالفعل مشاركته الحقيقية فى اتخاذ القرار السياسى . وهذه المشاركة تعمق مفهوم الوحدة الوطنية التى تزداد أصالة ورسوخاً بالحوار الحر ، وأيضاً فإن هذه المشاركة تدفع التحول الاشتراكى بالانفتاح على الدنيا ، وليس بالانغلاق على النفس ، فالإنسان الحر يستطيع أن يحمى نفسه من أية تأثيرات دخيلة على كيانه وضميره ، لأنه لا توجد القيود التى تحد من حرية فكره أورأيه . وإيمان السادات بحرية الممارسة الديمقراطية للإنسان المصرى يصل إلى الحد الذى يطبقه فيه على نفسه فهو دائماً يبدأ بنفسه لكى يضرب المثل الأعلى للممارسة العملية . ولنأخذ استقباله للنتيجة التى أسفر عنها الاستفتاء الشعبى على رئاسة الجمهورية بعد رحيل جمال عبد الناصر نموذجاً على الممارسة الديمقراطية التى تشكل فكره وسلوكه معاً . يقول فى بيانه إلى مجلس الأمة فى ١٨ أكتوبر ١٩٧٠ :

« لا بد أن أصارحكم أننى أعتز بالنتيجة التى أسفر عنها الاستفتاء الشعبى ، إن أكثر من ستة ملايين قالوا نعم لترشيحى ، وأكثر من سبعمائة ألف قالوا لا . وأعتبر بأمانة أن هذه ظاهرة صحية وإن كنت أود أن أضيف اعتقادى

الشخصى بأن الذين قالوا لا لم يقولوها اعتراضاً على الثورة . وإنما كان قولهم لها تحفظاً على المرشح لرئاسة الجمهورية نفسه .

إن ذلك – وأصارحكم القول – لم يسبب لى أى ضيق . . ولا أعتبره مدعاة لأسف . . إنما اعتبرته ظاهرة صحية ، فإن هذا الشعب لا يجب أن يمنح ثقته المطلقة لفرد بعد جمال عبد الناصر ، بل لقد كان جمال عبد الناصر نفسه أعلى الأصوات تحذيراً من اعتماد الأمة على الفرد .

وإننى أعدكم أننى سأكون للجميع . للذين قالوا نعم وللذين قالوا لا . إن الوطن للجميع ، والمسئول فيه مؤتمن على الكل بغير استثناء لقد شرفنى أن يقول أكثر من ستة ملايين رأيهم بنعم ، واعتبرت ذلك حسن ظن مسبق أعتز به ، وأرجو الله أن يمنحنى القدرة على أن أكون أهلا له ، وجديراً به .

ولقد شرفنى فى الوقت نفسه أن يقول أكثر من سبعمائة ألف رأيهم بلا ، ولم أعتبر ذلك رفضاً ، وإنما أعتبره حكماً مؤجلا ، وأرجو الله أن يمنحنى القدرة على أن أصل بالأمانة إلى حيث يجب أن تصل الأمانة ، وأن يجىء الحكم المؤجل قبولا حسناً ، ورضاً من الناس والله فى نهاية المطاف » .

والسادات من أبرز الزعماء التاريخيين الذين يقدسون الاختلاف فى الرأى حتى مع السياسيين الذين مارسوا الحياة ثورة ٢٣ يوليو ، ففى الندوة الإذاعية « رأى الشعب » التى أذيعت فى ٢٨ مايو ١٩٥٩ صرح الرئيس أن من حق الساسة القدامى الترشيح فى الانتخابات ، حتى هؤلاء الذين كانوا ينتمون إلى الأحزاب المنحلة ، وأن حرية النقد والتوجيه والاقتراح ستكون مكفولة للجميع ، ولأول مرة سيمكننا نحن أفراد الشعب أن نفرض رقابة على حكامنا . وكمثال عملى على هذا الاتجاه الديمقراطى يحكى لنا السادات حواراً دار بينه وبين صديق له كان نائباً وفدياً فى آخر برلمان قبل الثورة وذلك على صفحات « الجمهورية » فى ٤ أكتوبر ١٩٥٤ :

« كنا نجلس جلسة عائلية هادئة نتكلم فيها فى مختلف المواضيع على طريقتنا التى تعودناها ، فهو صديق قديم . وفوق هذه الصداقة فأنا أحس دائماً نحوه بتقدير واحترام لأنه من أولئك الطراز من الرجال الذين تتمثل فيهم القوة فى الخلق والوفاء بأجل معانيه . .

كان صديقى هذا نائباً وفدياً فى آخر برلمان ، وتشعب بنا الحديث إلى أن جاء ذكر المجلس الوطنى . . فسألته عن رأيه فيه فلم يتردد لحظة واحدة على طريقته فى التعبير عما يحس به كما هو وقال : (يخيل لى أنه سيكون مجلساً صورياً من غير اختصاص ، وبصراحة كمان ما فيش منه فايدة) . فقلت له : هون عليك يا صديقى . . . فلعلك إذا علمت الحكمة من قيام المجلس الوطنى كأداة استشارية إلى جانب الحكومة ، لعلك تقتنع أن اعتراضك هذا ليس له ما يبرره وإذا اقتنعت برأيك كان بها ، أما إذا لم تقتنع فلك رأيك ، فأنا أذكرك يا صديقى ببدء هذه الثورة ، وكيف أننا كنا مصممين على إجراء الانتخابات فى فبراير سنة ١٩٥٣ حتى إن هذه الفقرة حين لم ترد فى بيان الرئيس السابق على ماهر الذى أذاعه عقب الثورة بادرنا نحن إلى إذاعة بيان من القيادة لنؤكد إجراء الانتخابات فى فبراير على النحو الذى ذكرته فما الذى جرى بعد ذلك . ؟

طلبنا إلى الاحزاب أن تطهر نفسها فأبت واستعلت ثم بدأت مناورات رجال السياسة وفيهم من ظن أنه يستطيع أن يستغل هذه الثورة لكى تستمر الأوضاع فى البلاد على ما كانت عليه قبل الثورة » .

ويبدو أن قضية الممارسة الديمقراطية كانت من القضايا المبكرة التى شغلت فكر السادات ، فنجده يوجه هذا السؤال فى نفس الحوار :

« هل يستطيع أحد ان ينكر حالة الفساد السياسى والخلقى والاجتماعى التى كانت تسيطر على البلاد قبل ٢٣ يوليو ؟

قال : لا . .

قلت : هل من المناسب اليوم والبلاد تجتاز أخطر فترة فى تاريخها ، والمشروعات الكبرى توضع وتنفذ ، والبرامج تعد حسب الطريقة التى نهضت بها جميع الأمم وتنهض على أسس علمية . . هل من المناسب فى هذه الفترة أن تعود الأحزاب والانتخابات والخصومات والأحقاد بعد أن قطعنا هذا الشوط الطويل ؟

قال : لا . .

قلت : إن فكرة المجلس الوطنى فى حقيقتها ما هى إلا تمهيد لقيام حياة برلمانية نظيفة ، بمعنى أنه على المجلس أن يضع من التقاليد الجديدة ما يجعل المؤيد يؤيد للمصلحة فقط ، والمعارض يعارض للمصلحة فقط . ليس كما تعودنا فى الماضى أن تكون المعارضة لشخص فلان أو لأن مصلحة النائب الفلانى لم تتحقق إلى آخر ذلك مما نعلمه جميعاً » .

ثم يؤكد السادات أن الشرط الأساسى للممارسة الديمقراطية الحقة هو أن تساعد الدولة كل المواطنين لكى يحصلوا على الحقيقة كاملة ، وعلى المواطنين أيضاً أن يسعوا إلى ذلك بكل حماس وموضوعية ، فهذا هو السبيل الوحيد لمعرفة مواطن القوة وثغرات الضعف ، وبالتالى يمكن التأكيد على الأولى وتجنب الأخيرة . ويختم السادات هذا الحوار الديمقراطى الحيوى بقوله :

« استمر الحديث فترة وكل ما تبينته هو أن صديقى شأنه شأن كثيرين من المواطنين المخلصين انطووا على أنفسهم أن كرامتهم تمنعهم من أن يتصلوا بالمسئولين ليعرفوا الحقائق على وجهها الصحيح ولم يصل إليهم إلا صورة مشوهة صورها مغرض إليهم أو حاقد ، فظنوا أنها الحقيقة . . إن هذا حال كثيرين من المواطنين الطيبين فمتى سيخرج هؤلاء الطيبون من عزلتهم ؟ »

ولعل هذا التشويه المغرض يرجع إلى الحياة النيابية التى سادت مصر قبيل الثورة ، فقد تحولت الأحزاب من تنظيمات سياسية تعمل من أجل الصالح العام إلى مجرد واجهات سياسية براقة لإخفاء أهداف فئة معينة أو مطامع أشخاص محددين ، وبالطبع فإن هذه المطامع كثيراً ما تتحول إلى تكالب وصراع مميت ، ووسط هذا التكالب وذلك الصراع تضيع المصلحة القومية بضياع كل المعايير الموضوعية . ولعل وصف جمال الدين الأفغانى للحياة الحزبية فى مصر فى عصورها الأولى بمثابة إلقاء ضوء كاشف على الحقائق العارية التى لازمت هذه الحياة حتى تحتم على ثورة يوليو ١٩٥٢ أن تقوم بإلغائها منعاً للفوضى السياسية التى استشرت فى البلاد . يقول جمال الدين الأفغانى :

« نحسن نحن الشرقيين تأليف الأحزاب السياسية لطلب الحرية والاستقلال ، وكل العالم أصدقاؤنا ، ثم نضطر إلى تركها والكل لنا أعداء ، والسبب العامل فى ذلك هو عدم التكافؤ فى القوى بين الأمة وأحزابها السياسية .

يقوم الحزب السياسى على عنصر ضعيف أو على أفراد قلائل ، بينهم اللسن والمحنك ، ويعلنون تفانيهم فى خدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستعمار ، والأمة تتخيل من وراء وعود الأحزاب سعادة ورفاهية ، وحرية واستقلالاً ومساواة ، فإذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة واستحكم له الأمر ، ظهرت هناك فى رؤساء الأحزاب الأثرة والأنانية ، ومد حب الذات عنقه ، فتتقلص من القلوب تلك الطاعة ، وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد ، وتحصل بالنتيجة النفرة العامة ، وتضطر حينئذ لترك الحزب وينفرط عقده والكل له أعداء » .

ويرسم لنا توفيق الحكيم صورة كاريكاتيرية لاذعة للدور الذى قامت به الأحزاب قبل الثورة فى كتابه « تحت شمس الفكر » فيقول ص ١٦٩ :

« ليس فى مصر حزب بالمعنى الحقيقى لكلمة حزب كما تفهم وتستعمل فى النظم الديمقراطية الصحيحة !... إنما

فى مصر « فرق » منفصلة تسمى أحزاباً ، لا هم لكل فرقة من هذه « الفرق » إلا « توزيع » المقاعد البرلمانية ، والحصول على المناصب الوزارية وتنظيم حركة « تذاكر » الانتخاب ، أما برنامج « الرواية » فليس من هم أحد التفكير فيه ! . فالأمر فى ذلك يسير على نمط حفلات التمثيل و « متعهديها » الذين يركزون كل نشاطهم ، فى مسألة توزيع المقاعد وتحصيل قيمة التذاكر ! . . أما مسألة « البروجرام » والغرض من الحفلة وما إلى ذلك فلا يلتفتون ولا يجعلونه من شأنهم ! . . وإنى لأحب هنا أن أقول : إنه قد آن الأوان لأن يسأل الشعب عن البرامج لا عن شغل المقاعد » .

ثم يتساءل توفيق الحكيم ص ١٧١ عن المعنى الحقيقى للديمقراطية فيقول :

« ما معنى الديمقراطية إذا لم تكن هى تمكين طبقات الشعب كلها — على اختلاف مراتبها ومطالبها — من الدفاع عن نفسها بنفسها تحت قباب المجالس النيابية ؟ ! ما من برلمان فى أى بلد ديمقراطى فى العالم ، يعرف هذا الوضع الذى نحن عليه ؛ لأنه ما من أحزاب فى العالم تكونت هذا التكوين الشخصى المرتجل كأحزابنا المصرية ، ذات الصبغة الشخصية الواحدة المتشابهة ! » .

ومن مساجلات الحكيم مع منصور فهمى عام ١٩٣٨ نجد تحليلا موضوعيًّا للعلاقة بين الممارسة الديمقراطية والخصومة السياسية ، فالخصومة السياسية فى المجتمع الديمقراطى السليم هى خصومة المبادئ وليست خصومة الأشخاص ، ولكن الاهتزاز بين المعايير الموضوعية والمقاييس الذاتية أدى إلى الخلط بين المبادئ والأشخاص وضاعت الحقيقة الواضحة وبالتالى ضاعت معها المصلحة العامة . ولقد كتب الحكيم هذه المساجلة فى كتابه « تحت شمس الفكر » ص ١٥٧ فقال :

« كارثة أخرى من الكوارث التى نكبت بها مصر ، هذا الغلو والإغراق فى الخصومات ، فإذا اختلفنا على رأى فنحن أفيال هائجة تدوس كل شىء وتحطم كل شىء ، إن فى كل بلد راق حدوداً مقدسة تقف عندها الخصومة وأسلحة لا يلجأ إليها أبناء الوطن الواحد ؛ فإقحام الدين مثلا فى ميادين الخلاف السياسى أمر لا يمكن أن يحدث اليوم فى أى شعب ديمقراطى متحضر ! . .

فالديمقراطية ليست كلمة تقال فى الخطب ، لأنها جميلة ذات رنين ، ولا هى بناء شامخ يسمونه « البرلمان » ، لكن الديمقراطية هى روح المساواة والإخاء وحرية الفكر المكفولة للجميع ! . . وإن كل طعنة تصيب كتلة الوطن فتحللها إلى عناصر أو طوائف إنما هى طعنة مسمومة تصل مباشرة إلى قلب الأمة وصميم الديمقراطية ، كذلك ينبغى أن نتذكر دائماً أن الخصم فى المبدأ هو مواطن مصرى قبل كل شىء ، وأن خصومة المبدأ ليست معناها القضاء المبرم على الأشخاص بكل الأسلحة ، وتعطيل كل أدوات المنفعة التى ترجى منهم فى وقت من الأوقات ، فليس من حق مواطن أن يقضى على مواطن آخر قضاء يخرجه إلى الأبد من ميدان النفع العام وإنما الغرض الذى يسعى إليه الجميع هو خدمة الوطن وحده !.. فلتكن الخصومة فى حدود التنافس على القيام بخدمة المجموع ، وليعتقد كل فى خصمه أن عجزه يوماً عن خدمة بلاده على الوجه المطلوب لا يمنع من استطاعته ذلك فى يوم آخر ؛ فلتكن إذن السهام المصوبة من طرف إلى طرف فى غير مقتل من الشخصية والآدمية والشرف ، فليس من مصلحة الوطن أن تفرش أرضه بصرعى وقتلى من أبنائه العاملين ، إنما المصلحة هى فى أن تتداول السواعد إدارة العجلة ، وأن تتهيأ لكل يد الفرصة لخدمة البلاد » .

والمعنى الراقى للديمقراطية نجده فى خطاب السادات فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧١ عندما يقص علينا تجربة شخصية له فى زيارة له للهند :

« فى سنة ١٩٥٥ أنا كنت فى رحلة للهند وباكستان وأفغانستان إلى أندونيسيا ، كنت فى ذلك الوقت سكرتير المؤتمر الإسلامى ، زرت أكثر من ١٠ دول وعدت ، وعدت بانطباع غريب ، سنة ١٩٥٥ كان فيه عندنا هنا صراع داخل مجلس الثورة ليه ؟ ١٩٥٦ كانت جاية اللى احنا وعدنا البلد فيها بالدستور ، وكان فات سنة ٥٢ وسنة ٥٣ وسنة ٥٤ ودخلنا سنة ٥٥ العوامل البشرية ابتدت . . ابتدت الصراعات وأنا فى الهند ، أقام لى الله يرحمه الباندديت نهرو حفل استقبال ، وكان موجود فيه كل المسئولين ، وكثيرين من أعضاء البرلمان ، سواء من حزب المؤتمر حزبه ، أو من المعارضة كلها ، ولفت نظرى شيء غريب قوى ، فيه اتنين أصدقائى ، نائب هندى وزوجته ، وأنا أعرف أنهم من أشد المعارضين لنهرو ، كانوا زاروا القاهرة وزارونى ، أعرفهم ، أصدقائى النائب وزوجته ، ودعوهم فى الحفلة وجم ، كانوا موجودين ، شيء أثر فى جداً أنى لقيت النائب وزوجته دخلوا . دول من أشد المعارضين لنهرو دخلوا سلموا على نهرو بمنتهى الاحترام ، قبلوه زى ما بيقبل الابن أبوه ، وبيقدمهم لى نهرو ، فقلت له : دول أصدقائى الاتنين ، قال لى إنه عارف دول من المعارضين لى ؟ قلت له : آه . . قال لى : طب أوعى الناس دول يعدوك . . شيء من المزاح يعنى . . وقعدنا نضحك فى هذا الوقت ، لكن الطريقة اللى سلموا بها على نهرو شعرت أن ابن أو بنت بتسلم على أبوها . . فى ذلك الوقت كان نهرو بيمثل وحدة الهند ، الهند فيها أكثر من ١٠٠ لغة ، ويمكن ١٠٠ قومية ، أجناس بتنتقل من مدينة لمدينة ما بيفهموش بعض لغوياً ، بين كلكتا وبومباى ، مابيقدروش يفهموا ، بومباى ونيودلهى . ما بيقدروش يفهموا لغة بعض ، اللغة المحلية إلا بعد ما عملوا لغة واحدة ، لكن كان وقتها ، يعنى فيه ١٠٠ لغة فى الهند ، ولغاية النهارده فيه ١٠٠ لغة فى الهند ، وقوميات وأجناس وأديان ، ومع ذلك ٥٠٠ مليون يمثلهم أب هو نهرو . أشد المعارضين له يدخل وفى الحفل أمامى ، ويعاملوه كأب تماماً ، وهو يمزح ويمازحهم كأب تماماً . . أنا لما رجعت هنا سنة ١٩٥٥ بعد الجولة وشفت الصراع اللى عندنا فى مجلس الثورة ، تقدمت باستقالتى ، تانى استقالة لى ، قلت إن أنا شفت فى الهند المنظر اللى أنا حكيت لكم عنه ، وإنه راجل واحد استطاع أن يوحد مائة لغة وعشرات الأديان وعشرات الأجناس ، فكيف بنا احنا هنا ، واحنا شعب واحد وجنس واحد وجبهة واحدة . . كيف بنا نعمل صراع ؟ والله أنا باعتبر أن مهمتى فى مجلس الثورة انتهت » .

ونوقش هذا الموضوع ، وسجل فى سجلات مجلس الثورة ، وكانت نتيجته أن رفضت الاستقالة . فقد كان السادات بالنسبة لأعضاء المجلس التجسيد الحى للديمقراطية ، ولذلك كان وجوده ضرورياً وحيوياً حتى لا يصل الصراع بينهم إلى نقطة اللاعودة . فالممارسة الديمقراطية هى صمام الأمن عندما تتأزم الأمور وتنذر بانهيار الموقف من أساسه . والحوار الديمقراطى يفتح الباب لاختلاف الرأى ، ولكنه يرفض المساس بجوهر الوحدة الوطنية التى كانت نتيجة مباشرة لتراثنا الحضارى العظيم من قيم روحية وإنسانية مميزة لشعبنا . ولذلك فالممارسة الديمقراطية هى وسيلتنا إلى الحفاظ على حريتنا السياسية وعلى حريتنا الاجتماعية والسير فى طريق التقدم المعاصر ، وقد نظم الدستور هذه الممارسة من خلال مؤسسات الدولة ، وأى خروج على قواعد هذه الممارسة يفتح الباب للتحكم ويشوه التعبير عن الارادة الشعبية ، ومن ثم فإن احترام سيادة القانون هو الذى يكفل نفاذ كلمة الشعب المتمثلة فى القانون ، وسيادة القانون تفرض من الواجبات والمسئوليات بقدر ما تكفل من حقوق وحريات . فإنه لا توجد ، ولن توجد حقوق أو حريات مطلقة ، لأن الحق والحرية ممارسة ، والممارسة تجرى فى مجتمع ، ولا يمكن لإنسان أن يتمتع بحقه وبحريته إلا فى حدود احترام حقوق وحريات أخرى ، قد تكون حقوق وحريات للمجتمع ، كما قد تكون لأفراد . القانون فى النهاية هو موازنة بين حقوق وحريات متعارضة ، ثم ترجيح أيهما أجدر بالحماية ، ومن ثم فإن سيادة القانون هى الضمان الحقيقى لحرية الفرد ، كما أنها الضمان الحقيقى لحرية المجتمع . وفى هذا يوضح السادات فى كتابه « معنى

الاتحاد القومى » المفهوم الديمقراطى الحضارى للحرية فيقول ص ٤٨ :

« الحرية هى دائماً حرية الحركة داخل وضع محدد . . ومحدد لأن الأوضاع دائماً محددة ، وقد كنا وسنظل داخل وضع محدد يحتم علينا أن نتحرك فى نطاقه فقط ، وأن لا نتجـاوزه . . وإلا هلكنا . . وإذا عسكرت جماعة فى غابة فإنها لا تزاول حريتها فى النوم واليقظة كما يحلو لها ، وإلا لزاولت الذئاب والسباع حريتها فى التهامهم كما يحلو لها . . أليس كذلك . . ؟ ! لا بد إذن من إيجاد وضع ، نوفق فيه بين رغبتنا الغريزية فى النوم واليقظة كما يحلو لنا وبين الخطر الجاثم من حولنا . . ولهذا يتحتم أن نضع فى اعتبارنا دائماً الوضع الذى نحن فيه عند تفكيرنا فى الوسيلة التى يمكن للشعب بها أن يزاول حريته ومسئوليته . .

والوضع الذى نحن فيه ببساطة أننا مهددون بالاعتداء علينا وسلب حريتنا واستقلالنا ، كلنا مهددون ، كلنا بأرضنا وسمائنا وقنالنا وطبقاتنا وآلامنا وآمالنا . . ولهذا لا خلاف بيننا على أن واجبنا الأول هو مقاومة هذا التهديد ، وأخذ الحذر ، وتدعيم حريتنا واستقلالنا . . نحن كلنا متفقون بالإجماع على مقاومة الأعداء مهما كان هؤلاء الأعداء ، والتعاون مع الأصدقاء مهما كان أولئك الأصدقاء تلك هى الحقيقة البسيطة . . وهى أيضاً الطريقة الوحيدة لكى نبقى أحراراً ، ولكى لا نموت » .

وهذا الكلام الذى نادى به السادات فى الخمسينيات ، قام بتنفيذه فى السبعينيات ، فوضوح الرؤية عنده كان من القوة بحيث جعل منهجه فى التأصيل الفكرى مجسداً للاتساق الذى لا يعرف التناقض أو التخبط . يقول فى حديثه فى مجلس الشعب فى ٣١ يناير ١٩٧٣ :

« أنا قلت مش حانرجع فى الممارسة الديمقراطية ، لكن الممارسة الديمقراطية لا تعنى الفوضى أو الخروج على الخط الأساسى . قد نختلف فى مجتمع الديمقراطية قد نختلف داخل الهيكل الأساسى بتاعنا ، بتاع المجتمع ، أما حينما يصل الخلاف إلى المبادئ الأساسية للمجتمع بتاعنا ، لأده مش خلاف ده صراع وهدم ، ولا يقبل على الإطلاق ، لن يمكن أن نكمل مسيرتنا ونكمل ممارستنا الديمقراطية عشان نكمل التجربة . أنا حكيت وقلت إن المؤسسات قامت ، الاتحاد الاشتراكى بالانتخاب قام ، مجلس الشعب بالانتخاب الحر قام ، السلطة التنفيذية موجودة ، بدأت الممارسة الديمقراطية . احنا لسه ما كملناش التجربة . ده احنا فى الممارسة وحا يحصل أخطاء ونصلح هذه الأخطاء » .

وفى نهاية الحديث يصر السادات على أنه إذا كان من المقرر أن حرية الرأى مكفولة ، ولكل إنسان حرية التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو الكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير ، وأن النقد الذاتى والبناء ضمان لسلامة البناء الوطنى ، إلا أنه من المقرر كذلك ، وعلى قدم المساواة ، أن هذه الممارسة يتعين أن تكون فى حدود القانون ، وفى إطار الالتزام الكامل بالمبادئ الأساسية التى أعلنتها حركة التصحيح فى مايو ١٩٧١ من توكيد لحرية الفرد ودعم للممارسة الديمقراطية من خلال المؤسسات الدستورية والشرعية ، مع الالتزام بتحقيق سيادة القانون . ومن ذلك فإن الحرية لا تعنى غياب القانون ، كما أن سيادة القانون لا تشكل حجراً على الحرية ، فالحرية جوهر ، والقانون سياج من حولها يحميها ، ويحمى ممارسيها ، كما يحمى القيم والمقومات الأساسية للمجتمع ، وعلى الخصوص تحالف قوى الشعب العاملة ، والوحدة الوطنية بين هذه القوى ، ذلك أن تحالف قوى الشعب العاملة هو الصيغة الملائمة لضمان الوحدة الوطنية ودعمها ، التى ارتضاها شعبنا وأقرها . والسادات على يقين كامل بأن وعى جماهير شعبنا المعزز بسلطة الدولة النابعة من إرادة شعبنا ، قادر على أن يبت ويحسم بما يضمن الممارسة الديمقراطية لكل المواطنين فى ظل سيادة القانون ، فذلك وحده هو الذى يشكل خطاً فاصلاً بين الحق والباطل ، وبين الأصالة والزيف .

والمتتبع لمناقشات مجلس الشعب بعد حركة التصحيح فى مايو ١٩٧١ سيجد أن مناداة السادات بالممارسة

الديمقراطية قد تحولت إلى واقع فعلى تمثل فى المناقشات المشهودة التى تابعها الزعيم بالتقدير والإعجاب والتى ساهمت فى التوجيه والتصحيح ، فالآراء الجديدة البناءة لا تولد إلا من الاحتكاك بين مختلف الآراء السابقة لها ، أما الموافقة الإجماعية على طول الخط فلا ينتج عنها سوى التكرار والتقليد والملل والعقم . وعندما كان هناك من يبدى الخشية من آثار هذا الانفتاح ومن مخاطره كان الرئيس يقول : « فلنمارس ولا نخشى شيئاً » ، وكانت النتيجة أن تنوعت الآراء والاجتهادات سواء داخل مجلس الشعب أوخارجه فى كل مجال ، ولم يكن هناك مجال لم تتناوله المناقشات من قضايا التحرير إلى قضايا التعمير وبذلك تكون الرأى العام الناضج الذى تبلور من خلاله فكر الزعيم ممزوجاً بآمال الشعب .

وبهذا يكون السادات قد نجح نجاحاً تاريخيًّا فى إرساء تقاليد الزعامة الوطنية من أجل الأجيال القادمة ، فالمفهوم العلمى للزعامة يؤكد أن الزعيم أو القائد هو إنسان كسائر الناس له طباعه وأفكاره وأخلاقه ، ويشارك بنى وطنه فى ثقتهم إلى حد كبير ، غير أنه يمتاز عليهم بشمولية الفكر ، ووضوح الرؤية ، وعمق النظرة ، ونفاذ البصيرة وقوة الشخصية ، ودفعة الطموح . والقدرة على التأثير فى الجماهير . وكل هذا يبدو فى جهاده وكفاحه فى الماضى قبل توليه مقاليد الزعامة ، وفى أعماله الوطنية المجيدة التى تجعل الناس يستشعرون الانتقالة من سلبيات الماضى إلى إيجابيات الحاضر ، وأخيراً فى فلسفته السياسية الجديدة التى تستشرف آفاق المستقبل بكل جوانبه المتعددة . والزعيم فى كل هذا ابن بار للشعب ، يستطيع أن يلمس نبضاته ويجسها ، ثم يحولها إلى برنامج عمل . وهذه النبضات هى اتجاهات الرأى العام التى تجد لنفسها التعبير الحر فى ظل الممارسة الديمقراطية . وإذا كان الرأى العام يمهد السبيل لظهور البطل القومى ، فإن هذا البطل يقوم بعد ذلك بتوجيه هذا الرأى وترشيده . وفى الواقع فإن هناك تفاعلاً عضويًّا بين الرأى العام والزعيم ، فكلاهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به فى أثناء الممارسة الديمقراطية . فالزعيم حين يخطب فى الجماهير يؤثر فيها بأفكاره ، وفى الوقت نفسه يجس نبض هذه الجماهير من خلال مدى التجاوب ودرجاته معه ، ولذلك يتأثر بميول واتجاهات الجماهير وبالتالى فإنه يعدل سياسته وفقاً لمتطلبات الرأى العام أما الحاكم المستبد فيحاول فرض سياسته على الرأى العام وذلك بالتأثير فيه دون التأثر به ، أى أن العلاقة هنا غير عضوية بمعنى أنها من طرف واحد فقط .

والزعيم الديمقراطى الذى يدخل تغييرات حيوية وضرورية فى مجتمعه إنما يعتمد على الرأى العام الموجود بالفعل أو المتوقع مستقبلا ، فهذا الزعيم ذو بصيرة عميقة ، ونظرة ثاقبة بحيث يعرف مقدماً أن هذه التغييرات ستلقى تأييداً من الجمهور . وكان السادات مدركاً لكل أبعاد الرأى العام العربى الذى سيتكون عند إعلان حرب التحرير المقدسة ، فالحدث الجلل يفرض نفسه على الرأى العام ويوحد فكر الأمة كلها تجاهه ، ولذلك يقول السادات فى خطابه التاريخى فى افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب فى ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ عندما كانت انتصاراتنا المدوية تملأ سمع العالم وبصره :

« لقد كانت هناك إشارة واضحة إلى وجود تمزق فى ضمير الأمة العربية كلها ، وكنت أرى ذلك طبيعياً لأسباب اجتماعية وفكرية زادت عليها مرارة النكسة ، كان هناك من يسألوننى ويسألون أنفسهم ، هل تستطيع الأمة أن تواجه امتحانها الرهيب وهى على هذه الحالة من التمزق فى ضميرها ؟

وكنت أقول إن هذا التمزق فضلا عن أسبابه الطبيعية يعكس تناقضاً بين الواقع والأمل وليس فى ذلك ما يخيف بل كنت أعتقد أنه ليس هناك شفاء لضمير الأمة ولا راحة له إلا عندما تواجه الأمة لحظة التحدى ، ولم أكن فى بعض الأوقات على استعداد للدخول فى مناقشات عقيمة ، هل نعالج التمزق قبل مواجهة التحدى ، أو نقبل التحدى برغم وجود إشارات إلى التمزق ؟ . . وكان رأيى أن الأمم لا تستطيع أن تكشف نفسها أو جوهرها إلا من من خلال ممارسة الصراع وبمقدار ما يكون التحدى كبيراً بمقدار ما تكون يقظة الأمة واكتشافها لقدراتها كبيرة . .

لست أنكر وجود خلافات اجتماعية وفكرية فذلك مسار حركة التاريخ ، ولكننى فى نفس الوقت كنت أعرف أن الأمم العظيمة عندما تواجه تحدياتها الكبرى ، فإنها قادرة على أن تحدد لنفسها أولوياتها بوضوح لا يقبل الشك . كنت مؤمناً بسلامة وصلابة دعوة القومية العربية ، وكنت مدركاً للتفاعلات المختلفة التى تحرك مسيرة أمة واحدة .

ولكننى كنت واثقاً أن وحدة العمل سوف تفرض نفسها على كل القوى وعلى كل الأطراف وعلى كل التيارات لأننا جميعاً سوف نعى هذا الظرف ليس مباراة بين الاجتهادات وإنما هو الصراع بين الفناء والبقاء لأمة بأسرها » .

هكذا أتاحت الممارسة الديمقراطية للزعيم أن يدرك التفاعلات المختلفة التى تحرك مسيرة الأمة العربية كلها ، وبذلك استطاع أن يصدر القرار المناسب فى الوقت المناسب ، ومن هنا كانت فاعلية القرار الذى أقام العالم وأقعده بين عشية وضحاها ، فبعد أن قرر العالم وضع قضية الشرق الأوسط فى الثلاجة حتى تتجمد ويزول خطرها تماماً ، وجد نفسه فجأة وقد أجلسته القضية ذاتها على فوهة البركان . وعندما أحس بلفحات الحمم وهجيرها ، صرخ طالباً حلا سريعاً وحاسماً ونهائيًا للقضية كلها ، واختفى من القاموس السياسى والعسكرى ذلك الاصطلاح الجديد : الاسترخاء العسكرى فى الشرق الأوسط . فلا استرخاء وراحة لأحد على حساب آخر .

وكان السادات يدرك جيداً أنه لا شفاء لضمير الأمة إلا بمواجهة لحظة التحدى ، وبذلك يحل الرأى العام المتماسك الصلب محل التمزق والضياع والتشتت وفقدان الهدف . وهذا يذكرنا برأى ليونارد و. دوب فى كتابه « الرأى العام والدعاية » عندما يقول (ص ٥٥) إن الزعيم التاريخى لأمة ما يعرف الطريق الذى سيشقه الرأى العام قبل أن يسير بالفعل ، وبالتالى يمكنه أن يصدر القرار ، ويتخذ الإجراء الذى يشكل دفعة كبيرة لهذا الرأى فى الطريق الصحيح . وعندما يتحول القرار إلى حدث جلل فإن الرأى العام يتشكل فى لمح البصر دون دعاية أو ضغط من أى نوع . هنا تبلغ الممارسة الديمقراطية قمتها العملية بعيداً عن الكلمات الرنانة . والخطب الطنانة ، والأحاديث البراقة . وفى هذا يقول ايمورى س . بوجاردوس فى كتابه « كيفية صنع الرأى العام » ص ٢٢٦ :

« من الواضح أن الرأى العام شديد الحساسية بالنسبة للأحداث التاريخية . وهذه الأحداث العظيمة غير العادية يمكن أن تحول الرأى العام من النقيض إلى النقيض ومن أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ولا يستقر الرأى العام بعد ذلك إلا إذا اطمأن إلى أن نتائج هذه الأحداث كانت فى صالحه عن طريق إدراكه لأبعادها . وبدون شك فإن الأحداث أكثر قدرة بصفة عامة من الكلمات والخطب على خلق الرأى العام الحقيقى ، إلا فى حالة اعتبار هذه الكلمات والخطب على أنها أحداث فى حد ذاتها » .

ولا شك فإن الديمقراطية يمكن أن تمارس بالقدر الذى يتكون به الرأى العام بحرية ويعبر عن نفسه تعبيراً صادقاً كاملاً ، وهذه الحرية فى التعبير والتصرف يجب أن تكون قائمة على إدراك جميع الحقائق المتعلقة بالقضايا ذات النفع العام ، بذلك يكون تصديق الرأى العام على القانون تصديقاً واقعياً وعلميًّا . ونحن نعلم أنه بدون مساندة الرأى العام للقانون فلن تصبح له أية سيادة من أى نوع لأنه سيكون فى هذه الحالة حبراً على ورق . وأيضاً فإنه بدون تكوين رأى عام ، يصعب المحافظة على القيم الاجتماعية ، والضرورات الأخلاقية ، والروح المعنوية العالية لأبناء الوطن الواحد . بل يصعب على السلطة التشريعية ممثلة فى مجلس الشعب ، والسلطة القضائية ممثلة فى الهيئة القضائية ، والسلطة التنفيذية ممثلة فى الأجهزة الحكومية ، أن تقوم بواجبها على الوجه المنشود . ولذلك فالطريق الأمثل لسيادة القانون هو تكوين الرأى العام وتمهيده لها . بمعنى آخر فإن الرأى العام هو النسيج الذى تصنع من مادته القوانين فى المجتمع الديمقراطى السليم ولهذا اشترطت الدول الديمقراطية فى دساتيرها أن تعرض القوانين التى تصدرها السلطة التنفيذية فى غيبة البرلمان على الهيئة التشريعية فى أول دورة مقبلة فإذا وافقت عليها استمر العمل بها ، وإذا لم توافق عليها ألغيت على الفور.

ويجب أن نعلم أن القانون ليس هو القانون المكتوب فقط فى سجلات القضاء ، وإنما هناك أيضاً القانون غير المكتوب المتمثل فى التقاليد والعادات والعرف ، وهـذه كلها من نسيج الرأى العام . وإذا علمنا أيضاً أن هنـاك بعض الدساتير غير مكتوبة كالدستور البريطانى فإنه يمكننا القول أن الرأى العام لا يصنع القوانين فحسب بل إنه يصنع الدساتير أيضاً دون حاجة إلى جمعية تأسيسية نيابية أو استفتاء شعبى على الدستور . وبهذا يكون الرأى العام هو المرآة التى ترى فيها الأمة شخصيتها القومية . ولكن هل معنى هذا أن هذه الشخصية تتغير بتغير الرأى العام لدرجة أن تتحول إلى شخصية متقلبة ؟ فى الواقع أن الرأى العام يشتمل على عنصرين حيويين : الأول صلب ومتماسك ويتمثل فى العقائد الروحية ، والضرورات الأخلاقية ، والتقاليد القومية ، والعادات الموروثة ، والتراث الفكرى . أما العنصر الثانى فمرن ولين ويتمثل فى المذاهب السياسية ، والاتجاهات الاقتصادية ، والتيارات الاجتماعية . ولهذا نرى أن القوانين التى تصدر عن العنصر الأخير من الرأى العام تتغير بتغير العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية . أما العنصر الأول الصلب المتماسك فهو الذى يمثل جوهر الشخصية القومية بالفعل ، والعنصر الثانى يمثل المظهر الخارجى لهذا الجوهر ، ومن السهل أن يتغير المظهر من جيل إلى آخر بينما يستغرق التلون البطىء فى الجوهر قروناً عديدة ، ومع ذلك يظل فى أساسه كما هو تقريباً . وقد احتوت « ورقة أكتوبر » هذه الحقيقة وحللتها تحليلا علمياً موضوعياً ، فإنه بعد حرب أكتوبر العظيم أصبح من الميسور تكوين الرأى العام الحر الصلب المتماسك دون تدخل من السلطة التنفيذية . يقول السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« واليوم ، وبعد انتصار أكتوبر ، وتأكيد وحدة الصف الوطنى ، وارتفاع المواطنين إلى مستوى المسئولية ، لا بد أن نؤكد معنى الحرية السياسية جنباً إلى جنب مع الحرية الاجتماعية .

وبهذا اتخذت قرارى برفع الرقابة عن الصحف ، ونحن لا نخشى الخلاف فى الرأى ولا النقاش الحر ولا التعبير عن المصالح المختلفة لقوى الشعب العامل ، ما دام كل ذلك يدور فى الإطارات المشروعة التى نرتضيها ولا يستهدف غير مصلحة مصر وخير شعبها . إننا نقدم فى جرأة على تصفية القيود على الحرية من واقع الثقة بالجماهير وبوعيها الوطنى الممتاز ، ونريد أن نخلص المجتمع من كل المظاهر التى تعبر عن الريبة فى المواطن أو تنال من إنسانيته أو كرامته أو التى تجعل مصر تنغلق على نفسها على خلاف طبيعتها .

ولكن ليكن واضحاً أننا نبنى ولا نهدم ، نصحح ولا نحطم ، نطور وندعم كل ما هو إيجابى بقدر ما نصفى ما هو سلبى ، نكشف الأخطاء فى غير مغالاة ، ونرفض كل محاولة لتركيز الأضواء كلها على الجوانب السلبية حتى تختفى من الصورة كل الجوانب المشرقة » .

وتصف مجلة « تايم » الأمريكية فى عددها الصادر فى ١٣ مايو ١٩٧٤ مظاهر الانفتاح فى جميع المجالات ، وإطلاق الحريات بصورة أكبر ، والتخلص من عقدة الخوف من الأجانب فتقول : « إن معسكرات الاعتقال أصبحت خالية ، ولم يعد المصريون يخشون من الاعتقالات التعسفية أو الرقابة الصارمة على الحياة الشخصية للأفراد » . وتوضح المجلة أنه من مظاهر الحريات الأخرى إلغاء شرط حصول المصريين على تأشيرة الخروج عند السفر للخارج ، وأيضاً الحكم الذى أصدرته محكمة القضاء الإدارى بمجلس الدولة ويقضى بعدم أحقية الحكومة فى مصادرة الممتلكات الخاصة . وهذا تطبيق عملى لرأى السادات الذى ورد قبل ذلك بحوالى خمسة عشرة سنة ، فى كتابه « القاعدة الشعبية » حيث يقول ص ٤٧ :

« كل فرد فى بلدنا له حق التملك ولكن ملكيته محدودة بحد معين حتى لا تتراكم الثروات فى أيد قليلة . . ونحن لا نلجأ إلى الإجراءات التعسفية ولا نغلب طبقة على طبقة . نحن نعترف بوجود الطبقات ، ولكننا لا نعترف بحدة

الصراع بينها . نحن نعمل على ألا تسود طبقة على طبقة . نريد أن تجلس الطبقات جنباً إلى جنب وأن تغلب حاسة المنفعة العامة على حاسة المنفعة الخاصة » .

ولذلك لا يؤمن السادات بنظام الحزب الواحد إذ يقول فى الكتاب نفسه ص ٢٢ :

« نظام الحزب الواحد لا يصلح لنا لأنه لن يمثل هذا الشعب . نحن نريد أن يشترك الشعب كله فى حكم نفسه فى المرحلة الجديدة . لا نريد جزءاً يشترك فى الحزب والمسئولية وبقية الشعب لا تشترك لأن الشعب كله هو الذى انتصر فى كل معارك الثورة .

ونظام الحزب الواحد يجعل من الشعب آلة صماء . تسمع الأوامر وتطيع فقط ولكننا لا نريد لشعبنا أن يكون آلة صماء . نحن نريد لشعبنا أن يشترك فى تدبير أمر نفسه ، أن يتحمل مسئولية حكم نفسه أن يشترك مع حكامه فى تسيير كل شيء يخصه ويخص أبناءه ويخص أحفاده ويخص الأجيال المقبلة . »

ويؤكد السادات فى حديثه لمراسلى مجلة « تايم » الذى نشر فى ١٣ مايو ١٩٧٤ نفس الاتجاه الأصيل فيقول :

« إننى لا أعتقد فى نظام تعدد الأحزاب أو فى نظام الحزب الواحد فى هذه المرحلة من بناء بلادنا . فقد عرفنا نظام تعدد الأحزاب من قبل ، وأثبت فشله الذريع . وعندما نفرغ من وضع أسس مجتمعنا الجديد ، فقد نكون أكثر قدرة حينئذ على أن نتحمل نظام تعدد الأحزاب . ولكننى لا أعتقد فى ملاءمة هذا النظام لنا فى الوقت الحاضر . »

فنظام الحزب الواحد حجر على حرية الرأى ، ونظام تعدد الأحزاب بمفهومه المصرى قبل الثورة هو تشتيت لنفس النوع من الحرية . فالممارسة الديمقراطية لا يمكن أن تتحقق بوسائل القمع أو الجبر ، كما لا يمكن أن تطبق بوسائل التزييف أو التلاعب ، فالغاية لا تبرر الوسيلة ، بل إن الديمقراطية التى تحاول أن تدافع عن نفسها باضطهادات مماثلة لاضطهاد الأنظمة الأخرى التى تعارضها ، تتنكر فى الوقت نفسه للقيم الإنسانية والضرورات الأخلاقية التى تدافع عنها ، لأنه كما يقول جان بول سارتر « إننا نستطيع أن نبنى بنفس الحجارة قبراً للحرية ، ونستطيع أن نشيد لها معبداً أيضاً . » أو كما يقول دوركايم إنه : « لا شيء أكبر زيفاً وبطلاناً من ذلك التنافر أو التعارض الذى يقيمونه بين سلطان القواعد وحرية الفرد . » فلا حرية لأمة يعيش فيها الفرد مستعبداً أو حراً بطريقة مزيفة ، ولا سلطان ثابت لحاكم ، رعيته من العبيد . وعلى سبيل التأصيل الفكرى ، ولكى نتتبع الأصول المصرية لإيمان السادات بالممارسة الديمقراطية ، سنأخذ رد جمال الدين الأفغانى على الخديو توفيق كنموذج للديمقراطية المصرية الأصيلة ، وعلى الرغم من أن جمال الدين الأفغانى لم يكن مصرى المولد فإنه يعد من الرواد الفكريين الأوائل الذين دخلوا التراث المصرى وسجلوا فيه صفحات مشرقة . وأيضاً فإن إعجاب السادات به يبدو واضحاً فى كتابه « نحو بعث جديد » . يقول جمال الدين الأفغانى موجهاً كلامه إلى الخديو توفيق :

« ليسمح لى صاحب السمو أن أقول بحرية وإخلاص إن الشعب المصرى كسائر الشعوب ، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة ، تسن القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم . »

ولا يقل إعجاب السادات بالإمام محمد عبده عن إعجابه بجمال الدين الأفغانى ، فيعتبره فى كتابه « نحو بعث جديد » من أعمدة التعمير الحضارى الحديث فى مصر . ولا غرو فى ذلك فهناك أوجه تشابه كثيرة بين فكر القائد وفكر الإمام الذى كان من أوائل من طالبوا بالممارسة الديمقراطية فى مقالاته وكتاباته العديدة ، وعندما يطبق السادات الآن أساليب الممارسة الديمقراطية على الحياة السياسية والاجتماعية فإنه بذلك يقوم بتأصيل الجذور المصرية

لها . وفى المقتطف التالى للشيخ محمد عبده نستطيع تتبع البذور المبكرة للديمقراطية المصرية فى العصر الحديث . يقول الإمام :

« وهناك أمر كنت من دعاته ، والناس جميعًا فى عمى عنه ، ولكنه الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهى لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيد عن العشرين قرناً .

دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته فهو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ، ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل .

جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ؛ ويد الظالم من حديد ؛ والناس عبيد له أى عبيد . »

وللشيخ محمد عبده مقال خطير فى الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » بعنوان « الشورى والقانون » ، يقول فيه :

« إن أفضل القوانين وأعظمها فائدة هو القانون الصادر من رأى الأمة العام ، أعنى المؤسس على مبادئ الشورى ، وأن الشورى لا تنجح إلا بين من كان لهم رأى عام يجمعهم فى دائرة واحدة ، كأن يكونوا جميعاً لتعزيز شأن مصالح بلادهم ، فيطلبونها من وجوهها وأبوابها ، فما داموا طالبين هذه الوجوه فهم طلاب الحق ونصراؤه . . »

والدليل على أصالة الإيمان بالممارسة الديمقراطية فى التربة المصرية أن الإمام محمد عبده كان ينادى بهذه الأفكار الرائدة فى الوقت الذى كتب فيه الفيلسوف الألمانى أوزوالد شبنجلر كتابه الرهيب « انهيار الغرب » وفيه نادى برفع لواء الديكتاتورية لأن الممارسة الديمقراطية هى كذبة كبرى . والعجيب أن هذا الكتاب قد أحدث تأثيراً عميقاً فى التفكير الأوربى فى أوائل العشرينيات من هذا القرن ، وخاصة بعد الإنهاك الذى أصاب أوربا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، والطعنة التى نفذت فى صميم كبريائها وسيادتها بوصفها قائدة الحضارة الحديثة . فى هذا الكتاب تبدو فكرة شبنجلر بعيدة كل البعد عن المفهوم الإنسانى للديمقراطية . ولذلك يعتبره كثير من المفكرين الأوربيين الفيلسوف الملهم والأب الروحى لهتلر ، فقد سرت أراؤه الديكتاتورية فى ضمير الشعب الألمانى بحيث مهدته نفسيًا لظهور النازية فيما بعد . وكانت النتيجة تلك الويلات الفظيعة التى عاناها الإنسان بصفة عامة من جراء اندلاع الحرب العالمية الثانية . ذلك لأن المبدأ الأساسى للممارسة الديمقراطية ، وهو أن الناس جميعاً ولدوا متساوين ولهم حقوق متساوية ؛ هذا المبدأ كان غريباً على شبنجلر ، فهو يعتقد أن كل دولة سواء كان حاكمها ملكاً أو ديكتاتورًا أو طاغية أو برلماناً ، فإنها فى الواقع محكومة بأقلية مستبدة تدفعها رغبة عارمة فى الإمساك بمقاليد السلطة ، والتشبث بالقيم الأرستقراطية التى تنادى بالحكم بواسطة الطبقة الأفضل ، فهو يعتقد اعتقاداً جازمًا بأن المواطنين ينقسمون بالضرورة فى كل مجتمع إلى جماعتين مميزتين هما : الأقلية الحاكمة المستبدة ، والأغلبية المحكومة المغلوبة على أمرها . فهو يقول فى الجزء الثانى . الفصل الثانى عشر من كتابه « انهيار الغرب » : « إن وحدة الحياة – هى حتى فى عالم الحيوان – تنقسم إلى غالبين ومغلوبين . »

وكل ما يراه شبنجلر فى الممارسة الديمقراطية ، مجرد واجهة براقة تختفى خلفها الأقلية الحاكمة المستبدة بكل رغبتها فى الاستئثار بالسلطة ، على حين تملك الأغلبية المحكومة المغلوبة على أمرها الحرية بطريقة صورية بحتة . وهذا يدل على ضيق أفق شبنجلر الذى منعه من إدراك حقيقة الأخطاء المميتة التى أدت بجميع الحكام المستبدين فى التاريخ ، قد نتفق معه فى أن كل أمة فى العالم تحكمها فعلا أقلية صغيرة سواء مثلت الشعب أو لم تمثله ، ومع

هذا لا يدرك شبنجلر أن هذه الأقلية سواء كانت من البلاط أو الكهنوت ، أو الإقطاع ، أو قادة مدنيين ، أو زعماء برلمانيين ، أو أحزاب عمالية ، فإنها – كشرط أساسى لاستمرارها فى السلطة – لا يمكن أن تتجاوز حدود العدل والحق والحرية كما تؤمن بها الجماهير العريضة . والتاريخ زاخر بثورات الجماهير ضد ما اعتبرته ظلماً أو قسوة أو طغياناً ، أو مجرد سوء إدارة ، حتى لو صدر عن جهل أو حسن نية ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن الأقلية الحاكمة المستبدة – كما يسميها شبنجلر – لابد أن تستمد سلطتها ، طبقا للمثل العليا للديمقراطية ، وبالمعنى الدستورى والأخلاقى ، من جماهير المواطنين ، وفى الوقت نفسه يتحتم عليها أن تفعل هذا ، وإلا كان هذا بمثابة بداية النهاية لها إن عاجلا أو آجلا . فهى لا تستطيع أن تهمل إلى الأبد الحاجة الفطرية إلى العدالة والحق والحرية التى تتحكم فى مشاعر الجماهير ، والتى تؤدى فى كثير من الأحيان إلى حدوث تغييرات غير متوقعة أو حتى مضادة كلية لإرادة الأقلية الحاكمة .

والنقطة الحيوية التى غابت عن ذهن شبنجلر هى التحدى الحقيقى الذى تواجهه الممارسة الديمقراطية الناضجة بسبب الاتجاه الديمقراطى الكامن فى الجماهير نحو عبادة البطل . فلابد أن ينضج المواطنون فكرياً وثقافياً وحضارياً إلى الدرجة التى يملكون فيها القدرة على الموازنة الصحيحة بين إعطاء القادة سلطات كافية فى جميع المجالات لكى تمكنهم من القيام بواجبهم على الوجه الأكمل ، وبين وضع الضوابط والأطر التى تنظم هذه السلطات بحيث لا تتضخم وتفسدهم أو تبطل حق الأغلبية فى إبداء الرأى الحر المستقل . ولكن لا يعنى وجود هذا التحدى أن نصرف النظر عن الممارسة الديمقراطية ونبحث عن حلول أسهل ، فمن الواضح أنه لا يمكن الحصول على بديل للممارسة الديمقراطية . قد يكون فى الممارسة بعض الثغرات التى يمكن تلافيها ، ولكن فى غياب هذه الممارسة تحدث أخطاء مميتة قد يتعذر إصلاحها ، من هذه الأخطار مثلا أن يتحول الشعب إلى مجرد تروس فى الآلة الاجتماعية وبذلك يفقد المواطنون إنسانيتهم وآدميتهم . أو يتحول الشعب كله إلى أداة طغيان وقهر وبغى بالنسبة للشعوب الأخرى كما فعلت ألمانيا النازية تجاه شعوب العالم فى الحرب العالمية الثانية وهددت بذلك التعمير الحضارى كله بالدمار والخراب .

من هنا نلاحظ شدة الارتباط بين الممارسة الديمقراطية والتعمير الحضارى . ويقول ت . س . إليوت فى كتابه « ملاحظات حول تعريف الثقافة » إن الممارسة الديمقراطية الصحيحة هى البوتقة التى تنصهر فيها ثقافة الأمة وحضارتها على كل المستويات الاجتماعية والاقتصادية دون استثناء . وهى بذلك تحافظ على الشخصية القومية للأمة من التشويه والتحلل . ولذلك فالممارسة الديمقراطية تحيط التعمير الحضارى بكل الضمانات التى تكفل له الاستمرار والتطور والازدهار ، وتجنب الأمة الكثير من النكسات التى تعوق مسيرتها الحضارية . فى غياب الممارسة الديمقراطية يحيق الدمار والخراب بكل الأطراف المعنية ، فقد ظنت ألمانيا النازية أن فى إمكانها السيطرة على مقادير العالم بالحديد والنار ، ولذلك زحفت بالدمار كله على كل بلد حاول مقاومة طغيانها . ولكننا نجد أن الدمار قد أحاق فى نهاية الأمر بالجميع سواء المعتدى عليه أو المعتدى . وهذا دليل تاريخى ساطع يدل على مدى حاجة التعمير الحضارى إلى الممارسة الديمقراطية لكى تجنبه هذه الويلات والنكسات . لأن سقوط الديكتاتور لا يعنى مجرد سقوط فرد لوحده ، ولكنه يعنى انهيار أمة بأسرها ، ولذلك فالديكتاتورية لا تملك عنصر الاستقرار السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى تملكه الديمقراطية ، ونحن نعلم جيداً أنه بدون هذا الاستقرار لا يمكن لأى تعمير حضارى أن يستمر .

ومن هنا كان حرص السادات على الربط بين الممارسة الديمقراطية والتعمير الحضارى ، لأنه لا يمكن لأحدهما أن يستمر فى غياب الآخر ، ونظراً لهذه العلاقة العضوية بين العنصرين ، فقد آثرنا أن يدور الفصل التالى حول التعمير الحضارى فى فلسفة رائدنا فى التأصيل الفكرى : أنور السادات .

الفصل الخامس

التعمير الحضارى

يحدد أنور السادات مفهومه للتعمير الحضارى بأنه التطبيق العملى الشامل لثقافة الأمة بشقيها الأصيل والمعاصر فى نفس الوقت . فيقول فى كتابه الأكاديمى « نحو بعث جديد » – الذى نشر مسلسلا لأول مرة فى جريدة « الجمهورية» عام ١٩٥٤ – « إن الثقافة وسيلة والحضارة هى الغاية . الثقافة تصنع الحضارات ، تصنع الحرية ، تصنع الحياة وتبهجها . » وهذا التعريف العلمى الخصب الذى ذكره السادات فى « الجمهورية » بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٩٥٤ يصلح ليكون المنطلق الموضوعى لهذا الفصل . فمنه تخرج معظم التفريعات والتنويعات التى تصلح لتكون منهجاً تسير عليه الأمة فى طريقها صوب التعمير الحضارى . ورغم أن هذا المنهج قد رسمه السادات منذ عشرين عامـاً بالضبط ، إلا أنه لم يكن من السهل تطبيقه نظراً للظروف الموضوعية ، والصراعات العالمية ، والضغوط الخارجية ، والسلبيات الداخلية ، والرواسب التقليدية التى عاقت مسيرة الأمة الحضارية ، أما الآن ، وبعد السادس من أكتوبر العظيم الذى يعد البعث الحضارى الحقيقى للأمة ، فى الإمكان وضع أقدامنا على الطريق الصحيح المؤدى إلى التعمير الحضارى بعد أن عانت الأمة من التخريب الحضارى الكثير ، سواء على أيدى المستعمرين أو على أيدى المتعاونين معهم من الداخل . ولذلك يطالب السادات العرب ، فى نفس العدد من « الجمهورية » ، بأن :

« يتجهوا إلى التاريخ – تاريخنا وتاريخهم – ثم يعرفوا واقعنا فى الشرق ، وواقعهم فى الغرب ، ويدرسوا قصة المأساة هنا وقصة الحضارة هناك . حينئذ يمكن أن يبدأ البعث الجديد لا على أساس الكهانة والدجل وتفسيرات وهمية للدين بل على أسس علمية وتاريخية تجعل من حضارتنا شيئاً محتوماً ! »

ويؤكد السادات بأن فى قدرتنا الانتصار على الوهم لنؤمن بالعلم ، بالحقيقة ، بالهدف العظيم الكبير الذى كافح أجدادنا فى سبيله حتى القرن الثالث عشر ، ثم لم يعد هناك كفاح دائم فى سبيله بعد انهيار دولة بنى العباس . ولعل من أهم إنجازات السادس من أكتوبر العظيم أنه حطم حاجز الوهم الذى حاولت إسرائيل إقامته مع تحصيناتها العسكرية فى مواجهة قناة السويس . ولم يتحطم هذا الحاجز بمعجزة خارقة للطبيعة ، بل انهار نتيجة لإيماننا الكبير بالعلم ، والحقيقة ، والهدف الحضارى العظيم الذى يؤكد أن إرادة الشعب من إرادة الله عز وجل . ولعل الينبوع الأول للثقافة والحضارة يكمن فى معرفة الذات الإلهية ، ومعرفة الذات الإنسانية . وهى معرفة لا تمت إلى الكهانة والدجل بصلة من قريب أو بعيد . ولذلك يوضح السادات أن وسيلة الاستعمار كانت التخريب الحضارى حتى يضمن دوام استغلاله للشرق ، فأقام ذلك الستار الحديدى بيننا وبين الثقافة ، وشجع الاستناد إلى الكهانة لكى تتمكن من السيطرة على عقولنا . ويحلل السادات هذا التخريب الذى أعمله الاستعمار فى حضارة الشرق تحليلا موضوعياً فيقول :

« صحيح أن الغرب لم يبخل علينا بجزء من حضارته . . ألقى إلينا من خلف الستار الحديدى ببعض الفتات . . سمح بإقامة المدارس فى حدود معينة لا تخرج عن إعداد موظفين يقومون بالأعمال فى دواوين الحكومة . . التى هى فى نفس الوقت تعمل فى حدود مصالح المستعمرين ! وسمح لنا بإقامة السكة الحديد واستعمال التليفون والبرق والصحف ، والمصارف والكبارى والبيوت البيضاء فى المدن . سمح لنا بذلك لا رغبة منه فى دفعنا إلى حيث الحضارة . . بل ليستفيد هو من كل هذه الأشياء التى هى جزء مما وصل إليه التقدم الإنسانى . .

فهو – الاستعمار – ، كان لا يستطيع أن يقيم بين ظهرانينا بلا قليل من النور ، يستغله فى قضاء مصالحه ! ! فمثلاً الترع والمصارف ، أنشئت فى مصر لكى تنتعش زراعة القطن فتنتج مصر حاجة مصانع النسيج فى لانكشير منه ! »

ويؤكد السادات أيضاً أن ارتباط الاستعمار بالكهانة والدجل ، مكنه من أن يثبت فى عقول الناس أن المدنية زيف ، والحضارة شر ، والتقدم خروج على مشيئة رب العباد ، والثقافة رجس من عمل الشيطان ويستأنف السادات دراسته العميقة فيقول :

« كأن اكتشاف وسائل لعلاج الأوبئة والأمراض واختراع الكهرباء وإقامة المصانع وتثقيف العقول وتنوير الأذهان جريمة تغضب رب العباد !

أى أن جهود العلماء والأدباء والفنانين والمفكرين والموسيقيين فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر التى أوصلت الحضارة هناك إلى هذه القمة العالية كانت جريمة . وسيساق – إذن – هؤلاء العلماء الذين صنعوا التقدم البشرى إلى الجحيم ومعهم الأدباء والشعراء . . فولتير العذب الحر . . وهوجـو الداعى إلى تخليص البؤساء وبيرون المغامر الذى ثار على مجتمعه الارستقراطى الرجعى . . وبوشكين وتولستوى وديستويفسكى الذين أشفقوا على العبيد والجياع والمحرومين ، وجيته العظيم كبير كتاب ألمانيا الذى أراد أن يشيع فى عصره انتفاضات الفكر والعلم والفن . . وشوبان وبيتهوفن وتشايكوفسكى ، الكبار الذين حركوا قلوب البشر بعد الجمود . . !

وكلود برنارد وسيكار الفرنسيان العالمان اللذان كشفا لنا سر الغدد فى الأجسام . . وبافلوف الروسى وباستور الذى حقق معجزة الميكروب ، وكوخ ولافران وأرلخ الذين حددوا مكان الطفيليات باعثة الأوبئة . . والبارع الماهر سمبسون الذى حول الجراحة من عمليات أشبه بعمليات الذبح فى السلخانات إلى شىء بسيط يمكن أن يتم بعد تخدير المريض بالأثير والكلوروفرم فأنقذ البشرية من عذاب وألم كبيرين . !

هؤلاء هم قادة الحضارة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ارتكبوا إثماً كبيرًا – إذن – أغضبوا السماء وخرجوا على طاعة رب العباد باعتبار أن المدنية زيف وبهتان كما تقول الكهانة وكما يزعم تجار الدين والمشعوذون . »

ومن رأى السادات أن أعظم وأجل الأعمال التى يمكن أن يقوم بها قادة الفكر فى الشرق عامة ، وفى العالم العربى خاصة ، هى أن يفتحوا آذان الشعوب وعيونهم على التراث الإنسانى الحضارى والثقافى بصفة عامة ودون تفرقة . ولا يقدم السادات هذا الرأى باعتباره اقتراحاً قابلا للدراسة والتمحيص ، بل إنه حقيقة وأمنية يتحتم الاعتراف بها مادمنا قد عقدنا العزم على التعمير الحضارى . وإذا لم نحول هذه الحقيقة إلى برنامج عمل ومخطط تنفيذى فلا سبيل – على الإطلاق – إلى هذا التعمير الحضارى الذى ننشده بكل الوسائل والإمكانيات . وخاصة أن المصريين والعرب كانـوا من أوائل الشعوب التى حملت مشاعل الحضارة الإنسانية إلى كل أجزاء العالم فيما بعد دون أن يعتور سلوكها أية أثرة أو أنانية . فقد كان التفكير الشرقى بكل روحانيته ورحابته وسماحته يؤمن بأن الحضارة الإنسانية ملك للجميع وليست حكرًا على أحد ، وكان من جراء هذا التفكير المثالى أن نهضت أوربا وانبعث فيها التعمير الحضارى بفضل العرب . وفى هذا يقول السادات على صفحات « الجمهورية » فى ٢٣ أغسطس ١٩٥٤ :

« وبعد أن نهضت أوربا وانبعث فيها تراث الإنسانية الثقافى بفضل العرب ، استبدت الأنانية بحكامها وطبقاتها العالية وأيضاً بمثقفيها وعلمائها وفنانيها ، فلم يحملوا المشاعل مثل العرب الأمجاد ليضيئوا الطريق أمام الشرق الذى سيطرت عليه أخيراً الكهانة ، مثلما كانت تسيطر على الغرب فى القرون الوسطى . .

فلم يساهم الغرب فى بعث نهضة الشرق على الإطلاق ، تماماً مثلما فعل الرومان أيام إمبراطوريتهم المزدهرة ! . . فلقد تعرضت حضارة الإغريق المجيدة لحقد أباطرة روما وقوادها العسكريين ونبلائها الأشرار ، فعملوا على طمسها

ودفنها فى التراب . . لأن إمبراطوريتهم كانت قائمة على السخرة والإثم والقوة والقهر. ولم يقدر لتراث أثينا الثقافى والعلمى أن ينبعث أبدًا إلا عندما حمل العرب مشاعلهم وقدموا للبشرية ذلك التراث ، فى نبل وكرم عظيمين . . وبلا تعصب وبلا ادعاء أومَنّ ! !

وأقول إن الغرب بعد نهضته وازدهار المدنية فيه اتجه إلى هدف شرير أثيم ، فقرر استعمار الشرق لا النهوض به . . ونادى كبلنج الفيلسوف الاستعمارى الإنجليزى الرجعى بهذا ، وأهاب بقومه أن يسرعوا فى التهام الفريسة المسلمة ، قبل أن تفيق من سباتها العميق ! فأطلق كلمته المشهورة : الشرق شرق ، والغرب غرب . . ولن يلتقيا ! ! ونسى ذلك الرجعى أن الشرق سبق له أن التقى بالغرب فى قديم الزمان ، عندما بعث العرب نهضة ذلك الغرب وأشاعوا فيه النور ! »

ويؤمن السادات بأنه إذا نشأت حضارة إنسانية فى بقعة ما من الأرض ، فلا يمكن أن تعيش على دماء حضارة أخرى مجاورة أو سابقة ، وإلا لما استحقت أن يطلق عليها اصطلاح حضارة من الأصل . ولذلك فهو يفرق بين الحضارة الإنسانية الشاملة والمدنية المادية المؤقتة ، فالحضارة الجديدة تدخل التاريخ الإنسانى من أجل الإضافات والإنجازات والاجتهادات التى تضيفها إلى الحضارات السابقة أو المعاصرة على حد سواء ، أما المدنية المادية فتريد أن تمتص دماء الحضارات المعاصرة حتى تنهكها ، وعندما لا تجد ما يمدها بالدماء فإنها تندثر فى نهاية الأمر وتصبح أثراً تاريخيًا يروى فقط من باب السرد التاريخى ، أما الحضارة الشاملة فتتحول إلى جزء من ضمير الإنسان وسلوكه على مر العصور وفى مختلف البقاع . ولذلك يمكننا القول بأن الحضارات المصرية والإغريقية والعربية على التوالى تشكل جزءًا من كيان وفكر الإنسان المعاصر حتى ولو لم يدرك هذا بطريقة واعية أو مباشرة . أما المدنيات المادية الخالية من المضمون الفكرى والروحى فينتهى أثرها باندثارها ، فالتاريخ يذكر جينكيزخان وهولاكو ونيرون وكاليجولا وهتلر بأسلوبه المحايد ، أما الحضارة الإنسانية فتذكرهم بكل شر لأنهم يمثلون انتكاسات لها بما أثاروه من قتل وتدمير وعنصرية وتفرقة بين بنى البشر .

ولكن ما يزال بعض المفكرين فى الغرب يعتقدون أن حضارتهم المادية – لكى تزدهر وتستمر – يجب أن تقف بالمرصاد لأية حضارة أخرى تحاول أن تحتل مكانها تحت الشمس ، فهم ينظرون إلى الأمر مثل نظرتهم إلى عنصر المنافسة الذى بدأ مع الانقلاب الصناعى فى القرن الماضى . وهم لا يدركون بهذا أن أية حضارة جديدة يمكن أن تكون مدداً وزاداً لحضارتهم الحالية . ومن هنا كانت الجيوش والأساطيل التى استخدمت كل أساليب القهر والقمع لإطفاء أية مشاعل حضارية جديدة فى الأفق . ويعتقد السادات أن أهمية قرار تأميم قناة السويس ترجع إلى أنه أوجد ميداناً التقى فيه الشرق والغرب لأول مرة منذ قرون كان الغرب فيها يستعبد الشرق ، وظن الغرب أن لا قائمة ستقوم للشرق . ولذلك ارتفعت الصيحات فى أوربا عام ١٩٥٦ منادية بأن الحضارة الغربية فى خطر ، وأن زعماء الغرب – وهم الحراس الأمناء على هذا التراث الإنسانى – يجب أن يحافظوا على هذه الحضارة وذلك التراث الذى يهدده الشرق فى صحوته التحريرية والتعميرية . وكأن حضارة الغرب وتراثها الذى تخاف عليه أوربا وأمريكا لا تعيش إلا على أشلاء الشرق ، ولا تزدهر إلا إذا امتصت دماء الشرق . ولكنها كانت الحقيقة المؤسفة التى أثبتت وجودها الكئيب فى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ وفى الغزوة الصهيونية عام ١٩٦٧ . ومن هنا كان المعنى الحضارى العظيم الذى سجله السادس من أكتوبر المجيد ، وهو المعنى الذى يجب أن نحافظ عليه وأن نضمن له الاستمرار والازدهار إذا أردنا التعمير الحضارى بكل أبعاده . فى السادس من أكتوبر استيقظ العالم الغربى منزعجاً على صوت لم يألفه من قبل ، صوت يقول له بقوة وعنف وثقة وثبات إن أحفاد الحضارة المصرية والعربية مازالوا أحياء بل وقادرين على

إثبات وجودهم تحت الشمس ، وعلى إحياء هذه الحضارة التى كانت بمثابة الحضارة الأم لكل الحضارات الإنسانية التى عرفها التاريخ . ولذلك يعلنها السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« إن هذا الشعب قد عاش على هذه البقعة من الأرض يبنى الحضارة لخيره ولخير البشرية منذ سبعة آلاف عام . توحدت صفوفه منذ فجر التاريخ حتى خلا تاريخه من الحروب القبلية والإقليمية والطائفية . تفتح بصفة عامة على العالم من حوله فأخذ بكل جديد نافع للناس ، ولو انغلق على نفسه لعاش فى عزلة قاتلة ولذوت حضارته واندثرت كما اندثرت حضارات كثيرة ، ولكنه كان يتلقى كل جديد فيعيد صياغته ويضيف إليه ويضفى عليه الطابع المصرى الخاص .

ولو لم يفعل ذلك لما احتفظ بشخصيته المتميزة والمستمرة عبر كل التطورات الحضارية التى عاشها . إننا شعب عريق وأصيل ، جعل من وطنه أرض السلام والتسامح ، وطوع أوضاعه لضرورات التقدم بعيداً عن التعصب البغيض والحقد القاتل والصدام الدموى ، لذلك أحب مصر كل من عاش على أرضها وارتوى من نيلها مهما يكن وضعه فيها .

لقد تعرضت بلادنا للغزو مرات كثيرة ولكن لم ينجح أحد فى أن يطمس حضارتها أو أن يذهب بمعالم شخصيتها ، حتى أولئك الذين نجحوا فى حكمها ، سرعان ما كانت تستوعبهم حضارتها ، ويمتزجوا ويصبحوا جزءاً منه لا يتجزأ . أو تلفظهم مصر ولو بعد حين . .

من هذا الماضى المجيد تكونت الوطنية المصرية الجياشة التى لا تعرف التعصب أو التعالى ولكن تجيد الفداء صوناً للأرض ودفاعاً للحق ، وتأميناً للبناء والتقدم . »

ويعتبر المفكر الروسى نيقولاى دانيلفسكى الحضارة المصرية القديمة بمثابة فجر التاريخ الإنسانى المتحضر. فقد نشر عام ١٨٦٩ سلسلة مقالات فى مجلة « زاريا » بعنوان « نظرة إلى العلاقات بين العالم السلافى والعالم الجرمانى » وكان مفهومه للحضارة هو التزاوج الذى يحدث بين المواقف التاريخية والأنماط الثقافية ، وكانت الحضارة الفرعونية أول حضارة – عرفها الإنسان – تمكنت من بلورة هذا المفهوم وتحويله إلى إطار تحركت داخله كل الحضارات التى أعقبتها ، ولذلك يعد قدماء المصريين الرواد الأول للحضارة الإنسانية التى مازالت تعيش معنا حتى الآن ، وهذه الحضارة إذا كانت تبدو خابية فى بعض الأحيان داخل الوجدان المصرى نفسه ، فإن ذلك بفعل الضغوط الخارجية والداخلية فقط ، ولكنها ضغوط مؤقتة مهما طال بها الزمن ، وإذا أدرك الإنسان المصرى هذه الحقيقة لاستطاع أن يعيد مجد حضارته القديمة . ورغم أن دانيلفسكى كتب هذا الكلام منذ أكثر من قرن من الزمان ، إلا أنه يبدو كما لو كان قد كتبه بالأمس القريب ، والسادس من أكتوبر العظيم خير دليل على صحة كلام دانيلفسكى .

ويعتقد دانيلفسكى أنه لا توجد حضارة واحدة فقط فى العالم المعاصر ، بل هى نسيج من حضارات متعددة سابقة أو مندثرة ، ولكن المسألة تكمن فى مراكز الثقل التى تتبلور فيها الحضارات ، فتبدو هذه المراكز وكأنها الحضارة بعينها ، بينما هناك من مناطق الظل ما يعتبر من العالم المتخلف الذى لم يعرف معنى للحضارة بعد ، بينما المسألة هى أن الحضارة خابية فى هذه المناطق وليست مندثرة ، ويمكن أن تبعث مرة أخرى لو تجمعت العوامل المساعدة لذلك . فالحضارة التى تولد وتزدهر يمكن أن تخبو وتتوارى ولكنها لا يمكن أن تموت وتندثر. والحضارة الأوربية تستمد جذورها فى الأساس من الحضارات السابقة المتوارية فى الظل ، وإن كانت قد أخذت أسلوباً آخر. وعلى هذا فالحضارة الأوربية ليست الحضارة العالمية الوحيدة كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة . ولذلك يقول دانيلفسكى فى مجلة « زاريا » بتاريخ ٦ أكتوبر ١٨٦٩ :

« ليست الحضارة الأوربية هى الحضارة العالمية بأية حال من الأحوال ، بل ليست أيضاً الحضارة الديناميكية

أو الحضـارة التقدمية الوحيدة إنها ليست سوى حضارة من عدة حضارات أخرى كثيرة تشمل فقط منطقة الحضارة الجرمانية الرومانية ، وقد ولدت معظم الحضارات الأخرى ، بما فيها الحضارة الهلينية خارج ما تعارف عليه بأنه أوربا . وهذا ما فعله الروس ، لأن روسيا لا تتبع أوربا باعتبارها جزءاً أو حتى فرعاً من حضارتها . ولم تساهم بأى نصيب فى حياة أوربا وتجاربها ، ولكنها استمتعت بكيانها الخاص بها . »

وهاجم دانيلفسكى الغرور الذى يصيب بعض الحضارات بحيث يتحول إلى نوع من التعصب الأعمى ، والعنصرية البغيضة ، والكبرياء الأجوف ، والروح العدوانية التى ترى أن نشر الحضارة لا يتأتى إلا عن طريق إذلال الشعوب الأخرى واستعبادها . ورأى دانيلفسكى فى محله لأنه كتب هذا الكلام فى الوقت الذى كانت فيه الإمبراطوريات الاستعمارية الأوربية فى أوج مجدها ، وعز سيطرتها ، وقمة طغيانها ، وقد قادت هذا الاتجاه الحضارى المزيف إنجلترا وفرنسا وهولندا والبرتغال . وهذا الزيف نبع من أن الاستعمار قد لبس رداء الحضارة حتى يبدو شكله مقبولا ، وتحت ظل هذا القناع شهد النصف الثانى من القرن التاسع أفظع وأبشع أنواع الاستبداد والاستعمار ، وامتصاص دماء معظم شعوب آسيا وأفريقيا . وهذا لا يمكن أن يمت لمفهوم الحضارة الإنسانية بصلة قريبة أو بعيدة ، بل هو التخريب الحضارى بعينه . ولذلك يقول السادات فى سلسلة من المقالات التاريخية العلمية تحت عنوان « شرق وغرب » نشرها فى جريدة « الجمهورية » عام ١٩٥٦ ، يقول كلاماً يكاد يتفق مع نظرية دانيلفسكى الحضارية فى مضمونها ، فقد كتب فى ٢٦ أغسطس ١٩٥٦ مفرقاً بين مفهوم الحضارة والمدنية فقال :

« حضارة الغرب اليوم ليست حضارة بمعناها العلمى أو النظرى وإنما هى مدنية . . وفرق كبير بين الحضارة والمدنية . فالحضارة تقوم أول ما تقوم على مقومات معنوية وروحية قبل أن يكون لها مقومات مادية ، لذلك نرى أن طابعها لا يكتفى بالمظهر وإنما يعتمد أول ما يعتمد على الجوهر . .

والمدنية لا تعرف المقومات المعنوية أو الروحية على الإطلاق ، وإنما هى تتناول الجوانب المادية البحتة فى حياة الفرد والمجتمع التى لا تعدو أن تكون مظهراً . كأن تحيل حياته كلها ميكانيكية مثلا بالأزرار والآلات ، وهى لذلك لا تقيم وزناً بل لا تعرف الجوهر فى حياة الإنسان ، من أجل ذلك كانت الحضارة ولا تزال تعنى أول ما تعنى بالقيم الإنسانية العليا ، أما المدنية فإنها تعتبر القيم الإنسانية من مقومات تقدم البشرية . . وعلى هذا القياس ، وبما نراه اليوم نستطيع أن نعرف الفرق بين الحضارة والمدنية ، ونستطيع أن نعرف ما يسمونه حضارة الغرب بمدنية الغرب . .

وهنا يتضح خلاف آخر بين عقليتى الشرق والغرب ، فالغرب يعتقد أن مدنيته الحالية إن هى إلا حضارة هو الولى عليها ، وأن من أخص رسالاته أن يقهر الشعوب فى الشرق على قبول هذه الحضارة الغربية فى أشكال يحدد مفهومها . فالغرب حين يدخل مثلا نظامه الديموقراطى فى شعب من شعوب الشرق فإنه لا يدخل ما يطبقه هو فى بلاده وإنما يفرض على هذه الشعوب النظام الذى يريد لكى يحقق له السيطرة والتحكم . ثم يلصق بهذا النظام اسم الديموقراطية وينسبه إلى الحضارة الغربية الجديدة .

والغرب حين يدخل العلوم إلى بلد من بلدان الشرق يكون قد ابتلى باستعمار غربى فإن هذه العلوم لا تتعدى مراحل ساذجة أولية لأن مفهوم الحضارة الغربية عند الغرب هو أن لا يتعلم الشرق من علوم الغرب إلا قشورها لكى تظل للرجل الأبيض السيادة والهيمنة عن طريق العلم . ولازالت شعوب كثيرة من التى ابتليت بالاستعمار تئن إلى اليوم لأنه لا يوجد فيها طبيب أو مهندس ، فهذه المهن فى عرف الحضارة الغربية مقصورة على الرجل الأبيض الممتاز وهى سبيله إلى السيطرة والسيادة . .

وهناك مثل آخر على ذلك . . فإن بريطانيا تستقدم بعثات عسكرية من دول كثيرة فى الشرق والغرب . وتصادف

أن كان بعض الضباط المصريين فى بعثة من هذه البعثات سنة ١٩٥١ وعندما عادوا كانوا يروون أن محاضرات بذاتها كانت محرمة عليهم هم وبعثات بقية البلاد الشرقية لأن فى هذه المحاضرات أسراراً لا يجوز لغير الإنجليز والأوربيين أن يعرفوها . . أى الرجل الأبيض مرة أخرى . .

هذا هو مثل من مفهوم الحضارة أو على الأصح المدنية عند الغرب . . أما مفهوم الحضارة عند الشرق فإنه يختلف عن ذلك تمام الاختلاف . . فالشرق يعتز بأن أولى الحضارات التى عرفتها البشرية كانت فى أرضه . . الحضارة الصينية التى أخرجت الحكمة والنور ، والحضارة الفرعونية التى أدهشت وتدهش العالم إلى اليوم بهذا التفوق فى العلوم والفنون ، والحضارة الهندية التى تعمقت منذ القدم فى أغوار الروح والمادة وأخرجت للناس حكمة وعلوماً وفنوناً لا تزال تراثاً مجيداً إلى يومنا وإلى يوم الساعة » .

ويتفق السادات مع دانيلفسكى فى رصد الخصائص الذاتية للحضارات الإنسانية الكبرى ، وخاصة عندما يقسم دانيلفسكى التاريخ الحضارى للبشرية إلى عدد من الأنماط الثقافية المتفاعلة مع المواقف التاريخية ، وهذا التفاعل هو الذى يمنح الملامح المميزة لكل حضارة على حدة ، وهذه الحضارات تبدأ بالحضارة المصرية ، فالصينية ، فالآشورية – البابلية ، فالفينيقية – الكلدانية أو السامية القديمة ، فالهندية ، فالفارسية ، فاليونانية ، فالرومانية ، فالعربية أو السامية الجديدة ، وأخيراً الجرمانية – الرومانية أو الأوربية . أما فى نصف الكرة الغربى فهناك حضارة المكسيك وبيرو وقد واجهت كلتاهما انهياراً عنيفاً بغير أن تكملا مجرى حياتهما .

ويقسم دانيلفسكى الدور الذى تلعبه الشعوب فى التطور الحضارى إلى ثلاثة أنواع : الدور الإيجابى الخلاق الذى يهدف إلى التعمير الحضارى ، والدور السلبى الهدام الذى يندفع إلى تخريب الحضارة السائدة ، ثم الدور الحيادى غير المتفاعل الذى لا يتحرك فى اتجاه خاص به وإنما يقوم دائماً بوظيفة التابع . والحضارات السابق ذكرها ، والتى تبدأ بالحضارة المصرية القديمة ، هى التى قامت بالدور الإيجابى الخلاق من أجل التعمير الحضارى . أما الدور السلبى الهدام فقد قام به على خير وجه كل من المغول والتتار والهون والترك فى الأزمنة الغابرة ، أما الدور الحيادى غير المتفاعل فقد قامت به – بصفة عامة – الشعوب التى لم تبلغ مستوى الحضارات ، ولم تشارك فى ازدهارها ، ولم تلعب دوراً فى هدمها ، وهى تشكل العوامل غير المتبلورة التى لا تصنع تاريخاً سواء فى الاتجاه الإيجابى أو السلبى ، وإنما تستخدمها القوى التاريخية الإيجابية والسلبية كمادة أولية لنشاطها وحيويتها . وفى هذا يقول دانيلفسكى :

« وإلى جانب أنماط الثقافة الإيجابية للحضارات ، توجد فى العالم الإنسانى عوامل مؤقتة ومتقطعة مثل الهون والمغول والترك القدامى ، الذين أدوا دورهم التخريبى وساعدوا الحضارات التى كانت فى سبيلها إلى التدهور ، على الانهيار ، وشتتوا بقاياها ، وهكذا عادت إلى المراحل البدائية التى كانت عليها أول الأمر ، ثم لم تلبث أن اختفت لخلوها من المضمون الإنسانى ، ولذلك يمكن أن نطلق عليها إصطلاح العوامل السلبية فى التاريخ ، ولكن يحدث أحياناً أن تلعب المجموعة البشرية دوراً خلاقاً بناء وسلبياً تخريبياً فى نفس الوقت ، مثلما فعل الجرمان . وأخيراً هناك قبائل أو شعوب تتوقف وثبتها الخلاقة لسبب ما ، فى مرحلة مبكرة ، ومن ثم فإنها لا تكون عوامل تاريخية إيجابية أو سلبية ، وإنما هى تمثل فقط « مجرد عناصر أولية فى نشوء السلالات » ونوعاً من عوامل غير عضوية تدخل فى التكوينات التاريخية أو الأنماط الثقافية المتفاعلة مع المواقف التاريخية ، ولا شك فهذه القبائل تزيد من تنوع الأنماط التاريخية وثرائها ، ولكنها لا تملك فى حد ذاتها أية ملامح مميزة لها عبر التاريخ .

وفى بعض الأحيان ، تتحلل الحضارات المنهارة إلى مستوى المادة السلالية هذه ، إلى أن يتولد عامل بناء وخلاق جديد يربط عناصرها بمزيج من العناصر الأخرى ، ويشكل منها بناء تاريخياً جديداً ، وبذلك يصل بها هذا العامل

الجديد إلى حياة تاريخية مستقلة فى شكل نمط حضارى جديد . وعلى سبيل المثال ، نجد أن الشعوب التى أقامت الإمبراطورية الرومانية الغربية ، أصبحت مادة سلالية بعد تحلل الإمبراطورية ثم ظهرت مرة أخرى فى شكل جديد يعرف بالشعوب الرومانية بعد أن وقعت تحت تأثير العامل الجرمانى .

وموجز القول فإن للدور التاريخى الذى يلعبه الشعب أو القبيلة ثلاثة وجوه : فهو إما أن يكون دوراً إيجابياً خلاقاً من الطراز التاريخى – الثقافى « حضارة » ، أو دوراً هدّاماً ، وهو ما يعرف بالعقوبات الإلٰهية التى تدفع بالحضارة من ذروة الحيوية والفاعلية إلى هوة الشيخوخة والتحلل ، أوالدور الذى يخدم أغراض الآخرين كمادة سلالية . »

ومن الواضح أن الحضارة الشرقية – بصفة عامة – كانت خير تجسيد للدور الإيجابى الخلاق الذى لا يهدف إلا إلى التعمير الحضارى من أجل عالم أجمل ، ومن أجل إنسان أفضل ، فى هذه الحضارة يحدث التكامل المنشود بين الروح والمادة داخل الإنسان ، فما يجعل الإنسان إنساناً سوى أن يضع كيانه المادى تحت قيادة طاقاته الروحية ، وفى هذا يقول السادات فى نفس مقاله السابق ذكره :

« الشرق يفهم الحضارة على أنها قيم قبل أن تكون مادة ، فقد رأينا أن الحضارة الصينية والمصرية والهندية أخرجت سلوكا وآداباً وقدست الأسرة ونظمت علاقة أفرادها ببعض وبالمجتمع وبالحاكم وتفوقت الحضارة الصينية فى تعريف الحكومة وواجبها والرعية وما يجب أن تكون عليه آدابها . . ولكن هذه الحضارات لم تسفر عن قيم إنسانية فقط ، وإنما أسفرت أيضاً عن علوم وفنون وهندسة وبناء لازالت إلى اليوم شاهداً على أصالة هذه الحضارات وتفوقها منذ آلاف السنين . .

والشرق يفهم الحضارة على أنها بناء وتعايش بين الجميع لخير الجميع . . لذلك فالشرق يعتز بحضارته ويرفض مدنية الغرب . ولذلك أيضاً صحا الشرق صحوة جبارة حين نفض عن نفسه غبار الاستعمار والسيطرة الغربية يريد أن يعوض ما فاته من تأخرلأن جذور الحضارة جزء من دمائه وكيانه وهى إن كانت خبت بعض الوقت إلا أنها كانت مشتعلة فى الداخل لأنها حضارة أصيلة ذات جذورلا يمكن أن تموت . .

ولذلك أيضاً فزع الغرب لأن صحوة الشرق كانت قوية ورهيبة وهو الذى اعتقد أنه قد استحوذ على الشرق ماديًّا ومعنويًّا . . وفزع الغرب أيضاً لأنه وجد أنه يواجه مئات الملايين فجأة من الشرق الذى استفاق وليست بينه وبين هذه الملايين التى تفوق الألف والخمسمائة المليون من ذكريات إلا المرارة والحقد والألم والشكوك . . وفزع الغرب أيضاً لأنه وجد نفسه بمدنيته التى قامت على الحديد والنار والقرصنة والقوة الباغية يواجه شعوباً ذات حضارة أصيلة لا مدنية زائفة . .

شعوب صممت على أن تعيش كريمة وعلى أن تأخذ من المدنية الغربية ما يحفظ عليها قوتها المادية وتستلهم من حضارتها ما يحفظ عليها قوتها المعنوية . . وستبقى المعركة قائمة بين الشرق والغرب حتى تنتصر الحضارة على المدنية أى حتى تنتصر القيم العليا على أساليب القهر المادية . »

وهذا ما حدث بالضبط فى السادس من أكتوبر العظيم ، فقد أثبتت حضارة الشرق الروحية – لأول مرة منذ عدة قرون – قدرتها على هزيمة مدنية الغرب المادية التى ظنت أن تفوقها يرجع إلى تفوق الجنس الأوربى . ولذلك حاول كثير من المؤرخين الأوربيين والأمريكيين تأكيد الفكرة التى تقول إن الحضارة الغربية نتيجة طبيعية لتفوق عنصرى وجنسى حتى يثبتوا فى أذهان الشعوب الأخرى استحالة تقدمها وحتمية اعتمادها على الحضارة الغربية والسير فى أذيالها حتى تضمن لنفسها حدًّا أدنى للحضارة . وإذا فكرت هذه الشعوب يوماً فى تحدى القهر الذى تمارسه الحضارة الغربية ، فلن تجد سوى الويل والثبور وعظائم الأمور . ومن هنا كان المعنى الكبير الذى يكمن وراء السادس

من أكتوبر العظيم ، أنه لم يكن مجرد انتصار جيش على آخر فى معركة ضارية ، ولكنه كان تأكيداً لحقيقة طالما اشتقنا إلى إثباتها ، وهى أن حضارة الشرق ممثلة فى الحضارتين المصرية والعربية ، لم تندثر وأنها قادرة على قهر المدنية الغربية مهما استعملت من أساليب القهر المادية .

ومن هنا كانت ضرورة محافظتنا على كل الأبعاد القومية والفكرية والحضارية والإنسانية للسادس من أكتوبر لأنه بالنسبة لنا يعد مولد الحضارة المعاصرة والأصيلة فى نفس الوقت ، المعاصرة لأنها استطاعت أن تهزم أحدث أسلحة العصر فى استعباد الشعوب واستنزاف طاقاتها . والأصيلة لأنها امتداد حى وعضوى للحضارة المصرية والعربية القديمة . والسادس من أكتوبر هو التطبيق العملى لنظرية أرنولد توينبى فى مولد الحضارات ، وهى النظرية التى هاجمها كثير من المؤرخين العنصريين المغرضين . فيرى توينبى أن مولد الحضارة لا يرجع إلى تفوق جنس بشرى معين ، أو إلى عوامل مساعدة وظروف ملائمة بشكل غير عادى ، بل يعزى إلى ظروف قاسية بشكل غير عادى ، وهذه الظروف تمثل تحدياً مصيرياً لمجتمع ما بحيث يتحتم عليه الاختيار بين البقاء أو الفناء ، بين الوجود والعدم . ولذلك يتحفز هذا المجتمع ويحشد كل طاقاته لمواجهة هذا التحدى وخوض معركة البقاء الحضارى ، والمحافظة على كيانه الإنسانى . فإذا ما نجح فى مواجهة التحدى ، ورجحت كفته فى صالحه ، فإن هذا يمكن أن يؤدى إلى خلق الحافز القوى والمستمر لزيادة قدرته الخلاقة إلى حد كبير ، وتنمية طاقاته الروحية والمادية بحيث يتبع هذا ما نطلق عليه « مولد الحضارة . »

وعلى الرغم من ضرورة وجود نوع من الموهبة الخلاقة والقدرة على الابتكار واستغلال الظروف المواتية ، بل وخلقها ، بالنسبة للدور الذى يلعبه المجتمع الذى يواجه تحدياً مصيرياً مما يساعد على انتصاره ، فإن توينبى لا يقبل ، بأية حال من الأحوال ، التفسير العنصرى الذى ينسب مولد إحدى الحضارات إلى التفوق الفطرى أو عبقرية جنس أو شعب معين ، إنما ينسبه ، إلى حد ما ، إلى مجموعة من الظروف التى تعتبر بمثابة التحدى ، كما ينسبه ، من ناحية أخرى ، إلى خصائص المجتمع الذاتية التى تمد جذورها فى تاريخه بحيث تصل إلى مصادر حضارته الأولى . فإذا توافر هذان العنصران الحضاريان : التحدى المصيرى والأصالة الحضارية فإنه يحدث ما يشبه المعجزة فى التاريخ . ولهذا يبدو السادس من أكتوبر من قبيل المعجزات بالنسبة للكثيرين ، على الرغم من أنه حقيقة تاريخية وحضارية يمكن تفسيرها علمياً . فقد كانت الظروف التى سبقت هزيمة يونيو ١٩٦٧ والتى بلغت قمتها أثناء فترة الهزيمة نفسها بمثابة التحدى الذى يتحتم مواجهته من أجل البقاء ، وفى نفس الوقت فإن خصائص المجتمع المصرى التى تمد جذورها حتى مصادر حضارته الفرعونية قد منحته من الأصالة والصلابة ، والموهبة الخلاقة ، والقدرة على الابتكار ، وخلق الظروف المواتية ، ما مكنه من قبول التحدى وقهر كل العقبات فى سبيله . وسوف يحكى التاريخ أن السادس من أكتوبر العظيم كان خير إثبات لنظرية توينبى فى مولد الحضارة وازدهارها .

ويؤكد توينبى أن عملية الميلاد الجديد هذه قد تأكد وجودها عند مولد الحضارات المصرية والسومرية والصينية فى فجر التاريخ الإنسانى . وهى الحضارات التى يحلو للسادات دائماً الاستشهاد بها فى دراساته التاريخية . فيعزو توينبى مولد الحضارتين المصرية والسومرية إلى تغير المناخ الذى حول الأراضى العشبية وسهول أفريقيا وآسيا الخصبة السهلية إلى صحراء جرداء قحلاء لا يمكن أن تتيح لسكانها فرصة الاستمرار فى حياة الصيد والرعى . ولم يكن وادى النيل ولا دجلة ولا الفرات مكاناً يساعد على الرخاء والخير ، والدليل على ذلك موجود فى الحالة البدائية الفقيرة التى ظل عليها سكان أعالى وادى النيل والفرات حتى عصرنا هذا ، فهم يعيشون فى ظروف تشبه تلك التى عاش فيها مؤسسو الحضارات المصرية والسومرية الأولين . ويستشهد توينبى أيضاً بمثال آخر على التحدى الحياتى الذى يواجهه مولد

الحضارات ، فيقول إن الحضارة الصينية لم تولد أصلا فى وادى اليانجتسى الخصيب ، بل ولدت فى وادى النهر الأصفر بمستنقعاته وفيضاناته المدمرة .

وطبقاً لتوينبى فإنه يمكن تفسير مولد الحضارات السابقة بأن قبيلة ما أو أمة ما أجبرتها الظروف ، عندما جعلت مواطن إقامتها التقليدية غير ملائمة للحياة ، على بذل جهد أصيل لتحويل وديان المستنقعات المشار إليها إلى أراض خصبة ، وعندما ثبت نجاح جهودها أصبحت الظروف المواتية التى خلقتها بمثابة الرحم الذى ولدت فيه الطاقات الروحية ، والقوى المادية ، والأفكار الخلاقة ، والثقافة البناءة لهذه الأمم . وهذا ما نسميه « الحضارة » . ونفس الوضع بالنسبة للتحدى الذى واجهته الحضارة المصرية والعربية فى النصف الثانى من القرن العشرين بعد الميلاد ، ولكن التحدى لم يتمثل هذه المرة فى الصحراء الجرداء القحلاء ، أو المستنقعات والفيضانات ، بل تجسد فى حشود العدو القابعة على ضفة قناة السويس ، وتحصيناته العدوانية ، وطائراته المغيرة ، وأسلحته الفتاكة ، وكل ما من شأنه تدمير الحضارتين المصرية والعربية ، ولقد قبلت الأمة التحدى اعتماداً على أصالتها الحضارية العريقة ، ونجحت فى الامتحان التاريخى الذى عقد لها ظهر السبت الموافق السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ . ومع هذا يجب أن ندرك أن المحافظة على استمرار النجاح أصعب بكثير من تحقيق النجاح ذاته ، ولذلك حرص السادات دائماً على التأكيد بأن مهمة التعمير لا تقل فى الصعوبة ، بأية حال من الأحوال ، عن مهمة التحرير ، بل إن التحرير هو مجرد مقدمة قصيرة لملحمة طويلة : هى ملحمة التعمير الحضارى .

ومن حسن الحظ أن هذا التعمير الحضارى لن ينشأ فى فراغ أو من عدم ، ولكنه سيستلهم أصوله الأولى مع استيعابه لمنجزات العصر . وفى هذا يقول السادات على صفحات « الجمهورية » فى ٢٢ أغسطس ١٩٥٤ :

« كان ذلك فى مستهل القرن العاشر الميلادى حتى القرن الثالث عشر ، وتلك الفترة أطلق عليها المؤرخون فى الشرق والغرب عصر العرب الزاهى . . وتحدث المؤرخون عن ذلك العصر فقالوا إن العرب كانوا وحدهم حملة مشاعل الثقافة فى الدنيا كلها !

وفى ذلك العصر أقبل علماء العرب إقبالا عظيماً وبدافع من العدل والحق السائدين فى ربوعهم على نبش تراث أثينا العظيم . ذلك التراث الذى حاول الرومان دفنه فى أعماق الأرض حقداً منه وحسدًا من حضارة الإغريق وفلسفتهم وعلومهم وقوانينهم . . حتى إذا تم انهيار الإمبراطورية الرومانية تحت أقدام برابرة الشمال ، بدأت حضارة الإغريق تَبِينُ وتتضح أمام العالم من جديد . . وكان العرب هم الأمناء عليها ، وهم حماتها ، وهم الذين بعثوها ! لم يحقدوا ولم يحاولوا دفن تلك الثقافة فى التراب مثلما فعل الرومان . .

وكان للعرب إمبراطورية . . ولكنها لم تكن إمبراطورية قائمة على السخرة والعبودية والدم الأزرق النبيل الإلٰهى ، كما كان حال الرومان . . بل كانت إمبراطورية العرب قائمة على الحق والعدل والحرية ، والإيمان بالإنسان ! من أجل هذا آمن علماء العرب بالثقافة وعرفوا أنها الطريق إلى التقدم ، فترجموا كتب أرسطو وسقراط وأبو قراط . . . فكان حنين بن إسحاق هو باعث فلسفة أرسطو وحكمته . . وترجم ابن الهيثم نظريات إقليدوس وأرشميدس إلى العربية . .

وفى ذلك العصر الزاهى للعرب كانت السيادة الثقافية فى العالم كله قد عقد لواؤها لبنى العباس ، فأنشأوا المكتبات والجامعات وامتلأت تلك المكتبات بالعلوم والفلسفة والحكمة . . وشاع العلم وشاعت الفلسفة والأدب ، ونشط العلماء العرب والفلاسفة العرب بعد ذلك الطوفان الثقافى فى البحث والمعرفة . »

وحماس السادات للحضارة العربية ليس مجرد انفعال عاطفى ، ولكنه صادر عن وعى عميق بحركة التاريخ ،

وإيمان وثيق بأن الأمة التى تلد حضارة من هذا النوع الخصب الغزير لا يمكن أن تندثر. فإذا كانت الظروف الموضوعية المحلية المؤقتة قد أصابتها بأمراض التخلف ، إلا أن فى جسمها من المناعة الحضارية ما يمكنها من استعادة صحتها على الوجه الأكمل والانطلاق مرة أخرى إلى الصفوف الأولى لمسيرة العصر الحضارية ، وخاصة أنها تملك من الطاقات الروحية ما تتفوق به على المدنية المادية السائدة فى الغرب . فالطاقات الروحية يمكن أن تتجسد فى قوى مادية جبارة كما حدث فى الحضارة العربية من القرن العاشر الميلادى حتى القرن الثالث عشر ، أما القوى المادية فمن الصعب أن تتحول إلى طاقات روحية ، ومن هنا كانت الضغوط النفسية والعقلية والفكرية الطاحنة التى يعانيها الإنسان المعاصر فى الغرب رغم الحضارة العلمية والتكنولوجية الباهرة التى يمر بها الآن . وقد انعكست هذه الضغوط الطاحنة على الأعمال والدراسات التى كتبها مفكرو الغرب وأدباؤه من أمثال أرنست هيمنجواى ووليام فوكنر وجيمس جويس ود. هـ . لورنس ومارسيل بروست وفرانز كافكا ولويجى بيرانديللووجورج أورويل وفيرجينيا وولف وت . س . إليوت وألبير كامى وجان بول سارتر ونورمان ميلر وبوريس باسترناك وصامويل بيكيت ويوجين اينسكو وناتالى ساروت واندريه مالرو وآلان روب جرييه وجان جينيه وغيرهم من المفكرين والأدباء الذين دقوا أجراس الإنذار تحذيراً من الضمور الروحى الذى ينهش الإنسان المعاصر من الداخل ، وذلك عن طريق تصوير مأساة هذا الإنسان وضياعه وسط المنجزات المادية الباهرة ، فقد نجح فى استكشاف القمر والكواكب الأخرى ، ولكنه فشل فى استكشاف ذاته ، أقرب العناصر إليه ، بل ازدادت هذه الذات الإنسانية فى الغموض والإبهام لأنه أهمل طاقاته الروحية وظن أن المادة هى كل شىء فى هذا الكون .

وهذه الظاهرة المدمرة تؤكد صحة نظرية توينبى فى النمو الصحى والتوازن الحقيقى للحضارات بعيداً عن التضخم المادى والضمور الروحى . فيرى توينبى أن نمو الحضارة ليس مجرد عملية بيولوجية أو أتوماتيكية أو ميكانيكية بسيطة ومباشرة ومادية وملموسة بحيث تتبع بالضرورة مولد الحضارة . ويثبت ذلك أن عدة حضارات توقفت عند حد معين فى مجرى حياتها رغم انتشارها المادى بالقوة ، فلا يرى توينبى فى التوسع والسيطرة على الأراضى أو الشعوب ، سواء كان توسعاً سياسيًّا أو عسكريًّا ، ولا فى السيطرة على البيئة المادية بالوسائل التكنولوجية ظاهرة أو دليلا على النمو ، وإنما يعتقد العكس لأن التاريخ يؤكد له أن أعظم توسع إقليمى لأية حضارة ، يحدث عادة فى المرحلة المبكرة من مراحل التحلل والانهيار ، حين يكون من المحتمل أن يؤدى التقدم التكنولوجى إلى وأد الحضارة ، كما يحدث للحضارات المتضخمة ماديًّا ، ذلك لأن التضخم المادى يمتص جميع طاقات النشاط ، وبذلك يتحول المجتمع إلى عبد لهذا التضخم بدلا من أن يكون سيده . وهذا ما يحدث فى الغرب منذ وقوع الانقلاب الصناعى فى القرن الماضى ويتزايد بمرور الأجيال ، فقد اخترع الإنسان الآلة لكى تخدمه وتسهل حياته ، فكانت النتيجة أن انقلبت الآية وأصبح الإنسان فى خدمة الآلة التى تعمل بكل طاقاتها المادية الجبارة على تعقيد حياته يوماً بعد يوم .

ولذلك يعتقد توينبى أن الخاصية الإيجابية أو القوة الخلاقة للحضارة النامية هى عملية روحية من الطراز الأول ، ففى كل مجال من مجالات التطور : فى اللغة والملابس والفنون التطبيقية والعلوم ، يرى توينبى ميلا مستمراً إلى التبسيط والتجريد ، ولذلك فإن أقل فئة من العاملين والخبراء تكفى لحل مشكلات الحياة المادية الخالصة ، بحيث تتاح الفرصة لمزيد من النشاط الروحى والتأصيل الفكرى ، وبناء عليه فإن تغييراً يطرأ على المجال الذى يجرى فيه التحدى والرد عليه . فالظروف المادية تصبح مكثفة ومركزة بفعل السياج الروحى الذى يحيطها ويحميها من التشتت والضياع ، وبذلك تضعف إمكانيات التحدى فى مواجهة هذه الظروف ، وتكون النتيجة انتصار الأمة بسبب التوازن الذى تملكه بين القوى المادية والطاقات الروحية ، ومن ثم يصبح التحدى الخارجى والداخلى على حد سواء إحدى عمليات التشكيل

الذاتى أو تقرير المصير أو التعمير الحضارى . ولذلك يؤكد السادات دائماً أن التحرير والتعمير هما وجهان لعملة واحدة : هى الحضارة العربية المعاصرة . وكان السادس من أكتوبر العظيم هو التحدى الذى رسم الطريق الصحيح إلى التعمير والذى وضع حداً لاختفاء الحضارة العربية وانسحابها من صورة العصر .

وقد ذكر توينبى أمثلة كثيرة لما اعتبره اختفاءات مؤقتة لبعض الحضارات الأصيلة التى عادت إلى الأفق لتثبت وجودها مرة أخرى ، بل وتأخذ زمام المبادرة بعد أن ظنت الأجيال التالية أنها اندثرت إلى غير رجعة . فأثينا مثلا ، لم تلعب دوراً فى الاستعمار الإغريقى العام الذى استمر فيما بين القرن الثامن والقرن السادس قبل الميلاد ، غير أنها عادت بعد ذلك فقامت بدور الزعامة فى مجموعة الدول الإغريقية ، وكذلك برزت إيطاليا من المجتمع الإقطاعى فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، حين مرت بعملية الانتقال من المجتمع الزراعى الرعوى إلى المجتمع المدنى التجارى والصناعى ، وكانت إنجلترا إبان فترة عزلتها النسبية عن أوربا ، أى فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر ، قد أرست قواعد الديمقراطية البرلمانية والمجتمع الصناعى الحديث . ويرى توينبى – عندما كتب هذه النظرية الحضارية – أن عزلة روسيا فى ذلك الوقت عن العالم – وراء ما عرف بالستار الحديدى – لم تكن إلا عملية مماثلة للاختفاء الحضارى المؤقت . وقد أثبتت الأيام صحة نظرية توينبى وذلك عندما خرجت روسيا على العالم بصواريخها عابرة القارات وأقمارها الصناعية وسفنها الفضائية ، ولم يتوقف الخروج عن عزلتها عند هذا الحد بل تطور إلى سياسة الوفاق بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية التى كانت غريمها التقليدى وعدوها اللدود طوال سنوات الستار الحديدى والحرب الباردة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية . وهذا يدل على أن أية عملية اختفاء حضارى لابد أن تكون مؤقتة ومرتبطة بظروف طارئة ، وبمجرد انتهاء هذه الظروف تعود الأمة إلى تسلم مقاليد الحضارة ومواكبة العصر . وما انطبق على كل هذه الأمم لابد أن ينطبق على الأمة العربية التى اختفت طويلا من الصورة الحضارية للعصر ولكن السادس من أكتوبر أفسح لها مكاناً فى الصورة ، وجاءت السادسة فى الترتيب الحضارى فى العالم بعد أمريكا وروسيا والصين واليابان وكتلة أوربا الغربية طبقاً للتقدير السنوى لمعهد الدراسات الاستراتيجية الدولية فى لندن . ومن نقطة الانطلاق التاريخية هذه نتمنى ونصر بل ويتحتم أن نعمل من أجل عدم الاختفاء الحضارى مرة أخرى ، بل يجب أن ننطلق إلى الصفوف الأولى من مسيرة العصر الحضارية دون تردد أو وجل أو خجل أو عقد أو رواسب أو قيود ، بعد أن حررنا السادس من أكتوبر من كل هذه العقبات ، وبعد أن اعترف العالم أجمع بمكانتنا الجديدة . من هنا كانت حتمية سياسة الانفتاح ، لأن الاختفاء معناه الانغلاق على الذات ، واجترار هموم النفس ، والدوران داخل دائرة مفرغة ، بينما الانفتاح على الحضارة المعاصرة هو التجاوب والتفاعل والأخذ والعطاء والمرونة مع مراعاة شرطى الأصالة والمعاصرة وهذه كلها عوامل ضرورية لأى تعمير حضارى منشود . وفى هذا المعنى كتب السادات فى « ورقة أكتوبر » يقول :

« إن هدفنا الأسمى من هذه الاستراتيجية الحضارية الشاملة ، فى هذه المرحلة التى تنطلق فيها روح رمضان (أكتوبر) العظيم إلى مهمة التقدم والبناء هى أن نقيم فى بلادنا الدولة العصرية والمجتمع الحديث ، حتى يستطيع شعبنا أن يحقق من خلالهما ذاته ، وينمى طاقاته الخلاقة . ولا يجوز لنا أن نتهيب لحظة واحدة هذه المرحلة التى لا مفر منها إلى المستقبل العريض .

وكما أن الإنسان المصرى هو فى النهاية هدف هذا التقدم ، وهو فى البداية وسيلة هذا التقدم ، فإن هذا الإنسان المصرى نفسه ، هو الضمان . هو الضمان لأن ننطلق إلى هذه المرحلة ، آخذين بأحدث معطيات العصر فى شتى المجالات ، دون ما خشية من أن نفقد خلال هذه الرحلة هويتنا ، أو ننقطع عن أصالتنا ، أو ننسى الفضائل التى كان هذا الشعب دائماً يعتز بها ويمجدها . فهذا الشعب كما أقول دائماً يحمل فى أعماقه قيم حضارات عمرها

سبعة آلاف سنة . وكانت تلك الحضارات تنهض به وتكبو ، تنطلق وتنقطع ، تتغير وتتجدد ، ولكن الشعب كان يعرف فى النهاية دائماً كيف يخرج من هذه الامتحانات كلها محتفظاً بخصائصه الأصيلة ، وفطرته الصافية السليمة .

إن من يكتفى بقراءة العناوين ، يجد أسماء مختلفة لحضارات متعاقبة ، ونظم شتى ، وحكام جاءوا من أقصى أنحاء الأرض ، ولكن من يتعمق وراء ذلك يجد تلك الصفة العجيبة ، وهى الوحدة الكامنة خلف كل تلك الحضارات المتعاقبة . ولقد مرت على هذا الشعب قرون بكاملها ، كان فيها لا يكاد يملك شيئاً من أرضه ، ولا من رأيه ، ولكنه بقى مع ذلك محتفظاً بشخصيته المتماسكة ، وبنسيجه الوطنى المنسجم يفنى فيه غزاته ومستغلوه .

وكانت صفته المميزة على الدوام ، والتى تجعله قادراً على هذا الاستيعاب العجيب لهؤلاء الغزاة والمستغلين ، هى أنه كان دائماً شعباً صانعاً للحضارة ، بانياً للعمران . . ولم تكن المهارات التى قدمها للدنيا أبداً من مهارات الغزو والتدمير ، بل من مهارات البناء والتعمير . .

وليس أدلّ على هذه الخصائص ذات الجذور العميقة ، من أن هذا الشعب كان يمر بالأحداث والتغيرات العميقة محتفظاً بدرجة نادرة من الوحدة الوطنية والانسجام القومى ، مازالت مضرب الأمثال فى العالم . وأن التحولات السياسية والاجتماعية الكبيرة التى لابد منها فى مراحل معينة من حياة كل أمة حية ، كان يسودها طابع التحول السلمى لا الدموى ، وكان الشعب ينجزها ويتجاوزها ثم لا يلبث أن يضم جناحيه بعدها على كل أبنائه .

حتى نظم الاستعمار والغزو التى نجحت فى مناطق أخرى فى أن تفرق وتقسم ، لم يكتب لها النجاح فى مصر قط ، بل ظل تكاملها الشعبى والوطنى والجغرافى فوق كل نزاع . وقد كانت هذه الصفات ذاتها ، هى التى مكنته من أداء دوره التاريخى فى مساندة الأمة العربية التى ينتمى إليها ، ورد الغزوات عنها ، واحتضان قيمها وتراثها ، فى ظروف المحن والغزوات والتمزقات . »

وفلسفة السادات الحضارية ترد بهذا على فلسفات الغرب التى تؤكد أنه فى الإمكان تحديد الحضارة المحلية داخل إطار جغرافى معروف ، فالحضارة يمكن قياسها بالتاريخ وليس بالجغرافيا ، فهى ليست وحدة جغرافية ثابتة ومتماسكة ، ولكنها تكتل لظواهر ثقافية : سياسية واقتصادية وعلمية ودينية واجتماعية وفكرية وفنية . . إلخ ، يمكن أن تنتقل من حضارة إلى أخرى . ومع أن عدداً من هذه الظواهر يتحد فى فترات معينة ليشكل ما نطلق عليه حضارة ، فمن المحتمل أن بعضها وجد قبل ظهور الحضارة ، أو أنه يحيا بعد اختفائها ، ومعنى ذلك أن الحضارة لا تولد أو تندثر بالمعنى المحدد والمحدود للبداية والنهاية ، بل تظل كامنة بطريقة أو بأخرى ، وتتخذ من الأشكال والمظاهر ما يصعب حصره ورصده .

وفى هذا يتفق السادات مع عالم الحضارات سوروكين الذى يتخذ من الحضارة الإغريقية — الرومانية مثالا على أن الحضارة ما تزال على قيد الحياة فيما كتبه الإغريق من كلاسيكيات ، وما خلفوه من فلسفات وما أبدعوه من نظريات ، وما ابتكروه من علوم ، وأيضاً فى القانون الرومانى وأشكال الحكم الرومانى وأساليبه ، تماماً مثلما استشهد السادات بالحضارة المصرية — العربية . يقول سوروكين فى هذا المعنى :

« إن قيماً عديدة من الحضارة الإغريقية — الرومانية مازالت تقلد وتطبق وتدمج فى حضارتنا وثقافتنا ونظمنا وعقليتنا وسلوكنا وعلاقاتنا . إنها تحيا وتعمل وتؤثر فينا ، لأنها أكثر حياة من أحسن كتاب بيع فى العام الماضى أو كتب الأدعياء والمتعالمين التى صدرت بالأمس القريب . إن حضارة من الحضارات الكبرى لا تموت برمتها وفى إمكان الإنسان أن يؤكد إلى حد كبير ، أن نسبة مئوية كبيرة من أية حضارة من الحضارات الغابرة التى نظن أنها اندثرت وماتت — وهى أحياناً نسبة مئوية كبيرة جداً — مازالت حية بكل معانى الكلمة »

ونفس المزج الذى حدث بين الحضارة الإغريقية والرومانية ، نجده بين الحضارة المصرية والعربية ، ولذلك تتأكد لدينا المغالطات الحضارية والتاريخية التى تكمن وراء الدعاوى الشعوبية التى تهدف إلى تقسيم الأمة العربية إلى فراعنة وبدو وبربر وفينيقيين وآشوريين وبابليين وسومريين وحيثيين . . إلخ . فوحدة الأمة العربية هى وحدة حضارية فى المقام الأول وليست مجرد حدود جغرافية متلاصقة أو لهجات متعددة للغة واحدة ، فكل هذه مجرد عناصر متفاعلة فى الوحدة الحضارية التى تعد الهدف الكبير والوحيد من أجل الانطلاق إلى الصفوف الأولى فى مسيرة العصر الحضارية . فلم تعترف الحضارة العربية فى القديم بالفواصل الجغرافية ، بل استوعبت كل الإنجازات الحضارية التى سبقتها ثم بدأت تضيف إليها إضافات مازال عالمنا المعاصر يعترف بقيمتها وفاعليتها . ومن التفاعل بين الحضارات الوافدة والحضارة الأصيلة والأصلية الكامنة سجَّلَ العرب أروع صفحات التاريخ الحضارى للبشرية فى منطقة تمتد من جنوب آسيا الصغرى ثم تدور حول حوض البحر المتوسط حتى تصل إلى الأندلس وجنوب فرنسا . ولم تقف الدعاوى الشعوبية فى وجه هذا الزحف الحضارى الباهر ، بل كان هدف الجميع العمل من أجل عالم أجمل يعيش فيه إنسان أفضل . ومازالت القيم الذى رسختها هذه الحضارة العريقة كامنة فى نفوس وضمائر أحفادها تؤثر فى ثقافتهم وسلوكهم وعلاقاتهم . ويسرد لنا السادات على صفحات « الجمهورية » فى ٢٢ أغسطس ١٩٥٤ جانباً من التعمير الحضارى الذى قدمه العرب إلى العالم فيقول :

«كانت ثقافة أثينا قد مهدت لهم الطريق فسجل التاريخ لهم صفحات مجيدة كان لها دورها الحاسم فى تطور البشرية وقفزتها إلى النور . سجَّل التاريخ للطبيب الفيلسوف ابن سينا ما قدمه للإنسانية من معرفة بعد أن ترجم كتابه (القانون) إلى جميع اللغات الحية ويدرس هذا الكتاب الآن فى جامعات أوربا . . وسجّل التاريخ للرازى أنه أول طبيب اكتشف عدوى الأمراض وأول من عرف مرض الحصبة والجدرى ، ووصف أعراضهما . . وسجل التاريخ لابن رشد ما قدمه للإنسانية من فلسفة أضاءت لها الطريق . . ثم أخيراً كان لابن خلدون نصيب كبير فى هداية فلاسفة أوربا إلى علم الاجتماع . . وقد أطلقوا عليه لقب العالم الاجتماعى الأول ، فإن علماء الفلسفة والاجتماع فى عصر النهضة بأوربا لم يجدوا مرجعاً لأبحاثهم وفلسفتهم أفضـــل من مقدمة ابن خلدون . . وكما حدد ابن خلدون لعلماء أوربا وفلاسفتها الطريق فى عصر النهضة فعل ابن نفيس أيضاً نفس الشىء لأطباء أوربا . . فابن نفيس العربى أول من وصف الدورة الدموية وسبق فى ذلك سرفيتوس بثلثمائة سنة ، وكان بحث ابن نفيس هو الذى اهتدى به هارفى عندما وضع كتابه عن الدورة الدموية كما اعترف هو نفسه بذلك . . وعلى هدى هذا البحث عن الدورة الدموية تقدم الطب وتم إنقاذ البشر من كثير من الأمراض التى كانت تفتك بهم . .

كان العرب ، إذن ، يعيشون – بلا كهانة – حياة رائعة متقدمة . . وكانوا – بلا كهانة – يحملون المشاعل لهداية العالم كله إلى مستقبله الذى يتحتم أن يزدهر بالعلم والمعرفة وبالأدب والفن . كانوا – بلا كهانة – يؤمنون بالثقافة – ينبشونها حيثما كانت ، ويطورونها فى وعى عظيم وإيمان بالحق ، حق البشرية جمعاء فى الحرية والعدل والعمل لم يتعصبوا لأنهم فهموا رسالة نبيهم محمد فهماً عميقاً متطوراً ، لم يزوروا الحضارات التى سبقتهم بل انطلقوا يدرسونها ويبحثون عن مصادرها ثم ينقلونها فى أمانة إلى البشر جميعاً ، بغض النظر عن مذاهبهم ودياناتهم . . تلك كانت رسالة محمد العظيم المناضل الثائر المتحرر المتقدم . »

وعندما نستعين بالحضارة الغربية فى تجديد حضارتنا وخاصة من ناحية الإنجازات العلمية والتكنولوجية ، فلا يجوز أن نخجل من هذا ، لأنها بضاعتنا ردت إلينا ، فالحضارة العربية كانت الأساس الذى بنيت عليه حضارة أوربا فى هذا القرن العشرين . ويؤكد السادات أن الثقافة وحدة لا تتجزأ فقد كان من ضرورات عصر النهضة الأوربية

أن يقبل علماء وفلاسفة وأدباء أوربا على التراث العربى وهم فى سبيل خلق ثقافة الإنسان وحضارته هناك . واستمر النقل عن الحضارة العربية من القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر. ويسرد السادات فى هذه المقالة الخطيرة أمثلة على هذا النقل الحضارى فيشرح لنا كيف عكف الرهبان المثقفون فى إيطاليا على ترجمة ما نقل إليهم من كتب العرب وتراجمهم ، وكانت تلك الكتب تمتلئ بها المكتبة الملكية فى قرطبة ودار الحكمة فى بغداد ، فقد قام الراهب قسطنطين وهو حبيس فى دير كاسينو فى إيطاليا بترجمة مؤلفات العرب فى الفلسفة والعلوم والأدب والاجتماع والفلك من العربية إلى اللاتينية . وكان من أعظم إنجازاته الحضارية ترجمته لمؤلف على بن عباس المجوسى ، ثم قام رهبان آخرون فى نفس الدير بترجمة كتب ابن سينا وكتاب « الحاوى » للرازى ومؤلفات ابن الخطيب فى الشعر والأدب والسياسة .

كانت إيطاليا وصقلية هما الجسر الذى عبرته ثقافة العرب من شمال أفريقيا إلى قارة أوربا ، وهكذا صنع العرب حضارة أوربا ، وبعثوها فى عصور الإقطاع والظلام والسخرة والجهل والأوبئة ، وهى التى عرفت بالعصور الوسطى المظلمة . ويبلور السادات المأساة بقوله إن أجدادنا ساهموا فى تحرير أوربا من الكهنوت ، ثم وقعنا نحن الحفدة فى شراكه فعانينا ما عاناه الأوربيون فى القرون الوسطى ، أصبحنا مرضى ومسخرين وجهلة وجياعاً وعــراة ، وليس فى حياتنا سوى المأساة ، بينما البكاء على الأطلال لا يمكن أن يقيم حضارة . ولذلك يقول السادات فى نفس المقالة أو البحث :

« عندما فرض علينا تجار الدين التعصب والجمود والخضوع لرجعيتهم . . لم نجد عدلا نبحث فى كنفه عن العلم . . ولم نجد حقًّا يعاوننا فى تحطيم أغلال الكهانة لننطلق مع البشر جميعاً فى ركبهم المندفع نحو الحياة . ولم نجد حرية تبعث فينا الرغبة فى البحث والتأمل والمعرفة . من أجل هذا لم تعد لنا ثقافة . . ومن أجل هذا لم نجد طريقنا نحو العدل والحق والعمل . وكما قلت إن الثقافة وحدة فى هذا العالم لا تتجزأ ، كان حتماً إذن أن نبحث وندرس ثقافة غيرنا مثلما فعل أجدادنا حملة المشاعل فى عصرهم الزاهى . »

« وفى العالم الآخر – ولا أقصد الجنة – توجد ثقافة ، وذلك العالم لم يسمح لنا بالتزود منها بل حجبها عنا وارتكب فى حقنا – بعدما رأى حالنا – جريمة بشعة . . وساعده فى ارتكاب تلك الجريمة تجار الدين والمشعوذون ساعد هؤلاء – وهم منا – الغرب فى البطش بنا بدلا من تثقيفنا مثلما فعل أجدادنا الكرماء العظام مع ذلك الغرب أيام جهله وتأخره وانحلاله . »

وكما يقول ج . دى بويس فى كتابه « مستقبل الغرب » إن التمسك بالأصالة لا يعنى بالضرورة أننا ننكر التقدم ، فإن كل حضارة تبلور فى حد ذاتها واحداً أو أكثر من خطوط التقدم الطويلة التصاعدية ، ولكن حتى عندما تختفى حضارة ما ، فإن الإبداعات القيمة والإضافات الأصيلة التى أنجزتها فى ميادين المناهج العلمية ، والأساليب العملية ، والفن والفكر ، ترثها حضارة تالية وتستخدمها وتضيف إليها وإلا عاشت عالة عليها ، وهكذا استعادت الحضارة المعاصرة الشىء الكثير من حضارات الفراعنة والإغريق والرومان والعرب فى مجالات العلوم والفنون والآداب والأخلاق والفلسفة والقانون وأنظمة الحكم . ولولا الضمور الروحى الذى تعانى منه الحضارة الحديثة بسبب طغيان الماديات لكانت أروع حضارة عرفها الجنس البشرى ، فقد بلغت حدًّا خياليًّا فى السيطرة على البيئة المادية ولكنها أنتجت الكثير من الأمراض العصبية والنفسية والعقلية والروحية . ولذلك سمى هذا العصر بعصر القلق ، ونحن نعلم جميعاً أن القلق إذا زاد عن حد معين فإن الحياة ذاتها تفقد طعمها .

ومن الواضح أن نظرية السادات فى التعمير الحضارى تتبع منهجاً علميًّا يمكنها من رسم خط واضح ومحدد للمسيرة الحضارية بحيث يمكن التخطيط من أجل المستقبل دون خوف من مفاجآت غير متوقعة قد ينتج عنها نكسات نحن فى

غنى عنها . ولم تكن « ورقة أكتوبر » سوى تخطيط لاستراتيجية حضارية شاملة يتحتم تطبيقها من الآن وحتى مطالع القرن الحادى والعشرين ، وذلك حتى يتسنى للأمة العربية أن تلحق بركب الحضارة الحديثة . وهذه النظرية الحضارية لا تحط من قدر الإنسان أو الشعب ، فهى ترفض النظر إلى الإنسان على أنه مجرد أداة يعبث بها القدر ، ولا تملك من أمر نفسها شيئاً . وترفع النظرية أيضاً من قيمة الجهد البشرى وتحدد النتائج الباهرة التى يمكن أن تنتج عنه إذا كان أصيلا ومعاصراً بصدق ، فالحضارة – أولا وأخيراً – هى نتيجة لجهد الإنسان فى مختلف المجالات . وعلى الذين يرغبون فى العيش عالة على حضارة غيرهم ألا يبكوا تخلفهم ، فالحضارة تتبع المثل البسيط والعميق الذى يقول : « من جد وجد ، ومن زرع حصد » . فهذا هو قانون الحضارة ، والتاريخ زاخر بأمثلة عن أمم وقادة غيروا مجرى التاريخ بإرادتهم الصلبة ، وعملهم الدءوب ، وعلمهم الغزير ، وإيمانهم العميق ، ونظرتهم الشاملة ، وبهذا أوقفوا عملية التدهور الحضارى وقادوا أممهم إلى مجد جديد . وما فعله السادات عند توليه المسئولية ، والذى بلغ قمته فى قراره التاريخى فى السادس من أكتوبر العظيم ، لم يكن سوى تجسيد للجهد الإنسانى عند ما يتكثف ويتبلور فى رائد عظيم نجح فى قيادة أمته من ليل التدهور والتخلف إلى فجر الانطلاق والحضارة .

وفى هذا يختلف السادات مع الفيلسوف الألمانى شبنجلر اختلافاً جذريًّا ، إذ يعتبر شبنجلر الإنسان مجرد نتيجة حتمية للحضارة ، بينما يؤمن السادات بالعكس تماماً ، أى أن الحضارة هى نتيجة حتمية لعمل الإنسان وفكره . وهنا تبدو تقدمية السادات وموسوعية فكره فى مقابل رجعية شبنجلر وضيق أفقه . فالإنسان عند شبنجلر معدوم الإرادة لأنه مجرد لعبة فى يدى القدر ، وعلى الإنسان – فى هذه الحالة – أن يمتثل لصروف الدهر وألا يعمل شيئاً مخالفاً لها لأن ذلك لن يغير من واقع الأمر شيئاً ، وفى النهاية سيتساوى تماماً مع الذى لا يعمل شيئاً على الإطلاق . وعلى الإنسان أن يجعل من نفسه أداة طيعة لحركة التاريخ إذ أنه لا يملك أية قدرة لتوجيهها حيث يشاء هو . وعندما ندرك نظرية شبنجلر هذه لا نعجب من أنها كانت الفكر الذى مهد أذهان الشعب الألمانى لتقبل طغيان النازية وقبوله القيام بأداة القمع والبطش والقهر والتدمير الحضارى تجاه الشعوب الأخرى بدون استثناء . ونتج عن هذا الويلات التى عاناها العالم كله من جراء الحرب العالمية الثانية والتى كانت من أكبر الانتكاسات التى أصيب بها التعمير الحضارى على مر التاريخ الإنسانى كله .

صحيح أن القوة المادية ضرورية لدفع عجلة التعمير الحضارى ، ولكنها ليست كل شىء ، فلابد من إحاطتها بالقيم الإنسانية والضوابط الحضارية حتى لا تتحول إلى طاقة استغلال واستعباد وطغيان وتدمير فى نهاية الأمر . وفى هذا يقول السادات فى خطابه أمام المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى ١٦ فبراير ١٩٧٢ :

« إننا فى ذلك كله نصدر عن التزام عالمى وإنسانى بقوة القانون ، ونحن لا نستطيع أن نطالع الدنيا بأننا لا نريد قوة القانون ، وإنما تحولنا فجأة إلى قانون القوة كما يفعل غيرنا . إننا نهزم أنفسنا بأنفسنا إذا قلنا بقانون القوة بدلا من قوة القانون ، ولابد أن يستقر فى وعينا جميعاً أن عملنا بالسلاح واستعدادنا للمعركة وقرارنا بدخولها هو تعزيز لقوة القانون ، وليس تخلياً عنه إلى قانون القوة .

إن العالم لم يصبح غابة ، ويجب أن نحول دون ذلك بكل جهودنا . ولقد نتذكر أننا إذا سمحنا بتحويل العالم إلى غابة فإننا قد لا نكون فى هذه الغابة أقوى الوحوش . ولهذا فإن قوة القانون هى سلاحنا ، والقانون لا يجوز أن يكون أعزل من السلاح ، وإلا تحولت الدنيا بالفعل إلى غابة ، ومن ثم فإن قرارنا بحمل السلاح دفاعاً عن الحق ، دفاعاً عن القانون ، هو نضال إنسانى شريف ، لا تقتصر أهميته على حدودنا فقط ، ولكنه يتعدى هذه الحدود ويكتسب من ذلك قيمة عالمية . إننا نحمل السلاح ، وسوف نحمل المزيد من السلاح . ولقد قاتلنا ، وأمامنا

قتال شديد ، ولكن سلاحنا وقتالنا ليس سلاح وقتال العدوان ، وإنما هوسلاح وقتال الحق والحرية .

ويتحتم أن نكون مع قيم الإنسانية والحضارة فى نضالها ، لكى تكون قيم الإنسانية والحضارة معنا فى نضالنا ، ولا يجوز فى هذا الصدد أن يخدعنا كسب سريع يحصل عليه غيرنا بالسلب والغصب ، ذلك لأن التاريخ طويل ، ولقد أثبتت تجربته أن الجريمة لا تجدى ، وإلا فأين ذهب الطغاة منذ بداية التاريخ إلى نهاية هتلر . »

ولذلك فروعة حرب أكتوبر تكمن فى أنها كانت حرباً حضارية من الطراز الأول ، فهى من أجل حضارة الإنسان فى كل مكان وليست من أجل الحضارة العربية المرجوة فقط . ومن هنا كانت المساندة والتأييد لها من كل بقاع الأرض عندما اندلعت ظهر السبت الموافق السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ ، صحيح أن الدهشة بل الصدمة كانت الانطباع الأول بسبب النظرة التقليدية التى تعود الغرب النظر بها إلى العرب ، ولكن عندما اتضحت الأمور وأثبت العرب وجودهم الرائع فى ميدان القتال ، واستعمالهم لأحدث الأسلحة الإلكترونية وأعقدها بمهارة فائقة ، كل هذا من أجل تحرير أرضهم والدفاع عن القوانين الإنسانية والضرورات الأخلاقية والقيم الحضارية ، لم نسمع صوتاً يعارض هذه الحرب الحضارية الإنسانية . والسادات يؤمن بأن ما قامت به الأمة العربية أثناء حرب أكتوبر وبعدها كان الامتداد الطبيعى لتاريخها الحضارى ، ولم يكن مجرد مفاجأة لم تكن فى الحسبان . كانت نفس المواجهة القديمة بين حضارة الشرق الروحانية ومدنية الغرب المادية .

ولكى لا نخرج عن المنهج العلمى ، فقد وجب علينا أن نحدد المقصود بالشرق والغرب فى مفهوم السادات حتى يكون كلامنا محدداً وأكاديمياً . فقد نشر السادات سلسلة من الأبحاث العلمية فى جريدة « الجمهورية » بطول شهرى أغسطس وسبتمبر من عام ١٩٥٦ تحت عنوان « شرق وغرب » ، وحدد فيها كل المفاهيم الحضارية المرتبطة بالشرق والغرب ، كل على حدة ، فهو لا يعنى ما اصطلح عليه اليوم من تعريف لأكبر كتلتين فى العالم ، حين أطلقوا على الولايات المتحدة الأمريكية ومن معها « غرب » وعلى الاتحاد السوفييتى ومن معه « شرق » . وإنما يعود السادات بهذه التسمية إلى أصولها عبر التاريخ . ويقول بأن ما عناه شاعر الاستعمار الإنجليزى كبلنج هو التفسير الأقرب إلى ما يعنيه من هذه التسمية حينما قال فى قصيدته المشهورة : « الشرق شرق والغرب غرب . . ولن يلتقيا . » ويحدد السادات الصعوبات التى تواجه الباحث فى هذا المجال فيقول فى الحلقة التى نشرت « بالجمهورية » فى ١٢ أغسطس ١٩٥٦ :

« حين نريد أن نضع حدوداً تفصل بين الشرق والغرب حتى نستطيع أن نتناول كل ناحية بالدرس والتحليل من التاريخ والواقع فإننا سنواجه صعوبات كثيرة . . فهل ستكون هذه الحدود جغرافية مثلا . . أو تكون هذه الحدود حضارية ، بمعنى أن تكون مميزات الحضارة عبر التاريخ واشتراكها أو انبثاقها من منبع واحد لشعوب مختلفة هى الحد مثلا الذى نجمع به الغرب من ناحية والشرق فى ناحية أخرى . . ؟ أو تكون هذه الحدود على أساس الجنس ، فنقول إن جنساً معيناً أو أجناساً بذاتها تكون الغرب وأجناساً أخرى تكون الشرق . ؟

فإذا اتخذنا من الجغرافيا أساساً وقلنا كما قال به مفكرون من الغرب فى القرن التاسع عشر إن الخط الذى يفصل بين الشرق والغرب يمتد رأسياً من الشمال إلى الجنوب عند انتهاء شرق البحر المتوسط وكل ما يقع شرق ذلك فهو الشرق وكل ما يقع غرب ذلك فهو الغرب فإننا سنرتكب خطأ جسيماً ، إذ أن مصر وفلسطين وليبيا وتونس والجزائر ومراكش ستقع كلها جميعاً فى الغرب فى الوقت الذى ترتبط فيه كل هذه البلاد بالشرق بروابط تاريخية وحضارية فضلا عن أن جميع مقومات شعوبها شرقية بحتة ولا تشترك مع الغرب فى قليل ولا كثير بل هى أبعد ما تكون عن الغرب . كذلك سنرتكب نفس الخطأ بالنسبة لأستراليا ونيوزيلندا ، فإنهما بحسب هذا التقسيم هما فى الشرق فى الوقت الذى

لا تربطهما بحضارة الشرق ولا تاريخه ولا مقوماته أية روابط بل هما أبعد ما تكونان عن العقلية الشرقية والبيئة الشرقية .

ولن نستطيع أن نتخذ من الجنس قاعدة أيضاً لأن الصين وهى شعب واحد تضم أجناساً متعددة كذلك ينطبق الأمر على أمريكا وروسيا . . لذلك فلا مخلص لنا إلا بالحضارة التى تكون العقلية وترسى مقومات تكون هى بذاتها المميزات الخاصة التى تميز الشرق عن الغرب ، وهنا نستطيع أن نحدد الشرق بكل الشعوب التى تكون حضارتها ويكون تاريخها من حضارة وتاريخ الشرق ، ونستطيع أن نحدد الغرب بنفس الطريقة » .

والسادات يتبع هذا الأسلوب الأكاديمى فى الدرس والبحث ، لأنه يريد أن يضرب المثل لنا لكى نتعلم أن نحدد كل شىء فى هدوء وموضوعية وأكاديمية حتى لا نضل الطريق صوب التعمير الحضارى المنشود ، فلا يمكن أن يقوم التعمير الحضارى على انفعالات مؤقتة وطفرات عشوائية . ولعل المقالة التى نشرها السادات تحت عنوان « عبر التاريخ » فى مجلة « التحرير » فى ٤ ديسمبر ١٩٥٦ بمثابة الاتزان الموضوعى الذى يريد السادات تأكيده فى وجدان الشعب المصرى حتى ولو كان يمر بأشد المحن القومية ، فقد كتبها فوراً فى أعقاب العدوان الثلاثى وأثناء احتلال بريطانيا وفرنسا لمدينة بور سعيد حتى يبصر الشعب المصرى بامتداده التاريخى والحضارى ، هذا الامتداد الذى صمد لكل تقلبات الأيام ، وغزوات الطامعين ، فلم يلجأ السادات إلى إثارة التشنج العاطفى ، والأنفعال المبالغ فيه ، فى نفسية الشعب ، رغم أن الجو النفسى كان مهيأ لذلك . بل ترك عبر التاريخ تتكلم وتشهد وتؤكد أن هذه الغزوة الاستعمارية ليست سوى فقاعة على سطح الحياة المصرية الزاخرة بأمواج التحرير والتقدم والتعمير الحضارى ، وسيكون مصيرها – حتماً – كمصير الغزوات السابقة لها واللاحقة أيضاً كما حدث فى يونيو ١٩٦٧ وأنهاها الشعب فى أكتوبر ١٩٧٣ رغم الظروف الكابوسية التى مر بها . يقول السادات فى هذه المقالة :

« على مر التاريخ ، كانت مصر دائماً مركزاً للإشعاع الحضارى والروحى . كانت الإسكندرية حلبة صراع فكرى بين روح الشرق البناءة المسالمة التى تمثلها حضاراته وبين روح الغرب التى تمجد القوة والعدوان وتقيم بناء حضارتها على الجماجم والأشلاء . كانت حضارات الشرق تقوم فى الصين وفى مصر وفى الهند وفى إيران على نهضة فكرية وصراع عقلى وهندسة وبناء . . وكان أهم ما تعنى به هذه الحضارات جميعاً هو علاقة الإنسان بخالقه وبالأرض وببقية المخلوقات ، وكيف يمكن أن يسيطر الإنسان على غرائزه بالبحث فى مكنونات النفس البشرية ، وماذا تكون عليه علاقة الأسرة بعضها بالبعض وعلاقة الحاكم بالمحكوم . . كل هذا فى سبيل بناء سلام بشرى يقوم على فهم صحيح لوجود الإنسان على هذه الأرض .

وكانت حضارات الغرب التى انتهت إلى الحضارة الرومانية تعنى أول ما تعنى بتمجيد القوة المادية والإيمان بالفرد على أنه يستطيع أن يخضع هذا الكون لرغباته إذا ما توافرت لديه القوة المادية لذلك رأينا أن حضارات الشرق قامت على العلوم والبناء والروحانيات ، فى الوقت الذى قامت فيه حضارات الغرب على الغزو والفتح والقتل وفرض السيطرة بالقوة عن طريق سفك الدماء . .

ولقد غلبت الحضارات الشرقية على أمرها حيناً من الزمان لأنها لم تواجه حضارات الغرب بحديد ونار . وهى أدوات حضارة الغرب الوحيدة . ولكن عجلة التطور تسير وتطحن فى طريقها كل من يقف فى طريقها كل من يقف فى سبيلها مهما كانت لديه من قوى أو حديد أو نار » .

وهذا التأصيل الحضارى الذى يقوده السادات يعتبر الإنسان هو الرصيد الأساسى لأى تعمير حضارى ، فالحضارة التى تستخدم القوة المادية فى إفناء الإنسان وإرهابه لا يمكن أن تكون حضارة بمعنى الكلمة ، فالحضارة وجدت من أجل الإنسان فى كل مكان دون تفرقة . ورفع مستوى هذا الإنسان شرط أساسى لدفع عجلة التعمير الحضارى

كما توضح « ورقة أكتوبر » من أن واجبنا نحو هذا الإنسان المصرى ، الذى نعتبره رصيدنا الأساسى ، والذى نعمل به ومن أجله ، ألا نتركه فريسة للأمية أو المرض أو التخلف . ولكن علينا أن نعطيه كافة فرص التطور ، حتى يعطى بلاده أحسن مالديه . فالتقدم المادى على أهميته ليس كافياً وحده للنهوض بالإنسان وتغيير حياته تغييراً حقيقياً وأنه لا بد بالتالى من الاهتمام بالجوانب الأخرى التى تساهم فى تكوينه . وهذا فى حد ذاته مساهمة فى التنمية لا تقل فى أهميتها عن شراء الآلات وإقامة المصانع ، ويكفى أن ننظر إلى درجة إنتاجية الفرد ، التى هى أحد محاور التنافس العالمى ، ومدى تأثرها بدرجة وعيه الاجتماعى ، وخبرته الفنية ، وانسجام عاداته مع متطلبات المجتمع الجديد ، لكى نعرف الأهمية الكبرى لهذه التنمية الاجتماعية . ثم يبلور السادات العلاقة العضوية بين التعمير الحضارى ومفاهيم التعليم والتثقيف فيقول فى « ورقة أكتوبر » :

« ويهمنى هنا فى الدرجة الأولى ، أن أؤكد أنه قد آن الأوان للبدء جدياً فى تلك المهمة الصعبة التى تأخرنا فيها كثيراً ، وهى القيام بثورة شاملة فى نظم ومفاهيم التعليم والتثقيف العام بكل أنواعه ومستوياته . . ابتداء من محو الأمية إلى التعليم العام والفنى والجامعى ، إلى البحث العلمى والتكنولوجى » .

وللتربية والتعليم نظريات كثيرة لكل منها من يؤيدها ، ولكن برتراند راسل يوفر علينا هذا التشعب المعقد ويحصر اتجاهات التربية والتعليم فى ثلاثة خطوط رئيسية : الأول يرى أن الغرض الوحيد من التربية بصفة عامة هو تهيئة فرص النمو وإزالة كل ما يعوقه من مؤثرات ، أما الثانى فيهدف إلى تقديم الثقافة إلى الفرد للارتفاع بقدراته إلى حدها الأقصى . أما الخط الثالث فيرى أصحابه أن التربية يجب أن تبحث من حيث العلاقة بالمجتمع لا من حيث علاقتها بالفرد ، وأن واجب التربية هو تدريب المواطنين الصالحين . والخطان الثانى والثالث يتفقان فى أن التربية عملية إيجابية ، يحصل بها المتعلم على شيء جديد . أما أصحاب الخط الأول فيرون أن وظيفة التربية سلبية ولا تخرج عن نطاق الإعداد أما الإنتاج فليس من مهمتها . ولكن التطبيق الواقعى يؤكد أن التربية لا تسير فى اتجاه واحد من الاتجاهات الثلاثة . ففى كل نظام من نظم التربية قدر معين من كل اتجاه بنسب مختلفة ، ولا يمكن أن يفى اتجاه واحد بالحاجة إلى تربية الإنسان الحضارى بمعنى الكلمة ، ولذلك لا بد من إيجاد الموازنة الصحيحة بين النسب المختلفة لهذه الاتجاهات فى كل نظام .

وقد عقد فى جامعة أكسفورد عام ١٩٣٧ مؤتمر لدراسة شئون التربية والتعليم والثقافة وعلاقتها بالتطور الحضارى للفرد والمجتمع ، وكانت التوصيات التى صدرت عن المؤتمر وطبعت فى كتاب تتفق فى كثير من بنودها مع آراء السادات فى التعليم والثقافة . وهى آراء حيوية لقيمتها العملية ونظرتها الواقعية إذ أنها لا تعتمد على التنظير المجرد ، فهى تربط التربية والتثقيف بالمفهوم الشامل للتعمير الحضارى ، وتؤكد أن التعليم هو الوسيلة الوحيدة التى تقدم المنهج العلمى الذى يضمن عنصر الاستمرار للتعمير الحضارى ويجنبه المعوقات والنكسات . ويجدر بنا فى هذا المقام أن نستشهد ببعض التعريفات التى حددها مؤتمر أكسفورد فيما يختص بالتربية والتعليم لأن كثيراً من البلدان المتقدمة قد نجحت فى تطبيقها ، وخاصة أن هذا المؤتمر جمع خيرة خبراء وعلماء التربية والتثقيف فى العالم . يحدد المؤتمر عملية التربية فيقول :

« التربية هى العملية التى يسعى بها المجتمع إلى أن يفتح حياته لجميع أفراده ، وإلى أن يمكنهم من المساهمة فيه . إنه يحاول أن يسلم إليهم ثقافته ، بما فى ذلك المعايير التى يريد أن يعيشوا وفقاً لها . وحيث ينظر إلى تلك الثقافة على أنها نهائية تكون المحاولة لفرضها على عقول الناشئة وصبهم فى قالب واحد . ولكن إذا أخذت على أنها مرحلة فى التطور الحضارى فإنها تدرب عقول الناشئة على تقبلها وعلى نقدها وتحسينها فى الوقت نفسه . وتتألف هذه الثقافة

من عناصر شتى . فهى تمتد من المهارات الأساسية والمعارف الأولية إلى تفسير الكون والإنسان ، وهو التفسير الذى يعيش به المجتمع ويعرف عن طريقه هويته المميزة » .

إذن فالمهمة الأولى للتربية والتعليم هى نقل الثقافة من جيل إلى جيل حتى يستطيع التعمير الحضارى أن يستمر ويتطور . والتعمير الحضارى هنا شامل لكل الأنشطة الإنسانية البناءة وليس مقصوراً على مجرد التغيير السياسى والاجتماعى كما يظن – خطأ – هـ . ك . دنت فى كتابه التقليدى « نظام جديد فى التربية الإنجليزية » حيث يقول إن الديمقراطية الكاملة هى هدف أى نظام مثالى للتربية دون أن يحدد ما يقصده بالديمقراطية الكاملة . ونفس القصور نجده فى كتاب هربرت ريد « التربية بالفن » الذى يؤكد فيه أن الفن هو الوسيلة المثلى لنقل الثقافة ، ولكننا نعتقد أن الفن – على الرغم من أهميته الحيوية القصوى – ليس الوسيلة الوحيدة لنقل الثقافة ، والتوفيق بين التمايز الفردى وبين الوحدة الاجتماعية ، فهذا التوفيق الذى ينادى به هربرت ريد ، يمكن أن تقوم به أنشطة حضارية أخرى كالدين والفكر والفلسفة وعلم الأخلاق والاجتماع والنفس وبقية العلوم الإنسانية ، وخاصة إذا كان هذا المجتمع يتمتع بالديمقراطية التى تكلم عنها هربرت ريد .

ومن الكتب الأخرى التى تنظر إلى التربية نظرة محدودة وأحياناً ضيقة كتاب ف. ك. هابولد « نحو أرستقراطية جديدة » الذى يحيل فيه الإنسان إلى مجرد أداة من أدوات الحضارة وليس الهدف الأسمى كما ينادى السادات فى « ورقة أكتوبر » . فالمهمة الأساسية للتربية فى نظر هابولد لا تكمن فى تسليم التراث الثقافى والحضارى من الجيل السابق إلى الجيل اللاحق ولكنها مجرد تدريب رجال ونساء من النوع الذى يحتاج إليه العصر ، لأن التمايز الفردى للإنسان فى هذه الحالة لن يجد لنفسه منطلقاً . وهذا من أكبر المعوقات للتعمير الحضارى . فالفرد هو الوحدة الأولى للمجتمع ، وبالتالى فهو وحدة حضارية فى حد ذاته وليس وسيلة تنتهى بانتهاء الغرض منها . وفى هذا يقول هربرت ريد فى بحث بعنوان « تربية الأحرار » إنه لا يجد تحديداً لأهداف التربية والتثقيف أفضل من قول ويليام جودوين : « إن الهدف الصحيح للتربية . . هو إيجاد السعادة » . وهذا يتفق مع ما جاء فى الكتاب الأبيض الذى صدر عن مؤتمر اكسفورد والذى يقول : « إن غرض الحكومة هو أن تهيئ للأطفال طفولة أسعد وبداية للحياة أصلح » لأن السعادة غالباً ما ترتبط بتكامل نمو الشخصية .

ولعل نظرية السادات فى التربية والتعليم من أجل التعمير الحضارى تتفق تماماً مع نظرية س . ا . م . جود التى وردت فى كتابه « حول التربية » وفيه يؤكد أن الغايات الحقيقية للتربية لا يمكن حصرها بسهولة ، ولكن من الممكن تحديدها فى ثلاثة اتجاهات علمية وعملية على سبيل التبسيط فقط ، لأنه يتفرغ من كل اتجاه خطوط لا حصر لها . وهذه الاتجاهات تتبلور أولا فى تمكين الصبى أو الفتاة من كسب العيش والحياة على مستوى لائق ، ثانياً : تهيئة الفرد للقيام بدوره كمواطن فى بلد ديمقراطى ، ثالثاً : تمكينه من تنمية كل ما فى طبيعته من القوى والقدرات الكامنة ، وبذلك يمكن أن يتمتع بحياة هانئة ، وهذه الحياة هى الهدف الأسمى لكل تعمير حضارى . ويعتقد جود أنه لا يمكن أن يتم هذا على الوجه الأكمل إلا فى ظل توافر الديمقراطية السليمة بكل ما تحمله من حرية سياسية وأصالة فكرية ومعاصرة علمية . وفى هذا المعنى يقود السادات فى خطابه فى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى ٢٣ يوليو ١٩٧٢ .

« حررت الثورة الثقافة من السيطرة الاستعمارية ، وأعادت صلة المثقف المصرى بتاريخه الحضارى الطويل وكشفت له عن أمته العربية وثقافتها الغنية وإمكانياتها الواسعة ، وفتحت أمامه كل النوافذ على الثقافة العالمية بعد أن كان النفوذ الاستعمارى يحصره فى قنوات معينة . كما حررت الثورة الثقافة من الطبقية بعد أن وسعت قاعدة

التعليم ، وجعلت المدخل الوحيد إليه ، أى إلى التعليم ، هو القدرة الذهنية على التحصيل والدراسة ، وهكذا وصل أبناء الفلاحين والعمال إلى أعلى مراحل التعليم ولم تعد المعرفة احتكاراً لأولى الثروة . ولم تعد البلاد تحرم من كفاءات أبنائها لمجرد عجزهم عن تحمل مصاريف التعليم . شجعت الدولة التفوق ، الدراسة والبحث العلمى ، وهيأت له السبل ، حتى فى المجالات المتقدمة ، وأفردت لذلك الجوائز وجعلت للعلم عيداً فى كل عام .

حظى الكتاب والمسرح والموسيقى والسينما والفنون التشكيلية بمختلف أشكال التشجيع ، وفى مقدمتها تمويل الأعمال الفنية الهامة ، وإنشاء معاهد الفنون وتنظيم منح للتفرغ للإنتاج الأدبى والفنى » .

وفى كلمة السادات فى عيد العلم فى أكتوبر ١٩٧٢ نجد نفس الاتجاه الذى يقيم دعائم التعمير الحضارى على أسس من العلم والتعليم ، من الثقافة والتثقيف ، لكى يستمر المشعل فى التوهج من بعدنا . يقول :

« إن جيلنا المعاصر يحمل مسئولية الكفاح من أجل الحرية والاستقلال ومسئولية قهر العدوان الجاثم على أرضنا العربية ، والتحدى لحقوق شعبنا العربى . وسوف تحمل الأجيال القادمة على كتفيها عبء البناء والتقدم الاقتصادى والاجتماعى ، استمراراً لما بدأته ثورتنا حتى تطور وجه الحياة كلها على أرضنا المباركة ، وستواجه هذه الأجيال فى مسيرتها عالماً من حولها ، قطع أشواطاً واسعة على طريق البناء ، وأحرز مكاسب مذهلة على طريق التقدم ، ولقد تم كل ذلك على أيدى معلمين أدوا أمانة التربية والتعليم فى كل مجالات العلوم والآداب والثقافة والفنون .

إن هذه المعانى التى أشرت إليها فى حديثى إليكم تقتضى منكم ترجمتها إلى عمل وإلى ممارسة وإلى سلوك ، حتى ننشىء جيلا تتم تربيته وتعليمه فى ظل عمل تعليمى رائد ورشيد مسلماً بالعلم ليضعه فى خدمة مجتمعه . وفى خدمة السلام والإيمان والمحبة ، وطوع الحرية والتحرر والكرامة لكى يحمل المشعل من بعدنا ، نوراً ساطعاً على البشرية وعلى الإنسانية جمعاء » .

ومن أجل هذا العمل التعليمى ، الرائد والرشيد ، فقد حتمت « ورقة أكتوبر » عدم صب التعليم فى قوالب واحدة ، بل العمل على تنويعها قدر الإمكان حتى تعنى باحتياجات الخبرات والتخصصات والمهارات المطلوبة فى عملية التعمير الحضارى . وهذا التنويع يرتبط بنوعية الإنسان كما يرتبط بنوعية المرحلة فى نفس الوقت . ومن هذا المنهج يمكن ربط أنواع معينة ، ومراحل معينة من التعليم بالبيئة على اختلاف خصائصها الريفية أو الحضرية ، فبذلك لا نعانى من مشكلة الارتداد إلى الأمية حين ينفصل الطالب عن المدرسة ويعود إلى بيئته ، كذلك نتفادى الوجه الآخر للمشكلة ، وهو هجرة المتعلم من بيئته وراء تطلعات خاصة به . وأيضاً يتحتم توثيق الصلة بين الجامعات والمعاهد على اختلافها وبين مواقع العمل ذات الصلة بتخصصاتها من مؤسسات وشركات إنتاجية أو تجارية وغيرها ، فى عالم تلعب المعرفة فيه دوراً متزايداً فى تطوير القدرة الإنتاجية .

والتعليم ليس مجرد سبيل إلى اكتساب ميزة اجتماعية معينة ، ولذلك يجب القضاء على فكرة الفارق الاجتماعى بين مختلف أنواع التعليم والمؤهلات . فقيمة العمل تقاس بنتيجته ومساهمته فى التعمير الحضارى وليس بصفته التقليدية النمطية التى جعلت الهدف الأسمى لبعض المتعلمين الوصول إلى وظائف مكتبية ، بصرف النظر عن قيمتها الفعلية فى حركة المجتمع ، وحرم هذا القصور الفكرى المجتمع من مهارات وإمكانيات كان من الممكن أن تسد ثغرات كثيرة فى البناء الحضارى للأمة . وخاصة أن المعدل الزمنى للتطور الحضارى يتزايد بسرعة مذهلة وبالتالى لا يحتمل أى تضييع أو تشتيت أو ثغرات أو فراغات . حتى مجرد المحافظة على المستوى الحضارى الراهن أصبح من قبيل التخلف لأن الأمم الأخرى تتسابق ، والذى يظل فى مكانه لا بد أن يتخلف . ولم يحدث أن سارت الحضارة الإنسانية بالسرعة التى تسير بها الآن . وبالطبع فإن السرعة مرتبطة بعاملى الاتساع والعمق ، وما كان يمكن إنجازه

فى خمسة قرون فإن من الممكن إنجازه الآن فى أقل من نصف قرن . ولذلك يجب أن يتميز التعمير الحضارى فى مصر بالقدرة على الاستكشاف ، والإقدام على المحاولة ، وعدم الخوف من الخطأ ، حتى لا يفقد عنصرى الأصالة والمعاصرة .

والأمر الثانى الذى أكدته « ورقة أكتوبر » هو نظرية التعليم المستمر بسبب التطور السريع والمذهل للآلات والأدوات الحضارية ، ولذلك يتحتم على العناصر النشيطة والمنتجة أن تكون فى حالة من التعليم المستمر والتحصيل المتواصل حتى لا يحدث تخلف عن الجديد ، وحتى نسد الفجوة الحضارية بيننا وبين الدول المتقدمة . ومن هنا تبرز أهمية تحديث المكتبات العامة ومكتبات الجامعات والمعاهد ومراكز الأبحاث ومراكز الاطلاع ، وتسهيل استيراد أحدث الكتب والمجلات والدوريات ، وأيضاً عقد حلقات الدراسة وبرامج التدريب المستمر على كافة مستويات الإدارة ، وكذلك استخدام وسائل التثقيف فى تقديم برامج دراسية حرة فى مختلف أنواع المعرفة . كل هذا لن يتأتى إلا عن طريق استخدام كل وسائل العلم الحديث فى جمع المعلومات وتخزينها وتوزيعها ، والاهتمام بمراكز البحث العلمى والتكنولوجى المتقدمة .

والتعمير الحضارى – معتمداً على التأصيل الفكرى – يحتم عدم الاعتماد باستمرار على العلم المستورد ، وإلا تحولنا فى نهاية الأمر إلى عالة تسير فى أذيال العصر . ولذلك يجب الربط بين مراكز البحث العلمى وبين احتياجات المجتمع لتأخذ من تلك الاحتياجات المادة الدراسية وليستفيد المجتمع من عائدها . أى يجب على البحث العلمى والتكنولوجى أن يطوع التكنولوجيا المستوردة للواقع المصرى ، وأن يكتشف حلولا أصيلة لمشكلاتنا المحددة . وتستشهد « ورقة أكتوبر » بحرب أكتوبر المجيدة فتقول إنه كان فى إمكاننا تطويع السلاح وتطويره ، وابتكار أساليب مواجهة معركتنا بسماتها الخاصة . ولذلك فإنه فى استطاعتنا ممارسة نفس الأصالة فى معركة التعمير الحضارى ، ودخول ميدان البحث العلمى والتكنولوجى كشركاء ، نأخذ ونعطى ، فلا نعيش عالة على من يبتكرون ، أو نخضع للشروط التى يفرضونها . ويختم السادات هذا الباب من « ورقة أكتوبر » فيقول :

« وإننى لأتمنى ، فوق جهدنا المصرى الخاص فى هذا المجال ، أن تتم جهود عربية مشتركة ، يمكنها أن تعطى التقدم الذاتى فى هذا المجال دفعة قوية . لقد عاش العالم عدة قرون كان العرب يملكون فيها ناصية العلم ، وكانت أوربا تنقل عنهم ، وقد ظلت كتب المؤلفين العرب تترجم إلى اللاتينية وتدرس فى الجامعات الأوربية حتى القرن السابع عشر ، ومعنى ذلك أن الإنسان العربى قادر على الإنتاج الأصيل إذا تهيأت له الظروف المواتية » .

وهذا هو نفس الاتجاه الذى نادى به السادات منذ عشرين عاماً ، مما يدل على أصالة فكره ورسوخ جذوره ومواكبته للعصر فى نفس الوقت . فهو يؤمن أن الثقافة فى هذا العالم جزء لا يتجزء ، وكما ساهم العرب فى بعث ثقافة أوربا عند بداية عصر النهضة ، فإنه يتحتم على الغير المساهمة أيضاً فى التعمير الحضارى العربى بما وصلوا إليه من تقدم حضارى من المحال تجاهله .وليست المسألة مجرد رد للجميل فحسب ، بل مساهمة فى ازدهار الحضارة الإنسانية ككل . وذلك بتعدد مراكزها ومصادرها وتنوع منابعها وروافدها . وفى هذا المعنى يكتب السادات فى « الجمهورية » فى ٢١ أغسطس ١٩٥٤ محتماً :

« أن تكون هذه الثقافة مستمدة أصلا من تاريخ هذه الملايين ! من نضالها ومن واقعها ومن مصالحها ومن حضارتها ومن أدبها ومن فنها ، ثم لكى تصبح ثقافة واعية متقدمة ومتطورة يتحتم أيضاً أن تكون مرتبطة بثقافة ووعى البشر جميعاً » .

ويرفض السادات المفهوم الضيق للتعليم ، وهو المفهوم الذى حرص على ترسيخه فى مصر ممثل البيداجوجيا

الإنجليزية دانلوب أيام الاحتلال البريطانى ، والذى جعل الهدف الأسمى للتعليم هو إخراج موظفين كتابيين للوظائف الحكومية التى تخدم الاستعمار بطبيعة الحال . ولذلك توارت الثقافة المصرية الأصيلة فى الظل . يقول السادات فى نفس البحث :

« وقد يفهم القارئ العادى أن المقصود بالثقافة هو التعليم فى المدارس والجامعات ! ؟ إن الفرق بين الثقافة والتعليم شاسع هائل . فالإنسان المثقف هو الذى يعرف الطريق إلى الحياة ، إلى الحرية والعدل والحق ، كما يعرف وسائل الانطلاق فى ذلك الطريق . . أما المتعلم فهو الذى يدرس لكى يحترف عملا يرتزق منه » !

ثم يربط السادات بين ثقافة الإنسان ووعيه فيؤكد فى نفس البحث أن الثقافة بشقيها الأصيل والمعاصر هى التى تحدد مقدار وعى الإنسان بالمجتمع والكون حوله ، ومن ثم تلزمه بشق الطريق الخاص به نحو مستقبله ، الذى هو مستقبل المجتمع فى نفس الوقت ، فهذا المستقبل يتحدد بالحدود التى تحقق مصالحه وحرياته وآماله بل وحقوق ومصالح وآمال الجماهير كلها . والسادات يرى أن الثقافة – فى ضرورتها – مثل الماء والهواء لا يمكن الاستغناء عنها ، ولذلك يقول فى حديث أدلى به لعبد التواب عبد الحى فى ٢٥ يوليو ١٩٥٩ فى مجلة « الإذاعة » :

« فى سنوات السجن والمعتقل تعلمت كيف أقرأ بعمق . . لم يكن أمامى إلا أن أختار : إما أن أقرأ ، وإما أن ينفجر رأسى من الإحساس بالوحدة ! كنت أقرأ كل الألوان التى تصل إلى يدى . . وكنت أسمح للكتاب الذى أقرؤه أن يحتوينى بين صفحاته ويغرقنى بخيالاته » .

وهذا يذكرنا بمذكرات السادات التى نشرها بمجلة « المصور » عام ١٩٤٨ تحت عنوان « ٣٠ شهراً فى السجن » إذ يقول فى يوم ٢٢ يناير ١٩٤٦ :

« أصبحت الحالة لا تطاق ، فلم يسمح لى الضابط النوبتجى اليوم بالتوجه إلى دورة المياه فى الصباح كالمعتاد وعبثاً حاولت التفاهم معه ، ولم ينقذ الموقف إلا نزول هيكمان من منزله فسمح لى بأن أقضى حاجتى وأتوضأ ! . وقد كتبت للنائب العام مرة ثانية بهذه المعاملة الشاذة ، فطلبنى وكيل النيابة عند الظهر وأثبت شكواى ، وخاصته فيما يختص بالسماح لى بالقراءة ولكنه ، سامحه الله لم يسمح لى بشىء حتى ولا بالمصحف الشريف » .

وفى يوم ٣٠ يونيو ١٩٤٦ كتب السادات فى مذكراته فى السجن يقول :

« إن شر ما يصاب به إنسان ذو مثل عليا هو الانحطاط العقلى . فالقراءة والاطلاع ألزم للفرد من الطعام فى هذا العالم الذى اتصل قاصيه بدانيه ، ولكنهم هنا لا يؤمنون بذلك » .

والسادات فى هذا يذكرنا بالفيلسوف العربى ابن مسكويه الذى كان الكتاب بالنسبة إليه « ينبوع الثقافة » و « المعلم » و « الجامعة » التى تربى فيها . فيقول فى إحدى قصائده مشيداً بقيمة الكتب :

فإن تمنيت عيش الدهــــر أجمعــــه ... وأن تعــاين ما ولى من الحقب
فانظــــر إلى سير القوم الذين مضوا ... والحظ كتــــابتهم من باطن الكتب

وفى العصر الحديث يقول توفيق الحكيم فى كتابه « تحت شمس الفكر » ص ١٠٧ :

« إنى أريد دعم الثقافة الشرقية كلها ، والعمل على إنهاضها ، لتقف إلى جانب الحضارة الغربية قوية غنية . وهذا الغنى لن يأتى إلا إذا عطف كل بلد من بلاد الشرق فى أول الأمر على نفسه ، ليستخرج من بطن الأرض التى يحيا عليها كل كنوز ماضيها ، حتى إذا اجتمع لدى تلك البلاد قدر عظيم من تلك اللآلئ القديمة مجلوة منزوعاً عنها التراب ، صب ذلك الثراء كله فى معين واحد مشترك ، وقدمه إلى الإنسانية باسم : (الثقافة الشرقية) . »

ويأسف توفيق الحكيم لأن بعض المفكرين الشرقيين أنفسهم يشكون ويشككون فى حقيقة وجود « الثقافة الشرقية »

بسبب انبهارهم الساذج والأهوج بانتصارات الحضارة الغربية المسيطرة الآن على العالم ، والتى أعمتهم فلم يملكوا سوى التسبيح بأمجادها دون استيعاب حقيقى لأبعادها وإنجازاتها . ذلك هو العمى ، والعقم ، والجدب ، والكسل ، والتخلف . وكذلك لا يقر توفيق الحكيم الفئة الأخرى من الشرقيين ، « الذى يظنون أن التحمس للثقافة الشرقية معناه الجلوس متدثرين فى أطمار حضارات بالية يصعرون خدودهم ويصيحون بألفاظ نعرة مضحكة وفخر كاذب !.. وذلك أيضاً هو العمى ، والعقم ، والكسل » ! ثم يربط الحكيم إنهاض الثقافة الشرقية بنهوض الشرقيين أنفسهم إلى العمل ، والبدء أولا بالجرى واللحاق بما وصلت إليه الثقافة الغربية . . تلك الثقافة التى أضافت اليوم كثيراً على ما استطاعت أخذه من الحضارات الأولى ! ولذلك يتفق الحكيم مع السادات فى أن :

« ثقافة الغرب – خصوصاً فى العصر الحديث – لا تهمل شيئاً أنتجه العقل البشرى فى أى عصر من العصور ، وفى أى بقعة من البقاع ؛ فالأوربيون قد أفادوا من الفلسفة الهندية والصينية (شوبنهور) و (نيتشه) ، وحتى من الثقافة العربية والشعر العربى (جوته وهاينى) . ولكنهم طبعوه بطابع فنهم وتفكيرهم ؛ ذلك أن حب المعرفة والاستطلاع لا يمكن أن يسمح لرجال الفكر الحقيقيين بالاقتناع بلون واحد أو الوقوف عند حد معلوم ، فالأوربيون دائماً يأخذون ما عند غيرهم من ثروة فكرية ليصبوه فى قالبهم ! . .

فأوربا إذن على ثروتها وغناها الثقافى اليوم لم يخطر ببالها قط أن تتقاعد عن قطف ثمار أية شجرة أخرى ! . . إن الفكر البشرى ليس له حدود « دولية » إنما هنالك المزاج الخاص ، والطبيعة الخاصة التى تكيف تلك الثروة المباحة التى تنهل منها كل ثقافة وكل حضارة ! »

ويصل الحكيم إلى نفس النتيجة التى يؤكدها السادات وهى أن الثقافة العربية لا يمكن أن تكون اليوم بمعزل عن ثقافة أوربا أو الثقافة الغربية . فنأخذ كل شيء ، ونهضم كل شيء ، ثم نعرج على روحنا القديم ، كل فى بلده . فنستخلص الأفكار الثابتة المدفونة ؛ إذ لا ريب أن كل بلد من بلاد الشرق فيه مناجم للفكر مفعمة متألقة لم تستخرج بعد . فالغرب على نشاطه الفكرى ونهمه الذهنى ، لا يستطيع أن يستخرج كل كنوز الشرق مثل الشرق . إذ لا بد أن تكون معاوله قد ارتطمت بحواجز منيعة من أسرار طبيعته ، لا تكشفها غير طبيعة الشرق وغرائزه ، وتجاريب حكمته المتراكمة فى أعماق نفسه ، على مدى آلاف السنين . فإذا فعلنا ذلك ، نكون قد قدمنا ثقافة حية نامية جميلة ، عليها خاتم شخصيتنا الشرقية ، يراها الغرب ؛ فكأنه يرى شيئاً جديداً مستقلا ، قد أخرج لهم من صدر عبقرية جديدة ، بذلك نكون قد تمكنا من مسايرة الفكر البشرى والحضارة الإنسانية ، ونظفر باحترام الحضارة الغربية ، ذلك الاحترام الذى تنظُر به هذه الحضارة المعاصرة إلى الحضارة العربية القديمة . ثم يؤكد الحكيم الأصالة العربية ص ١١١ فيقول :

« إن طابعنا الفكرى ، وطريقة نظرنا إلى الأشياء ، وتقاليدنا وإحساسنا بالجمال الذهنى ، ومشاعرنا نحو مظاهر الطبيعة المختلفة . وأسلوبنا فى التعبير عن حقائق الأشياء ؛ كل هذا ينم عن عقلية خاصة ، وعبقرية مستقلة ، لا ينبغى أن تتحلل وتتزايل تحت طغيان موجة أقوى ! . . فإذا نادينا بالوحدة العربية فإنما ذلك لتدعم كتلة (الروح الشرقى) أمام كتلة (الروح الغربى) » .

ويدعـو الحكيم – بالإضافة إلى إحياء الثقافة العربية القديمة – إلى هضم كل ثقافة قديمة أو معاصرة وإخراج ثقافة جديدة تنم عن روحنا وشخصيتنا العربية ، والطريق إلى ذلك هو الطريق الذى اتبعته كل حضارة من الحضارات الإنسانية ، وعلى رأسها الحضارة العربية القديمة ، أى القيام بحركة ترجمة واسعة النطاق ، ولا يغنى التلخيص عن الترجمة ، فنحن بإزاء نهضة فكرية يجب أن تشيد على دعائم قوية ، حتى يمكننا بناء حياة رائعة يستمتع فيها الناس

بثمرة التطور الإنسانى فى كنف العلم والثقافة والحضارة . فلا شك أن كل الفضائل الإنسانية والمثل الأصيلة تنبع من الثقافة الحقيقية ، والأفق الواسع ، والنظرة الشاملة ، والبصيرة النافذة ، أوكما يقول السادات على صفحات « الجمهورية » فى ١٣ سبتمبر ١٩٥٤ :

« إن المسألة فى رأيى لا تخرج عن نطاق الثقافة ، فالرأى الصادق نتاج طبيعى لثقافة صاحبه أو لاتجاهه نحو الثقافة إذا كان قد بدأ يؤمن بها . وإلا لكان أصحاب الآراء غير الصادقة جبناء رعاديد ترتعش أطرافهم فزعاً من الصدق ! ؟ أبداً إنهم – أصحاب الآراء الخاطئة – ليسوا سوى أناس مساكين لا يؤمنون بالثقافة فيتركون عقولهم فريسة لذلك العدو البشع . . الجهل » .

فالذى يجب أن نخاف منه هو سيطرة الجهل وليس تيار الثقافة الوافدة فالتمسك بالأصالة لا يعنى سد باب التجديد ، بل إن الحضارة العربية القديمة رفعت كثيراً من شأن المجددين الرواد . ومن هنا تؤكد « ورقة أكتوبر » أن :

« حقنا فى التصرف فى أمور دنيانا وظروف أيامنا ، ليس أقل من حق أسلاف عظام لنا جددوا وابتكروا وتصرفوا فى أمور دنياهم وأحوال أيامهم . إن التجديد الجذرى ليس بالضرورة منقطع الجذور عن التراث القومى والحضارى والروحى للشعب .

ونحن لا نقول بهذا عن رغبة فى التميز أو الاستعلاء . ولكن لأننا نؤمن من استقراء التاريخ أن المناطق ذات التراث الحضارى العميق لا يمكن بحكم الطبيعة أن تنطمس هويتها تحت أى ضغط . ونؤمن بأن انطلاقنا من هذه الجذور يحمى بالنسبة لنا وبالنسبة لغيرنا ذلك التنوع فى الحضارات والشخصيات الذى يثرى بتعدده العالم ويغنى تجاربه .

ولست هنا أعرض مفاهيم جديدة . ولكننى فقط أذكر بمعان قد استقرت فى ضمير هذا الشعب . وفى أعماق وجدانه حيث لا يمكن أن يزعزعها شىء ، وبأنه من هذه المعانى ، قولى بأن الإنسان المصرى بعراقته وأصالته هو الضمان لنا فى أن نقطع هذه الرحلة نحو المستقبل دون أن نفقد من هويتنا شيئاً .

إن من أبرز آثار الثورة التكنولوجية فى عالم اليوم ، ذلك التقدم الهائل فى وسائل نقل الأفكار والمعلومات والتيارات وأنماط السلوك المختلفة ، عبر الحدود القومية لكل المجتمعات الإنسانية على السواء ، وبالتالى سقطت الحواجز القديمة العازلة بين بيئة وبيئة وبين مجتمع ومجتمع ، وفى وجه هذا التحول الثورى المتزايد ، لا يمكن أن تكون حصانتنا إزاء هذا الانفتاح والاتصال إلا من داخلنا . ولا يكون الحفاظ على هويتنا بالانكماش والجمود والضعف ، ولكن بدرجة التقدم التى نحرزها ، بالأسلوب السليم الذى يستمد حيويته من قدرتنا على التجديد ، وثباته من تمسكنا بالأصالة . وبهذا المعنى فإن عملنا من أجل أن نبنى فى بلادنا مجتمعاً عصرياً ودولة حديثة ، لا يعنى النقل والتقليد .

إننا قادرون على أن نصنع بأنفسنا ولأنفسنا حضارة عصرية ذات طابع مصرى وعربى أصيل ، نحن نرفض أن تكون الأصالة نظرة إلى الوراء تقدس الماضى لأنه الماضى وترفض التجديد فليس كل ما كان فى الماضى مشرقاً ولكن فيه بعض عناصر التخلف . ونحن نرفض من جهة أخرى أن نمسخ شخصيتنا القومية باسم محاكاة المادية أو السلوكية لمجتمعات أخرى .

إن التحدى الحقيقى المطروح أمام الشعوب العريقة التى تواجه مشكلة التقدم الحضارى هو بالدقة كيف تجدد حضارتها ، فلا تلفظ الماضى باسم الحديث ولا ترفض الحديث باسم الماضى ، وإنما تأخذ بأسباب التجديد دون أن تفقد الأصالة . إن الدولة الحديثة والمجتمع العصرى ليسا فى مظاهرهما المادية فحسب ، ولا يتحقق بناؤهما بمجرد اقتناء أحدث السلع والمنتجات .

إن العصرية هى أن نعرف أولا الترتيب السليم لأولوياتنا فى ماذا يلزمنا من هذه الأدوات قبل غيره . ثم هى فى أن نوجد المؤسسات والنظم والعلاقات التى تحول هذه الأدوات فى الأيدى العربية من أدوات صماء مستهلكة ، إلى أدوات خلاقة منتجة ، ثم هى بعد ذلك فى أن نخلق البيئة المناسبة ، ودرجة التطور اللازمة ، التى تجعلنا قادرين على الابتكار والإبداع ، وبالتالى على المساهمة الحقة فى الحضارة الإنسانية » .

هذا هو ما تؤكده « ورقة أكتوبر » ، فالتأصيل الحضارى يشمل الأصالة والمعاصرة فى الوقت نفسه . وهذان العنصران يستدعيان وعياً عميقاً بحركة التاريخ القومى والعالمى على حد سواء . وكما يقول كل من دانيلفسكى وتوينبى إن الحضارة هى الوحدة الحقيقية للدراسة التاريخية ، ولذلك فالحضارة هى جهد الإنسان على مر عصور التاريخ المختلفة . وأية دراسة للحضارة لا بد أن تضع فى اعتبارها حركة التاريخ حتى يمكنها من شق الطريق الصحيح الذى يناسب طبيعة الأمة وكيانها . ومن هنا كان وعى السادات العميق بالتاريخ القومى والعالمى ، ومن هنا أيضاً كان الارتباط العضوى بين التعمير الحضارى وبين وعيه بالتاريخ . ولذلك آثرنا أن يدور الفصل التالى حول « الوعى بالتاريخ » عند رائدنا فى التأصيل الفكرى : أنور السادات .

الفصل السادس

الوعى بالتاريخ

الوعى بالتاريخ لا يعنى أن يملك المفكر أو المؤرخ مجرد ذاكرة قوية لاستيعاب الأحداث التاريخية وتسلسلها الزمنى الميكانيكى ، فالمؤرخ ليس راوى أقاصيص ، وإنما هو كاشف القوانين المسيطرة على تلك الحقيقة الاجتماعية الكبيرة المسماة الدولة . ولذلك فالسياسى الناجح لا بد أن يحتوى فكره على هذا الجانب من منهج المؤرخ . فالتاريخ الذى يكتفى بسرد الأحداث لا يصلح إلا لتزجية وقت الفراغ ، ولذلك فالمنهج العلمى هو الأسلوب الوحيد الذى يجب أن يتبع فى دراسة التاريخ . فالتاريخ لا يرتبط بالماضى فقط وإنما يدرس الحاضر ويستشرف آفاق المستقبل اعتماداً على القوانين والمعايير والضوابط التى استخرجها من دروس الماضى سواء على المستوى القومى أو المستوى العالمى . فالمستقبل هو الامتداد الحى والنتيجة الطبيعية للماضى ، ولا يمكن الفصل بين هذا وذاك ، والسياسى الذى يحاول أن يلغى الماضى حتى يبرز أمجاده الحاضرة والمستقبلة ، يسلك سلوك النعامة التى تدفن رأسها فى الرمال هرباً من الصياد . فلم ولن يوجد الإنسان الذى يستطيع أن يلغى الزمن أو يقطع سياقه إلى وحدات منفصلة ، فالزمن واحد منذ الأزل وإلى الأبد . وإن كنا نقسمه إلى ماض وحاضر ومستقبل ، فهذا على سبيل تقريب مفهومه إلى أذهاننا البشرية المحدودة ، أما الزمن نفسه فلا يعرف لنفسه ماضياً أو حاضراً أو مستقبلا .

والوعى بالتاريخ يوجه عنايته إلى جماعات الناس كما يعنى بالأفراد المكونة لها ، ولذلك فموضوعه المفضل هو الإنسان بوصفه كائنا واعياً بوجوده . عاملا فى المجتمع ، ومؤثراً فيه ومتأثراً به ، ومن ثم فالتاريخ هنا علم يجمع السياسية والاجتماع والاقتصاد والنفس البشرية بصفة عامة ، ولكنه فى الوقت نفسه ليس علم اجتماع ، ولا علم سياسة ، ولا علم اقتصاد ، ولا علم نفس . فقد كان فى بادئ الأمر يعنى بالوقائع المادية ، ولكنه فيما بعد صار يعنى بالحقائق النفسية لكى يفسر بها التيارات الاجتماعية والاتجاهات السياسية والمفاهيم الاقتصادية ، أى أنه يدرس العلاقة العضوية بين المظهر والجوهر ، بين الاستجابة والدافع ، بين النتيجة والسبب ، بين الفرد والمجتمع ، بين الأمة والعالم ، بين الحرب والسلم . فهذا هو التاريخ الحقيقى الذى يركز الأضواء الموضوعية على الرابطة الروحية بين الوقائع المادية ويفسرها . وفى هذا يقول المؤرخ الإنجليزى هنرى توماس باكل فى كتابه « تاريخ الحضارة فى إنجلترا » إن الإنسان ليس سوى جزء من الطبيعة بوجه عام ، ومن ثم يمكن ربط قوانين التطور التاريخى بالقوانين الطبيعية ، والتربة والطقس والثروة والثقافة والحضارة ، فمظاهر الطبيعة والبيئة لها تأثير كبير فى حياة الإنسان ونشأة الحضارات والتاريخ هو تحليل ونقد وتوجيه لكل هذه العوامل من أجل صالح الإنسان ومستقبله . ومن هنا تبدو ضرورة الوعى بالتاريخ لأى سياسى يرغب ويصر على أن تعيش بلده على مستوى العصر . ولذلك يقول المؤرخ الإنجليزى ا. ا. فريمان إن التاريخ هو ماضى السياسة ، فى حين أن السياسة هى حاضر التاريخ ، ويمكننا أن نضيف إليه أن التقدم الحضارى فى المستقبل يعتمد على الوعى بالتاريخ والسياسة فى الوقت نفسه .

ويؤكد الفيلسوف الألمانى هيردر أن الإنسان هو أسمى مخلوق فى هذا العالم ، وبدونه لا يوجد تاريخ على الإطلاق ، فهو الكائن الوحيد الذى يملك هذا الوعى الفطرى الذى يساعده على أن يشق طريقه إلى التعمير الحضارى والتقدم الإنسانى . يقول هيردر فى كتابه « أفكار لتاريخ فلسفى للإنسان » إن التاريخ هو تحليل لكل العوامل التى تؤثر

فى الكيان المادى والروحى للإنسان ، ابتداء بالعوامل الجغرافية والبيئية حتى العوامل الثقافية والحضارية . وقد حاول هيردر أن يثبت أن الأحداث التاريخية ليست خليطاً من الفوضى والتشويش بحيث ينعدم أى معنى لها . ولكنها خاضعة لقوانين ضابطة لحركتها مثلها فى ذلك مثل الأحداث الطبيعية تماماً ، ولذلك فالمفتاح الحقيقى لكل موقف تاريخى موجود فى الظروف والملابسات التى أحاطت به ، وعندما نتمكن من الوقوف على تلك الظروف والملابسات وإدراك أبعادها ، فإننا نستطيع أن نلم بالعوامل التى أدت إلى حدوث الموقف بالصورة التى نراه عليها . ويرى هيردر أنه لا فرق بين ازدهار الورود فى الطبيعة وازدهار الحضارات فى التاريخ ، فالازدهار الطبيعى والحضارى نتيجة حتمية للعوامل التى أدت إليهما . والوعى بالتاريخ يوضح لنا أنه لم ولن يوجد الشىء أو الحدث الذى يبدأ من الفراغ أو العدم . ولذلك يؤكد السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« إننا حين نقول بأننا نواجه بعد أكتوبر مسئوليات مرحلة جديدة فى حياتنا فإننا يجب أن نسجل فى نفس الوقت أننا لا نبدأ من فراغ ، بل إن خلفنا تجربة غنية علينا أن نفحصها ، فنضع اليد على كل ما هو إيجابى فيها لنطوره ونضيف إليه . وعلى كل ما هو سلبى يعوق حركتنا فتخلص منه . . .

إن شعبنا لا يمكن أن يكون قد خاض تجربة الهزيمة والنصر ، دون أن يستمد منها ما يغير به حياته نحو ماهو أفضل للغالبية العظمى من أبنائه . ولكن هذا التغيير يجب ألا يكون قفزة فى المجهول ، ولا عودة إلى الوراء ، ولا جهوداً مبعثرة فى اتجاهات متعارضة ، بل إن علينا أن نعرف على وجه الدقة أين نحن وإلى أين نسير . علينا أن نحدد أهدافنا ، ونبين معالم الطريق إليها على أسس صريحة ومحددة وواضحة . ولكى نحدد أين نحن وإلى أين نسير ، علينا أن نقف وقفة سريعة عند سؤال هام ، ربما كان شباب هذا الجيل بوجه خاص أكثر حاجة إلى إجابة واضحة عنه ، هو : كيف ننظر إلى الماضى ، وكيف ننظر إلى المستقبل ؟ » .

والسادات من المفكرين الذين يؤمنون أن الحضارة الإنسانية لا تتطور تطوراً عشوائيًّا أو عفويًّا ، وإنما هى تعبير عن حركة الفكر التى تريد أن تشكل الواقع وتتحدد معه بتحويله إلى تجسيد لها ، فهى الجوهر والمظهر فى آن واحد وفى أكمل صورة لهما فى الوعى بالتاريخ حيث يتصل النشاط دائباً للإلمام بالحقيقة ، فالوعى بالتاريخ هو مركز النشاط الفكرى المتجدد ونبعه الفياض والحقيقة هى الكل اللامتناهى الذى نبتغيه ونسعى إليه ، وهى الحياة فى اتساعها وشمولها وإبهامها الذى يستعصى على كل فكر ، ويبدو أن عجزنا البشرى عن الإلمام بهذا الكل اللامتناهى هو الذى يبقى جذوة الأمل المبدع الخصب حية فينا . والوعى بالتاريخ يستمر ويزدهر كلما توهجت هذه الجذوة ، والحضارات الإنسانية العظيمة بدورها كانت نتيجة لحدة وعى الإنسان بالتاريخ وحركته واتجاهاته بحيث انتقلت من مرحلة العفوية ، أو ما يسميه السادات « الجهود المبعثرة فى اتجاهات متعارضة » ، إلى مرحلة المنهج العلمى الذى يجمع الطاقات ويولد الإمكانيات ، ويحدد خط السير ، ويفوت كل فرص التشتيت والضياع ، عن طريق التحليل والنقد والتوجيه . وفى هذا يقول السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« إن تاريخ الأمم التى تتقدم هو التاريخ المتصل الحلقات ، وليس المقطع الأوصال . والأمم التى تتنكر لتاريخها ، ونضال أجيالها المتوالية ، أمم غير جديرة بتراثها ، فضلاً عن أنها تضيع على نفسها الكثير من ثمار ما أنجزته ، ولا تدع للأجيال الصاعدة حافزاً كافياً للمضى فى الطريق ، وتحمل المسئوليات الجديدة . على أن هذا لا يمنع من التمعن فيما حدث بنظرة ناقدة فاحصة ، ولكنها نظرة النقد النزيه والتحليل الصحيح ، لا نظرة الحقد الذى يهدم ولا يبنى .

وإذا كنا نحن فى مصر بالذات ، من الشعوب التى تعتز بتاريخها الطويل الفذ ، وبتميزه بعناصر الاستمرار التى صمدت عبر القرون للمحن والتقلبات ، واستوعبت كل الصدمات ، محتفظة بجوهرها الأصيل ، وصفاتها

الحضارية الراسخة . فنحن أولى أن تكون نظرتنا إلى تاريخنا هى نظرة تقييم الإيجابيات والسلبيات ، نظرة البناء لا الهدم ، والبدء من أرضية المكاسب السابقة التى حققها النضال الوطنى للانطلاق إلى آفاق جديدة » .

هذه هى فلسفة التاريخ عند السادات ، وقد حاول مؤرخو الغرب إثبات أن هذه الفلسفة بدأت عندهم بقولهم إن فولتير كان أول من صاغ هذه العبارة – فلسفة التاريخ – فى القرن الثامن عشر وإن قصد بها التحليل النقدى للتاريخ . ثم تلاه هيردر عام ١٧٨٤ فى كتابه « أفكار لتاريخ فلسفى للإنسان » . وتلاه هيجل فى أوائل القرن التاسع عشر فى كتابه « محاضرات فى فلسفة التاريخ » وقد ألقاها عامى ١٨٢٢ و ١٨٢٣ ونشرت بعد وفاته . ولكن على سبيل التأصيل الفكرى نجد أن المؤرخ العربى ابن خلدون كان أول من بلور فلسفة التاريخ فى مقدمته الشهيرة . فهو ينظر إلى التاريخ على أنه ليس عرضاً لحوادث سياسية متعاقبة ، ولا سرداً لحياة الملوك ، بل ينظر إليه على أنه تسجيل لتطور الإنسان وانتقاله فى مراحل ارتقائه على مدار العصور . فهو يتعقب الإنسان الذى انتقل من حالة البداوة إلى الأسرة ، إلى حياته فى الدولة المتحضرة . ويعتبر ابن خلدون التاريخ جزءاً من الفلسفة ، ذلك لأن موضوعه « الحياة » بكل ما فيها من صور ، ومدركات ، ووقائع ، وثقافات ، وحضارات . فعن طريق التاريخ يمكن أن نستجلى أعمال الناس ، وسبب تنازعهم ، وتناحرهم ، وإنشائهم جماعات ، ومدنيات ، وكيف يجدون فى حياة التحضر فراغاً لممارسة التفكير ، واكتساباً للعلوم الرفيعة ، وكيف تزدهر المدنية قليلا ، قليلا – ، من مبادئ بسيطة ، ثم كيف تتعرض للاضمحلال والزوال . وقبل مجىء هيجل بقرون عديدة ، استطاع ابن خلدون أن يربط التاريخ بالفلسفة بالدين ، فقد عرف ابن خلدون قانون السببية ، فالأحداث فى العالم تجرى وفقاً لقانون السببية ، وأن تسلسل الأسباب والمسببات لا بد أن ينتهى إلى علة أولى ، فلا يمكن أن يذهب التسلسل إلى مالا نهاية، ومن هنا فهو يستدل بذلك على وجود الله . وفى مقدمة ابن خلدون نجد تعريفاً علمياً متقدماً للتاريخ ثبتت قيمته الفكرية على مر العصور ، يقول معرفاً التاريخ :

« إذ هو ظاهر لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى تنمى فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال ، وتطرف بها الأندية إذا خصها الاحتفال ، وتؤدى لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال . واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال ، وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات الحية ، ومباديها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق . فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق وجدير بأن يعد فى علومها وخليق » .

وطبقاً لابن خلدون فإن الوعى بالتاريخ يدرس الحضارة الإنسانية فى امتدادها الزمنى على الأرض وما يحكم هذه الحضارة من عوامل تسوقها وتدفعها أو تخط ملامحها وهى عوامل تختلف عن تلك التى تحكم الطبيعة ، فالطبيعة فى حركة دائرية مستمرة ومتكررة والقانون الذى يحكمها ثابت لا يتغير بتكرار حركتها أما الحياة الإنسانية أو التاريخ الإنسانى فإن وقائعه لا تتكرر ولا تعيد نفسها أبداً وتتحرك على خلاف حركة الطبيعة الدائرية فى شكل نمو أو تقدم وكل ما يبدو متكرراً هو شىء مختلف عن سابقه بما استحدث من جديد هو نتيجة الخبرات الماضية . ويرى السادات أنه لو حدث أن كرر التاريخ نفسه بالفعل لما كان هناك أى تطور حضارى ، لأن التكرار مضاد بطبيعته للتطور والتقـدم ، وإذا بدا فى الأفق أى تكرار فهو فى « الظاهر » الذى تكلم عنه ابن خلدون . أما الفكر الكامن وراء هذا الظاهر فمختلف تمام الاختلاف ، فالتاريخ الإنسانى هو تاريخ الفكر والوعى بالتاريخ لا يتناول الواقعة فى حقيقتها المادية ولكنه يتمثل الحوافز والأفكار التى تدفعها وتحفزها ، ولذلك يمكن إرجاع الواقعة المادية إلى الطريق الصحيح إذا انحرفت لأنها تابعة للفكر وهذا يجعلها سلسة القيادة طالما أن الفكر واضح ومتبلور . ومن هنا كانت حركة

التصحيح فى مايو ١٩٧١ ، لأن مراكز القوى انحرفت بمسيرة الثورة عن خطها الصحيح . ولكن لأن السادات كان مدركاً تماماً لحقيقة الفكر الذى دفع وحفز لقيام الثورة فقد أعاد تصحيح المسيرة ، وبالتالى قضى على الانفصال بين فكر الثورة والوقائع المادية التى ابتعدت عنه . ولذلك يقول السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« بهذا المعنى ، فإن ثورة ٢٣ يوليو المجيدة ، التى كان لى شرف النضال فى مراحل التمهيد لها ، وتحمل مخاطر إعلان قيامها ، والمشاركة فى مسئولية المعارك التى خاضتها ، كانت وستظل من أهم الأحداث التى غيرت وجه الحياة فى مصر منذ قرون . وإذا كانت الأجيال الجديدة تأخذ منجزات هذه الثورة وثمارها ومبادئها المستقرة مأخذ البديهيات السهلة ، فإن الأمر لم يكن كذلك عندما اختمرت هذه الثورة فى أرض مصر ، ومن ظروفها ، ثم انبثقت لتغير وجه الحياة فيها . . وذلك كله فى وجه مخاطر وصعاب ، إذا كانت تبدو اليوم فى عين الأجيال الصاعدة هينة ، فما ذلك إلا لأن جيلا سابقاً قد ناضل ضدها ، وواجه مخاطرها بشجاعة ، حتى دحرها . . »

ولذلك يعتقد السادات أن حركة التاريخ هى حركة مفكرة ، ولا يمكن لأى مفكر أن يستوعب صورتها الخارجية التى تمثلها وقائع الإنسان وأحداثه ما لم يدرك الأفكار التى تكمن وراءها ، فإذا عن له أن يدون تاريخ ثورة ما على نظام فاسد ، فإن عليه أن يتبين آراء طرفى الصراع ونظرة كل منهما إليه فى الإطار الفكرى لكل فريق على حدة ، فالتاريخ كتاريخ للفكر هو عمل من أعمال الإرادة الإنسانية ، التى هى تفكير الإنسان متجسداً فى أعمال ووقائع ، فإذا بدت الأعمال والوقائع بعيدة عن الفكر المنطقى السليم فهذا يدل على عدم إدراك أبعاد الموقف الذى يتطلب نمطاً معيناً من التفكير والسلوك ، فالتفكير لا يدور فى فراغ وإنما هو تفكير فى موقف معين . وما من شخصية تاريخية إلا وتتخذ تفكيراً معيناً فى موقف معين على هدى الفكر الأصيل والمعاصر فى الوقت نفسه ، وإذا لم تفعل هذا فإن أعمالها تتحول إلى « جهود مبعثرة فى اتجاهات متعارضة » على حد تعبير السادات نفسه .

ونظراً للارتباط العضوى بين التاريخ والفكر – وهو ما نسميه الوعى بالتاريخ – فإن التاريخ بدوره مرتبط بالمنطق ، فالانتقال من مرحلة تاريخية إلى أخرى ما هو إلا انتقال من مرحلة منطقية إلى أخرى تطرد فى سياق الزمن ، وما أحداث التاريخ إلا نسق منطقى تتسق فى ترتيبها وتسلسلها مع ما سبق منها وما لحق مع السياق الزمنى فى حتمية لا تستند إلى الواقع المادى بقدر ما تستند إلى الاستدلال الفكرى . فالوعى بالتاريخ ينهض على الفكر المتسق المجرد والتاريخ نفسه ما هو إلا وقائع تؤلف الإطار الخارجى للتفكير أما الأفكار التى تكمن وراءها – وليست الوقائع المادية ذاتها – فهى التى تؤلف نسقاً من المدلولات المجردة فى منطق محكم سديد . فإذا نظرنا إلى الوقائع المادية وحدها دون الأفكار المجردة التى تكمن وراءها فلن نجد أثراً للحتمية المنطقية التى تربط بين واقعة وأخرى فهى فى إطارها الخارجى مجرد وقائع ترتبط بالزمان والمكان ولا شىء سواهما ولكنها فى ذاتها ومكنونها الداخلى أفكار تتسق مع بعضها فى علاقة منطقية محكمة ، وهذه العلاقة هى التى تجعل من السياق الزمنى وحدة لا انفصال فيها بين ماض وحاضر ومستقبل . ولذلك يقول السادات فى كتابه « القاعدة الشعبية » ص ٣ :

« لن نستطيع أن نغفل ما مضى من تاريخنا ، فلكى نعيش اللحظة التى نحياها اليوم ولكى نفكر فى وضع الطريق والوسيلة التى نطبق بها نظام الحكم فى المستقبل علينا أن نعود إلى تاريخنا ، علينا أن نعتبر بما مضى بنا من أحداث سواء كانت هذه الأحداث قبل قيام الثورة أو منذ قيامها إلى يومنا هذا . علينا أن نربط ماضينا بحاضرنا . . وأن نخرج بالدروس التى نستطيع بها أن نبنى مستقبلاً متحرراً من كل أخطاء الماضى . . وفى الوقت نفسه يقوم على أسس متينة أهمها أن الشعب هو مصدر السلطات » .

والوعى بالتاريخ عند السادات يجب أن يكون على المستوى الفردى الخاص كما هو على المستوى القومى العام ،

فهذا الوعى هو قمة النضوج الفكرى الذى يجنب الإنسان التشتيت والضياع والتكرار والتشويه . ولذلك يقول السادات فى كتابه « يا ولدى هذا عمك جمال » ص ١٢٨ :

« من عادتى أن أحتفل بعيد مولدى على غير ما تعود الناس أن يحتفلوا بأعياد الميلاد ، فأنا أركن فى هذا اليوم من كل سنة إلى الوحدة ، والتأمل ، التأمل فى الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، بل إننى أستعيد كل ما مضى من حياتى منذ أن بدأت أدرك الأشياء وأحس من حولى بهذا الكون . أستعيد كل شىء استطاعت ذاكرتى أن تختزنه أو تنفعل به ، وأستعرض موكب عمرى عبر السنين الماضية بكل ما فيه من مشاهد فيها الألم وفيها الفرح ، فيها اليأس وفيها الأمل ، فيها السذاجة وفيها النضج ، فيها الفشل وفيها النجاح ، فيها الخيبة وفيها اليقين ، فيها الخطأ وفيها الصواب .

مشاهد فيها من كل ما يحيط بالبشر — فى هذا الوجود — من صروف وانفعالات ، وترانى يا بنى وأنا أستعرض هذا الموكب فى قمة النشوة وأوج السعادة ، فأنا أجد نفسى وأعرفها من خلال رحلة هذا الموكب . أعرفها فى الخطأ كما أعرفها فى الصواب ، وأعرفها فى الفشل كما أعرفها فى النجاح .

ومن وجد نفسه واهتدى إليها يا بنى فى خضم هذه الحياة طابت له الأيام ، وعمر قلبه اليقين ، واستطاع أن ينعم ضميره بالنور والصفاء هكذا أعيش يوم مولدى فى تأمل لذيذ يا بنى ، واستمتع فيه بأجمل وأشهى لحظات أعيشها على ظهر هذه الدنيا » .

وهذا التأمل الهادئ الواعى العميق يوضح أن المعنى الكامن وراء الحدث أهم من الحدث ذاته ، فعلى الرغم من التسلسل الزمنى الذى يجعل الحدث يؤدى إلى الذى يليه ، فإن هذا التسلسل لا يعنى النمطية الرتيبة ولكنه يعنى التطور المطرد ، ولذلك يجب أن ننظر إلى الحدث فى ضوء ما قبله وما بعده وما حوله وفى الوقت نفسه نقيمه فى ضوء دلالته الذاتية ، فمن خلال العلاقة العضوية بين الحدث التاريخى كقيمة فى حد ذاته وبين السياق الزمنى الذى يتحرك خلاله ينتج لدينا ما نسميه الوعى بالتاريخ . وهذا ينطبق على تحليل السادات لثورة ٢٣ يوليو فى نفس الكتاب السابق ص ٧٢ :

« كتب لهذه الثورة ، ثورة ٢٣ يوليو ، أن تكون مدرسة قائمة بذاتها تختلف عما سبقها من ثورات . . وكتب لها أيضاً أن تكون حدثاً عالميًّا لا فى تاريخ مصر وحدها ، وإنما فى تاريخ العالم أجمع . . إذ أصبحت هذه الثورة نقطة تحول — فى تاريخ البشرية — بين تاريخين : تاريخ أصيب فيه العالم بكوارث الاستعمار الذى عصف بالقيم . . وأذل الشعوب . . واغتصب الأرض والرزق والمصير . . وتاريخ تحررت فيه البشرية لتحفظ للإنسانية قيمتها » .

ولكى يؤكد السادات هذه الحقيقة التاريخية عمليًّا بدأ فى نشر سلسلة « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » مع أول عدد صدر من أعداد جريدة « الجمهورية » فى ٧ ديسمبر ١٩٥٣ ، وهى السلسلة التى نشرت بعد ذلك فى كتاب بعنوان « صفحات مجهولة » وأبرز فيها السادات المعنى المجرد الكامن وراء الأحداث المادية حتى يبرز الخلفية الفكرية وإلى أى مدى أدت إلى هذه الحتمية التاريخية . وهو فى هذا يتفق مع برتراند راسل فى أن الحدث التاريخى لا يفهم إلا إذا وضع فى سياق معين يتألف من الأحداث التاريخية سواء كانت متناقضة أو منسجمة مع الحدث . وعموماً فهذا التناقض أو الانسجام لا يرجع إلى طبيعة هذه الأحداث أو تلك ، إنما يرجع إلى تغير فى السياق الذى يوضع فيه هذا الحدث أو ذاك . ولو نزعنا حدثاً مّا عن سياقه التاريخى ما أمكننا تقييمه موضوعيًّا . ومن هنا كان حرص السادات على وضع الثورة فى إطارها التاريخى لأن هذا من حق الشعب الذى يجب أن يعرف من تفاصيلها الدقيقة كل شىء حتى لا يحدث أى تناقض فكرى بين الثورة والشعب . ولذلك يقول السادات فى افتتاحية السلسلة فى جريدة « الجمهورية » فى ٧ ديسمبر ١٩٥٣ :

« هى صفحات مجهولة . . ولكنها ليست كل ما يجهله المصريون من صفحات . فدون نشر التاريخ الكامل لهذه الثورة أعوام يجب أن تمر ، تستقر فيها كثير من الأوضاع وتكتمل فيها كثير من العناصر ، وينتهى فيها شقاء هذا الشعب الصابر المكافح من عدوان صارخ على حريته ، وبقايا آثمة أورثتها أرضه قرون العبودية ، وأجيال الاستعمار.

إنها ثورة الشعب . . ولهذا فمن حق هذا الشعب أن يعرف من تفاصيلها الدقيقة كل شيء . . وهى ثورة مصر . . ولهذا فمن حق مصر أن تجد من يسجل لها على الورق ، عبرة جهادها ، وثمرة كفاح أبنائها ، ليحفظ لها فى التاريخ عهداً من الكفاح تريده لتشترى به عزة وكرامة ومجداً وحياة وافرة أبية » .

فالسادات يؤمن أن تسجيل تاريخ حدث كبير مثل الثورة يحتاج إلى مرور حقبة من الزمن تكفل للمؤرخ النظرة الموضوعية ذات الأبعاد المتعددة ، حتى يضعها فى مكانها المناسب من سياق التاريخ الإنسانى ككل . ولكن مهمة السادات هنا تتركز فى بلورة المنهج الفكرى الكامن وراء الثورة حتى يتسق فكرها مع وجدان الشعب ، وحتى لا يحدث من سوء الفهم أو الإدراك ما قد يؤدى إلى ثغرات أو كبوات أو نكسات تعوق المسيرة الثورية ، وبالطبع فقد كان قصد السادات من هذا ربط الجماهير بالثورة ، والثورة بالجماهير برباط عضوى حتى يفوت الفرصة على كل من تسول له نفسه توجيه المسيرة لصالحه الشخصى وأغراضه الأنانية . وكان إصرار السادات على هذا الاتجاه الجماهيرى واضحاً فى كل مراحل التأصيل الفكرى عنده مما أدى إلى مواقف العداء السافرة التى اتخذتها منه مراكز القوى بطول مسيرة الثورة وحتى حركة التصحيح فى مايو ١٩٧١ . فقد تعارض الوعى بالتاريخ – الذى ينادى به السادات دائماً – مع تزييف التاريخ الذى تهدف إليه مراكز القوى لكى تغطى به أغراضها الخفية التى لا تمت إلى الأهداف القومية بصلة . ولا شك أن أحسن وسيلة لخداع الجماهير تكمن فى تزييف التاريخ عندما يقدم إليها تحت أضواء وألوان مضللة ، وبالتالى يمكن شحنها بحماس كاذب قد يدفعها إلى هوة رهيبة . وهذا ما حدث بالفعل فى يونيو عام ١٩٦٧ ، وهو ما حذر منه السادات مراراً وتكراراً سواء فى أحاديثه أو كتاباته . وقام بالتخلص منه عند توليه المسئولية حتى لا تتعرض المسيرة إلى نكسات أخرى لا يحتملها التعمير الحضارى الذى يجب أن يسير بسرعة العصر. فوضوح الرؤية يعد أهم شرط لتقدم الأمة كلها ، وليس الظلام سوى الستار الذى يصنعه المغرضون من التزييف والتلوين والتلفيق والتشويه والتشتيت ، ثم يقومون بإسداله على أغراضهم . والوعى العميق بالتاريخ يلغى كل هذه العوامل الطارئة والظروف المصطنعة . ولذلك يقول السادات على صفحات مجلة « التحرير » فى ٢٣ فبراير ١٩٥٤ :

« إن المستعمرين يحاولون أن يطلقوا حولنا سحباً من الدخان والضباب حتى لا نتبين طريقنا . . ولكن عيوننا التى ألفت مثل هذا الظلام ، تستطيع الآن أن تتبين السبل المألوفة العواقب ، وأن تتجنب ما يوضع فى سبيلنا من عقبات وعراقيل . يقودنا إيمان بالله غير محدود ، وترشدنا عناية من الله لا تضل » . .

ومهما كثرت محاولات تزييف التاريخ ، وتمييع المواقف ، وتشويه الشخصيات فلن يقف التاريخ عاجزاً أمامها ، فهو يحتفظ فى جوهره بروح العدالة النابعة من الضمير الإنسانى الذى حفظ للإنسان كرامته وسمعته على مر العصور ، وإلا تحول العالم إلى غابة لا تعرف أية قيم أو مثل أو ضرورات أخلاقية . فتلك المحاولات المغرضة ليست سوى فقاعات على سطح الموجات الهادرة لمحيط الإنسانية الحضارى ، أو مجرد بثور على جسم البشرية سرعان ما يسترد الجسم صحته وحيويته ومناعته فيلفظها فى نهاية الأمر . فلا شك أن ضمير التاريخ الحى هو جزء لا يتجزأ من الضمير العام للإنسانية . وفى هذا المعنى كتب السادات فى مجلة « التحرير » بتاريخ ٢٥ مايو ١٩٥٤ يقول :

« نحن لا نعجب حين نرى بين ظهرانينا أفراداً يتخذون من ترويج الإفك والبهتان صناعة وتجارة ، فهؤلاء من ضرورات كل زمان وكل مكان . وهم لا ينسبون المثالب إلا للمبرئين منها ، وإلا كان عملهم غير ذى معنى . . إنهم لا يتهمون اللصوص باللصوصية ، ولا المجرمين بالإجرام . ولكنهم يتهمون الأمناء بالسرقة ، ويتهمون الأشراف بالخسة ، ويتهمون المخلصين بالخيانة يريدون أن يجردوا كل ذى صفة عليا أسبغها الله عليه من نعمة الله ولكن التاريخ القديم ، والتاريخ الحديث ، يشهدان بأن كل إفك ، وكل افتراء ، لا بد أن يفتضح أمره . « أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

والتاريخ لا يرحم فى حكمه ولا يقبل الاستئناف ، فمتى أصدر حكمه النهائى فإنه إلى الأبد . وأقوى ذاكرة عرفتها البشرية هى ذاكرة التاريخ التى لا تنسى أية كبيرة أو صغيرة . وقد يظن بعض المغرضين أن التاريخ المصرى ينسى كثيراً بسبب هذا الشعب المصرى الذى من طبعه التسامح والعفو والصفح والصبر الطويل ، ولكن هذه نظرة قاصرة لأن هذه الصفات والطباع تعنى أن التاريخ يسجل بأسلوب موضوعى يضع كل حدث فى مكانه الحقيقى من السياق التاريخى ، فالصبر الطويل لا يعرف الاندفاع ، ولا الحماس ، ولا الهياج ، ولا التشويه بل يترك الأمور تجرى فى أعنتها إلى نهاية المدى ، بعد ذلك يصدر حكمه الذى لا يقبل أى استئناف أو نقض أو إبرام . وعلى صفحات مجلة « التحرير » فى ١٨ مايو ١٩٥٤ يبلور السادات حكم التاريخ على الساسة الذين تلاعبوا بمصير الشعب المصرى قبل ثورة يوليو فيقول :

« إن الشعب المصرى لن ينسى لهؤلاء الساسة ما أزهقت سياستهم الخرقاء من أرواح ، وما أذهب غباؤهم أو خيانتهم من ضحايا . . وإذا كانت ثورة الجيش قد عفت عن كثيرين ممن اقترفوا هذه الجريمة فلأن هذا الجيش جزء من هذا الشعب . . هذا الشعب الذى من طبعه العفو والصفح والصبر الطويل . وليعلم هؤلاء الساسة أنه إذا كانت الجريمة المدنية تسقط عن مرتكبها بعد انقضاء خمس سنوات ، فإن الجريمة الوطنية لن تسقط عن مرتكبها حتى يموت . . بل لن تتخلى عن الالتصاق به بعد موته . .فهى تصحب ذكراه إلى آخر الزمان » .

والتاريخ بالنسبة للسادات ليس مجرد فصول مروية أو أحداث مسجلة على الورق ، ولكنه نبض حى يراه فى كل مصرى يقابله مهما اختلفت ثقافته أو عمره أو مستواه الاجتماعى . . إلخ ومن هنا كان احترامه وحبه للمواطن المصرى الذى تتجسد فيه مصر بكل أبعادها الشاسعة وأعماقها البعيدة . ففى سبتمبر عام ١٩٥٤ قابل السادات فلاحاً عجوزاً فى قرية « بشتامى » المجاورة لدنشواى ، وعلى الرغم من بساطة الفلاح العجوز وطيبته ، فإن هذه البساطة كان تحمل تحتها أغواراً وأعماقاً تضرب جذورها فى التاريخ الحديث والقديم على حد سواء . ولذلك يتكلم عنه السادات بمنتهى الحب والاحترام والتقدير فى مجلة « التحرير » بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٥٤ فيقول :

« لم أكن أتوقع أبداً ، وأنا أتأهب لزيارة دنشواى والقرى المحيطة بها يوم الجمعة الماضى ، أنى سألتقى ، هناك برجل يحمل فى صدره كل تاريخ مصر ، منذ بدأ احتلالها . . وتتمثل فيه الشخصية المصرية العميقة ، التى لا يتزعزع إيمانها ولا تهددها الكوارث ، ولا تفقد الثقة أبداً بهذه الأرض ، وما كتبت من حياة ! . وراح الشيخ يحدثنى بكل ما ضم عليه صدره وكل ما وعته ذاكرته . .

حدثنى عن اليوم الذى دخل فيه الإنجليز مصر . . حدثنى عن أيام عرابى وخيانات توفيق . . حدثنى عن يوم دنشواى الذى رآه بعينيه . . حدثنى عن أيام السخرة فى الحرب العالمية الأولى . . حدثنى عن كفاح الشعب ومظاهرات الشباب : وشهداء الحرية الذين كانوا يسقطون واحداً بعد واحد فى ميادين الكفاح . . حدثنى عن الفلاح المصرى

الذى هب فجأة يثير الثورة ، ويلقى بنفسه فى آتونها . . حدثنى عن النساء والأطفال الذين شاركوا فى أعمال الفداء والاستشهاد . .

وكان حديثه يأتينى كصدى بعيد لانفعالات كثيرة تعتمل فى أعماق نفسه . كأنى لم أقرأها فى كتاب ، ولم أر صورها فى صحيفة ، ولم أشهد بعضها بعينى رأسى . .ولم أشارك بنصيب متواضع فى لحظة من لحظاتها المقدسة ! فقد كان إيمان الشيخ يجمع فى نبراته بين الأسى العميق كلما تذكر أيام الشقاء ، وبين الفرح العميق أيضاً ، وهو يشعر أن أرضه قد تحررت أخيراً ، وأن الدماء الكثيرة التى رآها تروى أرضه المقدسة ، قد أنبتت اليوم شجرة الحرية الوارفة الظلال . . كانت نبرة غريبة لم أسمعها فى حياتى ، نبرة فيها الأسى والسعادة ، فيها البكاء والفرح . وفيها مع كل ذلك الإيمان . !

وعرفت مصر ، فى وجه هذا الرجل ، وفى صـوته ، وفى عمق نفسه كما لم أعرفها من قبل قط . ! وعندما كنت عائداً رحت أفكر فيما قاله لى هذا الرجل ، وكانت دعواته الصالحة لا تزال تملأ أذنى وقلبى ، وتضفى على الطريق بهجة شاملة . . وخيل إلى أن الزرع الأخضر النامى على ضفتى الطريق ، والمياه المتدفقة من النيل العظيم ، والسماء الصافية التى تظلل أرض مصر . خيل إلى أن هؤلاء جميعاً يشاركون هذا الرجل فى الدعاء لمصر بأن يبارك الله لها فى شبابها وأن يصون لها حريتها ، وأن يمنحها الخير والبركة والرخاء . .

ولكن شيئاً آخر كان يهزنى هزاً . . ماذا نحن صانعون لهذا الرجل الذى تتمثل فيه مصر كلها ؟ ! ماذا نحن صانعون للفلاح الذى لم يعرف فى حياته غير الشقاء . . لقد ثرنا . . لقد أعدنا إلى الفلاح أرضه ، وحققنا للشعب حريته . . وبقى العمل العظيم . . بقى أن ننهض جميعاً معاً لكى يرى هذا الرجل يوماً آخر عظيماً . . يوم يعيش المصريون الأحرار جميعاً فى عزة ورخاء » .

فالوعى بالتاريخ عند السادات ، لا يعنى مجرد الانفعال به ولكنه يعنى استيعاب أبعاده حتى يمكن استشراف آفاق المستقبل على أساس صلب من التاريخ والحضارة والأصالة والمعاصرة . فالانفعال العاطفى لا بد أن يتبع بالمنهج العلمى فى التفكير وإلا تبـدد هباء ، ولذلك بعد أن انفعل السادات بالإحساس التاريخى بكفاح أمته مجسداً فى هذا الفلاح العجوز ، بدأ فى التفكير العلمى والعملى فى الأسلوب الذى يمكن أن ينهض بهذه الفئة المطحونة وبالتالى يستطيع أن ينهض بالمجتمع كله . وإذا كان الوعى بالتاريخ فى سنى الحداثة والصبى يأخذ شكل الانفعال التلقائى العفوى فإنه فى مراحل النضوج والخبرة يجب أن يتشبث بالمنهج العلمى والتفكير العملى والاتجاه العقلانى . ويتخذ السادات من حدث دنشواى التاريخى نموذجاً يعكس عليه انفعاله بالتاريخ فى طفولته وصباه ثم وعيه العميق بنفس التاريخ فى رجولته ونضوجه الفكرى . فمن خلال حوار دار بينه وبين فريدة ابنة زهران شهيد دنشواى الشهير ، يوضح لنا السادات كيف يتحول الوعى بالتاريخ إلى قطعة حية من وجدانه ، ينصهر فيها الماضى والحاضر والمستقبل ويجسد حياته كلها فى لحظة واحدة مكثفة . ففى جريدة « الجمهورية » فى ٢٥ أكتوبر ١٩٥٤ يحكى السادات قصة هذا اللقاء فيقول :

« جلست « فريدة » تروى لى قصة اللقاء الأخير بينها وبين أبيها « زهران » قبل أن يقوده الإنجليز فى دنشواى إلى حبل المشنقة ، فقد كانت هذه هى أمنيته الأخيرة التى طلبها كما هى العادة لمن يعدمون . . ولم أكن أستمع إلى هذه القصة لأول مرة ، وإنما أذكر أن قصة دنشواى قد عاشت فى عقلى وفى خيالى منذ الصغر .

ففى ليالى الشتاء الباردة كنا نأوى مبكراً إلى « القاعة » ، حيث يكون الفرن الذى يحتل ركناً قد أشاع الدفء فيها ، فنجلس نحن الأطفال إلى جدتى لنستمع بالقصص الحلو الساذج الذى كانت ترويه لنا عن البطولة والأبطال ،

كلها قصص مستمدة من صميم كفاح هذا الشعب الذى يحس البطولة بنظرته الطيبة ، ويمجدها أروع تمجيد . . سمعت فى هذا المكان قصة كفاح عرابى ، وقصة استبداد الولاة الأتراك ، وقصة أدهم الشرقاوى ، وقصة المأساة الأليمة فى دنشواى » .

هذا عن انفعال السادات بالتاريخ فى طفولته وصباه ، أما عن وعيه العميق به فى رجولته ونضوجه الفكرى فيتخلى فى المقتطف التالى من نفس المقال عندما يقول :

« ولكن أعجب ما عجبت له هو ما قرأته بعد ذلك فى كتب التاريخ عن دنشواى . . فإن الكتب تحدثنا أن المحكمة العسكرية التى شكلت لإعدام هؤلاء الأبرياء كان رئيسها مصريًّا ، وأن المدعى العام الذى طالب بإعدام هؤلاء الأبرياء تنفيذاً لرغبة قصر الدوبارة وقتذاك كان هو الآخر مصريًّا . . والأعجب من ذلك كله أن الكتب تروى لنا أن صحيفة جمع صاحبها الملايين من قروش مصر ، وخير مصر خرجت تقول قبل انعقاد المحكمة فى دنشواى إن المشانق قد أرسلت فعلا إلى هناك لكى تنفذ أحكام المحكمة التى لم تكن قد عقدت بعد . . . هذه الصحيفة هى « المقطم » الغراء . . إنها حقائق أليمة ، ولكننا يجب أن نذكرها دائماً ، فإن أشنع ما يصاب به شعب هو النسيان . . يجب أن نذكر هذه الحقائق ويجب أن نعلمها لأولادنا حتى لا يجىء اليوم الذى يستغل فيه أحد طيبة هذا الشعب ومسالمته لكى ينكل به أو بحرياته أو يتلاعب بأرزاقه . .

فنى شعبنا اليوم مضللون ومخادعون وسيكون فى شعبنا غداً وبعد غد مضللون ومخادعون أيضاً ، وخير ضمان لنا لكى نتقى شرورهم وضلالهم هو أن نستعمل عقولنا ونذكر ماضينا لنقدر حاضرنا . . عندئذ نسير من انتصار إلى انتصار برغم أنف أولئك المنافقين » .

هذه هى الوظيفة الحيوية للوعى بالتاريخ عند السادات . فالشعب الذى ينسى ماضيه وتاريخه بسهولة ، شعب ساذج من السهل التضليل به وإقحامه فى معارك لا ناقة له فيها ولا جمل ، بحيث تضيع مجهوداته ومعنوياته واقتصادياته هباء ، ويفقد القدرة على وضوح الرؤية ، والسير فى الطريق الصحيح صوب التعمير الحضارى والمعايشة الأصيلة لمقتضيات العصر . فالوعى بالتاريخ هو ذاكرة الشعب ، ولا يمكن لشعب أن يعيش إذا فقد ذاكرته ، ونحن نعلم كم هى مأساة رهيبة أن يفقد الفرد ذاكرته ، فما بالنا إذا فقد الشعب كله ذاكرته ، فإن هذا سيكون المأساة التى ليس بعدها مأساة أخرى . وقد تعلم السادات هذه الحقيقة منذ نعومة أظافره على يد أستاذه الحبيب جدته . فهى التى غرست فى وجدانه الانفعال بالتاريخ فى طفولته ثم الوعى به فى شبابه المبكر ، وبذلك تحول التاريخ فى نظره إلى نبض حى متجدد من خلال شخصها ، فإذا أضفنا حبه العميق لها ، أدركنا إلى أى مدى بلغ تعلقه بكل ما ترويه من أقاصيص وأحداث تاريخية وانفعاله بها انفعالا شكل نظرته إلى مصر وتاريخها الحديث والقديم على حد سواء .

ومما كان يلهب خياله فى طفولته أن عم جدته كان فارساً من فرسان جيش عرابى ، وبذلك دخل التاريخ بنفسه فى عائلته ، أو بمعنى آخر دخلت عائلته التاريخ ، فلم يكن بالنسبة له شيئاً مجرداً بل كان جزءاً من تراث العائلة نفسها . يحدثنا السادات عن تأثير جدته فى حياته فى كتاب « ياولدى هذا عمك جمال » فيقول ص ٢٦ :

« وأحاديثها لم تكن للتسلية فقط يا بنى . . وإنما كانت دروساً وعبراً . أول ما حدثتنى يا بنى . . كان ذلك عن عمها الذى كان ضابطاً فى الجيش المصرى ، أيام ثورة عرابى سنة ١٨٨٢ التى انتهت بالاحتلال البريطانى لمصر فى تلك السنة . . إننى أذكر كيف كانت تحكى لى ، وفى عينيها بريق ، وحماس عجيبان فقد فوجئت القرية الوادعة فى يوم بدخول فارس على جواده ، يركض فى سرعة رهيبة ، ثم لم يلبث أن احتوته القرية .

وكان الناس وقتذاك مفتونين بعرابى . . ذلك الضابط المصرى الفلاح ، الذى تحدى الخديو التركى ، من

أجل الضباط المصريين . . ثم من أجل إقامة حياة ديمقراطية يتولى فيها الشعب أموره بنفسه . . وكانت دعواتهم له بالنجاح حارة . . ومن كل قلوبهم ، خاصة وأنهم عرفوا أن الخديو الخائن قد استنجد بالإنجليز الأجانب . .

وحين دخل هذا الفارس فى سرعته الرهيبة . . اندفعت الجموع من خلفه . وبخاصة أنه كان يرتدى ملابس الضباط . وكانوا جميعاً فى شوق إلى سماع الأنباء عن جيشهم الذى يحارب من أجلهم . . وعن عرابى بطلهم وأخذوا يندفعون من شارع إلى عطفة ، ومن عطفة إلى حارة ، وراء ذلك الفارس الجامح . . وفى كل لحظة ، ينضم إليهم فوج جديد ، بحماس جديد . إلى أن فوجئ هذا الجمع بالحصان والفارس وقد سقطا على الأرض فى منعطف ضيق . . وكان الحصان من فرط لهثه وتعبه ، يرقد ممدداً على الأرض . . والفارس ملقى إلى جواره ، ودماؤه تنزف بغزارة . وعلى الفور تعرف الناس على الضابط الفارس . . وهو ابن بلدهم . . وقد كان على قيد خطوات من منزله . . فنقلوه إليه . . أما الحصان فإنه لم يلبث أن مات بعد دقائق قليلة .

كان الفارس كما روت جدتى . . هو عمها الذى كان يعمل ضابطاً فى سلاح الفرسان فى الجيش المصرى . وقد روى للأهل والأصدقاء قصته ، بعد أن ضمدوا له جراحه ورشوا وجهه بالماء » . .

وسرعان ما ينتقل السادات من اللمحات الشخصية العائلية للحدث إلى اللمحات التاريخية القومية له ، فالوعى بالتاريخ يحتم عليه هذه النظرة الشاملة التى تحيل مجرد الانفعال والإثارة البطولية إلى شحنة داخل الوعى بالتاريخ القومى ، وهذا يساعد بدوره على التأصيل الفكرى للحدث وربطه بالوجدان العام للأمة ، بدلا من أن يصبح مجرد حدث منفصل يروى لمجرد التسلية والتفاخر وتزجية وقت الفراغ . ولذلك يقول السادات عن قصة عم جدته فى الكتاب نفسه ص ٢٧ :

« وكانت قصته . . هى قصة الجيش المصرى الذى قاتل فى الإسكندرية وكفر الدوار سنة ١٨٨٢ بقيادة عـرابى . . وصد الغزاة الإنجليز . . وعندئذ تحولوا إلى قناة السويس . فدخلوا منها بالتآمر مع ديلسبس . . وتسللوا بالخيانة والغدر إلى مصر ، فى الوقت الذى كان ديلسبس يطمئن فيه عرابى بأن القناة لن تستخدم فى غزو مصر . . . مما جعل عرابى يعدل عن تعطيلها ، احتراماً منه لكلمة ذلك الأفاق » .

ولقد كان هدف السادات أساساً من تأليف كتابه « ياولدى هذا عمك جمال » هو بث الوعى بالتاريخ القومى فى نفوس الجيل الجديد الذى ترعرع مع الثورة ، حتى يتسلح بالوعى الكافى الذى يجنبه الوقوع فى أخطاء ما قبل الثورة . فهو يوجه الكتاب إلى ابنه جمال الذى ولد فى أثناء العدوان الثلاثى على مصر فى نوفبر ١٩٥٦ ، وبهذا يمثل ابنه جمال كل الجيل الجديد الذى لم يعاصر مخازى ما قبل الثورة . ولذلك يوجه إليه حديثه ص ٣٨ فيقول :

« هذا التاريخ يا بنى . . هو ما سأرويه لك فى الفصول القادمة لكى تعرف أنت والجيل الذى تنتمى إليه قصة الصراع الجبار بين الحق والباطل . . وبين المثل العليا والانحلال . . وبين شعب أعزل إلا من الإيمان بحقه وسيادته ، والاستعمار المتجبر المغرور بقوته وجبروته » .

ويوضح السادات أن الشعوب هى التى تكتب التاريخ الحقيقى وتسجله ، وإن كانت هذه الظاهرة غير واضحة تماماً فى العصور الماضية عندما سيطر الاستعمار والاستبداد والطغيان والديكتاتورية ، فإنها تبدو واضحة لكل ذى عينين فى عصرنا هذا . فهو عصر الشعوب والأمم أكثر منه عصراً للقادة والزعماء والحكام بأمرهم . والوعى بالتاريخ لم يعد مهمة الحاكم أو المؤرخ فقط بل أصبح من اختصاص كل فرد يعتز بوطنيته وقوميته وشخصيته . كان التاريخ فى الماضى مجرد تسجيل لغزوات الفاتحين ، وانهيار الإمبراطوريات وسقوط الطغاة ، ونزوات الحكام ، وأطماع القادة ، ورغبات الملوك ، ونوادر رجال البلاط ، وغراميات النبلاء ، ومغامرات الأمراء ، ومآثر الأشراف . .إلخ ،

أما الشعوب فكانت مجرد المداد الذى يسجل به الحكام صفحات أمجادهم أو مخازيهم . ولم تكن ثورة سبارتاكوس العبد الرومانى إلا ثورة ضد هذا الوضع المهين للشعوب المستعبدة . ولكن كانت هذه الثورة بمثابة النشاز المعارض لنظم الحكم التى تعتمد على سيطرة فئة معينة تشترط فى الحاكم أن ينتمى إليها لكى يلبى لها كل رغباتها ، ويرعى كل مصالحها بصرف النظر عن مصالح الفئات الأخرى الممثلة للأمة ككل . وكان من المستحيل للتاريخ أن يستمر على هذا المنوال لأنه مخالف لقانون فعل الكتلة ، هذا القانون الكيميائى الذى ينص بأن اتجاه التفاعل الكيميائى يتأثر طبقاً لكمية الكتل المشتركة فيه ، بمعنى أنه إذا كانت كتلة المادة المشتركة فى التفاعل كبيرة بالنسبة لكتل المواد الأخرى فإن اتجاه التفاعل يأخذ شكلا مغايراً عما لو كانت تلك الكتلة أقل من الكتل الأخرى المشتركة معها فى التفاعل . وإذا طبقنا هذا القانون الكيميائى على التاريخ الحديث وجدنا أنه يتمشى معه تماماً من حيث إن الكفة الراجحة هى لكتلة الشعوب إذا قورنت بكفة الحكام ، حتى هتلر الذى حاول إثبات عكس هذا القانون بالتأكيد على أن الحاكم المستبد هو مصدر السلطات والقرارات ، وهو الذى يخط مصير الأمة ، بل مصير الأمم بيده ، نجد أن الدوائر دارت عليه أخيراً وانتصرت الأمم والشعوب وتحول هتلر إلى مجرد مجرم حرب .

ودروس التاريخ هذه تحتم على الشعوب أن ترتفع بوعيها إلى أعلى درجة ممكنة حتى لا يفلت الزمام من يدها ويتحكم فيها مجنون مثل هتلر ، وهذا الوعى بالتاريخ ضرورة لا محيص عنها وبخاصة فى فترات التطور الحاسمة التى قد تؤدى فيها هفوة حاكم ، أو نزوة ديكتاتور إلى كارثة قومية تنزل بالأمة بأسرها وليس بشخص الحاكم وحده . فالحاكم الذى يحكم شعباً واعياً بتاريخه وقوميته وحضارته ، لا يمكن أن يسوقه على هواه إلى حيث يشاء هو ، فسيجبره الشعب الواعى على أن يعمل له ألف حساب قبل أن يتخذ أى قرار ، وسيجبره أيضاً على أن تنهض كل قراراته على أساس من المنهج العلمى ، والدراسة الموضوعية ، والبحث القائم على استقراء التاريخ الماضى والمعاصر على حد سواء ، وبذلك لن يتمكن الحاكم من أن يقدم إلى شعبه مائدة من الأمجاد الوهمية ليجترها ليل نهار ، فالوعى بالتاريخ قادر على كشف كل محاولات التضليل والخداع والتزييف والتلوين والتشويش والإيهام ، وذلك بالوقوف دائماً على أرضية صلبة من الواقع المعاش . ولذلك يقول السادات فى كتابه « يا ولدى » ص ٤٠ :

« إننى أكتب لك يا بنى هذه الصفحات وأنا أحس أننا نعيش اليوم فى فترة تطور حاسمة من تاريخ العالم ، لن تراها يا بنى . . ولكنك ستقرأ عنها . .وسيتخذ منها المؤرخون ، نقطة انطلاق تسجل بدء تاريخ جديد لهذا العالم . . تاريخ جديد فى كل شيء . . وأخطر شيء فى هذه الحقبة . . هو أن الشعوب اليوم ، هى التى تملى هذا التاريخ وتكتبه بإرادتها ، وكفاحها ودمائها . . بعد أن كان يكتبه أولئك الكبار بالقهر والسلب لإرادة الشعوب . . ولن تستطيع قوى أولئك الكبار بعد اليوم ، أن تقهر إرادة الشعوب ثانية ، مهما كانت هذه القوى . .

لقد استيقظت الشعوب . . وحطمت ذلك الستار الحديدى الذى فرض على حدودها وعلى ضمائرها ، وعلى أرزاقها ومقدراتها . . وأصبحت الشعوب لا تؤمن بغير التعايش السلمى ، من غير أن يتدخل أحد فى شئون الآخر أو يسلبه رزقه أو أرضه . . عالم تختار فيه الشعوب ما تريده لنفسها من نظم بملء حريتها . . عالم لا تحرق فيه المحاصيل فى فى بلد ، ويموت من الجوع الملايين فى البلد الآخر . . عالم لا يفرق بين الجنس أو اللون أو العقيدة . . ولا يعترف بسيادة لون أو جنس على الآخرين . . عالم لا يرث أحقاد القرون الماضية التى فتكت بالبشرية وسببت الحروب . . عالم يستأصل الاستعمار من جذوره . . لأنه وراء الأحقاد والشرور والحروب والقلق الذى يشقى الإنسان » .

فمفهوم الوعى بالتاريخ عند السادات يعنى ضرورة التأكيد على إيجابيات الماضى ومنحها القدرة على الاستمرار والتكثيف ، هذا مع حتمية التخلص من سلبيات الماضى ورواسبه وصراعاته وأحقاده التى لا طائل من ورائها . بهذا

يتضح لنا المفهوم التاريخى لمنهج التأصيل الفكرى ، وهو المنهج الذى طبقه على كتاباته بصفة عامة ، وعلى كتبه بصفة خاصة كما نجد فى كتبه التى تبدأ بكتاب « صفحات مجهولة » عام ١٩٥٥ ثم « أسرار الثورة المصرية » ١٩٥٧ ، فكتاب « قصة الوحدة العربية » فى العام نفسه وكذلك كتاب « يا ولدى هذا عمك جمال » ثم كتاب « القاعدة الشعبية » ١٩٥٩ وأيضاً كتاب « معنى الاتحاد القومى » ، فكتاب « قصة الثورة كاملة » ١٩٦١ ، ثم كتاب « نحو بعث جديد » عام ١٩٦٣ . فكان الهدف الأول من كل هذه الكتب هو الارتفاع بمستوى الوعى بالتاريخ لدى العالم العربى عامة ، والشعب المصرى خاصة . فهذا هو أعظم سلاح يمكن أن يتسلح به الشعب ضد كل المغرضين والمزيفين والانتهازيين والمستغلين والمضللين والمخادعين . ولذلك يقول السادات فى مقدمة كتابه « قصة الثورة كاملة » ص ٥ :

« كنت أكتب وأروى للشعب قصة ثورتنا ، وفى كل مرة كنت أسرد للشعب — وليس لغيره — حقيقة واحدة ، وهى أن الثورة لم تقم إلا من أجل شىء واحد . . من أجل أن يحكم الشعب نفسه بنفسه . . ورويت للشعب كل الحقائق . . قلت إن الثورة ألغت الأحزاب ، وأسقطت الدستور لأنها ثورة وليس انقلاباً . . ثورة تستهدف إقامة نظام ديمقراطى صحيح ، لانظام مزيف يقوم على الخديعة والتغرير بالشعب ، حتى يتمكن المزيفون والمستغلون والمضللون من نهبه والسيطرة على حياته . نحن لم نكن نريد البطش بالشعب بل بأعدائه . . ومضيت فى حلقات عديدة أروى للناس فى مصروفى خارج مصرحكايتنا » .

وعنصر المقارنة بين الماضى والحاضر فى مفهوم الوعى بالتاريخ عند السادات عنصر مهم للغاية ، ليس على سبيل التفاخر سواء بأمجاد الماضى أو الحاضر ، ولكن من أجل الاستيعاب الشامل لمجرى التاريخ القومى بكل سلبياته وإيجابياته . فقد ذهب إلى الإسكندرية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٤ للاحتفال بالذكرى الثانية لخلع الملك فاروق ورحيله عن البلاد . ومناسبة مثل تلك كافية لتقديم مادة خصبة لكتابة مقال طويل عنها ، ولكن السادات لم يكتف بإلقاء الأضواء على الحاضر بل أصر على ربطه عضوياً بالماضى لتأكيد الأصالة الفكرية والقومية عند الشعب المصرى سواء قبل الثورة أو بعدها . لذلك يستعرض الوضع الجديد للبلد فى بدء المقال الذى كتبه فى جريدة « الجمهورية » بهذه المناسبة ، ثم يتتبع جذور هذا الوضع الضاربة فى الماضى فيقول :

« كان انتقام الإسكندرية لنفسها رائعاً ، برغم انقضاء فترة طويلة على ما لحقها سنة ١٨٨٢ . . ففى يوليو بالذات من تلك السنة — أى منذ سبعين عاماً على التحقيق — التجأ توفيق الخائن جد فاروق المستهتر إلى سراى رأس التين طالباً حماية الإنكليز . . وسرعان ما جاءت هذه الحماية على صورة بشعة دامية ، فانطلقت مدافع الأسطول الاستعمارى البريطانى تدك قلاع الإسكندرية وحصونها وتفتك بالأبرياء من أبنائها فى مجزرة رهيبة ، حارب فيها أهل الإسكندرية ببسالة خالدة برغم أنهم كانوا عزلا . . ومع ذلك لم ينتصر الخديو وحماته المستعمرون إلا بالخيانة . . توالت منذ ذلك التاريخ خيانات الخديو وعائلته من بعده ، وبكت مصر مرتين . . مرة عندما ضربوا الإسكندرية ثغرها الحبيب . . ومرة أخرى حينما استعرض توفيق جنود الأحتلال فى قلب القاهرة عاصمة البلاد . .

واليوم شاءت إرادة الله أن تردالإسكندريةالصاع صاعين . فقد شاهدتها من مكانى تقذف فاروق حفيد توفيق إلى عرض البحر . . شاهدت قلاعها وحصونها تقف فى أنفه شامخة ، وتضحك فى سخرية من ذلك الهارب الجبان . وحينما بدأت أول خيوط الظلام أخذت أطوف الميناء . . فقد امتلأت أذناى ورأسى بأناشيد مدوية ترتفع إلى السماء هاتفة بشهداء الإسكندرية وشهداء البلاد : إن تضحياتكم لم تذهب سدى . . فسلام عليكم فى الأبرار والصديقين ، وهنيئاً لأرواحكم بنصراليوم المبين » .

والمقارنة نفسها بين الماضى والحاضر تعود تلقائياً إلى ذهن السادات عندما ذهب فى زيارة إلى القنال فى أغسطس عام ١٩٥٤ لتفقد عمليات الجلاء البريطانى عن مصر، فهو لا يستطيع أن يرى الحاضر إلا فى ضوء الماضى والماضى فى ضوء الحاضر حتى تكتمل أبعاد الصورة التاريخية . يقول على صفحات « الجمهورية » فى ٤ أغسطس ١٩٥٤ :

« كنت أردد فى خيالى ووجدانى . . ترى ماذا أنا فاعل اليوم وقد صممت على أن أرى كل شىء وألمس كل شىء . . هل سيكفينى النهار . . ؟ ولم يطل بى هذا التفكير ، فقد عادت بى الذاكرة إلى أول مرة زرت فيها تلك القاعدة ، بل لم أزرها وإنما دخلتها محارباً وأنا ملازم ثان سنة ١٩٣٨ ، وكانت قد صدرت إلينا الأوامر فى ذلك الوقت باتخاذ معسكر فى فايد لكى تتم تدريبنا بإجراء المناورات النهائية هناك ، على أن تشترك معنا فى تلك المناورات قوات من المشاة البريطانية ، تمثل عدوًّا وهميًّا وأذكر أننى اتخذت لكتيبتنا المعسكر فى حضن جبل يسمى « البرغوت الكبير » . وعدت أذكر بعد ذلك كيف توالت الأحداث ، بعد أن أجرينا تلك المناورة وعدنا إلى ثكناتنا فى القاهرة ، وانتهت تلك الأحداث على يد « كيلرن » المشهور جدًّا فى مصر ، وعلى يد تجار السياسة فى بلدنا . . أقول انتهت تلك الأحداث بأن أصبح ذلك العدو الوهمى فى المناورة ، عدوًّا حقيقيًّا على الطبيعة » .

وضرورة الاستفادة من دروس الماضى تأتى من أن تحديد الهدف لا ينشأ من التطلع إلى الأمام بل من النظر إلى الوراء ، فنحن نعرف كل الأبعاد الواقعية للماضى ولا ندرك من المستقبل سوى آمالنا وتطلعاتنا ، والمستقبل – كما سبق أن قلنا – هو الامتداد العضوى للماضى ، ودراسة الماضى هى التى تشكل الأبعاد التى سيتخذها المستقبل ، وبذلك يمكننا القول إن الشعب الذى لا يعرف ماضيه لا يمكن أن يستكشف مستقبله . فالتاريخ ليس زمناً مطلقاً أو وجوداً أجوف يتحقق بذاته بمعزل عن الأشياء والأشخاص والأحداث ، وإذ كانت هناك ثمة حتمية تاريخية فى مفهوم السادات للوعى بالتاريخ فهى الحتمية التى تؤكد تأثر المستقبل بالماضى بطريقة أو بأخرى . فالتاريخ مجموعة من الظواهر التى تتمثل فى الأحداث أو الشخصيات أو فى هذه وتلك مجتمعة ، ولكن هذه الظواهر لا تتكون تكوناً ذاتيًّا ، بل هى دائماً نتيجة حتمية لمجموعة من الأسباب الروحية والمادية . فالأسباب الروحية تتمثل فى الطريقة التى يتكون بها وجدان الشعب تجاه حدث ما ، أما الأسباب المادية فهى مؤثرات البيئة الطبيعية بما لها من خصائص متباينة تختلف من بيئة إلى أخرى ، وتؤثر تأثيراً ملحوظاً وملموساً فى بروز ظاهرة أو مجموعة من الظواهر المعينة ، كما تشارك أيضاً فى صنعها . وبذلك تصبح البيئة الطبيعية طرفاً فى صنع التاريخ ولأن لكل بيئة طبيعية خصوصيتها فإنها تشارك فى صنع تاريخ له مواصفاته الخاصة به . ونتيجة لهذه الحتمية التاريخية ، يصبح من الخطأ محاولة فهم الظاهرة التاريخية بمعزل عن بيئتها الطبيعية . ومن هنا كان من العسير وجود تاريخ مطلق ، أو تاريخ عام ، أو فى ذاته ، بل هناك تاريخ خاص مرتبط بأسباب وظروف بيئية معينة ومرتبط فى نفس الوقت بتواريخ البيئات الأخرى سواء من قريب أو بعيد .

كذلك تلعب الأسباب الروحية والمعنوية دوراً كبيراً فى تشكيل الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، أى الوضع الحضارى بصفة عامة . والفرق بين الأسباب المادية والأسباب الروحية ، أن الأولى تفرض نفسها على الإنسان دون أن يكون له حرية الاختيار فى صنعها أو فى التأثير فيها ، ولذلك نستطيع القول أن الإنسان الذى ينشأ فى بيئة متقدمة لا بد أن يختلف فى كثير من الخصائص عن الإنسان الذى يولد فى مجتمع متخلف . هذا من ناحية الأسباب المادية ، أما من جهة الأسباب الروحية فهى المحرك الرئيسى للانتقال من حالة التخلف إلى حالة التقدم ،

فهى الأسباب التى تؤكد ضرورة الإرادة الإنسانية وحريتها فى تشكيل مصير الإنسان ، فهى شديدة الارتباط بالإنسان نفسه لأنها تنبع من داخله وليست مفروضة عليه من الخارج كما هى الحال بالنسبة للأسباب المادية . فالإنسان طرف مشارك فى الأسباب الروحية بالضرورة ، ولا قيام لها بدونه . إنها تؤثر بالفعل فى الإنسان ولكنه يؤثر فيها بدوره . ولذلك فالإنسان – عند السادات – هو العنصر الفاعل المفضل دائماً فى هذا الوجود ، ولذلك لا وجود للتاريخ بدونه ، فالتاريخ أول الأمر وآخره هو تاريخ الإنسان ، الإنسان بصفته الخاصة المتعينة وليس بصفته المطلقة المجردة . ولذلك يتمثل التاريخ عند السادات من خلال أشخاص معينين بالذات عايشهم واستمع إليهم وأثر فيهم وتأثر بهم ، كذلك الوضع بالنسبة للأمكنة ، فإن دلالتها تتركز فيما توحى به من ذكريات ولمحات تاريخية . وقد لمسنا هذا فى زيارة السادات لكل من دنشواى والإسكندرية والقنال . فقد تعود السادات أن يقرأ التاريخ فى الأشخاص والأمكنة والمواقع قبل أن يقرأه فى الكتب التى غالباً ما تكتب من وجهات نظر خاصة قد لا تخلو من الغرض . ويؤكد السادات هذا الاتجاه فى فكره فى حديث له إلى مجلة « الإذاعة » فى ٢٥ يوليو ١٩٥٩ :

« أول كتاب زرع الثورة فى نفسى ، لم يكن كتاباً بالمفهوم الذى نعرفه عن الكتاب ، وإنما كانت أحاديث تلقيها جدتى فى أذنى ونحن نستلقى فى ليل الشتاء الطويل على الفرن فى قاعة دارنا بالريف . . كنت يومها طفلاً صغيرًا ، لا أنام قبل أن أسمع حكاية أو حكايتين عن الشاطر حسن وست الحسن والجمال . . إلا أن جدتى شاءت أن تمزج هذه الحكايات بحكاية خالدة عن قرية لا تبعد إلا قليلا عن قريتنا ، هى دنشواى ، وكانت رواية جدتى رحمها الله عن قصة دنشواى ، عبارة عن زجل جميل يناجون فيه « زهران » ذلك البطل الذى ضربوه بالسياط ، ثم شنقوه أمام القرية بأكملها . . ولابد أن جدتى قد حضرت هذا الذى جرى ، فقد كانت فى حديثها تنفعل أشد الانفعال ، وتحكى عن بطولات « زهران » وكأنما هو الفارس الأول ، ورمز كل شجاعة وكل إقدام . ثم تنتهى القصة بذلك الغدر اللئيم الذى ارتكبته بريطانيا أمام أعين أهل القرية الوادعين .

هذا كتاب . . وهناك كتاب آخر . . صديقى عبد الحكم الجراحى ، فقد نشأنا طفلين فى كوبرى القبة ، نلعب ونلهو ونسمر كما يسمر الأطفال فى مثل أعمارنا . . كانت الدنيا كلها أمامنا أملا وإشراقاً وابتساماً إلى أن جاء ذلك اليوم الذى ارتحل فيه عبد الحكم عن شلتنا لكى يكمل تعليمه فى الخارج ، ثم عاد فجأة ، بعد أن عدل عن الاستمرار فى تعليمه بالخارج ، لكى يتمه فى كلية الآداب بجامعة القاهرة . وفى يوم مشئوم خرج عبد الحكم مع المظاهرات التى خرجت تنادى بالاستقلال ، وبحقنا فى الحياة ، فصرعته رصاصة كونستابل إنجليزى .

وهناك كتب كثيرة أخرى قرأتها فى معركة كفر الدوار ، ثم فى معركة القناة ، وقرأتها أيضاً بعد أن تخرجت فى الكلية الحربية وانتظمت فى الجيش على يد البعثة العسكرية البريطانية ، تلك البعثة التى أرسلوها ، لا لكى تعلمنا أو تدربنا ، وإنما لكى تخضعنا ، ولكى تذلنا . . ونحمد الله أن هذه المعركة انتهت بتشكيل تنظيم الضباط الأحرار ، الذى كان كتاب البعثة البريطانية ، من أول ما دعا إليه . »

ولهذا يؤمن السادات أن كل ظاهرة تاريخية تتعلق بمجموعة من الشروط الموضوعية كى ندرك كل أبعادها ، وأن توافر هذه الشروط يلغى وجود عنصر الصدفة تماماً ، فالتسليم بمبدأ الصدفة يعنى تقطيع السلسلة التاريخية إلى حلقات منفصلة لا رابط بينها ولا علاقة من أى نوع . وبذلك يفقد التاريخ الإنسانى معناه لأنه ينهض أساساً على مبدأ العلية . ومبدأ الصدفة نفسه لا يستند إلى أى تفسير علمى أو منطقى ، وبديهى ألا يكون له تفسير ، لأنه لو أمكن تفسيره فلن تصبح الصدفة صدفة على الإطلاق . ولهذا يظل القول بالصدفة ممكناً دائماً فى غياب التفسير . وهذا

يحدث فقط عندما لا نرى سوى ظاهر الأمور ، ولكن إذا تعمقنا التحليل والدراسة سنجد أن هناك مجموعة من العوامل المتشابكة ، والأسباب المتسلسلة ، والدوافع المترابطة هي التي أدت – طبقاً لمبدأ العلية – إلى ما نطلق عليه – ظاهرياً فقط – إصطلاح الصدفة . ومن هنا كان رفض السادات لمبدأ الصدفة ، لأنه مبدأ لا يستقيم مع المنهج العلمى ولا يخضع للتفسير المنطقى . وهذا الوعى بالتاريخ يلغى النظرة الغيبية إلى التاريخ بشخصياته وأحداثه وظواهره ويدعم النظرة العلمية التى تخضع كل شىء للبحث الموضوعى والتحليل المنهجى والتعليل المنطقى فليس هناك شىء يحدث مصادفة ، حتى وإن بدا الأمر كذلك فى بعض الأحيان . ولذلك نظر السادات إلى معركتنا مع إسرائيل على أساس أنها مخطط عام تقوم به القوى المعادية للحرية والتقدم وحركة التاريخ بصفة عامة . وبلا شك فإن مفهوم المخطط لا يحتمل فى طياته أى حساب لعنصر الصدفة ، فالمسألة تعتمد أساساً على الحساب الذى لا يحتمل أية تخمينات أوتأويلات . ولذلك يقول السادات فى مأدبة العشاء للرئيس تيتو فى ١٤ فبراير ١٩٧١ :

« لم نخش فى كل ما قمنا به ، وما اتخذنا من قرارات غير شىء واحد هو أن يتصور أعداؤنا وأصدقاؤهم خطأ أننا نخشى المواجهة المسلحة إذا أصبحت لازمة أونتردد دونها إذا كانت هى الملجأ الأخير . لهؤلاء جميعاً نقول أمامك : لا تخطئوا فى الحساب . . إننا قادرون على خوض المعركة . . قابلون لجميع تضحياتها وتكاليفها . . واثقون أن التطور التاريخى يتحرك لصالح كل ما ندافع عنه إيماناً به . . معتقدون أننا لسنا فى المعركة وحدنا . . ذلك لأن ما نواجهه هنا على الأرض العربية هو جزء من مخطط عام تقوم به القوى المعادية للحرية والتقدم ، بينما هى تشعر بحصار التطور والتاريخ لمطامعها . »

هنا تبرز الحتمية التاريخية فى أوضح صورها ، فإنه لم ولن توجد قوة على الأرض – مهما كانت – تستطيع أن تقف ضد تيار التطور والتاريخ ، والذين يبدون الدهشة مما حدث فى السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ لابد أنهم مصابون بقصر النظر وضيق الأفق ، أو أنهم مغرضون لإبراز أن السادس من أكتوبر كان حدثاً شاذًا وخارجاً عن نطاق النسيج الطبيعى للتاريخ ، ولكن الواقع يؤكد – وهذا ما اعترفوا به بعد ذلك – أن السادس من أكتوبر كان إعادة للأمور إلى نصابها الطبيعى ومسايرة لحركة التاريخ وتيار التطور . وأن ما كانت إسرائيل تفعله فى سنى الهزيمة كان وضعاً شاذًا مؤقتاً . وأى شخص يملك أى قدر من الوعى بالتاريخ يدرك هذه البدهية التى لا تحتاج إلى جدل أو إثبات .

وعندما أصدر السادات قراره التاريخى بتحرير الأرض فى السادس من أكتوبر العظيم ، لم يكن قراره صادراً عن وعيه بتاريخ القضية منذ اشتغاله بالسياسة ، أو منذ حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، بل إن وعيه يمتد ليشمل الجذور الأولى للقضية ، ويغطى كل أبعادها الظاهرة والخفية . فيحدثنا فى جريدة « الجمهورية » فى ١٧ فبراير ١٩٥٧ عن تاريخهم مع المصريين من واقع التوراة ذاتها . وهذا هو الوعى بالتاريخ عندما يبلغ قمته ، فإن عدوك لا يمكن أن ينال من منطقك إذا ساندته ببراهين وأدلة مما يؤمن به عدوك نفسه . لأنه فى هذه الحالة إذا عارضك فإن عقيدته تنهار من أساسها . يقول السادات فى مقالة بعنوان « من كتابهم » :

« وحين عزم اليهود على الفرار من مصر كما أمرهم موسى عليه السلام ، لم ينسوا طبيعتهم الشريرة ، فاستدانت نساء من اليهود حلى نساء مصر من جاراتهن بحجة أو بأخرى . . وإلى يومنا هذا لم تعد هذه الحلى لصاحباتها من نساء مصر ، لسبب بسيط هو أن نساء مصر صدقن اليهود وعاملنهم بالحسنى وراعوا فيهم حق الجار . . ! !

وحين عبر بهم موسى عليه السلام البحر وطلبوا منه الطعام ، فسأل ربه فأنزل عليهم المن والسلوى ، وهو عسل وطير ، تمردوا على موسى وعلى ربه . . لأنهم يريدون الفول والعدس والبصل بدل العسل ولحم الطير . ولم ييأس موسى ، بل يدعو لهم ربه لكى يعودوا عن غيهم ، وأجرى عليهم من المعجزات بأمر ربه مما لم يحظ به بشر من قبل فواحدة منها

هى نتق الجبل من فوقهم لكى يظلهم ، واعتقد موسى أن القوم قد آمنوا فذهب يناجى ربه . . وحين عاد وجد القوم يسجدون لصنم صنعوه من دون الله الذى أجرى عليهم كل تلك المعجزات ! ! وحين لم يجدوا شيئاً يكافئون به موسى على محاولته هدايتهم وبذله نفسه من أجلهم ، اتهموه بأنه رجل لا خلاق له وأنه يخالط النساء . ! ! وحين مات هارون شقيق موسى ووزيره وساعده الأيمن الذى كافح معه من أجل هداية شعب إسرائيل ، اتهموا موسى بعد كل ما فعله لهم بأنه هو قاتل أخيه . .

إن كل هذه البيانات لا أدعيها أو أقدمها على أنها معلومات من كتب وإنما هى مستقاة من التوراة التى تقدسها إسرائيل وتتخذها دستوراً لها . . فإذا كان هذا هو تاريخ إسرائيل الذى تعترف إسرائيل نفسها به ، مما أنزل على إسرائيل لعنة من الله فى الإنجيل وفى القرآن ، فهل يظن المستر دالاس (وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية فى ذلك الوقت) أنه يستطيع أن ينجح فيما فشل فيه موسى عليه السلام ؟ ! »

وفى كتاب « قصة الوحدة العربية » يزيد من وعى القارئ بالتاريخ ، التحليل الذى يقدمه السادات لبروتوكولات حكماء صهيون حتى يربط القارئ الماضى بالحاضر ويتأكد من أن المخطط الخبيث يمتد منذ ذلك اليوم الذى هرب فيه اليهود من انتقام الفراعنة بعد أن اكتشف المصريون كم عاث اليهود فساداً فى أرض مصر. فيوضح السادات أن قصة حكماء صهيون مشهورة ، فقد وضعوا للصهيونيين مبادئ يسيرون عليها ، لها عندهم قداسة الكتب المقدسة عندنا ، ولكن ما تحويه أمر فظيع وخطير لا يكاد يصدقه العقل . فقد بنى الحكماء وصاياهم على مبادئ وصفوها بأنها نزلت من عند الرب ، ولذلك لا تقبل المناقشة بل هى واجبة التنفيذ ، ورتبوا عليها الوسائل لتحقيق هذه المبادئ على الأرض . . فهم يقولون مثلا :

« إن الصهيونى من طينة الله ، وأن جميع ما على الأرض من كنوز وأرزاق هو ملك له . وأن (الأممى) — وهو تعبير يطلق على المسلم والمسيحى وكل من ليس يهودياً — لا حقوق له على هذه الأرض ، بل إنه خلق ليكون فى خدمة الصهيونى ، وعلى ذلك فهم يقررون أن دم الأممى حلال بل إن الصهيونى ينال مثوبة عند الله إذا قتل الأممى . »

ويعلق السادات على هذه البروتوكولات الشاذة والغريبة بقوله ص ١٤٠ من كتاب « قصة الوحدة العربية » :

« هذا هو أعجب ما يمكن أن ينصح به رجل دين ، الناس الذين يتبعون هذا الدين . فإن السماء لم ترسل الرسل والأنبياء والأديان إلا للعمران والمحبة والسلام عن طريق تنظيم العلاقات بين الناس . . وأكثر من ذلك فإن هؤلاء الحكماء يوصون الصهيونيين بأنهم قد لا يستطيعون فى وقت من الأوقات أن يسيطروا على ملك هذا العالم وأرزاقه وكنوزه ولذلك فهم ينصحونهم أن لا ييأسوا ، بل عليهم أن يكافحوا بكل السبل فى سبيل الوصول إلى أغراضهم وقالوا ونصوا صراحة على أن الرشوة والخمر والنساء وسائل مشروعة ، بل واجبة فى سبيل الوصول إلى هذه الأغراض . ثم ينصحون بالتغلغل فى كيان الدول والسيطرة على موارد المال فيها لأنهم بهذه الطريقة يسيطرون على اقتصاديات هذه الدول إلى أن تأتى الساعة المناسبة فينقضوا عليها أو ينفذوا ما يريدون فيها من سيطرة .

أرأيت أشنع من هذه الخطط المدمرة التى تصطبغ بصبغة الدين والتعصب . إننا نستطيع اليوم أن نلمس هذه الخطط التى تنفذ بدقة منذ مئات السنين ، بل نلمس ثمارها فى كل أنحاء العالم على شكل جاليات ومؤسسات صهيونية تؤثر وتتغلغل فى كيان كل دولة يعيش فيها صهيونى واحد من غير استثناء . . لعل هذا يلقى ضوءاً على المعركة التى تنشب اليوم بين الحق والباطل ، وبين شريعة السماء وشرائع الغاب . »

وبرغم أن هذا الكلام كتبه السادات منذ حوالى عشرين عاماً ، إلا أنه يبدو وكأنه كتب بالأمس أو اليوم ، فالخط الفكرى الذى يكمن وراء التحليل التاريخى يستند إلى وعى عميق بحركة التاريخ والتفاعلات الداخلة فى

نطاقها. وهذه التفاعلات لا تتغير كثيراً طالما أن العوامل المساعدة والمؤدية إليها مازالت موجودة فى المنطقة وقادرة على التأثير المباشر أوغير المباشر. ولذلك يختم السادات بحثه القيم بقوله إن نوايا إسرائيل قد أيقظت العرب على حقيقة المأساة الدامية ، فقد أدركوا أن السلام فى الشرق الأوسط قد مزق وسيمزق على الدوام طالما أن حلم الصهيونية الضخم لم يتحقق بعد ، وسيظل السلام ممزقاً لأن هذا الحلم لن يتحقق أبدًا . هذه هى الحتمية التاريخية التى لا مفر منها ، وعلى إسرائيل أن تدرك أن حلمها لن يتحقق ، وإذا أصرت على تحقيقه بالعدوان والعنف والدماء فسيتحول إلى كابوس طويل سيجثم على صدرها ولن تفيق منه فالسير فى تيار مضاد لحركة التاريخ لن يؤدى إلى فرض الكيان قسرًا بل سيكون السبب الرئيسى فى تدمير هذا الكيان . وبخاصة أننا ندرك جيداً الأسلوب الذى نشأ به هذا الكيان المفتعل . ففى لقائه مع أساتذة الجامعات فى ٨ يناير ١٩٧١ يحكى لهم السادات كيف بدأت الحركة الصهيونية فى القرن الماضى بعقد المؤتمرات وتحديد الأهداف . وكان الهدف الرئيسى هو إنشاء إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات . والسادات فى سرده لهذا التاريخ يستند إلى أقوال الرسميين والمفكرين فى إسرائيل نفسها حتى يكون تحليله علميًّا مجرداً مثلما فعل فى تحليله لموقف اليهود من موسى عليه السلام عندما استشهد بأقوال التوراة نفسها ، فهذا هو المنطق العلمى الذى لا يمكن أن يدحضه مكابر .

قبل خطاب السادات فى أساتذة الجامعات ، كان آخر تصريح لوزير المواصلات الإسرائيلى السابق وايزمان أنه لا يعرف أن هناك لإسرائيل حدوداً غير تلك التى حددها تيودور هرتزل صاحب أول مؤتمر إسرائيلى ، والذى حدد إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات . وهذا يدل على أن المخطط لم يتغير من هرتزل إلى وايزمان ، فقد خططوا وبدأوا فى العمل بمنتهى الجد والمثابرة ، كما تحكى كتب التاريخ ، وكما كتبوا هم أنفسهم . فقد بدأت الحركة الصهيونية تلاحق القوى الكبرى فى العالم منذ القرن الماضى لكى تتحالف معها . أول ما ذهب هرتزل ذهب إلى سلطان تركيا ثم ظهر أن القوة فى أوربا تحولت إلى ألمانيا فذهب إلى قيصر ألمانيا ، ثم هزمت ألمانيا ، وانتقل الميدان إلى إلى بريطانيا ، فذهب هرتزل إلى بريطانيا وانتقلت الحركة الصهيونية بعده إلى بريطانيا ، ثم فقدت بريطانيا قوتها ، وأصبح ميزان القوى محصوراً بعد الحرب الثانية بين أمريكا وروسيا فنقلت الحركة الصهيونية إلى الولايات المتحدة .

فى كل هذه المراحل أرادت إسرائيل أن تجعل من نفسها عميلا لأية قوة كبرى تظهر فى هذا العالم حتى تستطيع أن تحقق عن طريق هذه القوة الكبرى حلمها فى إنشاء إسرائيل الكبرى . ويستمر السادات فى تقديم هذا السرد التحليلى المستفيض ليوضح لنا أنه بدون الوعى بالتاريخ لا يمكننا أن نعرف ماذا تكون الخطوة التالية ، وبخاصة أن إسرائيل تعتمد اعتمادًا أساسيًّا على تزييف التاريخ حتى تلون أطماعها التوسعية وأهدافها العدوانية بلون الشرعية . وعلينا باستمرار أن نرفع درجة وعينا بالتاريخ حتى نكشف للعالم المدى الذى تبلغه إسرائيل فى تزييف حقائق التاريخ التى لا تقبل الجدل أو النقاش . وهذه هى الدلالة الكبرى الكامنة وراء السادس من أكتوبر العظيم الذى أعاد مجرى التاريخ إلى وضعه الطبيعى ، ومن واجبنا القومى الأول أن نحافظ على هذا المجرى من الانحراف أو التشتت . وفى هذا المعنى يقول السادات فى المجلس الوطنى الفلسطينى فى ٦ إبريل ١٩٧٢ :

« إن فلسطين لن تضيع ، ثم إن الحقوق السياسية الراهنة للشعب الفلسطينى لن تكون موضع مساومة . إن الحق التاريخى لشعب فلسطين يكمن فى شرعية أن يكون لهذا الشعب حق تقرير مصيره ، والحقوق السياسية الراهنة تكمن فى ضرورة إزالة العدوان من الأرض التى احتلها العدو بعد سنة ١٩٦٧ فى الضفة الغربية ، والقدس وغزة » .

والوعى بالتاريخ لا يلتزم بحدود العقيدة السلبية التى تقنع بدور المتفرج ، لأنه لا يتحقق إلا بالعمل والإيمان والجهد والعرق . ولذلك يؤكد السادات فى خطابه فى عيد العمال فى أول مايو ١٩٧٢ أن حصولنا على استقلالنا

لم يأت سهلا مع عجلة التاريخ ، أى ضمن موجة عارمة زحفت على حين كان الاستعمار بأنواعه يتراجع ، وإنما نحن الذين صنعنا التاريخ وذلك بحصولنا على استقلالنا فى أصعب الظروف ، بالعرق دائماً وبالدم عند الاقتضاء . لم يكن استقلالنا موجة من موجات التاريخ ولا كان مساومة من مساومات السوق العالمية ، بل كان طريقاً شاقًّا عنيفاً حفرنا فيه الصخر بأظافرنا ، ورسمنا الطريق بالعرق وبالدم . فإن وعينا العميق بحركة التاريخ دفعنا إلى القيام والتصدى للاستعمار والقهر فى عز جبروته ، وذلك هو الدور الطليعى لشعب له دور حضارى خاص حمله التاريخ أمانته ، وكان عليه أن يتحمل مسئولية دفع تيار التاريخ وليس مجرد التعلق بهذا التيار والقيام بهذه المهمة التاريخية يحتم الأصالة الفكرية ، والثقة فى النفس ، ووضوح الرؤية ، ومواجهة الحقائق مهما كانت مريرة ثم تكييفها وتوجيهها مرة أخرى لصالح المستقبل القومى والتعمير الحضارى . ولذلك يقول السادات فى ٥ يونيو ١٩٧٢ فى حديثه إلى المحاربين القدماء :

« لقد كان هذا اليوم — قبل خمس سنوات — يوم هزيمة لنا . ونحن نعترف بذلك ولا نخفى رءوسنا كالنعام فى الرمال .

وكان هذا اليوم — قبل خمس سنوات — يوم محنة من أقسى ما واجهنا ونحن نعترف بذلك لا نكذب فيه على أنفسنا أو على الناس ، ولكن تاريخ الأمم العظيمة لا يتجمد عند لحظة معينة من اللحظات ، ولا يتوقف مساره أمام صدمة من الصدمات . فالأمم العظيمة تستوعب مقاديرها وتتحمل بالصبر أى خطر داهم ثم ترتفع بالثقة فى الله وفى النفس وفى المبدأ فوق أى خطر داهم . وتبدأ من جديد نضالها وتحشد من جديد صفوفها وتبنى من جديد قدراتها وتعود من جديد تحمل راياتها وتقاتل . »

وهذه الأخطار التى كانت تدهم مسيرتنا الحضارية ، سببها أننا اخترنا الطريق الثورى للتقدم الحضارى كحتمية تاريخية ، وأننا استلهمنا حركة التاريخ بفكر مفتوح ولكن غير منحاز . ولذلك فإن معركتنا الحضارية ليست قاصرة على معركتنا العسكرية على قناة السويس ، فالعدو لا يريد الأرض فقط ، إنما يريد أن يملك مصيرنا وأقدارنا للأجيال المقبلة ، ولذلك فالصراع العسكرى المتخصص جزء من الصراع الحضارى الشامل . وهذا الصراع الشامل قد يطول ولكننا وضعنا هذا فى الاعتبار ، فإذا كان الصراع العسكرى يمكن حسمه فى أيام أو أسابيع فالصراع الحضارى قد يستمر لأجيال عديدة . ولكننا واثقون من النصر فى نهاية الأمر . وفى هذا يقول السادات فى خطابه فى مجلس الشعب فى ١١ نوفمبر ١٩٧١ :

« إننا وضعنا أنفسنا بالفهم والوعى لمجرى التطور الإنسانى العام ، فى القوى المعادية للاستعمار والاستغلال . فآمال الشعوب لا تخدمها قوى السيطرة والإمبريالية ، التى هى بقايا عصر آن له أن يزول وينقضى ، قوى تتعارض مع كل المبادئ والقيم التى يحلم بها ويناضل من أجلها إنسان الثلث الثالث من القرن العشرين . حيث سقطت الفواصل بين الشعوب وضاعت المسافات ، ويتحتم اليوم أن تضيق فيه الفجوة بين التخلف والتقدم ، وإلا وجدنا أنفسنا أمام صراع من أخطر وأعتى ما واجهته البشرية ، لأنه سوف يكون صراعًا طبقيًّا ودمويًّا ، بين التقدم والتخلف وبين الغنى والفقير على اتساع الكرة الأرضية كلها . »

ويتفق السادات مع أرنولد توينبى فى أن الوعى بالتاريخ يحتم وجود المنهج العلمى سواء فى قبول التحدى أو فى الرد عليه . ففى مجرى التطور التاريخى للمجتمع نجده يواجه ، باستمرار ، صعاباً تتهدد كيانه ووجوده ، ويتوقف مستقبل المجتمع كله على الأسلوب المناسب للمواجهة الفعالة ، فإذا كان الرد على التحدى فى الوقت والمكان المناسبين ، فإن حياة ذلك المجتمع سوف تستمر مزدهرة بفضل القوة الداخلية والخارجية المستمدة من نجاحه . أما إذا لم يستطع المجتمع مواجهة التحدى بنجاح وفاعلية ، فإنه يفقد كثيراً من مقوماته الأصلية ، من هيبته الخارجية ، ومن رفاهيته المادية

وربما بلغت خسارته حداً يشكل النهاية الفعلية لذلك المجتمع . ومن هنا كان قول السادات فى خطابه فى ٢٣ يوليو ١٩٧٤ :

« كانت مرحلة بالغة الحرج والخطورة فعلا ومن نواح متعددة . فمن جهة كانت هناك ثمار نضال وتجربة عمرها ثمانية عشر عاماً أرسينا خلالها الأساس الصلب الذى يمكن أن ننطلق منه إلى مراحل جديدة ومع ذلك فقد كانت هذه المكاسب كلها عرضة للضياع التام لوأن النكسة استمرت ووصلت إلى نهايتها وبالتالى ينفتح الباب لينقض المتربصون على هذه المكاسب لتدميرها من الأساس . »

من هنا كانت خطورة وحساسية ودقة وصعوبة المرحلة التى تولى فيها السادات مسئولية القيادة والحكم ، حتى حق المحاولة والخطأ لم يكن متاحاً له كأى زعيم يتمتع بهذا الحق على وجه هذه الأرض . كان الجو المصرى والعربى والعالمى زاخراً بكل أنواع الإحباط والتشتت والركود بالنسبة لقرار المعركة . كان هناك المتربصون بالثورة فى انتظار الانقضاض عليها ، وكان هناك الاحتلال الإسرائيلى بكل مضاعفاته النفسية والمادية ، وكانت هناك حالة اللاحرب واللاسلم كنتيجة للوفاق الدولى ، وكان هناك الركود العربى الشامل الذى ساعد على تجميد المشكلة ولم يكن ركوداً سالباً بل كان موجباً بفعل الشكوك المتبادلة والمزايدات والمناقصات . ولم يظل كل عامل منعزلاً عن الآخر بل تشابكت العوامل وتداخلت بحيث جعلت الظرف الذى تولى فيه السادات المسئولية من أخطر الظروف وأحرجها وأكثرها تعقيداً . حتى إن مهمته فى بعض الأحيان كان تبدووكأنها إصلاح ما أفسده الدهر . لم تترك له هذه المرحلة التاريخية الكابوسية أية فرصة ليستريح أو يستجم من عناء التفكير والإجهاد والإرهاق المستمر . حتى حق النوم والاسترخاء الذى يتمتع به أصغر مواطن فى الدولة لم يكن متاحاً له وبخاصة عندما تتعقد الأمور أكثر من تعقيدها الراهن . كان الكل ينامون ويظل هو ساهراً يعيد تقييم حساباته مع تطورات المرحلة التاريخية اللاهثة . ولذلك يؤكد فى خطابه فى العيد الثانى والعشرين لثورة يوليو فى ٢٣ يوليو ١٩٧٤ :

« كانت مجرد حركة واحدة خاطئة أو خطوة واحدة متسرعة أو إذعان للحظة واحدة لضغط داخلى أو خارجى . كان أى شىء من هذا كفيلا بأن يضيع معه كل شىء .

ومرة أخرى أقول كان اعتمادى فى مواجهة هذه الغابة الكثيفة من الظروف المعقدة المتشابكة وفى الخروج من هذا التيه الشاسع . كان اعتمادى على ثقتى بالله سبحانه وتعالى وبعدالة قضيتنا وبالوطنية المصرية المستعدة دائماً للتحمل والعطاء . »

وكان الوعى العميق والحاد بأبعاد المرحلة التاريخية ضمن العوامل الجوهرية التى ساعدت على تأكيد الثقة بالقضية العادلة وبالوطنية المصرية ، فلم تكن ثقة عاطفية انفعالية بقدر ما كانت ثقة عقلانية منطقية وبخاصة أن التاريخ لا يرحم وليس على استعداد للرجوع قيد أنملة إلى الوراء ، ولذلك فإن حسابات العقل والمنطق تستطيع أن تضع الضوابط والمحاذير بحيث تجعل الأمور تجرى وتتكيف طبقاً للصالح القومى . وفى هذا المنهج العلمى يتفق السادات مع أرنولد توينبى حول خطأ الفكرة التى تقول إن « المقدر سلفاً » فى التاريخ لابد وأن يحدث مهما بذل القادة من جهد لتفادى وقوعه ، فهذه نظرية غيبية لا تتفق مع منطق الوعى بالتاريخ . ولذلك يقول توينبى فى كتابه « الحضارة فى الميزان » ص ١٤٨ :

« إذا رأت حضارة معينة أن ظروفها قد بدأت فى التشابه مع ظروف حضارة سابقة ، وكانت هذه الظروف سبباً فى انهيارها ، وآمنت بأن الانهيار هو مصيرها هى الأخرى فقد ارتكبت فى حق نفسها جريمة الانتحار الجماعى . ومع هذا فإنه ليس مقدراً علينا أن نجعل التاريخ يعيد نفسه ، والطريق مفتوح أمامنا لكى نبذل جهوداً خاصة لنوجه

التاريخ وجهة جديدة لم يسبق لها مثيل . ونحن ، كبشر ، نتمتع بحرية الاختيار ، ولا يمكننا أن نطرح عنا المسئولية لنلقيها على الله أو على الطبيعة ، وإنما يجب علينا أن نتحملها بأنفسنا . إننا لسنا تحت رحمة القدر الذى لا يرحم . »

وهذا ما فعله السادات بالضبط ، لقد أخذ قدره فى يديه ، وحمل المسئولية على كتفيه ، ووضع ثقته فى الله سبحانه وتعالى ، واستلهم إيمانه بالوطنية المصرية ، واعتمد على وعيه العميق بأبعاد المرحلة التاريخية الراهنة ، وأثبت لشعبه أنه لا توجد فى التاريخ كارثة لا يمكن إصلاحها أو تفاديها . ولكن إذا تقاعس العامل البشرى عن إصلاحها وتفاديها فعليه أن يتحمل نتيجة قصوره ومسئولية تهربه . والفائدة العملية من دروس الماضى أنها تساعدنا على تفادى السلبيات وتدعيم الإيجابيات ، والتفكير الضيق أو المغرض هو الذى يجعل من دروس الماضى تثبيطاً للهمم وبخاصة فى حالة تشابه الظروف الراهنة مع السابقة . ولو كان الأمر هكذا بالنسبة للفراعنة لما نشأت الحضارة المصرية القديمة الباهرة على الإطلاق ولما استعادت مجدها بعد أول اضمحلال لها ، إذ يحدثنا التاريخ أن مصر عرفت ، على الأقل ، ثلاث موجات عالية من الحضارة جاءت بعد ثلاث فترات من الجزر ، وسادت فترات المد العالى مدة تزيد على عشرين قرناً ، وكانت فترة حافلة بالأمجاد الحضارية برغم النكسات التى تخللتها .

لقد بلغت مصر مثلا لأول مرة فى حضارتها ذروة المجد فى عهد الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة ، وكان ذلك بين عامى ٢٧٨٠ و ٢٤٢٠ قبل الميلاد . وكان ذلك نتيجة لفترة طويلة من الوحدة والسلام الداخلى الذى استمر منذ عام ٣٢٠٠ ق . م تقريباً . وخلال القرون الأربعة التالية شهد وادى النيل ضعفاً فى سلطة الفراعنة تمثل فى المنافسة بين مراكز القوى والأعمال الحربية المحلية ، وهجوم الأجناس الأجنبية ذات الأطماع التوسعية والعدوانية ، والتدهور الملحوظ فى الإنجازات الاقتصادية والثقافية والإدارية . ويقول شبرد ب . كلوف فى كتابه « ارتفاع وسقوط الحضارة » ، الذى صدر عام ١٩٥١ ، أنه فى حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . أعاد أمراء طيبة تشكيل حكومة حسنة الإدارة فى مصر كلها ، وهو ما نطلق عليه المملكة الوسطى التى بقيت حتى عام ١٧٨٨ ق . م . وأوجدت حضارة مصرية ثانية ، مزدهرة ، تبدو فى جمال مقابرها ، ومعمار معابدها ، وهندسة بيوتها ، وروعة رسومها ، ورقى أدبها ، ورقة نحتها ، وبعد ذلك أتاح الاضمحلال الداخلى ، والتفسخ السياسى ، والتدهور الاقتصادى ، والتفكك الاجتماعى ، الفرصة لقبائل الهكسوس الأجنبية الدخيلة لتقيم حكمها على مصر بلا قتال أو حرب حقيقية . وبهذا بدأ عصر مظلم ثان . ثم نجح المصريون فى طرد الهكسوس واستعادة مجدهم مرة أخرى فى الإمبراطورية الجديدة تحت حكم الأسرة الثامنة عشرة حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . واستمرت حتى عام ١٢٥٠ ق . م . وترجع المعابد العظيمة كمعابد الأقصر والكرنك ومقبرة توت عنخ آمون إلى الفترة الثالثة من ازدهار الحضارة المصرية . وبعد عصر طويل متجدد من الظلام استطاعت مصر أن تجمع شملها فى فترة الانتعاش التى شهدها القرن السابع قبل الميلاد .

هكذا كانت مصر دائماً ، قادرة على التجدد والإحياء والازدهار والعطاء مهما طالت عصور الظلام التى تمر بها . فهذا هو المعنى الكامن وراء روح مصر التى نبعت من الأزل ، ثم واكبت التاريخ فى طريقه إلى الأبد الذى لم يأت بعد . ولا يعقل أن تنطفئ شعلة البعث المتجددة على مدار آلاف السنين على يد إسرائيل ، فحتمية التاريخ تؤكد أن هذا من رابع المستحيلات ، فالمستقبل لا ينشأ فى عزلة عن الماضى كما يؤكد السادات فى بيانه إلى الأمة فى ٢٨ ديسمبر ١٩٧٢ :

« إن تاريخنا كله يؤكد للجميع أننا عشنا على مر العصور شعباً واحداً متجانساً متماسكاً ، وأهمية تجربة التاريخ هنا أن المستقبل لا ينشأ فى عزلة عن الماضى ، ومن ثم فإن هذه الأمة التى عاشت الحياة بحلوها ومرها ، بخطرها وأمنها ، أمة واحدة سوف تعيش المستقبل بكل ما يحمله لها وبكل ما تحمله له . . أمة واحدة . »

وقد سجل التاريخ المصرى والعربى أن ازدهار هذه الأمة كان مرتبطاً دائماً بوحدتها سواء على المستوى الوطنى أو المستوى القومى ومن هنا كان إصرار السادات على ضرورة وحدة الصف العربى برغم الاختلافات السياسية والعقائدية التى قد تنشأ بين الأشقاء العرب . يقول فى بيانه إلى الأمة فى ٣٠ أغسطس ١٩٧١ :

« يا إخوانى ما لم نكون احنا العرب ملمومين على بعض ، الغزاة اللى جايين من بره بيقدروا بيجويا خدوا منطقتنا ويذلونا ، يوم ما بتجتمع إرادتنا ويوم ما تتشكل منا إرادة واحدة وقوة واحدة بنستطيع ان احنا نقهر أى غزو عبر التاريخ . فى التتار حصلت ، فى غزوة الصليبيين حصلت ، فى غزوة الصليبيين أقاموا مستعمرات على شواطئ فلسطين زى اللى مقامة النهاردة وقعدت ثمانين سنة . ثمانين سنة لكن قام صلاح الدين جمع مصر وسوريا والإرادة العربية كلها أمكن أن احنا نحرر الإرادة العربية ونخلص من الغزوة الصليبية . النهاردة احنا بنواجه غزوة صهيونية شرسة . شرسة أكثر من الغزوة الصليبية . لأن وراها الصهيونية العالمية اللى بتملك مفاتيح المال والدعاية والتليفزيون والبروباجندا والصحافة فى العالم كله وأيضاً ورا هذه الغزوة مش الصهيونية العالمية بس . الولايات المتحدة الأمريكية . يوم ما تجتمع إرادتنا . التاريخ بيقول كده . حكم التاريخ . يوم ما تجتمع إرادتنا يبقى ماشيين فى الطريق الصحيح نحو حريتنا وتحرير أرضنا . »

ولذلك كان السادات من أوائل الذين بذروا بذورة الوحدة العربية . وكان وعيه العميق بالتاريخ يؤكد له دائماً حتمية هذه الوحدة . فى ١٦ يوليو ١٩٥٦ كتب مقالة بعنوان « عدنا يا صلاح الدين » على صفحات « الجمهورية » يتعرض فيها للأسباب التاريخية التى أحالت الأمة العربية إلى أشلاء فيقول :

« كان ذلك عقب الحرب العالمية الأولى . . واجتمع المنتصرون حول مائدة القرصان المشهورة وبدأوا يوزعون الأسلاب . ومن قبل هذا الاجتماع كانت الأمم الصغيرة قد صدقت مبادئ الرئيس ويلسون رئيس الولايات المتحدة التى نادى بها وقتذاك والتى تنادى بالحرية والاستقلال وتقرير المصير . . وعلى مائدة القرصان خفت صوت الرئيس ويلسون رويدا رويداً إلى أن تلاشى . . وفوجئت الأمم الصغيرة بجيوش المنتصرين تقتحم عليها أرضها باسم الانتداب تارة وتارة أخرى باسم مناطق النفوذ التى اتفق القراصنة على اقتسامها فى أنحاء كثيرة من العالم . . وكان نصيب الأمة العربية أن مزقت أشلاء . »

ثم يربط السادات هذا الماضى المظلم بالحاضر المشرق الذى صمم العرب على صنعه فيختتم مقالته بقوله :

« إن اتحاد مصر وسوريا حقيقة تاريخية يحتمها التطور ، فالأصل هو أن الشعبين شعب واحد امتزجت عروقه وواجه المحن والانتصارات جنباً إلى جنب . . فالدارس يرى عبر التاريخ أن آمال الشعبين كانت دائماً واحدة ، وأن المعارك التى خاضها الشعبان كانت واحدة ، وأن أعداء سوريا كانوا دائماً أعداء مصر وأن لغة الشعبين واحدة وحضارة الشعبين مقوماتها واحدة وتاريخ الشعبين واحد ومرتبط بالدم والقربى والدين والأصل . . فاتحاد سوريا ومصر إذن علمياً وتاريخياً وعملياً ونظرياً حقيقة لا بد منها » .

وهذه الحتمية التاريخية هى التى جعلت السادات يصرح لأرنودى بورجراف مدير تحرير مجلة « نيوزويك » الأمريكية فى ٤ أبريل ١٩٧٣ « أن العرب لن يهزموا هزيمة شاملة . إن بوسعنا أن نتحمل مزيداً من الهزائم كما فى عام ١٩٦٧ وسوف يضطر الغازى إلى الاستسلام آخر الأمر ، كما فعل الغزاة جميعاً عبر التاريخ . » فلاشك أن الشخصية القومية المصرية تملك من قوة الدفع التاريخى ما يمكنها من السيطرة على مقدراتها عن طريق إبراز القائد الذى يقودها قيادة حكيمة وواعية تؤدى فى النهاية إلى النجاح والتقدم والتعمير الحضارى . ومجرد ظهور السادات وتحمله لكل أعباء المسئولية الجسيمة فى هذه المرحلة التاريخية الحرجة ، لهو أكبر دليل على أن الشعب المصرى العريق لم يفقد

حيويته وقدرته على التجدد والبعث على مر آلاف السنين . وفى هذا المعنى يقول سعيد عثمان فى كتابه « أحاديث حول الفكر الذى انتصر » ص ١٩ :

« كان أنور السادات من الثقة فى متانة حق أمته ، والإيمان بحق شعبه ، وكان يقينه ثابتاً فى حتمية التاريخ وضرورة انتصار قضية الحرية على أعداء الحرية . . بحيث قبل التحدى وبدأ ثورته التصحيحية الكبرى التى وقف فيها إلى جانب الشعب يحطم معه كل القيود التى تكبل انطلاقه لتحرير أرضه ومواجهة الموقف البالغ الخطورة ، الناجم عن طبيعة المشكلة وطبيعة ظروفها المحلية والدولية ، حيث تتداخل النوايا العدوانية التوسعية الإسرائيلية مع الأهداف الإمبريالية فى المنطقة ، ولا يكون أمام شعب مصر إلا أن يواجه مصيره ومصير أجياله المقبلة ، باستعداد جاد ودائب لتحرير أرضه ، ثم بالتقدم إلى المعركة بجدية وحساب واع ، وهذا هو ما تفعله مصر الآن . واثقة أنها بذلك لابد أن تنتصر . .

إن عام ١٩٧١ الذى شهد عودة الروح إلى مصر . هو العام الحاسم فى سنوات ما بعد النكسة ، وسيظل كذلك لآجال طويلة . فى هذا العام أمكن اتخاذ قرار التحرير فى إطار جهد فائق سياسى وعسكرى لأمة لم يعد هناك قيد على تحركها تحت قيادة رشيدة تؤمن بأنها عندما تقود شعبها لا بد أن تقوده إلى النصر وإلى مستقبل أفضل » .

وفى مجتمع يشهد تحولات تاريخية حاسمة ومعقدة مثل تلك يصبح الوعى بالتاريخ ضرورة وحتمية لا مناص منها ، ولا يجوز أن تنخفض درجة هذا الوعى حتى ولو احتدمت الأحداث باشتعال آتون الحرب ، بل على العكس يجب أن ترتفع هذه الدرجة حتى ندرك المعنى الكامن وراء كل حركة كبيرة كانت أو صغيرة . فى السنين التى أعقبت هزيمة يونيو ١٩٦٧ كانت فوضى الأحداث الواقعة وتنافرها وتأبيها فى بعض الأحيان على التفسير المعقول تثير اليأس والتشتت والتفكك فى أرجاء العالم العربى ، منها على سبيل المثال الأحداث الدامية التى وقعت فى سبتمبر ١٩٧٠ بين الجيش الأردنى والمقاومة الفلسطينية . ولكن فكر السادات كان دائم البحث عن الصلة بين الأحداث التى تبدو فى الظاهر متعارضة لا تنم على وجود غاية مفهومة أو خطة مقدرة مرسومة ، لم يكن فى استطاعة السادات – بكل وعيه بالتاريخ – أن يسلم بأن الحركة التاريخية خالية من المعنى ، وأنها مجرد أحداث متتابعة بغير غاية ولا هدف ، لأن ذلك معناه أن الكون شىء غير مفهوم ، وأن الوجود قد يكون عبثاً لا طائل تحته ، ولم يكن هذا الاتجاه يرضى مفكراً من طراز السادات . فالتاريخ الإنسانى هو تاريخ الفكر ، فالمؤرخ ذو الوعى العميق لا يتناول الحدث فى حقيقته المجردة ، ولكنه يتمثل الحوافز والأفكار التى تدفعه وتحفزه ، فالوجود الإنسانى فى جوهره وجود مفكر .

فالواقع التاريخى عند السادات ليس هو المجرد الجامد وإنما هو حركة حية دائبة متصلة ومستمرة بفضل التأصيل الفكرى الذى يربط الماضى بالحاضر بالمستقبل فى وحدة عضوية لا تقبل الانفصام . ولذلك لابد أن تبرز وقائع التاريخ العوامل الجوهرية التى تنم عن المراحل التى يقطعها الفكر ويبدو الاتساق بينهما متعادلا . وكما يقول جان بول سارتر إنه عندما يمنح الإنسان للتاريخ غاية ، فإن كل شىء فى هذه الحياة يأخذ معناه . وفى هذا المعنى كتب سارتر رسالة نشرها فى مجلة « العصور الحديثة » عام ١٩٥٢ رداً على ألبير كامى يقول فيها :

« إن حريتنا اليوم ليست سوى اختيارنا الحر أن نناضل لنصبح أحراراً . نحن فى هذا العصر فى قفص حديدى ، فيجب أن نتحد لنحطم القضبان ولكى نكتسب الحق فى التاثير على الناس الذين يناضلون يجب اولا ان نشارك فى معركتهم . والشخص الذى يرى النزاعات الحاضرة على أنها مجرد صراع غبى بين وحشين شائهين منحطين ، هو رجل عزل نفسه عن حقيقة الصراع البشرى والفكر الذى يدفعه من الخلف . فى المجتمع الذى ينهشه التمزق من الداخل لا يستطيع الإنسان أن يتبنى غايات المجتمع ولا أن يرفضها جميعاً . لكن بمجرد أن يختار منها ، فإن كل شىء

يتخـذ معناه فى الحال . بذلك يعرف لماذا يقاوم الأعداء ولماذا يحارب . ذلك أن الوعى بالتاريخ لا يتوفر إلا فى العمل التاريخى نفسه . فعندما تسأل : هل للتاريخ معنى ؟ هل له غاية ؟ فأنا أرى أن سؤالك نفسه ليس له معنى . فالتاريخ إذا انفصل عن الإنسان الذى يصنعه لا يكون سوى مفهوم مجرد لا حياة فيه ، بحيث لا يمكننا أن نقول إن له غاية أو ليس له غاية . فالقضية ليست قضية أن نعرف غايته ، بل أن نمنحه غاية » .

ومن الواضح أن السادس من أكتوبر العظيم قد منح التاريخ العربى الحديث معناه وغايته يقول السادات فى خطابه التاريخى فى ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، بعد عشرة أيام فقط من اندلاع الحرب المقدسة :

« عاهدت الله وعاهدتكم على أن نثبت للعالم أن نكسة ١٩٦٧ كانت استثناء فى تاريخنا وليست قاعدة وقد كنت فى هذا أصدر عن إيمان بالتاريخ يستوعب ٧٠٠٠ سنة من الحضارة ويستشرف آفاقا أعلم علم اليقين نضال شعبنا وأمتنا ليعلو عنها وللوصول إليها وتأكيد قيمتها وأحلامها العظمى ، عاهدت الله وعاهدتكم على أن جيلنا لن يسلم أعلامه إلى جيل سوف يجىء بعده منكسة أو ذليلة ، وإنما سوف نسلم أعلامنا مرتفعة هاماتها عزيزة صواريها . وقد تكون مخضبة بالدماء ، ولكننا ظللنا نحتفظ برءوسنا عالية فى السماء وقت أن كانت جباهنا تنزف الدم والألم والمرارة . »

والمعنى الذى منحه السادس من أكتوبر للتاريخ العربى من العمق والخصوبة والغزارة بحيث يجب ألا يقتصر استيعابنا له على مجرد الانفعال أو التباهى أو التفاخر ، فالتاريخ الحضارى للإنسانية كلها سوف يتوقف طويلا بالفحص والدرس والتحليل أمام هذا اليوم الفاصل بين التزييف التاريخى الذى مارسته إسرائيل على مسمع ومرأى من العالم كله ، وبين الحق العربى الذى سطع ظهر السادس من أكتوبر العظيم ولم يستطع أن يتجاهله أى مكابر، حتى العدو نفسه ، ولذلك فإن ما يطلبه السادات من أمته أن تهجر نغمة التفاخر الحماسية وأن تبدأ فى الاعتماد على المنهج العلمى ، والتفسير الواقعى ، والتحليل الواعى ، والتعليل المنطقى . حتى أثناء المعركة ، والأعصاب مشدودة ، والنفوس متوترة ، والعيون ساهرة ، يطلب السادات فى نفس الخطاب من الشعب أن يرتفع بوعيه بالمرحلة التاريخية إلى مستوى الإنجازات الباهرة التى حققها الجيش :

« لست أظنكم تتوقعون منى أن أقف أمامكم لكى نتافخر معًا ونتباهى بما حققناه فى أحد عشر يوماً من أهم وأخطر ، بل أعظم وأمجد أيام تاريخنا ، وربما جاء يوم نجلس فيه معاً لا لكى نتفاخر ونتباهى ، ولكن لكى نتذكر وندرس ونعلم أولادنا وأحفادنا جيلا بعد جيل ، قصة الكفاح ومشاقه ، ومرارة الهزيمة وآلامها ، وحلاوة النصر وآماله . »

ويعتقد السادات أن أهمية الوعى بالتاريخ فى زمن النصر لا تقل بأية حال من الأحوال عنها فى زمن الهزيمة . فقبل السادس من أكتوبر ومنذ توليه المسئولية كان يصر دائماً على تذكير الأمة بدروس الماضى ، سواء كان هذا الماضى وطنيًّا أو عالميًّا . وفى هذا لا يتفق السادات مع فيلسوف مثل هيجل الذى يقول إن التجربة والتاريخ يعلماننا أنه لا الحكومات ولا الأمم قد تعلمت شيئاً من التاريخ ، فكل عصر له ظروفه الخاصة التى يتبع فى علاجها اعتبارات خاصة به ، والمبادئ العامة لا تفيد كثيراً حينما يشتد ضغط الأحداث العظيمة ، ولا فائدة فى هذه الحالة من الرجوع إلى الظروف المشابهة فى الماضى . ولكن عندما ينادى السادات بالاستفادة من دروس الماضى فإنه لا يعنى بالطبع التطبيق الحرفى لما حدث فى الماضى ، بل يعنى الاسترشاد بالجزئيات التى تتمشى مع روح التجربة الراهنة وبخاصة فيما يفيد فى رفع الروح المعنوية . فمثلا لا يقصد السادات تطبيق التجربة السوفييتية عندما يقول أكثر من مرة سواء لوزرائه أو لشعبه « إننا عانينا هزيمة فى عام ١٩٦٧ ، ولكن الاتحاد السوفييتى واجه نفس الموقف عندما وصل الألمان إلى بعد ١٥ كيلو متراً من موسكو. كانوا هم أيضاً شعبًا متخلفاً فى ذلك الحين . ولكنهم أصبحوا دولة عظمى بعد ثلاثين

سنة . دعونا أيضاً نتخذ من هزيمتنا سبباً لبناء دولة جديدة . » ولذلك رفع السادات شعار التحرير مع التعمير ، فالهدف ليس مجرد بناء الدولة وتحرير الأرض فقط ، وإنما بناء المواطن ، بناء الإنسان ، بناء الإرادة والوعى بماضى أمتنا وحاضرها ومستقبلها ، باختصار بناء كل ما تحتاجه أجيالنا المقبلة حتى تعيش على مستوى العصر بين أمم العالم المتقدم .

ولم يقصد السادات أيضاً التطبيق الحرفى للتجربة البريطانية عندما تحدث عن عملية سنغافورة ، بل كان هدفه أن ينحى جانباً كل شىء من شأنه أن يشتت التركيز على المعركة ومتطلباتها . يتحدث تشرشل فى مذكراته عن عملية سنغافورة بقوله إنها أكبر هزيمة وعار فى جبين العسكرية البريطانية ، فقد صدرت الأوامر إلى الآلاف من الجنود والضباط بالتسليم بكامل أسلحتهم لليابانيين ، كان الدفاع عن سنغافورة معداً من البحر ، فحدث أن هجم اليابانيون من البر من شبه جزيرة الملايو . وطالب البعض فى بريطانيا بعمل تحقيق ولكن تشرشل رفض الفكرة نظراً لظروف المعركة التى تحتم تركيز كل المجهود والاهتمام على مواجهة العدو ، ولذلك يجب تأجيل هذه الأمور الداخلية والجانبية إلى ما بعد المعركة . وكانت النتيجة المباشرة لهذه السياسة هى صمود الشعب البريطانى برغم هزائم كل يوم فى البر والبحر والجو ، فقد وضع الشعب ثقته فى قيادته ، فزمن المعركة لا يحتمل معالجة المشكلات بالضغوط والجدل والمناقشات بينما العدو يقف على الأبواب . ولكى ترد القيادة ثقة الشعب فإنها يجب أن تعتمد على مصارحته فى كل مرحلة من المراحل فى الحدود التى يحتمها الأمن القومى حتى تظل الصلة عضوية بين القيادة والشعب . وهذه الصلة من أخطر أسلحة المعركة على الإطلاق لأنها تربط بين الجبهة الداخلية والجبهة المحاربة .

ولم يهدف السادات إلى تطبيق التجربة الأمريكية عندما رفض روزفلت التفاوض مع اليابان بعد هزيمة امريكا فى معركة بيرل هاربور فى ٧ ديسمبر ١٩٤١ ، ولكن كان رفض السادات التفاوض مع إسرائيل بينما مازال جزء من أراضينا تحت الاحتلال سببه أن هذا التفاوض لن يكون تفاوض الند للند ، ولكنه سيكون إملاء شروط المنتصر على المهزوم ، أى سيكون الاستسلام بعينه . ومن هنا كان شعار أن ما أخذ بالقوة لابد أن يسترد بالقوة . فمثلا لو أن روزفلت وافق على التفاوض مع اليابان ، برغم أنه لم تكن هناك أراض أمريكية محتلة فى ذلك الوقت ، فكان أول اتهام سيوجه إليه هو الاستسلام الكامل تحت ستار التفاوض المباشر ، وكان الأشرف لأمريكا أن تنسحب بالكامل من المحيط ولم يمض ٢٥ يوماً على معركة بيرل هاربور حتى تواجه العدو بطرق أخرى أكثر فاعلية . أما المفاوضات المباشرة فلا فائدة ترجى منها لأن نتيجتها معروفة مقدماً .

هنا تبدو القيمة العملية لوعى القائد بالتاريخ ، فهو الضوء الهادى الذى ينير له الطريق ويجنبه الكثير من العثرات والأخطار. وكل القادة العظام – بدون استثناء – وخاصة هؤلاء الذين تركوا بصماتهم واضحة فوق التاريخ القومى لأممهم ، نجدهم من عشاق دراسة التاريخ وتحليل الظواهر الكامنة خلفه . يقول محمد صبيح عن تشرشل مثلا فى كتابه « تشرشل » الذى صدر عام ١٩٤٤ ص ٤٣ :

« وتحت شمس الهند ، وفى الثكنات التى تقل فيها الأعمال ، بدأت تتفتح شهية تشرشل للقراءة والتعلم . وكان من أهم الكتب التى طالعها مؤلف « جيبون » الشهير عن قيام وسقوط الدولة الرومانية . وقد كان هذا الكتاب من أكبر هداة والده فى حياته السياسية ، وها هو ذا ابنه ينحو نفس النحو ، ويتخذ من تحليل سيرة هذه الإمبراطورية التى تداعت درساً تعيه ذاكرته ، يديم التأمل فيه . وإلى جانب تاريخ الرومان ، أخذ يقرأ جمهورية أفلاطون وسياسة أرسطو ، وسير بعض العظماء . ومال إلى الفلسفة ، وعلى الأخص فلسفة شوبنهور ، ثم إلى أمور الدين ومسائلها . . . »

ولقيمة الوعى بالتاريخ بالنسبة للقادة يؤكد ت . س . اليوت فى كتابه « ملاحظات حول تعريف الثقافة » ص ٧٣ أنه :

« من المفضل دائماً أن يكون تعليم التاريخ جزءا من تربية أولئك الذين يولدون فى الدرجات السياسية العليا من المجتمع ، أو تؤهلهم قدراتهم لدخولها ، وأن يكون تاريخ النظريات السياسية جزءًا من دراستهم التاريخية . وتمتاز دراسة التاريخ الإغريقى والنظريات السياسية الإغريقية تمهيداً لدراسة غيرهما من التاريخ والنظريات ، تمتاز تلك الدراسة بمرونتها ، فهى تتناول منطقة صغيرة من الأرض ، وتتناول الرجال أكثر من الكتل ، والعواطف الإنسانية للأفراد أكثر من تلك القوى اللاشخصية الضخمة التى هى من الوسائل الضرورية للتفكير فى مجتمعنا الحديث ، والتى تميل دراستها إلى أن تلقى فى الظل دراسة البشر أنفسهم . »

ولذلك كان منهج السادات فى معالجة التاريخ هو التحدث بأمثلة حية ملموسة بعيداً عن العموميات المطلقة والشعارات العامة ، فنراه يحدثنا عن رجال معاصرين من أمثال روزفلت وتشرشل وستالين ، وعن معارك محددة من أمثال بيرل هاربور وسنغافورة ونورماندى ودنكرك وستالينجراد ، حتى ينبض التاريخ بالحياة فى وجدان المستمع ويعرف جيداً الوسائل التى عالج بها كل من هؤلاء القادة تلك المواقف التاريخية المصيرية . وكانت نظرة السادات إلى هؤلاء القادة نظرة تمتاز بالموضوعية الكاملة برغم اختلافه بل كرهه لزعيم مثل تشرشل لأنه لم يتكلم باحترام عن مصر فى مذكراته . وهذه الموضوعية الكاملة هى التى نتمنى أن يعاد كتابة تاريخنا القومى بها لأن الكتب المتداولة بين يدى هذا الجيل تنطوى على مسخ يصل إلى حد التزييف والتشويه . والجيل الذى يشب على تاريخ غير صادق يصبح بدون شخصية قومية مميزة له . ولا شك فالتاريخ هو المرآة التى تنعكس عليها الشخصية القومية لأية أمة ، والصدق والأمانة والموضوعية والصراحة والديمقراطية والحرية هى الشروط التى يجب أن تتوافر فى هذه المرآة حتى يكون انعكاسها صفياً نقياً واضحاً متبلوراً .

ونظراً للارتباط العنصرى بين الوعى بالتاريخ والشخصية المصرية فى فلسفة التأصيل الفكرى عند السادات ، فقد آثرنا أن يكون الفصل التالى فى هذه الدراسة عن الشخصية المصرية كما يراها زعيمنا ومعلمنا ورائدنا الفكرى أنور السادات .

الفصل السابع

الشخصية المصرية

الشخصية المصرية من الشخصيات القومية التي تحتاج إلى مجلدات كاملة لدراستها ، فليس فى مقدور باحث بمفرده أن يقوم بهذه المهمة الجسيمة ، فهى مهمة فى حاجة إلى فريق كامل من العلماء فى مختلف أنواع المعرفة الإنسانية ، وأيضاً فى حاجة إلى معاهد أبحاث معدة بأحدث وسائل البحث العلمي . ونحن عندما نتعرض للشخصية المصرية فى هذا الفصل ، فسندرسها فقط من وجهة نظرة محددة : هى وجهة نظر السادات ، وبرغم أنها نظرة تتميز بالعمق والشمولية إلا أنها كفيلة بتقديم الضوابط والمحاذير التى تمنعنا من الدخول فى كهوف الشخصية المصرية التى تمتد عبر ٧٠٠٠ سنة من التاريخ الحضارى للبشرية . وبذلك لا نفقد العمود الفقرى الذى يربط هذا الفصل من أوله إلى آخره ولا نتجاوز الهيكل العام له .

ويتفق معظم علماء الاجتماع والأجناس والتاريخ والجغرافيا على أن المنطقة الجغرافية بمناخها وظروفها البيئية لابد أن تترك بصماتها واضحة على الشخصية القومية التى تنشأ فيها . وإذا طبقنا هذا المفهوم على الشخصية المصرية وجدنا أنها تنتمى إلى منطقة البحر المتوسط عند المدخل الشمالى لقارة أفريقيا . وهى منطقة تتميز بالاعتدال فى كل شىء . فمناخها ليس بحار الحرارة التى تؤدى إلى التراخى وفقدان القدرة على العمل الجاد المتواصل ، وليس ببارد البرودة التى تغطى كل شىء بالجليد بحيث لا يجد السكان مهرباً من هذا الجليد الجاثم إلا فى العمل المتواصل الذى لا يعرف الراحة . والمنطقة ليست معرضة للرياح والأعاصير أو للزلازل والبراكين بل كل شىء يسير فى مجراه الطبيعى دون توقع لأخطار تذكر . والنيل الخالد يسير فى يسر ونظام ورتابة يحمل الماء للزرع حيثما كان ، فلا خوف من قحط أو طوفان . والأرض سهول منبسطة فى كل مكان فلا توجد جبال أو تلال ، وعلى مدى البصر لا توجد مرتفعات أو منخفضات تكسر الهارمونية البديعة للبانوراما الخضراء .

ولذلك كانت الشخصية المصرية أقرب إلى الوداعة والألفة والبساطة والكرم والطمأنينة والتأمل والتأنى والهدوء والتعقل والحكمة ، منها إلى الاندفاع والتهور والعنف والقسوة والتطرف ، وحتى إذا لجأت إلى الثورة فإنها ثورتها غالباً ما تكون بيضاء لا أثر فيها للدماء المراقة أو الحرب الأهلية ، ومن هنا كان عنصر الاستمرار والاستقرار التى تميزت به الشخصية المصرية وساعدها على الاحتفاظ بخصائصها الأصلية والأصيلة على مدى سبعين قرناً من الزمان . فعلى الرغم من المحن والشدائد والغزوات التى تعرضت لها المنطقة منذ أيام الهكسوس وحتى الغزوة الصهيونية الأخيرة ، فإن الشخصية المصرية كانت قادرة على استيعاب حركة التاريخ بكل أبعادها ، واستطاعت احتواء أو لفظ كل عنصر دخيل . ولعل هذه الطاقة الروحية الجبارة الكامنة فى الشخصية المصرية كانت نتيجة للحضارة المبكرة التى نشأت على ضفاف النيل والتى انبثق منها فجر الضمير الإنسانى ودعوة التوحيد التى عرفها العالم لأول مرة فى عقيدة اخناتون ، وكذلك نبعت منها أول الإنجازات العلمية والأنشطة الفنية . ولذلك كان من الطبيعى أن يرفع السادات شعار العلم والإيمان على سبيل التأصيل الفكرى ، فقد طبقت مصر دائماً هذا الشعار واستطاعت أن تخرج به منتصرة ظافرة من أعتى الأزمات . وفى هذا المعنى يقول السادات فى خطابه إلى الأمة فى أول سبتمبر ١٩٧٢ :

« وشعب مصر . لقد أثبت أصالته وصموده ضد الأحداث مهما عظمت . وأن التاريخ ليشهد على صلابة

عود هذا الشعب وعلى قدرته على التطور والتغيير . إن الأزمات التى مر بها الشعب المصرى لخير تجربة له ليعبر هذه الأزمة القائمة . هذه الأزمة التى يريد العالم أن يشكك فى موقفنا منها وفيما أنجزناه لتحقيق النصر وطرد المعتدى . أن الشعب المصرى نبذ كل من أراد استغلاله والسيطرة عليه أو تفريق صفوفه أو بث روح الهزيمة فيه . وشعب مصر لم يكن يوماً ما حاملا لشعارات دون ممارسة واقعية وحية ونابضة وخلاقة لهذه الشعارات . »

كان شعب مصر يؤمن أن العمل الجاد المخلص هو خير تطبيق للعلم ، وأفضل تعبير عن الإيمان . ولم يقل هيرودوت الحقيقة عندما قال إن مصر هى هبة النيل ، لأن مصر فى الحقيقة هى هبة المصريين أنفسهم . ويشير أرنولد توينبى إلى أن الحضارة المصرية القديمة نشأت بسبب مجموعة من الظروف التى تعتبر بمثابة التحدى ، فقد تغير المناخ الذى حول الأراضى العشبية وسهول أفريقيا الشمالية إلى صحراء جافة مجدبة يتعذر فيها على سكانها الاستمرار فى حياة الصيد . فلم يكن وادى النيل مكاناً يؤدى إلى الرخاء ، والدليل على ذلك موجود فى الحالة البدائية الفقيرة التى ظل عليها سكان أعالى وادى النيل حتى عصرنا الحاضر ، فهم يعيشون فى ظروف تشبه التى عاشها مؤسسو الحضارة المصرية الأوائل .

والشخصية القومية تتبلور عندما تجبر الظروف قبيلة ما أو أمة ما على بذل جهد صادق لتحويل مواطن إقامتها التقليدية والتى تعتبر غير ملائمة للحياة على الإطلاق إلى أراض خصبة ومدن عامرة ووجود حضارى ؛ وعندما تنجح هذه الجهود فإنها تكون بمثابة تمهيد لخلق الظروف المواتية لبلورة ما نطلق عليه اصطلاح الشخصية القومية . فلم يكن النيل فى البدايات الأولى سوى مجرى بدائياً من الماء المتدفق بين المستنقعات والحشائش البرية ، والصحارى الشاسعة ولم يعرف له بداية أو نهاية ، بل لم يكن له الشكل المحدود الذى تعرف به المجارى المائية الآن . كان مجرد مجموعة من المجارى والمستنقعات فى طريقها إلى تكوين ما يعرف بمجرى النيل . وعندما نجح الإنسان المصرى القديم فى مجهوداته الدائبة للتحكم فى النهر والاستفادة منه ، تحول هذا المجرى المائى البدائى إلى نهر النيل . وبذلك يكون النيل هو هبة مصر والمصريين وليس العكس . لقد كان النيل هو المادة الخام الذى صنع منها المصريون حضارتهم العظيمة ، ولم يكن النيل نفسه هو صانع هذه الحضارة . كان النهر يجرى فى أرض مصر ذات المناخ الجاف والأمطار القليلة ، ولذلك استغل المصريون طميه فى تسميد الأرض ، وصناعة مواد البناء لإقامة المعابد والمقابر والمساكن ، وكذلك فى صناعة أوانى الفخار وصحائفه . واستغل النهر أيضاً كأهم طريق للمواصلات بين أنحاء الوادى فقد كانت كل المدن والقرى . تقع على ضفتيه . وإذا كان مؤرخو الغرب قد أغرموا بأن المصريين قد عبدوا النهر فى بحثهم عن إله ملموس ، فإنهم تجاهلوا فى نفس الوقت الجانب العقلانى والعملى فى الشخصية المصرية ، وهو الجانب الذى دفع المصريين إلى إنزال النهر من مراتب الآلهة إلى مراتب أدنى ، ثم أدنى حتى تجرد رسمياً من كل الصفات التى كانت تليق بآلهة القدماء . وأصبح بعد ذلك مجرد مجرى مائى يمكن الاستفادة به فى الأغراض العملية للحياة اليومية . ولكن من الواضح أن النيل قد ترك بصماته واضحة على ملامح الشخصية المصرية . وفى هذا يتساءل السادات فى خطابه فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٢ :

« ما هى أبعاد هذه الشخصية المصرية ؟ لقد ظلت الشخصية المصرية عبر التاريخ ذات أبعاد أساسية : الأصالة – الصلابة – الإيمان ، أصالة شعب عمره المكتوب أكثر من سبعة آلاف سنة ، صلابة شعب عاش على هذه الأرض الطيبة الخيرة وهو متمسك بها ، معتز بكل ذرة من ترابها ، والإيمان الذى لا حدود له ، إيمان بالله سبحانه وتعالى ، إيمان بهذه الأرض وكل من عليها وما عليها ، إيمان بكل القيم التى أرادها الله سبحانه وتعالى لصلاح هذا الكون ، إيمان بالذات . . بالنفس . . عبر آلاف السنين . .

تعرض هذا الشعب لعشرات الغزوات ولم يذب أبدًا شعبنا فى أى معتد أو أجنبى جاء إلى هذا البلد بل ذاب كل المعتدين فيه ولم يذب شعبنا أبداً . احتفظ شعبنا عبر الأجيال إلى يومنا هذا بأصالته ، بصلابته ، بإيمانه ، لأنه احتفظ دائماً بشخصيته . »

ولا يعقل أن يستورد شعب ، له من الأصالة والصلابة والإيمان والعراقة والتراث والحضارة والتقاليد كل هذا الرصيد الضخم ، لا يعقل أن يستورد من المبادئ والعقائد ما يسير به دفة حياته المعاصرة وليست هذه دعوة إلى الانغلاق والعزلة ، ولكنها دعوة إلى التأصيل الفكرى الذى يجدد مجتمعنا بما يتفق مع تراثنا وحضارتنا وشخصيتنا القومية . وهذا التجديد يكون بالاقتباس والاستيعاب والهضم والتطوير والتأصيل ، اقتباس المادة الخام من أى مصدر على شرط طبعها بطابع الشخصية المصرية الأصيلة ، وهو طابع لا تستغنى عنه الحضارة العالمية المعاصرة لأنه يعد المصدر الأولى لها ، وإشعاعًا من إشعاعاتها ، وانعكاساً من انعكاساتها ، فالحضارة الإنسانية ليست مردودة إلى الغرب ولا وقفاً على الشرق ؛ وإنما هى خلاصة كل تقدم بشرى ، وجوهر كل نشاط فكرى يعود على التعمير الحضارى بالخير والتقدم والسلام . ويعلق محمد عطا على ذلك فى كتابه « الحركة العاقلة » فيقول ص ١٧٧ :

« إنه مما يبشر بالخير أن أصبح لنا فى حياتنا المعاصرة زاد أوتراث يصلح لأن يحدد لنا معالم الطريق ، وعلينا أن نضاعف الجهد ، وأن نفيد من هذه الروح الثورية الخلاقة ، وأن نسير بقدم راسخة على معالم الطريق الذى بدأناه ، واثقين بأنفسنا ، منكرين ذواتنا ، مدركين المسئوليات الجسام التى وضعت على كواهلنا فى هذه الفترة الرائعة من تاريخنا التى تخلصنا فيها من السيطرة الغربية وأصبح زمام الأمور فى أيدينا . »

وتطور الشخصية المصرية لا يتأتى عن طريق تغييرها أو مسخها أو تلوينها ولكنه ينهض على تحسينها وذلك عن طريق تدعيم الإيجابيات والتخلص من السلبيات فنحن لا نستطيع أن نتخيل لأنفسنا شخصية أو هوية أخرى . على أن أهم سؤال يمكننا أن نسأله هو : هل ثمة مقياس ثابت يمكننا به أن نوازن بين شخصية قومية وأخرى ، ويمكننا به أن نحدد الملامح الأساسية للشخصية المصرية ؟ فى الواقع أن النسبية تلعب دورًا كبيرًا فى هذا المجال . فليس ثمة عصر واحد من مجتمع يحقق كل ملامح الشخصية القومية ، بل تمتد هذه الملامح لتغطى المجتمع كله منذ نشأته حتى اللحظة الراهنة ، وهناك دائماً تنويعات وتفريعات جانبية تضاف إلى الملامح الأساسية بمرور الزمن . وتطور الوضع نفسه يحدث لأية شخصية قومية أخرى تنشأ فى ظروف حضارية مختلفة . ومن هنا كانت الشخصيات القومية تختلف فيما بينها اختلاف بصمات الأصابع . ولا يمكن المقارنة بينها بأية حال من الأحوال ، وبالتالى يستحيل صبها فى قالب واحد . وهذا الاختلاف ليس عيباً ، بل إنه العنصر الرئيسى الذى يمنح الحياة البشرية ديناميكيتها وحيويتها وتطورها وتقدمها عن طريق التنافس بين الشخصيات القومية المختلفة . فالحفاظ على الشخصية القومية لا تعنى العنصرية الضيقة أو مبدأ سيادة الجنس أو التعصب ضد القوميات الأخرى ، ولكنه يعنى الحفاظ على الدور الحضارى الذى يتحتم على هذه الشخصية القومية القيام به . بالإضافة إلى الأدوار الحضارية التى تنهض بها القوميات الأخرى ، فنسيج الحضارة الإنسانية الشاملة يتألف من الحضارات القومية المختلفة .

ويرجع مفهوم الشخصية القومية فى الحضارة إلى العلاقة الوثيقة بين الإنسان ووطنه الذى يعيش فيه ويتفاعل معه ، وهو مفهوم متبلور ومحدد برغم أنه قد يختلف من عصر إلى آخر ، ومن مجتمع إلى آخر . والشخصية القومية ضرورة لا مناص منها لأنها الروح التى تمنح الإنسان الهوية التى تمكننا من التعرف عليه وبدونها يصبح كائناً عديم اللون والأسلوب .

وهنا يكمن الفارق الأساسى بين الفكر والعلم باعتبار أن العلم عالمى فى شكله ومضمونه ، فى حين أن الفكر محلى الشكل والمضمون بحيث نستطيع القول إن هناك فكراً إنجليزيًا أو فرنسيًا أو أمريكيًا أو روسيًا أو عربيًا وهكذا ، بينما لا نستطيع

القول نفسه بالنسبة للكيمياء أو الطبيعة أو الأحياء أو الطب أو الهندسة . . إلخ فنيوتن مثلا يمكن أن يكون إنجليزياً أو أن ينتمى إلى أية جنسية أخرى لأن هذا لن يعوق عبقريته العلمية فى الوصول إلى النظريات والقوانين التى اكتشفها طالما أن إمكانيات البحث العلمى ووسائله متوافرة لديه ، بينما جون لوك مثلا لابد أن يكون مفكراً وفيلسوفاً إنجليزياً وإلا فإنه لن يكون شيئاً على الإطلاق ففكره وفلسفته نابعان أساساً من الظروف الموضوعية للبيئة المحلية فى إنجلترا ، ومهما كان اطلاعه على الفكر العالمى واسعاً فإنه لن يستطيع التخلص من شخصيته الإنجليزية . بل إن فلسفته هى نتاج الاحتكاك بين نظرته إلى بيئته الاجتماعية وبين هضمه للفكر العالمى السابق له ، والنتيجة النهائية هى ميـلاد فلسفة إنجليزية جديدة ذات ملامح قومية محددة ، ولكنها – مع هذا – يمكن أن تدخل ضمن نسيج الفكر العالمى .

ولذلك نجد من الظواهر الطبيعية فى الفكر الإنسانى أن ترتبط كل أمة بمفكر قومى أو أكثر لأنه يبلور روحها وطبيعتها ونبضها وشخصيتها القومية ، وغالباً ما يكون هذا المفكر القومى هو النموذج الكلاسيكى الذى يفرض ظله على معظم المفكرين الذين يعيشون فى المجتمع نفسه ، وقد يحاول بعض المفكرين المجددين رفض هذا المفكر القومى بحجة ان تاثيره يتحول إلى نوع من القالب الثابت الذى يعوق تطور الفكر القومى وانطلاقه ، ومع ذلك فإن مثل هذا المفكر القومى يظل علامة هامة إن لم يكن قمة من القمم التى يمكن تسلقها ولكن يتعذر تجاهلها أو تحطيمها . ولذلك يصعب علينا تجاهل مفكرين من أمثال رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الله نديم ، فقد تركوا شيئاً على الأقل فى كل واحد منا على انفراد ، وأضافوا لمسات جديدة ومعاصرة إلى الشخصية المصرية العريقة .

وبروز المفكر القومى لا يخضع لشروط معينة لأنه ظاهرة تختلف باختلاف الزمان أو المكان ، ولكنه – بصفة عامة – المفكر الذى يجعل من فكره مرآة لأبناء أمته حتى يروا فيها أنفسهم وشخصيتهم القومية وتزداد معرفتهم بالعصر والعالم . ومرآة الفكر القومى لا يقتصر دورها على مجرد الانعكاس ولكنه يمتد ليشمل التكثيف والبلورة والتمحيص الصادق . وكلما ارتفعت الأمة فى مدارج الحضارة كان من السهل التعرف على خصائصها الفكرية وشخصيتها القومية ، لأن الفكر لا يمكن أن يعيش فى عزلة عن المجتمع المحلى ، فهو من أهم الأنشطة الروحية التى تقيس نبضه ، وغالباً ما يسير التطور الفكرى موازياً ومسانداً للتعمير الحضارى ، وهذا يرجع إلى الحقيقة التى تقول إن الفكر يستمد حياته واستمراره من تلك العلاقة العضوية بينه وبين الحياة المعاصرة والمحلية ، وإن شرط التأصيل الفكرى الأساسى يتمثل فى ذلك التفاعل الحيوى القائم على التأثير والتأثر . وإذا فقد الفكر القومى هذا العنصر تحول من طاقة مغيرة ومطورة إلى صورة مكررة وباهتة لا تثير فى أنفسنا سوى أحاسيس الملل والرتابة والضيق .

وبرغم ثورة المواصلات والتقدم التكنولوجى والعلمى الذى أحرزه عالمنا المعاصر ، وبرغم التشابه الظاهرى بين أسلوب الحياة فى عاصمة أوروبية وبين أخرى أفريقية مثلا ، وبرغم أن تيار العصر أصبح من القوة بحيث يدفع كل المراكز الحضارية والثقافية بطابعه المميز والموحد ، فإن كل هذه العوامل لم تستطع أن تمحو الشخصية القومية بحيث مازالت كل أمة تحتفظ بطابعها المحلى والمميز لها . ولعل هذا هو الفرق الحضارى بين الإنسان والحيوان ، فالحصان هو الحصان فى أية بقعة فى العالم ، لكن الإنسان يختلف فى شخصيته القومية باختلاف الوطن والأمة . فالإنسان يملك الفكر الذى يتأثر ويؤثر فى البيئة المحلية ، أما الحيوان فلا يملك سوى السلوك السلبى لأن هدفه كله يتركز فى المحافظة على نوعه كما هو دون أدنى تطوير أو تحسين . ولذلك فالشخصية القومية هى انفعال بالحياة واستيعاب لأبعادها المحلية قبل أن تكون انفعالا بالأفكار الواردة من الخارج . فالحياة الخصبة المعاشة بالفعل هى المنبع الذى تستمد منه الأفكار والفلسفات حياتها وكيانها ، ومهما تعددت الفلسفات التى تلبس ثوب العالمية فإن الفكر الإنسانى

فى أساسه محلى وقومى . ولابد أن يتفاعل مع هذه الفلسفات تفاعلا عضوياً وإلا فإنه يلفظها كما يلفظ الجسم البشرى أى شىء دخيل عليه .

ومن العبث استيراد أو اقتباس أو استعارة الفكر من بلد أجنبى لأنه لا يوجد إلا فى موطنه ، ولا يعنى هذا أن يكون الفكر مجرد صورة فوتوغرافية للشخصية القومية ولكنه عبارة عن علاقة عضوية بين الفكر العالمى أوروح العصر وبين الخصائص القومية للفكر ، وفى حالة غياب هذه العلاقة يحدث الآتى : أما أن تتحول الشخصية القومية إلى مجرد تكرار ممل أوصورة شائهة أو مرآة عاكسة أو أن تصبح مجرد مادة خام ينقصها التطوير والتحسين ومجاراة العصر. والواقع أن أية معركة حضارية تخوضها أية أمة لابد أن تكون من أجل الحفاظ على شخصيتها القومية ، وهذه الشخصية لا تعنى سوى الأصالة والصلابة والإيمان والاستقلال والحرية والديمقراطية والتعمير الحضارى . وعلى كثرة المعارك التى خاضتها الشخصية المصرية على مر آلاف السنين ، كانت تخرج دائماً منتصرة مرفوعة الرأس مهما طالت قرون الظلام وعصور القهر. وهذا يدل على مدى أصالتها وصلابتها وإيمانها وثقتها فى نفسها . ولذلك يقول السادات فى كتابه « يا ولدى هذا عمك جمال » ص ١٢ :

« وتاريخ هذه المعركة فى مصر يا بنى قديم ومجيد . . بدأ قبل أن أولد ، وقبل أن يولد جدك ، بل قبل أن يولد جد جدك . . تاريخ طويل كتبه آباؤنا وأجدادنا بدمائهم عبر القرون . . وكان كل جيل يسلم الأمانة إلى الجيل الذى يليه ، وتصميم شعبنا فى كل مرحلة صلب لا يلين . . إن كل معركة خاضها شعبنا ، كانت تزيده تصميما على تصميمه . . وكل دماء سالت من الأحرار على أرضنا ، كانت تغذى شجرة الحرية التى تمد ظلالها اليوم على وادينا الأخضر من أقصاه إلى أقصاه . . لم يستسلم شعبنا أبداً يا بنى للغزو الأجنبى ، ولا للطغيان . . وحين كان يغلب هذا الشعب على أمره من قوى متفوقة عليه ، كان يعمد من فوره إلى المقاومة الشعبية فى تصميم وإصرار ، حتى ينتصر فى آخر الأمر على أعدائه . .

وكما كانت لشعبنا فى الماضى السحيق حضارة ومدنية ، تنطق إلى يومنا هذا بأروع انتصارات بناءة فى العلوم ، والفنون ، والهندسة ، والبناء والطب ، والفلك . . فإن تاريخنا فى ماضينا القريب ، يسجل لهذا الشعب سجلا حافلا بالكفاح من أجل القيم البشرية . . »

وهناك قانون عجيب يحكم كل الاتجاهات الفكرية التى اشتهرت على المستوى العالمى ، هذا القانون يؤكد أنه كلما استغرق الفكر القومى فى المحلية الأصيلة اقترب بذلك من مجال العالمية ، وهذا يخالف ظن بعض المفكرين الذين يظنون أن الأمة تستطيع أن تعيش على مستوى العصر إذا تخلت عن شخصيتها القومية ولبست رداء العالمية ، فرداء العالمية محلى فى أساسه ونابع من بيئة محلية محددة . ولذلك من الضرورى لأى مفكر قومى أن يعايش بيئته من خلال الهضم والاستيعاب والرؤية العميقة والعريضة والبعيدة ثم القيام بمهمة الإفراز الفكرى الذى يعتمد على عنصرى التحليل والتشكيل . وكلما تمكن المفكر من هذه النظرة العميقة والموضوعية كثر عدد الذين يستطيعون فهمه فى أى مكان من العالم بل وفى أى زمان أيضاً . لأنه مهما اختلفت العادات والتقاليد والمفاهيم والاتجاهات والتكوين الاجتماعى والاقتصادى والنفسى والسياسى بين البشر فإن هناك شيئاً مشتركاً يشدهم بعضاً إلى بعض . وهذا الشىء الذى يصعب تحديده نسميه أحياناً الإنسانية وأحياناً الحضارة وأخرى المشاركة الوجدانية . . إلخ ولكن برغم اختلاف المسميات وتنوعها فنحن نشعر بهذا الشىء وبوجوده فى حياتنا ، وهو الشىء الذى يربط ما بين الشخصية القومية والإنسانية الشاملة . وبرغم التعارض الذى قد ينشأ بين الاثنين فإن الفكر الأصيل الناضج كفيل بصبهما فى شكل معاصر وأصيل بل وتحويلهما إلى وجهين لعملة واحدة . .

وقد تبلور مفهوم الشخصية القومية فى الحضارات العالمية منذ نشأة كل منها على حدة . ولكن هناك من الخصائص العامة ما يوضح لنا أن المفهوم الشامل بدأ من ثلاث نقاط : الأولى تكمن فى الرغبة الملحة لأن يرى أبناء الأمة أو المنطقة حياتهم وقد تبلورت فى ملامح فكرية وحضارية محددة بحيث تزداد معرفتهم بحياتهم وبعصرهم ، والنقطة الثانية تتركز فى إشعال الروح الوطنية عن طريق إخصابها بالجديد من الأفكار والآراء والمشاعر القومية التى أصبحت مرادفة للكرامة والكبرياء والشرف . والنقطة الثالثة تتضح فى الاهتمام باللغة القومية والمحافظة عليها لأن اللغة هى الأداة الأولى للتعبير عن الشخصية القومية وإحاطتها بسياج من الأصالة والمناعة .

وبمرور الوقت تطور مفهوم الشخصية القومية وأصبح يعنى النهضة الحضارية الأصيلة التى تعتمد على تجديد وتحسين التراث القومى والفكر المحلى والروح الشعبية . ولكن لا يعنى هذا معاداة القوميات الأخرى التى لا تتفق مع هذه الخصائص ، لأن هذه الروح العدائية قد تؤدى إلى تمجيد جنس من الأجناس البشرية الأخرى كما حدث بالنسبة للجنس الآرى فى ألمانيا ، وهو الاتجاه الذى استغله هتلر وركب موجته وأذاق به العالم ويلات الحرب العالمية الثانية . ولذلك يحرص المفكرون المعاصرون على وضع حد فاصل بين الاعتزاز بالشخصية القومية والانتماء إليها وبين المناداة بعبقرية الجنس على أساس انثروبولوجى وجغرافى بحت . فليس هناك شعب فضله الله على بقية شعوب الأرض بـل الجميع سواسية فى ظـل الإنسانية . وإن كان لشعب الحق فى المحافظـة على شخصيته القـومية فهذا لا يمنحه الحق فى فرضها قسرًا على الشعوب الأخرى التى تعتز بشخصيتها القومية كذلك . وأكبر دليل على هذا أن كل أمة خاضت معركة حريتها بأسلوب يتمشى مع شخصيتها القومية ويختلف بالتالى عن أساليب المعارك التى خاضتها الأمم الأخرى ، فلا توجد أنماط جاهزة للتطبيق ، بل العملية كلها تتراوح بين الاستكشاف والتأصيل . ولذلك يقول السادات فى كتابه « معنى الاتحاد القومى » ص ٣٧ :

« إن الطريق الذى يسلكه كل شعب لنيل حريته يكاد يختلف تماماً عن الطريق الذى يسلكه غيره من الشعوب . . لكل بلد ظروفه وأوضاعه ، والثورة تحدث طبقاً لهذه الأوضاع وتلك الظروف . . والطريقة التى تحدث بها هذه الثورة أو تلك تصبح جزءاً لا يتجزأ من تراث الشعب . . وأصلح طريق لتحقيق الحرية هو دائماً الطريق الذى يحقق هذه الحرية فعلا ، وقد حققت تلك الطريقة ثورة الشعب المصرى على الاستعمار ، وحققت له الاستقلال والتحرر ، ولهذا فهو طريق حريتنا ، الطريق الذى نفخر أننا سلكناه ، ولابد أن نفخر أننا نجحنا فى سلوكه ، وأننـــا بلغنا به الهدف . »

ثم يوضح السادات الدور الذى لعبته الشخصية المصرية فى توجيه دفة الثورة فيقول ص ٣٨ :

« أجل . بطريقتنا هذه ، بنجاحنا ، بصبرنا ، بأخطائنا ، بدهائنا وببساطتنا ، بمكرنا وبسذاجتنا ، بمكاسبنا وبتضحياتنا ، بعرقنا وبدموعنا ، بساعات ضيقنا ولحظات انتصارنا ، بأزماتنا الاقتصادية الصغيرة التى أصابتنا ، وبإشراق الصبح على بلدنا المستقلة ، بهذا كله ، وبكل هذا انتصرنا » .

هكذا تتعدد أبعاد الشخصية المصرية بحيث لا يمكن لأى دخيل أن يحتويها ، فالشخصية المصرية الخصبة لا تعنى الإقليمية الضيقة التى تؤدى غالبا إلى الركود والموات لعدم اتصالها بالروافد الإنسانية العريضة . ولذلك يجب أن نرسخ الشخصية المصرية على ركيزتين أساسيتين : الأولى استكشاف التراث القومى المحلى وتنقيته من الرواسب والسلبيات والشوائب التى تعوق تطوره ونضجه ، والثانية استيعاب التراث الإنسانى والاستفادة منه بحقن التراث المحلى بدماء جديدة على شرط أن تكون من الفصيلة نفسها بحيث لا يرفضها أو تتسبب فى موته . ومن التفاعل العضوى بين الشخصية القومية والروح الإنسانية يستطيع أى فكر محلى أن يساهم فى الفكر العالمى ويضيف إليه ويؤثر فيه ،

فالفكر العالمى فى حقيقته ليس سوى مجموعة متناسقة من الاتجاهات الفكرية القومية بلغت حدًّا من النضج والعمق والأصالة والمعاصرة جعلها تساهم فى الفكر الإنسانى الشامل وذلك بتوسيع أفقه وتطلعاته . وبذلك تنتفى من الأساس فكرة اليمين أو اليسار فى مواجهة الأصالة الوطنية . ومن هنا كان قول السادات فى حديثه مع أعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى فى ١٧ أبريل ١٩٧٢ :

« إن نقطة الانطلاق هى القضية الوطنية ويجب أن يتجمع الشمل حولها وبالتالى كل من يحاول من اليمين أو اليسار الذى ينفصل عن واقع وطنه ومعركته فإنه يكون قد ساعد فى حملة التشكيك هذه . إن خط مصر واضح : إننا حريصون على نظامنا وتراثنا وقيمنا الروحية وإن إرادتنا الوطنية قد تحررت نهائيًا وقد تجاوزنا مرحلة الخوف والحساسية من التعامل مع الدول الكبرى . . . ومن ناحية أخرى فإننا اتخذنا قرار المعركة . وهو قرار نهائى وهى آتية ونحن داخلوها ، ولكننا لن نسمح لأى انفعال أو مزايدة مهما كان مصدرها أن تؤثر فى تصميمنا وتحركنا لتحرير بلادنا . »

وفى خطابه فى عيد العمال فى أول مايو ١٩٧٢ يؤكد السادات دور الشخصية المصرية سواء فى الحرب أو السلام فيقول :

« وعندما يجىء السلام بالنصر إن شاء الله لأنه بغير النصر لن يكون سلام ، وحين يوجد كل ما أنجزناه وصنعناه فى خدمة هذا السلام الحق فإن التجربة المصرية سوف تبدو فى أصالتها وفى قيمتها الحقيقية . إننا أنجزنا كثيراً وكثيراً جدًّا ولا يجب أن نسمح لأحد أن يشككنا فى قيمة ما أنجزناه . وأول دليل على نجاحنا فيما أنجزنا هو أننا الآن قادرون على الوقوف وعلى الصمود وعلى تحمل تبعات المعركة » .

أما فى وقت الحرب فلن يحارب سوى المصريون ، لأن القرار هو قرار مصر وليس قرار أى طرف آخر . ولذلك يقول السادات فى خطابه أمام مجلس الشعب فى ١٤ مايو ١٩٧٢ :

« عليكم كنواب للشعب أن تكونوا على علم أن هذه المعركة معركتنا ، احنا حنحاربها . فى كل مرة رحت الاتحاد السوفييتى فى الأربع مرات اللى فاتت كانت فيه نقطتين أساسيتين بأعلنهم أمامكم كنواب للشعت عشان تكونوا على بينة بيهم : الاتحاد السوفييتى يعلم أنى مش عايز جندى سوفييتى يحارب لى معركتى ، لأنى أنا اللى حاحارب معركتى . »

وكان السادات يخطط مسبقاً للسادس من أكتوبر العظيم عام ١٩٧٣ عندما أوضح فى خطابه فى ٢٣ يوليو ١٩٧٢ أن كل شعب لابد أن يحارب معركته ، ولذلك كانت مصر منتصرة دائماً على مر العصور. ولم نكن فى أى وقت من الأوقات ننتظر من أصدقائنا أن يحاربوا عنا معركتنا ، وكنا نحاول قدر ما نستطيع أن نقدر ظروفهم ونظرتهم لأوضاع العالم ، وكنا فى حاجة إلى كل ما يستطيعون أن يقدموه لنا بل إننا سوف نسعى باستمرار إلى توسيع وتعميق روابط الصداقة ولكن علينا الآن أن نعرف أبعاد ما ينتظرنا : الوطنية المصرية والقومية العربية . . فى الميدان وحدهما إذا اقتضى الأمر. لقد كانت هناك أسباب دعت السادات إلى اتخاذ القرار بإنهاء مهمة الخبراء والمستشارين السوفييت ، ولكن سبباً هامًّا بينها هو أن السادات أراد تأكيد الشخصية المصرية وبلورتها بعد أن كثرت محاولات طمسها وبخاصة منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧ . بل كان المقصود أساساً من استمرار حالة اللا سلم واللاحرب هو تمييع الشخصية المصرية وتشويه ملامحها من جراء التردد والقلق والتوتر وفقدان الثقة فى النفس ، والأمل فى المستقبل . ولا شك فإن ثمن تأكيد الشخصية المصرية فى عالمنا المعاصر ثمن غال جدًّا لا يقدر إلا بالدم الزكى المراق على أرض المعركة ، ولا يتم إلا بالسواعد المصرية إذ أننا لسنا فى حاجة إلى سواعد أحد إطلاقاً . وإن كنا فى حاجة إلى تكنولوجيا العصر ، ونحن لا ندعى أننا نستغنى عنها ، فإن حاجتنا إليها شىء وأن يتم كل شىء بسواعدنا المصرية شىء آخر.

ومنذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لم يحدث أن كان قرارنا أو إرادتنا خارجة عن أيدينا ، ولكن صعوبة الموقف وتعقيداته الدولية من حولنا قبل السادس من أكتوبر كانت تقتضى فى بعض الأحيان أن نقول لجميع الأطراف إننا أصحاب إرادتنا . وعندما جاء السادس من أكتوبر تأكد للعالم كله أن قرارنا المصرى الصميم كان كفيلا بأن يغير ملامح هـــذا العالم وأوضاعه بطريقة لم يشهد لهـــا العالم مثيلاً منـــذ الحرب العالمية الثانية . فعنـــدما اندلعت المعركة لم نضح بمبادئنا أو بأسلوبنا الخاص بنا فى الدفاع عن شخصيتنا القومية ، بل على العكس ، تأكدت هذه الشخصية وكسبت احترام العالم كله ، العدو قبل الصديق . ومع حبنا للصديق ومواجهتنا للعدو لم تهتز شخصيتنا لأنها الأساس الذى عليه نعامل الأصدقاء ونواجه الأعداء . وفى هذا يقول السادات فى خطابه إلى الأمة فى أول سبتمبر ١٩٧٢ :

« لتكن لنا صداقاتنا ولنحرص على هذه الصداقات ، ولكن لندرك أنه إذا لم نكن مع أنفسنا فإننا سنظل وحدنا حتى إذا كانت بجانبنا كل قوى الأرض . ومعنى أن نكون مع أنفسنا أن نكون مع عقائدنا ، مع يقيننا ، مع رؤيتنا للتاريخ والمستقبل ، مع حريتنا واستعدادنا للموت فى كل وقت فى سبيل حياة باقية كريمة وعزيزة . »

ويتبقى بعد ذلك – كما يقول السادات فى خطابه فى جامعة الإسكندرية فى ٢٧ يوليو ١٩٧٢ – « إننا كأسرة مصرية لها تقاليد وأصالة ، علينا أن نعطى لكل ذى حق حقه ، ولكى نحاسب أيضاً الصديق ونحاسب العدو ، كل بمعياره » . ولن يتأتى هذا المعيار الموضوعى إلا عن طريق الأصالة الفكرية أو ما يسميه السادات بالصمود الفكرى الذى نادى به فى خطابه فى جامعة أسيوط فى ١٠ يناير ١٩٧١ عندما ركز على ضرورته بالإضافة إلى الصمود السياسى والصمود العسكرى والصمود الاقتصادى ، وعاد إلى تأكيده فى خطابه فى جامعة الإسكندرية فى ٢٧ يوليو ١٩٧٤ عندما أوضح أن الصمود الفكرى هو المزج الواعى بين الأصالة والمعاصرة بحيث لا تتجمد أو تتحجر الشخصية المصرية وبحيث لا تتميع أو تنطمس ملامحها أيضاً يقول :

« إن هذا الصمود الفكرى فى تقديرى هو سلاح من أهم الأسلحة التى علينا أن نتسلح بها فى هذه المرحلة بالذات فالسلاح الذى يزرع اليقين ويقوى الثقة بالنفس لا يقل أهمية عن السلاح الذى يطلق النار وحين أقول بالصمود الفكرى لا ينصرف ذهنى إلى الجمود فالعكس تماماً هو الصحيح . إن الجمود الفكرى نوع من الرجعية والتخلف والتحجر وهو يؤدى بصاحبه إلى الخروج عن منطق العصر ومن يختار لنفسه أن يبقى قاعداً جامداً والعالم يهرول إلى الأمام هو فى الواقع يحكم على نفسه بانعدام القدرة على التأثير على مجرى الحوادث والمساهمة فيها وخدمة شعبه وأمته من خلالها . ولكننى أقول مع ذلك إننا ونحن فى عصر حافل بالمتغيرات . المتغيرات على كل المستويات السياسية والدولية والاقتصادية والاجتماعية ، الثقافية والأخلاقية فإننا برغم ضرورة الدراية المستمرة بكل هذا فإنه من المهم أن يكون لنا الأساس الواضح الذى يستند إليه العمود الفقرى القومى الذى ينهض بالجسد كله مهما تحركت فى هذا الجسد أطرافه وأينما سارت به قدماه » .

وهذه الدعوة إلى التأصيل الفكرى ضرورة حضارية ملحة وخاصة بعد أن أطلق السادات الحريات وفى مقدمتها حرية المناقشة وإبداء الرأى ، وكان مدركاً تماماً نتيجة هذه التجربة التى تتمثل فى هبوب تيارات عديدة فيها الخطأ وفيها الصواب . ولكن من حق المجتمع أن يطلب من كل من يبدى رأياً أن يهتم أولا بدراسته والتعمق فيه قبل أن يرتجل الآراء ارتجالا . فتبسيط الأمور وأخذها من المأخذ السهل معناه تسطيح الشخصية المصرية برغم أعماقها وأبعادها المعروفة لدى الجميع ، وليس هذا هو الطريق نحو تربية الرأى العام وتجديد الشخصية المصرية . إن مشاكل عشرات بل مئات السنين لا تحل بين يوم وليلة وشعبنا الذى ارتفع وعيه ونضجت شخصيته يدرك هذا جيداً ومستعد لمواجهة تبعاته

بشرط أن يعرف الصورة الصحيحة وبشرط آخر هام هو أن يلمس بنفسه أن هناك جهداً يبذل من أجل بناء المجتمع العصرى .

والانفتاح ليس مجرد انفتاح اقتصادى فحسب بل إنه انفتاح فكرى ونفسى أيضاً . وتجديد الشخصية المصرية لا يتأتى عن طريق توفير الموارد المادية فقط بل بتوفير المصادر العلمية والفكرية التى تمكنها من الارتقاء بنفسها . والتأصيل الفكرى يحتم أن ينهض توفير المصادر المادية والفكرية على الاختيار الحر والمدروس الذى لا بد أن يشارك فيه الرأى العام ، حتى نعصم أنفسنا من الإغراءات السهلة التى سرعان ما تتبدد آثارها ، وحتى لا نحول كل مشكلة تواجهنا إلى كارثة ، وحتى لا نصور الأمور على أننا وحدنا الذين نواجه هذه المشكلات . فالصمود الفكرى يقوم على التعمق والاجتهاد والاطلاع أيضاً على تجارب الغير دون عقد حتى نحصل على ضوء هاد قد لا يؤدى إلى الحل النهائى ولكنه سيساعدنا على الأقل فى تفادى السلبيات التى تعرض لها غيرنا قبلنا . وبخاصة أن الاستفادة بتجربة اجتماعية أو بنظام حكم معين ليس أمراً فى سهولة شراء واستيراد أية سلعة مادية . فهـذا أمر يتعلق بالفكر والنفس البشرية والشخصية القومية وهذا يحتم ضرورة الموازنة بين الأصالة والمعاصرة . وفى هذا يقول السادات فى نفس الخطاب السابق :

« لقد قمنا بتجربة وطنية مصرية عمرها ٢٢ سنة مررنا خلالها بتجارب كثيرة ثم إننا فتحنا باب التفكير والتجديد وتصحيح السلبيات وإدراك الجديد من المتغيرات . هكذا تقوم التجارب المثمرة ، تنبت من التربة وتتعرض للهواء والشمس ، وقد تتغذى بالمواد الكيميائية المركبة ولكنها لا تنمو ولا تثمر إلا بالجهد البشرى الذى عليه أن يلائم بين هذا كله ومع ذلك فسوف لا تزكو إلا متأثرة بالبيئة التى نشأت فيها .

وأريد أن أقول إننا شعب له تراثه المجيد وله تجارب فى الحضارة عريقة ربما بادت فاندثرت مظاهرها المادية ولكن رواسبها بقيت كامنة فى ضمير أبسط الناس ، وما نحتاجه هو أن نوقظها من رقادها وأن نعرضها لهواء العصر ولشمس بيئتنا . نحن اشتراكيون تقدميون نعمل لصالح أوسع الجماهير على هدى من كل تلك العوامل الخاصة بنا ، والصمود الفكرى دفاعاً عن هذه المعانى هو الذى يجعل شجرة حضارتنا الجديدة تنمو بثمار تضاهى متطلبات العصر وجذور راسخة فى تراب الوطن . ثم إن الصمود الفكرى لا يتم إلا بإنجاز آخر هام وهو توسيع قاعدة هذا الصمود ونشر الاقتناع بمعناه وأهدافه » .

هذا هو المنهج العلمى لإحياء الشخصية المصرية الأصيلة القادرة على مواجهة التحدى فى فترات التاريخ الحاسمة . ويرى أرنولد توينبى أن بلورة الشخصية القومية إن هو إلا نتيجة إيجابية لعملية الرد على التحدى المصيرى ، وأنه إذا كان هناك كثير منها فى تاريخنا الحديث يجيز الإحساس بالقلق ، فإن ذلك ينبغى أن يكون حافزاً على العمل وليس حكماً بالإعدام لشل إرادتنا . وتاريخ الأمة لا يكتسب معناه الحقيقى المجسد إلا من خلال وضوح الشخصية القومية لها وبذلك يحدد الأصدقاء والأعداء على السواء مواقفهم منها . والقوى الفكرية والروحية والنفسية هى التى تبلور ملامح هذه الشخصية ، أما العناصر المادية والتكنولوجية فهى نتيجة لنشاط هذه الشخصية فيما بعد . ويؤكد معظم علماء الحضارة والتاريخ أن السبب الرئيسى المؤدى إلى اضمحلال أية حضارة هو الافتقار إلى وجود الشخصية القومية التى تمثل الطاقة الخلاقة فى دفع عجلة هذه الحضارة . فسواء أرجع الإنسان تدهور المجتمع إلى الإخفاق فى تدبير رد مناسب على التحدى ، أو عزاه إلى إخفاق الإدارة الحاكمة فى الارتباط عضوياً بالجماهير ، أو إلى انعدام المنهج العلمى ، أو إلى حلول الغريزة محل العقل ، فإن الخلاصة دائماً هى فقدان الشخصية القومية المتبلورة .

وضياع الشخصية القومية معناه استبدال الأفكار العظيمة والمبادئ الخلاقة بالخصومة الشخصية باعتبارها العوامل

المحركة فى الحياة العامة ، وانعدام الأساليب الجديدة فى الفن والعلم ، واندثار الفلسفات العظيمة ، وفقدان الإحساس بالأسلوب ، وتغلب الصبغة الذهنية المحدودة على انطلاقات الحياة الروحية . فهذا فى حد ذاته يضع حدوداً قاتلة للتعقل والحكمة والمنطق ، وأيضاً نقص ديناميكية المجتمع وحيويته إزاء ما يحيط به ، وانعدام الأمل فى المستقبل ، والإحساس بعقم الحياة وضياع المعنى والهدف منها . ويمكن أن نرجع كل هذه السلبيات إلى اضمحلال الشخصية القومية من الناحيتين الروحية والمادية ، فهذه الشخصية هى البوتقة التى تنصهر فيها كل تطلعات الأمة وتتحول إلى طاقة بناءة زاخرة بالابتكار والتجديد والتطوير . ولذلك فإن اختبار ما إذا كان المجتمع قد بدأ يضمحل أم لا ، يصبح مسألة تحديد مدى البلورة والوضوح والتجديد والأصالة والمعاصرة الكامنة فى شخصيته القومية .

ولإيمان السادات بكل هذا فقد أطلق الحريات لاعتقاده الجازم أن الشخصية المصرية لا يمكن أن تنضج وتنمو وتتطور إلا فى جو مشبع بالحرية وفى مقدمتها حرية المناقشة وإبداء الرأى ، مهما كان هذا سبباً فى هبوب تيارات عديدة فيها الخطأ وفيها الصواب . فالإنسان الحر هو الذى يهب للدفاع عن شخصيته وكيانه ، أما العبد فليس له من الشخصية أو الكيان ما يدافع عنه أصلا . وفى هذا يقول ج. دى بويس فى كتـابه « مستقبل الغرب » ص ١٩٧ :

« لقد اكتسب هذا المثل الأعلى القديم معنى جديداً فى عصرنا . إنه يعنى التحرر من عيوب الحكم الجماعى المستبد ، مثل مهاجمة المنازل ليلا ، والرحيل عنها بلا عودة ، وتجسس الأبناء على الآباء ، وتجسس الزوجات على الأزواج ، والخوف من التلفظ بكلمة تثير غضب المسئولين ، ومعسكرات الاعتقال ، وألوان التعذيب التى بلغت القمة من ناحية التقدم العلمى » .

ويؤكد دى بويس أنه من أجل الحفاظ على الشخصية القومية يتحتم المحافظة على الحرية بكل أنواعها المسئولة والناضجة ، وحتى إذا أصبحت الحرية من التقاليد الراسخة التى لا تقبل أى جدل أو نقاش فإنه من الضرورى أن نذكر أنفسنا باستمرار أن الحرية كنز يستلزم يقظة أبدية ، فمن الممكن أن نجدها مهددة بشكل خطير بين يوم وليلة . ومهما كانت جذورها راسخة فإنها فى حاجة ملحة ودائمة إلى الترسيخ المستمر والتأصيل المتواصل ، وبخاصة أنه لا شخصية مميزة لأمة بدونها . ولذلك كان النصر النهائى دائماً فى أية معركة لهؤلاء الذين يدافعون عن قضيتهم العادلة وبالتالى يحمون شخصيتهم القومية . وفى هذا يقول هيرودوت إن أحد الأسباب التى جعلت الإغريق ينتصرون على الفرس ، برغم التفوق العددى الكاسح والرهيب للفرس ، أنهم شعروا بأن رعايا أى طاغية لا يستحقون أن يكونوا أنداداً لمواطنى الدولة الحرة الذين يعبرون عن إرادتهم الوطنية بالدفاع عن شخصيتهم القومية ، أما رعايا الطاغية فليسوا سوى أدوات صماء لتحقيق أهدافه التوسعية والعدوانية . وفقدان الدافع الإنسانى والقضية القومية من أهم الأسباب المؤدية إلى الهزيمة المنكرة مهما كانت القوى المادية التى تساند الطغيان .

ولعل السادس من أكتوبر العظيم كان أول احتكاك فعلى بين الشخصية المصرية العريقة المتماسكة وبين الشخصية الإسرائيلية ذات الروح المتميعة والملامح المطموسة ، هذا إذا كان لإسرائيل شخصية قومية من الأصل . وهذا شىء نشك فيه كثيراً إذاً لا يعقل أن تأتلف أمة من قوميات مختلفة فى الحضارة والثقافة والتاريخ والتراث والتفكير والوجـدان . . إلخ ويصبح لهـا بعد ذلك شخصية قومية ذات ملامح متميزة وخصائص محـددة . فنحن نعلم أن الرابطة الوحيدة التى جمعت الإسرائيليين فى فلسطين تتمثل فى العنصرية الضيقة والعدوان البربرى . وهى رابطة لا يمكن أن تقيم أود الشخصية القومية لأية أمة ، وبالتالى لا بد أن يكون هناك من الصراع والتفرقة والتحيز ما يجعل المجتمع منهاراً من أساسه . وهذا الكلام ليس على سبيل الفخر بالشخصية المصرية لأن أحداث أكتوبر المجيدة جعلته واضحاً للعيان مثل الشمس . فقد أغرمت إسرائيل طوال سنى الهزيمة على الجعجعة بأنها المجتمع المثالى المتحضر

الوحيد فى الشرق الأوسط ، وأن تقدمها الحضارى هو الذى منحها هذه السيطرة على جيرانها المتخلفين . وكان جنودها يمرحون وراء التحصينات الطبيعية والصناعية كما لو كانوا سادة هذه المنطقة . ولكن عندما جاء السادس من أكتوبر العظيم وواجهت الشخصية المصرية بكل حضارتها وعراقتها وتماسكها ، الشخصية الإسرائيلية بكل تصنعها وأوهامها وعنصريتها ، لاذ الجنود الإسرائيليون بالفرار برغم احتمائهم بالتحصينات المنيعة المجهزة بأحدث الأساليب العلمية والوسائل التكنولوجية للدفاع والهجوم على حد سواء ، وبرغم النفخة الكاذبة التى صدقوها عن تفوقهم الأسطورى . واكتسح الجنود المصريون كل شىء فى طريقهم برغم طول سنى الهزيمة والمرارة والألم . ولم يكن هذا من المعجزة الخارقة فى شىء ، بل كان انتصاراً طبيعياً ومنطقياً جداً لشخصية قومية عريقة عراقة التاريخ الحضارى للإنسانية كلها ، على شخصية تدعى القومية بينما لم تخلقها سوى أطماع الاستعمار فى منطقة الشرق الأوسط ، ولم تجد سوى العنصرية والعدوان لتقتات عليهما . ولم يكن انتصار السادس من أكتوبر انتصاراً للقوات المسلحة المصرية فحسب بل كان انتصاراً للشخصية الحضارية لمصر كلها وفى هذا يقول السادات فى خطابه فى افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب فى ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ :

« لقد كنت أعرف جوهر قواتنا المسلحة ، ولم يكن حديثى عنها رجماً بالغيب ولا تكهناً ، لقد خرجت من صفوف هذه القوات المسلحة وعشت بنفسى تقاليدها ، وتشرفت بالخدمة فى صفوفها وتحت ألويتها ، إن سجل هذه القوات كان باهراً ولكن أعداءنا : الاستعمار القديم والجديد والصهيونية العالمية ، ركزت ضد هذا السجل تركيزاً مخيفاً لأنها أرادت أن تشكك الأمة فى درعها وفى سيفها ، ولم يكن يخامرنى شك فى أن هذه القوات المسلحة كانت من ضحايا نكسة سنة ٦٧ ولم تكن أبداً من أسبابها » .

ودور القوات المسلحة يبرز أيضاً فى كلمة ألقاها عبد الله نديم فى القرن الماضى ، فهو يعتقد أنها الدرع الواقى للشخصية المصرية من كل نوايا عدوانية . يقول عبد الله نديم فى وداع فرقة عسكرية تتأهب للذهاب إلى ميدان المعركة :

« من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل ، عرف ما وصلتم إليه من الشرف ، وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات ، فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم إليها سابق ، ولا يلحقكم فى إدراكها لاحق ، ألا وهى حماية البلاد ، وحفظ العباد ، وكف يد الاستبداد عنها . فلكم الذكر الجميل والمجد المخلد ، يباهى بكم الحاضر من أهلنا ، ويفاخر بأثركم الآتى من أبنائنا . ولقد ذكرتم باتحادكم ، وحسن تعاهدكم ، ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تغيب سيدنا عثمان فى أهل مكة ، من مبايعة أهل الشجرة على استخلاص صاحبهم ، فصاروا يعنونون بالعشرة المبشرين بالجنة ، وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الأوطان . وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهلكم من كل ما يذهب بالثروة ، أو يضعف القوة ، أو يخدش الشرف ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم » .

ويقول حمدى لطفى فى كتابه « أنور السادات : قصة إيمان بالعسكرية المصرية » إن السادات كان حريصاً دائماً على تركيز الإحساس بالأصالة المصرية فى نفوس الضباط والجنود طوال خدمته بالقوات المسلحة . يقول حمدى لطفى ص ١٨ :

« لقد ظل السادات مؤمناً بالعسكرية المصرية فأعطاها من روحه صياغات وطنية جديدة حرص على نشوئها وارتقائها فى أسلحة الجيش التى خدم بها ، كما كانت نوازعه التى يحملها فى ثناياه تدفعه للعمل بتركيز وتكثيف على التفاف الجماعة حول هدف واحد ، وتماسك هذه الجماعة وارتفاعها فوق المثالب واالخلافات الصغيرة ، لتنتشر وتثرى من حولها . .

وكان إحساسه متدفقاً دائماً بتأصل الجذور المصرية العريقة ، ونبتها البشرى ، أبنائنا ، أفراد قواتنا المسلحة ، أمس . . واليوم . . وغداً ، فعرف « زملاء الدفعة ، ثم رفاق السلاح » قيمه ومقاييسه حية نابضة خصبة ، تعطى وتجود دائماً بالثراء الإنسانى الذى خصه الله به ، برغم نشأته البسيطة وما تعرض له فى شبابه من تنكيل ومطاردة .

كان السادات ، وكل ما أذكره ، حدثنى فيه باستفاضة قدامى المعلمين ، ومنهم من ترك الخدمة العسكرية قبل قيام الثورة ، وبعضهم من تنبأ له بالهزيمة أمام الإنجليز ، حتى شاهدوه وهو الضابط الصغير يقف فى وجه ونشاط ومشروعات القيادة الإنجليزية بالشرق الأوسط ، ولكنهم فى الأعماق كانوا يأملون فوزه ، فمصريته وعقيدته القتالية التى عمل على تمصيرها بالرغم من أنف كبار القادة البريطانيين ، كانت أحلى وأعظم ما يرجو الإنسان أن يتحلى به ، وبخاصة لدى الضباط المصريين . .

كان السادات متصلا اتصالا وثيقاً بالحياة ، وكان يقول لقادته وزملائه :

« إن بعضنا غارق فى إحساس بالرضا عن نفسه وعن عمله ، وهذا البعض ببساطة يفتقر إلى هزة كبيرة ، هزة تقوده إلى فهم جديد ينقذه من التخلف النفسى ، بل من السجن الانفرادى الذى أغلقه على نفسه ، دون أن يرى أنه قابع بين أسوار هذا السجن » . .

جملة ذكرها لى اللواء متقاعد محمود مختار ، أحد قادة السلاح ، الذين أحيلوا إلى المعاش قديماً :

كان شابًّا بسيطاً يمثل أغلبية شباب مصر ، ثريًّا بحبها مؤمناً بضرورة التضحية بالروح من أجلها ، وباقتدار المقاتل المصرى على تحرير أرضه وحماية استقلالها ، وبالقيم التى ترقد فى داخله وبالطاقات الخلاقة لديه ، وبقوة الدفع التى يملكها . ومن أجل هذا استثمر نفسه فى المجموع حوله ، وبتميز وموضوعية عمل دائماً بمفهوم لا خطوة محللك سر ، والنظر إلى الماضى فى شجاعة » .

ويذكرنا موقف السادات من الإدارة الإنجليزية للجيش المصرى بموقف مصطفى كمال من الإدارة الألمانية للجيش التركى ، يقول مصطفى كمال فى كتاب « الذئب الأغبر » للكاتب الإنجليزى هـ.س. ارمسترونج ص ٤٩ :

« إنه لمن الجنون أن نسمح للألمان لكى يتحكموا فى جيشنا الذى يعد الدرع الواقى الأساسى للدفاع عن حياتنا . نحن الأتراك يجب أن ندبر أمورنا بأنفسنا . وإنها لإهانة قومية أن ندعو البروسيين للقيام بهذه المهمة بالنيابة عنا » .

وبرغم الفارق الشاسع بين ديكتاتورية مصطفى كمال وديمقراطية أنور السادات ، إلا أنه من الواضح أن السادات قد أعجب بدعوة مصطفى كمال إلى التأصيل الفكرى إذ أنه يقول فى مجلة « التحرير » فى أول مارس ١٩٥٤ :

« أما الكتاب الذى أثر فى تفكيرى فكان « الذئب الأغبر » بالإنجليزية ومؤلفه « ارمسترونج » وهو يروى تاريخ حياة مصطفى كمال أبو تركيا الحديثة . . قرأته وأنا فى العشرين من عمرى ، ولم أعرف بعد قراءته طعم الراحة » .

وكان قرار السادات بإنهاء مهمة الخبراء السوفييت استمراراً لنفس خط التأصيل الفكرى الذى يحتم اعتماد المصريين على أنفسهم أساساً . وتعود جذور هذا التأصيل المصرى إلى العصور التى سبقت عهد تحتمس الثالث . والمعلومات القتالية مستقاة من بحث ممتع نشره ر. ا . فوكنر فى المجلد التاسع والثلاثين من مجلة « الآثار المصرية » وفيه يوضح أنه عندما كانت نذر الحرب تتجمع فى الأفق فى عصر المملكة القديمة ، كان « الموظفون المحليون يطالبون بتشكيل وقيادة حصة من القــوات الخاضعة لسلطتهم » . .ومن ثم كان الجيش كامل التعبئة يشتمل على عدد كبير جداً من الكتائب المحلية على هيئة المليشيا ، مكونة من رجال سبق أن أدوا الخدمة العسكرية فعلا أو حصلوا على قسط معين من التدريب العسكرى . وتوجد على جدران مقابر المملكة القديمة فى سقارة مناظر توحى بأن القوات المصرية كانت حسنة التدريب ، عالية الكفاءة ومن المحتمل أن طلائع القوات كانت تشكل من جنود نظاميين مدربين

يدعمهم مجندون . وكان الملوك يعمدون إلى استدعاء الرجال وحشدهم من جميع أنحاء البلاد إذا ظهرت نذر الحرب فى الأفق .

وكانت القوات تحشد أيضاً فى وقت السلام لا لأداء المهام العسكرية فحسب ، بل لتنفيذ المشروعات العمرانية العامة كالعمل فى المحاجر ، وكان لقب « القائد » يطلق أحياناً على الموظفين الذى ينفذون أعمالا ليست ذات طبيعة عسكرية ، وكانوا يعاملون بنفس الاحترام الذى يعامل به قادة الحرب . والتاريخ يقارن بين ثلاثة قادوا الحملات إلى سيناء ، وثلاثة تولوا أعمال المحاجر فى وادى الحمامات وطره . وقد عرف عن هؤلاء القادة أنهم يعملون ولا يتكلمون ، فهم يؤمنون أن الأعمال أعلى صوتاً دائماً من الأقوال . وهذا على عكس الأقاويل والشائعات المغرضة التى تقول إن الشخصية المصرية بطبيعتها تميل إلى الكلام أكثر من إقبالها على العمل المجدى . فيقول ليونارد كوتريل فى كتابه « الحياة فى عهد الفراعنة » ص ٣١ :

« كان المصريون القدماء قوماً عمليين ، ولهذا كان التقدم الباهر الذى أحرزوه فى الهندسة المعمارية والنحت والفلك والحساب وليد المنفعة الخالصة أساساً ، ولكنهم بعكس الإغريق ، لم تكن تهمهم المعرفة لذاتها لأنهم يهتمون بكل ما يعود عليهم بالفائدة العملية ، فالعبرة بالمحصلة النهائية وليس بمجرد النوايا الحسنة . ومع ذلك فإن الإغريق مدينون للمصريين القدماء بالشىء الكثير ، فقد وجدوا فى مصر رصيداً هائلا من المعرفة العملية النافعة التى كانت بمثابة المادة الخام لكل العلوم التى عرفتها البشرية حتى عصرنا هذا . فلقد برع المصريون بدرجة مذهلة فى الرياضيات العالية التى طبقوها بإتقان فى حياتهم العملية ، وبالتالى كانوا أول من أدرك أهمية التكنولوجيا ، وليس أدل على ذلك من ضخامة مبانيهم وبالأخص الأهرامات التى كان بناؤها إلماماً تاماً بالرياضيات العالية .

كانوا يعملون ولا يتكلمون ، ولذلك قل اهتمامهم بالفنون الكلامية مثل المسرح والخطابة . هذا ما عدا الحكم التى كان يدلى بها الحكماء من حين لآخر . ولكن نبوغهم امتد ليشمل الفنون الأخرى مثل النحت ، ولكن روائع فن النحت التى تذهلنا لم تخلق لذاتها ، بل إن صانعيها لم يكونوا يرغبون فى أن تقع عين بشرية على الكثير منها ، لأن بعضها يحكى بدقة وبطريقة واقعية حياة الميت . ولهذا وضع فى غرف المقبرة البعيدة عن الأنظارباعتبارها – أى المقبرة – المنزل الذى تسكنه الروح . وهناك ، بالإضافة إلى ذلك ، المناظر الجميلة المصنوعة من الجص أو المرسومة والتى ما زالت تثير بهجتنا وإعجابنا حين تقع عيوننا عليها فى المقابر والمعابد ، تلك المناظر التى تصور لنا بوضوح رائع حياة المصريين القدماء اليومية . وهذه المناظر لم توضع فى أماكنها للمتعة أو الزينة ، ولا للكلام عن ثراء الميت وأهميته ، وإنما كان الغرض منها سحرياً . وهو ضمان حصول الموتى فى حياتهم الثانية على كل ما كانوا يملكونه ويتمتعون به فى حياتهم الحاضرة : فللضابط الميت جنوده ، وللسيد الثرى مزارعه وضياعه ، فضلا عن كميات هائلة من الطعام والذبائح » .

ويقول ر. ا. فوكنر فى بحثه الذى نشر فى المجلد التاسع والثلاثين من مجلة « الآثار المصرية » إن الحياة العسكرية فى مصر القديمة كانت تعتمد أساساً على العلم والعمل والنظام والإيمان . وكانت الانتصارات العسكرية الباهرة التى أحرزها المصريون القدماء ترجع إلى تفوقهم المذهل فى تكنولوجيا الحرب ، فكانوا يعتبرون الحرب فناً من الفنون الحيوية التى يتحتم عليهم إجادتها دفاعاً عن وطنهم . بل إن معظم الأنظمة العسكرية المطبقة فى جيوش العالم اليوم تنهض على الأسس الأولى التى وضعها المصريون . فمثلا كانت الخدمة العسكرية – التى لم تعرف فى أوربا إلا منذ قرنين تقريباً – نظاماً معمولا به فى المراحل المبكرة من تاريخ مصر . فمنذ خمسة آلاف سنة كان الشبان المصريون فى سن الخدمة العسكرية يستدعون لأداء هذه الخدمة فى المناطق المحلية ، ثم يعودون بعد ذلك لأعمالهم العادية ،

ولكنهم يبقون تحت الطلب إذا دعت الضرورة لاستدعائهم وكانت الدولة تقدم لهم الغذاء والكساء فى أثناء فترة الخدمة العسكرية . ولكننا لا نعلم هل كانوا يحصلون على أجور أو لا .

وكان الملوك والقادة المصريون يؤمنون أن دور الجيش ليس مجرد حماية الأراضى المصرية ولكنه حماية الشخصية المصرية بكل ما تحمله من حضارة وثقافة وتراث وتقدم . ولذلك كان من الوظائف الهامة التى اضطلعت بها القوات فى عصر المملكة القديمة وما بعدها تعيين حاميات للقلاع ونقط الحراسة الموجودة على حدود مصر ، والطرق المؤدية إلى آسيا والنوبة . وبذلك كان الجيش عاملا سواء فى الحرب أو السلم . فقـد كان المقياس الوحيد لحيوية وأهمية أى عنصر فى الأمة هو الدور العملى الذى يؤديه هذا العنصر فى حماية الأمة وأمنها وسلامتها ورفاهيتها . ومن هنا كان اهتمام المصريين بالجيش ، فقد كان دوره حضارياً أكثر منه حربياً . ولذلك كان تنظيمه على مستوى تنظيم أحدث جيوش عالمنا المعاصر. وبدون ذلك الجيش المتقدم ربما كان من المتعذر أن تنهض الشخصية المصرية بهذا الدور الحضارى الذى ما زال يذهل قرننا العشرين . فقد كثر الطامعون فى مصر وخيراتها ، ومن أجل الحصول على هذه الخيرات والموقع الاستراتيجى الممتاز ، كان الهدف إذلال الشخصية المصرية بكل كبريائها ووضع أنفها فى التراب . ولكن كان الجيش المصرى بالمرصاد لكل هذه المحاولات ، ليس بالاعتماد على الحماس الانفعالى وحده ، ولكن اعتماداً على التنظيم الفعلى ، فقد كان إيمان المصريين بالأفعال أكثر من غرامهم بالانفعال .

وتدل النقوش المتخلفة من المملكة الوسطى على أنه كانت هناك رتب عسكرية إلى جانب رتبة القائد أو الفريق فمثلا كان هناك « قائد قوات الصاعقة » و « مدرب القوات غير العاملة » . ويحتمل أن « قوات الصاعقة » كانت مشكلة من رجال مختارين للقيام بأعمال الهجوم . أما رجال « القوات غير العاملة » فكانوا أصلا رجالا غير عسكريين ، ولكنهم سرعان ما أصبحوا « حرس الملك الخاص » الذى يرافقه كلما خرج للحرب . وكان « كتبة الجيش » يتولون الجانب الإدارى فى الجيش ، وكان عدد هؤلاء الكتبة كبيراً . وكثيراً ما نصادفهم عند اطلاعنا على سجلات الحملات . وكانت لهم أيضاً درجات مختلفة ، فهناك الكاتب الصغير الذى كان يدير شئون فصيلة صغيرة ، والكاتب الكبير الذى كان يباشر أعمال كتيبة كبيرة بكل عتادها وتموينها . وكانت أعمال هؤلاء الكتبة شبيهة بأعمال « صول التعيين » فى الجيوش الحديثة مع فارق واحد هو أن كتبة الجيوش الفرعونية كانوا مسئولين أيضاً عن تجنيد الشبان المطلوبين للخدمة العسكرية . ولكننا لن نستطيع الحصول على صورة كاملة للدور الحضارى الذى قام به الجيش المصرى القديم فى حماية الشخصية المصرية من أن تنطمس ملامحها على أثر الغزوات والحروب المتتالية ، إلا إذا درسنا سجلات المملكة الحديثة .

ففى عصر الأسرة الثامنة عشرة أصبح المصريون الشعب العسكرى الوحيد والأول فى ذلك الحين . فبعد سقوط المملكـة المصرية الوسطى ، غزا مصر البرابرة الآسيويون ، الهكسوس أو « ملوك الرعاة » ولكن أمراء طيبة المحاربين استطاعوا طرد الهكسوس من مصر. وأنشأ خلفاؤهم الأسرة الثامنة عشرة ، بعدها بدأ مجد مصر العسكرى . ولقد صمم ملوك هذه الأسرة وهم أحمس وأمنيوفيس الأول وأمنيوفيس ومن تبعهم من ملوك يحملون اسم تحتمس ، على تأمين بلادهم ضد خطر الغزو من ناحية آسيا فى المستقبل . وكان الفرعون هو القائد الأعلى للجيش ، وكان هو الذى يتولى قيادته عادة فى الميدان . وكان الوزير – وعمله شبيه بعمل وزير الحربية الآن – يصدر أوامره إلى مجلس الحرب الذى يتولى مساعدته . أما فى الميدان ، فكان الملك يستشير كبار ضباطه قبل الاشتباك فى المعارك . وفى ذلك الحين كان الملك يحتفظ بجيش عامل كبير منظم على أساس قومى من جنود نظاميين .

وكان الجيش المصرى القديم لا يركن إلى الراحة والدعة أبداً ، فقد أدرك أن العمل المتواصل واليقظة المستمرة

والتطوير الدائم هو من الضمانات الكافية للحفاظ على معالم الحضارة المصرية . وعلى سبيل التأصيل الفكرى يقول السادات فى خطابه فى عيد العمال فى أول مايو ١٩٧٢ :

« إن الله سبحانه وتعالى أكرمنا بشىء واحد هو العمل . وشعبنا عبر عن عرفانه بهذا الكرم بشىء واحد هو الإخلاص لهذا العمل . كل ما حولنا ، كل ما على أرضنا ، لا يمثل إلا العمل ولا شىء غير العمل . الأرض الزراعية منذ الأزل عمل الإنسان ، الحضارة فى كل العصور والعهود عمل الإنسان ، الصناعة عمل الإنسان ، التطوير المستمر عمل الإنسان . عمل وجهد الإنسان بفكره وذراعه هو عطاء الله سبحانه وتعالى لنا ، نحمده عليه ، ونواصل الشكر إزاءه ، عرفاناً وتقديراً » .

ونحن لا نستطيع أن ندرك مفهوم الشخصية المصرية إلا من خلال العمل الحضارى المجسد لها . ولذلك كانت الشخصية المصرية هى هدف كل الغزوات العدوانية ابتداء من الغزوة الهكسوسية حتى الغزوة الصهيونية فى يونيو ١٩٦٧ . فإذا أصيبت إرادة المصريين ورغبتهم القوية فى العمل بالشلل فإن ملامح شخصيتهم القومية سوف تندثر وبالتالى لن تقوم لهم قائمة . ولهذا كان السادات يرجو مخلصاً ألا يستجيب أى مصرى أو عربى للحملات النفسية الشرسة ضدنا بقصد البلبلة والتشكيك والتى هدفها النهائى هو احتلال نفوسنا قبل احتلال أجزاء من أراضينا . ومن هنا تبدو ضرورة وحتمية الالتزام بقيم المجتمع العربى وتقاليد الشخصية المصرية ، وتوكيد ذاتية الإنسان المصرى العربى ، ورفض أى تيار يهدد هذه القيم . فشعب مصر الذى أسهم فى كل معارك عالمنا العربى من أجل تحقيق الحرية وعلى طريق البناء الاقتصادى والتقدم الاجتماعى والتعمير الحضارى لن يتخلى عن مواصلة نضال يؤمن عن اقتناع أنه مسئولية تاريخية يحمل عبء قيادتها .

وتبدو حيوية فلسفة التأصيل الفكرى وضرورتها بعد التحول الكبير الذى عاشه العالم ابتداء من عام ١٩٧٢ بدخول الدولتين الأعظم – الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى – مرحلة الوفاق وتبادل المصالح فيما بينهما ثم انفتاح كل منهما على ما كان يعتبره عدوًّا له . هذا التحول فى السياسة العالمية يحتم على الشعوب والدول النامية ودول الشرق الأوسط فى مقدمتها أن تؤكد شخصيتها القومية وذلك بالاعتماد على قدراتها الذاتية قبل أى شىء آخر ، وأن تكون لطاقاتها البشرية القول الفصل فى معاركها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية . وكان السادس من أكتوبر العظيم هو الدرس العملى والرائد فى مجال تأكيد وبلورة الشخصية القومية للمصريين والعرب على حد سواء . وقد نختلف فى العالم العربى اختلافاً شديداً فى آرائنا السياسية ومعتقداتنا الاجتماعية ، ولكن مسئوليتنا المشتركة هى أن نحافظ على شخصيتنا المميزة والمحترمة غير ملوثة بالمؤثرات العابرة والعوامل الطارئة . وليست هذه مسألة عاطفة ، فلا يهم كثيراً أن يمتدح بعضنا أفكار وآراء البعض الآخر ، إنما المهم هو أن نعترف بالصلة الوثيقة بيننا ، وباستنادنا بعضنا إلى بعض . قد لانستطيع فى الوقت الحاضر أن نندمج اندماجاً كليًّا ، ولكننا نستطيع على الأقل المحافظة على الشخصية القومية لهذه الأمة العريقة . ففى عالم رأى من الدمار المادى مثل ما رآه عالمنا ، تتعرض هذه الشخصية القومية أيضاً للخطر إذا لم نواصل يقظتنا المستمرة من أجل الحفاظ عليها . فهى الواجهة الوحيدة التى نستطيع أن نتعامل من خلالها مع العالم كله على أساس من الاحترام المتبادل .

هذا هو مفهوم السادات للشخصية المصرية والشخصية العربية على حد سواء . وهناك تنويعات جانبية تتفرع من هذا المفهوم وتتمثل فى روح القرية ، والكيان الأسرى ، وقضية الشباب ، والمرأة الجديدة . ولذلك آثرنا أن يدور كل فصل على حدة ، من الفصول الأربعة التالية ، حول تنويعة من هذه التنويعات الجانبية حتى تتكامل أبعاد الصورة فى ذهن القارئ . وسنبدأ فى الفصل التالى بروح القرية فى فلسفة رائدنا فى التأصيل الفكرى : أنور السادات .

الفصل الثامن

روح القرية

ترتبط روح القرية ، فى فلسفة التأصيل الفكرى عند السادات ، ارتباطاً عضويًّا بكل من مفهوم الإيمان عنده ، وكذلك الضرورة الأخلاقية ، والوعى بالتاريخ ، والتعمير الحضارى ، وأخيراً الشخصية المصرية . فليس الأمر مجرد إحساس رومانسى أو عاطفى ، أو حنين جارف إلى براءة الطفولة وحلاوة الصبا الذى ترعرع فى تلك البيئة الريفية الوادعة الهادئة الطيبة الكريمة ، ولكن المسألة تكمن فى أسلوب النشأة والتربية والتعليم والتفكير والخلق والسلوك . إنها نظرة عملية إيجابية أكثر منها نظرة رومانسية حالمة . ولذلك يقول مخاطباً ابنه فى كتابه « يا ولدى هذا عمك جمال » ص ٢٠ :

« والسنين التى عشتها فى القرية قبل أن أنتقل إلى المدينة يا بنى ، ستظل بخواطرها وذكرياتها زادا يملأ نفسى ووجدانى بالصفاء والإيمان ، فهناك تلقيت يا بنى أول دروسى فى هذه الحياة . . تعلمتها على يد الأرض الطيبة السمحة ، التى لا تبخل على الناس بالزرع والثمر . . وتعلمتها من سماء قريتنا الصافية المشرقة . . تعلمتها فى ظل الجميزة الخضراء الصامدة ، وعلى أغصان الصفصافة الخجول الوديعة . . تعلمتها على حافة الجدول الصغير ، الذى ينقل إلى الحقول ترياق الحياة فى رضا وقناعة . . تعلمتها فى ظلال الأمسيات البريئة مع زملائى من شباب القرية ، ونحن نلعب تحت ضوء القمر فى شوارع القرية الساكنة الهاجعة » .

والحنين الشديد إلى القرية عند السادات لا يعنى رفض روح العصر والحضارة الحديثة ، ولكنه يعنى رفض التعقيدات والتناقضات والصراعات والأزمات التى تنتجها هذه الحضارة . فلقد أدى التخصص الضيق والتنافس المجنون إلى انتهاك القيم الروحية للإنسان ، مما أفقد الإنسان ثقته فى نفسه ، وأضاع راحة باله وسعادته النفسية ، وكان هذا ثمناً باهظاً مقابل الامتيازات المادية والإنجازات التكنولوجية التى حصل عليها . والتمسك بروح القرية ليس دعوة إلى الوراء أو إلى البدائية بحيث نولى ظهورنا لمدنية العصر ، ولكنه نداء للعودة إلى القيم الإنسانية والإحساسات السامية التى نسيناها فى حومة الصراع من أجل الحصول على كل الامتيازات المادية الممكنة . وروح القرية تعنى أيضاً التخلى عن العبث الذى يسود حياتنا المعاصرة المعقدة ، مما أدى إلى انعدام المعنى والهدف من معظم تصرفاتنا وسلوكنا .

وقد مر المجتمع العالمى بمرحلة عصيبة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية تحطم فيها العديد من الأصنام ، وانهار فيها الكثير من التقاليد التى كانت تعد من المقدسات التى لا تمس ، منها على سبيل المثال أن الإنسان مخلوق حضارى ولا يصدر عنه إلا كل ما هو حضارى ، على حين أثبتت الحرب العالمية الثانية أن كل ما بناه الإنسان من حضارة وتراث يمكن أن ينهار فى لحظات بفعل إنسان آخر مثل هتلر . وهذا نتيجة طبيعية للتفتت والضياع والتشويه والتشتيت والعبث الذى نتج عن صراعات الحضارة المادية المعاصرة ، مما أفقدنا القدرة على رؤية الأشياء بحجمها الطبيعى وذلك من الأعراض الأساسية للانحطاط الفكرى الذى لم تتخلص منه الإنسانية عبر تاريخها الطويل .

وقد أدت القوة الهائلة التى امتلكتها الآلات التى لا نعرف عنها إلا القليل ، وشعور أكثرنا بأنه قد وقع فى شرك وظائف لا تزيد على أن تكون جانباً ضئيلا من عملية ضخمة ، كل هذا أدى إلى وضع لا يسمح لنا بفهم مغزاها أو أسلوب سيرها ، وسيطرة إحساس العبث والضياع على الإنسان المعاصر نتيجة لسيطرة الآلة على حياته ، فقد

ابتكر الإنسان الآلة حتى تكون فى خدمته ثم انقلب الأمر فى عبثية مضحكة مؤلمة بحيث أصبح الإنسان فى خدمة الآلة . وتحول الناس بالتالى إلى تروس فى الآلة الاجتماعية الكبيرة بفعل التخصص ، كل يعيش فى قوقعته ومشكلاته يكاد لا يجد لغة يخاطب بها زميله فى العمل أو جاره فى السكن . حتى إن الشاعر الألمانى هاينى عبر عن هذا العصر الآلى بقوله : « لقد أصبحت الحياة مفتتة أكثر مما ينبغى » .

ومع تضخم المشكلات وتعقد الحياة بدا العالم بأسره كأنه أكداس مختلطة من الشظايا ، إنسانية وغير إنسانية ، عتلات وأيد ، عجلات وأعصاب ، حوادث يومية تافهة وأحداث مثيرة عابرة ، وأصبح خيال الإنسان عاجزاً عن التأليف بين آلاف التفاصيل المتباينة التى يتلقاها يوميًّا مما أفقد حياته معناها وبالتالى الهدف الذى يعيش من أجله . ومن هنا كان التمسك بتقاليد القرية وأخلاقياتها محاولة عملية وجادة للتخلص مما يعانى منه إنسان النصف الثانى من القرن العشرين ، سواء كان يعانى من التفكك أو التشتت أو امتزاج الأفكار غير المتجانسة أو فقدان وضوح الرؤية أو عدم القدرة على تحديد الوسيلة والغاية أو على الفصل بين الواقع والخيال ، أو التكرار الناتج عن الافتقار إلى الأفكار الجديدة الخلاقة ، أو الرتابة التى تحول الحياة إلى مجرد وجود بدائى لا طعم له ولا معنى .

وعندما نقول إن روح القرية هى نظرة عملية وإيجابية أكثر منها نظرة رومانسية حالمة ، فإننا نشير إلى الفوارق الجوهرية بين مفهوم السادات ومفهوم العصر الرومانسى فى أوربا والذى بلغ قمته فى القرن الماضى كنوع من مقاومة طغيان الانقلاب الصناعى الذى سلم مقادير أمور العالم إلى عنصرى التخصص والتنافس . وقدتميز العصر الرومانسى بحنينه الفياض إلى الطبيعة البدائية والوحشية التى لم تمسها يد الإنسان ، وإلى العصور الخوالى ، بل وتقديره الجسم للعصور الوسطى مما يتجلى فى نظرته إلى الماضى باعتباره شيئاً له قيمته الدائمة فى حد ذاته كنتاج باهر للعقل الإنسانى ، كما يتجلى فى اعتبار كل عصر وليكن العصر الوسيط مرحلة من مراحل التطور الإنسانى نحو التعمير الحضارى ، هذا فضلا عن الإحساس الوجدانى بما للماضى من حنين يشد الإنسان إلى ماضيه كما يشد الشعوب إلى ماضيها فيبدو فى محاولة تقليده أو بعثه أو الإشادة به إشادة تدعو إلى العودة إليه وإحيائه كما يبدو من الشعوب ذات الحضارات القديمة الآفلة فى محاولتها للتعمير الحضارى لا بإحياء الماضى فحسب ولكن لأنها ترى فى أمجاد الماضى حافزاً على التعمير الحضارى . وهو الحنين الذى أدى بجان جاك روسو الرائد الأول للرومانسية ، إلى العودة إلى أحضان الطبيعة وتمجيد ما أطلق عليه اصطلاح « الوحشى النبيل » .

هذا الحنين التاريخى هو الذى أدى إلى العصر الرومانسى ، وكانت بداياته الأولى واضحة فى الأدب الأوربى كما نجد فى قصيدة « القرية المهجورة » للشاعر الإنجليزى أوليفر جولدسميث الذى عبر فيها عن أساه وألمه لما أصاب أوبرن القرية التى أودى الانقلاب الصناعى بطابعها الريفى البسيط وحياتها البريئة الوادعة . فالقصيدة كلها حنين جارف للحياة الريفية الطبيعية الهادئة . وكان الوجدان الأوربى ممهداً لهذا الاتجاه الرومانسى بحيث طغت موجته على معظم إنتاج المفكرين والأدباء من أمثال وليام وردزورث وشيللى وكيتس وكولردج والفريد دى موسيه ومدام دى ستال وفيكتور هوجو وجيته وشيللر وغيرهم . وهذا الاتجاه أشبه بما يسميه جون كينيث جلبريث أستاذ الاقتصاد بجامعة هارفارد « الحنين الاجتماعى » ويقصد به حنين الإنسان إلى الأشياء القديمة البائدة وإن لم يرغب فى العودة الفعلية إليها . فيقول جلبريث إنه « على الرغم من أننا كثيراً ما نفضل القاطرة البخارية بفحيحها وعجيجها على قاطرة الديزل الصامتة المعقدة ذات المحرك الداخلى فإننا لا نصر على العودة إليها » . ولكنه يرى عكس ذلك فيما يختص بالحياة الاجتماعية . فإن الحنين إلى النظرة الاجتماعية القديمة يؤدى بنا فى النهاية إلى تفضيلها والعودة إليها ما أمكن ذلك .

ويرى بعض المفكرين أن الحنين إلى الماضى حيث البراءة والبساطة والوداعة والسماحة هو الذى يدفع المؤرخ

بحثاً فى مخلفات الماضى لا بقصد المعرفة فى ذاتها ولكن لكى يستشف من معرفته بالماضى ما يرضى حنينه إليه ويشبع عاطفته بما يطالعه من صور ترضى خياله ، يراها أحياناً ممثلة للبطولة كما رآها كارليل أو فى الأدوار التى لعبها القادة العظام على مسرح التاريخ الإنسانى كما رآها بلوتارك ، أو يراها فى تميز حضارة من حضاراته بطابع معين أو فى الصورة الإنسانية لجهد الإنسان على الأرض . وطبقاً لهؤلاء المفكرين فإنه مهما اختلفت اهتمامات المؤرخين فإنها بلا شك تعبر عن حنينهم المشترك لجانب من جوانب الماضى العديدة .

ولكن روح القرية فى فكر السادات لا يقصد بها مجرد الحنين أو العودة إلى الماضى . فهى – كما قلنا – نظرة عملية إيجابية أكثر منها نظرة رومانسية حالمة . فالسادات يعتقد أنه ليس كل ما فى الماضى إيجابياً ومثالياً ويتحتم اتباعه ، ولكنه يؤكد أن النظرة الموضوعية تحاول بقدر إمكانها تجنب سلبيات الماضى وتدعيم إيجابياته فى الوقت نفسه . وعندما ينادى بإعلاء قيم القرية وتقاليدها وأخلاقياتها فإنه بذلك يدعم المثاليات التى افتقدناها من جراء الصراع المادى الرهيب الذى أنتجته المدنية المعاصرة . وهذه المثاليات تبدو واضحة فى أخلاقيات القرية التى تنهض على الوفاء والحب والتعاطف والتراحم والتعاون والتسامح والكرم والطيبة والبراءة والإيثار والتضحية . وفى هذا يقول السادات فى خطابه فى مجلس الشعب فى ٢ يونيو ١٩٧١ :

« علينا ألا ننظر إلى الماضى إلا بقدر ما نفيد من تجربته . لقد أراد البعض أن يستغلوا مراكزهم وأن يفرضوا سلطة لا يملكونها على هذا الشعب وعلينا أن نضع الضوابط والحدود التى تضع لكل سلطة حدودها وتنظم التعاون بينها وإن أبعاد الأحداث التى مرت بنا يجب ألا تصرفنا عن المعركة ولكن يجب ألا تنسينا واجبنا فى تطهير كامل يصحح أوضاعنا تصحيحاً كاملاً لكى تستمر مسيرتنا أقوى وأقدر دائماً وباستمرار . ومن ذلك كانت مطالبتى أن يتضمن دستور جمهورية مصر العربية باباً يطلق عليه باب الأخلاق . إن القرية المصرية التى تعتبر النواة لشعبنا المصرى زاخرة بالقيم العظيمة التى يمكن أن تكون هادية لنا على طريقنا » .

وروح القرية تسعى إلى أن يسترد الفرد كيانه الذى فقده فى حومة الصراع الوحشى على المكاسب المادية ، لأنه بعد أن كانت سعادة الفرد هى الهدف فى حين أن كيان المجتمع هو الوسيلة ، انقلبت الآية وأصبح كيان المجتمع هو الهدف فى حين تحتم فناء كيان الفرد داخل الكيان الكبير بحيث لم يتعد دوره دور الترس الصغير فى الآلة الاجتماعية الكبيرة بعد أن كان سيداً لموقفه فى المجتمع القديم . وفى هذا يقول الفيلسوف الإنجليزى برتراند راسل إنه كان لتأثير الفرد وفاعليته فى المجتمعات القديمة أساس من نظام اللامركزية السائدة فى المذاهب السياسية والاقتصادية فى الماضى . كان الفرد المتميز ينشأ فى الماضى بفضل مجتمع أو هيئة معينة ينتمى إليها ويلتزم بخدمتها والنهوض بها . وكانت تجرى بين هذه الهيئات منافسة وتسابق يثير فى أفرادها حمية العمل الجاد من أجل التميز ، كما نرى فى المدن الإغريقية القديمة حيث كان لكل مدينة فنانها وفيلسوفها وعالمها ، أوكما نرى فى إمارات عصر النهضة فى إيطاليا حيث كان لكل إمارة فنانها وفيلسوفها وعالمها أيضاً . لكن عالم اليوم هو عالم الإمبراطوريات الكبيرة التى يضيع فيها ارتباط الفرد بمجتمعه ويضيع معه أيضاً شعوره بالانتماء إلى أسرة أو مجتمع محدود يعرفه ، كالقرية مثلا ، ولم يعد عنصر المنافسة الشخصية والتشويق فى العمل الابتكارى موجوداً بنفس الدرجة التى كان موجوداً بها حين كانت المنافسة ذات الروح الرياضية والتشويق الدافع إلى الابتكار حافزاً للفرد على الإتقان والتميز ، فلم يعد فنان مانشستر اليوم يشعر نحو فنان شيفيلد بما كان الفنان الأثينى يحس به نحو الكورنثى أو الفنان الفلورنسى نحو الفينيسى .

فالكيانات الاجتماعية الكبيرة فى العصر الحديث التى تجند الفرد فى خدمتها لا تجعل له مكانته القديمة التى تبرز شخصيته من خلال إنتاجه . وضاع فى علاقات الإنتاج الحديث ذلك الشعور الممتع بملكية العمل أو الاعتزاز به ،

لذلك فقد أصبحت أهم مشكلات الإنتاج الحديث هو إعادة ذلك الشعور الذى كان عند الفلاح والعامل والمنتج القديم . ولا سبيل إلى ذلك فى رأى برتراند راسل إلا الرجوع إلى نوع من المحلية أو اللامركزية التى تعيد للعامل شعور انتمائه إلى أسرة معينة يعرفها ويشعر بالارتباط التام معها بحيث يمكنه فى النهاية أن يقول : « هذا هو عملى أو إنتاجى أو عملنا أو إنتاجنا » . ولعل هذا يتجسد فى أجلى صورة فى روح القرية التى تمنح لكل ذى حق حقه . وخير خدمة يمكن أن تؤدى لتطهير الحضارة المعاصرة من شوائبها ورواسبها وصراعاتها ، هى تطوير روح القرية وتمكينها من السيطرة على تيار العصر بكل سرعته حتى تضع له الضوابط والحدود الكفيلة بتجنب سيطرة قانون الغاب ، وتجعله ينطلق فى الإتجاه الانسانى المنشود .

وروح القرية وأخلاقياتها من الأهمية الحيوية بحيث نجد المشرعين القانونيين وهم يحاولون فرضها على الكيانات الاجتماعية الكبيرة من خلال سن القوانين التى تضع الضوابط والحدود للسلوك الإنسانى داخل المجتمع الكبير . فإنه إذا كان لهذه الكيانات الضخمة سلطان كبير على الأفراد فى نوع إنتاجهم فإن تأثيرها على حياتهم الأخلاقية أمر ضرورى لترابطهم واستمرار حياتهم . ويظهر هذا السلطان فى القواعد العامة والتشريعات الأخلاقية التى يأخذ بها الكيان الاجتماعى الكبير فى عالمنا المعاصر . وهذه القواعد والتشريعات هى التى تحفظ للجماعة بقاءها ، غير أن الكيان الفردى للمواطن هو الذى يضفى قيمة على هذا البقاء ، بل يضمن له الوجود من الأساس لأنه العنصر الرئيسى الذى يقوم بوضعه موضع التنفيذ . ويبدو سمو أخلاقيات القرية فى أنها لا تؤمن بأن القيام بالواجبات نحو الجار مثلا هو مجرد أمر تفرضه الأخلاق المدنية العامة ، فالسمو الأخلاقى للإنسان لا يقتصر على مجرد أداء الواجبات ولا ينبغى أن تستمد الأخلاق السامية مصدرها دائماً من الواجب كفرض لا مفر منه بل من تلقاء ذاتية الفرد . ومن هنا كانت المتعة التى يستشعرها القرويون والفلاحون فى قيامهم بالواجب تجاه أبناء قريتهم . ولذلك يقول السادات لعبد التواب عبد الحى فى مجلة « الإذاعة » بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩٥٩ : « فى القرية الطنبور والحقول وصوت ماكينة الطحين . . فى القرية بساطة الإنسان وأصالة المجتمع . . فى القرية السلام » . وعندما سأله عبد التواب عبد الحى : « أنت ابن الريف . . ماذا بقى لك من طباع الريف الغضة ؟ » أجاب السادات : « لا أعرف بالضبط ماذا بقى من طباع الريف وعاداته . . ولكنى أعتقد أننى لو تخليت عن الروح الريفية التى تسرى فى دمى ، سوف أفشل حتماً فى حياتى » .

ولم تكن روح القرية مجرد إحساس ممتع عند السادات ، بل كانت سلوكاً عمليًّا مجسداً لكل مقوماتها . فالقرية عنده هى الوحدة الإنسانية الأولى التى يمكن أن ينطلق منها كل نشاط إنسانى خلاق . وفى هذا يقول النقيب رفعت ماضى لحمدى لطفى فى كتابه : « أنور السادات : قصة إيمان بالعسكرية المصرية » ص ١٥٣ :

« كان لى شرف الانتساب إلى نفس القرية التى ولد فيها الرئيس السادات ، وقد زاملته فى مدرسة الأقباط الابتدائية بقرية طوخ دلكة ، وتبعد قليلا عن قريتنا ، بل كنا فى (كتّاب) واحد يملكه الشيخ عبد الحميد عيسى قبل المرحلة الابتدائية . . وفى سلاح الحدود خدمت معه ، كان عليه أن يحاضرنا بمدرسة اللاسلكى بالجبل الأصفر ، وبعد دروس اللاسلكى يبدأ درس الوطنية ، وتوعية الجنود خاصة ممن كانوا فى حاجة إلى التوعية السياسية وفهم ما يدور فى بلادهم . .

ومن أبناء قريته عمل معه عدد ليس بقليل من شباب عمره فى إعداد القنابل اليدوية بعد تدريبهم عليها ، لإلقائها على معسكرات الاحتلال البريطانى . . وفى عام ١٩٤٢ ، كان قادة سلاح الحدود من الضباط الإنجليز ، وكثيراً ما شهدنا مواقف وطنية له ضد تعسف الضباط الإنجليز ومحاولاتهم المستمرة للنيل من كرامة ومعنويات الجنود المصريين . .

وأذكر أنه اعتقل ثلاث مرات فى معتقل ماقوسة بالمنيا ، وفى معتقل الزيتون ، وفى معتقل هاكستب ، ودخل سجن الأجانب ، وسجن مصر ، بشرف الاشتغال بالوطنية . . وكنا نجمع النقود من زملائنا لزيارته فى سجن الأجانب ، فثمة ضابط إنجليزى كان لا يسمح بالزيارة إلا فى مقابل جنيهين عن كل لقاء به .

وفى قريتنا وهذا للتاريخ ، حرص الرئيس السادات على معاونة عدد كبير من الفلاحين على تعليم أبنائهم قبل الثورة ، حتى المرحلة الجامعية ، وما عرف بفلاح يواجه أزمة إلا وأسرع إليه يقف إلى جانبه ويمده بأقصى العون » .

هذه هى روح القرية عندما تتحول إلى سلوك عملى ، ولذلك يسعى السادات بكل إمكانيات المنهج العلمى إلى تخطيط شامل لإصلاح الريف وحل مشكلاته ، وخاصة أن الريف المصرى يشكل أكثر من ثلث تعداد السكان ، ويشكل أيضاً المصدر الأساسى للإنتاج الزراعى كله . ولذلك يمثل الريف نقطة البداية الوحيدة للانطلاق صوب التعمير الحضارى الذى ننشده . ولذلك يؤكد السادات أنه « لا يمكن أن نتكلم عن بناء الدولة الجديدة طالما ظلت حياة الفلاح ، منتج الغذاء للملايين والخامات للعاملين بالصناعة ، على ما هى عليه » . ويقدم سعيد عثمان تحليلاً علمياً لهذه الحقيقة الخطيرة فى كتابه « أحاديث حول الفكر الذى انتصر » فيقول ص ٣٥ :

« إن الريف المصرى – نتيجة تراكم ظروف تاريخية عديدة من القهر والإهمال والاستغلال – يعيش فى كثير من أرجائه حالة مؤسفة من التأخر . . ومن الغريب أن بعض سكان الأجزاء الشديدة التخلف ، قد لا يشعرون بمدى هذا التخلف وقد لا يدركون ما بينهم وبين عصرهم من بعد ، فتخلفهم نفسه قد حجب عنهم إدراك ما يجرى فى الدنيا من حولهم ، فهم لا يرون غير واقعهم ، وبؤسهم يحول بينهم وبين معرفة حتى ما هم فيه من بؤس . . وهنا الخطورة فى الأمر . إن هذه الحالة تؤدى إلى غياب عنصر الأمل وافتقاد الطموح والرغبة فى التحسين ، وهى عوامل لا غنى عنها فى أى عملية إصلاح . فالإصلاح يحتاج إلى المشاركة المتحمسة والكفء ، إلى جانب التخطيط المستنير .

وإذا عرفنا أن المهمة بالنسبة للنهوض بالريف ، وبالنسبة لأكثر مناطقه تخلفاً بصورة خاصة ، ليست مسألة وإنما هى ضرورة من ضرورات التنمية العامة للبلاد . . لتبينا مدى جسامة المسئولية وضرورة البدء فوراً فى عملية الإصلاح فى الريف .

أضف إلى ذلك أن الفارق الحضارى بين ريف مصر ومدنها – والعاصمة بصورة خاصة – فارق هائل وغير معتاد فى أى دولة من دول العالم . وقد كان ذلك مفهوماً فى عهود سحيقة أو فى عصور الظلام والقهر والاستبداد ، ولكنه غير مقبول ولا متصور الآن . . فنحن فى النصف الثانى من القرن العشرين ، والفارق بين الريف والحضر فى معظم دول العالم طفيف وغير صارخ ، إن كان ثمة فارق على الإطلاق . كما أننا نعيش فى مجتمع اشتراكى يفترض المساواة وتكافؤ الفرص للجميع ، ويعمل على تعبئة موارد البلاد كلها بأسلوب علمى للتنمية الشاملة » .

وقد أكد الرئيس أنور السادات الحاجة إلى البدء فوراً فى بذل جهود جديدة للنهوض بالريف ، فى برنامجه للعمل الوطنى الذى تقدم به إلى المؤتمر القومى الثانى للاتحاد الاشتراكى . قال : « إن أسلوب الحياة اليومية لفلاحينا الذين يكونون غالبية الشعب ، لم يلحقه تغيير حقيقى ، لا فى وسائل وأسلوب الإنتاج ولا فى السكن والغذاء والصحة ، ولا فى تحصيل العلم والثقافة . »

إننا فى الحقيقة نحتاج إلى عملية إصلاح شاملة للريف تضرب بجذورها فى صميم مشاكله ولا تكتفى بالمشروعات السطحية وتتنزه عن الارتجال . . يجب أن نضع على الفور إجابات محددة لمشاكل الريف المصرى المتأصلة كالأمية التى تصل نسبتها فى كثير من المناطق إلى ما يزيد على التسعين فى المائة ، والأمراض المتفشية وكثير منها أمراض متوطنة لابد لها من علاج حاسم يقطع دابرها ، والبطالة السافرة والمقنعة ، والعادات السيئة وانتشار الخرافات والشعوذة .

إن المهمة تاريخية وجليلة . . وجديرة بكل ما يبذل فيها من جهد . والجهد يتألف من مجموعة من العناصر التى يجب حشدها جميعاً لإتمام هذا العمل الكبير . وهذه خطوطها الرئيسية :

* تخطيط مركزى واع وجاد يشفعه تنفيذ محلى يكفل له أكبر درجة من المشاركة الشعبية .
* اعتماد أكبر قدر ممكن من الموارد المالية .
* توجيه أفضل العناصر الفنية وأقدر الكفاءات للعمل فى هذا الميدان .

إن مثل هذا الجهد هو أفضل ما نبذله فى عملنا الوطنى من أجل بناء دولتنا الجديدة . . إنه أحسن استثمار على المستويين الإنسانى والاقتصادى ، وعائده مضمون وكبير . فإذا كنا نريد بناء مصر الحديثة ، يجب أن ندخل الكهرباء والمياه الصالحة للشرب فى كل أرجائها ، وأن نبنى القرى الجديدة ونمد بينها شبكة المواصلات الحديثة ، ونبنى فى كل قرية مدرسة على الأقل ووحدة صحية ومصنعاً صغيراً للصناعات البيئية . ويجب فى الوقت نفسه أن نمد خطوط الاتصال بين سكان الريف والحياة المعاصرة ، بالتعليم والثقافة ونشر الوعى ، فبذلك نضمن مشاركتهم فى عملية تطوير بيئتهم ، وهى مشاركة مطلوبة وضرورية . »

بهذا المنهج العلمى يمكن أن تسود روح القرية مستندة إلى التقدم المادى المنشود ، وبدون هذا التقدم المادى تظل روح القرية قيمة مجردة فى حياتنا فى حاجة دائمة إلى تجسيدها وتحويلها إلى طاقة حيوية وفعالة فى حياتنا المادية المتحضرة . ولذلك يؤكد السادات فى خطابه فى المحلة الكبرى بمناسبة عيد العمال فى أول مايو ١٩٧٣ أن القرية والمصنع هما فى الوقت نفسه ، القلعة ، والمدفع ، وبالاعتماد عليهما معاً يمكن حماية حضارتنا وشخصيتنا القومية حتى تسايرا موكب العصر . ومن هنا كان المفهوم الشامل لروح القرية كطاقة حضارية دافعة ، فلا يقصد السادات قرية معينة أو قريته بالذات ، ولكنه يقصد ذلك القطاع العريض الحيوى فى كيان الأمة . وفى هذا يقول نبيل أباظة فى جريدة « الأخبار» بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٧٠ :

« وحب أنور السادات لقريته . . لا يطغى على حبه للبلد كله . . وهو لا يفضل قريته بأية ميزة على أى قرية أخرى . . فمثلا الكهرباء لم تدخل القرية إلا بعد أن دخلت القرى المجاورة . . وعندما طالبه أهل قريته برصف الطريق الموصل من مركز « تلا » إلى القرية رفض أن يتدخل وقال لهم : « الطريق يجب أن يأخذه دوره فى الخطة العامة للدولة » .

ويحكى لنا نبيل أباظة ما رآه فى بيت السادات فى قرية ميت أبو الكوم ، وما يدل على أصالته الفكرية التى ترتبط دائماً بجذورها الأولى حتى لا تفقد الاتجاه . يقول :

« دخلت بيت أنور السادات . . إنه بيت متواضع . . من دور واحد . . ليس له أسوار . . فى الخارج المصطبة أو المضيفة التى يجلس فيها مع أقربائه وضيوفه من الفلاحين . . وفى الداخل ثلاث حجرات بها أثاث غاية فى التواضع . . والبيت ليس به ثلاجة أو حجرة للطعام . . فأنور السادات يحب أن يشرب من « القلة » وأن يأكل على الطبلية . . طوال وجوده فى القرية التى ولد بها » .

ويصل حب السادات للقرية إلى درجة تجعله يصرح على صفحات « الجمهورية » فى ٨ نوفمبر ١٩٥٤ بقوله : « أنا أفضل القرية ألف مرة على المدنية ، ولو أننى خيرت اليوم بين القرية وبساطة العيش فيها ، وبين المدينة وزخرف المدنية الذى يزينها ويحليها لما ترددت لحظة فى أن أختار القرية . »

حتى فى اطلاعه الفكرى والأدبى الواسع ، يغرم السادات بالأعمال الفكرية والأدبية التى تبلور الصراع بين القرية والمدينة ، ومن هذه الأعمال ، على سبيل المثال لا الحصر ، كتاب استير فوربس « قوس قزح على الطريق » .

وفى هذا يقول السادات لكمال الملاخ على صفحات جريدة « الأهرام » فى ٢٣ أبريل ١٩٦٢ :

« أميل جدًّا فى قراءاتى للون طبيعة البلد . مثلا فى هذه القصة التى تمثل النازحين من الريف . قصة تدور فى مزرعة الانفعالات . . أبطالها يعيشون ويتفاعلون عندما ينتقلون من هدوء الريف إلى صخب المدينة . التعارض كله فى لوحة واحدة . كلها تمثل لوناً أحبه وهو اللون الريفى وسط زحام الحياة . »

وفى المجلد الثانى ، الفصل الرابع من كتاب « انهيار الغرب » لأوزولد شبنجلر نجد تحليلا واعياً للدور الخطير الذى لعبته المدينة فى استنزاف الريف حضاريًّا فيقول ص ٢١٧ :

« منذ زمن بعيد جدًّا ، ولد الريف المدينة وغزاها بأحسن دمائه ، أما الآن فإن المدينة الضخمة تمتص الريف الهزيل وتبتلع جموع الناس بشراهة وبلا توقف حتى تنهك وتموت فى خضم الريف المهجور . وكلما اصطاد الجمال الآثم لهذه الأعجوبة الأخيرة للتاريخ ، ضحية فإنه لا يدعها تفلت من يده . إن القوم البدائيين قد يستطيعون التوقف عن الترحال ، أو الرحيل عن القرية كلية ، ولكن الرجل المولود فى المدينة لا يستطيع ذلك أبداً ، لأن قيود المدينة الكبيرة أقوى من أى حنين يكابده الإنسان بالنسبة للقرية . وإن إنسان المدينة ليعتبر المنزل إحدى تلك المدن الهائلة ، ولكن أقرب القرى إليه تعتبر غريبة عنه ، ومن ثم فإنه يفضل أن يموت على الإفريز ، على أن يعود إلى الريف . »

وكانت نتيجة هذا التطور أن اندثرت القيم الروحية تحت وطأة الضغوط المادية ، فبظهور المدينة ذات الخصائص العالمية المشتركة ، واختفاء كل الروابط بالأرض ، وسيادة الاتجاهات العقلانية البحتة ، بلغت القيمة المالية للأشياء ذروة سلطانها . لقد وجدت النقود أصلا لتقدير القيمة ، وذلك بالنسبة للأشياء المعترف بقيمتها الفعلية فى ذلك الوقت ، كالأرض والماشية والمنازل والرقيق ، ولكن الرابطة بين هذه القيم الأصلية بدأت تضعف بنمو المدن وتعقد النظام الاقتصادى حتى أصبحت النقود فى آخر الأمر تعتبر قيمة فى حد ذاتها ، مرغوباً فيها أكثر من تلك الأشياء التى وجدت النقود أصلا لتقدير قيمتها . ولذلك يؤكد شبنجلر أن « الذهب لم يعد يقدر بالبقرة ، وإنما أصبحت البقرة تقدر بالذهب . » ونظرا لاعتماد الحياة فى المدينة على القيم المادية وحدها فقد تنبأ شبنجلر بنهاية الحضارة المعاصرة إذا لم تطعم المدينة بروح القرية ، فالقوى المادية تقضى على صاحبها قبل أن تقضى على أى شىء آخر . وفى هذا يقول شبنجلر فى المرجع نفسه :

« فى النهاية ، ينشئ الرمز الهائل ، وبوتقة العقل الحديث ، أى المدينة ذات الخصائص العالمية . وهى بمثابة المركز الذى ينتهى فيه تاريخ العالم وتطوى صفحته . إن حفنة من المراكز الهائلة فى كل حضارة تحرم الأرض الأم من ثقافتها ولا تقيم لها وزناً . فقد أصبحت المدن الآن هى كل شىء . الصغيرة منها والكبيرة على حد سواء . ولم تعد هناك طبقات نبلاء ، وبورجوازية ، وأحرار ، وأرقاء ، وهيلينيين وبرابرة ، ومؤمنين وملحدين ، وإنما أصبح هناك مدنيون وريفيون . »

ونظرا لهذه الأنانية الرهيبة التى تمارسها المدينة ، فقد أصبح تاريخ العالم هو تاريخ المدينة – على حد قول شبنجلر – وتوارت القرية فى الظل برغم أنها الأصل الذى تولدت عنه المدينة . وإذا ساد هذا الانفصام بين المدينة والقرية فسيكون انفصاماً بين الفرع والأصل ، وستكون النتيجة أن تتحول المدينة إلى نبت غريب فقد جذوره الأصيلة وأصبح نباتاً طفيليًّا يعيش على حياة ومجهود غيره . فالقيمة الحضارية للمدينة يجب أن تكمن فى الكيف لا فى الكم ، فالمدينة ليست بحجمها الضخم بل بنوعيتها الخاصة ، وهذه النوعية الخاصة لن تستمد إلا من روح القرية ، عندئذ نستطيع القول أن المدينة تمثل تطوراً طبيعيًّا للقرية بل وتقدماً حضاريًّا عليها . وهنا يتحتم أن يكون للمدينة روح نابضة مثل تلك الروح التى تتميز بها القرية والتى لم تتلوث بأدران الصراع المادى الرهيب . إذ لا يعقل أن تقوم

المدينة بدورها الحضارى بشقيه الروحى والمادى فى حين هى كيان آلى يتحرك طبقاً لاتجاهات التيار المادى فقط ، وهذه ظاهرة خطيرة لأن تاريخ الحضارة المعاصرة كله مرتهن بتاريخ المدينة الحديثة كما يقول شبنجلر :

« من النتائج الحاسمة أن كل الحضارات الكبرى هى حضارات المدن ، فإن الإنسان المعاصر هو حيوان مرتبط بالمدينة . وهنا يكمن المعيار الحقيقى لتاريخ العالم الذى يميزه بشكل قاطع عن تاريخ الإنسان بصفة عامة ، إذ أن تاريخ العالم هو تاريخ إنسان المدينة فقط . وتعتمد الشعوب والدولة والسياسات والدين وجميع الفنون والعلوم على ظاهرة واحدة أساسية من الظواهر البشرية ، هى المدينة . ولكن المعجزة الحقيقية هى مولد روح المدينـة فـإن ما يميـز المدينة عن القرية ليس هو حجمها ، بل وجود روح فيها ، مثل تلك الروح التى تمنح لحياة القرية طعمها ومعناها . »

ويرى ت . س . إليوت رأياً مناقضاً لشبنجلر ولكنه يتفق معه فى نهاية الأمر فيما يختص بالقيمة الحضارية للقرية . ففى كتابه « ملاحظات حول تعريف الثقافة » يوضح إليوت أن الثقافة القومية ليست ثقافة المدينة وحدها وإنما هى محصلة عدد غير محدود من الثقافات المحلية التى لو حللت هى نفسها لوجد أنها مكونة من ثقافات محلية أصغر . فالوضع المثالى ، بالنسبة لإليوت ، هو أن تكون لكل قرية ، وبالأحرى لكل مدينة من المدن الكبرى ، شخصيتها الخاصة . ولكن هذا لا يعنى انفصالها عن النسيج الحضارى العام للأمة . ومن هنا يتحتم اتصال ثقافة القرية بثقافة المدينة ، تعطيها وتأخذ منها . وفى هذا فائدة جمة للثقافتين ، لأن ثقافة القرية ستتجنب الجمود والتحجر فى حين ستتمكن ثقافة المدينة من الاحتفاظ بطابعها المميز بعيداً عن التكرار الممسوخ الذى ينتج عن النمطية العالمية بين المدن الكبرى .

وصلة القرية بالمدينة – كما يهدف إليها إليوت – هى نوع من الوحدة اللاشعورية التى تجمع بين الانسجام والتنوع فى آن واحد . ويركز إليوت على التنوع الإقليمى بصفة خاصة . فمن المهم ألا يشعر الإنسان بأنه مواطن فى أمة معينة فحسب ، بل مواطن فى جزء معين من بلاده ، له ولاء محلى . وهذا الولاء ، كالولاء لمسقط رأسه ، ينشأ من الولاء للأسرة أو للقرية . ويقول إليوت فى كتابه كلاماً ينطبق تماماً على التصنع الذى نهض عليه المجتمع الإسرائيلى ، فهو يؤكد أن العلاقة بين المواطن ومسقط رأسه مثل العلاقة بين الابن وأمه ، علاقة لا يمكن اصطناعها بأية حال من الأحوال ، علاقة طبيعية ترتبط بالحمل والولادة والنشأة والتربية ، وتشكل كل لحظة منها تأثيراً معيناً على شخصية الإنسان بحيث تشكل كيانه الفكرى والروحى ، وهو كيان مختلف تمام الاختلاف عما لو كان قد نشأ فى بيئة أخرى . وفى هذا يقول إليوت ص ٤٣ :

« حقًّا أن الفرد قد يألف أشد الألفة مكاناً لم يولد فيه ، ومجتمعاً لا تربطه به روابط الأسلاف ، ولكن لا أظن أننا قد نختلف فى أن مجتمعاً من أناس ذوى شعور محلى قوى ، جاءوا كلهم من أمكنة أخرى متفرقة ، هو مجتمع ينهض على التصنع وعلى الوعى المبالغ فيه بأنهم ينتمون إلى أصول فكرية واحدة . فالوحدة الفكرية والوجدانية والروحية لا تأتى عن طريق الدعاية والإعلام ، لأنها نتاج أجيال متعاقبة وفى مجتمع مثل ذلك الذى تحدثنا عنه يجب أن ننتظر عدة أجيال ليظهر ولاء ورثة السكان الذين قدموا من أمكنة متفرقة . فالولاء من الأشياء التى يستحيل اصطناعها لأنها لا تصدر عن اختيار واع تماماً . ولعل من الخير بوجه عام أن يظل معظم البشر يعيشون فى مكان ولادتهم فالأسرة والطبقة والقرية والولاء المحلى تتساند جميعا ، وإذا انحلت عرى واحدة منها شكى الباقى أيضاً . »

من هنا كانت مناداة السادات بالحفاظ على روح القرية بمثابة مقاومة حضارية متأصلة فى وجه المجتمع الإسرائيلى العدوانى الذى لا يملك شيئاً من جذور التأصيل الفكرى والروحى بطريقة طبيعية وتلقائية . والقرية المصرية بالذات تملك من جذور التأصيل الفكرى ما يتعذر على أية قوة عدوانية شرسة اقتلاعه . فعمر هذه الجذور يصل إلى

سبعين قرناً من الزمان فى حين الجذور الفكرية والحضارية والثقافية للمجتمع الإسرائيلى لا تزيد أصالتها على ربع قرن من الزمان . من هنا كان الفارق الحضارى والفكرى الشاسع بين ما تملكه مصر وما تدعيه إسرائيل . فإذا تكلمنا نحن عن روح القرية الأصيلة فلن تجد إسرائيل كلاماً تقوله سوى عن روح المستعمرة ، هذا إذا ادعت أن للمستعمرة روحاً من الأصل . فلا شك أن المستعمرة كيان مصطنع جاء نتيجة لأغراض سياسية طارئة وليس تأصيلا لتراث سبق أن رسخه الأسلاف . ولكى نعرف مدى أصالة القرية المصرية والدور الذى لعبته فى إشعال الوعى القومى ومقاومة الاستعمار بكل أنواعه ، والمحافظة على الشخصية المصرية من كل عـدوان يهدف إلى طمس ملامحها ، فنى إمكاننا الاطلاع على مقالة السادات التى نشرها فى جريدة « الجمهورية » فى ٣١ يوليو ١٩٥٤ والتى يقول فيها :

« أذكر أننى أول ما بدأت أتعلم الكلام فى القرية علمونى جملة كنا نقولها فى لهونا وفى الغيط وعلى النورج وحين كنا نسهر على الساقية فى المناوبة ، فى كل هذه الأطوار الساذجة ليومنا الريفى الجميل كنا نردد دائماً ؛ (يا عزيز . . يا عزيز . . كبه تاخد الانجليز . .) كان هذا هو أول خاطر ينطبع على خيالنا تلقفناه ممن سبقونا من أجيال ومازال إلى اليوم هو الخيال الذى تتلقاه الصبية من الرجال والأخيار . .

ولم يكن هذا النداء عبثاً أو على غير أساس . . فلقد نشأت فى القرية أسمع أولا عن ذلك الضابط الذى كان من عائلة جدتى وكان من ضباط عرابى وكيف أنه فر بعد الهزيمة إلى القرية فتعقبه الخديـو إلى هناك وصادر أملاكه ومات فقيراً مشرداً بعد أن كان فخراً لأهله وقريته . ولم يكن الخديو هو المسئول عن هذا التشريد فى نظرهم بل هم الإنجليز . .

ثم سمعت ثانية عن « السلطة » وهى كلمة يطلقونها فى قريتنا على ما حدث بأمر الإنجليز فى الحرب الأولى من جمع الجمال والحمير والأقوات لإرسالها إلى القوات الإنجليزية . . ثم تعدى الأمر ذلك إلى الرجال فأخذوا يجمعون الشباب من القرى ويرسلونهم إلى ميدان فلسطين وقتذاك ليخدموا القوات الإنجليزية . . وما لبث أن عاد البعض من هؤلاء الرجال بعد انتهاء الحرب مشوهين وكان هذا كافياً لكى يثير حفيظة القرية الوادعة على الإنجليز بعد أن فقدت القرية أبناءها أوعاد لها البعض منهم مشوهين . .

ثم تجلس إلى ركن آخر فى القرية فيحكى لك الشاعر على الربابة قصيدة مؤثرة رائعة فى وصف الشاب المكافح مصطفى كامل وكيف كانت شجاعته وجرأته وفجأة يختتم القصيدة بوصف نهاية هذا البطل الذى مات مسموماً على يد الإنجليز بعد أن أعيتهم الحيل فى شأنه وأصبحوا يخشون شجاعته وجرأته . . »

ويضيق بنا المقام هنا لتسجيل مقتطفات أخرى من المقال ، توضح مدى إيمان السادات بالدور الحيوى الذى تلعبه روح القرية فى التأصيل الفكرى للإنسان المصرى بصفة عامة . فأخلاق القرية تعلمنا دائماً الأصالة والصلابة والصمود والصبر والثقة والإيمان والوعى بالتاريخ . وهذه الأخلاق كفيلة بأن تتحول إلى صخرة صماء تتكسر عليها كل محاولات الأعداء والمتربصين ، لأنهم إذا تمكنوا – لفترة وجيزة – من التأثير على سير الأمور ، فإنهم لن يتمكنوا بأية حال من الأحوال من التأثير على نوعية الإنسان المصرى وجوهره . ويضرب لنا السادات مثلا لهذه النوعية العريقة فى مقال له بجريدة « الجمهورية » فى ٥ فبراير ١٩٥٤ فيقول :

« كان فقيراً ولكن نفسه كانت تملك أغلى كنوز هذه الأرض ، فما من أحد مر بكوخه فى القرية الذى اتخذ منه سكناً ومجلساً يصنع فيه من (الخوص) سلعة يعيش منها ؟ إلا وقرأ على وجهه النور والسعادة . ولقد مرت فى حياته – على ما روى لنا الأخيار من القوم – أحداث تنوء بها الجبال ، بدأت بموت زوجته فى (الكردون) وهو ما يطلق فى ريفنا على الحجر الصحى حينما يلم بالقرية وباء ، وانتهت بموت وحيده منها غريقا وهو يتعلم أول درس فى السباحة . .

ويمضى الزمن ، فما تنعكس الليالى والأيام على وجه صاحبنا إلا هدوءًا فى وثوق ودعة ، وإلا ابتسامة حلوة يستقبل بها صباحه ويشيع بها مساءه . .

كنا صغاراً ، وكان مثل هذا الحديث يملأ نفوسنا رهبة وجزعاً ، حتى إننا فى مرورنا على ذلك الرجل صاحب الكوخ كنا نتحاشى حتى النظر إليه مكتفين بأن ينظر كل منا إلى صاحبه من غير أن ينطق بكلمة خشية أن يحس الرجل بأننا نعلم . .

ظلت هذه الرهبة تملك على نفسى ردحاً طويلا حتى عدت مرة فى الإجازة المدرسية إلى القرية ، وشاءت الصدف أن تجمعنى بهذا الرجل ليلة الاحتفال بالمولد النبوى حول منصة شاعر الربابة الذى استقدموه خصيصاً لإحياء هذا الحفل الكريم . . ظللت طوال هذا السامر أختلس النظرة تلو النظرة إلى هذا الرجل فما راعنى إلا أن وجدته يستمع بكل نفسه وجوارحه . . زادت حيرتى ورهبتى ، ووجدته قد بلغ قمة الطرب حينما ردد الشاعر فى مقطوعة يفتتح بها وصلة من وصلاته على عادة هؤلاء الشعراء :

اللى جـرى امبـارح　　ما يهمنيش يا عم
وبكره أمـره لبكره　　ربك يزيـل الهم

علقت فى ذهنى هذه الليلة ، وهذه الأبيات ، إلى أن قرأت يوماً وأنا فى السجن لكونفوشيوس إحدى حكمه الخالدة : « جدد نفسك كل يوم . . أجل كل يوم جدد نفسك . »

وبدأت أدرك فلسفة صاحبنا التى رفعته فوق آلام هذه الحياة . . لقد كان قويًّا لأنه تناسى يومين فى حياته . . أمسه وغده ليستمتع بيومه . »

وبالطبع لا يعنى هذا روح التواكل التى يحاول المغرضون إلصاقها بالشخصية المصرية ، فنسيان الأمس هنا هو تجنب رواسب الماضى ومآسيه والتى من شأنها أن تعوق حركة الإنسان ، وتعكر عليه صفو حياته ، وتكبل خطواته بقيود من حديد . ونحن لا نملك سوى اليوم الذى نعيشه وأى تفريط فيه هو تفريط فى حياتنا كلها ، فالماضى أصبح ملكاً للتاريخ والمستقبل هو امتداد طبيعى للحاضر . وكلما زاد اهتمامنا بيومنا ، أصبح غدنا مشرقاً . أما البكاء على الأطلال ، أو الخوف من المستقبل ، فلا ينتج عنهما إلا إفساد الحاضر أيضاً وبالتالى يضيع طعم الحياة والهدف منها من هنا كان التفاؤل والبشر اللذان يميزان الشخصية المصرية برغم المحن والويلات والتجارب المريرة التى مرت بها . بل وأصبحت الابتسامة المصرية أكثر أصالة وشهرة من ابتسامة الجيوكوندا التى رسمها فنان النهضة الإيطالية ليوناردو دافنشى . وهى الابتسامة التى تحير كل من زار مصر وتجعله يتساءل : « كيف لشعب مر بكل هذه المحن والأزمات أن يحافظ على هذه الابتسامة الزاخرة بالثقة والتفاؤل والبشر ؟! » وبالطبع فإن الإجابة تكمن فى مقومات الشخصية المصرية التى قدمت الحضارة الإنسانية إلى العالم منذ سبعين قرناً ومازالت قادرة على العطاء والحب والتسامح والتعاون والابتسام والضحك من أعماق القلب .

هذه هى الشخصية المصرية عندما تتجسد فى روح القرية الأصيلة وهى قادرة أيضاً على التجسد فى مظاهر إنسانية متعددة ، والكيان الأسرى من هذه المظاهر الإنسانية ، فكان المصريون أول من عرف نظام الحياة الأسرية ، وأول من حافظ على استمراره ، وأول من قدمه إلى العالم كالوحدة الأولى التى ينهض عليها الكيان الإنسانى كله . ولذلك فالفصل التالى من هذه الدراسة يدور حول مفهوم الكيان الأسرى فى فلسفة رائدنا فى التأصيل الفكرى : أنور السادات .

الفصل التاسع

الكيان الأسرى

يتميز مفهوم الكيان الأسرى فى فكر السادات بالموسوعية والشمولية فهو يبدأ بالأسرة أو العائلة التى عرفتها البشرية على أيدى المصريين القدماء ، ثم يمتد ليشمل الوطن كله كأسرة واحدة تحمل نفس خصائص وتقاليد ومقومات الأسرة الصغيرة . ولا يقتصر الكيان الأسرى على أسرة الوطن فحسب بل يربطها عضوياً بالأسرة العربية التى تعيش من المحيط إلى الخليج ، ثم بالأسرة العالمية أو مجتمع الدول بكل تياراته واتجاهاته . ولذلك فالكيان الأسرى نظرة شاملة تحوى فى طياتها الوعى بالتاريخ ، ومفهوم الايمان ، والضرورات الأخلاقية ، والتعمير الحضارى ، والممارسة الديمقراطية ، والشخصية المصرية ، وروح القرية ، ودور المرأة فى المجتمع الجديد ، باختصار تحوى كل عناصر التأصيل الفكرى فى فلسفة السادات .

والسادات يتفق مع معظم مفكرى العالم فى أن الأسرة هى الخلية الأولى فى جسم المجتمع إذا حللنا الطريقة التى يتكون بها وينمو ، وهى قلبه النابض إذا درسنا القوة الحيوية التى تمكنه من الاحتفاظ بحياته ، وهى محوره إذا نظرنا إلى استمراره فى الحركة والنشاط . وبالإضافة إلى أن الأسرة هى الوحدة الاجتماعية الرئيسية التى يصدر عنها كل نشاط إنسانى ، فهى فى الوقت نفسه الصورة الصادقة أو المرآة العاكسة لمقومات الأمة وخصائصها . وخير دراسة علمية وعملية لأية أمة هى الدراسة التى تبدأ بالأسرة كنقطة انطلاق . فإن هذا سيوفر الكثير من المجهود والوقت وسيجنب الدخول فى متاهات جانبية . وفى هذا يقول عالم الاجتماع الفرنسى إميل دوركايم : « إن الأسرة هى مجتمع كامل يمتد أثره إلى نشاطنا الاقتصادى كما يشمل نشاطنا الدينى والسياسى والعلمى وكل الأنشطة الإنسانية بصفة عامة ، فكل ما نعمله من أعمال هامة ولو قليلة هو مجرد صدى من أصدائها . »

وإذا كانت جميع الحملات المغرضة الجائرة التى وجهت إلى الأسرة لم تنل من دعائمها الأساسية على الإطلاق ، ولم تؤثر إلا على مظاهرها السطحية والشكلية التى تتلون بألوان البيئة الاجتماعية المتعددة . وإذا كانت الأسرة فى قواعدها الجوهرية بهذا القدر من الأصالة والصلابة فقد تحتم أن تكون هى الحقل الطبيعى الذى يمارس فيه الفرد نشاطه منذ بداية حياته فى هذا العالم ، وفى هذا يقول الفيلسوف هارولد أوفدينج : « إنه فى داخل الأسرة فقط يعيش الإنسان ككائن كامل ، ففيها وحدها تستطيع غرائزه الأشد بدائية ، وعواطفه الأسمى مثالية أن تجد كل رغباتها وأن تشبع كل تطلعاتها ، فى حين هو لا يساهم فى الكيانات الاجتماعية الأخرى إلا بجانب واحد من كينونته » . وبناء عليه فالمهمة العظمى التى تنهض بها الحياة الأسرية هى تربية الفرد الذى يعرف حقوقه تجاه نفسه تماماً كما يدرك واجباته تجاه المجتمع الذى يعيش فيه . ويؤكد السادات على صفحات « الجمهورية » فى ٢٠ ديسمبر ١٩٥٤ أن حياتنا كأفراد لابد أن « تكون حياة كفاح مشترك من أجل بناء أسرة سليمة كريمة هى الحجر الأول فى بناء هذا الوطن الذى طالما جحدنا نعمته وأهملنا حقه . » ويربط السادات بين الأسرة الصغيرة والأسرة الكبيرة الممثلة فى الوطن كله فى خطابه فى المؤتمر الشعبى بطنطا فى ٤ يناير ١٩٧١ فيقول :

« نحن شعب نؤمن بالقيم وعندنا معتقداتنا التى نشأنا عليها تجعلنا دائماً أقوياء . وفى ٩ و ١٠ يونيو خرج الشعب كله من غير ما حد يقول له : اخرج ولم يقبل الاستسلام وقال لازم نحارب ونصمد . . ده من معتقداتنا ومن قيمنا

ومبادئنا ، من تاريخنا كل واحد منا فى عائلته وأسرته ، تحس ببعضها ، عايز فى المرحلة القادمة نحس بالقيم النابعة من معتقداتنا وبيئتنا التى تربينا عليها وكل واحد يلحق أخوه ويقف مع أخوه ، لازم نكون إرادة واحدة وعزم واحد ورجل واحد مع الإحساس والحب من داخلنا زى سماحتنا وسماحة أهلنا فى القرية وطيبتهم . »

هذا هو التأصيل الفكرى والوطنى الذى يقوم به الكيان الأسرى تجاه الفرد الذى يتعلم فى أسرته منذ الحداثة المعنى الإنسانى للممارسة الديمقراطية ، والأصالة الفكرية ، والصلابة النفسية ، والإيمان الناضج ، والتعمير الحضارى ، وبالتالى فإن الشخصية المصرية بكل أبعادها تتشكل أساساً من صميم الكيان الأسرى . وهو الكيان الذى طالما حاربته المدنية الحديثة لكى تنال منه ولكنها لم تؤثر إلا فى مظاهره الشكلية فقط ، ولكن جوهره وشكله يظهران على حقيقتهما فى القرية التى تعتبر نفسها أسرة كبيرة واحدة . ومن هنا كان تمسك السادات بروح القريه ورغبته الملحة فى أن تسود تقاليدها حياة المدنية المعقدة والمرهقة . فلا شك أن أية مدينة يمكن أن تتحول إلى المدينة الفاضلة ، التى طالما داعبت خيال الشعراء والمفكرين والفلاسفة ، إذا تحولت إلى أسرة كبيرة يسود حياتها الحب والوفاء والتسامح والتعاون وكل القيم الإنسانية التى اشتهر بها شعبنا العريق عبر تاريخه الطويل . وفى هذا يقول السادات فى خطابه فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٢ :

« لقد عاش شعبنا عبر تاريخه الطويل ولم يفقد شخصيته أبداً ذات الأبعاد الثلاثة : الأصالة والصلابة والإيمان ، رفض ديكتاتورية الطبقة . . أوأية ديكتاتورية . . أيًّا كان الذى يفرضها . سواء كانت طبقة . . أوفرداً . . أوجماعة . . أوحزباً ، لأنها لا تصلح لنا بطبيعة تكوين هذا الشعب ، أو النبع الذى يصدر عنه انفعال هذا الشعب ، هو أنه عائلة واحدة ، يحس فيها كل إنسان بأخيه ، كما هو الحال إلى يومنا هذا فى القرية . . ليست المدينة أبداً تعبيراً عن شىء ، التعبير الحقيّ عن شعبنا هو القرية ، وستظل القرية إلى الأبد هى التعبير الحقيّ عن شعبنا ، أسرة واحدة ، عائلة واحدة ، إذا حاول أحد أن يفرض سيطرته على هذه الأسرة نبذوه . ولكن برفق وبأخوة . . وعندما يقتضى الأمر يقفون منه الموقف الذى يجب أن يقفونه منه . . شعب استمد أصالته من عمر طويل ، وحضارة هى أول حضارات التاريخ فى هذا العالم – بشهادة العالم كله – فهو يرتفع فوق المظاهر ، هو شعب يعنى دائماً بالجوهر . . وليس بالمظهر ، وهو شعب مجامل . . شعب طيب . . ولكنه فى الحق صلب ، لأن الأصالة لابد أن تورثه الصلابة ، إلى جانب ذلك شعب مؤمن له قيمه ، يؤمن بالوفاء ، يؤمن بكل القيم . . التى أرادها الله سبحانه وتعالى لهذا الكون وللبشر لكى يعيشوا حياة قوية شريفة ، يؤمن بالحب ، يحس كل إنسان بأخيه فى القرية ، يشارك كل إنسان أخاه فى مأتمه وفى فرحه وفى عمله . . وفى حقله . . فى كل المناسبات ، أسرة واحدة . »

ولذلك فكل القيم الحضارية التى نادى بها المفكرون والمصلحون والفلاسفة لا تقف عند حدود القيم المثالية المجردة داخل الكيان الأسرى للقرية أو العائلة الصغيرة ، بل تترجم إلى سلوك عملى وإيجابى بحيث تتحول الأسرة إلى تجسيد حى ملموس لهذه القيم المجردة . ولذلك يستأنف السادات كلامه فى الخطاب نفسه فيقول :

« شعبنا بطبعه كما قلت . . فى القرية ينفر من فرض الأمر عليه أيًّا كان . . فرد . . أو عائلة . . أو طبقة . . يرفض هذا . شعبنا بطبعه سمح . . يريد أن يعيش الكل فى إطار الأسرة الواحدة ، ومن واقع إيمانه وما ورثه . . ورسالة السماء . . هنا على هذه الأرض . . يجب أن يكون أمرهم شورى بينهم . »

والوحدة الوطنية تشكل أهم عناصر الكيان الأسرى فى فكر السادات ، فبدونها كان من المستحيل بالنسبة لنا أن نخوض كل هذه المعارك الضارية والمتتابعة . ولذلك يقول السادات فى استقبال البطريرك المعوشى بطريرك لبنان فى ٢٨ فبراير ١٩٥٨ :

« هذه العروبة التي تظل المسيحي والمسلم على السواء لا تفرق بين واحد ولا تميز بين أحد وإنما الفضل فيها للذى يقدم للقومية العربية خدمة والذى يقدم للقومية العربية منعة وقوة يحتمي بها العرب أجمعون مسلمين ومسيحيين. إنما نحيي ذلك الرجل الذى يطبق مبادئ الشريعة المسيحية السمحاء فلقد قامت المسيحية على المحبة وعلى الإيمان، وقام الإسلام أيضاً على المحبة والإيمان. »

وهذا الخط الفكرى الذى برز بوضوح فى فلسفة السادات فى الخمسينيات يعود ليؤكد وجوده فى السبعينيات، وذلك فى بيان السادات إلى الأمة فى ٢٨ ديسمبر ١٩٧٢ عندما يقول:

« إننى واثق كل الثقة من حسن وعى وتقدير الجميع للظروف التى نمارس فيها نضالنا، وفى الضرورة القصوى والحيوية لوحدة الأمة، بل إننى واثق من ذلك كله فى كل الظروف، فلا حرب بغير الوحدة الوطنية ولا سلم بدونها ».

فالوحدة الوطنية هى التى مكنتنا من الاستمرار فى هذا الصراع الرهيب الطويل والمستمر. ولذلك أكد السادات باستمرار، وخاصة قبل السادس من أكتوبر، أن اشتراك الشعب كل الشعب على اتساع الوقت وامتداده بمختلف فئاته وطوائفه وأفراده فى صياغة القرارات الخطيرة التى تتصل بالمعركة فى متابعة تنفيذها والرقابة عليها هى الضمان الأكيد لوقوف الشعب كله كالبنيان المرصوص خلف قواته المسلحة الباسلة وهى تخوض معركة المصير. إن الوحدة الوطنية هى صانعة ثورة ٢٣ يوليو وما سبقتها من ثورات على طول تاريخنا القديم والحديث على السواء، والوحدة الوطنية هى التى مكنتنا من الصمود السياسى والفكرى والعسكرى والاقتصادى والاجتماعى ضد مختلف المؤامرات الاستعمارية والصهيونية، وألوان الضغوط السياسية والاقتصادية، وأشكال الحرب النفسية، بل هى التى هيأت لنا الصمود الرائع فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧، وهو الصمود الذى أذهل أعداءنا من المستعمرين والصهاينة. ولذلك فجهدنا من أجل تأكيد هذه الوحدة الأسرية جزء لا يتجزأ من جهدنا العسكرى فى الحرب المقدسة التى يخوضها أبناؤنا الأبطال من أجل المستقبل المشرق للأسرة العربية جمعاء من الخليج إلى المحيط. وعندما يقول السادات إنه لا حرب بغير الوحدة الوطنية ولا سلم بدونها، فهو يقصد أن الوحدة الوطنية ضرورة تحتمها المعركتان اللتان نخوضهما جنباً إلى جنب، وهما معركة التعمير الحضارى ومعركة التحرير الوطنى. ولذلك يقول فى خطابه فى جامعة الإسكندرية فى ٢٧ يوليو ١٩٧٢:

« إن الوحدة الوطنية هى الأساس فى نجاحنا فى المعركتين، وكل منا مطالب بالحفاظ على هذه الوحدة المقدسة والتعبير بها، ولن أسمح أبداً بتمزيق هذه الوحدة تحت أى شعار أو ضغوط طائفية أو هزات، ولن أسمح لأحد أن يتصور أنه فى مركز قوى، بلدنا طول عمرها فى وحدة وطنية وبلدنا يجب أن تعود إلى الأسرة وإلى تقاليدنا وأصلنا وقيمنـــا. مثل اجتماعنا هذه الليلة كعائلة واحدة نجلس ونتكلم بدون أى رسميات أو كلفة وكل إنسان شاعر أنه فرد فى أسرة وكلنا كشعب يجب أن يكون هذه الأسرة حتى نستطيع أن نتصدى للمعركتين. »

وفى تصديه للكيان الأسرى، لا يسأم السادات أبداً الحديث عن الوحدة الوطنية التى تعنى « أن لا امتيازات طبقية، ولا حقوق خاصة لفئة من الفئات، لا انقسامات إلى شيع وطوائف، لا مزايدات ولا مناقصات، وأيضاً لا تشنجات. » ولكنها تعنى البدء فى « ترتيب البيت » حتى يكون مستعداً لاستقبال الأحداث القادمة وتوجيهها طبقاً لمصالحه الأسرية والقومية. ووعينا بتاريخنا يؤكد لنا أن وطننا كان دائماً البيت المضياف لكل غريب ولاجئ، والضيافة المصرية ذات شهرة تاريخية وعالمية، فهل يعقل لهذا البيت المضياف الذى يكرم الغريب أن يضن بالحب والكرم والوفاء والتعاون على سكانه الأصليين؟ وفى هذا يصرح السادات فى حديثه إلى نقيب الصحفيين اللبنانيين فى ٩ يناير ١٩٧٣ فيقول:

« إن الطائفية وإلهابها فى مصر دائماً أمر مفتعل لأنها ليست من أصالتنا فى شىء وأريد أن أوضح لك أمراً . . إن منطقتنا شهدت ثلاث غزوات عنصرية تعتبر الدين ستاراً وواجهة للتمويه والتغطية : التتر . . الصليبيون . . وإسرائيل . وفى مصر لا يستطيع أحد أن يعرف ضريح المسلم من ضريح المسيحى لأنهم متعانقون جميعاً فى قبورهم نتيجة شعورهم بوحدة وطنية كاملة وقد واجهنا الغزوتين اللتين ليس فيهما شىء من الدين لمناعة وسلامة تفكيرنا وصفوفنا المرصوصة وأريد أن أذكر بواقعة فى التاريخ . عندما انتصرنا على المستعمرين الذين استغلوا اسم الصليب لأهداف توسعية وتجارية واقتصادية منعوا أقباط مصر من زيارة القدس لأنهم لم ينصروهم ضد وطنهم . وقد كتب أحد المؤرخين المسلمين وقتذاك ما حرفيته (ولم يكن حزن الأقباط فى مصر بأقل من حزن المسلمين لهذا الذى فرضه مسيحيو أوربا على أقباط مصر بحرمانهم من الحج إلى القدس. .) » .

هكذا يؤكد السادات للعالم كله عمق الوحدة الوطنية والترفع عن التفرقة الدينية فى مصر ، فقد كان يدرك تماماً أنها ستكون أحد عناصر نجاحنا المذهل فى السادس من أكتوبر العظيم . وخاصة أن مصر لم تعرف العنصرية فى أى شكل من أشكالها بل وحاربتها فى جميع أشكالها . ويوضح السادات فى كلمته مرحباً بالمستشار فيلى برانت فى ٢١ أبريل ١٩٧٤ بأننا « كثيراً ما حاولنا إقناع العالم بأننا لسنا دعاة حرب بل نحن رسل سلام ، وأننا لا ننطلق فى سياستنا من حقد أو كراهية ولا نحارب العنصرية بالعنصرية ولا التعصب بالتعصب بل إننا نعتصم بقيمنا السمحة ونتمسك بالمشروعية والعدل فى كل المعاملات الدولية كما أن هدفنا هو أن نعمر ولا ندمر ونحن – إذ نتصدى للعدوان – فإننا نحرص على أن نقيم مجتمعاً إنسانيًّا قوامه العدل والشرف » .

وإذا كانت الأسرة الوطنية تملك كل هذا الوعى التاريخى والحضارى . كذلك الأسرة العربية فهى تعى هدفها جيداً ولا تحيد عنه وتعرف طريقها بوضوح ولا تخطئه . وهى ترفض أن تتعثر مسيرتها أو تتشتت جهودها بفعل الأكاذيب والدعايات المضللة التى أطلقها من تخصصوا فى تزييف التاريخ . ونحن وإن كنا نأسف لأن البعض قد سقطوا أو تركوا أنفسهم يسقطون ضحية لهذه الأباطيل التى حاولت تشويه كيان الأسرة العربية وقلب الحقائق ، نثق فى أن هؤلاء الذين يتدبرون وينظرون للأمور نظرة عقلانية إنسانية يستطيعون أن يميزوا بين الحق والباطل وبين الحقيقة والتزييف وبين العدل والظلم ، وأن يدركوا أن انتماء الأسرة المصرية إلى الأسرة العربية حتمية مصيرية وضرورة تاريخية تفصل بين البقاء والفناء ، بين أن نكون أولا نكون . ولذلك يؤكد السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« أن شعبنا يؤمن بانتمائه العميق للأمة العربية . وهو يعرف أن قدره التاريخى هو أن يتحمل العبء الأكبر كلما تعرض الوطن العربى الكبير لغزوة غاشمة . . كان ذلك هو دور مصر فى مواجهة التتار . . وكان دورها فى مواجهة الحملات الصليبية . وهو دورها فى مواجهة الغزوة الصهيونية ، كما سبق أن أوضحت . . ولكن الإنصاف يقتضى أن نؤكد أن الشعور القومى العربى قد أدى دوراً أساسيًّا فى حرب أكتوبر . فعلى رأس عوامل النصر فيها نجاحنا فى قتال إسرائيل على جبهتين .

وإننى لأنتهز هذه الفرصة لأحيى مرة أخرى أخى الرئيس حافظ الأسد الذى كان له شجاعة مشاركتى فى اتخاذ القرار ، وأحيى القوات المسلحة السورية الباسلة والشعب السورى البطل .

كما أن التفاف الدول العربية حول دول المواجهة وما قدمته من تأييد معنوى ومادى واستخدامها لسلاح البترول ، كل ذلك أسهم بلا شك فى تحقيق النصر. إن الملوك والرؤساء العرب ومن خلفهم شعوبهم الشقيقة كانوا لنا فى المعركة سـنداً وإن التحية لجهودهم واجبة ، وربما كان من أهم نتائج حرب أكتوبر خروج القومية العربية من حيز الشعار إلى حيز العمل المحدد الملموس . لقد رفعت حرب أكتوبر من شأن العرب جميعاً وأصبح العالم كله يعترف بالوجود

العربي وبذور العرب ويعمل على كسب ودهم . »

وإيمان السادات بالأسرة العربية لم يبرز فقط عند توليه المسئولية بل يمثل خطاً أساسياً فى منهجه للتأصيل الفكرى منذ اشتغاله بالكفاح الوطنى فى صدر شبابه المبكر . وكانت ثورة رشيد عالى الكيلانى ضد الإنجليز فى العراق فى أوائل الأربعينيات إشارة إلى الأسرة العربية بأن القومية العربية لن تتحقق إلا بالكفاح المسلح بكل تكاليفه . ولذلك يقول السادات عن هذه الثورة فى جريدة « الجمهورية » فى ٢٩ ديسمبر ١٩٥٣ :

« كانت ثورة رشيد عالى الكيلانى ، هى المتنفس الحقيقى الوحيد لنا ، هنا فى مصر . وكنا نتابع أنباء هذه الثورة فى حماسة بالغة ، ونعلق عليها آمالاً واسعة . . كانت نظرتنا مليئة بالارتياح والحماس والتفاؤل . فقد كنا فى شبابنا وحماستنا ، نريد أن نصنع ما صنعه رشيد عالى الكيلانى . . ننقض على الإنجليز ونعلنها عليهم فى أزمتهم ثورة مسلحة . . وكانت هذه البداية من رشيد عالى هى المفتاح الذى رأيناه يفتح لنا الطريق . ويشعل نار شعوب هذه البلاد على الغزاة فيها » .

وكان الاستعمار يدرك دائماً أنه لو اكتملت مقومات الأسرة العربية فلن يقف فى طريقها أى شيء من شأنه أن يعوق المسيرة . ولذلك كان شعار « فرق . . تسد » هو السلاح الذى يستعمله الاستعمار فى الوقيعة والدسيسة والفرقة بين أعضاء الأسرة العربية الواحدة ، فإذا تم له ما أراد ، نجده ينتقل إلى ساحة الأسرة الوطنية ليبذر فيها بذور الشقاق والعنصرية والطائفية ، وبهذا يضمن تفتيت الأسرة العربية إلى أصغر جزئيات ممكنة حتى لا تقوم لها قائمة بعد ذلك . وفى هذا يقول السادات على صفحات « الجمهورية » فى ٢٨ أغسطس ١٩٥٦ :

« اكتوينا نحن العرب بأساليب مدرسة الاستعمار قروناً طويلة . وعرفنا من قاموسهم اصطلاحات طبقوها علينا فمزقوا أوطاننا وشتتوا شملنا . . وعلى رأس هذه الاصطلاحات اصطلاح فرق تسد . . وكانت مصيبتنا نحن العرب مصيبتين : الأولى حين فرقوا بين الشعوب . . والثانية حين فرقوا بين أبناء الشعب الواحد .

إن أول نتيجة مروعة لهذه الفرقة كانت مأساة فلسطين . والاستعمار سيعمل ليل نهار لكى يشكك فى نوايانا بعضنا للبعض . . سنواجه يا أهلى يا عرب أخطر حملة للتفرقة والتشكيك . . واذكروا يا أهلى يا عرب حكاماً وشعوباً أننا لا نطالب بغير حريتنا فى أوطاننا وسيادتنا على أرضنا . . واحذروا المكيدة . . واحذروا الدسيسة . . واحذروا الفرقة لكى لا يسود ثانية مستعمر على أرضكم . »

وعلى صفحات « الجمهورية » أيضاً فى ٣١ نوفبر ١٩٥٦ يشرح لنا السادات كيف فرق المستعمرون بين أبناء الأسرة المصرية بعد أن تمكنوا من تشتيت شمل الأسرة العربية وتقطيع أوصالها . فيقول :

« رأينا القرية الصغيرة ينقسم أبناؤها ، والعائلة الواحدة تقتل فروعها ، كل ذلك من أجل عرض زائل سموه السياسة وسموه الأحزاب وسموه الانتخاب وما هو فى حقيقته إلا الجشع والحقد والحسد والكراهية والطمع والفساد . . وهكذا راحت جهود الوطن هباء بيد الحكام من أبنائه ، وأصبح الناس وأمسوا فى يأس من الحال وجأروا إليك يارب بالشكوى . »

ولإيمان السادات بأن الأسرة العربية هى جسم واحد يخضع لكل الروابط العضوية والعلاقات البيولوجية ، فإن إصابة عضو من هذا الجسم بمثابة إصابة للجسم كله ، ولا يستطيع جسم أن يمارس حياته ووجوده على الوجه الأكمل إذا كان أحد أعضائه يشكو من علة ما . ولذلك لم يعتبر السادات اعتداء إسرائيل الغادر على القادة الفلسطينيين مجرد اعتداء على شقق فى بيروت ، وإنما اعتداء على كل أفراد الأسرة العربية دون استثناء ، اعتداء على الكرامة والعزة والشرف العربى . وفى هذا يقول فى خطابه فى المحلة الكبرى بمناسبة عيد العمال فى أول مايو ١٩٧٣ :

« دى مش هجوم على شقق فى بيروت ، ده هجوم على كل إنسان منا . . مرات يوسف النجار اللى ماتت وهيه واقفة بتدافع عن جوزها فى قلب شقتها ، هيه أمى وأختى وأمك وأختك . . هيه كل ما نعيش احنا علشان نحافظ عليه من شرف ومن إباء عربى . »

هذه هى روح العائلة التى يجب أن تسود العالم العربى كله ، ويقول اوزوالد شبنجلر إن هذه الروح هى العلاقة الوثيقة بين الإنسان والأرض فى المكان الذى يعيش فيه ، وإذا فقدها فقد فقد روح الحمية الوطنية وفقد بالتالى الرغبة فى الدفاع عن الأرض والعمل على تعميرها حضارياً . أى أنه فى غياب روح الأسرة تصبح أية أرض أخرى فى قيمة الارض نفسها التى يعيش عليها الإنسان بالفعل . وإذا استمر غياب هذه الروح لمدة طويلة دون أمل فى إحياء سريع فلابد أن يكون هذا بداية انتكاسة حضارية لهذه البقعة من العالم . فالإنسان بطبيعته لا يتحمس للعمل من أجل شىء لا يشعر بالانتماء إليه . هنا تبرز ضرورة الكيان الأسرى لأنه تجسيد حى وملموس ومحدد لهذا الانتماء . وكما يقول ت . س . إليوت إن المجتمع يتعرض لخطر الانحلال حين يعوزه انتماء الأفراد إليه ، والاتصال بينهم فى المجالات المختلفة من النشاط ، بين العقول السياسية والعلمية والفنية والفلسفية والدينية . فالأفراد الذين لا يلتقون إلا لأغراض عمليـــة محددة ، وفى مناسبات رسمية ، لا يلتقون التقاء كاملا كأعضاء أسرة واحدة . قد يكون بينهم أمر مشترك هم شديدو العناية به ، ولكن الاتصال بينهم ينتهى بانتهاء هذا الأمر المشترك ، وسرعان ما ينصرف كل منهم إلى عالمه الخاص به .

ولكن الكيان الأسرى لا يمكن أن ينهض على فترات متقطعة هكذا ، لأنه أقرب إلى التكوين العضوى وما يحمله من علاقات بيولوجية مستمرة تعتمد على الأخذ والعطاء ، على التأثير والتأثر ، على التجاوب والتلاحم . ولعل الممارسة الديمقراطية هى التى تتيح لهذا الكيان الأسرى الفرصة لكى ينمو نمواً طبيعياً خالياً من الضغوط والعقد والمخاوف التى غالباً ما تقطع الصلة بين الإنسان ومجتمعه ، فمن الطبيعى ألا يشعر الإنسان بالانتماء إلى مجتمع يطالبه بواجباته تجاهه ولا يعترف فى الوقت نفسه بحقوقه عليه . وبالتالى تسرى روح الاغتراب واللا انتماء فى المجتمع ويصبح الإنسان منفياً فى وطنه . وهو وإن لم يكن منفياً جسدياً فهو قد نفى روحياً . ولا شك فإن النفى الروحى أشد وقعاً وتدميراً للإنسان من النفى الجسدى . فهناك دائماً الأمل فى العودة من المنفى الجسدى ، فى حين ينعدم الأمل فى العودة من المنفى الروحى لأن الإنسان يعيش بالفعل فى وطنه ولكن بلا أمل فى الانتماء . ومن هنا كان إصرار السادات على قيمة الوفاء فى حياتنـا ، فالذين ضحوا وخدموا الوطن لهم دين فى عنق الوطن لابد أن يرده إليهم حتى يشعروا عملياً بمقومات الأسرة التى تحنو على أبنائها . وفى هذا يقول السادات وهويسلم الأوسمة لأبطال أكتوبر الجرحى فى ٩ مايو ١٩٧٤ :

« أيها الأبناء والأبطال . . أريدكم أن تعرفوا جميعاً أنكم أبناء لكل أم وأب وإخوة لكل شاب وشابة ومثل أعلى لكل طفلة وطفل فى هذا البلد . أريدكم أن تعرفوا أن شعبكم لن ينسى جميلكم عليه أبداً . وأنه كما كان مستقبل هذا الشعب كله أمانة فى أعناقكم وأنتم تخوضون المعارك وتواجهون الموت ، فإنكم الآن أمانة غالية فى أعناقنا جميعاً وأنتم تضمدون جراحكم وتواجهون الحياة . . لذلك فقد اتخذت اليوم قراراً أن أسند إلى كل واحد منكم عملا يحبه بعد شفائه وتأهيله . . وستأتى إليكم هنا لجان من الخبراء لتقابلكم وتساعدكم على اختيار العمل الذى يريده كل منكم . . فمصر اليوم فى حاجة إلى كل واحد منكم ليبنى معها بناء الغد . »

ومن الواضح أن السادات مصرٌّ على دوره كأب للشعب المصرى أكثر من إصراره على القيام بدور القائد ، وذلك تأكيداً للروابط الأسرية بين القمة والقاعدة . ومن هنا كان الحب الأصيل الذى يكنه له الشعب بكل طبقاته وفئاته . لقد بدأ السادات بضرب المثل الأعلى فى تجسيد العلاقات العائلية الإنسانية مع كل من عمل معه من بعيد

أو قريب . فقد لمس الجميع أنهم يتعاملون مع أب يحبهم ويحميهم ويوجههم ويرشدهم ويحذرهم ويعاقبهم إذا اقتضى الأمر ولكن فى رفق الأب وحنوه أيضاً ، فالجميع أسرة واحدة متآلفة ، الكبير يحب الصغير ، والصغير يحترم الكبير . وليس هناك أزمة ثقة من أى نوع . ونلاحظ أن السادات لا يخاطب العمال أو الفلاحين أو الطلبة أو الجنود أو الشباب بصفة عامة إلا بلفظ « الأبناء » وإذا تكلم عنهم فإنه يستعمل لفظ « الأولاد » أو « أولادى » . وفى هذا يقول العميد ف. خفاجى لحمدى لطفى فى كتابه « أنور السادات : قصة إيمان بالعسكرية المصرية » ص ١٤٥ :

« لقد رأيته أباً للجنود منذ عملت معه ، كان يناديهم بأولادى فى رفح . . نفس النداء الذى يصدر عنه اليوم ، وكثيراً ما قضى إجازاته بينهم . . فى الأعياد لا يتركهم ، يقضى الإجازة فى الوحدة ثم ينزل إلى القاهرة بعد العيد . . وما سب جندياً فى حياته وكان أكثر الضباط أيامها يستعمل ألفاظ السباب فى تعامله مع الجنود ، بل كان هناك من يلجأ إلى ضرب الجندى إذا أخطأ أو تكاسل كأنه طفل صغير وكان الرئيس السادات يحرص دائما على توعية الضباط بمساوئ هذا الأسلوب فى قيادتهم للجنود ، ويحثهم على تغيير المعاملة . »

وفى الكتاب نفسه يحكى الملازم عبد المنعم السيد كيف جمعهم الرئيس السادات ذات يوم وقال لهم (ص ١٥٥) :

« نحن جميعاً أبناء وطن واحد ، وأنا أتحدث إليكم الآن كواحد من أسرتكم ، ولا أطالبكم بغير حماية هذه الأسرة . . إذا استطعنا أن نبقى بالسلاح كأسرة قوية متماسكة نجحنا فى مواجهة سيطرة الإنجليز وغطرستهم . . أنا لا يحزننى شىء غير هذه الأيام التى نعيشها تحت قيادة الإنجليز . . وهذا وضع غير طبيعى ولذلك أعدكم بأنه لن يستمر طويلا ، وسنحصل كشعب على حريتنا واستقلال وطننا . »

وفى الكتاب نفسه أيضاً (ص ٧١) يعلق اللواء جمال سلطان على أسلوب معاملة الرئيس السادات لهم عندما عمل معه فى الصحراء الغربية وأسوان ووادى حلفا فيقول :

« لقد ظل الرئيس السادات دائماً صديق زملائه الوفى ، وبفضل نشاطه الشخصى بالوحدات التى خدم بها ، ارتفعت العلاقات بين الضباط إلى مستوى أفراد الأسرة الواحدة ، ذلك سر قوته الكامن فى أعماقه »

ولقد اختبر السادات عملياً قيمة الكيان الأسرى عندما نقل إلى معتقل المنيا . كان هم التفكير فى خارج المعتقل ، هماً ثقيلا مثيراً للنفس ، باعثا للكآبة ، والجنون . كان مكافحاً فقيراً لا يملك فى هذه الدنيا غير عمله وأسرته الصغيرة ، وكان يعيش فى المعتقل لا يعرف لها معيناً غير الذى خلقه وخلقها . وذات يوم وهو فى طريقه اليومى إلى مكتبة المعتقل التقى السادات بالشهيد اليوزباشى محمد وجيه خليل الذى استشهد فى حرب فلسطين ، وانتحى به جانباً ليسر فى أذنه أن تشكيل الضباط الأحرار قد رتب لعائلته عشرة جنيهات فى كل شهر ، وأنه جاء لكى يطمئنه بعد أن تعذر على الجميع زيارته . وكانت هذه الروح الأسرية من زملاء السادات هى أسمى ما شعر به فى ظلمة الاعتقال وإرهابه . ويعلق السادات على هذا بقوله :

« قد تعرف عن الذين زاولوا الكفاح من أجل فكرة أنهم لا يضعفون أمام الموت ولا يضعفون أمام السجن ولا يضعفون أمام التعذيب ، وقد يخيل إليهم فى لحظات الحماس والانفعال أنهم لن يضعفوا أمام شىء فى الوجود ولكنهم فى هذا واهمون ، فهناك الشىء الذى يضعفون أمامه والذى لا يملكون حياله شيئاً إلا الفرار من الواقع ، والفرار من التفكير فيه ، والفرار من هذه المطارق التى تطرق الرأس والقلب والضمير ، وتحيل الجبار شخصاً ضعيفاً يكاد يستسلم ، ويكاد يستغيث ، لولا كبرياء الكفاح وتأثير الفكرة المتأصلة فى نفسه ومثالية الهدف ، ولعلك عرفت الآن ما هو هذا الشىء الذى يضعف أمامه المجاهدون ، إنه الولد ، الطفل ، العيال ، هؤلاء الصغار الودعاء الذين ندفعهم دفعاً إلى مرارة الكفاح ، ونأخذهم أخذاً على الصبر والحرمان ، والتقشف ، ولم يبرحوا بعد مراحل الصبا . . هؤلاء هم

نقطة الضعف فينا ، وهى نقطة ضعف أعترف بها ولا تخجلنى لأننى إنسان ، وقد كنت أحتمل أن يحرم أطفالى من رعاية أبيهم ولكنى ما كنت أصبر على حرمانهم من ضرورات الحياة . .

وقد كانت هذه الجنيهات العشرة هى العون الوحيد الذى أقبله لأطفالى لأنها لم تصدر عن عطف ، ولا إشفاق ، وإنما صدرت عن فكرة مشتركة وتكافل بين مكافحين ، وبدأت أنسى هم الحياة فى خارج المعتقل ، وبدأت أفكر فى خطوط المستقبل ، وخطوات الجهاد . »

من هنا كان إيمان السادات العملى بقيمة الكيان الأسرى ، وهو لا يستطيع رفض أى طلب يطلب منه كأب طالما أن فى استطاعته تلبيته . ففى أبريل عام ١٩٧١ أرسلت الطفلة الإيطالية فرنشيسكا مانكا – ٩ سنوات – خطاباً إلى الرئيس السادات قالت فيه إنها تحلم بزيارة مصر التى قرأت عن تاريخها فى الكتب ولكن عدم قدرتها المالية يحرمها من تحقيق هذا الحلم . وبعد أسبوعين وصلتها دعوة الرئيس وتذاكر السفر . وجاءت الطفلة إلى القاهرة فى زيارة لمصر تِستغرق تسعة أيام فى ضيافة الرئيس السادات الذى لم يستطع رفض طلب طفلة مثل هذه ، لأن مشاغله الكثيرة ومسئولياته الجسيمة لا تستطيع أن تتغلب على روح الأبوة عنده ، مما دعا أديباً كبيراً مثل محمود تيمور أن يقدم صورة وصفية للسادات فى مجلة « الجديد » فى أول أغسطس ١٩٧٣ فيقول عنه :

« شاهدناه بين صحبه الجند ، فى الجبهة المقاتلة ، فلمسنا فيه شخصية القائد القادر بعزمه وجسارته ، وقلبه الزاخر بالحيوية والأمل الزاهر . . وإننا لنرى فيه ، فى الوقت نفسه ، شخصية أب عطوف ، تشع عيونه رحمة وسلاماً ، ويترقرق حديثه طمأنينة وأمناً » .

ولم يكن حب السادات لعائلته الصغيرة ليشغله عن كفاحه من أجل أسرته الكبيرة : مصر . فكل الشهداء والأبطال أبناء له . فعندما ولد ابنه جمال أثناء العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ لم يستطع ولم يرض أن يحتفل بهذه المناسبة العائلية الخاصة فى حين الأسرة المصرية كلها معرضة لخطر داهم . يقول مخاطباً ابنه فى كتابه « يا ولدى هذا عمك جمال » ص ٥ :

« فقد ولدت يا بنى وأنا فى شغل شاغل عن بيتى وأهلى . . لقد كنا نعيش يا بنى فى تلك الأيام من شهر نوفمبر سنة ١٩٥٦ ونحن نخوض معركة الموت والحياة من أجل مصر أمنا . . معركة نسينا فيها الأهل ، والعيال . . نسينا فيها كل شىء ، وتضاءلت ، وانمحت ، من نفوسنا كل عاطفة لأهل أو ولد إلا عاطفة واحدة كانت تشغل كياننا فى ليلنا ونهارنا ، بأعنف مما يحسه الفرد نحو أهله وولده . . وكانت تلهب عزائمنا للدفاع عما هو أقدس وأجل من من الأهل والمال والولد . . وهى مصر . . » .

ثم يعلق على حقيقة أحاسيسه تجاه مصر : أسرته الكبيرة فيقول ص ٨ :

« كان هناك أولا أبناؤنا وأطفالنا ، ونساؤنا ، ورجالنا ، الذين نفقدهم كل يوم بل كل ساعة فى بور سعيد ، وفى سيناء وفى غزة ، وفى جميع أنحاء مصر . . بفعل قنابل بريطانيا وفرنسا وأساطيلهما ، مضافاً إليها قنابل حلف الأطلنطى وأساطيله وعتاده بأكمله . »

حتى فى خطبه التاريخية التى قد تحضر لسماعها الآلاف المؤلفة ، نجده يحيلها إلى اجتماع عائلى لأننا أحوج إلى أن نعود إلى أنفسنا وتقاليدنا وإلى ما درجنا عليه فى بيئتنا المصرية . وهو يصرّ دائماً أن تكون صورة مصر هى صورة العائلة الواحدة . « مصر بكل من عليها وما عليها . مصر بفلاحها وعاملها ومثقفها وجنديها ، بتاجرها . . بكل من يعمل على أرضها ، حتى بشجرها بنيلها بترابها ، بكل شىء وهبنا الله على هذه الأرض » . ولذلك كان فى يقينه وتقديره دائماً أن كل شىء لا بد وأن نتصارح فيه ، لا بد وأن نطرحه أمام الشعب بكل حقائقه حتى تقوى أواصر

الأسرة وأسباب الانتماء بين أبناء الوطن الواحد ، لأنه كما يقول السادات فى لقائه مع رجال القضاء فى ١٢ يناير ١٩٧١ :

« المعركة فى عالم اليوم ومقاييسه معركة شاملة لن ينجو منها أحد والكل سيكون فيها : القاضى والعامل والموظف والمحامى والطبيب والفلاح فى قريته والمواطن العادى فى منزله وشارعه . كل مدينة كل قرية كل مكان . . الحرب حربنا جميعاً ولا بد أن نحافظ على وحدتنا الداخلية لأنها سلاح رئيسى من أسلحتنا إلى جانب الأسلحة الحديثة التى يتزود بها أبناؤنا . . أن نكون جبهة واحدة متماسكة فى كل مكان . . جبهة صلبة تعرف هدفها فى كل مكان فى الشارع فى القرية . . وفى المدينة فى المحكمة فى كل مكان . . هيئة واحدة صلبة نعرف مكاننا ونكافح من أجل ذلك . أردت أن أقول للمجلس الأعلى للهيئات القضائية إننى أريد أسرة واحدة متماسكة يحس كل واحد فيها بإحساس الآخر ويطمئن كل واحد فيها تمام الاطمئنان ويواجه كل واحد فيها بما يكون عليه حتى نحقق من داخلنا تماسكاً كاملا هو عماد قيام جبهتنا الداخلية الصلبة . »

ومن أجل هذا أصدر السادات توجيهاته إلى الهيئة القضائية والمخابرات العامة ووزارة الداخلية بأن أمن الجماهير فوق كل اعتبارات استثنائية تستدعى التجسس ومطاردة الناس واعتقالهم . فالكيان الأسرى لا يعنى سوى الأمن والطمأنينة وسيادة القانون وحرمات البيوت وكرامات الناس . حتى الذين تنكروا للأسرة المصرية وخانوها لم يحاول السادات أن يعاملهم بروح الانتقام لأنهم أعضاء فى الأسرة نفسها ، بل عاملهم بروح القانون حتى يضع الأمور فى نصابها وحتى لا يتساوى المحسن مع المسىء . وإذا كان الصراع هو محور الحياة الإنسانية فيجب أن يدور فى حدود الكيان الأسرى للأمة حتى لا يحطمه ويقضى عليه . يقول السادات فى خطابه فى المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى فى ٢٣ يوليو ١٩٧١ :

« يكون الصراع دائماً بالرأى ، وبالحب ، وبدون حقد . . نحل مشاكلنا كلها داخل تنظيمنا السياسى ، نحن جميعاً بالتحالف : فلاحين . . عمال قوات مسلحة . . مثقفين . . رأسمالية وطنية . . لنحل مشاكلنا ، بنتناقش فى كل أمورنا ، بناخد كل القرارات فى مصير بلدنا ، بنناقش كل شىء ، بالحب ، وبدون حق لا شخصى ولا حقد طبقى . . لن أسمح به وأنا عايش ، وعليكم أنتم تكملوا بعدى . . »

وأيضاً لن يتأتى لنا أن نبنى الفرد إلا من خلال مجتمع تظله روح العائلة والحرية الكاملة ولن تتأتى الحرية الكاملة إلا تحت سيادة القانون . ولهذا يوكل السادات للتنظيم الاجتماعى الشعبى دوراً حيوياً وهاماً فى دعم جبهتنا الداخلية وخاصة فيما يتعلق برعاية أسر المقاتلين والمهجرين والشهداء ، وأيضاً فيما يختص بتدعيم الأسرة وتنظيمها ورعاية الطفولة وحمايتها وتنمية المجتمعات المحلية ورعاية الطلاب والشيوخ والمعوقين . وذلك حتى ننطلق نحو تحقيق مبدأ كفاية الخدمات لتأمين حياة المواطنين وإشعارهم أنهم ينتمون إلى أسرة واحدة . ويوضح السادات أن مبدأ الرعاية الاجتماعية ليس جديدا على مصر ، فقد قامت الرعاية الاجتماعية فى مصر منذ فجر التاريخ وتأصلت مسئولية المجتمع نحو أفراده عبر العصور والأجيال ثم جاءت الشرائع لتعمل على تأكيدها ، ثم صدرت القوانين الوضعية تحقيقاً للأمن الاجتماعى وتلافياً لمخاطر الزمن ، وتدعيماً لعناصر التقدم والتنمية للأفراد والجماعات وتوفيراً للحياة الحرة الكريمة لكل أفراد أسرة الوطن .

هكذا يقوم السادات بدور رب الأسرة لكل المواطنين ، وكلامه فى خطابه فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧١ ينطبق أول ما ينطبق عليه هو شخصيا عندما يقول :

« لأنه يتبقى منحة كبرى من السماء لما ربنا سبحانه وتعالى يفيض لشعب أب يستطيع فى كل الظروف ورغم كل الظروف أنه يجمع الشعب كعائلة واحدة ، ويتخذوا هم منه كأب مهما كانت الخلافات ومهما كانت الأوضاع

اللى بتكون موجودة ، أو اختلافات فى ديانة ، لغات ، أجناس ، أى حاجة . . . » .

والسادات – كأب – يحمل دائماً هم أسرته فى كل قرار يتخذه حتى فى خطابه التاريخى فى افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب فى ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، لم ينس روح الأبوة وإيمانه بقيمة الكيان الأسرى رغم المسئوليات الجسيمة التى ترتبت على معارك أكتوبر المجيدة التى كانت رحاها دائرة أثناء إلقاء الخطاب الذى افتتحه بقوله :

« كان بودى أن أجيء إليكم قبل الآن ، ألتقى بكم وبجماهير شعبنا وأمتنا ، لكن مشاغلى كانت كما تعلمون وكما تريدون ، واثق أنكم تقدرون وتعذرون ، ومهما يكن فلقد كنت أحس بكم وبشعبنا وأمتنا معى فى كل رأى . وكنت أحس بكم وبشعبنا وأمتنا معى فى كل قرار ، كنتم جميعاً معى ، فيما أخذته على مسئوليتى تعبيراً عن إرادة أمة ، وتعبيراً عن مصير شعب ، ثم وجدت مناسبا أن أجيء إليكم اليوم أتحدث معكم ومع جماهير شعبنا ومع شعوب أمتنا العربية وأمام عالم يهمه ما يجرى على أرضنا لأنه وثيق الصلة بأخطر قضايا الإنسانية ، وهى قضية الحرب والسلام ذلك لأننا لا نعتبر نضالنا الوطنى والقومى ظاهرة محلية أو إقليمية لأن المنطقة التى نعيش فيها بدورها الاستراتيجى والحضارى فى القلب من العالم وفى الصميم من حركته . »

هنا يبدو مفهوم السادات الشامل للكيان الأسرى ، فهو ينظر إلى العالم كله على أنه أسرة واحدة مهما تنوعت وتعددت الصراعات والحروب داخله . فالكيان الأسرى الوطنى والقومى لا يعنى الانغلاق أو الانعزال إذ أنه لا يتحرك فى فراغ ، وإنما يتحرك فى منطقة القلب من العالم وفى الصميم من حركته . ونحن إذا كنا نسعى إلى تحقيق تقدمنا الاقتصادى وتعميرنا الحضارى ورفاهيتنا الاجتماعية ، فنحن لا نتجاهل فى الوقت نفسه رخاء العالم وازدهاره ، لأننا فى حاجة إلى كل مشاعر الود والحب والأخوة من إخوتنا فى مشارق الأرض ومغاربها ، فبهذا الزاد نسعد ونحس بالدفء فى قلوبنا . ولذلك يعلن السادات فى الخطاب نفسه :

« أننا على استعداد هذه الساعة ، بل هذه الدقيقة ، أن نبدأ فى تطهير قناة السويس وفتحها أمام الملاحة العالمية لكى تعود إلى أداء دورها فى رخاء العالم وازدهاره ، ولقد أصدرت الأمر بالفعل إلى رئيس هيئة قناة السويس بالبدء فى هذه العملية غداة إتمام تحرير الضفة الشرقية للقناة ، وقد بدأت بالفعل مقدمات للاستعداد لهذه المهمة . »

وقبل أكتوبر العظيم كان السادات دائماً مع كل فرصة يعطيها للأسرة العالمية تقديراً واحتراماً لها ، مع وعيه العميق بأن الأمر فى النهاية منوط بقوتنا وحدها . والواجب على المستوى العالمى مسئولية واسعة وقد تحمل السادات منها ما يكفى ودعا الأسرة العالمية إلى وقفة صريحة لا لبس فيها ولا غموض ، ووضع الأمم المتحدة أمام خيار أن تكون موجودة أو لا تكون ، وأيضاً وضع الدول الكبرى أمام مسئولية صيانة النظام الدولى القائم وهى مسئولية لا تستطيع أن تتحلل منها . وبذلك أخلى السادات مسئوليته أمام الأسرة العالمية التى وقفت عاجزة أو متغاضية أمام الضغوط والدعايات الإسرائيلية المغرضة ، برغم أن العصر الحديث يدعو إلى الحق والعدالة والتعاون والتعايش السلمى ، وإلى أن الحضارة الإنسانية ينبغى أن يسهم فى نهوضها العالم أجمع حتى تخفف عن الإنسان عناءه وأثقاله ومتاعبه النفسية والروحية . فلم تعد المشكلات تتعلق بأمة دون غيرها بل أضحت هذه المشكلات تمس الأسرة الإنسانية وتؤثر فى حياتها ومستقبلها ومستواها المعيشى . ولكن إسرائيل حاولت طمس كل هذه الحقائق مستهينة بالأسرة الدولية جمعاء . ولذلك قامت حرب أكتوبر المجيدة لتعيد للأسرة الدولية احترامها وكيانها وقيمها التى طالما تلاعبت بها إسرائيل منذ هزيمة يونية ١٩٦٧ . وفى الوقت نفسه لتؤكد الكيان الإنسانى المحترم والمعترف به من العالم لكل من الأسرة العربية والأسرة المصرية .

ولأن حرب أكتوبر العظيم قامت أساساً على أكتاف شباب هذه الأسرة الحضارية العريقة ، فقد رأينا أن نخصص الفصل التالى من هذه الدراسة لتحليل قضية الشباب فى فلسفة رائدنا فى التأصيل الفكرى : أنور السادات .

الفصل العاشر

قضية الشباب

تشغل قضية الشباب حيزاً كبيراً فى فكر السادات وفلسفته لأنه يعتقد أن كل الإنجازات التى قام بها جيله ، وكل الصعاب التى قهرها ، وكل البناء الذى شيده لا يمكن أن يستمر وينمو فى المستقبل إذا لم نعد الشباب من الآن لتحمل تبعته . فليس من قبيل العبارات الإنشائية البلاغية أن نقول إن الشباب هو المستقبل ، فبدون إعداد الشباب لحمل أمانة المستقبل فلن يكون هناك مستقبل على الإطلاق . ولذلك يوجه السادات خطابه إلى الشباب فى مؤتمر الطلبة فى ٣ أبريل ١٩٧٤ فيقول :

« عليكم الآن أن تعدوا أنفسكم لاستلام هذه الأعلام ، لقد قام جيلنا بما هو فوق طاقته ، واليوم ونحن فى هذا المنعطف من تاريخنا ، يوم أن حققنا إرادتنا أمام العالم كله واستعدنا ثقتنا بأنفسنا ، استعدنا ثقتنا بقواتنا المسلحة وأصبح لنا كما قلت لكم من قبل ، أصبحت قواتكم المسلحة درعاً وسيفاً ، اليوم يأتى دوركم ، يأتى دور الجيل الذى يتسلم منا الأمانة ، وأقولها بأمانة وصدق ، كم نزفت جباهنا مرارة وألماً وتمزقاً ، لقد عايشنا الاستعمار ، عايشنا الإقطاع ، عايشنا الاقتصاد المصرى فى أيد أجنبية بالكامل ، عايشنا مجتمع الخمسة فى المائة . لم يكن ينعم بخيرات هذا البلد — وقت أن كنا نحن شباب — إلا هؤلاء الخمسة فى المائة وكنا نحن جميعاً من المغتربين . عايشنا كل هذا وقامت ثورتكم ، ثورة ٢٣ يوليو وغيرت هذا الواقع كله .

وشببتم أنتم ولم تعاصروا كل هذه الأحداث . أصبح كل شىء تحت يدكم حتماً مكتسباً تطلبون أكثر منه ، وهذا حق لا أعيبه عليكم لأننا لا بد أن نتطلع دائماً إلى أعلى وإنما أريد أن أقول لكم لقد آن الأوان لكى تتحملوا مسئولياتكم . »

ويؤمن السادات أن الشباب هو حلقة الوصل بين الماضى والمستقبل ، وحرصه على دور الشباب جزء من حرصه على أن ترتبط حلقات تاريخنا كلها ولا تنفض . ولذلك يتحتم على الشباب أن يعرفوا تاريخ ثورتنا وكل ما مر بها من مراحل حتى يرتبط الماضى بالحاضر بالمستقبل فلا يستطيع أحد أبداً أن يكسر حلقة أو أن يعود بنا إلى الوراء أو يدخل بنا فى متاهات . ولعل السؤال الحيوى الذى يطرح نفسه أمام الشباب ويفرض عليهم البحث عن إجابة شاملة وعلمية عليه هو : كيف ننظر إلى الماضى ، وكيف ننظر إلى المستقبل ؟ ولعل أكتوبر العظيم قد أجاب عن العنصر الرئيسى فى هذا السؤال وهو أن النظر إلى الماضى أو إلى المستقبل لا بد وأن يتميز بالموضوعية والتأصيل الفكرى النابع من شخصيتنا وتراثنا وأخلاقنا وتقاليدنا وحضارتنا . فقرار أكتوبر التاريخى كان قراراً مصرياً مائة فى المائة وفى هذا درس هام وحيوى لأجيال الشباب القادمة التى يجب ألا تستمع إلى أى صوت إلا صوت مصر الصادر من صميم كيانها . وليس هذا على سبيل الحماس أو الانفعال الوطنى ولكنه من قبيل التقييم الموضوعى الذى أثبت لنا أن أية تجربة إنسانية غير نابعة من تربتنا مصيرها الفشل والاندثار . ولذلك يؤكد السادات فى « ورقة أكتوبر » :

« أن من حق شبابنا بالذات أن يدرك هذا التقييم الموضوعى للتجربة ليعرف بالدقة ماذا حقق جيلنا ، وماذا كان مقدار جهده ، وما تعرض له العمل الوطنى من نواقص ليتخذ عن اقتناع مكانه الطليعى فى حركة العمل الوطنى بدل أن تمزقه التيارات التى تحاول أن تنكر التجربة جملة وتفصيلا .

أما عن الاتجاه الثانى وهو أن نوائم بين حركة العمل الوطنى وبين الظروف الجديدة التى نعيشها ويعيشها العالم من حولنا ، فإننى أود أن أقول إن أسلوب العمل الوطنى يجب أن يتغير بتغير الظروف التى يواجهها فى ظل التمسك بالمبادئ الجوهرية التى ارتضاها الشعب . ونحن فى عام ١٩٧٤ ، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار تغيرات كثيرة شهدها واقعنا المحلى ومنطقتنا العربية والعالم كله . وإذا كان منهاجنا الأساسى هو حرية الإرادة الوطنية فى اتخاذ القرار وفى صياغة المستقبل ، فإن الممارسة الفعالة لهذه الحرية تقتضى حساباً دقيقاً لكل ما يحيط بنا من ظروف لنقرر لأنفسنا ما هو خليق بتحقيق أهدافنا فى البناء والتقدم . وفى تقديرى أن نقطة البدء هنا فى مصر ، فنحن لم نعد نتلقى سلبياً نتائج متغيرات خارجية ، بل فتح أكتوبر العظيم عهداً جديداً من شأنه أن يمكن مصر من أن تؤثر بدورها فى حركة التطور بالمنطقة ، بل وبالتعاون مع إخوتنا من البلاد العربية أن تؤثر فى السياسة العالمية . »

وإيمان السادات بتطلعات الطلبة ومعاناة الشباب بصفة عامة صادر عن كفاحه فى صدر شبابه أيام كان طالباً بالثانوى ثم بالمدرسة الحربية . وقد جرب بنفسه هذه المعاناة ، ولم تكن معاناة نفسية كالتى يمر بها شبابنا وخاصة قبل السادس من أكتوبر العظيم ، بل معاناة رهيبة تجمع بين الألم النفسى والتعذيب الجسدى فى السجون والمعتقلات ، وعندما حصل على حريته خلسة ، ظل مطارداً من قوات المباحث والمخابرات والبوليس السياسى . ووسط هذا الإرهاب كان مضطرًّا للبحث عن لقمة العيش ، فعمل شيالاً فوق اللوريات ثم سائقاً لها . كل هذا حدث وهو ما زال شابًّا يافعاً ، بينما أقرانه من السن نفسها ينهلون من متع الحياة وملذاتها . ولذلك لم يشعر الشباب أبداً أنه يتكلم من مركز السلطة بل كان بمثابة الأب الحنون والحازم لهم . ويعلم الشباب جيداً أن كل آراء السادات وتوجيهاته كانت تنبع من مركز الإحساس بالمسئولية والخوف على مستقبلهم من الضياع وخاصة فى مثل عالمنا المعاصر الذى يموج بآلاف التيارات المتعارضة والاتجاهات المتصارعة .

ولعناية السادات بالكيان الأسرى للأمة ، كان حريصاً على ربط الشباب والطلاب بقوى الشعب العاملة . فهم ليسوا قوة مستقلة عن كيان الأمة ، ولا ينبغى أن تنفصل بمصالحها وحركتها عن مصالح وحركة قوى الشعب المجتمعة فى تحالف داخل إطار التنظيم السياسى . فالوحدة الوطنية لقوى الشعب قضية مصيرية لا يجوز التهاون فى المحافظة عليها ، والشباب والطلاب وهم أبناء قوى الشعب العاملة كلها عليهم أن يجسدوا فى حركتهم هذه الوحدة وأن يجعلوا من أنفسهم حراساً عليها ، فلا بديل اليوم للوحدة الوطنية سوى التشتت والضياع وتفريق الصفوف . وإن التلاحم بين شبابنا بالجامعات وفى المصانع وفى الحقول وعلى الجبهة هو قاعدة نضالنا من أجل المستقبل المشرق .

وبهذا يستحيل اعتبار الطلاب سلطة جديدة فى الدولة ، فإن لهم الحق مثل كل الشباب فى أن يمارسوا حقهم السياسى كمواطنين على قدم المساواة بشرط ألا يعطل هذا دراستهم وهى مهمتهم الأولى . فلا أحد ينكر عليهم حقهم فى ممارسة النشاط السياسى من خلال الاتحادات الطلابية والاتحاد الاشتراكى . ولكن المطلوب من الطلاب أولا وأخيراً الانتهاء من الدراسة لتحمل مسئولية التحرير والتعمير . وقد أكد السادات دائماً حق الشباب والطلاب فى عقد المؤتمرات وإبداء الآراء تحت ظل سيادة القانون ، فثقته فيهم هى ثقته فى مستقبل مصر كلها . وعندما كان هناك من يبدون الخشية من أن يتحول الانفتاح إلى انفلات كان يقول : « فلنمارس ولا نخشى شيئاً . » فالشباب هو الغد وبمقدار ما يستحق الغد من اهتمامنا بمقدار ما يجب أن نعطى للشباب اليوم . ولذلك يؤكد السادات فى خطابه أمام المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى فى ١٦ فبراير ١٩٧٢ :

« إننى واثق فى شبابنا لأننى واثق فى مستقبل شعبنا . وإذا فقدت الثقة فى الشباب فمعنى ذلك أن أفقد الثقة فى المستقبل ، وذلك ما أرفضه رفضاً باتًّا وقاطعاً ، لأن إيمانى بمصر وقدرها ومستقبلها لا يلحقه ظل من شك ،

وأجدنى فى هذا أعمم الحكم فأقول إن أى شعب يفقد إيمانه بشبابه سوف يصبح شعباً لا عزة له ، شعباً آثر التوقف ليس عن التقدم فحسب ، بل عن مسيرة الحياة كلها . »

ومما يؤكد أن الشباب المصرى جدير بالثقة ، أن المغرضين والعملاء قد حاولوا استخدامه سلاحاً موجهاً ضد الأمة حتى تهتز الجبهة الداخلية وبالتالى تتأثر الجبهة العسكرية ، ولكنهم لم يفلحوا برغم سنوات التمزق والتشتت النفسى التى عاشها شبابنا فى سنى الهزيمة ، فقد أدرك الشباب المصرى بوعيه الأصيل أن أية حرب نفسية تثور بين دوائر الطلاب لا بد أن تنعكس آثارها السيئة على كيان الأمة كلها ولا يعقل أن يبتلع الشباب المتعلم المثقف الواعى الطعم الذى يقدمه له الأعداء . فمعنى ابتلاع مثل هذا الطعم أن الشباب مقتنع بأن الأعداء يعرفون مصلحة هذا الشباب أكثر من معرفته بمصلحته الشخصية والوطنية . فقد أراد الأعداء استغلال الممارسة الديمقراطية عندنا لكى يرفعوا الحواجز فى أذهان الشباب بين ممارسة الحرية وممارسة الفوضى . فإطلاق الحريات وإلغاء الحرس الجامعى وإتاحة مجانية التعليم وسيادة مبدأ تكافؤ الفرص ، كل هذا لا يعنى الفوضى والتسيب والخروج على القيم الأصيلة لهذا الشعب .

والسادات – كأب – كان يدرك جيداً عاطفة الشباب الجامحة وطاقة الانفعال الفوارة التى تدفعه فى بعض الأحيان إلى الإتيان ببعض التصرفات التى قد يندم عليها بعد ذلك إذا رآها فى ضوء هادئ ومتعقل وموضوعى . ولذلك نادى السادات بأن تدعيم قيم الحرية لا يتأتى بإلغائها ولكن بالمزيد من الحرية ذاتها . والحرية تحمل فى داخلها الضوابط والمعايير الكفيلة بتحويل أية فورة عاطفية إلى طاقة خلاقة ذات هدف محدد ومرسوم ، بدلا من أن تتبدد فى الهواء أو تأتى بآثار عكسية تضر الشباب نفسه . وخاصة أن أسلوب تحقيق الهدف لا يقل أهمية عن تحقيق الهدف ذاته . فالأسلوب الأهوج المتسرع الطائش المرتجل قد يؤدى إلى نتيجة عكس التى يهدف إليها الشباب تماماً برغم نبل مقصدهم . ولذلك يتحتم عدم الفصل بين الوسائل والغايات . ولم يقتصر تعقيل السادات للشباب المصرى على فترة النكسة بل يرجع هذا التعقيل إلى بدء الثورة عندما كان الشباب المصرى يريد أن يحارب الإنجليز ويطردهم مدفوعاً بالحماسة وحدها . لأن مجرد الحماسة قد يضيع أرواح الشباب هباء ، ومن هنا كانت حتمية المنهج العلمى ، والتخطيط الواقعى ، والتفكير المنطقى حتى تتحول العاطفة إلى طاقة فعالة ومؤثرة . وفى هذا يقول السادات على صفحات مجلة « التحرير » فى ٢ فبراير ١٩٥٤ :

« ليعلم الشباب المشتعل حماسة . . أننا يوم نعلن الحرب على بريطانيا . . سنحارب معها كل الدول التى ستحاربنا معها فى الخفاء ، سنحارب أمريكا . . وسنحارب إسرائيل . . وسنحارب كل دولة يهمها أن ينتصر الاستعمار . . وتنتصر الرجعية ، وهى حرب لا ترهبنا ولا تخيفنا . . فإننا نعد لها عدتها التى تكفل لنا النصر . .

إننا لا نريد أيها الشباب المتحمس الوثاب ، أن تقع فيما وقع فيه غيرنا . فإن أرواح حكم علينا عزيزة ، ونحن لا نريد لكم أن تبذلوها إلا فى الزمان والمكان اللذين يصبح فيهما بذل الأرواح ضريبة حانت ساعة آدائها . فترقبوا معنا صوت النداء . . ويوم تسمعونه ، فثقوا من أنه يعلن ساعة الخلاص . »

ويحكى السادات لأبنائه الطلبة على صفحات « الجمهورية » فى ٤ أكتوبر ١٩٥٤ كيف كان جيله من الطلبة يستقبل العام الدراسى وكله أمل أنه بتجمعه فى المدرسة يستطيع أن يعلن سخطه بالإضراب على الأوضاع القائمة ، وكان يلذ له أن يخرب فى هذه المظاهرات كل ما يقع بين يديه . ويذكر السادات جيداً ذلك اليوم من عام ١٩٣١ حينما خرجوا فى مظاهرة ضد صدقى وأخذوا فى تحطيم الفوانيس وعربات الترام لا لشىء إلا أن حكم صدقى كان ضد إرادة الشعب . . ولقد كان الهدف صحيحاً ولكن الخطأ كان فى تطبيق الوسيلة بالتخريب .

ولم يكن التخريب مجرد الاعتداء على موجودات مادية يمكن إصلاحها فيما بعد ، ولكن التخريب كان يقع على نفوس الشباب وعقولهم عندما يجدون ثورتهم تتبدد وضرباتهم تطيش ووقتهم يضيع وبالتالى يضيع معه الهدف الرئيسى لهم وهو الدراسة والتحصيل من أجل التعمير الحضارى . أى أن التخريب كان تخريباً حضارياً دون أن يدرى الشباب .

ولكن عندما قامت الثورة أزاحت من طريق الشباب كل ما من شأنه أن يشتت جهوده ويضيع وقته الثمين مما يحتم على الشباب أن يستأنف كفاحه فى مجراه الطبيعى والصحيح . وما حدث فى السادس من أكتوبر العظيم كان تأكيداً لما حدث فى يوليو عام ١٩٥٢ . فقد أزيلت كل أسباب التمزق والتشتت والضياع وأصبح المناخ صحيًا وصالحاً للدرس والتحصيل على أحسن وجه . ولعل كلمات السادات عام ١٩٥٤ تصلح مرة أخرى بعد عشرين عاماً لشباب هذا الجيل حتى يدرك مدى أصالة هذا الرائد الفكرى وبعد نظره . يقول للشباب فى العدد السابق ذكره من « جريدة « الجمهورية » :

« إن كفاحكم يجب أن يستمر . . ولكن على صورة أخرى . . يجب أن يكون كفاح عقول ، وكفاح نبوغ وتحصيل ، وأنتم تقرءون كل يوم عما يحدث فى البلاد الأجنبية من كشف واختراع وابتكار أساسه كله المجهود الشخصى ولا أظنكم تجهلون أن مصر فى هذه الحقبة من تاريخها فى حاجة قصوى إلى عقولكم ومبتكراتها وإلى جهودكم ومخترعاتها . . لقد تخلفنا طويلا عن ركب الحضارة . . لا لعيب فى تكويننا أو لنقص فى عقولنا ، وإنما لأننا انصرفنا بمشاكلنا الخاصة عما يجب أن نؤديه نحو وطننا . . إن معركة الحرية التى بدأت منذ قيام هذه الثورة لن تثمر ، ولن تصل بهذا الشعب إلى مكانه اللائق إلا بالجهود المتضافرة من كل فرد يعيش على أرض هذا الوطن . وإن مسئوليتكم فى إتقان الدرس والتحصيل تساوى تماماً مسئولية الحاكم فى رعاية العدل والمساواة . لذلك فأنا أطلب منكم أن تنفوا بشدة عن أنفسكم كل تلك الإشاعات المغرضة وأن تتجهوا فى عزم وصلابة نحو دروسكم ، وما يعدكم الوطن له . »

ونظرة السادات الموضوعية إلى قضية الشباب تحتم عليه أن ينظر إليها من كل الجوانب المحتملة . فقد أوضح دور الشباب تجاه الدولة وفى العدد التالى من جريدة « الجمهورية » أى فى ٥ أكتوبر ١٩٥٤ قام بتوضيح واجب الدولة تجاه الشباب ، وهو الواجب نفسه الذى أكده بالنص بعد عشرين عاماً فى « ورقة أكتوبر » . وهذا يدل على مدى الاتساق المنطقى الذى يتمتع به فكر السادات . يقول فى جريدة « الجمهورية » فى ٥ أكتوبر ١٩٥٤ :

« هذا الغد الذى نضع أسسه الآن ، ونحاول أن نحدد معالمه ، من هو المسئول عنه ومن هم جنوده ؟ هل هو هذا الجيل ؟ أو هى الأجيال القادمة ؟ واتفقنا بادئ ذى بدء ، أنها رسالة الجيل الجديد . ثم بدأنا نتساءل : أو ليس من واجبنا إذن ، وقد وضعنا البذرة فى الأرض أن نتطلع إلى من يتعهدها وأن نعده إعداداً كاملا لخدمتها ، حتى تنمو وتزدهر ؟ أو ليس من حق أبنائنا علينا ، أن نجنبهم خطأ آبائنا فى تركنا هكذا حيارى بلا طابع ولا هدف ! أو ليس من حقهم علينا أن يعلموا من هم ؟ وماذا نريد منهم ؟

إن أخطر رسالة يمكن أن نقوم بها فى الواقع هى إعداد جيش يحمى هذا التراث الذى ورثناه جيلا بعد جيل ، دون أن نعلم شيئاً من أسراره ! ويوم ننجح فى أن نستودع صدور أبنائنا حقيقة هذا التراث ، ونفتح أمام عيونهم الطريق إلى كنوزه وأسراره ، يوم ننجح فى تحقيق هذه الرسالة نستطيع أن نرفع رءوسنا لنقول إننا فعلنا شيئاً للغد ! »

واستكمالا للخط الفكرى نفسه الذى تأكد عام ١٩٥٤ يوضح السادات فى بيانه أمام « مجلس الشعب » فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ أن :

« الشباب اليوم فى حاجة إلى شيئين . . إلى حوار بين الأجيال ، بدلا من صراع بين الأجيال . . حوار تنتقل

به التجربة ، وتنتقل به المسئولية . . وإلى أمل لا تصده حواجز ، وأخطر الأشياء أن يشعر شبابنا أن آماله فى وطنه مقيدة . »

والمهمة الملقاة على عاتق روادنا الفكريين أن يوضحوا للشباب باستمرار أن النظرة الموضوعية الملتزمة ليست وهماً من الأوهام ، وإنما هى فكرة حيوية دافعة تغذ السير ملتزمة غايتها الحضارية العليا فى التاريخ الإنسانى ، ومهمة الرائد الفكرى أن يعرف مسيرة التاريخ وخطته وغايته من خلال الفكرة العليا التى تقوده وتحدده . وقد لا يدرك الشباب حقيقة الأشياء فيثيرون التذمر ويلجون فى الثورة ، فإذا تقدمت بهم السن غلب عليهم الاعتدال . وليس هذا مصدره الرضا والقناعة ، ولكن مصدره النضج والخبرة وصحة الحكم على الأشياء . فمن خلال الخبرة والتجربة يتعلم الإنسان مع تقدم السن كيف يفرق بين ما هو عارض وما هو جوهرى . ومع ذلك يتحتم على روادنا الفكريين ألا ينتظروا الشباب حتى تتقدم به السن لكى يحصل على النضج والخبرة وصحة الحكم على الأشياء . فواجب هؤلاء الرواد الإسراع فى تقديم الوسائل والدراسات والإنجازات والكتب التى تساعد الشباب على النضج السريع ، وبذلك نختصر عامل الزمن وننطلق فى ركب التعمير الحضارى بسرعة العصر الذى نعيشه فنحن لم نعد نتلقى سلبياً نتائج المتغيرات الخارجية بعد السادس من أكتوبر العظيم .

هذا هو المكان الذى تحتله قضية الشباب فى فكر السادات ، وهذا هو الحيز الذى يشغله الشباب داخل الكيان الأسرى للأمة . ولكن من يسهر على تربية هذا الشباب ورعايته داخل هذا الكيان الأسرى ؟ لا شك أنها المرأة التى أنجبت كل هذه الأجيال التى نهض عليها بنيان أمتنا . ومن هنا كان الركن الرئيسى الذى تشغله المرأة فى فكر السادات ، وهو لا يقل فى أهميته وحيويته عن قضية الشباب . ولذلك آثرنا أن يدور الفصل التالى من هذه الدراسة حول مفهوم المرأة الجديدة فى فلسفة رائدنا فى التأصيل الفكرى : أنور السادات .

الفصل الحادى عشر

المـرأة الجديدة

برغم أن الكاتب المسرحى الأيرلندى برنارد شو كان أول من بلور اصطلاح « المرأة الجديدة » تعبيراً عما يهدف إليه من تخليص المرأة من قيود الماضى ورواسبه ، إلا أننا وجدنا أن هذا الاصطلاح ينطبق تماماً على مفهوم السادات للمرأة المصرية ولذلك آثرنا أن يكون عنواناً لهذا الفصل من الدراسة . ومفهوم المرأة الجديدة لا يعنى مجرد المرأة الحديثة أو المعاصرة ولكنه يعنى المرأة التى استطاعت أن تقوم بدورها الخطير والحيوى فى بناء المجتمع الذى تعد نصفه بالتمام والكمال . ولذلك فمفهوم المرأة الجديدة يمكن أن ينطبق على المرأة الفرعونية برغم أنها عاشت فى مصر منذ آلاف السنين .

فقد كانت الأسرة المصرية فى عهد الفراعنة قوية الدعائم ، متينة البنيان ، وكان السلطان فيها لربها ، ولكنه كان سلطاناً معتدلاً يمتاز بسعة الأفق واحترام الرأى ولين الجانب ، فلم تكن المرأة فى الأسرة الفرعونية مستعبدة أو مضطهدة أو مجردة من حقوقها الطبيعية والاجتماعية ، بل كانت على العكس من ذلك ، كانت تستمع بكل أنواع الحرية المسئولة ، فتخرج من المنزل متى شاءت ، وتقف بجوار زوجها تسانده فى كفاحه ، وتسهم فى مجده ورقيه ، وتتباهى بشهرته حيث كانت تدعى فى كل مكان بلقب وظيفته ، وترتفع إلى مكانته الاجتماعية فى كل محفل تذهب معه إليه . ولقد تكاثرت الأساطير حول المكانة الرفيعة التى احتلتها المرأة فى المجتمع الفرعونى . ولكن الذى لا شك فيه هو ذلك الإيمان الراسخ الذى كان يملأ قلوب المصريين القدماء بقوة المرأة وحكمتها ، وذلك الإجلال الذى كانوا يحيطونها به فى كل مكان تذهب إليه . وإذا ألقينا بنظرة سريعة على الحكم الخلقية والمثل الاجتماعية التى تبلور تربية الأمة وفكرها فسنجدها زاخرة باحترام المرأة الفرعونية ووضعها فى الصف الأول إلى جانب زوجها إن لم تكن متقدمة عليه أحياناً . والدليل على ذلك ما جاء فى أقوال الحكيم الفرعونى آنى الذى يوجه نصائحه إلى الجيل الجديد فيقول :

« إن أمك هى التى حملتك واحتملت من أجلك كل الآلام ، وهى التى أدخلتك المدرسة . وفى أثناء دراستك كانت تواظب على زيارتك فى كل يوم عند أستاذك حاملة لك الطعام والشراب من المنزل . ضع دائماً نصب عينيك آلام الوضع التى احتملتها يوم ولادتك ولا تنس كل المتاعب التى تجشمتها لسلامتك ، ولا تعمل ما يجعلها تشكو منك خشية أن ترفع يديها بالدعاء نحو الإلـه ضدك فيستمع إلى شكواها . »

ولقد كانت المرأة فى ذلك العهد تتمتع بمركز ممتاز لدرجة أن كل الميراث كان يؤول إلى الأنثى . حتى فرعون نفسه لم يكن ليصبح ملكاً إلا إذا تزوج من الوريثة الملكية . ويرجع المركز السامى الذى كانت المرأة تحتله فى مصر القديمة إلى مبدأ سيادة الأم الذى قامت عليه الأسرة الفرعونية . فجميع الأراضى كانت تورث من الأم إلى بناتها ، فإذا تزوج الرجل بوريثة فإنه يتمتع بدخل أملاكها طالما بقيت زوجته على قيد الحياة ، أما إذا ماتت فإن ملكية الأرض تؤول إلى ابنتها وزوج ابنتها . وكان هذا النظام متبعاً بدقة فى الأسرة المالكة مما يوضح لنا لماذا تزوج كثير من الفراعنة أخواتهم بل وبناتهم ، وفى حالات كثيرة لم يكن هذا الزواج سوى زواج صورىّ يحمل فى طياته هدفاً اقتصادياً بحتاً – وفى كتاب « مصر العظيمة » كتبت مارجريت مرى تقول :

« إن فرعون كان يعمل على تأمين مركزه بالزواج من الفتاة التى ستؤول إليها ثروة زوجته بعد موتها ليضمن بذلك الاحتفاظ بعرشه ، ذلك لأن الثروة الملكية كانت تؤول إلى الإناث . »

ولذلك فعادة امتلاك النساء للثروة تفسر لنا كثرة زيجات كليوباترة . فقد تزوجت أولا من أخيها الأكبر فتوطد بذلك حقه فى العرش ، فلما مات تزوجت كليوباترة من أخيها الأصغر الذى حكم بحق هذا الزواج . ولكن هاتين الزيجتين لم تثمرا أولاداً . وعندما غزا قيصر مصر ، كان عليه أن يتزوج كليوباترة ليجعل جلوسه على العرش قانونياً فى أعين الشعب ، وبعده جاء مارك أنطونى الذى ارتقى العرش نتيجة لزواجه من كليوباترة . وقد أنجبت كليوباترة ابناً من قيصر وابنة من أنطونى ، فلما سقط أنطونى وجاء أوكتافيوس كان هو أيضاً مستعداً للزواج من هذه الملكة المزواجة ، ولكن كليوباترة كانت حصيفة لأنها اكتشفت أن هذه المرة لن تكون سيدة موقفها ، فآثرت الموت انتحاراً .

لقد أدى نظام توريث الثروة للنساء إلى منح المرأة المصرية سلطة عظيمة . ولذلك كان من الممكن تتبع الأسلاف عن طريق الإناث بسهولة أكثر من تتبعهم عن طريق الذكور . فقد كان الأب بمثابة شاغل المنصب فقط ، أما الأم فكانت رباط الأسرة . وكان الأمر كذلك بالنسبة للأملاك ، فأيلولتها إلى الأم كانت بحكم العادة . وكانت نصوص عقود الزواج التى عثر عليها توضح إلى أى مدى كانت المرأة المصرية سيدة موقفها . فهذه النصوص تحتوى على تعهد الزوج بأنه إذا ترك زوجته ، سواء للكراهية أو لأنه فضل امرأة أخرى عليها ، فإن عليه أن يعيد إليها بائنتها مع منح حصة من جميع أملاك الأب والأم للأطفال الذين حملتهم . ومن هنا كانت الدلالة الكامنة وراء النصيحة التالية التى كتبها الحكيم بتاح — حوتب :

« إذا كنت رجلا عظيماً ، فكوّن لنفسك أسرة ، وأحب زوجتك فى المنزل ، واملأ معدتها ، وهيئ لها الكساء ، والعلاج إذا مرضت . وأدخل السرور على قلبها ما بقيت على قيد الحياة . »

ومعظم الرسومات الموجودة على جدران القبور تصور الزوجة مع زوجها فى الحفلات ، ورحلات الصيد ، والإشراف على الضياع وتسلم الخراج ، وكان الأقرباء والأصدقاء يطلقون عليها « زوجته المحبوبة » أو « حبيبته » . وليس من شك فى أن كثيراً من الأسماء التى كانت تطلق على النساء تدل على فرط إعزاز الرجال لهن ، كقولهم « المفضلة الأولى » و « محبوبتى » و « زوجتى الشبيهة بالذهب » و « مليكتى » . وأيضاً فإن الأسماء التى كانت تطلق على البنات فى مصر القديمة تدل على أنهن كن يعاملن كالذكور سواء بسواء . وبعض هذه الأسماء يدل على مدى الإعزاز التى كانت تتمتع به الفتيات الصغيرات مثل « سيدة أبيها » و « وحيدة أبيها » و « جميلة أبيها » . وكان ضمن الألقاب التى أطلقها أب على ابنته بعد موت أمها هو « خليفتها » .

وعموماً فكانت الأعمال الرئيسية التى تؤديها المرأة فى مصر القديمة هى حمل الأطفال وتدبير المنزل . أما الوظائف الأخرى فكانت أعمال الكاهنات والقابلات والراقصات والنادبات . أما نساء وبنات عامة الشعب فنراهن فى رسومات المقابر وهن يعملن فى الحقول ، فى جمع الحصاد أو طحن القمح فى المجرشة الحجرية مثلما تفعل بعض الفلاحات المصريات حتى الآن . المهم أن المرأة الفرعونية كانت عضواً عاملا وفعالا فى المجتمع بكل معانى هذه الكلمة ، وهذا يدل أن عصر الحريم الذى عاشته المرأة المصرية أيام الاحتلال العثمانى لم يكن يمت إلى تراثها وتقاليدها بصلة من بعيد أو قريب . وفى هذا يقول السادات فى سلسلة الأبحاث التى نشرها « بالجمهورية » عام ١٩٥٤ تحت عنوان « نحو بعث جديد » وصدرت فى كتاب بعد ذلك عام ١٩٦٣ بنفس العنوان ، يقول فى الحلقة التى نشرت بتاريخ ٢١ أغسطس ١٩٥٤ :

« الإسلام مثلا لم يحتم شل نصف المجتمع — المرأة — والحيلولة بين هذا النصف وبين الاشتراك فى نضال البشرية

من أجل مستقبلها وأمنها وسلامها ! لكن الكهانة وتجار الدين يفرضون على المرأة المسلمة أن تولد ثم تلد ثم تموت ! ! أى جعلت منها الكهانة آلة مسيرة لا عقل لها ولا رأى ولا حق . فكيف يمكن إذن أنْ نبعث ثقافة الفرد المسلم ويتم توحيد الشعوب المسلمة . . أى كيف يمكن خلق نهضة المسلمين ونصفهم – باسم الدين – يجب أن يظل مغلولا بلا عقل ! ؟ »

والتخلف الفكرى نفسه حدث فى المسيحية فى العصور الوسطى عندما فسر رجال الدين المغرضون رسالة المسيحية طبقاً لأهوائهم حتى يتمكنوا من التحكم فى البشر ، ويملكوا فى أيديهم السلطتين الدينية والزمنية . وفى هذا يقول السادات :

« فقد فسر رجال الكنيسة فى العصور الوسطى الدين المسيحى بما يتفق مع تفكيرهم الرجعى وبما يتفق مع مصالحهم ورغباتهم وحبهم للسلطة والنفوذ . . ومن بين تفسيرهم لرسالة عيسى ماحتموه على المرأة من حجاب وعبودية . فتم بهذا فصلها عن المجتمع فصلا تاماً فكان أن أصيبت سيدة بمرض أو بوباء لا يسمح للطبيب من الرجال بإنقاذها من الموت . . لأن رسالة المسيح كما فهمها الكهنوت تفرض على المرأة أن تموت بدلا من أن يراها رجل غريب . . حتى لو كان يحمل لها الدواء . »

وبالطبع فقد كانت نتيجة التلاعب برسالة المسيح أن ساد الظلام والجهل والتخلف أوربا . فالأصل فى وجود جميع الأديان السماوية أنها جاءت لمصلحة الجميع وليس لصالح فئة معينة . وقد هبطت للمرأة كما هبطت للرجل أيضاً . وبالتالى لم يكن فى مقدور أوربا أن تستشرف آفاق عصر النهضة إلا بعد أن تم القضاء على الكهانة ، وعرف الناس حقيقة رسالة دينهم . فقد أصبحت المرأة – الآن – هناك تعمل وتفكر وتتعلم وتشارك الرجل فى التعمير الحضارى لأمتها . . ولا يمنعها هذا من أن تلد الأطفال وتربيهم وتدير شئون المنزل فى الوقت نفسه . وأطفالها بلا شك أحسن حالا من أطفال العصور الوسطى . وللأسف ما زال البعض فى مصر يعانى من آثار العصور الوسطى التى عشناها فى مصر على يد الحكم العثمانى . ويحكى لنا السادات قصة تدل على المدى الذى عانت منه المرأة فى بلادنا فيقول :

« أنا لا أنسى حادثاً وقع أمام عينى ذات يوم هنا فى مصر . . فقد رأيت شابًّا متعلماً ينتمى إلى إحدى الهيئات المعروفة فى إحدى المناسبات . . وكانت هناك سيدة فاضلة فى المكان . . صافحناها جميعاً – نحن الرجال – وكان زوجها طبعاً معنا . . وعندما مدت السيدة الفاضلة يدها إلى ذلك الشاب لتصافحه ارتد إلى الوراء مذعوراً كأن إنساناً يهاجمه ليقتله ، ورفض أن يصافح السيدة ! وسألناه لماذا . . والحيرة تستبد بنا ، ففهمنا منه أن الذين يوجهونه فى الحياة ويخضع لهم فى نشاطه وفى أفكاره قد أكدوا له أن محمداً الرسول « المناضل الحر » لم يضع يده فى يد امرأة ! وهكذا تفسر الكهانة دين محمد الآن مثلما فسرت الكهانة رسالة عيسى فى عصور الذل والاستغلال والبطش . . العصور الوسطى ! !

ومن خلال هذا الحادث البسيط العابر يمكننا أن نفهم مدى ما يتمتع به تجار الدين فى بلادنا من وعى وإيمان بالتطور الإنسانى . . وبرسالة أقوى الثوار وسيد الأحرار محمد . . فهم بدلا من أن يقولوا لهذا الشاب إن محمداً قد دعا إلى العمل وبناء المجتمع وتخليص البشرية من الجهل والجمود والاستغلال ونشر العمران والحضارة فى جميع الأقطار . . يحدثونه عن وضع يد الرجل فى يد المرأة وكيف يصبح هذا جريمة . . وكيف أن منع هذه الجريمة هو الهدف الذى نزلت من أجله رسالة الإسلام !

الكهانة إذن فى بلاد المسلمين تريد أن تعطل نصف المجتمع . . لحساب من ؟ ! أيفعلون ذلك لحساب النهضة والبعث والحرية والعدل والحق ؟ ! أم لحساب التطور الإنسانى ومصالح الأفراد والجماعات ؟ ! لا هذا

ولا ذاك . فتعطيل نصف المجتمع معناه تأخر هذا المجتمع وتخلفه عن اللحاق بموكب المدنية والعلم والتقدم ، وهذا إذا لم يكن قطعاً لحساب أعداء البشرية . . لحساب الرجعية . . لحساب المشعوذين ! !

وتمر بخاطرى فى هذه اللحظة تلك الصيحة الحرة التى انطلقت من فم الشاعر العربى المتنبى بعد أن هاله ما فعلته الكهانة بالبشر فى بلاد المسلمين فصرخ فى مرارة :

هــل غـاية الــدين أن تحفوا شواربكم يـا أمـة ضحكت من جهلهـا الأمم

هكذا كان السادات رائداً فكرياً يحاول وضع الأمور فى نصابها فيما يختص بمكانة المرأة المصرية التى تمثل نصف المجتمع . وإذا كان قد قال هذا الكلام منذ عشرين عاماً فليس معنى هذا أن احترامه للمرأة المصرية لم يكن قبل هذه الفترة . فاحترامه للمرأة يرجع إلى طفولته المبكرة التى ستظل بخواطرها وذكرياتها زاداً يملأ نفسه ووجدانه بالصفاء والإيمان . ففى هذه الفترة تلقى أول دروس الحياة على يد أستاذه الحبيب : جدته . فعلى الرغم من أنها كانت أمية لا تقرأ ولا تكتب ، ومع ذلك فقد كانت ذات فطرة واعية ، ونظرة بعيدة ، وبصيرة ثاقبة ، وذكاء لماح ، وشخصية قوية ، قلما يجدها الإنسان اليوم فيمن تعلموا ، وتثقفوا أحسن الثقافات . لقد كانت الحياة بكل خبراتها وتجاربها هى المدرسة التى تلقت عليها جدته الثقافة . لذلك كانت تصرفاتها كلها سديدة . فلا غرو أن قصدها رجال القرية للنصيحة والرأى . وهى فى كل ما تشير أو تنصح رزينة الحجة ، ثاقبة البصر ، تعرف للنفس البشرية ضعفها ، وتلتمس الخير والوفاق فى حماس يدخل الدفء إلى قلوب أهل القرية السذج الطيبين . ولم تكن أحاديثها للتسلية وتزجية وقت الفراغ ، وإنما كانت دروساً وعبراً تعلم منها السادات مفهوم الإيمان ، والضرورة الأخلاقية ، والوعى بالتاريخ ، والشخصية المصرية ، وروح القرية ، والكيان الأسرى ، وأخيراً النموذج الحى الذى يجب أن يتجسد فى المرأة المصرية بكل هذا الحب والحنان والحكمة وسعة الصدر والفطرة الواعية ، والشخصية القوية التى ترجع ملامحها إلى آلاف السنين عبر التاريخ .

ودور المرأة العربية بصفة عامة ، والمسلمة بصفة خاصة ، فى بناء الحضارة العربية واضح كالشمس لا يمكن إنكاره . لدرجة أن المستشرقين لم يستطيعوا طمس ملامحه وهم الذين حاولوا إظهار الشرق – فى كثير من الأحيان – بأنه لن يستطيع الخروج من عصر الحريم بكل تقاليده الرجعية ومقوماته المتخلفة وأفقه الضيق . وفى هذا تقول المستشرقة الألمانية المعاصرة آنا مارى شميل فى مجلة « فكر وفن » الألمانية فى عددها العشرين الصادر عام ١٩٧٢ إن الرجل العربى المسلم – قبل عصر الاضمحلال الفكرى – كان يكن لشريكة حياته كل احترام وحب وإعزاز وتقدير ، بل كان يستشيرها فى معظم ما يتخذه من قرارات للاستعانة برجاحة فكرها . حتى التصوف فى الإسلام لعبت فيه المرأة دوراً لا يقل بحال من الأحوال عن دور الرجل . تقول آنا مارى شميل مستشهدة بشخصية فاطمة النيسابورية :

« تعتبر فاطمة النيسابورية (توفيت سنة ٨٤٩) بين الزوجات المتصوفات ، أبرز شخصيات عصر تشكيل الإسلام الأول . وهى زوجة أحمد خضرويه . لقد صاحبت هذه المرأة كلا من ذى النون المصرى وبايزيد البسطامى . كما يبدو أنها هى التى أرشدت زوجها فى حياته الدينية والعملية . ويروى أنها قالت مرة لذى النون ، حين رفض قبول هدية بحجة أنها من امرأة : « إن الصوفى الحق لا ينظر إلى العلة الثانوية ، وإنما ينظر إلى العلة السرمدية » .

وتستأنف آنا مارى شميل بحثها الأكاديمى فتقول إن الإسلام قد حفظ للمرأة المسلمة شخصيتها وتقواها وعفتها حتى فى المجتمعات التى ساد فيها عصر الحريم مثل المجتمع التركى . تقول :

« ولقد لعبت المرأة المسلمة ، بإيمانها الراسخ ، وما برحت تلعب دوراً فعالا فى توطيد دعائم المجتمع الإسلامى . يحدوها فى مسيرتها النبراس القرآنى الذى خاطب (المسلمين والمسلمات) و (المؤمنين والمؤمنات) بنفس الروح وعلى

ذات الصعيد . إن حرص المسلمة ، اليوم ، على التمسك بفرائض دينها ليفوق حرص الرجل ، سواء كان ذلك فى المجتمع التركى أو الباكستانى . إنها لتؤدى صلاتها فى أوقاتها ولتصوم شهر رمضان غير منقوص » .

وتختم آنا مارى شميل دراستها مستشهدة بأبيات من المتنبى تعتقد أنها تحمل من الصدق الفكرى والفنى ما ينسحب على المرأة فى كل مجال وزمان . يقول المتنبى :

ولـو كان النساء كما ذكرنا لفضلت النساء على الرجـــال

فـلا التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التـذكير فخــر للهـلال

ويوضح السادات أن روح القرية قد تأثرت إلى حد ما بأفكار عصر الحريم وتقاليده التى تضع الولد فى مكانة أعلى من البنت ، برغم أن البنت قد تساهم فى أعمال المنزل والحقل ما يزيد بكثير عن الولد . والسادات – كفلاح – قد ساير هذه التقاليد احتراماً منه لروح الجماعة فى القرية ولكنه يؤكد أن رأيه الشخصى لا يعترف بأية تفرقة بين الفتاة والولد . فيقص علينا فى كتابه « يا ولدى هذا عمك جمال » كيف بلغه نبأ ولادة ابنه جمال فى حين كان العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ قائماً على قدم وساق . ولذلك لم يحتفل بمقدم ابنه كما يجب أن يحتفل الفلاح . يقول ص ٧ :

« وحين أيقظونى فى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى ، لكى ينبئونى بأنك أتيت إلى عالمنا ، وأنك ولد ، لم يغير هذا الخبر من الأمر شيئاً . ولو أنه فى ظروف أخرى كان يمكن أن يكون حدثاً خطيراً . فستعلم يا بنى أننا نحن الفلاحين نعتبر ولادة الولد انتصاراً . . لا لشىء إلا لأنه ولد وليس بنتاً . . ولعل هذه العادة موروثة عن أجدادنا العرب ، الذين كانوا يحتفلون بالولد ، ويتجاهلون البنت . . وقد نشأت فى قريتنا على هذه التقاليد . . ولو أنه قد يكون لى رأى آخر اليوم . . إلا أننى كأى فلاح فى قريتنا ، لا أستطيع إلا أن أحترم تقاليد بيئتنا الساذجة الطيبة . . فهذه التقاليد هى عصارة تجاريب الأجيال . . وهى التى علمتنا السماحة وغرست فى نفوسنا اليافعة مبادئ الخلق ، والشرف والكرامة » . .

ويمتاز منهج التأصيل الفكرى عند السادات بالواقعية العملية التى تجعله ينظر إلى المشكلة كأحد الذين يعانون منها ، فهو لا يتخذ سمت المفكر المترفع المتباعد الذى يعالج القضية كما لو كانت لاتهمه فى شىء . وبرغم ذلك لم يفقد السادات النظرة الموضوعية التى تفرق بين احترام تقاليد القرية وبين عدم الإقتناع بالتفرقة بين البنت والولد . بل إنه لا يقف موقف المدافع دائماً عن المرأة المصرية إذ أنها هى الأخرى لا تخلو من العيوب والرواسب التى تركها عصر الحريم . ولذلك يترك دور المدافع المتحمس إلى دور الناقد المتفحص إذا استدعت الأمور القيام بمثل هذا الدور الحيوى . وهو عندما ينقد لا يعتمد على آراء وأفكار عامة ولكنه يتخذ من حياته أمثلة حية للتدليل على ما يقول ، حتى تكون مرتبطة بالواقع المعاش . فيحكى لنا فى مقال تحت عنوان « خطبوها اتعززت » فى جريدة « الجمهورية » بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٩٥٤ حواراً دار بينه وبين فتاة من ذوى قرابته حول صورة فتى الأحلام وزوج المستقبل الذى تتخيله . فيوضح لنا أن تخلف المرأة المصرية سببه أنها تصورت أن الحياة الزوجية هى أخذ دون عطاء ، هى حلاوة بلا نار ، هى حقوق بلا واجبات ، هى طلبات بلا تنازلات ، هى اعتماد كامل على الزوج فى كل كبيرة وصغيرة . فى حين من حق الزوج – كما يؤمن السادات – أن يعتمد على زوجته بالقدر نفسه الذى تتمتع هى به . فالحياة الزوجية مشاركة ومساندة من أجل تذليل مشكلات الحياة وصعابها . ودور الزوجة فى هذا لا يقل أهمية وحيوية عن دور الزوج . ولذلك فالمواصفات التى ترسمها الفتاة المصرية لزوج المستقبل تدل على ضيق أفقها . إذ أنه يتحتم عليها أن تشاركه فى الكفاح بعد الزواج من أجل تحقيق هذه المواصفات لا أن تحصل عليها جاهزة .

فالإنسان ليس سلعة تخضع لقانون العرض والطلب بل هو كيان حى ينمو ويتكامل يوماً بعد يوم . ولذلك يقول السادات فى نقده للمرأة المصرية بصفة عامة من خلال حديثه عن هذه الفتاة بصفة خاصة :

« هى تريده مغامراً . . وتريده طموحاً . . ثم تفهم من ثنايا حديثها عن المغامرة والطموح أنه يجب أن يكون مضموناً نجاحه فى هذه المغامرة وبلوغه ما تشتهيه من طموح . . وهى تريده ذا مرتب يستطيع أن يشمل الكتب والأسفار فيخرج من قراءته أديباً ومفكراً لا يشق له غبار . . وهى تريده ذا مرتب يستطيع أن يقوم بالنفقات التى يتطلبها واقع الحياة فى أيامنا هذه وقد أصبحت هناك كماليات كثيرة من ضرورات الحياة . . وهى تريده . .وتريده . .

كانت تحدثنى فتاتنا – وهى من ذوى قرابتى – بهذا الحديث وأنا شارد بفكرى فيما قرأته واستمعت به طويلا عن أمريكا وتعمير الغرب فيها ودور المرأة الأمريكية فى تلك المعركة الخالدة التى كسبتها نساء أمريكا على قدم المساواة تماماً مع الرجال ، وكان من أبرز نتائج هذه المعركة أن قام الوطن الأمريكى ونهض هذه النهضة الجبارة فى هذا الوقت القصير . فأنا أذكر أننا منذ سبعين سنة أى منذ وقت الاحتلال بالضبط كنا نكاد نشبه أمريكا فى وقتها فى كل شىء ، وأنظر اليوم فأقارن بين ما وصلت إليه أمريكا وما وصلنا نحن إليه ، وأحمد الله أننى لم أيأس ، وإنما على العكس من ذلك أمتلئ قوة وحماساً » .

ثم يعقد السادات مقارنة بين الفتاة الأمريكية التى تتصرف بحرية ومسئولية وبين الفتاة المصرية التى ما زالت تكبل نفسها بقيود عصر الحريم فيقول :

« تلك الأمريكية حين اختارت زوجها ووقفت إلى جانبه لم يخطر ببالها أبداً أن تشترط مثل شروط فتاتنا المبجلة ، بل خرجت معه بعد زواجها إلى القفار لكى يكافحا جنباً إلى جنب برغم كل الأخطار والصعاب والمستقبل المجهول . . . وعلى أكتاف هؤلاء قامت أمريكا وحضارة أمريكا . . وفى يقينى أن هذه ليست مشكلة فتاتنا وحدها وإنما هى مشكلة الجيل بأكمله من الفتيات . . فنحن نجتاز اليوم أخطر فترة من فترات تطور هذا الوطن وبقدر ما يتطلبه هذا التطور من مسئوليات تقع على الرجال بقدر ما تقع هذه المسئوليات بل أكثر على الفتيات . . فيجب أن تتغير نظرة فتاتنا السطحية إلى الحياة ، فالمسألة يجب أن تخرج عن النطاق الضيق الذى تسبح فيه أحلام فتياتنا كأن يكون من شروط الزوج كيت وكيت ، مما لا يخرج عن اللباس والزينة والمفاخرة والمنصب والمال ، لكى تكون حياة كفاح مشترك من أجل بناء أسرة سليمة كريمة هى الحجر الأول فى بناء هذا الوطن الذى طالما جحدنا نعمته وأهملنا حقه . . وأكبر ظنى أن مناهج التعليم والكتب التى نقدمها لفتياتنا هى التى تستطيع أن تنتقل بهن إلى مرحلة المسئولية التى يتطلبها تطور اليوم بشرط أن يتوافر الوعى ، وهو مجهود شخصى ، على فتياتنا بعد الثورة أن تبذله » .

وخطورة دور المرأة لا يتمثل فقط فى أنها شريكة الرجـــل ، ولكنه يتمثل بصـــورة أخطر فى أنها الأم التى تلد وتربى الأجيال القادمة . أى أن مستقبل الأمة كله أمانة فى عنقها . ونحن نعلم إلى أى مدى يتشكل الطفل طبقاً للأسلوب الذى تتبعه الأم فى تربيته ورعايته . فقد كان من الطبيعى أن يظفر دور المرأة بالصدارة من بين مراحل التربية ، وخاصة أن المدرسة لم تحاول أن تفقدها دورها ، أو أن تغض من قيمتها . ومن هنا نستطيع أن نستشهد بقول لامينيه : « إن التعاليم المتلقاة على ركبتى الأم لا تنمحى أبداً » . وإذا كان التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر ، فإن تعقيدات الحياة التى يواجهها الطفل عندما يشب لا يمكن أن تقضى على ما تلقاه فى صغره . ولعلنا نجد فى المؤرخ الفرنسى ارنست رينان نموذجاً على المدى الذى يمكن أن يصل إليه أثر الأم على طفلها . فقد أغرم رينان بالكتابة عن بنى إسرائيل للدرجة التى تنكر فيها لعقيدته المسيحية ونبذ لغته الفرنسية إلى اللغة العبرية . ومع هذا يعترف بأنه لم يستطع أن يجبر قلبه ووجدانه على التخلص من العقيدة المسيحية التى تلقاها على يدى أمه فى طفولته وصباه .

وهو يصور مدى الصراع النفسى الرهيب الذى وقع فى براثنه عندما حاول إجبار نفسه على الانسلاخ من طفولته وبالتالى من جذوره الأصيلة فيقول :

« لقد انتهيت من تصميمى فى أواخر سبتمبر على التخلى عما لقنته لى أمى من عقيدة وإيمان ، وكنت أظن أن ذلك من الأفعال التى تستحق التقدير والتعظيم لأنها تدل على استقلال الرأى وقوة الإرادة ، ولكن أى تمزق داخلى ذلك الذى كان ينهش داخلى ؟ إن أمى هى التى كانت تدمى قلبى أشد من أى شىء آخر ، وإن رسائلها هى التى كانت تفقدنى كل مقاومة حقيقية : لقد كنت فى طفولتى معتاداً أن أسألها عشر مرات فى كل يوم قائلا : هل أنت مسرورة منى ؟ ولذلك كان الشعور بتمزق الأواصر بينى وبينها أقسى من أن تتحمله أعصابى التى أنهكها الشد والجذب » .

وهذا يوضح لنا إلى أى مدى شاءت الطبيعة البشرية أن يكون الطفل متأثراً بأمه أكثر منه بأى كائن آخر . ولقد عبر جان جاك روسو عن هذه الحقيقة الخطيرة بقوله :

« لكى تحفظ الأطفال من الرذائل التى ليست فيهم ، فليس لديك سوى حماية واحدة هى خير من الخطب التى لا يفهمونها بقلوبهم أو عقولهم ، وهى هذه القدوة الخلقية الممثلة فيمن يحوطونهم وعلى الأخص أمهاتهم اللواتى يحببنهم أكثر من أى شىء فى الوجود ، وأيضاً أطراف الأحاديث التى يتجاذبها الآباء والأمهات دون أن تكون موجهة إلى الأطفال أنفسهم ، وجو السلام والتفاهم والحب الذى تضفيه الأمهات على أطفالهن ، كل هذا يشكل الأطفال فى نهاية الأمر وبالتالى فإنه يشكل مصيرهم عندما يشبون » .

والتاريخ زاخر بالأمثلة التى تضيق عن الحصر والتى توضح الدور الخطير الذى تلعبه المرأة فى تحديد مصير الأمة . ولذلك يقول السادات فى عيد الأم فى ٢١ مارس ١٩٧٢ :

« إن فضل الأم لا يقاس ولا ينسى فهى الشمعة التى تحترق لتضىء لأبنائها الطريق إلى السعادة ، وهى التى تغرس فى النفوس الفضائل وتقوى العزائم وتلهب نـار الوطنية ، وتقدم فلذة كبدها قرباناً للوطن وللدفاع عن حياضه ومقدساته ، إنها الجانب الطيب فى الحياة كلها ، وهى الحنان الذى لا ينتهى مهما قست الظروف ، وهى الغفران الدائم مهما كانت الخطايا ، وهى البذرة التى تتفجر منها الوطنية والإنسانية ، وهى الينبوع الدائم الذى يمنح ويعطى بلا حساب وبلا ثمن وهى الحب الذى لا يعرف الكراهية وهى النور حينما تملأ الدنيا الظلمات .

ونحن إذ نحتفل بعيد الأم ، نكرم أمنا الحبيبة إلى قلبنا جميعاً . . مصر الخالدة ، فإن المثل الرائع للتضحية الذى تقدمه كل أم مصرية إنما هو فى الواقع التجسيد العملى للتضحيات التى قدمتها وتقدمها أمنا الكبرى مصر مهد الحضارة العريقة والإنسانية ، والتى وهبتنا الحياة والسعادة ومنا تستحق كل الإخلاص والوفاء وكل البذل والفداء » .

وكان السادات أول زعيم مصرى يبدأ خطبه بقوله : « أيها الإخوة والأخوات . . » اعترافاً عملياً منه بمشاركة المرأة للرجل فى كل شىء . وهذا يتمشى مع إيمانه العميق بالممارسة الديمقراطية ، لأن الديمقراطية الحقة تعنى أن تضطلع المرأة بدورها فى تسيير دفة الأمور مع الرجل على قدم المساواة . وهذا المفهوم التقدمى عرفته المرأة المصرية عملياً لأول مرة فى تاريخها الحديث مع بزوغ فجر ثورة يوليو. ولم يلبث أن تحول المفهوم التقدمى إلى مفهوم ثورى ، وجاء هذا التحول كجزء لا يتجزأ من تحول أعم وأشمل فى طبيعة المرحلة التاريخية التى تجتازها الأمة . ثم جاءت « ورقة أكتوبر » لتؤكد على ضرورة المساواة بين الرجل والمرأة ، وأنه لا بد من أن تسقط بقايا الأغلال التى تعوق حركتها الحرة حتى تستطيع أن تشارك بعمق وإيجابية فى صنع حياة جديدة ولقد قدمت الثورة للمرأة الكثير ، والمـــرأة بدورها قدمت وتقدم للثورة الكثير ، لقد أعطتها الثورة كل ما يمكنها من تحطيم أغلالها وخاصة أن المد الثورى لا تنحسر قواه ما دامت الأمة كلها نساؤها ورجالها تسير فى طريق التعمير الحضارى .

ونظراً للإمكانيات التى أتاحتها الثورة للمرأة ، فقد استطاعت أن تثبت وجودها فى كل المجالات المتاحة ، فى مراكز البحوث العلمية والقومية ، فى ميادين الصناعة والزراعة والتجارة ، فى ميدان الفن ، فى التعليم ، فى الخدمة الاجتماعية ، فى الصحافة ، فى الطب ، فى المحاماة ، فى الرياضة ، فى السياسة ، بل فى مجال التخطيط والخبرة وأيضاً كوزيرة . وهذا تأصيل للدور الحضارى الذى لعبته المرأة المصرية منذ فجر التاريخ . ولا ينسى السادات دور المرأة العربية فى تاريخ الحضارة العربية فيقول فى كلمته إلى مؤتمر المرأة العربية فى ٢٤ سبتمبر ١٩٧٢ :

« إن المرأة العربية لها فى التاريخ منزلة خاصة فقد نشأت وترعرعت على الأرض المباركة التى كانت مهبط جميع الرسالات السماوية أخذت عنها الإيمان العميق بالله واستمدت منها قيمتها وتقاليدها التى ميزتها عن غيرها من نساء الأرض . فكانت مضرب الأمثال فى التضحية وإنكار الذات والفناء فى سبيل إيمانها وعقيدتها ، فهذه خديجة بنت خويلد زوج الرسول الأعظم أول من تلقى نبأ الوحى والرسالة وأول من صدق بها ، وهذه عائشة أم المؤمنين راوية الحديث الشريف ، وهذه أسماء بنت أبى بكر الصديق الفدائية المؤمنة الصابرة من أجل نصرة الحق وإعلاء شأن الدين وغيرهن كثير مما يزخر بأسمائهن التاريخ العربى الإسلامى القديم والحديث » .

والمرأة هى وحدها القادرة على أن تخلق جيلا يملك إرادة التغيير والتطوير والتعمير الحضارى ، وأيضاً يتمتع بالقدرة الذاتية على صنع المستقبل وتشكيله ، وهى وحدها القادرة على أن تجعل من الكيان الأسرى بوتقة تنصهر فيها الشخصية القومية وتتبلور ملامحها الأصيلة ، ثم تنطلق إلى آفاق العصر لتساير موكب الحضارة ، وهى وحدها القادرة على تلقين الأجيال الجديدة مفهوم الإيمان ، والضرورة الأخلاقية ، والممارسة الديمقراطية ، والتعمير الحضارى ، والوعى بالتاريخ ، ومقومات الشخصية المصرية ، وروح العائلة . . إلخ . ولذلك يعتبر السادات المرأة المثقفة المؤمنة أغلى جوهرة تهدى لأمتها ، لما تضفيه على بيتها وأبنائها من أحاسيس الحرية والمسئولية . وعندما يتكلم السادات عن المرأة الجديدة فإنه لا ينسى أخوات لها فى الريف يكافحن كفاحاً من نوع آخر إلى جانب أزواجهن وأبنائهن فى سبيل إسعاد هذا المجتمع ومده بالغذاء والكساء . ولا ينسى أيضاً أخوات لها فى المصانع يدفعن عجلة الإنتاج إلى الأمام .

كل هذا تطبيق عملى وممارسة فعلية لما نص عليه الدستور فى المادة ١١ على أن :

« تكفل الدولة التوفيق بين واجبات المرأة نحو الأسرة وعملها فى المجتمع ومساواتها بالرجل فى ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، دون إخلال بأحكام الشريعة الإسلامية » .

وقد أصبح هذا المبدأ من البديهيات التى لا يختلف حولها اثنان ، مما يدل على قوة جذوره فى التربة المصرية حتى إن مفكراً مثل توفيق الحكيم ، أغرم بلقب « عدو المرأة » ، نجده يقول عام ١٩٣٨ فى كتابه « تحت شمس الفكر » ص ١٩٦ : « إن عقل المرأة إذا ذبل ومات فقد ذبل عقل الأمة كلها ومات » . ثم يؤكد على ص ٢١٨ أن : « الزوجة الصالحة هى تلك التى تستطيع مشاركة زوجها فى سيره الطويل الشاق فى طريق الحياة ، وأن تعينه حقيقة أصدق المعاونة على احتمال متاعب السير ، وأن تخفف عنه قسطاً وافراً من أعباء الحياة اليومية » .

ولا شك فإن المرأة المصرية لتفخر بما أحرزته من تقدم ورقى ومواكبة لتيار الحضارة المعاصرة ، وخاصة إذا قارنت نفسها بزميلتها فى أوربا . فعلى الرغم من الظروف المواتية بالنسبة للمرأة الأوربية منذ قرون خلت فإنها ما زالت تعانى من بعض ما تعانيه أختها الشرقية فنجد مفكرة فرنسية معاصرة مثل سيمون دى بوفوار ما زالت تدافع عن قضية المرأة ، بل وتخصص لها كتاباً من أهم مؤلفاتها اسمه « الجنس الثانى » وفيه تؤكد أنها لا تتكلم عن المرأة إلا من خلال ظروف ومواقف محددة . وتعلق على منهجها الفكرى هذا فى كتاب آخر عنوانه « قوة الأشياء » فتقول :

« إن وضع القضية عندى يختلف تماماً عن وضعه فى التفكير السائد ، فعندى أن الأنوثة ليست طبيعة ثابتة أو ماهية ، بل هى موقف خلقته حضارات ابتداء من بعض المعطيات الفسيولوجية ولقد أوضحت فى كتابى « الجنس الثانى » كيف أن النساء كن أحوج من الرجال لما يشد أزرهن ويصلب عودهن ليجعل منهن مغامرات . . وعلى هذا فقد اتفق لى أن أعيش بجانب رجل قدرته فى مستوى يفوقنى . لم أنكر أنوثتى ولم أثبتها ، لم أفكر فيها ، وكانت لى نفس الحريات ونفس المسئوليات التى للرجال . ومن جهة أخرى لم يظهر سارتر ولا أى واحد من أصدقائه أى عقدة من عقد التفوق والتعالى » .

ومعنى هذا الكلام أن المرأة الغربية ما زالت تخاف من سلوك الرجل كسيد للموقف ولارادّ لأمره . فتوضح سيمون دى بوفوار أن المرأة الغربية ما زالت مقيدة فى بعض الأحيان بأوضاع لم تهيئ لها مستوى من الوعى والحرية بحيث يمكن أن تشارك الرجل فى صنع العالم الذى تعيش فيه ، فهى ما زالت تعيش فى عالم من صنع الرجل يحتّم عليها بعض أوضاع الطفولية والعبودية ؛ شأنها فى ذلك شأن السود فى الجنوب الأمريكى يعيشون فى عالم شيده لهم البيض ، بل لا تزال هناك إلى اليوم كثير من النساء فى بلاد الغرب لم يتدربن بعد على حريتهن من خلال العمل ، وهن ما زلن يحتمين بالقيم التى وضعها الرجل وكثيراً مايهيأ لهن أنها من صنعهن ، وحين تواتى فرصة التحرر لهن يخترن النكوص والإحجام ويرفضن المسئولية لأنهن لم يتعودن عليها . وإذا لم تقم المرأة بنفسها بتسويغ وجودها وإثبات ذاتها فلن يقوم الرجل بهذه المهمة نيابة عنها .

وترى سيمون دى بوفوار أن النساء – سواء فى الغرب أو فى الشرق – قد عشن دائماً فى عالم جاهز مغلق من صنع الرجال ، ولم يحدث أن اتحدث النساء وأحسسن بكيانهن كما يحس الرجال بحيث يمكن أن ينطبق عليه قول « نحن » . لم ينجحن فى أن يكون لهن وجود أصيل يمكن أن يتصف بأنه ذات على نحو ما يوصف وجود الرجل فى أكثر الحضارات ، بل كن دائماً موضوعاً ، ولم تلتق إرادة النساء أو مشروعاتهن على نحو ما تلتقى إرادة طبقة من طبقات المجتمع أو طائفة فيه ، ذلك لأن لكل امرأة وضعاً نسبيًّا مختلفاً عن الأخرى لأنه مقرون برجل دائماً ومن هنا كانت قضية المرأة قضية معقدة . ومع هذا لا تيأس سيمون دى بوفوار فى أن يتحقق للمرأة التحرر من هذا الوضع الهامشى ، فهى تؤكد أنه من السهل أن نتصور عالماً تتساوى فيه المرأة مع الرجل ، وتتربى تربيته ، وتتحمل مسئولياتها ، وتحصل على حقوقها ، وتصل إلى منزلة من الحرية والوعى بحيث لا ترى فى الرجل نصف إلٰه ، بل رفيقاً وصديقاً ، ويكون الاثنان معاً ما تسميه علاقة « الزوجى الإنسانى » .

ولكن لا تعنى سيمون دى بوفوار بالمساواة بين الرجل والمرأة أن يقوم كل منهما بوظيفة الآخر بلا تفرقة ، فهذا شىء مضاد للطبيعة والمنطق ، فالمرأة ستظل دائماً مختلفة عن الرجل إذ لها علاقاتها الخاصة بنفسها وبفكرها وبأطفالها وبزوجها ، وهى علاقات تختلف جوهريًّا عن علاقات الرجل بذاته وبكيانه وبالمرأة وبالعالم . وفى هذا الاختلاف يكمن مذاق الحياة ومتعتها . ولكن الاختلاف لا يعنى التفضيل أوالانحياز إلى جانب الرجل . وإذا كان هناك ثمة تفرقة فهى تفرقة اجتماعية وليست نوعية . ولهذا نجد سيمون دى بوفوار تربط قضية المرأة بقضية التحرير فى كل مكان . فطالبتها بحرية المرأة ليست إلا جزءاً من مطالبتها بحرية كل مضطهد سواء على مستوى الطبقات الاجتماعية أو على مستوى الشعوب . ولذلك فوقف المرأة فى البلاد التى تخوض معارك التحرير أفضل بكثير من موقفها فى البلاد التى تتمتع بالهدوء والاستقرار . فالرجال فى معارك التحرير يعرفون معنى الحرية وقيمتها ولذلك يرون أنه من العسف حرمان شريكة كفاحهم من ثمرة مشاركتها الحصول على حرية الأمة جمعاء . وهذا ما تنشده سيمون دى بوفوار من قضية الحرية بأسرها . أى التقاء الحريات كلها ؛ لأن الحرية لا تتجزأ ، فحرية الآخرين كما تقول شرط ضرورى

لتحقيق حريتى . ومضمون الحرية بذلك لا ينحصر فى الحرية الفردية وإنما يتسع بحيث يصبح الحر هو من يطلب الحرية للآخرين .

والسادات عندما أطلق الحريات لم يستثن المرأة منها . فهو يرى أن أى نقص يعترى مفهوم الحرية من شأنه أن يقضى على الحرية بأكملها . ولذلك أزال كل العقبات التى تقف فى طريق استكمال المرأة لكيانها الإنسانى . وتحتم على المرأة المصرية الآن أن تعى بنفسها القوانين والأسباب المادية والنفسية والفكرية والاجتماعية التى تكفل لها الضوابط المرنة لممارستها للحرية المسئولة ، والتى تمكنها من صنع المستقبل مع الرجل ، ولا شك أنه سيكون سعيداً عندما يشعر أن العبء قد أصبح خفيفاً وبذلك يكون الانطلاق الحضارى أكثر سرعة وحيوية . عندئذ نستطيع القول بأننا حققنا مفهوم « المرأة الجديدة » الذى أكده الغرب فى القرن الماضى على أيدى مفكرين وأدباء من أمثال هنريك ابسن وبرنارد شو وجورج ميريديث ، ولكنه لم يستطع تحقيقه حتى الآن بسبب الرواسب المتبقية من العصر الفيكتورى ، وهى رواسب تشبه مخلفات عصر الحريم فى الشرق ، مما أدى بكتاب ومفكرين من أمثال سيمون دى بوفوار وفرانسوا ساجان وجيرمين جرير بالمناداة بما نادى به من قبل كل من هدى شعراوى وقاسم أمين فى مصر . وهذا يدل على أن قضية المرأة هى قضية إنسانية عامة من الطراز الأول . وهذا يدحض أقوال الكتاب المغرضين الذين يكررون أن المرأة الشرقية المعاصرة ما زالت تعيش عصر الحريم فى حين انطلقت أختها الغربية تشارك الرجل فى صنع الحضارة الإنسانية . فلو كان الأمر كذلك لما أدى بسيمون دى بوفوار إلى كتابة مؤلفها الخطير « الجنس الثانى » فى حين تعيش فى بلد مثل فرنسا تتصدر الصفوف الأولى من حضارة الغرب المعاصرة .

وعلى هذا يجب على المرأة المصرية ألا تلجأ إلى تقليد المرأة الغربية ، لأن التقليد سيجعلها تقوم دائماً بدور التابعة ، والتبعية هى الاستعمار الفكرى الذى لا نشعر به بطريقة مباشرة مثل أشكال الاستعمار القديم . بل إن استعمار النفوس والعقول أخطر بكثير من استعمار الأراضى والممتلكات . ولا يعنى هذا أن ترفض المرأة المصرية الحضارة الغربية برمتها ، ولكن عليها أن تأخذ منها ما يتمشى مع نسيج حضارتها وتراثها وشخصيتها المصرية الأصيلة ، ثم تضيف إليها من فكرها وأصالتها . فنحن لم نعد نتلقى سلبيًّا نتائج متغيرات خارجية كما يؤكد السادات فى « ورقة أكتوبر » . وعلى المرأة المصرية أن تأخذ بيدها عنصر المبادرة حتى تعيد مجد جدتها الفرعونية التى شهد لها العالم أجمع برقيها الحضارى والفكرى والأنثوى . عندئذ تكون المرأة المصرية الجديدة قد تمكنت من القيام بدورها فى استراتيجية التأصيل الفكرى الذى يعمل أنور السادات على إرساء تقاليدها ودعائمها حتى تكون بمثابة الصخرة الصلبة التى ينهض عليها التعمير الحضارى للأمة كلها .

الفصل الثاني عشر

معنى الفنّ

من الواضح أن السادات من المفكرين الذين يؤمنون بأن الفن لازم للإنسان حتى يفهم العالم الذى يعيش فيه ومن ثم يستطيع تغييره وتطويره . والفن مهما يكن وليد عصره ، فهو يضم قسمات ثابتة من قسمات الإنسانية . أى أنه يمثل الإنسانية بقدر ما يتلاءم مع الأفكار السائدة فى وضع تاريخى معين . ويمضى الفن إلى أبعد من هذا المدى ، فهو يجعل كذلك من اللحظة التاريخية المعينة لحظة من لحظات الإنسانية الخالدة ، لحظة تفتح الأمل نحو تطور متصل وخاصة أن الوعى بتاريخ الإنسانية – شأنه شأن العالم ذاته – ليس مجرد طفرات وتناقضات وإنما هو أيضاً إتصال واستمرار . فنحن نحتفظ داخل أنفسنا بأشياء قديمة يبدو أن الزمن عفّى عليها واندثرت ، بينما هى تحدث فينا أثرها – وذلك غالباً دون أن ندرى – ثم نجدها فجأة وقد طفت إلى السطح إذا توافرت الظروف الاجتماعية المؤدية إلى ذلك . ولذلك فمعنى الفن فى منهج التأصيل الفكرى عند السادات يكمن فى تعريف الإنسان بذاته وبتاريخه وبتراثه وخاصة عندما يتجسد فى أعمال فنية ناضجة . وهذا النوع من الإدراك الواعى لأبعاد الحياة يؤدى إلى تنوير الإنسان ومعاونته على التعمير الحضارى .

فلم يعد فى الوسع تصوير التاريخ بعلاقاته المتشابكة ، وتجسيد المجتمع بصراعاته الداخلية فى شكل بدائى من القصيدة الجاهلية . إن هذا المجتمع المعقد يتطلب معرفة واضحة ووعياً شاملاً ، يستلزم الخروج عن الأشكال الفنية الجامدة التى عرفتها العصور الماضية والوصول إلى أشكال أكثر تفتحاً ونضجاً ومعاصرة ، أشكال متحررة كالأشكال التى اتخذتها الرواية مثلاً . وفى هذا المعنى يقول السادات على صفحات « الجمهورية » فى ١١ أكتوبر ١٩٥٤ :

« نحن فى عصر القصة من غير شك . . فإن أية فكرة أو أى مبدأ أصبح من السهل جدًّا ، إذا أردت أن تضمن له الذيوع والانتشار بين الناس ، بل أكثر من ذلك إذا أردت أن تضمن له مؤمنين فما عليك إلا أن تصوغ قصة تطعمها فى حوارها وحوادثها وانفعالاتها بما تريد أن تقرره من مبادئ ، وأنت واثق أنها ستدخل إلى القلوب . من غير عائق أو صعوبة . . فالحقيقة الثابتة اليوم أن الناس قد خف إقبالهم على الكتب العلمية ، وأصبح لا يقبل عليها إلا النفر القليل من الذين يشتغلون بالبحوث ، وأصبح الكافة يجدون متعتهم فى قراءة القصة والاستمتاع بها بشغف شديد . .

ولقد تنبه العالم إلى هذه الحقيقة ، فأصبحت تقرأ مبادئ الشيوعية مثلا فى روايات تقع حوادثها بين العمال ، وكيف أنهم فى حوادث وانفعالات متتالية أصبحوا ملوكاً بعد أن كانوا عبيداً . . وفى الغرب حين يكتبون عن الرأسمالية تراهم يصورون لك كيف بدأ البطل فلاحاً أو عاملا بسيطاً ، ثم لا يلبث بعد حلقات متتابعة من الحوادث المثيرة والكفاح الرائع أن يصبح مالكاً للمزارع الشاسعة إن كان فلاحاً ، أو صاحباً لأكبر مصانع العالم فى إنتاج كذا أو كيت من المواد والمصنوعات إن كان صانعاً » .

وبالطبع لا يقصد السادات هنا أن يتحول الفن الروائى إلى مجرد دعاية سطحية ومباشرة لأفكار اجتماعية معينة ، وإلا انتفت عنه صفة الفن أساساً . ولكنه يقصد أن الأدوات التى يستخدمها الفن من تشكيل وحوار وأحداث وصور وانفعالات . . إلخ من شأنها أن تتفاعل مع وجدان القارئ وتجعل هذه الأفكار الاجتماعية تسرى فى تيار الشعور عنده

وبالتالى تتحول إلى جزء مكون لمنهجه الفكرى . وكما أننا لا نستطيع أن نتخيل شكلا فنيًّا دون مضمون فكرى ، كذلك لا نستطيع تصور وجود رواية فنية معينة بدون أفكار من نوع محدد . ولكن المهم هو أسلوب تجسيد هذه الأفكار داخل العمل الفنى . هنا فقط يكمن الفارق بين الفن وبين ما هو ليس بفن . وخاصة أن وظيفة الفن هى أساساً التعامل مع أحاسيس الإنسان وانفعالاته ومحاولة تشكيلها وتنقيتها من كل ما يعكر عليه صفو حياته النفسية والروحية . ولذلك فالوعظ والخطابة والإرشاد ، كل هذا لا يمت إلى وسائل الفن بصلة لأنها تحاول فرض نفسها على العقلية المعقدة للإنسان ، فى حين أن التجربة النفسية الناتجة عن الشكل الفنى المتكامل كفيلة بتشكيل نفسية القارئ وإقناعه دون أن يشعر .

ولهذا يربط السادات بين الفن والدين فى مفهومه الشامل للإيمان . فهو يرى أن الاثنين يتعاملان مع الكيان الروحى للإنسان ويحاولان تشكيله وبلورته . ولذلك فالروايات الدينية ذات البناء الفنى الناضج أقوى أثراً فى نفوس الجمهور من الوعظ المباشر والخطابة الحماسية والإرشاد المجرد . فالإنسان بطبيعته لا يميل إلى الاستماع إلى نصائح الغير لاعتزازه بذاته وبتفكيره ، ولرفضه اللاشعورى لفكرة أن الغير يمكن أن يعلم أفضل منه بحيث يمنحه ذلك السلطة التى تخول له أن يعظه ويوجهه أما الرواية فتنهج نهجاً مختلفاً تماماً ، ولذلك يؤكد السادات أن :

« الذى أدهشنى حقًّا هو أن يستطيع أحد من الكتاب أن يدخل هذا اللون من القصص إلى الدين لكى يحدث الناس فى أسلوب خفيف ، وفى حوادث شيقة ، وانفعالات ممتعة ، عن أولئك الأبطال الذين كافحوا فى سبيل تثبيت أركان دين من الأديان . . . فقد فرغت لتوى من قراءة قصة « الصياد الكبير » للكاتب الأمريكى لويد دوجلاس ، ولعل القراء لم ينسوا بعد روايته المشهورة « الرداء » التى عرضت أخيراً . . ولويد دوجلاس كان قسيساً فى مستهل حياته ، ولم يحترف صنعة الكتابة إلا فى سن متقدمة ، ولكنه حين بدأ يكتب اتخذ لنفسه طريقاً محدداً . . إن قصصه جميعاً تتلون دائماً بلون واحد هو الدين . . وقد نحا بها دائماً أن يبشر قومه بالطريقة التى يستطيعون أن يطبقوا بها الدين على مشكلاتهم وحياتهم فى هذه الدنيا من خلال قصص أشهد أنها فى تركيبها وسبكها من أروع ما كتب حتى اليوم . . إن قصة « الصياد الكبير » هى الحلقة الأولى لقصة « الرداء » وهى تحدثنا عن ظهور المسيح عليه السلام ، وعن جانب ضخم من تعاليمه . . والصياد الكبير هنا هو سيمون بن جوناس ، أو القديس بيتر كما لقبه المسيح . . .

وما إن فرغت من قراءة هذه القصة حتى وددت لو أن أحداً من كتابنا كتب بمثل هذا الأسلوب الساحر عن سيرة أبطالنا المسلمين الذين قامت على أكتافهم أروع رسالة أضاءت الأرض بالنور والإيمان . إن فى حياة عمر ابن الخطاب قصصاً وأساطير تروى ، لا يدانيها أروع ما كتب حتى اليوم عن القوة ، والعدل ، والحكمة ، وإنكار الذات . . إن فى حياة عمر وحده مادة لا تنضب ، تنبه لها الأجانب فكتبوا عنه المؤلفات ، ومجدوه ، وأهملنا نحن فى أن نجعل من حياة هذا الإنسان الفذ مثلا يقتدى به أبناؤنا على مر العصور . . . هل من يبدأ المحاولة ؟ »

وقد مارس السادات كتابة الرواية والقصة بنفسه ، إذ يقول فى مجلة « التحرير » فى أول مارس ١٩٥٤ :

« إن هوايتى الخاصة هى فى القراءة والكتابة . وقبل الثورة كان لدى المتسع من الوقت فكتبت رواية وبدأت فى الثانية . أما اليوم فإننى لا أكاد أستطيع ، بواجبى الصحفى إلى جانب الواجبات الأخرى ، ولم أستطع ، إلى اليوم ، منذ قيام الثورة أن أجد فراغاً لشىء آخر » .

ويبدو أن السياسة قد جنت على الفن الأدبى وأخذت من محرابه فناناً كبيراً كان يمكن أن يضيف الكثير إلى الأدب المصرى المعاصر . والمطلع على الأعمال الأدبية للسادات يدرك هذه الحقيقة جيداً . وبالطبع لا يتسع المجال

هنا لمناقشة هذه الأعمال – سواء نشرت أو لم تنشر بعد – ولكننا سنحاول أن نعالجها من خلال فلسفة السادات للتأصيل الفكرى ، وسنأخذ القصة القصيرة التى نشرت فى مجلة « أهل الفن » فى ١٢ أبريل ١٩٥٤ تحت عنوان « ليلة خسرها الشيطان » لنبين مدى الارتباط العضوى بين معنى الفن ومفهوم الإيمان فى التأصيل الفكرى عند السادات . فهو فنان من الطراز الأول لأنه يكتب قصة قصيرة خالية من الوعظ والإرشاد برغم أن مضمونها يغرى أى كاتب آخر بذلك . فالبناء الدرامى محكم ومتسق بحيث لا يمكننا حذف أية فقرة أو موقف منها ، والمضمون محدد ومتبلور ليس بأسلوب تقريرى مباشر ولكن من خلال تطور الشكل الفنى بصوره ورموزه وإيحاءاته صوب لحظة التنوير فى نهاية القصة وهذا يدل على الوعى الحاد للسادات فيما يختص بفن القصة القصيرة ، وهو الوعى الذى جنبه تحويل القصة الفنية إلى مقالة مباشرة . ومن الأفضل أن نقدم القصة للقارئ الآن على سبيل المثال حتى يتذوقها ويحكم بنفسه :

ليلة خسرها الشيطان

قصة قصيرة بقلم : أنور السادات

أخذ قرص الشمس يهبط رويداً رويداً ، فتناثرت من تحته ظلال رمادية راحت تغمر سماء قرية (العابدية) معلنة غروباً جديداً . .

وهذه سنة الله . . فلا بد أن يسير الكون ما بين شروق وغروب ، ونور وظلام نحو النهاية التى أرادها له خالقه القادر القوى الرحمن . .

وموكب الغروب فى القرية مهرجان رائع يتكرر كل يوم ، فبينما تزدحم الطرق الزراعية بجموع العائدين من كفاح اليوم الطويل فى الأرض الطيبة رجالا وعدداً وماشية وأنعاماً . . . نرى القرية وقد اكتست بدخان داكن يتعالى فى هدوء إلى السماء ، فوجبة الطعام الرئيسية لا بد أن تكون فى استقبال الرواد العائدين ، شهية بقدرما عانوا وبقدرما يسمح به دخل البيت ومهارة سيدته شريكة الكفاح . . .

وحالما ينتهى الزحام على الطرقات يبدأ زحام من لون جديد على المساقى والطلمبات ، فإن أحداً من هؤلاء الرواد لن يأوى إلى عشه من غير أن يطمئن إلى سقاية ماشيته وأنعامه . . .

وفى هذا اليوم وقف « خضر » من خلف سور ذلك القصر الأنيق يرقب كعادته موكب السقاية من ذلك الحوض الكبير الذى أقامته سيدته صاحبة الأرض والجاه والثراء وربة ذلك القصر ، وربة ذلك الحسن الذى يصرخ من ضحكاتها الحلوة العابثة فتنة والتهاباً . . .

إن « خضراً » اليوم فى دوامة تأخذ عليه عقله وقلبه وحسه وكل حياته . . فهو يذكر أول يوم عندما نزح إلى القرية لكى يعمل مع الأجراء من عمال الأرض فانتقته « نورا » من بين عشرات النازحين واختارته لكى يشرف على حديقتها الخاصة الملحقة بالقصر بأجر مغر قدره خمسة جنيهات كاملة . .

وهو يذكر أيضاً أنها لم تسأله عن سابق علمه بالعمل فى الحدائق ، وإنما سألته عن نفسه وسماته التى أوصفتها بأنها تدل على النبل ، وعن قوامه الذى أعجبها أيما إعجاب وعن . . وعن . . ولما أن ارتدت عيناه خجلا واحمرّ وجهه وأراد أن يجيب ، لم يجد إلا تمتمة وهمهمة ردت عليها « نورا » بتلك الضحكة الحلوة العابثة وهى تربت على كتفيه وكأنها سعدت بذلك الخجل وتلك التمتمة . .

وهو يذكر أيضاً أنها لم تكتف بذلك وإنما أخذته من يده وقادته إلى الحجرة المخصصة له فى طرف الحديقة ، وأرشدته إلى ما فيها من امتيازات لم يألفها ، بل ولم تداعب خياله قط وهو الذى لم يعرف إلا تلك الدار المتواضعة التى نزح عنها . . وكأنما أرادت أن تذهب ما بقى بلبه من رشاد فأمرت الخدم بإعادة تنظيفها وترتيبها من جديد . . .

« علشانك ياخضر . . . »

لا لقد أمعنت « نورا » فى العبث بفطرة ذلك الفتى الساذج إلى حد أن أذهلته عن أمسه وحاضره وكيانه فى مستقبل الأيام ، إنه ليسأل نفسه وهو يقبض بيديه على حديد السور يرقب موكب السقاية ألف سؤال وسؤال . . لماذا تناديه « نورا » فى مناسبة وفى غير مناسبة لتروى له طرفاً من حياتها فى المدينة وكيف أن الكثيرين من أهل الثراء يتوددون إليها طامعين فى مالها وجمالها وفى مجالسها وكيف أنها تضن بقلبها أن يعبث به الطامعون وأنها لن تسلم قلبها وأموالها

إلا لمن تشعر أنه يريدها لشخصها حتى ولو كان أحد عمال أرضها الأجراء . .

وذلك الذى حدث يوم أن كان يقلم أشجار الورد فى الحديقة ولم يكن له بهذا الفن سابق علم فكان أن نفذت شوكة طويلة فى راحة يده وتصادف أن « نورا » كانت تمر بالقرب منه فهالها أن ترى الدماء تنزف منه وأخذته مسرعة إلى جناحها الخاص حيث أجرت له الضمادات وكانت ذراعه عارية إلا من قميص مهلهل فأخذت « نورا » بعد أن أسعفته تمسح بيديها على عضلاته وفى عينيها بريق عجيب لم يكن ليراه طيلة حياته فقد عودته النسوة فى القرية أن لا يرى بريق عيونهن من فرط الخجل أو من فرط استحيائهن .

لقد لمست بيديها بلطف أول الأمر ثم بعنف وهى تقترب منه لتغسل له الجرح فادمت طهارته وروحه بتلك الأنفاس الحارة التى انبعثت منها مختلطة بذلك العطر القوى الذى شل من فتانا كل حراك ، وعندما قام لينصرف وهو يشكر لها صنيعها فى كلمات لاهثة متقطعة وهو يقبل يدها ما راعه إلا أن همست فى أذنه بصوت حالم انطبع بعنف على وجدانه البرىء : « انتظرنى يوم الخميس الجاى يا خضر . . . سأرجع من مصرعلشانك مخصوص » .

هل كان وهمه يطلب صراحة أكثر من هذا ؟ وهل كان شيطان الشك يريد منها وعداً أفضل من هذا ؟ لا لم يعد هنا وهم ولا شك وإنما هو يقين يهز كيانه بأقوى مما يفعل الشك .

لقد عاش يومين بعد هذا اللقاء محموماً مخدراً فى حلم اشتهى لا يفيق منه . كان يذكر اللقاء ليسترجعه وليردد قولها كلمة كلمة . إن نبرات صوتها لا تزال تعيش فى أذنيه واضحة شجية تطارده وهو ينام وتؤنسه وهو يعمل فى خدمة حديقتها التى لم ينقض عليه فيها شهر بعد .

إيه أيتها المشاعر البشرية بل أيتها العواطف الإنسانية . . لقد كان فكره فى أيامه الأولى يدور حول الجنيهات الخمسة التى طالما منى نفسه بأنه سيتناولها متماسكة فى ورقة واحدة كان يراها فى أيدى تجار القطن ، وكانت أنامله تأكله ليملس عليها ويرفعها فى احترام إلى شفتيه ليقبلها فى لهف . .كم من ساعات انصرمت عليه وهو يحرك هذه الأنامل وكأنما تمر على صفحة تلك الورقة العريضة التى شاعت فيها الحمرة كما تشيع فى وجنتى سيدته الرشيقة الباسمة دائماً .

كان فكره يدور حول الجنيهات الخمسة فى سذاجة وبراءة ولكنه أصبح اليوم ولا هم له أو لفكره ولا لخياله سوى سيدته نفسها . . سيدته وسيدته فى إلحاح . . إن هواتف نفسه تتصارع بين رغبة جامحة طارئة وبين ما نشأت عليه فطرته الساذجة من اعتراف بالجميل ولكنها سيدته أيضاً . إنها هى التى شجعته فتشجعت غرائزه وهى التى كشفت بعطرها وأنفاسها عما كان يكبته . إن « خضراً » يعانى صراعاً لم يكن فى حسبانه بين ما حرم الله فى كتابه وما أيقظته فيه سيدته من هواتف . .

ظل « خضر » فى موقفه هذا على السور تائهاً شارداً ولم يحس أن القوم قد انصرفوا بأنعامهم عن الحوض الكبير وأن الليل قد زحف على القرية ولم يدر إلا والرجفة تأخذه . . إن اليوم هو الخميس الذى واعدته عليه سيدته فلا بد أن يذهب ليعد نفسه للقائها . . .

وفى خطوات وئيدة توجه « خضر » إلى طرف الحديقة حيث يوجد مسكنه وما إن فتح غرفته حتى وقف كالمصعوق . . لقد وجد « نورا » فى غلالة شفافة تلف جسمها وهى تفضحه . . .وراعته المفاجأة فتسمر فى مكانه « ونورا » تناديه : نادته بصوتها الذى سحره ونادته بضحكها الذى أذهله ونادته بذلك البريق الذى رآه فى عينيها وهى تضمد جراحه . . ولكن « خضرا » ظل فى مكانه . .

وعصفت الرغبة « بنورا » فأرسلت ضحكة عالية لم تكن كضحكاتها السابقة وإنما كان فيها صراخ الشيطان

وألقت بجسدها بين أحضانه . . وصرخ الوحش فى دماء « خضر » فلم يشعر إلا وهو يتلقف ذلك العود الفائر الدافئ بين ساعديه . وأطبقها فى عنف وكأنما يريد أن يعتصر كل ما فى العود . . وصرخت « نورا » من الألم . فارتد « خضر » فى ذهول ليرى على الأرض حلية سقطت من صدر « نورا » بعد أن أدمته . .

* * *

وسط ذلك الليل البهيم انشق الهدوء والسلام فى طرقات القرية على صيحات خضر المذعورة وفى يده شيء يطبق عليه . . .

كان كتاب الله فى حلية من ذهب .

* * * * *

فى هذه القصة نلاحظ اهتمام السادات الفائق بالبناء الدرامى الذى يستخدم لغة الرمز والوصف والتجسيد بدلا من الاعتماد على التقرير والتوضيح والتصريح . ولذلك فالفنان لا يتدخل شخصيًّا لتوجيه دفة الأحداث الوجهة التى يتطلبها الدرس الأخلاقى . بل إن هذا الدرس نفسه لم يفرض فرضاً على البناء لأنه نبع من ثناياه وكان النتيجة الطبيعية له . فليس هناك وعظ أو اتهام أو أى تزيد من شأنه أن يصيب القصة بأورام ونتوءات تفسد من جمالها العام فالصراع الدرامى كله يرتبط بالعمود الفقرى للأحداث والمواقف ، ويتمثل فى الجملة التى وردت فى القصة والتى تقول : « إن خضراً يعانى صراعاً لم يكن فى حسبانه بين ما حرم الله فى كتابه وما أيقظته فيه سيدته من هواتف » . وهذا الصراع يشق مجراه طبيعيًّا دون أن يتهم المؤلف نورا بالفجور أو خضرا بالرضوخ للإغراء . فالفن العظيم لا يحتمل مثل هذا الاتهام الساذج لأن المعنى الأخلاقى للقصة لا ينفصل عن شكلها الفنى .

وقد استغل المؤلف تيار الشعور عند بطله لكى يقدم من خلاله المبررات النفسية الكامنة سواء وراء سلوكه أو سلوك نورا ، بحيث جاءت تصرفات الشخصيتين مطابقة لتكوينهما النفسى . وبرغم أن الوصف الشعورى أو اللاشعورى للشخصية يغرى كثيرين من القصصيين على انتهاج منهج التحليل النفسى بكل ما يحمله من تقرير وتوضيح وتفسير مباشر إلا أن السادات التزم بكل الحتميات الفنية والضرورات الدرامية التى تعتمد على إمكانيات الرمز فى إخصاب العمل الفنى بظلال المعانى وإيحاءات النفس المتعددة والمتناقضة . فقد كونت الرموز المتلاحقة لوحة تشكيلية تتكلم من خلال الأضواء والألوان والظلال : قرص الشمس ، الظلال الرمادية ، الدخان الداكن ، المساقى والطلمبات ، الجنيهات الخمسة ، حديد السور ، أشجار الورد ، الحديقة ، القصر ، الشوكة الطويلة ، الجرح ، الضمادات ، الأنفاس الحارة ، العطر القوى ، الحمرة فى الجنيهات الخمسة وفى وجنات نورا ، الغلالة الشفافة ، العود الفائر الدافئ ، الدم الأحمر مرة أخرى ، ثم أخيراً كتاب الله فى حلية من ذهب .

من خلال هذه الرموز التى تشكل مراكز الثقل الدرامى فى الخلفية الوصفية ، يشق الصراع الدرامى مجراه . وقد بدأ الصراع نفسيًّا ثم أخذ فى التجسد حتى تحول إلى صراع جسدى انتهى نهاية طبيعية غير دخيلة عليه . فخضر لم يترك نوراً لأنه تذكر ربه ، ولكن لأن ربه ذكره به من خلال كتابه الكريم الذى علقته نورا حول عنقها فى حلية من ذهب . والمعروف أن اللذة تضيع إذا سيطر الألم على الإنسان ، ولذلك كان من المنطقى أن تزهد نورا هى الأخرى فى خضر عند إحساسها بالألم على أثر وخز الحلية لصدرها حتى أدمته . وعلى الرغم من أن المعنى الأخلاقى واضح كالشمس إلا أن الفنان لم يترك تشكيله الفنى لكى يشتغل بالوعظ والإرشاد . وهذا بلا شك أقوى أثراً نتيجة للتجربة

النفسية التي يمر بها القارئ . فهو لا يتقبل الأفكار فى سلبية ولا مبالاة ولكنه ينفعل بها وبالتالىفهى تشكل وجدانه وتفكيره تجاه هذا المعنى الأخلاقى .

وهذا يدل على الحس النقدى الرفيع الذى يتمتع به السادات ، والذى يتجلى فى حكمه الموضوعى على الروائيين الذين قرأ لهم . يقول فى حديث له مع كمال الملاخ على صفحات « الأهرام » فى ٢٣ أبريل ١٩٦٢ إن الرواية عبارة عن عالم متكامل من المشاعر والانفعالات ، وكون واسع عريض بجميع أحداثه وشخصياته ومواقفه ورموزه ولوحه الوصفية وخلفياته الفكرية . ونحن إذا طبقنا هذا المفهوم الشامل على قصته القصيرة « ليلة خسرها الشيطان » ، فسنجد أنها ليست مجرد حدوتة بل تجمع فى ثناياها الدرامية كل عناصر التأصيل الفكرى عند السادات ومنها : مفهوم الإيمان ، والضرورة الأخلاقية ، والشخصية المصرية ، وروح القرية ، وقضية الشباب ، والمرأة الجديدة . . إلخ وهذا يدل على أن المضمون الفكرى لا ينفصل عن الشكل الفنى عنده ، فهو ينظر إلى الوجود الإنسانى كوحدة لا يمكن أن تتجزأ . ولذلك يقول لكمال الملاخ :

« من الناس الذين يحللون الانفعالات والوجود ككل . . لا الحكاية العادية ولد يحب بنتا . . ومتاعب . . ثم نهاية غالباً سعيدة . . هو الروائى (سمرست موم) . وفى نظرتى للعمل الأدبى لا أقنع بمجرد حوادث أو أحداث تجرى أو البحث عن حبكة . أريد أكثر من هذا ، الوجود الذى نعيشه غير منفصل بعضه عن بعض . نحن كبشر نمثل جزءاً من هذا الوجود . من أحسن القصص التى قرأتها فى السجن : (حد الموسى) لسمرست موم . فى هذه الرواية : عملية الوجود كله » .

ولكن الحس النقدى الموضوعى عند السادات لا يجعله ينحاز انحيازاً مطلقاً لسمرست موم ، بل يراه فى ضوء تحليلى علمى يوضح الإيجابيات كما يوضح السلبيات . فيستأنف حديثه عن سمرست موم :

« ولكن إذا رجعت لسمرست موم . . الذى يحلق بقارئه إلى قمة الانفعال حتى فى قصصه القصيرة . . أجد عنده نقطة ضعف ، هو أنك تحس أنه يؤمن بنظرية كيبلينج إلى حد بعيد . . الشرق شرق . . والغرب غرب . . عيبه التفرقة العنصرية التى تجدها واضحة فى رواية « خيط من شعاع » وفيها يتجنى على الملونين . قصة يجتمع بين أبطالها أوربيون وملونون على مركب . يغرق المركب فى وسط النهر . الرجل الملون الذى يصفه الكل بالشجاعة تحول إلى جبان يخاف أن يضحى لإنقاذ رجل يغرق . وينقذ الموقف رجل أبيض ! ولكن إذا خرجنا من رذالته العنصرية وتمييزه الرجل الأبيض . . نجد فيها أبعاداً فى الحياة . . من الكون » .

أما عن الروائيات فيعتقد السادات أن لهن صبراً أكثر من الروائيين فى إيراد التفاصيل الدقيقة واللمسات الثانوية واللمحات الجانبية ، وعلى كل حال فروح القرية عندة تجعله يفضل الروائيات اللاتى يجسدن ملامحها فى رواياتهن من أمثال بيرل باك . فهن على حد قوله :

« يصفن الحياة بتفاصيل وتحليل أكثر ومن بينهن : بيرك باك ، وفيكى باون . وبيرل : ولدت فى الصين وعاشت فيها بين التقاليد والأسرة القديمة . عندما تصفها كأنك فى قرية من قرى مصر . طبعاً أنا من قرية ومشدود بكل ما أحسسته طفلا . الخرافات البدائية الساذجة . الاعتقادات غير القابلة للمناقشة . التقاليد الصارمة التى لا يعرف لها أصل . وبيرل هى مؤلفة « الأرض الطيبة » و « الأم » .

ولا تقتصر التعليقات الأدبية للسادات على الأدب العالمى ، بل ينتقل بنا إلى الحياة الأدبية فى مصر . فيأخذ على النقاد المصريين قصورهم الواضح عن مواكبة الحركة الأدبية لدرجة أنها تعيش فى فراغ نقدى كان من الممكن أن يقضى عليها لولم تكن تملك من الأصالة ما يساعدها على الاستمرار . وفى هذا يؤكد السادات أن :

« الشيء الجميل . أن عندنا نهضة أدبية جميلة جداً . بصرف النظر عما يكتبه النقاد . عندنا مثلا من تأثرت بهم من صغرى . د . طه حسين طبعاً . قرأت له . رجعت السنة الماضية واشتريت (على هامش السيرة) . كان قد فقد منى ثانية . ومن الشبان الجدد : إحسان عبد القدوس . يمثل بلا جدال . . تياراً وفكراً واتجاهاً فى غاية الروعة . وطبعا يوسف السباعى ونجيب محفوظ . »

وقد وقف السادات دائماً نصيراً وسنداً للأدباء والمفكرين ، إيماناً منه أنهم ضمير الأمة الحى . ويحكى إحسان عبد القدوس على صفحات مجلة « الجديد » فى أول يوليو ١٩٧٣ موقفاً محدداً وقفه السادات ضد كل الاتجاهات المغرضة التى حاولت التشهير بإحسان عبد القدوس . يقول إحسان :

« ما من مرة وقعت فيها فى مأزق إلا وأحسست بأن الرئيس السادات واقف بجانبى . . لم يتباعد عنى أبداً فى أشد المحن التى تعرضت لها . . فى الستينيات مثلا تعرضت لحملة تشهير شنها علىّ خصومى السياسيون ، وأخذت الحملة – فى إطارها الخارجى الزائف – شكل الهجوم على أدبى القصصى ، عقب قصة « أنف وثلاث عيون » ووصل الأمر إلى حد مناقشة الموضوع فى مجلس « الأمة » وكان الرئيس السادات رئيساً للمجلس ، واستطاع بذكائه ووفائه – معاً – أن يدير المناقشة بموضوعية كاملة وبصورة تحمى سمعتى وكرامتى ، بحيث انتهى الموضوع برد الدكتور حاتم – وكان وزيراً للثقافة والإرشاد القومى – الذى قال فيه : (إن أدب إحسان عبد القدوس يمر بما يمر به أدب غيره من مراجعة رقابية فى حدود الحماية الواجبة للآداب العامة . . وإذا كان لأحد من الأعضاء اعتراض خاص أواتهام معين ، فليتقدم به بصفة شخصية إلى النيابة العامة) . . ولم يتقدم أحد طبعاً بإبلاغ النيابة ضدى . »

والأدب – فى مفهوم السادات – ليس مجرد أداة للتسلية وتزجية وقت الفراغ ولكنه وسيلة خطيرة لتكوين الشخصية الإنسانية وتطويرها فقد يركن الإنسان إلى قراءة رواية على سبيل التسلية ، ولكنه فى حالة الاسترخاء الممتع التى يمارسها أثناء القراءة ، ينشط خياله لتلقى المضمون الفكرى ، فيترسب فى وجدانه ويتحول إلى جزء فعال من تفكيره ، وبالتالى يصبح نمطاً سلوكيًا مرتبطاً بشخصيته . فقد تعلم السادات الصبر والصمت وكتمان الألم وتحمل المكاره بعد قراءته لكتاب « على هامش السيرة » لطه حسين . يقول فى « الجمهورية » فى ٣ مارس ١٩٥٤ :

« تعودت أن أحتفظ لنفسى بمثل هذه الأشياء حين أعانيها فاتألم ، خوفاً من أن يكون فى إنشائها بادرة ضعف منى وأنا أكره لنفسى أن تبدو لى ضعيفة ، فما بالك إذا ما رأى الناس هذا الضعف . . وقد يكون ذلك مرجعه إلى عبارة قرأتها وأنا صغير السن لأستاذنا الكبير طه حسين فى كتابه (على هامش السيرة) وكان يقول : (إنما يراك الناس بقدر تصويرك لنفسك ، فإن أعززتها رؤيت عزيزة ،وإن أهنتها رؤيت مهانة) » .

فالأدب إذن اكتشاف للنفس واكتشاف للحياة فى الوقت نفسه ومن هنا كانت العلاقة العضوية بين الأدب والحياة ، هو يستكشفها ، وهى تمده بالطاقة والمضمون لكى تساعده على الاستمرار والاستكشاف . وفى هذا يقول السادات فى مذكراته التى نشرها فى « المصور » عام ١٩٤٨ بعنوان « ٣٠ شهراً فى السجن » إن حبه للأدب والفن هو الذى ساعده على اكتشاف الأعماق والأبعاد المتعددة التى تتمتع بها حياة القرية البسيطة الساذجة البريئة الوادعة . هناك الإيمان العميق ، والسريرة النقية ، والرأس المرفوع ، والكفاح الدءوب . ومن لا يملك هذه النظرة لا يرى فى حياة القرية سوى الكآبة والملل والضيق والضجر والسأم واليأس والرتابة . أما السادات فيستشهد فى مذكراته فى ٢٥ ديسمبر ١٩٤٦ بقول ديهاميل : « إنه لغنى ذلك الذى يرى الحياة اكتشافاً مستمرًا » ثم يربط بين هذا المفهوم وحياته فى القرية فيقول :

« اليوم هو عيد ميلادى . . لا أدرى لماذا تداعبنى خواطرى فى ابتهاج ونشوة . . فمنذ ثمانية وعشرين عاماً خلت ،

وفى مثل هذا اليوم ، كان مولدى الساذج فى تلك القرية الهادئة بالمنوفية . .

سأذكر دائماً هذا اليوم ، وسأذكر أيضاً عشيرتى من الفلاحين الكادحين فى بساطة ووداعة . فهذه الذكرى ترفعنى فوق لوم المدينة وخداعها ومظاهرها المتكلفة . سأذكر دائماً بيئتى القروية الساذجة حيث تمتلئ النفوس بالإيمان بالله ، وحيث يرجعون كل شيء إلى الله ، فهنالك تعلمت أن الله حى فى كل شيء ، وأن العبرة بنقاء السريرة قبل العلانية . سأذكر محصول الثمانية والعشرين عاماً الماضية بفخر واعتزاز ، وسأسير مرفوع الرأس غير خاش أن يساء فهمى أويؤول قصدى .

اللهم حمداً وشكراً فأنت وحدك القوى المكين . »

ومنذ طفولته تفتح ذهن السادات وخياله لحب القصة والرواية والشعر من خلال دراسته الدينية فى « كتّاب » القرية . وكما سبق أن قلنا إن الفن والدين يتقاربان فى معالجتهما لحياة الإنسان الروحية والفكرية والنفسية . وعندما يتفتح خيال الطفل المبكر لقصص القرآن الكريم ، فإن عالماً رحباً يحتويه بين ذراعيه ويمده يوماً بعد يوم بالخصوبة الذهنية والروحية التى تمكنه من أن يرى الحياة اكتشافاً مستمرًا . وفى هذا يقول السادات على صفحات « الجمهورية » فى ٢٠ ديسمبر ١٩٥٤ :

« للدين قدسية ورهبة . . حتى فى نفوس الأشقياء . . سأظل أذكر ما حييت كيف دخلت هذه الرهبة وتلك القدسية إلى نفسى وأنا طفل صغير ألعب فى شوارع القرية حافى القدمين ، وما أن بلغت سنى الحد الذى أرسلونى فيه إلى الكتّاب حتى كان أول شيء فاجأونى به هو أن اشتروا لى ضمن ما اشتروا شبشباً ألبسه لأننى سأقرأ القرآن فى الكتّاب ، ومن يقرأ القرآن يجب ألا يسير حافى القدمين ، بل إنهم يصلون فيها إلى حد أن يقطع إمام الجامع بأغلظ الأيمان أن من يمشى حافياً وهو يحفظ القرآن إنما يرتكب حراماً من أبشع الحرام » .

ثم يقص علينا السادات حياته فى « كتّاب » القرية بأسلوب أدبى متمكن يذكرنا بأسلوب طه حسين فى كتابه « الأيام » مما يدل على أن السياسة قد حرمت الأدب المصرى المعاصر من أديب كبير خصب . يقول السادات :

« وعندما كنت أعود من الكتّاب عصر كل يوم أحمل اللوح الصفيح ، والدواة الزجاجية ، والقلم البسط كانت تدور فى رأسى الخيالات والأحلام . . فى مثل تلك السن المبكرة يلذ للطفل ألا يحس فى انطلاق خياله بسد أو قيد ، فما بالك إذا كان هذا الانطلاق يندفع فى أجواء رهبانية مقدسة كان يحدثنا عنها سيدنا العريف حينما كان يفسر لنا بمنطقه البسيط الخفيف السور التى كان يمليها علينا . .

ولا أزال أذكر قصته لنا عن سورة (قريش) . . « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » . صدق الله العظيم .

لا أزال أذكر (سيدنا) وهو يحكى لنا عن رحلة الشتاء ورحلة الصيف إحداهما فى الجنوب والأخرى فى الشمال وفى كل رحلة يسير بنا مع القافلة وحاديها يردد أروع النغم وأجمل الأراجيز ، ثم ينتقل بنا إلى النار التى تجتمع حولها القافلة فى الليل يسمرون ويديرون طلى الحديث ويروون آخر ما جادت به قرائح الشعراء ، ثم ينتهى بالقافلة المطاف إلى أسواق الشام وما فيها من خز وديباج وعطور ونفائس مما يقتنيه الرجال وما تتجمل به الحور . .

ويظل (سيدنا) يحكى ويحكى إلى أن يقف بنا فجأة لكى يدعونا إلى طاعة الله ، ليطعم جوعنا كما أطعم قريشاً ، ويؤمّن خوفنا كما أمّن قريشاً . .

هذه هى الصورة التى تنطبع فى قلوب الملايين من سكان القرى فى بلدنا الطيب الوادع ، وتظل تكبر معنا حتى ولو تركنا القرية إلى المدينة كما حدث لى . .

لا يمكن بحال من الأحوال أن ترتبط صورة الدين والإيمان فى أعماقنا نحن أبناء هذا الشعب فى القرى والنجوع والكفور ، إلا بشيء واحد هو الوداعة ، وهو الإيمان الذى يملأ نفوسنا رهبة وخشوعاً لله . . » .

هذا هو الأسلوب الأدبى الذى كان يحول التعاليم الدينية إلى متعة ذهنية رائقة فى خيال الأطفال ، فهذه التعاليم ليست مجرد أوامر صادرة للتنفيذ ولكنها مضمون فكرى لحياة متكاملة . فالأمر بطاعة الله يأتى ضمن سياق أدبى جميل يبين مدى حب الله عز وجل للإنسان وحمايته له من شرور هذا العالم . عندئذ تصير طاعة الله مهمة ممتعة كنوع من رد الجميل لله سبحانه وتعالى ، ولا تصبح مجرد تنفيذ حرفى لأمر مجرد .

وعندما شب السادات وبدأ كفاحه الوطنى المبكر ، شب معه الأسلوب الأدبى الذى تعلمه منذ سنى طفولته لدرجـــة أنه كان يطغى على مقالاته ومؤلفاته السياسية . فهــو يعتقد أنه لا خير فى أية دراسة سياسية لا تحمل معها ما يحبب القارئ فيها وفى مضمونها الفكرى . فالدراسة الصارمة الجافة لا تتعامل إلا مع عقل القارئ ، وهذا النوع من القارئ ليس الأغلبية ، لأن معظم القراء يفضلون التعامل مع وجدانهم وعاطفتهم بالإضافة إلى عقلهم وفكرهم . لا يعنى هذا أن تتحول الكتابات السياسية إلى مظاهرات حماسية وهتافات انفعالية ، ولكنه يعنى ذلك التوازن الدقيق بين رحابة العاطفة وانطلاقها وبين منطق العقل وانضباطه . وهذا التوازن يخلق قاعدة عريضة من القراء . ومن هنا كان النجاح الجماهيرى الذى لاقته كتب السادات عندما صدرت بين عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٩ . فمثلا فى سلسلة « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » يحكى لنا فى الحلقة التى نشرت بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٥٤ فى « الجمهورية » الصعاب التى واجهت الضباط الأحرار قبل قيام الثورة ، ونلاحظ القالب الأدبى الجميل الذى صب داخله المضمون السياسى بحيث أصبحت الصورة الفنية والفكرة السياسية وجهين لعملة واحدة . يقول :

« عندما يتكاثف الظلام ، وتتعذر الرؤية ، ويتخبط الناس فى طرقات الحياة ، وتتشعب بهم مسالكها . . يختار الله من عباده المخلصين من يتيح لهم البصيرة التى تغنى عن البصر ، فإذا هم يتوقفون عند العثرة ، لأنهم يتوقعونها ، وإن لم ترها منهم الأبصار . وقد كان الله معنا فى طريقنا الطويل إلى هذه الثورة ، فأودعنا البصيرة كلما ادلهمّت الظلمة . . وجنب خطواتنا أكثر العثرات . .

وفى طريقنا هذا الطويل ، لمعت أمامنا أضواء ، وتبعت أقدامنا أقدام . . ولكن خطواتنا ظلت محتفظة باتزانها وشخصيتها ، واستقلال توجيهها . . واستطاعت أن تؤكد للجميع ، أنها تستطيع أن تلتقى بخطوات الآخرين ، ولكنها لا تستطيع أن ترتبط بها ، لا متبوعة ولا تابعة ، لأنها خطوات لا تمضى إلا بإرادة أصحابها ، وأصحابها لم تكن تعوزهم البصيرة ، مهما افتقدوا الضوء فى الطريق . . »

وفى بعض مقالاته السياسية يرسم السادات صورة فنية رائعة بكل ظلالها وألوانها وخطوطها لدرجة أن القارئ يظن أنها المقصودة لذاتها ، فى حين يفاجأ فى النهاية بالفكرة السياسية وقد جاءت كامتداد طبيعى للرموز والصور التى وردت فى البانوراما الوصفية . ولنلاحظ رمز الضفادع فى المقالة التالية التى نشرها فى مجلة « التحرير » فى ٣ اغسطس ١٩٥٤ :

« كثيراً ما قضيت فى ريف مصر الجميل ليالى لا أنساها ، ناجيت فيها الطبيعة الهادئة ، واستمتعت فيهـــا إلى حفيف غصون الأشجار ، وإلى همس النسيم فى آذان الخمائل ، ونعمت فيها بالهدوء والدعة وسرحت فيها بخيالى مستعيداً ذكرياتى حلوها ومرها ، وتطلعت فيها إلى آفاق المستقبل استشف منها ما أترقبه من جميل الأمانى وطيب الآمال .

ومن تلك الليالى التى قضيتها فى الريف ما كان مقمراً منيراً ، ومنها ما كان مظلماً حالك السواد . ولكنى كنت

أرى فى ظلام الريف جمالا لا يقل عن جمال قمره . . فهذه الظلال التى ترسمها الأشجار تتراءى فى الظلمة كعذارى ليل استخفين ليرقصن على نغمات نجوى النسيم وخرير الجدول ، وهذه الأكواخ القابعة بين تلك البقع الخضراء الداكنة ، أوكار طير تتناجى فيها أرواح ساكنيها مناجاة الحب والعطف والحنان . . أما إذا أسفر القمر ، وألقى عذارى سحبه الشفافة وأطل من وراء غمامه الرقيق ، فكل ما حولى لوحات فن رائعة ، رسمت لا على الأوراق ، بل على حدقات العيون ، وصفحات القلوب . .

شىء واحد كان يحيل ظلمة الريف الجميل إلى وحشة رهيبة ، وقمر الريف المثير إلى ضجة وصخب . . ذلك هو « نقيق الضفادع » . ولو أنك سمعت نقيق الضفادع فى وقت كد وكدح . . أو فى ساعة صخب وضجيج ، لهان لديك أمرها . . أما أن تسمع هذه الاصوات القبيحة المنكرة فى ساعات هدوء ، أو فى أوقات مرح ، فذلك ما يثير الغضب ، ويوتر الأعصاب . إن نقيقها يعكر هدوء الظلام ، وصفو الضياء على السواء .

لقد ذكرنى (بنقيق الضفادع) صراخ تلك الصحف الإنجليزية التى أخذت تلطم الخدود وتشق الجيوب حزنا على ضياع مصر من قبضة بريطانيا . . وكان أولى بهذه (الضفادع) ألا تعكر هذا الهدوء بتلك الاصوات التى لا معنى لها ولا وزن . . إنها تلطم فى فرح ، وتندب فى عرس . وكان عليها أن تفهم أن الفرح فرح بريطانيا والعرس عرسها ، لأن خروج القوات الإنجليزية بهذا الاتفاق الذى يحفظ لها كرامتها ، ويبقى لها صداقة شعب مصر ، وجميع الشعوب العربية ، إنما هو كسب لبريطانيا . »

هذه اللوحة التشكيلية الرائعة قل أن توجد عند كاتب سياسى ، فحفيف الغصون ، وهمس النسيم ، والقمر المنير ، والظلام الحالك ، وظلال الأشجار ، وخرير الجدول ، والأكواخ القابعة ، والبقع الخضراء الداكنة ، والسحب الشفافة ، والغمام الرقيق . كل هذه اللوحة المتناغمة فى ألوانها وظلالها وأضوائها يقطعها صوت النشاز المزعج الصادر من الضفادع ، وفى النهاية نكتشف أن الضفادع ترمز إلى الصحف البريطانية . بعد ذلك يستطيع القارئ أن يفهم جيداً الدور الذى قامت به تلك الصحف دون حاجة إلى شرح توضيحى وتفسير تحليلى له . لأن الرمز بكل أبعاده وإيحاءاته من خلال السياق الأدبى كفيل بتحديد هذا الدور وتجسيده وترسيخه فى ذهن القارئ .

وأحياناً يترك السادات مسرح الأحداث التاريخية ليركز على لقطة جانبية تزيد من أبعاد هذه الأحداث وتخصب من دلالاتها ، وذلك لارتباطها بالحياة اليومية للناس بعيداً عن التنظيم السياسى . فمثلا يحكى لنا ماذا حدث صباح ذلك اليوم التاريخى الذى قامت فيه ثورة يوليو وذلك فى كتابه « قصة الثورة كاملة » ص ٨٩ :

« إن الذى كان يطوف بشوارع القاهرة فى صباح ذلك اليوم التاريخى ، كان يرى صوراً للشعب مليئة بالأمل والثقة ! إن بائع (الخروب) الذى وزع ما يحمله على الناس مجاناً فى ميدان السيدة زينب ، كان يعبر بتصرفه ذاك عن إيمان الشعب بما حدث وأيضاً كان يعبر عن حاجة الشعب الملحّة إلى قيام ثورة . . وغير بائع الخروب . . مئات من الصور الباهرة التى كانت تعكس فى صدق كبير بهجة الشعب بما حدث فى تلك الليلة . . بثورة القوات المسلحة من أجله . . »

هكذا يصل السادات دائماً إلى عقل القارئ ووجدانه من خلال بصره . فالصورة الفنية كفيلة بالتعبير عن كل أبعاد الفكرة السياسية دون محاولة للكاتب ليتدخل مفسراً وموضحاً ومحللاً وشارحاً . فهو يرسم المنظر وعلى القارئ أن ينظر إليه ، بعد ذلك يفهم ما يقصده الكاتب فى لمحات . ولذلك يستفيد السادات من إمكانيات الوصف التشكيلى والسرد الروائى فى تجسيد الفكرة السياسية المجردة من خلال بلورة الأحداث والمواقف والشخصيات . فعلى سبيل المثال نجد ، فى الكتاب السابق ذكره ، وصفاً لرحيل فاروق فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ عن البلاد بعد أن نحته الثورة عن العرش . هذه اللحظة التاريخية لا يحللها السادات بقلم الكاتب السياسى ولكنه يجسدها بعدسة المصور الفنان بحيث

تبدو كما لو كان القارئ يشاهد شريطاً سينمائياً . هنا تكمن المتعة والتعلم فى الوقت نفسه . فبينما القارئ مستمتع بالمشاهد التى تتوافر أمام بصيرته وخياله ، فإنه يتعلم الكثير عن تاريخ مصر فى أحرج لحظاتها . يقول السادات ص ١٢١ :

« وظللت فى مكانى فوق الطراد (فاروق) أحملق فى المنظار المكبر وأشهد أمامى نهاية ملك . . بل نهاية نظام . . ورأيت فاروقاً بجسمه الضخم يستقل اللنش إلى المحروسة ، وكان يرتدى بذلة بحرية بيضاء ويقف على مقدمة اللنش . . وخيل إلى أنه يريد ان يبدو شجاعاً فى لحظاته الأخيرة ، وهو يغادر أرض الثورة . .

وكانت اللنشات تروح وتجىء فى الميناء منذ الصباح حتى ساعة الرحيل ، وتقترب تلك اللنشات من رأس التين ثم تدور حول المحروسة . . فكل الناس يريدون مشاهدة الفصل الأخير من رواية (فاروق الاول) . بعد أن شهدوا كل فصول الرواية وضاقوا بها .

وكانت ناريمان وبنات فاروق قد وصلن إلى المحروسة قبل الساعة السادسة . وقبل أن يمر اللنش الذى يحمل الملك المخلوع أمام الطراد الذى كنت فوقه سمعت طلقات رصاص . . وبحلقت فى المنظار وقد انتابنى شعور بالفزع خيل إلى أن أحداً أطلق الرصاص على فاروق . . وبهذا تكون القيادة قد أخلفت وعدها . . ثم عرفت — فى الحال — أن أحد اللنشات اقترب من (لنش) الملك المخلوع وكان فيه صحفيون مصريون جاءوا ليلتقطوا صوراً لفاروق ساعة رحيله عن مصر . وما كاد فاروق يراهم وهم يقتربون منه حتى (تهيج) وصرخ بصوت عال وسبهم بشتائم مقذعة ، فما كان من حرس خفر السواحل الذين كانوا فى (لنش) يسير بهم محاذياً للنش فاروق إلا أن أطلقوا النار للإرهاب . . . وانطلق لنش الصحفيين بعيداً . . . » .

وهذا السرد الروائى ينطبق على كل كتابات السادات فيما يختص بتاريخ الثورة . بل إن هذا السرد يتحول أحياناً إلى نوع من السيناريو السينمائى بكل ما يحمله من وصف تفصيلى للمناظر والمواقف والشخصيات والخلفية التى تعكس إحساسات الشخصيات تجاه الموقف . فأحياناً يبدأ السرد وكأننا نشاهد على الشاشة البيضاء تحديداً لتاريخ الأحداث ثم مكان وقوعها يتلوه الخلفية الوصفية بكل تفاصيلها ثم الشخصيات التى تتحرك أمام هذه الخلفية وتتفاعل معها بحيث تبلور إحساساتها تجاه الموقف الراهن . ثم تتوالى الأحداث والمناظر والشخصيات تماماً كما لو كان هناك شريط سينمائى يدور أمام أعيننا . ولذلك لا يمكن أن ينسى القارئ الفكرة السياسية الكامنة وراء هذا التكنيك السينمائى الذى يتسلل فى رفق إلى وجدانه وعقله وفكره من خلال الأحاسيس والأفكار والانفعالات التى يثيرها داخله . فالأمر لا يقتصر على فكرة مجردة يقوم الكاتب بتحليلها وتفسيرها ، ولكنه يتحول إلى تجربة نفسية تحتوى القارئ وتملك عليه حواسه الخمس وبالتالى عقله وفكره . وقد طبق السادات هذا المنهج على « صفحات مجهولة من كتاب الثورة » فى الحلقة التى نشرت « بالجمهورية » فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٣ عندما صور لنا كيف نبتت فكرة الثورة فى أذهان الضباط الأحرار. يقول :

« ١٩٣٨ . . .

فى منقباد . . .

فى هذه البيئة المصرية الخالصة ، حيث يشعر المصرى ، بعناصره العريقة تملأ كيانه وتسيطر عليه . .

وفى الشتاء . . حين يقسو الجو ، وتتمرد العواصف ، فتزداد الروابط بين الأصدقاء ، يقاومون بها قسوة الطبيعة وينتصرون بها على عواء الرياح . . .

هناك حول نار فى معسكر المناورات بتباب الشريف ، كنا نقضى طرفاً من كل ليلة . . أصدقاء ، كلهم صغار السن ، صغار المناصب ، كبار الآمال وافر والشباب . .

ضباط لم تزد رتبة أحدنا عن الملازم ثان . . نحترق طول النهار فى مناورات طويلة ، ونعود إلى الخيام آخر اليوم

نضوء النار فى الجبل ، فكأنما الجبل مرآة تعكس نار القلوب . . !

وكانت فى القلوب نار . . نار لا تنطفئ لأن وقودها يتجدد فى كل لحظة من إحساساتنا الشابة المرهفة. . . ومما يقع أمام أعيننا كل يوم من الصباح إلى المساء . .

كانت آمالنا الكبيرة ، وعزة شبابنا تصطدم كل يوم بعدد كبير من الأحداث . . .

فقد كنا ضباطاً صغاراً . . .

وكان لنا قواد . . .

وكان هناك أيضاً . . إنجليز . . !

وكان قوادنا المصريون لا عمل لهم إلا إذلالنا . . وإلا الانحناء أمام الإنجليز . . .

وكنا نرى هذا الوضع الكريه ، فنحترق . . ونسخط . . ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلم . . .

وماذا يستطيع ملازم ثان أن يفعل فى داخل النظام العسكرى ، وفى تلك الأوضاع الرهيبة إلا أن يسكت ، ويكظم الغيظ ، ويدفن النار فى حشاه . . .

هكذا كانت أيامنا . . .

ولكن ليالينا كانت تختلف اختلافاً كبيراً . فى جو من الصداقة والألفة ، كنا نجلس فنمرح ، ونذيب فى هذا المرح ، شقاء اليوم الطويل . . شقاء الجسد ، وشقاء النفس ، وشقاء الغربة فى جبل بعيد . . .»

ثم يقودنا السادات لمشاهدة البانوراما العريضة بما تحويه من جنود الاحتلال الذين يزحمون بلادنا ، وطائراتهم التى تجثم على صدور مطاراتنا وتنطلق منها إلى الميادين القريبة الحافلة بالموت . . ودباباتهم تختال فى شوارعنا ومن فوقها جنود حمر الوجوه . . ومخازن ذخيرتهم ترصع أرجاء الوادى بالبارود والقنابل وأسلحة الدمار . وكانت أرضنا فوق ذلك حقلا كبيراً يشرب حبات العرق من جباه آبائنا وإخوتنا ليخرجها قمحاً للغاصبين . . ثم يلخص السادات الموقف فى ضربة فرشاة واحدة عندما يقول : « ماض كله حسرات ، ومستقبل كله مخاوف ، وحرب قائمة لا بد أن نصلاها » .

والعجيب أن السادات عندما يروى الأحداث التى وقعت بالفعل يصبغها بالصبغة الروائية التى تحمل عناصر التشويق والإثارة والتوقع ، فى حين يحرص الروائيون المحترفون على صبغ أحداثهم ومواقفهم وشخصياتهم الخيالية بالصبغة الواقعية . ولكننا نجد أن الهدف واحد رغم اختلاف الوسيلة ، إنه منح القارئ عنصرى المتعة والتعليم فى الوقت نفسه . فعلى صفحات « الجمهورية » فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥٣ يقدم السادات قطعة نابضة من تاريخ مصر أثناء الحرب العالمية الثانية من خلال السرد الروائى والدرامى البحت الذى يبدو وكأنه كتب بقلم روائى محترف له باع طويل فى هذا الفن . فيحكى لنا كيف وقع الألمانيان ساندى وابلر فى قبضة المخابرات البريطانية بسبب فشلهما فى القيام بمهمتهما فى العمل ضد جنود الحلفاء وخاصة البريطانيين الجاثمين على صدر مصر . إنها لوحة تشكيلية درامية زاخرة بالحيوية والحركة والألوان والصراع والتشويق والحوار المقنع فنيًّا وواقعيًّا . ولذلك آثرنا أن نقدم اللوحة بكامل أبعادها حتى يستمتع القارئ بنموذج واقعى من التكنيك الروائى الذى أغرم به قلم السادات :

« كان ساندى شأن أكثر الألمان ولوعاً بالموسيقى الكلاسيكية الأوربية . . ولم يكن ابلر كذلك ، فقد كان على النقيض منه لا يحب إلا موسيقى الجاز . . تمتزج طرقاتها العنيفة بالخمر التى تدور برأسه ، فتحيله كائناً عجيباً ، نصفه إنسان ، ونصفه حيوان . . !

وفى إحدى الأمسيات ، جلس ساندى فى عوامة الراقصة حكمت فهمى ، يستمع إلى موسيقى (شهر زاد)

للموسيقار الروسى ريمسكى كورساكوف . . وكان ابلر مغيظاً محنقاً ، يحاول إغراء صديقه للقيام معه إلى موعد حافل ضربه مع بعض الغوانى فى ملهى الكيت كات . . وأصر ساندى على سماع الموسيقى الخالدة حتى نهايتها ، فوضع أمامه كأساً من الخمر ، وأخذ يسمع ويحلم ، ويتمثل فى خياله آخر مرة شاهد فيها هذا الباليه على مسرح من مسارح برلين . ورويداً رويداً اندمج ابلر معه فى الاستماع إلى الموسيقى . ولكنه لم يسلم نفسه لأنغام الموسيقى بقدر ما أسلم نفسه لهمسات شيطان أخذ يراوده . . وفجأة صاح بصديقه صيحة مخمورة :

– ما كان أسعده هذا الملك . . شهريار . .

وضحك ساندى وهو مسترسل فى أحلامه وقال :

– كان يأتى كل ليلة بعذراء طاهرة . . يبيت معها ليلته ثم يذبحها فى الصباح .

وصاح ابلر والخمر فى رأسه :

– هكذا الحياة . . ماذا ينقصنا نحن ، لنكون مثله ! ؟ أنا شهريار الثانى ، وأنت شهريار الثالث . . ألسنا فى بلاد ألف ليلة وليلة ؟ ! !

وغمز ساندى بعينه :

– أكنت تقرأ مثلى قصص ألف ليلة وليلة أيام الشباب . .

فأجاب ابلر :

– لقد كدت أطرد من المدرسة وأنا أقرؤها يوماً فقد كانت معى الترجمة الحقيقية لها ، بكل ما فيها من كلام لذيذ ! !

وسأله ساندى بخبث :

– وهل تحب أن تذبح النساء . .

فأجاب ابلر :

– ولماذا أذبحهن . . أعطيهن مالا . . مالا من البنك الأهلى . . كم يكون لذيذاً أن تعيش كل ليلة فى أحضان عذراء !

وانتهت الموسيقى وخرج العربيدان إلى الكيت كات يقضيان سهرتهما . . ولكن خيال ألف ليلة وليلة لم يبرح ذهن ابلر وساندى فى تلك الليلة . . فكانا كلما سكتت الموسيقى رفعا عقيرتهما بألحان شهرزاد ، فتضج القاعة بالضحك على هذين (الإنجليزيين) – كما كانت تظن الراقصة ! – اللذين ذهب بعقلهما الشراب . .

ولم تمر الليلة على خير . فقد أسر ابلر بأحلامه الحيوانية إلى إحدى صديقاته . . فضحكت الصديقة بخبث ودخلت معه فى مفاوضات ، أصبح ابلر بعدها شهريار الثانى ، وأصبح ساندى شهريار الثالث أيضاً . . وبدأت العوامة تستقبل كل صباح فتاتين جديدتين من بائعات الهوى ، فى ثياب كثياب الطالبات . . يدخلان على استحياء . . ويخرجان وقد امتلأت حقيبة كل منهما بمائتى جنيه ! ! اخذتاهما من الرجلين باعتبارهما من العذارى ! !

واشتهر أمر ابلر وساندى بين مجموعة من فتيات اليهود ، اللواتى كن يقمن بهذه التمثيلية العاطفية الفذة ، حتى كان يوم السبت السابق للقبض عليهما . . وكانت فى العوامة يهوديتان جاءتا لتمثل كل منهما دور عروس من عذارى شهريار . . وانتهى التمثيل . . والرجلان فى نشوة بالغة ، من السكر الشديد ، والخيال المطلق . . وتهيأت الفتاتان للخروج . . ثم وقفتا فى انتظار الأربعمائة جنيه . . ودخل ابلر إلى غرفته ، ليأتى بالنقود ، ولكنه لم يجد سوى سبعين جنيهاً فقط ، هى كل ما لديه من أوراق مالية مصرية . . ومد ابلر يده بالنقود إلى إحداهما فأخذتها ،